يقدم هذا الكتاب توضيحًا مفصلًا عن علم الاجتماع النظري في محاولة علمية لتفسير القوى الأساسية التي تشكل عالمنا الاجتماعي، من منطلق اثنى عشر نظرية ، مع مقارنة مثيرة للربط بين النظريات الكلاسيكية وتأثيرها على النظريات المعاصرة، موضح فيه ما يتبناه كل توجه نظري لفهم ذلك الواقع الاجتماعي بالأمثلة والتطبيق العلمي. إضافة الى اعطاء تصور واضح قادر على التحليل والتفسير لما يطرأ على حركة المجتمعات من تغيرات قد يؤثر على بنائها في تطورها، بدءا من الأشكال البسيطة إلى المعقدة. فقد تمكن العالم جوناثان هـ. تيرنر من الربط بين تلك النظريات الكبرى بقراءة متمعنه وقدرة على فهم التنظير بأسلوب سلس يعكسه هذا الكتاب.



https://ksupress.ksu.edu.sa


ISBN 978-603-507-756-9

علم الاجتماع النظري
مقدمة موجزة لاثنتي عشرة نظرية اجتماعية
تأليف Jonathan H. Turner
ترجمة د. موضي مطني الشمري

١٤٤٠هـ
2019

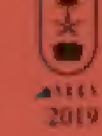
علم الاجتماع النظري

مقدمة موجزة لاثنتي عشرة نظرية اجتماعية

تأليف
Jonathan H. Turner
ترجمة
د. موضي مطني الشمري









علم الاجتماع النظري

مقدمة موجزة لاثنتي عشرة نظرية اجتماعية

تأليف

Jonathan H. Turner

ترجمة

د. موضي مطني الشمري

استاذ علم الاجتماع المشارك – قسم الدراسات الاجتماعية

كلية الآداب – جامعة الملك سعود



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

تيرنر، جوناثان أتش

علم الاجتماع النظري: مقدمة موجزة لاثنتي عشرة نظرية اجتماعية ./ جوناثان أتش تيرنر ؛ موضى مطني الشمري.- الرياض، ١٤٤٠هـ

٤٣٣ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٩-٧٥٦-٥٠٧-٦٠٣-٩٧٨

١- علم الاجتماع . أ. الشمري، موضي مطني (مترجم). ب. العنوان

ديوي ٣٠١ ١٤٤٠/٩٦٩٦

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٩٦٩٦

ردمك : ٩-٧٥٦-٥٠٧-٦٠٣-٩٧٨

هذه ترجمة عربية محكمة صادرة عن مركز الترجمة بالجامعة لكتاب:

Theoretical Sociology: A Concise Introdution to Twelve Sociological Theories.
By: Jonathan H. Turner.
SAGE publications, 2014

وقد وافق المجلس العلمي على نشرها في اجتماعه الثالث عشر للعام الدراسي ١٤٣٩/ ١٤٤٠هـ المعقود بتاريخ ٦/ ٦/ ١٤٤٠هـ الموافق ١١/ ٢/ ٢٠١٩م.



شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

يسرني أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى كل من قدّم لي دعما وساندني لإنجاز ترجمة هذا الكتاب.

وأخص بالشكر مركز الترجمة بجامعة الملك سعود؛ لما قدمه ويقدمه لنا من تشجيع ودعم كأعضاء هيئة التدريس في مجال الترجمة.

والشكر موصول لمعالي مدير جامعة الملك سعود ووكيل الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي؛ لتسهيل مهمتنا لإنجاز مؤلفاتنا وبحوثنا ا العلمية.

مقدمة المترجمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن ترجمة كتاب التنظير لعلم الاجتماع من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية؛ ليس بالأمر السهل؛ إذ يبرز دور الاجتهادات النظرية في علم الاجتماع منذ بدايتها، وإسهامات علماء الاجتماع في هذا المجال؛ ولذا فقد أوليت كتاب علم الاجتماع النظري هذا اهتماما بالغا ودقة كبيرة في هذه الترجمة؛ حيث يعد من الكتب المهمة والنادرة لإبراز التكامل بين نظريات علم الاجتماع وتطورها. كما اهتم هذا الكتاب بعرض أهم نظريات المنظرين لعلم الاجتماع وتعاقبها الزمني من منطلق علمي؛ لإعطاء تصور تحليلي عن الواقع الاجتماعي بموضوعية، علاوة على أهميته في التوسع المتكامل في مجال النظريات المعرفية العلمية المتعلقة بحقل علم الاجتماع، وأثرها الفاعل في إدراك العوامل الاجتماعية والإنسانية وتحليلها من منطلق تنظيري تحليلي قد لا يخلو من جدل علمي منطقي يكتنفه نوع من التقارب أو التباعد لوجهات نظر هؤلاء العلماء من منطلق توجهاتهم العلمية.

ومن هذا المنطلق لا يمكن دراسة علم الاجتماع دراسة متكاملة دون التركيز على دراسة النظريات التي يعتمد عليها في تحليله لنتائج البحث العلمي، وما يطبقه من دراسات لحل المشكلات والقضايا الاجتماعية المعاصرة؛ ولذا فإن تلك النظريات تعمل على التفسير والتحليل، آخذة في الحسبان فهم الواقع الاجتماعي دون تحيز. فضلًا عن أن ترجمة كتاب التنظير في علم الاجتماع يعدُّ قيمة علمية؛ لأنه يخدم مجال التنظير في علم الاجتماع بوصفه أحد تخصصاته وأحد فروعه المهمة؛ ولذا فإن هذا الكتاب محاولة جادّة لإبراز أهمية هذا العلم، والوقوف على ما توصل إليه علماء

الاجتماع الغربيون؛ بهدف إثراء عقول المختصين في هذا المجال والمهتمين به من طلبة العلم وأساتذته.

ولتحقيق الأهداف المرجوّة منه؛ فقد قسمت أجزاءه إلى: مقدمة للمترجم، وتعريف بالمؤلف، مع نبذة مختصرة عنه، وتضمن الكتاب اثني عشر فصلا منها؛ الفصل الأول نظريات علم الاجتماع المعاصرة، ثم تلاه الفصل الثّاني النظرية الوظيفية، في حين ناقش الفصل الثالث نظرية الصراع، أما الفصل الرابع فقد ناقش التنظير البيئي، وركز الفصل الخامس على النظرية التبادلية، ثم عرض الفصل السادس نظرية التفاعل الرمزي، في حين اشتمل الفصل السابع على التنظير المسرحي التمثيلي، أما الفصل الثامن فخُصص لعرض النظرية البنائية، في حين أُفرد الفصل التاسع للحديث عن التنظير الثقافي، وتعرض الفصل العاشر لمرحلة التنظير النقدي في عصر الحداثة وما بعد الحداثة، أما الفصل الحادي عشر فعرض أنموذجًا مرحليًا للتنظير التطوري، وعرض الفصل الثاني عشر كونه الأخير- التنظير التطوري المستوحى من علم الأحياء. وتأمل مترجمة هذا الكتاب أن يكون استكمالًا لعدد من المؤلّفات العلمية الّتي أصدرتها، ويكون خير عونٍ للمختصّين وأساتذة علم الاجتماع والنظريات في هذا المجال، وطلاب العلم وطالباته لجميع المراحل والتخصصات العلمية من البكالوريوس والدراسات العليا، وأن تعم الفائدة جميع الزّملاء والزّميلات والمختصين في علم الاجتماع، كما تأمل المترجمة أن تكون مادة هذا الكتاب علمية قيمة وإضافة جديدة لترجمة النظريات الغربية في علم الاجتماع إلى اللغة العربية؛ ولكونها مهمة في علم الاجتماع لكل من القارئ والباحث في هذا التخصص، ولسد النقص في المكتبة العربية على مستوى الوطن العربي عموما، والمملكة العربية السعودية خصوصا. وأسأل الله أن يوفّقنا جميعًا إلى خدمة العلم، وإفادة الشباب والمختصين في هذا المجال، حيث يقع على عاتقهم العبء الأكبر في تحقيق النّمو والتقدّم لمملكتنا الغالية.

والله ولي التوفيق

المترجمة

إهداء

في ذكرى صديقتي العزيزة، كلارا دين (Clara Dean)، التي بدأت في عام ١٩٦٩ بكتابة كل ما لدي من المخطوطات، التي تقاعدت عن الكتابة في سن ٨٥، في عام ٢٠١٠م، إلا أنها توفيت في عام ٢٠١٢م،.فسوف أكون ممتنا للأبد لصداقتها وكفاءتها المذهلة لأكثر من أربعين عاماً لتجهيز مخطوطاتي للنشر.

المؤلف

للحصول على معلومات:
شركة سيج للمطبوعات
2455 الصراف الطريق
ألف أوكس، كاليفورنيا 91320
البريد الإلكتروني:
order@sagepub.com

منشورات سيج المحدودة
أليفرس يارد ١
شارع المدينة ٥٥
لندن EG1Y 1SP
المملكة المتحدة

سيج الهندية المحدودة للمطبوعات.
موهان التعاونية المنطقة الصناعية1 B 1 / I ماثورا
الطريق، نيودلهي 044110 الهند
سيج للمطبوعات -آسيا والمحيط الهادئ بي تي. المحدودة.
شارع الكنيسة 3
سامسونج المحور 04-110 #
سنغافورة 049483

محرر الإنجازات: ديان مك دانيل
(Diane Mc Daniel)
مساعد التحرير: لورين جونسون
محرر الإنتاج: إريك جارنر(Eric Garner)
نسخة المحرر:لانا تودوروفيتش-أرندت
(Lana Todorovic-Arndt)

الطباع س/ م الرقميه المحدوده (ف) :
C & M Digitals
المدقق لغوي: جنيفر جريت
المفهرس: تايلور، خدمات النشر.

وشركة مصمم الغلاف: غيل بوتشمان
(Gail Buschman)
مدير التسويق: إريكا دلوكا(Erica DeLuca)

طبع في الولايات المتحدة الأمريكية:
مكتبة الكونغرس نسخة مطبوعة في بيانات النشر
سجل فهرس هذا الكتاب متاح من مكتبة الكونغرس
9781452203478
طبع هذا الكتاب على
13141516171098765 4321

نبذة عن المؤلف

جوناثان ه. تيرنر (Jonathan H. Turner) دكتوراه، جامعة كورنيل(PhD, Cornell University) وأستاذ متميز في علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا، ريفر سايد، وأستاذ جامعي في جامعة كاليفورنيا. وهو صاحب الاختصاص الرائد في النظرية الاجتماعية، ومؤلف لثمانية وثلاثين كتابا مؤثرا، تم نشرهم في اثنتي عشرة لغة مختلفة، فضلا عن تأليف العديد من المقالات والبحوث في العديد من المجلات والكتب.

مقدمة المؤلف

من المدهش أن هناك إجماعا ضئيلا بين عدد من علماء الاجتماع حول ماهية النظرية وما يفترض أن تسهم فيه للتحليل الاجتماعي. فبالنسبة للبعض، فإن النظرية تمثل الطريقة التي يفسر العلم بها العالم التجريبي، أما بالنسبة للآخرين فإنما هي مجرد منظور توجيهي يمكن استخدامه لوصف الأحداث. ولا يزال البعض الآخر يرى أن تكون النظرية معيارية داعية للترتيبات الاجتماعية التي تقلل من الظلم وعدم المساواة. وقد كانت كل هذه الآراء حول النظرية موجودة منذ بدايات علم الاجتماع، ويمكن أن تصبح الحجج والمناقشات بين تلك الآراء على أقل تقدير مثيرة للجدل. كما أنه من الصعب معرفة من أين نبدأ وننتهي في ضوء هذا الجدل. ولقد تجنبت الخوض في الجدل من خلال تحديد اتجاهات متنوعة في غضون اثنتي عشرة نظرية نقدية واسعة النطاق. فيجد البعض أن التفسير العلمي هو النظرية السائدة، في حين تسود رؤية أكثر وصفية عند البعض الآخر، وفي عدد قليل يمكن العثور على اثنتين أو كل الرؤى الثلاثة من نظرية ما يمكن أن يكون موجودا، وفي حالات أخرى لا تزال الرؤية النقدية تهيمن على دور التنظير. وهناك رؤى لعدد قليل لما يجب أن تكون عليه النظرية. وكنت متحيزا نحو التنظير العلمي، حيث القوانين والنماذج المجردة التي تشرح كيفية عمل الحياة الاجتماعيه مفصلة. ومع ذلك، فقد قمت بتغطية عادلة للمذاهب البديلة -شئنا أم أبينا- فهي جزء مما يسمى اليوم بالنظرية الاجتماعية. وقد كتبت العديد من الكتب الطويلة حول النظرية، ولكن حاولت تقديم شيء مختلف هنا، على الأقل بالنسبة لي حيث كتبت كتابا قصيرا، وإن كان لا يزال شاملا، ولكن هذا يسلط الضوء على العناصر الرئيسة من منظور نظري معين لبعض واضعي النظريات المهمة الذين يعملون ضمن هذا المنظور.

وكان الهدف هو إيجاد كتيب يضم كثيرًا من المعلومات في مساحة صغيرة، لا سيما بالمقارنة مع الكتب الكبيرة الأخرى عن النظريات التي كنت قد كتبت عنها في الماضي. لذلك؛ آمل أن يكون كتابي هذا مفيدًا في العديد من الطرق المختلفة؛ مثل مقدمة موجزة لمجموعة من النظريات في علم الاجتماع، ومرجع مناسب من الناحية النظرية للمهتمين بالتنظير الاجتماعي؛ كمصدر للمعلمين، ودليل سريع لأولئك الذين لا يعرفون الكثير عن النظرية الاجتماعية.

لقد كان من الممتع أن أكتب هذا الكتاب، علاوةً على التركيز على مجلدات نظريات علم الاجتماع، ولكن بطريقة لا تزال قوية مختصرة.

جوناثان تيرنر (Jonathan Turner Murrieta)

موريتا، كاليفورنيا الولايات المتحدة الأمريكية.

المحتويات المختصرة

الصفحة

المحتويات المفصلة

الفصل الثاني: التنظير الوظيفي

الفصل الثالث: تنظير الصراع

الفصل الرابع: التنظير البيئي

الفصل الخامس: التنظير التبادلي

الفصل السادس: التنظير التفاعلي الرمزي

الفصل السابع: تنظير التمثيل المسرحي

الفصل الثامن: التنظير البنائي

الفصل التاسع: التنظير الثقافي

الفصل العاشر: التنظير النقدي في عصر الحداثة وما بعد الحداثة

الفصل الحادي عشر: نموذج مرحلة التنظير التطوري

الفصل الثاني عشر: التنظير التطوري المستوحى بيولوجيا من علم الأحياء

الفصل الأول

علم الاجتماع النظري اليوم
THEORETICAL SOCIOLOGY TODAY

الجدل حول ما يمكن أن يكون علم الاجتماع النظري، أو ما ينبغي أن يكون
Controversy Over What Theoretical Sociology Can or Should Be

ظهر علم الاجتماع بوصفه علمًا واضحًا في أوائل (١٨٠٠s م)، على الرغم من أن الناس كانوا يفكرون دائمًا في الكون من حولهم، المتضمن عالمهم الاجتماعي الخاص بهم. وكان أوجست كونت (Auguste comte)[1] مؤسس علم الاجتماع قد فضل اسم (علم الفيزياء الاجتماعية) للتخصص الجديد؛ لأنه خلال فترة وجوده لم يستخدم مفهوم (الفيزياء) كما هو في الأنظمة الحديثة اليوم ؛ فكانت الفيزياء آنذاك تعني "دراسة الطبيعة"، وفي الصدارة من العلوم الأخرى، وكان على الفيزياء الاجتماعية أن تصبح علمًا مكرسًا لدراسة طبيعة سلوكيات العالم الاجتماعي، والتفاعل، وأنماط التنظيم الاجتماعي، وتم تطوير التفسير الكونتي لهذا العلم من خلال النظرية. وهكذا كانت النظرية الاجتماعية تعد الوسيلة التي يمكن من خلالها فهم تفسيرات الطبيعة الاجتماعية ، كما كان من المفترض أن تقدم تفسيرات للكون الاجتماعي كما هو الحال في علم الفيزياء وعلم الأحياء.

---

(١) أوجست كونت، الفلسفة الوضعية لأوجست كونت، ثلاثة مجلدات. تجميع وترجمة ه. مارتينو (لندن: جورج بيل، سونز، ١٨٩٦م، منشورة في الأصل في شكل متسلسل باللغة الفرنسي بين ١٨٣٠ و ١٨٤٢م).
(London: George Be 11 and Sons, 1896,originally published in serial form in French between 1830 and 1842)

وبما أن تسمية "الفيزياء الاجتماعية" قد استُخدمت بالفعل من قِبل إحصائي بلجيكي، كان على كونت أن يتبنى تسمية لاتينية-يونانية "هايبرد" لعلم الاجتماع، وهو اسم لم يعجبه؛ ولكن عليه أن يقبل. ومنذ البداية كان رأي علم الاجتماع كعلم تفسيري مثل أي علم طبيعي يكون موضع تساؤل من قِبل الكثير. وما يزال حتى اليوم هناك العديد لا يعتقد أن علم الاجتماع يمكن أن يكون أحد العلوم الطبيعية. وبالتالي لن يستطيع علم الاجتماع النظري أن يقدم تفسيرات مثل تلك الموجودة في العلوم الطبيعية الصعبة. وبالنسبة لهؤلاء النقاد؛ فإن البشر لديهم القدرة على تغيير طبيعة عالمهم؛

ولذا فإنه من الصعب إيجاد قوانين علمية حول الدينامية الاجتماعية مثل تلك الموجودة في كلٍّ من علم الفيزياء أو علم الأحياء. وفضلًا عن هذا فإن معظم ما يحدث في التاريخ قد يكون من خلال أحداث مصادفة متقاربة لا يمكن التنبؤ بنتائجها. وبناءً على ذلك، فإن النظرية الاجتماعية يمكن أن تصف أو تفسر فترة معينة ، وعندما يغير هذا الكون

خصائصه الأساسية، يجب على النظريات القديمة أن تفسح المجال لنظريات جديدة، تلك التي ستصبح في النهاية غير مناسبة مع إعادة بناء البشر لعالمهم.

وبالنسبة للآخرين؛ يجب أن يقدِّم علم الاجتماع النظري مفاهيم اجتماعية تسمح لعلماء الاجتماع بوصف العمليات الاجتماعية المهمة -على الأقل لبعض الوقت- حتى تتغير هذه العمليات بشكلٍ أساسي. فعلم الاجتماع في جوهره يسعى ليقدم مجموعة من الرؤى التي يمكنها رؤية الواقع الاجتماعي، والاهتمام المتكافئ لفهم هذه الحقيقة في وقتٍ ومكانٍ محددين.

وهناك العديد من وجهات النظر حول ما يمكن أن يكون علم الاجتماع النظري أو ما ينبغي أن يكون. نظرًا لعدم وجود توافق في الآراء -وفي الحقيقة هناك بالفعل عداء صريح بين المواجهات المعرفية- ويصبح من الصعب معرفة ما يجب تضمينه في كتاب حول النظرية العلمية ، ولكني سوف أكون مخطئًا إذا ما افترضت أن كل الآخرين يشعرون بالطريقة نفسها. ونتيجة لذلك؛ كتبت هذا الكتاب للتأكيد على أن لعلم الاجتماع النظري مجموعة من الوجهات النظرية، فالبعض يراها علمية، في حين يراها آخرون أقل من ذلك. ويراها بعضهم وصفية، وآخرون يرونها تفسيرية، ومنهم من يراها نقدية، ويراها آخرون ذات قيمة محايدة تم تطويرها على مدار القرنين الماضيين من التنظير

الاجتماعي. ولقد بذلت ما في وسعي في تقريب وجهات النظر هذه بإنصاف وتفصيل أكثر بما تسمح به طبيعة هذا الكتاب القصير.[٢]

بالنسبة لكل منظور فإنني أسعى أولًا إلى فحص أصوله في علم الاجتماع الكلاسيكي، ثم أراجع بناءها الأساسي، ومسار الحجج والنقاش، وفي النهاية، سوف أعرض نماذج عن الاختلافات في كيفية استخدام النظريات لوجهات نظرية محددة وموجهة. وهكذا أسعى إلى وضع قدر كبير من المادة العلمية في عدد قليل من الصفحات. ولكن ليس إلى درجةٍ تجعل الكتاب مكثفًا، ولكن بعرضِه في إيجاز .

تجاوز قانون الأعداد الصغيرة

Violating the Law of Small Numbers

اشتمل هذا الكتاب على اثني عشرَ فصلًا يعرضُ العديد من المذاهب النظرية المميزة التي يمكن أن تكون صحيحة. والحقيقة أن هناك تنوعًا في هذه الوجهات النظرية التي تكون مختلفة إلى حد ما، ونتيجة ذلك. أن الأعداد

التي تم فحصها لوجهات النظر في علم الاجتماع كانت أكبر بكثير من الاثني عشر المذكورة في العنوان الفرعي لهذا الكتاب، ولكن هذا ما تفرضه مشكلة الأعداد الصغيرة. ويمكن لأي حقل فكري أن يحتوي على أقل من سبعة منظورات رئيسة يمكن أن يستوعبها الجميع [٣]، حتى عندما نذهب إلى ما هو أبعد من سبعة يصبح المنظور الفكري أكثر تعقيدًا؛ نظرًا لكبر حجم المعلومات المعرفية مع اختلاف وجهات النظر المميزة. لذلك منذ البداية ونحن عند اثنتي عشرة وجهة نظرية، ولكننا نرى أحيانًا الاختلافات الدراماتيكية في وجهة النظر أكثر بكثير من ذلك. ولقد ضاعفنا العدد الإجمالي للاتجاهات المعرفية في علم الاجتماع النظري.

---

(٢) ولقد كتبت أيضًا استعراضات مفصلة للغاية لعلم الاجتماع النظري. انظر -على سبيل المثال-: جوناثان ه. تيرنر ، النظرية الاجتماعية المعاصرة (ثاوساند اوكز، كاليفورنيا :ساج ، ٢٠١٢)، وعلم الاجتماع النظري: ١٨٣٠م حتى الوقت الحاضر (ثاوساند أوكز، كاليفورنيا :ساج ، ٢٠١٢م). (Thousand Oaks, CA: Sage, 2012).

(٣) Randall Collins, The Sociology of Philosophies (Cambridge MA: Harvard University Press, 1998).

على الرغم من وجود العديد من الاختلافات كما سنرى من الاتجاهات الاثنتي عشرة الرئيسة المشار إليها في الفصول القادمة. كما أن بعض الاتجاهات النظرية المفحوصة في هذه الفصول ربما لا تكون أساسية عند البعض، في حين تبدو -بوضوح- أنها كذلك عند آخرين؛ لأن بعض الاتجاهات أكثر انتشارًا من الأخرى، حتى عند عدد قليل من الاتجاهات المستخدمة من بين أقدم الوجهات النظرية لعلم الاجتماع، أو بطريقة بديلة. وتُعد -من قِبل بعض وجهات النظر الحديثة- أنها تصبح بارزة بشكل متزايد في العقود القادمة. ولذلك فقد قدمت بعض الأحكام لما اعتُقد أنها أكثر بروزًا اليوم، وبإمكان البعض الآخر أن يقوم بعمل ما قد يكون مختلفًا، ولكن في النهاية فأنا لا أعتقد أن ما سنقوم به سيكون مختلفًا؛ لأنه على الرغم من التعقيد في علم الاجتماع النظري؛ فإن هناك مجموعة من الاتجاهات المستمرة في الهيمنة على هذا المجال.

وقد أدرَجت نصوصًا لكتب عديدة من وجهات نظر كانت ناقدة؛ لأني عندما نظرت في هذا المجال في الستينيات من القرن الماضي في عام (١٩٦٠م)، وجدت أن القليل من الاتجاهات فعلًا كانت مهيمنة. وما يزال لدى النصوص الكثير من التفاصيل التاريخية، وعندما كتبت نصي الأول في النظرية الاجتماعية قمت بتلخيص عدد من النظريات الحديثة إلى أربعة اتجاهات أساسية[٤]، هي: النظرية الوظيفية، نظرية الصراع، نظرية التبادل، والنظرية التفاعلية. ويمكن للفرد أن يجد أيضًا أن هذه القائمة تضم وصف تقديم لبعض نظريات علم الاجتماع الحديث، وقد اخترت الاتجاهات الأكثر هيمنة في هذا المجال، والتي تبدو على خلاف واضح في وجهات النظر، كما أضفت بعض الوجهات التي تضمنته؛ حيث كان العدد الفعلي للمذاهب أكبر مما هو عليه الآن منذ أكثر من أربعين عامًا، باسم بناء النظرية الاجتماعية، وما

الذي تغير في نظريات علم الاجتماع، وما تم الاجماع عليه حول ماهي النظرية التي يمكن أن تكون، أو ما يجب أن تكون عليه، متزامنًا مع التحول إلى الاتجاهات التي قد أُهملت.

ومن دون الاتفاق -بالإجماع- على النظريات المعرفية، فإن معيار العلم لم يعد من الممكن استخدامه لفرز وجهات النظر السائدة. وبالإضافة إلى ذلك، فإن ظهور بعض الاتجاهات النظرية

---

(٤) جوناثان هـ تيرنر ، بناء النظرية الاجتماعية (هوموود، إلينوي: دورسي للنشر ١٩٧٤م) (Homewood, IL: Dorsey Pre 1974)
كانت هناك سبع طبعات من هذا الكتاب ، نشر معظمها من قبل وادزورث للنشر عندما تم نسخ الكتاب في عام ٢٠١٢م).

القديمة كالنظرية التطورية، وكذلك ازدياد ظهور عدد من الاتجاهات النظرية، إضافةً إلى التباينات في وجهات النظر. كل ذلك أسهم في أن وجد علم الاجتماع نفسه عائدًا إلى حيث بدأ في الستينيات في عام (١٩٦٠م)؛ ولذا فقد حاولت جاهدًا أن أفعل ما في وسعي لتحجيم هذا التنوع دون إجهاد القارئ بالعديد من التوضيحات. حيث إن هدف هذا الكتاب أن يكون موجزًا ليقدم لمحة عامة عن علم الاجتماع النظري كما هو ممارس حاليًّا في التخصص.

القضايا التي يجب أن يحلها جميع المنظِّرين بأنفسهم
Issues That All Theorists Must Resolve for Themselves

غالبًا ماكنت مستغربًا طوال العقود الخمسة الماضية من الخلافات أو السجالات في علم الاجتماع النظري، فالنقاش يمكن أن يكون شديدًا بين الخصوم، ولكن- لسوء الحظ- دارت تلك المناقشات حول النظريات المعرفية، وفي الغالب الأعم حول النظريات الأخلاقية، وربما لا تنتهي تلك المناقشات أبدًا. وسوف يشجع هذا الكتاب كل هؤلاء لقراءته، وليس للتورط في هذه القضايا التي لا يمكن أن تحل باستثناء التفضيلات الشخصية للمنظرين. ولا بدّ أن يجيب كل منظر عن أسئلة محددة، وتبعًا لتلك الإجابات سيتحدد مسار الاتجاهات النظرية المختلفة. ولكن ما الأسئلة الرئيسة؟ كما قد يوجد عدد قليل منهم قد يستغرب ذلك.

هل يمكن لعلم الاجتماع أن يكون علمًا؟
Can Sociology Be a Science?

على الأرجح هذا هو السؤال الرئيس الأكثر جوهرية، واستنادًا إلى الجواب سيختلف نوع المنظر في الاتجاه. وكانت وجهة نظري دائمًا قوية كما هي عليه اليوم، فقد كان في أيام دراستي العليا حيث كانت المناقشات كبيرة بين الطلاب حول: ماذا بإمكان علم الاجتماع ليكون علمًا كأحد العلوم الطبيعية؟ إلا أنه لم يكن لديَّ وجهات نظر قوية، ولكن توصلت عبر السنوات إلى بعض من المحاولات لجعل علم الاجتماع علمًا من العلوم الطبيعية. ولقد ذهب آخرون من زملائي إلى الطريق المعاكس لوجهة نظري؛ إلا أن معظمهم ما زالوا أصدقائي منذ أيام الدراسة رغم اختلاف وجهات نظرنا حول خصائص علم الاجتماع بوصفه علمًا طبيعيًّا للمجتمع. أما اليوم؛ ونحن في معسكرين

متضادين يمكننا أن نتعايش مع كل اختلافات الآخرين في الإيمان المعرفي، إلا أنه يجب أن يتخذ كل منظر قرارًا بشأن هذه المسألة الأساسية، حتى المبتدئ في التنظير في قراءته لصفحات هذا الكتاب سيجد نفسه محاطًا في التفكير حول هذا السؤال. وكلما كنت متمكنًا أكثر في علم الاجتماع، ونظريات علم الاجتماع النظري على وجه الخصوص، فإن هذا السؤال سيصبح أكثر عمقًا.

هل يجب أن يكون علم الاجتماع نقديًا وأخلاقيًا؟ Should Sociology Be Critical,Moral?

إن علوم الاجتماع النقدية وعلم الاجتماع العلمي غالبًا ما يُنظر إليهما على أنهما متناقضان، ولكن هذا ليس دائمًا؛ فمعظم الذين يصبحون علماء اجتماع غالبًا ما ينجذبون إلى قاعدة تخصص ما؛ لأنها تدرس المشكلات في المجتمعات، التي يبدو أنها تسعى إلى عمل شيء ما حيال هذه المشكلات، ولهذا السبب كنت منجذبًا لعلم الاجتماع ولم أكن وحيدًا في الستينيات عام (١٩٦٠م) التي كانت فترة فاصلة من الاحتجاج، وإعادة تنظيم المجتمعات الغربية حول العالم، كما أن المنظرين النقديين معياريون وأخلاقيون يبحثون الظروف الصعبة، ويحللون أسبابها الجذرية وآثارها، ويطالبون بالتخلص من هذه الظروف. ويمكن للفرد أن يكون عالمًا ومتابعًا لهذا العمل تماما، كما عملت عليه لسنوات عدة في بلادي بأقل من العمل الفعلي في علم الاجتماع، ولكن التنظير النقدي يتطلب حيادية العلماء؛ حيث يكون الهدف هو الفهم بناءً على الأدلة للحكم على الظروف الاجتماعية، وغالبًا ما يجادل المنظرون النقديون حول المواقف الاجتماعية دون اتخاذ موقف حاسم وأخلاقي، والعلماء في نهاية المطاف يدعمون ضمنيًّا الوضع الراهن القمعي، وأنا لا أقبل هذا الحكم، ولكن الكثير يقبل. ولذلك عند مرحلة ما يجب أن يتخذ العلماء قرارات حول المكان الذي سوف يقف فيه واضعو النظريات النقدية والداخلية، ليكونوا علماء ذوي قيمة وبارزين. وفي بداية حياتي الوظيفية أعطيت اهتمامًا أكبر لواضعي النظرية النقدية الداخلية، لكن اليوم أحتفظ بها معبأةً في زجاجات عندما أقوم بعمل علمي تاركًا إياها خارج تحليلي العملي، ويقوم الآخرون بعمل العكس، ولا يزال الآخرون يتركون التضاد خارجًا.

ومهما كان القرار الذي يجب أن يُتخذ، ربما ليس قرارًا واعيًا كثيرًا، كما حدث معي ، ولكن كأفضلية ناشئة ؛ عندما يفضل أحد الطرفين فقط جانبًا واحدًا على الآخر. ولقد قررت في منتصف

(١٩٧٠s م) أن علم الاجتماع الخاص بي هو أفضل علم اجتماع، فضلًا عن ذلك كونُ علم الاجتماع ذا فائدة أكبر من دون أن أكون متحيزًا. ولذا فقد كرست وقتي لملاحظة كيف يعمل العالم الاجتماعي؟ دون تمرير الأحكام الاخلاقية مع هذه المعرفة ، وسأكون في وضع أفضل لاقتراح حلول قابلة لحل مشكلات العالم الحقيقي. ولكن مرة أخرى، أؤكد أن الآخرين ربما لا يقبلون ذلك ، ويرون أنه "استنساخ". ولكن النقطة المهمة تكمن في أن عليك اتخاذ القرار؛ أو أن تترك للمعارضين التناقض للتحكم في كيفية قيامك بعلم الاجتماع.

ما الاتجاه الأكثر أهمية في التحليل الاجتماعي؟

What Is the Most Important Approach to Sociological Analysis?

يُعدُّ هذا السؤال الأقل انتشارًا؛ لأن الإجابة عنه ليست ضرورية في وقت مبكر في المجال الوظيفي، ويمكن بالفعل أن يجاب عنه بطرق مختلفة في نقاط متفاوتة في المجال الوظيفي الاجتماعي. وقد بدأتها كملتزم بالتفاعلية الرمزية. انظر

(فصل٥)، وبعد ذلك تحولت أولًا إلى وجهة نظر الوظيفية في (الفصل٢)، ونظرية الصراع (الفصل٣)، ولكن عبر السنوات وجدت أن كل منظور نظري مفيد؛ ولذلك، فأنا الآن انتقائي لدرجة أنني لا أستطيع تصنيف نفسي دون أيٍّ من الفرضيات المطروحة في الفصول الآتية. هدفي هو اكتشاف كيفية تعامل العالم الاجتماعي، وأنا على استعداد لأستعير أية فكرة من أية فرضية، بحيث تسمح لي تحقيق هذا الهدف. وفي الواقع أنا أقضي معظم وقتي في دمج النظريات.

ومع ذلك لا تزال بعض الاتجاهات -بشكل نموذجي- مستحبة عن غيرها، وغالبًا ما يبقي الناس بهذا القرار المبدئي في حياتهم المهنية؛ ولذا يجب على الفرد أن يبدأ في مكان ما، متخذًا نهجًا مستحبًّا وطريقة واحدة للبداية، وقد وجدت نفسي شغوفًا تقريبًا بكل مذهب جديد تعلمته على مدى عقود من الزمن، حتى الذين لم أحبهم مبدئيًّا، ولكن بعد ذلك رأوا ميزة في ذلك، ومن خلال قراءة النظريات الواردة في هذا الكتاب فإنها قد تفضل واحدًا أو اثنين على الآخرين، وهذه بداية جيدة لتطوير واحد من الخيال السيسيولوجي.

ما مستوى التحليل الأكثر أهمية؟
What Level of Analysis Is Most Important?

إن الإجابة عن هذا السؤال مثل السؤال أعلاه: فقد تبدأ على مستوى الوحدات الصغرى من عمليات التعامل مع الآخرين، ولكن بعد ذلك سوف تنتقل أكثر إلى وحدات المستوى المتوسط أو مستوى الوحدات الكبرى للظواهر، إلا أن بعض العلماء لا يحدد أبدًا من أين بدأوا منه. على سبيل المثال، فإن بعض رواد التفاعليات الرمزية لا يبقون عند مستوى الوحدات الصغرى، أما القائمون على وضع نظريات الصراع والنظريات الوظيفية فيمكن أن يبقوا على مستوى الوحدات الكبرى. وبعد ذلك سوف يبدأ الآخرون في إدراك أننا نحتاج إلى أن نفهم كل المستويات، ولذلك، فهم يبدأون بالتنظير للواقع الاجتماعي على كل المستويات.

فالواقع الاجتماعي يتجلى في ثلاثة مستويات، هي: (١) مستوى العلاقات الشخصية وجهًا لوجه؛ و(٢) مستوى الوحدات الكبرى للمجتمعات، الأنظمة الاجتماعية المتداخلة، المؤسسات على سبيل المثال: (الاقتصاد، الأدب، القانون، الصلات الأسرية، الدين، العلم، إلخ) والطبقية؛ و(٣) والمستوى المتوسط لوحدات الشركات (المجموعات، المنظمات، المجتمعات المحلية)، ووحدات فئوية (أعضاء في تصنيفات اجتماعية مثل الطبقة (العرق، الجنس). ويرى بعضهم أن واحدة أو أخرى من هذه المستويات أكثر بدائية من الأخريات؛ بمعنى أن أحد المستويات يفهم بشكل أكبر من المستويين الآخرين. لقد أطلق على هؤلاء الذين يقومون بهذا الجدل اسم (الشوفينيين)؛ لأنهم يفترضون أن الواقع الاجتماعي يمكن فهمه فقط من خلال التركيز على مستوى الوحدات الصغرى أو مستوى الوحدات الكبرى، ويمكن أيضًا أن يتعامل الشوفينيون مع المستوى المتوسط. وأن يكون الفرد شوفينيًّا في هذا المعنى ليس سيئًا بالضرورة؛ لأنه من خلال دراسة مستوى واحد، والسعي إلى أي مدًى يمكن لأي أحد أن يفسر ذلك، فإنه غالبًا ما تعطي معلومات مهمة، على الرغم من أنني أزعم أنه عند نقطة معينة لا يمكن الحصول على فهم أعمق دون التغير بين مستويات التحليل.

اهتم علم الاجتماع في بداياته -بشكل أكبر- بالوحدات الكبرى بوصفها محاولة لفهم التحولات الكبيرة للمجتمعات التي جاءت مع الحداثة، لكنه انحاز مؤخرًا - بصورة أكثر- للتنظير للوحدات الصغرى في علم الاجتماع. ومرة أخرى، وكنقطة بداية، يحتاج الفرد إلى القفز للواقع الملموس من خلال واحد من هذه المستويات فقط ليبدأ بوصفه عالم اجتماع، لقد وجدتُ مستوى

الوحدات الصغرى مدهشًا بوصفي خريجًا جديدًا، ولكن عندما وصلت إلى الدراسات العليا، وتعرضت لعلم الاجتماع على مستوى الوحدات الكبرى، وجدت هذا المستوى رائعا ومناسبًا للواقع، ثم قضيت نصف مستقبلي الوظيفي كواضع نظريات على مستوى الوحدات الكبرى، ولكن في النصف الثاني من حياتي انغمست –إلى حدٍّ كبير– في التنظير على مستوى الوحدات الصغرى في العواطف، وعمليات العلاقات الشخصية على الأقل. لقد حاولت أن أدمج جميع المستويات الثلاثة من التنظير لنظرية عامة(٥) ومن وجهة نظري، فإن علماء الاجتماع ينبغي ألا يرفضوا أيًا من هذه المستويات الثلاثة، بغضِّ النظر عن ما هي المستويات التي تم تفضيلها في مستوًى معين، أو المستوى الآخر لفهم الواقع الاجتماعي. إن جميع المستويات الثلاثة مهمة إذا أردنا أن نفهم الواقع الاجتماعي، وأفضل النظريات تسعى إلى دمج تفسيرات عبر أكثر من مستوًى.

ولذلك فإن الإجابة عن السؤال في مستويات التحليل يمكن أن تكون أي موضوع ما دامت لا تؤدي إلى التعصب؛ ذلك لأن خبرتي بُنيت على أن أساسيات علم الاجتماع؛ تشير إلى أي مستوًى من الوحدات الصغرى كما هو مشار إليه في (الفصول ٦ –٧). ولكن مثل هذا ليس دائم الحال؛ ولذا يجب أن تحاول الإجابة عن هذا السؤال عندما تنتهي من هذا الكتاب؛ لترى أين تكمن تفضيلاتك على الأقل في الوقت الحاضر.

الخاتمة

Conclusion

يجب علينا جميعًا أن نقبل الواقع التجريبي على أن علم الاجتماع هو تخصص متنوع، وأنه أوسع العلوم الإنسانية الذي يغطي سلسلة كاملة للسلوك البشري، والتفاعل والتنظيم. وبالإضافة إلى ذلك، يجذب الناس بتوجهات مختلفة جدًا؛ لذا فإنه ينبغي أن لا يكون مستغربًا أن يناقش علماء الاجتماع كثيرًا؛ لأنهم يطورون تفضيلات مختلفة لمتطلبات المعرفة، والأخلاق، والتحقق الموضوعي للواقع الاجتماعي. ولذا تعكس هذه النظريات في هذا الكتاب اختلافات

(٥) Jonathan H. Turner, Theoretical principals of Sociology, three volumes (New York: springer,2010-2012)

وجهات نظر المنظّرين في هذا المجال، كما أن الفرضيات المختلفة الموضحة في هذه الصفحات يجب أن ينظر إليها على أنها مجموعة من العدسات لدقتها وصعوبة رؤيتها، فلكل منها رؤيا وفرضية تتفق أو تختلف مع الآخرين من علماء الاجتماع، وتحتاج -لذلك- العديد من العدسات حتى تسمح لك أن ترى أن بعض العمليات الاجتماعية قد تكون أفضل من الأخرى من منظور علمي. وقد تحتاج إلى العديد من هذه العدسات لتساعدك في الرؤيا بدقة لهذه الفرضيات؛ لكي تستطيع أن تكوّن صورة واضحة وأكثر تكاملية عن الواقع الاجتماعي. وهكذا عندما تنتهي من قراءة هذه الصفحات سوف يكون لديك صور أكثر وضوحًا لتلك الرؤيا والاتجاهات للنظريات المختلفة، وتكون أكثر إدراكًا للواقع الاجتماعي بإحساس من منطلق منظور علم الاجتماع.

الفصل الثاني

التنظير الوظيفي
FUNCTIONAL THEORIZING

بدايات الوظيفية The beginnings of functionalism

تأييد أوجست كونت Auguste Comte's Advocacy

في العقود الأولى من القرن التاسع عشر كان الوقت مناسبًا لظهور فرع جديد يلتزم بالدراسة المنظمة للعالم الاجتماعي ، وقد لوحظ في الفصل الأخير، وضع أوجست كونت اسمًا على مجموعة من التنظير حول طبيعة ديناميات الجماعة، وأطلق عليه حسب التركيبة اللاتينية اسم "علم الاجتماع" أو الدراسة الاجتماعية.[1] وقد فضَّل كونت اسم (الفيزياء الاجتماعية)، التي عنى بها لدراسة الطبيعة الأساسية للعالم الاجتماعي، ولكن كونت اكتشف أن هذا الاسم قد تم استخدامه من قبل العالم الإحصائي البلجيكي؛ ولذلك فقد اضطر إلى استخدام مسمى "علم الاجتماع".

لقد أدرك كونت أن القرن التاسع عشر سوف يكون "علم الأحياء"؛ لأن فكرة التطور كانت منتشرة في ذلك الوقت، كما أدرك أن العلوم الأكثر نجاحًا التي عُرفت في النهاية باسم (الفيزياء)، قدَّمت نموذجًا مناسبًا لكيفية صياغة النظريات، ومن الممكن أن توفر البيولوجيا تشابهًا ولفظةً وإضفاءً طول شرعية لعلم المجتمع، في حين من الممكن أن توفر الفيزياء نموذجًا لكيفية صياغة القوانين الاجتماعية، واختبارها.

---

(١) (London: George Bell and Sons. 1896 published in serial form in French between 1830 and 1842)، originally.

استخدام كونت لعلم الأحياء / البيولوجيا
Comte's Use of Biology

في محاولة لتبرير علم الاجتماع، وضع كونت تسلسلًا هرميًّا للعلوم، مناقشًا العلم الأخير والأكثر تعقيدًا الذي ظهر في الحقبة الأخيرة بأنه سيكون علم الاجتماع الذي سماه "الوضعية "، أو العلم "المنبثق"، وسيحتل مرتبة أعلى إذا ما قورن بـ(علم الأحياء)؛ ولذا لن يكون من المستغرب أن يكون علم الاجتماع على قمة التسلسل الهرمي بالنسبة للعلوم الأخرى عند اكتماله. وفي الواقع فقد أطلق كونت على علم الاجتماع "ملك العلوم"؛ حيث يرى أن علم الأحياء إذا كان يهتم بدراسة الأعضاء؛ فإن علم الاجتماع الناشئ الجديد سيهتم بدراسة الأعضاء الاجتماعية، أو تحليل أنماط بناء العلاقات بين الكائنات الحية كعضو معقد؛ لأن المجتمعات لا تُبنى على الأعضاء البشرية الفردية فقط، بل -أيضًا- بوصفها كائنًا اجتماعيًّا؛ كالأسر في المجتمعات، فهي مماثلة لوظيفة الخلايا في الكائنات البيولوجية. وقد ذهب أوجست كونت للتأكيد على أن كل الأجزاء من (الجماعات، والمنظمات، والمجتمعات، والهيئات الاجتماعية الأخرى) هي -في النهاية- هياكل كالأسرة بوصفها الجزء الأساس في المجتمعات. ولذلك؛ فإن المجتمعات بوصفها أعضاء اجتماعية يمكن تمييزها من الكائنات البيولوجية عن طريق بنائها الذي يتكون من الأعضاء الاجتماعية التي يرتبط بعضها مع بعض عن طريق الثقافة المشتركة، والسلطة السياسية.

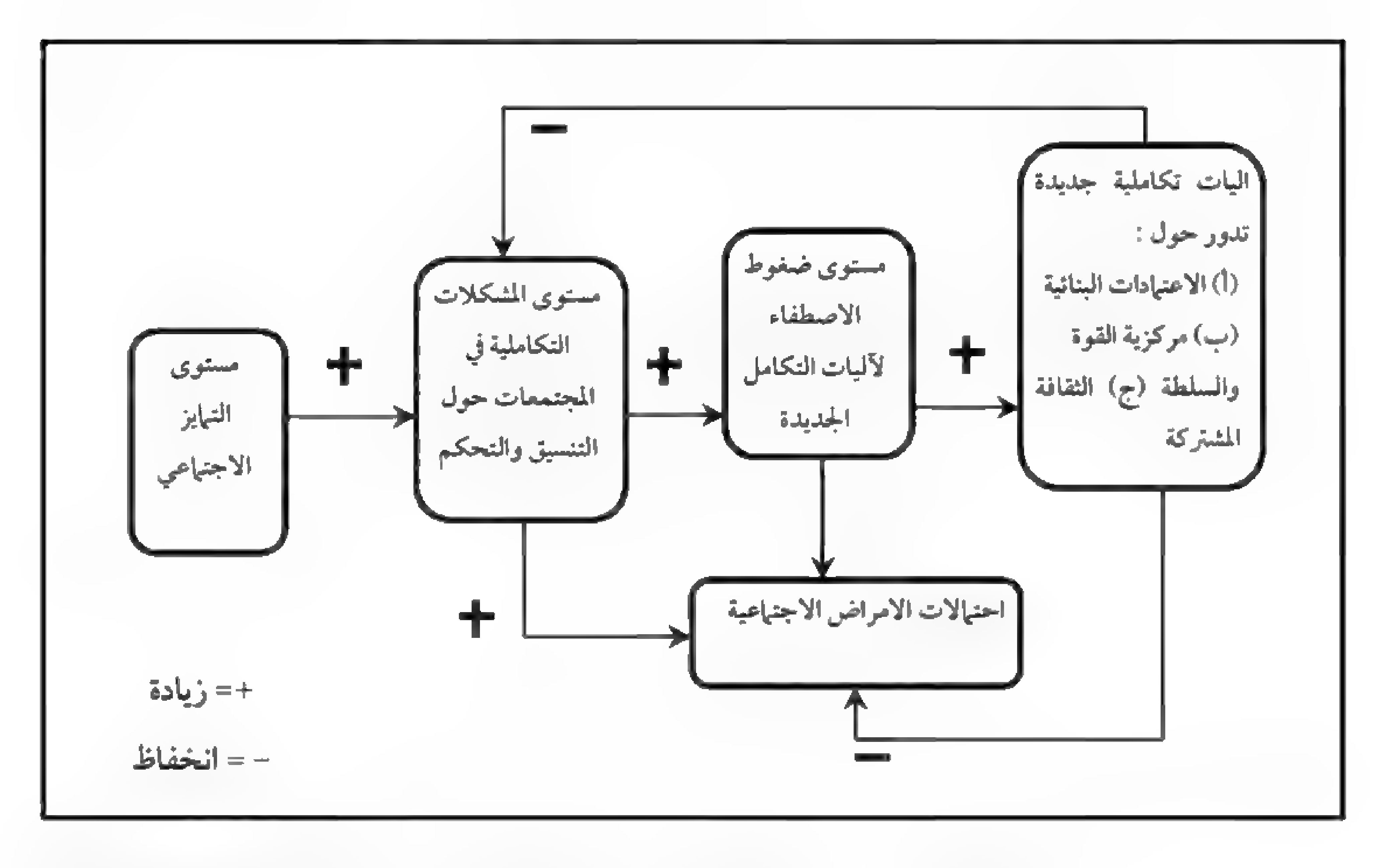
انطلاقًا من هذا التماثل العضوي شكل علم الاجتماع نظريته الأولى؛ ولذا فإن أول فرضية لنظرية علم الاجتماع كانت غير منطقية؛ على الرغم أن كونت لم يأخذ نظرية التماثل بعيدًا عن البناء الاجتماعي، حيث قسم علم الاجتماع إلى قسمين هما: إستاتيكا (خصائص البناء الاجتماعي)، وديناميكا (عمليات التكوين، والمحافظة، وتغيير الخصائص، والعلاقات بين هذه الخصائص التي تشكل الكائن الاجتماعي). وهذا المقترح أعطى تصورًا لبناء الكائنات الاجتماعية ليكون نموذجًا خاصًّا في تحليل هذه البناءات، ولهذا أصبح يسمى بالوظيفية، أو ما يسمى في الوقت نفسه بالبناء الوظيفي.

إن جوهر الوظيفية هو أنْ تصوُّر البناءات الاجتماعية المعينة على أن لها تأثيرات على بقاء الكائن الاجتماعي في بيئته مثل: القلب، الرئتين، المعدة، أو أي بناء للكائن الحي بوصفه فردًا له

وظيفة للحفاظ على الجسم. ولذلك فإن الكائن الاجتماعي أو المجتمع يمكن تحليله من خلال معرفة وظائف الأبنية الاجتماعية. إن ما يميز المجتمعات على مدار التاريخ هو نموها في الحجم والتركيب، وهكذا مثَل الكائنات الفردية، وهذا هو الاتجاه التطوري الذي يذهب نحو تركيب الكائنات الحية والكائنات الاجتماعية. فضلًا عن ذلك، فإن الكائنات فردية، والكائنات الاجتماعية تصبح أكثر تعقيدًا كلما نمت، أو أصبحت أكثر حداثة؛ متباينة كوحدات اجتماعية متنوعة، وهذه الوحدات الاجتماعية هي التي تشكل الكل، ويمكن معرفتها عن طريق الوظائف التي تقدمها من أجل الحفاظ على المجتمعات.

وهناك عنصر آخر للتحليل الوظيفي قد طرح لتلبية مجموعة من الاحتياجات، أو الضروريات أو المتطلبات، التي يجب تحقيقها إذا كان المجتمع أو أي نظام اجتماعي سيستمر في البيئة. وكما سنرى ما قام به الوظيفيون اللاحقون ببناء قوائم للمتطلبات المتعددة لهذه الاحتياجات، أو بالتبادل مع نظام سائد لتحقيق شروط الضروريات. وبناءً على ذلك يتم تحليل أي بناء اجتماعي من حيث تلبيتة لشروط نظام معين وسط تلك النظم الاجتماعية التي تصبح أكثر تعقيدًا في حالة نموها وتطورها، ولذا برزت حاجة أساسية تتعلق بالتكامل الاجتماعي، أو تنسيق اللوائح النظامية للسيطرة على الأجزاء المتباينة منها في النظام. وعندما تعجز المجتمعات عن تلبية أو تحقيق هذه الضروريات الشاملة؛ فسوف تكشف عن احتمالية تزايد ظهور الأمراض الاجتماعية، والعكس تمامًا عندما تتمكن المجتمعات من تطوير الآتي: (أ) آليات الترابط المتبادل بين أجزاء النظام.(ب) مراكز القوى من أجل السيطرة السياسية وتنظيم أجزاء النظام. (ج) رموز ثقافية مشتركة لجميع الوحدات الاجتماعية المتباينة، لتلبية المتطلبات من أجل تحقيق التكامل الاجتماعي، وكما ورد في النموذج الأساس لكونت المشار إليه في (الشكل ١ , ٢).

وهذا النموذج البسيط يحتوي على العديد من العناصر التي تحدد علم الاجتماع، ليس فقط في الماضي ولكن أيضًا في الوقت الحاضر، ومع ذلك فقد ألمح كونت إلى أن النظرية الوظيفية منبثقة عن علم الأحياء. وبالإضافة إلى ذلك فقد شعر كونت بأن أي تطوير لعلم الاجتماع بوصفه علمًا سيؤدي في المستقبل إلى تطوير علم الأحياء. وعلى الرغم من ذلك فإن التنظير الفعلي لكونت غير مكتمل، ولكنه أيضًا عمل الكثير؛ إذ قدم رؤية لكيفية تطوير النظرية في علم الاجتماع.



المصدر جوناثان تيرنر(٢٠١٣) فكرة نظريات علم الاجتماع، الشكل ١ ,٣، ص٤٩(SagePublications,Inc)

الشكل (١ , ٢). نموذج كونت الضمني للإحصائيات الاجتماعية

استخدام كونت المبكر للعلوم الفيزيائية
Comte's Use of Early Physics

لقد كان كونت رائدًا لوجهة نظر العلوم الطبيعية لما يمكن أن يكون علم الاجتماع؛ كأي علم يمكن لعلم الاجتماع أن يطور القوانين التفسيرية لخصائص وديناميكيات المجتمعات عالميًا، وأفضل من هذه القوانين تلك القوانين حول العمليات الأساسية الجوهرية التي تحدث دائمًا عندما ينظم البشر أنفسهم في نظم اجتماعية. وكانت هذه صورة العلم في العصر الذي جاء بعد صياغة نيوتن لقانون الجاذبية المعتقَد آنذاك أنه قادر على تفسير معظم خصائص وديناميات الكون. وبالأسلوب نفسه اعتقد كونت أنه من الممكن أن يكون التفسير الاجتماعي للمجتمعات بالاعتماد على القوانين المجردة عن ديناميات الخصائص الأساسية التي تتألف منها النظم الاجتماعية.

وكان هذا الرأي مثيرًا للجدل في عهد كونت، وكما سنرى في فصول لاحقة سيبقى الأفراد موضع نقاش إلى يومنا هذا؛ وبلا شك بالنسبة للتخصص مستقبلًا. وأيضًا انضباط السلوك في

المستقبل، فقد كانت رؤية كونت قائمة على سلسلة من القوانين المجردة مثلها مثل قوانين الفيزياء، والتي يمكن أن تفسر لنا سبب وجود الخصائص الأساسية للمجتمعات في المرتبة الأولى، وبعد ذلك كيف تعمل هذه الخصائص؟ ولذلك فإن في النموذج (شكل١ ٢٠) دافعًا عن الخصائص الأساسية أو الجوهرية الثلاثة للتكوين الاجتماعي، وهي:(أ) الترابط بين البناءات والوحدات المتباينة. (ب) مراكز القوة والسلطة. (ج) النظم الثقافية التي تنظم أفعال الأفراد، والوحدات الاجتماعية. وقد تطورت هذه الخصائص الثلاثة للعالم الاجتماعي بسبب الحاجة إليها، ومتى تم تواجدها، فإن ديناميتها تدور حول تنسيق معدل النظام المتزايد، والتحكم، والتكامل بين النظم المتباينة في المجتمع، وهكذا، فإن جوهر علم الاجتماع عند كونت مستمد من التماثل مع الأحياء (البيولوجيا) "دراسته للكائنات الاجتماعية"، وتطورها باتجاه متزايد نحو اتجاه التباين والتمايز- ولكن منهجيته التفسيرية والتوضيحية انبثقت من الفيزياء.

الوظيفية عند هربرت سبنسر

Herbert Spencer's Functionalism

كان هربرت سبنسر (Herbert Spencer) واحدًا من العلماء المتميزين في القرن التاسع عشر، ثم بدأ يهبط نجمه في العَقد الأول من القرن العشرين، ولم يعد ساطعًا كما كان من قبل. كما أصبح لأفكاره مُعادُون من علماء الاجتماع المعاصرين، دون أن يقرؤوا الكثير من أعماله، وكان سبنسر فيلسوفًا، وأطلق اسم "الفلسفة التركيبية" على مشروعه، وكان يهدف إلى أن يجمع كلًّا من الأخلاق، وعلم الطبيعة، وعلم النفس، وعلم الأحياء، وعلم الاجتماع تحت بعض القوانين الأساسية للعالم ككل، إلا أنها كانت فضفاضة الاستنتاج مشتقة من قوانين الفيزياء "العلوم الطبيعية"، وكانت هذه القوانين في القرن التاسع عشر لتفسير تطور جميع الكائنات من الأشكال البسيطة إلى الأكثر تعقيدًا.[٢] وفي وضعه للفلسفة كتب سبنسر ملخصًا قصيرًا عن مبادئه النظرية في اثنتين من أطروحاته الرئيسة

---

(٢) وإليك أحد تصريحات سبنسر حول نظريته العامة للتطور:

"... تكامل المادة وما يصاحب ذلك من تبديد للحركة ، تتحول خلاله المادة من تجانس غير متماسك إلى أجل غير مسمًّى إلى تجانس متماسك واضح ؛ وخلاله تخضع الحركة المحتجزة لتحوُّل مُوازٍ"ص ٣٤٣، المبادئ الأولى (انظر: إيضاح ٣).

في الأخلاق، وعدة مجلدات في مجال علم النفس، وعلم الأحياء، وعلم الاجتماع.[٣] وقد كتب مبادئ البيولوجيا (علم الأحياء) [٤] قبل بدايته في كتابه مبادئ علم الاجتماع[٥] في عام (١٨٧٣م) التي على شكل تسلسلي للمشتركين في الفلسفة التركيبية. وفي النهاية أنتج ثلاثة مجلدات عن مبادئ علم الاجتماع ما زالت متاحة حتى يومنا هذا. وفي العقود ما بين (١٨٧٤ – ١٩٩٤م) كانت كتبه في علم الاجتماع من بين أكثر الكتب التي تمت قراءتها؛ ولهذا السبب فإن معظم النسخ متاحة حتى اليوم.[٦] ولم يكن هذا التسلسل في مقالات سبنسر عن علم النفس، وعلم الأحياء من قبيل الصدفة؛ لأنه كان يتابع خطوات كونت، ولكن بتفصيل أكبر وأكثر تعقيدًا.

منهجية سبنسر النظرية Spencer's Theoretical Methodology

كان سبنسر مثل كونت له وجهة نظر علمية طبيعية فيما يجب أن يكون عليه علم الاجتماع. ويظهر مفهوم "مبادئ" في معظم أعماله الرئيسة؛ لأنه كان يشعر بأنه فصل الخصائص الجوهرية الاجتماعية، والبيولوجية، والنفسية، والطبيعية والأخلاقية ومجموعة محددة من المجلدات التي تقوم بتطوير المبادئ المجردة أو القوانين الفضفاضة المشتقة من علوم الطبيعة في وقته عن الديناميكيات الفاعلة في أي من هذه العوالم (انظر الهامش ٢ أسفل لمعرفة أساسيات هذا القانون).

بالنسبة لعلم الاجتماع امتلأت مجلداته الثلاثة عن مباديء علم الاجتماع بقوانين مجردة عن مجموعة كبيرة من الظواهر الاجتماعية، والتي تم توضيحها بالاستعانة بمعلومات من علم الأحياء، وبمعلومات واسعة عن المجتمعات في الماضي والحاضر في كل مراحل التطور إلى الأشكال الصناعية

---

(٣) هربرت سبنسر، المبادئ الأولى (نيويورك: أ. إل. بيرت، ١٨٨٠م، منشورة أصلاً في عام ١٨٦٢م)؛ الاستقرار الاجتماعي: أو، الشروط الأساسية للسعادة البشرية المحددة، وأولها تطورًا (نيويورك : أبليتون-سنشري-كروفتس ١٨٨٨م، نُشر في الأصل في ١٨٥٠-١٨٥١م؛ مبادئ علم النفس، ٣ مجلدات (نيويورك: أبليتون-سنشري-كروفتس، ١٨٨٠م، نُشرت أصلًا في عام ١٨٨٥م).

(٤) هربرت سبنسر، مبادئ علم الأحياء، ٣ مجلدات (نيويورك: أبليتون-سنشري-كروفتس ، -١٨٦٤-١٨٦٧م).

(٥) هربرت سبنسر، مبادئ علم الاجتماع. ٣ مجلدات (نيويورك: أبليتون-سنشري-كروفتس ، ١٨٩٥م، بدأ في الأصل عام ١٨٧٤م).

(٦) لإعادة نشر هذا العمل العظيم مؤخرًا، انظر مبادئ علم الاجتماع، ٤ مجلدات (نيو برونزويك ، نيوجيرسي: ناشري المعاملات، ٢٠٠٢)، مع مقدمة طويلة من إعدادي، وذلك للاستفادة.

الحديثة للتنظيم الاجتماعي، وقد تم نشر هذه المعلومات في مجلدات منفصلة سميت بعلم الاجتماع الوصفي، وقد كان ذلك إنجازًا هائلًا في عمل سبنسر.

إلا أنه وقع في الغموض[٧]؛ حيث تشابكت هذه المبادئ؛ وبخاصة أن كلًّا من علم الأحياء وعلم الاجتماع ركزَا في دراستهما على الكائنات، حيث ركز علم الأحياء على الكائنات الحية الفردية، في حين ركز علم الاجتماع على دراسة الكائنات العظمى، أو تنظيم الكائنات الحية في المجتمعات ومن المتوقع أن يؤدي هذا العمل إلى جهد لإعادة الدمج بين البيولوجيا وعلم الاجتماع في العصر الحاضر. ورأى سبنسر أن أي نوع من أنواع الكائنات الحية التي تنظم نفسها في المجتمع إنما هي مجتمع فوق العضوي يستحق التحليل السيسيولوجي.

التماثل العضوي للكائنات عند سبنسر
Spencer's Organismic Analogy

لقد كتب سبنسر مقالًا مدافعًا فيه عن أسباب معارضته لكونت، ولكن من الواضح أنه أخذ أفكار كونت وطورها فيما بعد.[٨] ولعل أكثر أفكار سبنسر، والأكثر شهرة، والأقرب إلى العقل في علم الاجتماع المعاصر هي أفكاره التي قارن بين الكائنات العضوية وفوق العضوية، وذكر فيها أوجه التشابه في مبادئ التنظيم بين تلك الكائنات. كما أدرج الكائنات العضوية الفوقية مع التباينات بين الكائنات الأخرى، وشكلت هذه التماثلات مجموعة قليلة من الصفحات في عمل أكثر من (٢٠٠٠ صفحة). وبعد ذلك أصبح واضعو النظريات في الحقبة المعاصرة يعرفون سبنسر، وصمدت أفكاره، وإن لم يُعترف بتأثيرها على النظرية في الوقت الحاضر بشكل كامل.

---

(٧) هيربرت سبنسر، علم الاجتماع الوصفي، أو مجموعات الحقائق، بدأت في عام ١٨٧٣م وانتهت بعد وفاة سبنسر، مع آخر مجلد صدر في عام ١٩٣٤م. راجع استعراض ألكسندرا ومريانسكي لمنطق علم الاجتماع الوصفي في "ملفات منطقة العلاقات البشرية المفقودة في علم الاجتماع"، وجهات نظر علم الاجتماع ٣١ (١٩٨٨): ص١٩- ٣٤.

(٨) هربرت سبنسر. أسباب معارضة فلسفة م. كونت ومقالات أخرى (أعيدت طباعتها في بيركلي، كاليفورنيا):جليندساري ١٩٦٨م).

وتشمل التشابهات بين الكائن العضوي وفوق العضوي [٩] على أن كلًّا منهما يمكن أن يتميز من الكائنات غير العضوية؛ لأن العضوي وفوق العضوي كلاهما ينمو ويتطور، وقد يصاحب هذا النمو زيادة في عدد الوظائف التي تحدث مع التباين في التكوين، فكلاهما يكشف عن الترابط بين الأجزاء المتنوعة والتكامل، فالتغير في أحد الأجزاء يؤثر على بناء الأجزاء الأخرى أو كليهما، وكل جزء في الكل يُعدُّ كائنًا عملاقًا صغيرًا في حد ذاته. وعلى سبيل المثال: كالأسرة، والجماعات، والتنظيم أو كمثال على جزء حي؛ كالخلايا، أو الأعضاء داخل الكائن الحي، فحياة الكل يمكن تدميرها، ولكن الأجزاء يمكن أن تعيش لفترة أطول.

في حين أن هناك بعض الاختلافات المميزة بين الكائنات العضوية الحية وبين الكائنات ما فوق العضوية أو العملاقة والعضوية. في درجة الترابط والقرب من أجزاء أكبر في الكائنات الحية منها في الكائنات ما فوق العضوية، كما أن طبيعة الاتصال تختلف إلى حد كبير؛ لأن اتصال الكائنات يحدث من خلال موجات جزئية تمر عبر قنوات مختلفة، في حين أن الاتصال بين الكائنات ما فوق العضوية يحدث من خلال الرموز الثقافية التي تنظم في لغات، وهناك أيضًا اختلاف كبير بين الكائنات ما فوق العضوية التي تملك قدرات على الوعي والتفكير واتخاذ القرار، في حين أن هناك جزءًا واحدًا فقط (الدماغ) هو القادر على الوعي لدى الكائنات الحية.

الشروط الوظيفية الأربعة

The Four Functional Requisites

إن المماثلة العضوية في عمل سبنسر مهمة؛ لأنه اعتمد في مقالته الضخمة على مبادئ علم الأحياء، حيث أثبت أن التنظيمات الحية الفردية لها شروط لا بدَّ من تحققها لتدعم الحياة مثل: الكائنات الحية، لهذا نجد أن الكائنات فوق العضوية تكشفت عن تكوينات تكمل أجزاء متباينة. وبالإضافة لذلك، فإن الكائنات فوق العضوية والعضوية تكشف عن احتياجات أساسية أو شروط يجب أن تتحقق للتأكيد على بقائها في محيطها البيئي.

---

(٩) سبنسر، مبادئ علم الاجتماع، المجلد ١، ص. ٤٤٨.

ونتيجة لذلك افترض سبنسر أن هناك أربعة شروط وظيفية عامة للكائنات الحية ما فوق العضوية، التي توافقت مع شروط مماثلة مع الكائنات الأخرى. وفي الواقع يوجد هناك أربعة شروط، وقد جزأ سبنسر كل شرط إلى اثنين، والشروط الأربعة مدرجة في (الجدول ١ , ٢) التالي:

الجدول(١ , ٢). شروط الوظيفية للكائنات فوق العضوية.

١ - الإنتاج: يدور حول جمع الموارد وتحويلها إلى موارد يمكن استخدامها للحفاظ على عدد السكان (عملية).
٢ - إعادة التوالد أو التكاثر: ببناء أعضاء جدد من السكان والمحافظة عليهم، فضلًا عن إيجاد بناء اجتماعي وثقافي لتنظيم أنشطتهم الاجتماعية (عملية).
٣- اللائحة: بتوحيد القوة والسلطة وكذلك الرموز الثقافية مثل (الأيدولوجيات والمعتقدات)؛ لمراقبة أنشطة الأفراد والجماعات وتنسيقها.
٤ - التوزيع:
أ) بتطوير البنية التحتية لنقل الأفراد والمعلومات والموارد في المساحات الجغرافية.
ب) التطوير ميكانزمات (آليات) لتبادل الموارد بين الأفراد والوحدات المؤسسية للسكان.

ولذا يجب أن تفي الكائنات العضوية الفائقة (ما فوق العضوية) باحتياجات: (١) العملية أو (أ) إنتاج المادة التي تحافظة على الكائن ما فوق العضوي، (ب) والتكاثر أو إعادة إنتاج كل الكائنات الحية (أي الاشخاص) والأبنية الاجتماعية، وثقافة الكائنات العضوية التي تنظم أنشطة الناس. (٢) السيطرة أو القدرة على تنسيق ومراقبة الناس، والأبنية المنظمة لحياتهم من خلال توطيد السلطة أو القوة، وتطوير النظم الثقافية للقيم والمعتقدات والأعراف والقوانين. (٣) التوزيع أو حركة الناس، والموارد والمعلومات حول الأقاليم، وبناءات الكائنات الحية الفائقة.[١٠] كما ذكر وركزت عليه في (الجدول ١ , ٢)، لقد كسرت عملية المتطلبات التي يطلق عليها "نظام الاستدامة" ف إلى أسفل في متطلباته المنفصلة، وبالتالي فإن إنتاج المتطلبات الوظيفية المكونة لإجمالي الناس تتضمن الأربعة المدرجة في (الجدول ١ , ٢) من: الإنتاج، والتكاثر، والتنظيم، والتوزيع. لتحقيق قابلية بقاء الكائن الحي.

(١٠) سبنسر، مبادئ علم الاجتماع، المجلد ١ ، ص. ٤٩٨-٥٤٨.

إن الجدل الأساس لدى سبنسر هو أنه كلما زاد النمو السكاني، فإن التميز العنصري أو المجتمع الذي ينظم جميع أنشطة أعضائه سيفصل بين أنواع جديدة من البناءات والنظم الثقافية المرتبطة به ، وسيؤدي ذلك إلى التباين على ما كان يطلق عليه في كثير من الأحيان بالمحاور الأساسية للإنتاج، والتكاثر، والتنظيم، والتوزيع ؛ لأن هذه العناصر الأساسية ضرورية للحفاظ على جدوى بقاء الكائنات الحية. وعلى سبيل المثال، مع تنامي عدد السكان فسيكون هناك إضافات لإنتاج المزيد من الغذاء لدعم أكبر عدد من السكان . والنتيجة تباين البناءات داخل البناء الاقتصادي. ومع ذلك ستنشأ مشكلات جديدة تتمثل في التأكد على قدرة الأفراد للمشاركة في البناءات الجديدة المتباينة والمتنوعة ثقافيًا، مما يؤدي إلى التمييز بين البنى التعليمية المستمرة أكثر من أي وقت مضى لضمان إعادة إنتاج البناءات الجديدة ، زيادة على احتمال ظهور النزاع مع ازدياد درجة التقسيم الطبقي أو مشكلات الانحراف -مثل الثقافي-، وعندما تضعف الضوابط الثقافية سيؤدي إلى تطور النظام السياسي والقانون وآليات الرقابة الاجتماعية، مثل: ميكانزمات التحكم الثقافي، وتغييرات في النظم الثقافية التي تستخدم لتنظيم السلوك، ومع النمو تتزايد مشكلات توزيع الموارد، فضلًا عن تزايد أعداد الناس والمعلومات، ويتسبب ذلك في تطوير بنًى تحتية توزيعية جديدة للتوزيع، مثل: (الطرق، والموانئ، والقنوات إلخ). وأيضًا آليات لتبادل الموارد (على سبيل المثال: ظهور أسواق جديدة أكثر تنوعًا).

وبالنسبة لسبنسر، فإن النظرية يجب أن تفسر أولًا ديناميكيات النمو السكاني والتمايز تطبيقًا لقانونه العام المستعار من الفيزياء (انظر الهامش ٢ في ص ١٥). بشكل عام، سيؤدي النمو السكاني إلى تباين من أجل توفير ما يلزم من "الدعم البنائي" الأكبر إلى "الكتلة الاجتماعية". وكما ذُكر أعلاه، فإن التباين يحدث في النموذج الواضح لكل المحاور الأربعة التي تتوافق مع المتطلبات الوظيفية، الملخصة في (الجدول١ ,٢). إن جميع المبادئ النظرية الأخرى في كتاب سبنسر "مبادئ علم الاجتماع" خصصت لشرح أنماط التطور المضادة للتغير في النظم المؤسسية التي تتطور على طول هذه المحاور الأربعة، خاصة في توطيد السلطة لتعزيز القوة وعلاقتها بالطبقية وعدم المساواة، والتكافؤ الذي يزداد مع التباين للنظم المؤسسية. وكذلك الحال في عدد من الطبقات والفئات الاجتماعية في المجتمع، وهذه الطبقات الجديدة تشكل دائمًا مشكلات التنظيم، وبالتالي فإنها تشجع التعزيز والمركزية للسلطة جنبًا إلى جنب مع الأيديولوجيات التي تُضفي الشرعية على احتكار

السلطة. وهكذا فقد كان سبنسر منظرًا للصراع بوصفه مظهرًا وظيفيًا لدرجة أن لمذهبه الوظيفي التأثير الأكثر في علم الاجتماع.

التحليل الوظيفي لإميل دوركايم
Emile Durkheim's Functional Analysis

استعار إيميل دوركايم (Emile Durkheim) كثيرًا من سبنسر، وقد أكد كما فعل سبنسر على العلاقة الجوهرية بين نمو السكان والتمايز البنائي، وعلى النقيض من سبنسر كان دور كايم الذي ناقش بأن التحول من البسيط إلى المعقد يحتاج شرطًا رئيسًا واحدًا من أجل بقاء المجتمعات؛ وهو التكامل بين العوامل المتباينة.(١١) مثل كونت، لقد طرح أنماطًا مُرضية للتباين والانتقال من المجتمعات البسيطة إلى المعقدة، ولكنَّه افترض أيضًا أنه مع مرور الوقت؛ فإن ميكانزمات مناسبة للتكامل سوف تتطور في النهاية، وهذا العكس من سبنسر.كما أكد دوركايم على أهمية النظم الثقافية بوصفها قوة موحدة، وخاصة تطور مؤسسة القانون من أجل تنسيق وضبط العلاقات داخل الوحدات الاجتماعية. لقد اعترف بأن القيم الثقافية أوالعادات الأخلاقية المشتركة قابلة للصواب والخطأ، وأنها تصبح أكثر تجردًا وضعفًا إذا أريد لها أن تكون ذات أهمية فاعلة، من أجل تحقيق أهداف ومصالح متنوعة في النظم الاجتماعية المتباينة للغاية. وبالتالي، فإن المشكلة في النظم الاجتماعية المعقدة التي تغلب على القوانين والمعتقدات الثقافية المحددة، ومشتقة من القيم المجردة في كل المجالات المتباينة للأنشطة المؤسسية في تلك المجتمعات. وبهذه الطريقة، فإن أخلاقيات المجتمع كما هي معبر عنها في قيمها يمكن أن تكون هادفة وعلى صلة بالفاعلين في العوالم الاجتماعية المتنوعة التي نشأت بواسطة التباين البنائي.(١٢)

---

(١١)إميل دوركايم، تقسيم الفعل في المجتمع (نيويورك: فري برس، ١٩٤٧م، نُشرت أصلًا بالفرنسية في ١٨٩٣م).

(١٢)كانت فكرة دوركايم هي أن القيم يجب أن تصبح معممة للغاية، وبذلك فهي لا تستطيع توفير التنظيم الكافي أو الدقيق للإجراءات من تلقاء نفسها. فهم لا يستطيعون سوى توفير مقدمات أخلاقية قوية، ولكن يجب ترجمتها إلى قواعد وأسس أكثر تحديدًا للمجالات الأساسية للنشاط المؤسسي، مثل: الاقتصاد، والنظام السياسي، والنسب، والدين، والقانون، والتعليم ... إلخ.

وفي وقت لاحق تحول دوركايم في مسيرة حياته إلى دراسة الدين.[١٣] وكانت فكرة دوركهايم أن القيم يجب أن تصبح معممة، وبالتالي فإنها لن تقدم التنظيمات الكافية أو الدقيقة للإجراءات بأنفسهم، ويمكن أن توفر البناءات الأخلاقية القوية، ولكن هذه يجب أن تترجم إلى أماكن أكثر تحديدًا وقواعد للمجالات الأساسية من النشاط المؤسسي، على سبيل المثال: الاقتصاد، ونظام الحكم، والملكية، والدين، والقانون والتعليم ... إلخ. وأكد على أهمية رموز المجتمع، المسماة بـ (الطوطم) الذي من شأنه أن يجسد المجتمع كله، والذي يعطي أعضاءها طقوس الاحتفال؛ وذلك لزيادة حاجاته الوجدانية، ليس فقط إلى التجمعات المحلية، ولكن إلى التضامن أيضًا في جميع أنحاء المجتمع بأسره. وبالتالي يمكن أن يتحقق شرط رئيس للتكامل في المجتمعات المتباينة. وأثر هذا التحليل للديناميات الثقافية في الوظيفية على عدد كبير من النظريات الكلاسيكية في علم الاجتماع، كما نرى في العديد من الفصول في هذا الاستعراض لنظريات علم الاجتماع، إلا أن دوركايم الذي طور أفكار كونت وتقديمه للوظيفية، ووضع تصورًا للثقافة في غاية الأهمية لتلبية متطلب التكامل في النظم الاجتماعية المعقدة.

العناصر الأساسية للنظريات الوظيفية المبكرة
The Basic Elements of Early Functional Theories

في العَقد الثاني من القرن التاسع عشر بعد وفاة دوركايم، فقد أُهملت الوظيفية في علم الاجتماع، لكن تبناها علماء الأنثروبولوجيا، وحافظوا عليها حتى منتصف القرن التاسع عشر، ومن هنا بدأت الوظيفية تعود بالظهور مرة ثانية. ومن المدهش، أنها أصبحت النظريات المهيمنة في علم الاجتماع، على الأقل لفترة قصيرة نسبيًّا.كانت الملامح الجوهرية للوظيفية جلية، وربما ينبغي لي أن أتوقف عند العناصر الرئيسة للوظيفية على النحو الآتي:

١- تتكون النظم الاجتماعية من أجزاء مترابطة.

٢- تكشف هذه النظم عن المشكلات الداخلية والخارجية للتكيف مع بيئاتهم التي يجب حلها حتى يدوم استمرار النظام الاجتماعي. ويمكن لهذه المشكلات أن تنتج عن:

---

(١٣)إميل دوركايم، الأشكال الأولية للحياة الدينية (نيويورك فري برس ، ١٩٤٧م، نُشرت في الأصل باللغة الفرنسية عام ١٩١٢م).

أ)التغيرات في البيئة الطبيعية والحياتية للمجتمع.

ب) العلاقات الخارجية مع سكان آخرين.

ج)البناءات الداخلية التي يولدها نمو المجتمعات وتباينها.

٣- حل الموارد الداخلية أو الخارجية وما يتبعها من مشكلات، ويمكن ملاحظة هذه المشكلات للتكيف والبقاء على أنها نظام احتياجات أو شروط أو متطلبات للنظام يجب تلبيتها بالاعتماد على واضعي النظريات. ويمكن ملاحظة الشروط من خلال مشكلات التكيف مثل:

أ) التكامل بين الوحدات المتباينة التالية:

١- النظم المؤسسية المتنوعة، مثل: (الاقتصاد، والأسرة، الحكومة، الدين ... إلخ).

٢- الفئات والطبقات المتنوعة الناجمة عن طبقات عدم المساواة في توزيع الموارد.

ب) التنسيق والرقابة من الجهات الفاعلة المتباينة من خلال الآتي:

١- تعزيز واستخدام القوة والقانون كميكانزم للرقابة الاجتماعية.

٢- تطوير نظم رمزية مشتركة عن طريق الطوطم لتكامل النظام الاجتماعي الكامل بتأدية الطقوس الدينية.

٣- تطوير مكانزمات جديدة للترابط البنائي لربط الوحدات المتباينة.

ج) إنتاج الموارد اللازمة لدعم أعضاء السكان، وخاصة للنمو السكاني للمجتمع.

د) إعادة تكاثر الأعضاء والوحدات الاجتماعية الجديدة الأكثر تعقيدًا التي تنظم أنشطتهم وتتطور مع نمو النظام.

هـ) توزيع الموارد والأفراد، والرموز الثقافية والمعلومات، والوحدات البنائية الاجتماعية الأكثر تباينًا، وعبر الأقاليم الممتدة حينما ينمو النظام.

٤-لايمكن فهم النظم الاجتماعية ككل، وأجزاءه المكونة له إلا من خلال تحليل الحاجات أو متطلبات النظام الذي يحققه أي جزء من المجتمع.

الانتقال إلى الاتجاه الوظيفي الحديث
The Transition into Modern Functionalism

لم تكن الاتجاهات الوظيفية التي تفسر العالم الاجتماعي مهملة في علم الاجتماع بسبب عيوبها، ولكن بسبب تركيزها على التطور. (انظر الفصل ١١) فكل الموضوعات الوظيفية تمت صياغتها في إطار تطوري، لتأكيدها على حركة المجتمعات في تطورها من الأشكال البسيطة إلى المعقدة، ولقد كان هناك دائمًا تعليق تنويري عن طريق الأوروبيين البيض حول هذا التطور من المجتمعات البسيطة إلى الأكثر تعقيدًا، باعتبار أنها تمثل التقدم والتطور للمجتمعات. إلا أن هذا التصور عن التطور اتجه - بوصفه منظورًا- إلى تطور جميع المجتمعات، دون الوصول إلى نقطة النهاية من التطور الصناعي في أوروبا. وكأدنى حد -ليس فقط في بنائها وثقافتها- ولكن أيضًا في علم أحياء الكائنات الحية البشرية التي عاشت فيها، وكان استخدام لفظ "وحشي" أو"بدائي" مقصورًا على وصف المجتمعات غير الصناعية بوصفها تمثل المجتمعات البسيطة ، وكوصف لأفرادها، ولم تكن العنصرية أمرًا خفيًّا في كثير من تلك المجتمعات الصناعية. ولذا فقد قادت هذه العنصرية في النهاية إلى رد فعل عنيف؛ وبخاصة عندما يدافع الاتجاه الدارويني الاجتماعي (Social Darwinism) عن مفهوم "البقاء للأصلح"، لتبرير إساءة معاملة الناس السيئة في المجتمعات الصناعية للشعوب غير الصناعية؛ بأنها جزء طبيعي للتقدم التطوري بشكلٍ ساخر من المجتمعات الأقل منهم تطورًا. رغم أن داروين (Darwin لم تدور أفكاره إطلاقًا حول هذه الفكرة، بل كانت فكرته تدور حول الاصطفاء الطبيعي. وبدلًا منها استخدم سبنسر "البقاء للأصلح" في الإحصائيات الاجتماعية عام (١٨٥٠م).[١٤] قبل داروين للتعبير عن أصل الأجناس. ونشرت أفكار سبنسر قبل تسع سنوات من كتاب داروين " أصل الأجناس". وتميز سبنسر بهذه الفكرة أكثر من داروين. ولكن بشكل عام كانت نماذج التطور والتقدم في الغالب نماذج عنصرية تم استبعادها، وهذا التصور في بدايته كان وظيفيًّا ووجدتُ تباينًا عند الأنثروبولوجيين، وازدهرت بوصفها نظرية. وفي منتصف القرن الأخير أعاد علماء الاجتماع الوظيفية مرة أخرى لتصبح التوجه الأكثر بروزًا لعلم الاجتماع، قبل مواجهتها للعديد من المشكلات النقدية؛ كالتنظير بوجه عام. وكانت النتيجة أن الوظيفية بدلًا من أن تختفي تحولت إلى مظهر أكثر قبولًا عندما قللت من أهمية مفاهيم "الوظيفة" و "المتطلبات الوظيفية" عند عدد كثير من علماء الاجتماع.

---

(١٤) سبنسر، الاستقرار الاجتماعي (انظر إيضاح ٣ للإقتباس الكامل).

الاتجاه الوظيفي الأنثروبولوجي
Anthropological Functionalism

كان من المتوقع اختفاء نماذج من المرحلة التطورية، إلا أن الذي ساعد في ظهورها علماء الأنثروبولوجيا؛ لأنها توفر البيانات عن المجتمعات البدائية، وقد تم قبولها بشكل عام في الأنثروبولوجيا، رغم أنه لم يتم إهمال الوظيفية في بدايتها التطورية، وكان السبب في الاحتفاظ بالوظيفية أن علماء الأنثروبولوجيا عندما قاموا بعمل ميداني في المجتمعات البدائية واجهوا مشكلة: كيف يمكنهم تفسير وجود أبنية اجتماعية معينة؟ وكيف يفسرون الممارسات الثقافية بين السكان؟ علمًا بأن هؤلاء السكان ليس لديهم تاريخ مكتوب. ولهذا لم يستطع الباحثون تتبع تاريخ بناء مهم، مثل: نظام القرابة، أو المعتقدات وممارسة الطقوس الدينية، على الرغم من وجود التقاليد الشفوية التي تُعد تقاليد أسطورية إلى حد كبير. ونتيجة لذلك كان من الصعب تفسير ما أسباب قيام السكان ببناء مثل هذا البناءات؟ واستخدامها في الانخراط بممارسات معينة.

وقدمت الوظيفية الإجابة عن كيفية دراسة الأبنية أو الممارسات التي تعمل لتلبي احتياجات وظيفية معينة للمجتمع الذي يضم أفراده مجموعة من السكان، والقدرة على طرح الوظيفة لإصلاح بقاء المجتمع وسلامته. كما أعطت الوظيفية أهمية لفهم البناءات، والإجابة على معاني الأسئلة الكبيرة عن المجتمع، وهذا ما جعل الوظيفية الاستمرار؟ ولهذا السبب تبنى علماء الأنثروبولوجيا نماذج التفسير الوظيفي، وبالتالي أسهم ذلك في مقاومة الوظيفية للزوال على الرغم من تراجعها في القرن التاسع عشر. لقد حاولت الوظيفية أن تجيب عن سؤال مهم محتمل؛ وهو السؤال الأكثر أهمية عن المجتمعات، وكان اثنان من علماء الأنثروبولوجيا على وجه الخصوص-وكلاهما رمزان من رموز الأنثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر- قد تبنّيا الإستراتيجيات الوظيفية؛ التي عكست صورًا على التوالي لاتجاهات كل من بارسونز و دوركايم.

الاتجاه الوظيفي لبرونيس لو مالينوفسكي
The Functionalism of Bronis Law Malinowski

تمامًا مثل سبنسر (Spencer) استخدم مالينوفسكي (Malinowski) سلم بالمتطلبات الوظيفية المتعددة لمستويات النظام المختلفة في المجتمعات، كما فعل سبنسر في "مبادئ علم الأحياء" و"مبادئ علم الاجتماع". ولكن مالينوفسكي على العكس من سبنسر افترض بقاء المتطلبات لكل

مستوى النظام في نظريته؛ سواء الكائنات الحية، أو البناء الاجتماعي والثقافي.[١٥] والجدول التالي (جدول ٢ , ٢) يلخص المتطلبات اللازمة للأنظمة البنائية والثقافية للمجتمع.

وعلى المستوى البنائي للتنظيم الاجتماعي، فإن المتطلبات التي أوجدها مالينوفسكي تبدو مشابهة لما وضع سبنسر من الإنتاج والتوزيع، والرقابة الاجتماعية، والتنظيم، وإعادة الإنتاج، وتعزيز القوة والسلطة. وهكذا تمكن هؤلاء السكان الذين يمثلون تطوير النظم المؤسسية لإنتاج الموارد الكافية للحفاظ على النظام، وإنتاج أعضاء النظام التي تنظم وتنسق، وتعيد توزيع أعضائه من خلال السلطة؛ إذ هي على الأرجح تصمد. ولو أضفنا هذه القائمة من المتطلبات المنصوص عليها من قبل مالينوفسكي لمستوى النظام الثقافي لأمكننا بعد ذلك أن نكمل قائمة سبنسر للمتطلبات الضرورية، وإضافة تلك الشروط التكاملية التي انتقدها دوركايم. وكما سيصبح في وقت قصير القول بأن القوائم المدمجة أسهمت في طرح المتطلبات الوظيفية عن طريق أشهر المنظرين الوظيفيين في العصر الحديث؛ مثل تالكوت بارسونز.

الجدول (٢ , ٢). متطلبات مفهوم مالونسكي لمستويات النظام.

المتطلبات لمستويات النظام الثقافي أو الرمزي
المتطلبات لأنظمة الرموز هي: التي توفر المعلومات اللازمة لتكيف السكان مع بيئتهم.
متطلبات لأنظمة الرموز هي: التي تمد بشعور التحكم في مصير السكان والتي تغير الأحداث.
متطلبات لأنظمة الرموز هي: التي تمد مجموعة من أفراد السكان بشعور من "الإيقاع الطائفي" في حياتهم و أنشطتهم اليومية.
المتطلبات البنائية (الآلية) لمستوى النظام
متطلبات الإنتاج و التوزيع الاستهلاكي للحفاظ على السكان.
متطلبات مراقبة السلوك الاجتماعي واللائحة التنفيذية.
متطلبات تعليم الناس التقاليد والمهارات.
متطلبات النظام وتنفيذ (الحكومة) علاقات السلطة.

(١٥)مالينوفسكي برونيسلاف، موسوعة "الأنثروبولوجيا" ، بريتانيكا ، المجلد التكميلي الأول (لندن ، ١٩٣٦)؛ نظرية علمية للثقافة (تشابل هيل، كارولينا الشمالية: مطبعة جامعة كارولينا الشمالية ، ١٩٤٤)؛ السحر والعلوم والدين ومقالات أخرى (نيويورك: فري برس ، ١٩٤٨م).

الاتجاه الوظيفي أ. ر. رادكليف براون
The Functionalism of A. R. Radcliffe-Brown

ففي تحليله لأنظمة القرابة وسط الفئات غير المتعلمة[١٦]، ناقش أ. ر. رادكليف براون بأن المشكلات الوظيفية التي سيتم معالجتها لاحقًا يمكن تفاديها من خلال ثلاث خطوات هي: أولًا: ينبغي أن يدرك أنه لا بدَّ أن يلبي المجتمع الحد الأدنى من مستوى التكامل بين الأجزاء. ثانيًا: فهم مصطلح الوظيفة بأنه يشير إلى تلك الظروف الضرورية لحياة المجتمعات التي يمكن رؤيتها، لدى دوركايم، وضرورة التكامل بينها. ثالثًا: يجب النظر إلى المميزات التي أسهمت في الحفاظ على التكامل في كل مجتمع .وكان الهدف من ذلك التفسير هو محاولة وصف هذه المميزات، وتحديد كيفية إسهام الوظيفية في التكامل بمجرد الانتهاء من هذه المميزات على الأقل بمنطق الوظيفية.

وقد أسهمت هاتان النظريتان مع وجود نظريات أخريات للوظيفية في إقبال الأنثروبولوجيا على الوظيفية عندما قام علماء الاجتماع -مثل: تالكوت بارسونز وزملاؤه- بوضع خطط وظيفية خاصة بها، تسير جنبًا إلى جنب مع علماء الأنثروبولوجيا الذين واصلو في تطوير التفسيرات الوظيفية إلى منتصف هذا القرن. إذن[١٧]؛ ماسبب هذا الاهتمام المفاجئ لعلماء الاجتماع الوظيفيين؟ لقد عاد الاتجاه الوظيفي مرة أخرى لعلم الاجتماع، في حين أن العقود بين عامي (١٩٠٠ -١٩٥٠م) أهملت هذه النظرية. ومن الواضح أن هناك قصورًا في النظريات العامة التي سعت لتفسير شرائح المجتمع.[١٨] لقد كان هناك فراغ نظري، ومع وجود القمع للنظرية الماركسية، والمنح العلمية في عهد

---

(١٦) أ. ر. رادكليف براون ، "البناء والوظيفة في المجتمع البدائي:"عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي ٣٧ (يوليو – سبتمبر ٩٣٧م): ص ٣١ – ٥٠ ؛البناء والوظيفة في المجتمع البدائي (نيويورك: فري برس ، ١٩٥٢م).

(١٧) انظر -على سبيل المثال-: والتر غولدشميت ، الوظيفية المقارنة (بيركلي ، كاليفورنيا: مطبعة جامعة كاليفورنيا ١٩٦٦م).

(١٨) لم يكن هناك افتقار كامل للنظرية العامة. على سبيل المثال: كانت الإيكولوجيا الحضرية منظورًا مستمرًا، كما كانت البيئة البشرية. كتب علماء -أمثال بيتيريم سوروكين- كتابات نظرية كبيرة ، على الرغم من أن هذه لم تستوعب الخيال الاجتماعي. ومع ذلك ، يحاول عدد قليل من الباحثين الآن إحياء أفكار سوروكين (على سبيل المثال: فيسينت جيفريز). أيضًا، استمر العمل في نظرية جورج هيربرت ميد على عمليات التفاعل ولكن في الحقيقة لم تبرز كمنظور نظري متميز حتى١٩٥٠م.

مكارثي (McCarthy) في أمريكا، فقد جذبت النظرية الوظيفية العلماء، ولفترة وجيزة أصبحت هي النظرية المهيمنة تقريبًا، بافتراضاتها لعدم وجود بدائل مقنعة لتحليل المجتمعات ككلٍّ.

النظريات الوظيفية المعاصرة
Contemporary-Era Functional Theories

تفسير نظرية الفعل لتالكوت بارسونز Talcott Parsons' "Action Theory" as an Illustration

من الصعب المبالغة في تقدير تأثير تالكوت بارسونز على النظريات الاجتماعية في الحقبة المعاصرة حتى الآن بعدما مرت مناهجه بشيء من الغموض النسبي. وقد بدأ تالكوت في الصعود إلى الشهرة عام (١٩٣٧م) عندما افتتح له أول كتاب باقتباس شهير. ومن يقرأ اليوم لسبنسر [١٩] سيسأل السؤال نفسه عن بارسونز. ولكن أكثر من سؤاله عن سبنسر. وما يزال بارسونز يتمتع بنفوذ كبير جدًّا في التنظير؛ وقد يعود السبب إلى أن هناك قليلًا من يقرأ أعمال بارسونز الرئيسة، وربما أن هناك العديد من أفكار بارسونز تميزت بالوضوح وبالسهولة تم استيعابها أكثر في علم الاجتماع من دون زخارف الوظيفية.

يُعد كتاب بارسونز الأول الكبير الذي كتبه في ثلاث عشرة سنة عن الوظيفية والنظام الاجتماعي، [٢٠] فقد برزت الوظيفية لدى بارسونز في ثلاث سنوات مختصرة (١٩٥٠ – ١٩٥٣م). [٢١] واستخدم لطرحها صياغة نثرية صعبة. وكانت النظرية العامة لبارسونز قد أعادت مزج أفكار كل من سبنسر، ودوركايم، ومالينوفسكي. وفي البداية افترض بارسونز أربعة شروط أو متطلبات للوظيفية. وفي الواقع هي خمسة بسبب أن أحد الشروط الأربعة انقسم إلى قسمين كما في (الجدول٣, ٢) .

---

(١٩) تالكوت بارسونز، بناء الفعل الاجتماعي (نيويورك: مكجرو هيل ، ١٩٣٧م)؛ آخر طبعة كتاب ورقي الغلاف (نيويورك: فري برس ، ١٩٦٨م).

(٢٠) تالكوت بارسونز ، النظام الاجتماعي (نيويورك: فري برس ، ١٩٥١م).

(٢١) تم الاستشهاد بتالكوت بارسونز وإدوارد شيلس في اتجاه نحو نظرية عامة للفعل (نيويورك: هاربر ورو ، ١٩٥١م) تالكوت بارسونز ، روبرت ف. ب. ، وإدوارد شيلس ، أوراق العمل في نظرية الفعل (جلينكو ،إلينوي :فري برس، ١٩٥٣م).

الجدول (٣, ٢). الشروط الأربعة لبارسونز، لكنها خمسة لجميع متطلبات الفعل .

١- التكيف: (ك-A) شرطًا للحصول على الموارد من البيئة وتحويلها إلى مواد صالحة للاستخدام وإنتاجها وتوزيعها على الأفراد في المجتمع.
٢- تحقيق الهدف: (ه-G) شرطًا لوضع أهداف للنظام ككل وتعبئة الموارد اللازمة لتحقيق هذه الأهداف.
٣- التكامل: (م-I) شرطًا لتنسيق العلاقات والإجراءات من جميع الجهات سواء الفردية أو الجماعية في النظام.
٤- المحافظة (ن-L) على النمط وإدارة التوتر وهذا يتضمن:
أ) الحفاظ على إنتاج الوحدات الاجتماعية في النظام سواء فردية أكانت أم جماعية.
ب) إدارة التوترات التي قد تنشأ بين الوحدات الفردية والجماعية في النظام.

ثانيًا: لقد بدأ في رؤية مستويات متمايزة للنظام: (١) نظام الشخصية (٢) النظام الاجتماعي (٣) النظام الثقافي (٤) والعضوي. والتي أصبحت فيما بعد (نظامًا سلوكيًا). وكل هذه المستويات أنظمة تحقق أحد أنظمة الفعل الأربعة الأكثر شمولًا لاحتياجات الوظيفية للتكيف وتحقيق الهدف، والتكامل، والسكون.وتتلخص هذه الوظائف في كل نظام للفعل إلى نظام الفعل العام أو الكلي كما في الشكل رقم. (٢ , ٢)

ه-B	ك-A
نظام الشخصية	نظام الكائنات السلوكي
النظام الاجتماعي	النظام الثقافي
م-I	ن-L

الشكل (٢ , ٢) شروط نظام الفعل الكلي ونظامه الفرعي التأسيسي.

وبهذا المفهوم الإدراكي السهل نسبيًّا، عمل بارسونز في إعداده أكثر من أربعين عامًا، وكان واحدًا من أفضل التوضيحات في إيجاد طريقة بيانية لتحقيق المتطلبات الأربعة بوصفها عوامل في صندوق بأربعة تقسيمات تدل على العوامل التي كتبها (ك) للتكيف (A) (Adaptation) و (هـ) لتحقيق الهدف(G) (Goal attainment) و(م) للتكامل (I) (Integration) و (ن) للكمون (L) (Latency)، مقسمة للمحافظة على النمط وإدارة التوتر. ومن وجهة نظر بارسونز؛ فإن وضع الصفة البنائية للمجتمع في الصندوق المحدد في خطة (AGIL – ك هـ م ن) نواة للأنظمة المؤسسية، ولعرض تفسير لهذه النظم. فعلى سبيل المثال؛ إن (الشكل ٢,٢) يعرض وجهة نظر لصندوق (AGIL – ك هـ م ن) لنظام الفعل الكلي، بينما (الشكل ٢,٣) يعرض مثالًا للنظم الاجتماعية على المستوى المجتمعي (نظام اجتماعي في نظام الفعل الكلي) الذي يلبي الاحتياجات المتكاملة لنظام الفعل الكلي، وفي (الشكل ٢,٣) وضع في أربعة قطاعات بعنوان النظم المؤسسية الأساسية للمجتمع؛ مما يدل على ما يلزم تحقيقه لكل مؤسسة.

كما أن هناك توضيحًا آخر، مع نيل جي سميلير (Neil J. Smeller) المتضمن فحص الموارد بوصفها تصورًا لتغيير الإعلام العام الذي يتبعه المجتمع.[٢٢]؛ لأن وسائل الإعلام العامة هي موارد للفاعلين، تستخدم المحاور لإجراء التعاملات داخل القطاع الوظيفي كما يكون في ذلك، وأحد الصناديق الأربعة الملصقة (AGIL – ك هـ م ن) في (الشكل ٢,٣) يؤكد على أهمية المؤسسات في النظام الاجتماعي للمجتمع .عندما تتفاعل محاور القطاعات المختلفة في هذه الحالة مع المجالات المؤسسية المتباينة، مثل: الاقتصاد، الدولة، القانون. والأسرة والدين في النظام الاجتماعي، فإنهم في الغالب ما يتبادلون وسيطهم الرمزي بين تلك في مجال آخر. على سبيل المثال؛ تعطى وسيلة الحب والولاء في العائلة أو الاسرة للدولة من أجل الوفاء والالتزام بحق الدولة لاتخاذ القرارات في المجتمع، وهكذا يعطي الشرعية للدولة في مقابل سلطة العائلة، بينما من حق الأسرة والعائلة أن يحكموا شؤونهم الداخلية من دون تدخل واسع من قِبل الدولة. وأيضًا ينطبق ذلك على التبادل بين الاقتصاد والأسرة، وذلك من خلال أن الأعضاء العاملين في الأسر الذين يحصلون على المال من

---

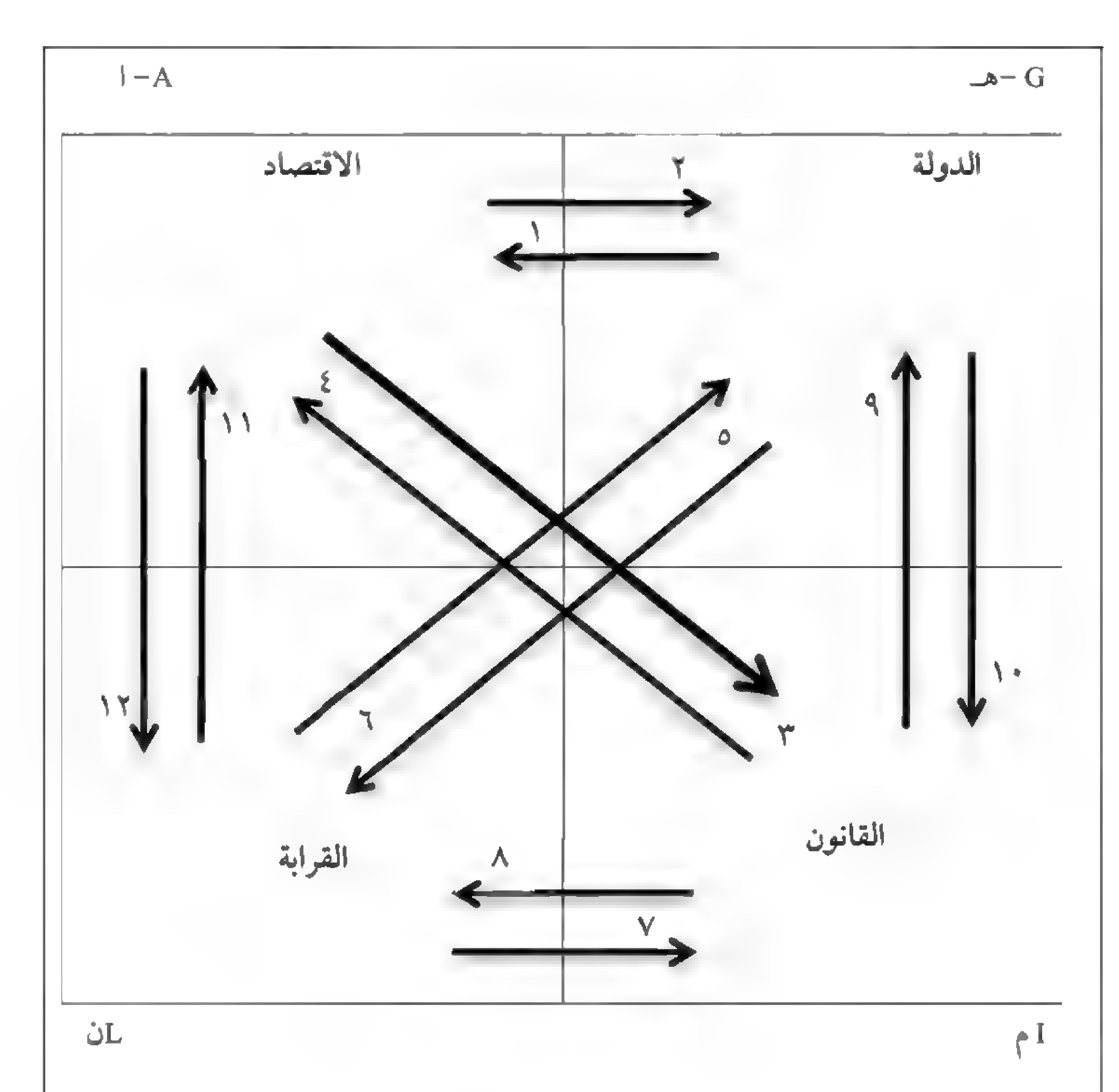
(٢٢) تالكوت بارسونز ونيل جيه سميللر. الاقتصاد والمجتمع (نيويورك: فري برس ، ١٩٥٦م). هذه الشروط هي نفسها كتلك التي ذكرها مالينوفسكي.

الاقتصاد، من أجل دعم الأسرة ماديًّا بناءً على ما يقدمونه من التزامات للعمل من جد ومثابرة في أدائهم لأدوارهم الاقتصادية، وهذا يشبه -إلى حد- ما نموذج أشكال الحب والوفاء، كما هو الحال بين الأسرة والدولة. كما أن وسائل الإعلام الرمزية المعممة والطبيعة تساهم في التغير، كوسيلة مؤثرة في المجتمع من خلال تبادل وسائل الإعلام المقدمة في (الشكل ٣ , ٢). وهذا النوع من التحليل لكل من بارسونز وسميلير جعلهما يشعران بأنهما كانا قادرينِ على فهم الروابط التي يربط العوامل في العلاقات المتبادلة بين المجالات المؤسسية المتباينة.

إن وسائل الإعلام الرمزية المعممة لديها عدد من السمات الخاصة، ومنها:[٢٣] (١) هي غالبًا التي تكون شروط الخطاب والحديث (٢) غالبًا ما تحمل الإيحاءات الأخلاقية وتصبح الأساس لأيديولوجيات الدولة لما هو صواب وما هو خطأ في النظام المؤسسي (٣) أنهم أيضًا يقيدون الموارد القيمة في حقهم الخاص التي يتم توزيعها في المؤسسات وبين المؤسسات. وهكذا، وباكتشاف موقع مؤسسة في الصندوق (AGIL – ك هـ م ن) يتعلم الفرد أولًا ما الاحتياجات لتلبية وظائف المؤسسة. وبعد ذلك، يقوم بفحص وسائل الإعلام الرمزية المعممة والمتطورة في المجال المؤسسي في قطاع وظيفي معطي وهي: (L–ن / I– م/ G- هـ/ A- ك) وأصبح من الممكن رؤية معاني الحوار، وتبادل المعلومات الإيديولوجية بين الممثلين في المجال المؤسسي؛ وبالتالي تكامل الأعمال في داخل المجال. وفي النهاية من خلال البحث عن البدائل المفقودة لوسائل الإعلام عبر المجالات المؤسسية يتعلم الفرد قدرًا كبيرًا من الديناميكيات التي تحدث بين العوامل في المجالات المتباينة، وخاصة تلك الديناميكيات التي تكمل المجالات المتنوعة في مجتمع أكثر تماسكًا.

---

(٢٣) كتابات بارسونز حول هذا الموضوع غير مكتملة ، ولكن انظر: "مفهوم القوة السياسية" وقائع الجمعية الفلسفية الأمريكية ١٠٧ (١٩٦٣م): ص .٢٣٢-٢٦٢؛ حول مفهوم التأثير "الرأي العام" ربع السنوي ٢٧ (ربيع ١٩٦٣م): ٦٢-٣٧ص؛ و "بعض مشاكل النظرية العامة" في علم الاجتماع النظري: وجهات نظر وتطورات ، محرران. جي سي ماكيني و اي .أ .تيراكيان (نيويورك: أبليتون-سنشري-كروفتس ، ١٩٧٠م) (New York: Appleton-Century-Crofts, 1970) ، ص. ٢٨-٦٨. انظر أيضًا: تالكوت بارسونز وجيرالد م. بلات ، الجامعة الأمريكية (كامبريدج ، م. أ: مطبعة جامعة هارفارد ، ١٩٧٥م) (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1975).



يتم تقديم أربعة مجالات مؤسسية فقط لتيسير التبادلات، مقتبس من ت. بارسونز و ن. ج. سميلسير ، الاقتصاد والمجتمع (نيبورك الصحافة الحرة ١٩٥٦م). (NewYork,NY:FreePress,1956) المفتاح المشترك بين المؤسسات

٢-١ يعطي الاقتصاد الإنتاجية في تبادل رأس المال من قبل الحكومة.

٤-٣ يعطي الاقتصاد عوائد و خدمات جديدة مقابل خدمات تنظيم المشاريع من القانون.

٦-٥ تعطي القرابة الولاء السياسي في مقابل تخصيص السلطة.

٨-٧ تعطي القرابة الدوافع لنمط المطابقة في مقابل حقوق القرابة والسلطة في الأسرة.

١٠-٩ يعطي القانون الدعم الطارئ للحكم في مقابل التنسيق الحتمي.

١٢-١١ يعطي الاقتصاد السلع الاستهلاكية والخدمات للأسر مقابل خدمات العمل.

الشكل (٣, ٢). المفتاح لوظائف المجالات المؤسسية في النظام الاجتماعي وتبادلاتها.

ناقش بارسونز فكرة أن أي نظام اجتماعي يتكون من -جماعة منظمة للمجتمع- كما في التحليل المشار أعلاه لنظام المجتمع، ويمكن أيضًا أن يؤدي إلى هذه الأنظمة الفرعية في المجتمع؛ وبالتالي فإن كل النظم الاجتماعية في أي مستوى لمنظمة اجتماعية يصبح متباينًا في أربعة محاور أساسية تكلم عنها بارسونز؛ سواء أدوارًا في جماعة، أو مكاتب أو تقسيمات داخل المنظمة، أو مناطق مجاورة، أو قطاعات في مدينة. كما أن الممثلين في هذه القطاعات يميلون إلى استخدام بعض هذه الوسائل الإعلامية الرمزية على الأقل الواضحه على المستوى المؤسسي، وعلاوة على ذلك فإنها تتبادل هذه الوسائط .

لقد بدأ بارسونز في تطوير مخططه للتأكيد على القطاعات داخل القطاعات، على سبيل المثال: اتخاذمؤسسة تجارية كمنظمة داخل الاقتصاد، التي تقع في النظام الاجتماعي للمجتمع كما هو موضح في (الشكل٤ , ٢) والتي تقع في القطاع (A-ك) للنظام الاجتماعي ، ويمكن تصور المنظمة مثل المجتمع ككل، ليعبر عنها على أساس (L-ن ، I- م، G -هـ ، A-ك.)؛ وبالتالي يمكن تقسيمها إلى هذه القطاعات الأربعة كما هو في(الشكل ٤ , ٢) بحيث إن: الإدارة تقع في قطاع (G -هـ) لتحقيق أهداف اجتماع مكتب المدير التنفيذي للمنظمة. وقد ينظر إلى قسم العلاقات الإنسانية على ضرورة وجوده كنمط للمعالجة ويوضع في القطاع (L - ن). في حين -أيضًا- أن الإداره تحتاج إلى الإجازة القانونية كنمط تكاملي يوضع في القطاع (I- م)، أو يمكن أن يكون نمط الكمون له دور تكيفي لتحقيق أهداف الإدارة من أجل التوافق مع عمل ما، وبالتالي يكون في القطاع (A-ك) التكيفي. وهكذا يمكن تجزئتها أيضًا إلى أربعة قطاعات إضافية؛ حيث تلبي المكاتب المختلفة في الإدارة متطلبات (AGIL - ك هـ م ن) على سبيل المثال، فإن متطلب (مكتب شركة العمل CEO) لتحقيق الهدف متمركزة في القطاع (G -هـ) لتنظيم العلاقات البشرية، ويمكن أن يُرى بوصفه نمطًا يلبي احتياجات متمركزة في القطاع (L -ن) للشركة في القسم الشرعي، الذي يمكن أن يرى ماليًّا للاحتياجات المكملة للعمل، من المحتمل أن يكون مكتب الدفع والمحاسبة قطاعًا معدلًا لقسم تحقيق الهدف في العمل؛ لأنه يظهر في مصادر للمكاتب الإدارية للعمل. وبالتالي فإن كل واحد من هذه المكاتب الفرعية يلبي متطلبات (AGIL - ك هـ م ن) في منظمة العمل التي هي جزء في القطاع

(G –هـ) للاقتصاد؛ الذي يقع بدوره في القطاع (A–ك) للنظام الاجتماعي في المجتمع، وقد تغيرت هذه العلاقات بعضها مع بعض مستخدمة وسائط عامة مختلفة. ولو أن هذا النوع من التحليل ظهر معقدًا جدًّا إلا أنه كان جزءًا من السبب لانهيار نظرية بارسونز عبر السنوات ، وقد أصبح نظام التصنيف معقدًا أكثر من أي وقت مضى؛ حيث تكون القطاعات ضمن القطاعات التي تتبادل ضمن مستوياتها المختلفة.

وهناك العديد من أفكار بارسونز الرائعة التي طور من خلالها مخططه الذي لايمكن تلخيصه في هذا التحليل الموجز، ولكن اسمحوا لي بتقديم بعض من الومضات النهائية التي قدمها بارسونز في مخططه.[٢٤] ومن المفارقات أن يذكرنا هذا بالفلسفة الاصطناعية الشاملة لهربرت سبنسر عام (١٩٣٧م) مشيرًا إلى أنه حتى لو لم يقرأها أي شخص آخر، مشيرًا لذلك بالتأكيد بارسونز . وبدأ بارسونز في وضع تصور لأربعة أنظمة للفعل* (AGIL –ك هـ م ن). انظر: (الشكل ٥ , ٢)، ويتكون من: النظم الثقافية، الاجتماعية، الشخصية، والعضوي، و -لاحقًا- السلوكي، وأسماه التسلسل الهرمي المعرفي، ويتم التحكم في هذا التسلسل الهرمي من خلال نظام سير الإجراءات لأعلى في السلم الهرمي. وتدل هذه الإجراءات على أنه كلما ارتفع نظام الفعل إلى أعلى السلم الهرمي في نظام المعرفي المعلوماتي كلما كان هو المنظم للثلاث الأخريات في أسفل هذا السلم الهرمي، وكل نظام له وظيفة. فالنظام الثقافي يكون أعلى السلم الهرمي، ويعمل على توفير المعلومات التي تمد النظم الثلاث الأخرى، في حين أن النظام العضوي يكون أسفل السلم الهرمي، ويمد جميع الأنظمة بالطاقة، أما بالنسبة لنظام الشخصيه فإنه يزود الأفراد بالطاقة للعب الأدوار في المواقف المختلفة في النظام الاجتماعي. ولذا فإن النظام الثقافي سيوفر أنظمة الرموز التي ستنظم النظام الاجتماعي والشخصي والعضوي. وبفضل الطاقه الكافية سيقوم هذا النظام الثقافي بتوجيه المعلومات للنظام الاجتماعي من (المعتقدات، والأيديولوجيات، والقيم والمعايير المنظمة للمجتمع إلخ). وسيمد نظام الشخصية النظام (بالالتزامات والأهداف والأخلاقيات). أما النظام العضوي -على سبيل المثال: التغيرات الفسيولوجية- كالتوتر في نظام الشخصية نتيجة للشعور بالذنب التي بدورها تؤثر على

(٢٤) تالكوت بارسونز، نظرية الفعل وحالة الإنسان (نيويورك: فري برس ،١٩٧٨م).

الرفَهِ (الفسيولوجي). ويوضح (الشكل ٢,٥) التسلسل الهرمي التفاعلي؛ حيث تقوم هذه العمليات في نظام واحد بتنظيم الطاقة المعبأة في التسلسل الهرمي دون خلل، وأن كل واحد من هذه الأنظمة يعمل على توفير الطاقة التبادلية في هذا النظام؛ وبمعنًى آخر أكثر وضوحًا يستمد النظام الثقافي طاقته من خلال نظم العمل ونظام الشخصية، ويزود أنظمة العمل الاجتماعية بالطاقة لبناء أنظمة التبادل ورموزها. وبعد ذلك فإن النظام الثقافي يزود الاتجاه المعلوماتي للنظام الاجتماعي بالمعلومات، والأيديولوجيات، والقيم والمعايير. أما نظام الشخصية فسيزود الثلاث الأنظمة بالأهداف والالتزام بالأخلاق، وحتى النظام العضوي كالتغيرات السيكولوجية والإجهاد. ولذا تؤثر الأنماط الأخلاقية على مستوى نظام الشخصية التي بدورها تؤثر على السيكولوجيا التي تنعكس على الرفاهية. ويوضح (الشكل ٢,٥) التسلسل الهرمي المعرفي الذي تنظم فيه المعلومات في نظام واحد، وينظم الطاقة التي يتم تعبئتها من أسفل السلم الهرمي لتنتقل إلى أعلى هذا التسلسل الهرمي، ويتم تعبئة الطاقة من مركز اﻻالنظام العضوي أسفل السلم الهرمي، وبشكل تسلسلي تنتقل هذه الطاقة إلى النظام الذي يعلوه وهكذا، وكل نظام يزود الذي يعلوه بما لديه من طاقة تختلف عن مراكز النظام الأخرى ليعود مرة أخرى من أعلى إلى أسفل. إن الطاقة تتحرك بالتسلسل الهرمي لأعلى من العضوي؛ حيث إنها تأخذ الموارد من البيئة التي تحرك التحكم المعلوماتي لأسفل التسلسل الهرمي مقيدة الطاقة لنشرها لكل مستوى النظام.

لقد سعى بارسونز لتصوير الأفكار النظرية القديمة مستخدمًا هذا التسلسل الهرمي. وعلى سبيل المثال، فإن تصور كارل ماركس للاغتراب يمكن أن يُعدَّ عائقًا بين النظام الاجتماعي ونظام الشخصية، حيث لا توجد هناك طاقة كافية للعب الأدوار في الموقع الحالي للنظام الاجتماعي، أو تحليل دوركايم مفهوم الأنومي (المعياري) لعدم كفاية المعلومات التي يقدمها النظام الثقافي لتنظيم تصرفات الأفراد؛ لأنهم يحاولون لعب دور في النظام الاجتماعي. إن هذا التفسير من خلال التصنيف، أو محاولة الكشف عن ظاهرة محددة مع افتراض أن هذا الاكتشاف المحدد يشكل تفسيرًا علميًّا. ولذا فإن معظم العلوم تسعى إلى تفسير الظاهرة من خلال إيجاد نماذج للعمليات الرئيسة، أو بواسطة الاعتماد على مبادئ أو فروض مجردة لتحديد دينامياتها.

G-هـ
A – ك
G – هـ
A- ك
A – ك
G – هـ
G
L – ن
G هـ
A– ك
I –م
L– ن
I– م
L– ن
I –م

الشكل (٤ , ٢) الأنظمة والنظم الفرعية في أنظمة الفعل الاجتماعي*



(الشكل ٥ , ٢) مفهوم بارسونز المعرف للتسلسل الهرمي للتنسيق المتبادل

لقد وضع بارسونز التصميم النهائي للمخطط قبل وفاته بوقت قصير؛ ولذا أدرك بارسونز أن من الأهمية لوجود مخطط معرفي لفهم العالم كله وديناميايته، وتضمن مخططه المعرفي لهذا العالم بأنه عضوي، ونفسي، وهادف، وأنظمة الفعل، ومنها (شخصي- وسلوكي- وثقافي- واجتماعي). (الشكل ٢,٦) يحدد أن أنظمة الفعل هي النظام التكاملي لنظام الفعل في العالم بأكمله، ولقد استخدم بارسونز النظام الكلي نظام الفعل بدلًا من النظام السلوكي، كما أن النظام العضوي في هذا التحليل يكون أكثر عمومية لاشتراك الجميع في مثل هذه الظروف الإنسانية، ومن خلاله توضع الأهداف الأساسية، من ثم تلبي المتطلبات التي تحقق الهدف (G –هـ) لكل الأنظمة الأساسية الأخرى، كما حل النظام السلوكي محل النظام العضوي في نموذجه الأول. واعتبر أن النظام الكيميائي- الفيزيائي هو النظام التكيفي (A–ك) للعالم؛ لأنه في النهاية هو الذي يقدم الموارد الضرورية لتزويد الأنظمة الأخرى بالطاقة. وتُعد النظم الأخرى الهادفة النهائية هي النظم الفرعية في نظام "الكمون"(L–ن) للعالم كله، كما هو موضح في منظور أنظمة العمل في القطاع التكاملي (I–م). وهذا بالتأكيد يعد نظرية كبرى، وبالأحرى نظرية أكثر قربًا للفلسفة من تفسير الظاهرة بدقة، وأنها بكل تأكيد نظام كبير، ولكن المفهوم كان مثل فلسفة سبنسر التركيبية لتوضح العالم الكلي من المنظور الإنساني، مع المجموعة أو الركائز الأساسية من الأفكار النظرية. والفرق كبير حيث إن سبنسر فسر الأخلاق (بنظام بارسونز الهادف) وعلم الأحياء (الأنظمة العضوية والسلوكية)، وعلم النفس (كنظام الفعل النفسي لبارسونز)، وعلم الاجتماع (نظام الفعل الاجتماعي لبارسونز) بالمبادئ والقوانين، وعلى النقيض قد أوضح بارسونز الأنظمة للأنواع، وكانت النتيجة مختلفة جدًا بالنظر إلى النظريات الوظيفية، مع أن بارسونز فيما يبدو قد بدأ من أفكار سبنسر الأساسية للإنتاج والتوزيع و (التكيف لدى بارسونز)، الاتساقية والانتظام و (تحقيق الهدف لدى بارسونز) التنسيق و (التكامل لدى بارسونز)، وإعادة الإنتاج بوصفه جزءًا لحفظ النمط (الكمون لدى بارسونز)، ولكن سبنسر بحث مبادئ معينة عن الديناميكيات، وحول ديناميكيات التباين خلال هذه المحاور الأربعة، بينما حاول بارسونز توضيح التصنيفات بإعداد الأنواع فقط الأكثر أهمية.

G– هـ
A– ك

G– هـ
A– ك
عضوي
I– م
L– ن

G– هـ
A– ك
الفيزيائية
الكيميائية
I– م
L– ن

G – هـ
A– ك
شخصي
سلوكي
أنظمة الفعل
اجتماعي
ثقافي
I – م
L– ن

G– هـ
A – ك
هادف
I– م
L– ن

I – م
L– ن

الشكل رقم (٦ ,٢) يوضح مفاهيم بارسونز للظروف الإنسانية وأنظمتها الفرعية .

انهيار الاتجاه الوظيفي مرة أخرى

The Downfall, Once Again, of Functionalism

إن انهيار الوظيفية قد حدث أولًا في أمريكا، وكان لدى المنظرين الأوروبيين عدد من التعاليم التي تنافست مع الوظيفية، مع العلم أن الوظيفية لم تكن سائدة في أوروبا كما هو الحال في أمريكا. ومع ذلك فقد بدأ نقد النظرية الوظيفية من قبل المنظرين الصراعيين الأوروبيين،[٢٥] وقد دام التحليل الوصفي

(٢٥) على سبيل المثال، رالف دارندورف ، "خارج المدينة الفاضلة: نحو إعادة تنظيم تحليل علم الاجتماع: "المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٦٤ (١٩٥٨م): ص. ١٢٥-١٣٥.

الأوروبي على عكس ما حدث في الولايات المتحدة؛ حيث اختفت الوظيفية فعليًا، وعلى سبيل المثال قام ريتشارد ميونخ (٢٦) (Richard Mündi) بإنشاء نموذج وظيفي على نحو (AGIL –ك هـ م ن) في القرن الحادي والعشرين قبل وفاته. وقد طور نيكس لهومان نموذج . (٢٧) (Nicias Luhmann)، وهو برنامج أقل تعقيدًا وطرح فيه متطلبًا وظيفيًا واحدًا، لتقليل التعقيدات الوظيفية الكامنة في الأبعاد الزمنية، والثقافية والثقافية اللازمة، والعالم الاجتماعي. وبالإضافة إلى ذلك فإن لوهمان كغيره من المنظرين الأوربيين الذين أكدو على أهمية وسائل الإعلام الرمزية المعممة للمجالات المؤسسية مشيدًا بنموذج بارسونز. وقد قدم أولئك المنظرون الأوروبيون جانبًا من التحاليل المفصلة والمهمة لعملياتهم في مجالات متعددة، وما يزال هذا النوع من التنظير موجودًا، ولكن في الولايات المتحده الأمريكية كنظرية وظيفية.

واجهت النظرية الوظيفية العديد من الانتقادات، ومنها: (١) المنطقية الوظيفية؛ لأن التفسير الوظيفي تحول إلى علوم غائية غير شرعية.(٢) جوهرية؛ لأنه نظر إلى الوظيفية على أنها تمثل أيديولوجية محافظة تشدد على اللامساواة والصراع وتبالغ في ذلك، وتعطي أهمية كبيرة للقوة المحافظة على الوضع الحالي. (٣) المبالغة التفسيرية في إعطاء أهمية كبيرة للفئات التحليلية، بدلًا من النماذج والمبادئ المفسرة للعمليات الديناميكية. وسأنتقل إلى كل واحدة باختصار شديد لعرض المقالات قبل إنهاء حالة التنظير الوظيفي.

١ – المشكلات المنطقية في التفسيرات الوظيفية (٢٨)

Logical Problems in Functional Explanations

يرى بعض فلاسفة العلم وعلماء المنطق أن هناك مشكلتين كبيرتين هما :(أ) الغائيات غير الشرعية. (ب) تكرار الكلام أو الإطناب. فالغائية غير الشرعية تحدث عندما ينظر إلى الوضع

---

(٢٦) لأفضل هذه الجهود، انظر عمل ريتشارد مونش نظرية الفعل: نحو توليف جديد يتجاوز بعد بارسونز (لندن: روتليدج ، ١٩٨٨م).

(٢٧) نيكياس ليهان، تفريق المجتمع، ترجمة: اس. هولمز و سي. لامور (نيويورك: كولومبيا. مطبعة الجامعة ١٩٨٢م)؛ انظر أيضًا: نظرياته في النظم (ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد ، ١٩٩٥م).

(٢٨)روبرت ك. ميرتون، "الظاهرة والوظائف الكامنة" في كتابه النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية (نيويورك: فري برس)، ص ٤٥-٦١. وانظر أيضًا: "مناقشة بيرسونز" لميرتون "موقف النظرية الاجتماعية" استعراض علم الاجتماع الأمريكي ١٣ (١٩٤٨م): ص ١٦٤ – ١٦٨. استعراض شامل ونقد للتنظير الوظيفي، راجع: جوناثان تيرنر وألكسندرا ماريانسكي. الوظائفية (متنزه مينلو. ك أ: بنجامين كامينغز ، ١٩٧٩م).

النهائي، أو نتيجة لعملية، بوصفها مسببات في العمليات التي أدت إلى هذا الوضع النهائي، دون تحديد المكانيزمات التي حدثت من خلالها الانتكاسة عن طريق إنهاء العلاقة السببية إن الغائية الشرعية سوف تكون علمًا عندما يتم تحديد هذه الميكانيزمات. وعلى سبيل المثال يمكننا أن نتخيل نظامًا اجتماعيًّا ذا أهداف محددة؛ ليتحقق في النهاية من خلال تخصيص الموارد واستخدامها في بناء أنظمة ثقافية وبنائية، والتي تؤكد على أن هذه الأهداف تم إنجازها أولًا؛ وبعد ذلك تم تقديم البرهان عليها في المقابل في مثل هذه العلوم الغائية، فإن التفسيرات الوظيفية غالبًا ما تصف الخروج للنظام الثقافي أو البناء الاجتماعي، لتلبية متطلبات وظيفية معينة من دون تفصيل كيفية حدوث هذا البناء، وكيفية عمله فقط؛ لكي يكون لديها مخرج محدد بخصوص المتطلبات الوظيفية المطروحة. فالحالة الأخيرة هنا المتطلب أو الشرط الوظيفي يعد من الأسباب الغامضة التي تدخل في عملية البناء الاجتماعي.

ولذا فإن أقل نظام مؤسسي يستطيع أن يتطور من دون تحديد كيفية العمليات، أو الميكانيزمات التي بواسطتها، أو من خلالها أدت إلى التغيير النهائي. إن علم الغائية هو تفكير دائري، وإن العديد من النظريات الوظيفية تكشف المنطق الدائري، وبالتالي، فإنها تكرارات، وعلى سبيل المثال فإن العديد من النظريات تقوم بطرح بناء معطًى لتُلبي متطلبًا محددًا، وهكذا تعزز إحياء النظام الاجتماعي، وبالتالي فإن البناء هو سؤال يعزز البقاء، ويمكن للفرد أن يرى الدائرية هنا؛ لأن الحقيقة هي أن النظام هنا يؤخذ للتأكيد على أن المتطلب الوظيفي يتم تلبيته، وكيف يمكن لنا أن نعرف؟ لأن المؤسسة تعيش في هذا النظام، ولهذا يجب أن يلبى هذا المتطلب، وما الذي يتم تفسيره؟ أي شيء يمثل هذا المنطق الدائري غير الواضح.

٢-المشكلات الجوهرية لتفسيرات الوظيفية[٢٩]

Substantive Problems With Functional Explanations

إن المشكلات الجوهرية للتفسيرات الوظيفية كان أكثر تدميرًا لها في الستينيات، وهو الانتقاد الذي أعاد إيقاظ الصراع والنظريات النقدية في الولايات المتحدة ضدها، ولقد أخذ هذا النقد أشكالًا متعددة، فقد جادلت نظريات الصراع بأن بارسونز على وجه التحديد، والاتجاه الوظيفي

(٢٩) انظر: داهريندوف، "خارج المدينة الفاضلة" (المذكورة في إيضاح ٢٥).

عمومًا، اهتمًا -بشكل كبير- بالبناء وعمليات كيفية الحفاظ على المجتمعات. وبذلك فإن قوى التحول الاجتماعي -وبخاصة عدم التكافؤ والتطابق والصراع الذي يغير المجتمعات- لم تعط الاهتمام الكافي في الوظيفية مقارنة بنظريات الصراع؛ ذلك لأن الوظيفية تركز على المتطلبات التي تلبي وجود البناءات الاجتماعية، كما أن الترابط بين البناءات الاجتماعية سوف يسمح للنظام بالاستمرار والاستقرار، وكذلك الحال بالنسبة إلى المتطلبات ومدى تلبيتها لاحتياجات النظام. وقد نظر بارسونز في تفسيره لجوهر النظرية الوظيفية بأنها أيديولوجية محافظة لإضفاء الشرعية على مكنزمات الضبط والسلطة. كما تبنى هذا الفكر المنظرون الوظيفيون بدءًا من كونت، ثم مع دوركايم فيما يخص الانحراف، والصراع، والتوتر كديناميكيات غير مناسة، أو علاجية أكثر من كونها ديناميكيات تفسر النظم الاجتماعية المتباينة، وبالتالي فإن هذا الهجوم القاسي على الوظيفية أثّر فيها، رغم أن هناك جزءًا منها كان صحيحًا؛ ولذا عظّم هذا الهجوم على الوظيفية المجادلات الأكثر مبالغة إلى درجة التشويه في الوظيفة لبارسونز. وبالإضافة إلى ذلك الهجوم الذي ركز على جوهر الوظيفية أيضًا ظروف الصراع و التغير الاجتماعي الذي حدث في المجتمعات الغربية عام (١٩٦٠م). وفي هذا السياق كان ينظر للنظريات الوظيفية على أنها غير قادرة على تفسير الموارد الواضحة للتغير؛ مما أدى إلى تخلي جيل جديد من القائمين عن النظريات الوظيفية في علم الاجتماع، وبالفعل كان ذلك الهجوم على نحو لم يكن أحيانًا منصفًا، كما أوضح بارسونز بوصفه شخصًا رجعيًّا ومحافظًا، في حين يؤكد الواقع بأنه كان شخصًا متحررًا سياسيًّا؛ لوقوفه علانية في هجومه ضد جنون العظمة للسيناتور جوزيف ماكارثي على اليسار السياسي في أمريكا خاصة في التعليم العالي. وبشكل غير منصف فإن نقد نظرية بارسونز ذهب خلف النقد الفكري لنقد الأفراد القائمين على الاتجاه الوظيفي كبارسونز، أو الكائنات الحية، أو -بشكل ساخر- إعادة تكوين مناخ ماكارثي الفكري من اليسار السياسي من عام (١٩٦٠ - ١٩٧٠م).

٣-طرق التفسير الغامضة[٣٠] Deficient Methods of Explanation

يمكن فحص النقد عن المشكلات المنطقية، ولكن من الأفضل أن يتم فصلها بعيدًا عن التحيز، فقد أكد بارسونز أن المكان لحدث تجريبي يمكن تفسيره تفسيرًا علميًّا.كما صنف البناء في

(٣٠) انظر: تيرنر وماريانسكي، الوظيفية، للتفاصيل (ورد ذكره في إيضاح ٢٨).

نظامه النوعي، وكان إنجازه هذا للبناء تصنيفًا وليس تفسيرًا؛ لأن التفسير يتطلب أن يكون للنظرية مبادئ ونماذج تحدد العمليات الديناميكية التي تحدث عندما يتصرف الناس ويتفاعلون، وتحدد تنظيم الناس أيضًا. وقد عرض بارسونز أنواع الارتباطات من دون تحليل كثير للعمليات المستمدة من التشكيلات الاجتماعية الثقافية، والنتيجة بأن هذا النوع من النظام التفسيري في نظرية الفعل لبارسونز أصبح معقدًا بلا استخدام؛ نتيجة لإضافة تصنيف داخل تصنيف باجتهاد لتوضيح الكثير من الواقع الاجتماعي. فالبنية الأصلية لمخطط (AGIL – ك هـ م ن) المقصود قد وضع لأي منظر للفعل ؛ لأنه ملتزم بالتصنيف في الصناديق، وقد كان هناك منظران آخران إلا أن دورهما قليل لتوضح البناءات الاجتماعية.

وعلى النقيض من إستراتيجية بارسونز للتفسير، لقد استخدم هربرت سبنسر تصنيفه للتأكيد على مجالات الواقعية التي هي أكثر حاجة إلى التفسير عن طريق مبادئ مجردة. وكانت تصنيفاته نقطة البداية للتفسير، وليست نقطة النهاية. وهكذا كان نظام تصنيف سبنسر للمتطلبات والشروط يسيرًا، وكانت بداية للتنظير، كما قدمت التفسيرات الفعلية في عمل سبنسر ولأدنى حد، مثل دوركايم القوانين المجردة والمبادئ التي تسلط الضوء على العمليات الديناميكية، على الرغم من أن المبادئ في نظام دوركايم أكثر ضمنية بمقارنتها بنظريات سبنسر. وعند العديد من وجهات النظر يعد هذا إلى حد بعيد الأكثر تدميرًا للوظيفية، وبخاصة التي تمت ممارستها عن طريق بارسونز.

لقد كانت النتيجة النهائية أنني قد أكدت الإخفاقات الفرضية للتحليل الوظيفي في علم الاجتماع في الولايات المتحدة في عام (١٩٩٠م)، إن لم يكن قبل عَقد من الزمان، وما زال الاتجاه الوظيفي يسأل ويحاول إجابة سؤال مهم وهو: ماذا يجب أن يحدث لمجتمع لكي يبقى متكاملًا من الداخل لمواجهة المشكلات الأخرى للتكيف في البيئة؟ هذا هو السؤال الذي يخدع هؤلاء المهتمين بفهم العالم الاجتماعي، وهو السؤال الموجه لكل النظريات الوظيفية، هل من الممكن؟ وللإجابة عن هذا السؤال؛ تبرز العديد من الأفكار المطورة والمحتملة في النظريات الوظيفية دون الوقوع في فخاخ الموضوعية والمنطقية المؤكدة من النقاد. وفي نهاية هذا الفصل سأوضح كيف حدث تجنب التحليل الوظيفي، وإنتاج نظريات تفسيرية حقيقية.

الخاتمة: هل يمكن الإبقاء على الاتجاه الوظيفي؟ Conclusion: Can Functionalism Be Saved ?

كانت الإجابة بالإيجاب بوضوح؛ لأن مذهب كل من دوركايم وسبنسر للوظيفية وفر تفسيرات نظرية للعمليات الاجتماعية الرئيسة، ولهذا فإن الطريق لإنقاذ الاتجاه الوظيفي هو تبني الطرق التفسيرية المقترحة من قبل كونت، سبنسر ودوركايم، في حين يكون التخلص من مفهوم المتطلبات الوظيفية ومتطلباتها على الأقل في الشكل الأكثر تأكيدًا في النظريات الوظيفية. لقد اقترب رادكليف براون من فهم ما كان يحدث مع التحليل الوظيفي؛ إذ اراد أن يكون نموذج تفسير قابلا للتطبيق، ولكن في النهاية كان تحليله غائيًا، وكثير التكرار، ومع أن وجهة نظره للمتطلبات "الشروط الضرورية للوجود" جاءت قريبة مما اقترحته. والمطلوب هو عرض الأنظمة الاجتماعية على أنها خاضعة لضغوط الاصطفاء التي نشأت من: (أ) بيئاتهم الخارجية (ب) بيئاتهم الداخلية كالنمو، والاختلاف؛ حيث إن النمو والتمايز ينتج عنهما العديد من المشكلات اللوجيستية الجديدة التي بدورها تولد ضغوطًا منطقية على اختيار العناصر الفاعلة في النظم الاجتماعية.(٣١) وأصبحت هذه الضغوط واضحة في القوى الأساسية للعالم الاجتماعي، مثل: الجاذبية في علم الطبيعة، أو الاختيار في علم الأحياء اللذين يعملان على بناء أنواع جديدة من الأبنية الاجتماعية، والنظم الثقافية الحاضرة -كمحاور أو طرق-. ولذا فإن العالم الاجتماعي مثل الطبيعي والبيولوجي يتم إنشاؤه حول القوى الكامنة التي تنشىء ضغوط الانتقاء في ممثلين، وبصورة فردية في الأنظمة الاجتماعية، مجبرة بدورها على أن تنشئ أنواعًا جديدة من الأبنية الاجتماعية؛ استجابة لهذه الضغوط، أو تنهار وتعاني من تبعات التفكك.

إن التحليل الوظيفي التقليدي المتعلق بتحليل القوى وضغوط الانتقاء، كما هي، طرح -بسهولة- قائمة من المتطلبات الوظيفية والبناءات الاجتماعية التي تلبي هذه المتطلبات، فإن النوع نفسه من الجدل الضعيف يحدث في علم وظائف الأعضاء والطب عندما نتحدث باختصار. وعلى

---

(٣١) انظر: الديناميكا الكلية (ماكروديناميكس): نحو نظرية حول تنظيم السكان (نيوارك، نيوجيرسي: مطبعة جامعة روتجرز ، ١٩٩٥م)، ومؤخرًا، كتابي المبادئ النظرية لعلم الاجتماع ، المجلد الأول حول الديناميكا الكلية (نيويورك: سبرينغر ، ٢٠١٠).

سبيل المثال، يمكننا أن نسمع علماء علم وظائف الأعضاء يؤكدون على أن وظيفة الرئتين أن تشبع الخلايا بالأوكسجين، وإزالة ثاني أكسيد الكربون من الجسم، وهذا بمفرده لا يوضح منشأ الرئتين ولماذا قد جدوا تماما كما هو الحال في ربط البناء الاجتماعي بالمتطلب الوظيفي الذي لا يفسر كيف نشأت الأبنية الاجتماعية، وأن الجدل التطوري هو الأكثر فهما في الماضي البعيد. وكلما كبرت الكائنات الحية كانت هناك ضغوط انتقاء لطرق جديدة لتوزيع الهواء، وإزالة الفضلات بين الكائنات الحية الأكبر حجمًا، كما أن الانتفاء الطبيعي الآخر، وقوى التطور كالطفرات وتدفق الجينات، والانحراف الوراثي، قد عملت على مر الزمن لإنتاج الرئتين والأوردة؛ لانتشار الدم في أنحاء الأجساد الأكثر حجمًا، وكانت هذه الكائنات الحية أكثر عرضة للبقاء والتكاثر. وعبر الزمن نشأت أجناس جديدة من الكائنات الحية من خلال الصحة المتزايدة التي تم إنتاجها بالإمكان عن طريق مضخة القلب لضخ الدم مملوءا بالهواء خلال الأوردة والشعيرات الدموية التي تسمح بدخول وتفريغ الفضلات. إن تفاصيل هذا النوع للتفسير ليست مهمة كمنطقهم: أن التفسير يعطي تصورا حول العمليات والميكانزمات كقوى الاصطفاء الطبيعي على التغيرات لمدى زمني طويل، والتي بواسطة ضغوط الانتقاء لنظام انتشار أفضل؛ قد أنشئت نظم جديدة متكيفة في أجناس جديدة من الكائنات الحية، ويعد هذا إعادة توجيه بسيط من التفسيرات الوظيفية يزيل الحشو والغائية.

ويمكن أيضًا أن يدرج هذا المنطق في التفسير الوظيفي في علم الاجتماع. عندما يجد السكان أنفسهم تحت ضغوط إما لإعادة التنظيم أو الفناء. وربما لم يكن العديد من السكان في الماضي قادرين على تطوير أبنية اجتماعية جديدة، وتحديث نظم ثقافية؛ نتيجة لضغوط الانتقاء المعينة، وقد جعل هذا الوضع سكان الداخل عرضة للتفكك أو الغزو من قبل سكان آخرين منظمين بصورة أكبر، وقادرين على تطوير أبنية جديدة، ونظم ثقافية طالما كانو واقعين تحت ضغوط الانتقاء. هذا فضلًا عن إيجاد أنواع جديدة من الأبنية الاجتماعية عن طريق استعارتها من مجتمعات أخرى، أو عن طريق الابتكار، أو عن طريق ما يعرف بفكرة المحاولة والخطأ. وإذا ما نجحوا في إيجاد أبنية اجتماعية تعمل على التخفيف من تلك الضغوط، سيتم الاحتفاظ بتلك الأبنية في المجتمع. ليس ذلك فحسب، بل سيتم أخذها والاستفادة منها من سكان آخرين. وسيؤدي هذا العمل -بلاشك- إلى التباين (نوع من الأنواع الثقافية الاجتماعية الجديدة). وإذا ما عدنا إلى الجدل المبكر حول الوظيفية فقد كانت

الوظيفية تستحضر هذا المنطق بشكل ضمني. فعلى سبيل المثال: فإن سبنسر الذي وضع مقالات عن كيفية تطور الأنظمة، وطرح هذه الفكرة على ضرورة التوزيع للسكان، بالإضافة إلى ذلك، فقد استحضر جدل للقائمين على الانتقاء. فكلما زاد نمو السكان ويكونون تحت ضغط لإيجاد طرق جديدة في توزيع الموارد ، والناس، والمعلومات، أو مواجهة التبعيات غير المتكاملة. وإذا كانت الفكرة ناجحة في مواجهة هذه الضغوط، فسيؤدي إلى التباين لمجموعات جديدة من الأبنية الاجتماعية والعناصر، وربما عناصر لثقافة جديدة.

وعلى العكس من الاصطفاء الطبيعي للظواهر والموروثات الأساسية للكائنات الحية، والكائنات فوق العضوية لديهم أهداف واعية وأغراض لكل مستويات التنظيم التي يمكن حشد الموارد نحوها؛ لأنها لا تضطر إلى الانتظار إلى انتقاء طفرات عشوائية، ولأنها ليست بحاجة لذلك، أو الاختيار الذي ينتهي بتوزيع السمات الجديدة. وعلى النقيض فإن الكائنات الحية، كالأفراد أو الوحدات المنظمة لأنشطتهم يمكن أن تبتكر وتستعير وتتدرج في المحاولة والخطأ. و إذا نجحت في تخفيف المشكلة مثلًا: كالتوزيع فسوف يتم نسخ الابتكار ونشره عبر السكان بطريقة سريعة جدًا.

في حقيقة الأمر لدى كونت، وسبنسر ودوركايم العديد من العناصر في نظرياتهم المهمة في (الشكل ٢,٧) لقد صورت عمليات السكان كما تنشأ ضغوط الاصطفاء عبر محاور نقدية قليلة وأساسية للكائنات فوق العضوية بوصفها نمطا من الواقعية الحيوية: الاتساق والانتظامية خلال (السلطة والثقافة والتوزيع (إن هذه ليست متطلبات وظيفية كقوى أساسية تورث في الكائنات العملاقة الذكية التي من خلالها يتم توجيه ضغوط الانتقاء، مسببة تطوير قدرات تناسلية للكائنات لأنواع جديدة من الأنماط الثقافية الاجتماعية، أو يعاني من العواقب غير المكتملة للفشل. لقد كان لدى كونت، وسبنسر ودوركايم نوع من النموذج البيئي (انظر: الفصل ٤) كنظرية وظيفية متضمنة في تصورهم في كيفية أن الاحتياجات المدرجة مبكرًا تضغط على الفاعلين، وتسبب أنواعًا جديدة من الأنواع الثقافية الاجتماعية للكائنات العملاقة.

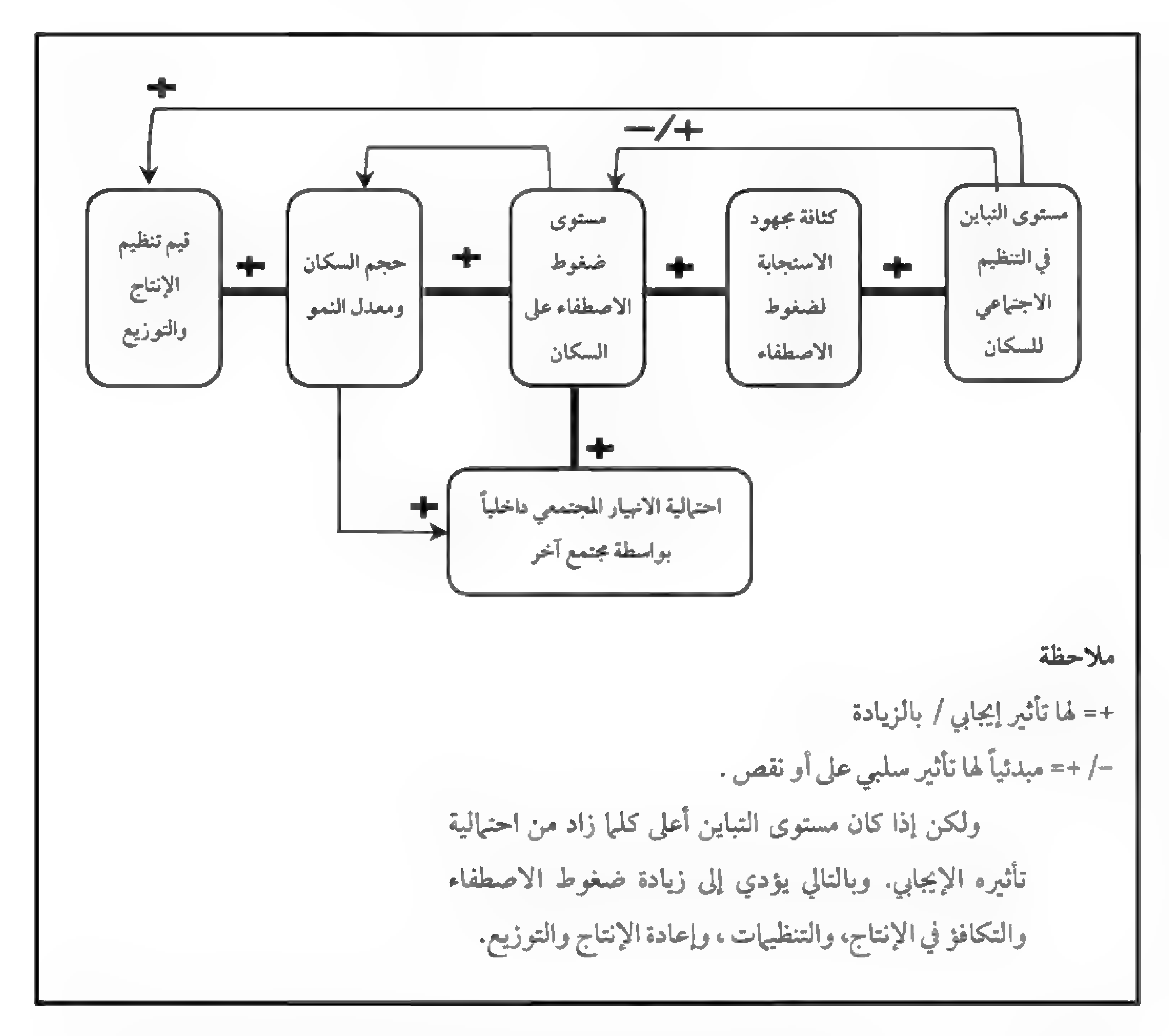
لقد أدركوا أن نمو السكان كان القوة الأولى في تطور الكائنات فوق العضوية؛ لأن النمو

ينشئ ضغوط الانتقاء الموروثة في الإنتاج وإعادة الإنتاج واللائحة، والتوزيع كمملكة الكائنات فوق العضوية للعالم الحيوي. وهكذا تحدد ضغوط الانتقاء من خلال القوى الأساسية التي تسمح بإنشاء وجود الكائنات فوق العضوية وتطورها. إن التاريخ عبرة لفشل المجتمعات التي لا يستطيع أفرادها الاستجابة الكافية لهذه الضغوط مثل تاريخ الكائنات الحية الذي يكون نهاية للأجناس المتصارعة. ولكن بعض الأجناس من الكائنات الحية والكائنات فوق العضوية يجدون طرقا لمواجهة ضغوط الانتقاء هذه، على الأقل لفترة ما؛ لأنها قد طورت الاستجابات الكافية للضغوط لأنماط جديدة للإنتاج، أو إعادة الإنتاج، واللائحة والتوزيع، وللكائنات العملاقة، وأصبحت الضغوط أيضًا من المنظمة الداخلية للمجتمعات حيث تصبح أكثر تعقيدًا. إن التباين في حد ذاته، كما هو مؤكد لديه عند كونت، وسبنسر، ودوركايم ينشئ ضغوطًا للانتقاء من التكامل أو مما أراه عناصر للاتساق والانتظامية كقوى. فالتباين الذي يزيد من عدم التكافؤ والتكامل يولد ضغوطاً كبيرة لأنماط جديدة من التنظيم، كما كان مؤكدا لدى سبنسر، أن استخدام القوة لحل المشكلات للتنظيم غالبًا ما تولد ضغوطًا داخلية جديدة تأتي من خلال عدم تكافؤ القوة؛ حيث إنها تزيد من عدم المساواة في توزيع الموارد، وبالتالي مستوى التكامل. كما تنشىء الزيادات في الإنتاج ضغوط اصطفاء جديدة خلال التنظيم والتوزيع تعمل في النهاية كقوى لإعادة الإنتاج. وينشىء التعقيد للكائنات فوق العضوية عندما تزداد وتستمر مسببة ضغوطًا على الاصطفاء؛ ولهذا السبب فإن المجتمعات تُطور على نحو مستمر يزيد من التعقيد. وكلما تطورت المجتمعات الأكثر تعقيدًا مثل (المتقدمة الصناعية) فإنه يصبح لديها القدرة على إزالة المجتمعات الأقل تطوا وتعقيدًا بواسطة: الحرب، أو الفتوح، أو الاستعمار، أو الإبادة الجماعية للكائنات الحية، والفوق العضوي، وهي الجماعات الإنسانية، أو العمليات المدمرة الأخرى، وعلى هذا فإن البيئة الخاصة بالكائنات فوق العضوية ليست فقط البيئة الحيوية للعالم الحيوي، ولكنها البيئة الحيوية للعالم الثقافي الاجتماعي. فعندما تتنافس القوى الاجتماعية ويتحاربون سيدمر بعضهم بعضًا، ولا يفوز بالنصر إلا الأقوى ليكوّنوا مجتمعًا أقوى، وهذه كانت العملية المؤكدة بعبارة سبنسر الشهيرة "البقاء للأصلح". إن الحرب

كانت كما اعتقد سبنسر، واحدةً من القوى القائدة في التاريخ في نوع من الكفاح الدارويني بين الأجناس للكائنات العظمى، وإن المجتمعات الأكبر والأكثر تعقيدا عامة هي التي تفوز بالحرب، ويتم القضاء على المجتمعات الأصغر باستعمارها، أو أن يتم دمجه في مجتمع أكثر تعقيدًا، وبالتالي يتم تصعيد النموذج الشكلي للتباين في مكملة العمالقة. ولذلك فإن حجم السكان ونموهم هو مصدر من ضغوط الاصطفاء ، ومصدر آخر يتمثل في الحرب والصراع الدارويني، ويبقى مصدر ثالث هو الأعباء السوقية التي تأتي مع التباين نفسه.

ولهذا قد أصبح من الممكن الإجابة عن السؤال الذي جعل الاتجاه الوظيفي مثيرًا للاهتمام دائمًا، وحالما نفقد فكرة المتطلبات فإنه؛ يقوم بعمل تغير بارع وأساس تجاه القوى الأساسية لمنظمة الكائنات فوق العضوية. وهذه الكائنات ككل الكائنات الحية في المملكة الحيوية عرضة لضغوط الاصطفاء من مصادر مختلفة، ولكن ليس مثل كل الكائنات الحية، فإن الكائنات فوق العضوية مثل الإنسان يمكنها أن تستخدم الوعي على كل المستويات في النظام الاجتماعي، ومشاركة العناصر الرئيسة للكائنات فوق العضوية، والقدرة على الاستجابات وتحمل ضغوط ذلك الاصطفاء؛ وبالتالي فإن هذا النوع من المجتمعات قابل للتطور والنمو سريعًا، بخلاف المجتمعات التي تنمو ببطء، وتحتاج إلى فترة زمنية لتطورها.

لقد تم الاحتفاظ برؤية الاتجاه الوظيفي، ولكنه حتى الآن لا يزال نظريًا، وهناك قبول لبعض مصطلحاته المستعارة من علم الأحياء، وعلم البيئة في دراسة الكائنات فوق العضوية، المكونة من أجزاء، وأشخاص، وجماعات، وطبقات، ومؤسسات قادرة على الاستجابة لضغوط الانتقاء، وإبداء الملاحظة حول أنفسهم في الفئات الاجتماعية الثقافية الجديدة. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا النمط من التحليل غير متساوٍ في التكامل والصراع والأمراض بين هذه الكائنات فوق العضوية حال نموه أو تباينها، فضلا عن الموارد العديدة لضغوط الانتقاء لهذه الكائنات فوق العضوية.



الشكل رقم (٢,٧) تصور تيرنر لديناميكية القوى على مستوى الوحدات الكبرى وضغوط الاصطفاء على السكان.

الفصل الثالث

تنظير الصراع
CONFLICT THEORIZING

قد يكون تقسيم الموارد غير متساوٍ فعليًّا في جميع الأنظمة الاجتماعية، حيث يحصل البعض على دخل أكثر من الآخرين سواء في النقود، والسلطة، والنفوذ، والاحترام، والهيبة، والصحة، والمعرفة أو أي موارد أخرى؛ ولذا فإن عدم المساواة يوجِد دائمًا بعض التوتر بين من لديهم موارد وفيرة بالمقارنة مع من لديهم موارد قليلة، وهذا التوتر تحت ظرف محدد يقود إلى الصراع بين الاثنين. ولقد أدرك رواد علم الاجتماع الأوائل هذه الحقيقة الأساسية للحياة الاجتماعية وبخاصة هربرت سبنسر (Herbert Spencer)، كارل ماركس(Karl Marx)، ماكس فيبر (Max Weber)، وجورج سيميل (Georg Simmel)، ولكن عالج كل منهم موضوع الصراع بطريقة مختلفة.

نظريات الصراع المبكرة في علم الاجتماع
Early Conflict Theories in Sociology

نظرية هربرت سبنسر للصراع Herbert Spencer's Theory of Conflict

نادرًا ما يُذكر عمل سبنسر (Spencer's work) عند الحديث عن نظرية الصراع؛ لأنه كان محسوبًا على النظرية الوظيفية التي انتقدت بشدة في العصر الحديث بواسطة علماء الصراع المنظرين. وبالرغم من أن سبنسر أكد على بعض العلاقات الجوهرية بين السلطة، وعدم المساواة، والتهديد

والصراع، حيث كان يرى سبنسر[1] أنه كلما نمت المجتمعات وأصبحت أكثر تعقيدًا فإنها تعاني من ضغوط الاصطفاء الطبيعي، وسيطرة الأقوى، والتعداد السكاني. وكان لضغوط الاصطفاء وتدعيم السلطة بدرجاتٍ متنوعة، وإنما تتمركز بشكل نسبي في أيدى مجموعة قليلة. نتيجة تشجيع السلطة وتمركزها، لتستخدم لجلب الموارد من مجموعة أخرى لها، وبالتالي تزيد من مستوى عدم التكافؤ في المجتمع الذي بدوره يؤدي إلى عدم المساواة الاجتماعية، ويتعامل الحلفاء الساخرون مع تلك التهديدات الملحوظة لتشجيع المزيد من السلطة. وبالتالي كلما عظم التهديد كلما كان احتمال تركزها الأكبر في أيادي القلة، وهذا بدوره يقود الممثلين السياسيين وحلفاءهم للتمكين من السلطة والاستيلاء عليها؛ لتمويل المتطلبات المتزايدة للتحكم الاجتماعي.

ومن الممكن حصر المجتمعات في هذه الدائرة التصاعدية لاستخدام السلطة للحصول على الموارد، مولدة بذلك عدم المساواة والتهديد الذي يتطلب أن تستخدم الصفوة سلطتها الأقوى للاستيلاء على الموارد أكثر من ميلها إلى القمع بالتهديد، وعلى المدى الطويل، فالمجتمعات المحاصرة داخل هذه الدائرة ستولد بالنهاية ظروف الصراع المفتوح بين طبقات المجتمع. وقد طوَّر سبنسر أيضًا نظرية جيوسياسي التي تتداخل مع الدينامية الداخلية للمجتمع. [2] كما ناقش سبنسر تطور المجتمع الذي يتضمن نموا متزايدا في حجم السكان، وتنظيمهم في نشاطات متنوعة، وكان معظم هذا الحجم نتيجة لحصيلة تاريخية متميزة للحرب؛ لأن المجتمعات الأكثر تنظيمًا، وقوة، وإنتاجية، تتغلب على قلة الإنتاجية وضعف القوة، وبشكل نموذجي تتحد المجتمعات المقهورة في مجتمع أكثر قوة بشكل ما. وبهذه الطريقة تتم زيادة الحجم والتعقيد في المجتمع المركب وخاصة بين الأعضاء المحتقنين ومتعددي الثقافة من السكان المقهورين، والمشكلات المتزايدة للتنظيم والتحكم الاجتماعي. وقد أدت المشكلات على مدى التاريخ إلى تعزيز تمركز السلطة، والسيطرة على الموارد لدعم التحكم الاجتماعي من الدولة؛ مما يؤدي إلى زيادة عدم المساواة، والاستياء من قبل الرعية،

---

(١) هربرت سبنسر، مبادئ علم الاجتماع ، ثلاثة مجلدات (نيويورك: أبليتون - سنشري-كروفتس، عام ١٨٩٥م، تم النشر الأصلي في شكل تسلسلي ابتداءً من عام ١٨٧٤م)، المجلد ١، الصفحات ٤٧٩-٥٥٨ و المجلد ٢، الجزء الخامس الصفحات ٢٢٩ - ٦٤٣.

(٢) المرجع نفسه، المجلد. ٢، الجزء الخامس.

وازدياد احتمالية الصراع، بينما تزيد الحرب من حجم وتعقيد المجتمعات عبر الطريق الطويل للتطور البشري، حيث أدت إلى تحريك دينامية المجتمع نحو الصراع.

نظرية الصراع لكارل ماركس Karl Marx's Theory of Conflict

لقد كان كارل ماركس المنظر الأكثر تأثيرًا في التنظير الكلاسيكي على مستوى التنظير الصراعي المعاصر(٣) وقد ذاع صيته في كل مكان لعدة أسباب، هي: أولًا: أسّس نظرية عامة في عدم المساواة والصراع. ثانيًا: دمج تحليل الصراع مع الأجندة السياسية لإيجاد نوع جديد من المجتمع "الاشتراكي". وثالثًا: قدّم نظرية للتاريخ(٤) بوصفه حقبًا متتالية من الصراع، بين من يملكون السيطرة على وسائل الإنتاج في المجتمع والعاملين. وبذلك كان لتحليل كارل ماركس للصراع أبعاد كثيرة، وهذا ما سوف نتعرض له في النظرية الأساسية للصراع عند الحديث عن النظريات النقدية والأجندة السياسية والفكرية له.

ولذا فقد رأى ماركس أن هدفه الأساس ينصبُّ على عرض التناقضات في أنماط الرأسماليين للإنتاج الذي سيكون بدوره مرشدًا في ثورته باسم الاشتراكية، بينما تمثل الرأسمالية بالنسبة لماركس نظامًا اقتصاديًّا؛ حيث يمتلك وسائل الإنتاج للحصول على الربح مما يبيعونه في الأسواق التنافسية، وتحت ظروف غير مرغوب فيها لكي يجني الرأسمالي الربح، فمن الضروري أن يدفعوا أقل المستطاع للعمال، ويبيعوا الناتج بأعلى سعر ممكن في الأسواق. وقد افترض ماركس أن قيمة السلع تتضمن جهد العاملين، ومن ثم فإن مفتاح الربح هو زمن الجهد المستغرق لإنتاج السلع المتضمن صناعتها، وبالتالي يقيس ماركس الاستغلال للعمالة بالفرق ما بين الجهد وأسعار السلع في الأسواق، وكلما تعاظم الفرق بين الأجر المدفوع والأسعار، تعاظم الاستغلال للعمال. والتناقض في هذا النظام يكمن في أن إنتاج السلع جماعي بين العاملين والرأسماليين، بينما مكسب الأرباح لمصلحة

---

(٣)كارل ماركس وفريدريك إنجلز، البيان الشيوعي (نيويورك: الناشرين الدوليين، ١٩٧١م، نُشرت أصلًا في ١٨٤٨م).

(٤)المرجع نفسه، الصفحات ٨٧-٩٦؛كارل ماركس "مقدمة للإسهام في نقد الاقتصاد السياسي" (نيويورك: الناشرين الدوليين، ١٩٧٠م) .. (New York: International Publishers, 1970)

الرأسماليين؛ وعلى سبيل المثال فإن بيع السلع يتضمن قيمة السلعة مضافا إليها الربح لصالح الرأسمالي.

وهذا النظام عند ماركس ليس ثابتًا أصلًا، حيث وضع في النهاية بذورًا للثورة بواسطة العمال، أو الطبقة العاملة ضد الرأسماليين (البرجوازيين) وكذلك فيما بينهم؛ لذا كان أيضًا أحد مصادر عدم الاستقرار للرأسمالية بالنسبة لماركس يكمن في حقيقة وجود منافسة الرأسماليين بعضهم مع بعض في الأسواق التي تجبرهم على خفض الأسعار، لدرجة يصبح الربح ضئيلًا؛ وبالتالي يقل الإنتاج ويخسر العمال وظائفهم؛ مما يؤدي إلى إضراب العمال وتجمعهم كقوة كامنة ضد الرأسماليين؛ ونتيجة لذلك فإنه يؤدي إلى طرد العمال من عملهم، وعندما لايستطيع العمال شراء البضائع لضعف دخلهم، فسوف يقل الطلب على السوق، ومن ثم تقل أرباح الرأسماليين، ثم يسعى الرأسماليون للاتفاق حول معدل الهبوط للأرباح عن طريق استخدام تكنولوجيا حديثة في الإنتاج تسمح لهم بخفض الأسعار. ويتم تقليد التقنيات نفسها بين المنافسين، ويزداد فصل العمال، وينعكس ذلك على زيادة ضعف شرائهم من الأسواق، وفي النهاية تعمل هذه الإستراتيجية على تخفيض الأرباح لكثرة العمال الذين ليس لديهم موارد لشراء البضائع التي يصنعها الرأسماليون. إلا أنه عندما يخسر بعض الرأسماليين في هذه المنافسة قد يتحول البعض منهم إلى طبقية البروليتارية "الطبقة العاملة".

وقد رأى ماركس أن المجتمع يتأرجح بين معسكرين متضادين هما: الطبقة البرجوازية وطبقة البروليتاريا، بالإضافة إلى الانقطاعات المتزايدة الديناميكية للرأسمالية التي تدور بشكل مستمر في حالة من الركود[٥]؛ مما يجبر الرأسماليين على تعليم بعض العمال على الأقل؛ ليتمكنوا من القراءة والتواصل عبر وسائل الإعلام، وبالتالي يوسع هذا نطاق التواصل بين طبقة البروليتاريا وتبادل شكاواهم الشائعة، وأيضًا محاولة جلب جميع العمال من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية للعمل في المصانع.

وإضافة إلى ذلك يلجأ الرأسماليون إلى الحد من الروتين اليومي للعمال عن طريق تسريح العمال بشكل دوري، وفي وقت لاحق يعمل على توظيفهم مرة أخرى. ولذا فإن ذلك يؤدي إلى قلق العمال للموازنة بين مصالحهم من أجل دخل ثابت وبين استفادة الرأسماليين من إنتاجهم لتعظيم

---

(٥) المرجع نفسه.، صفحة ٢٢٠٥.

أرباحهم من خلال انخفاض تكاليف العاملين، وفي الوقت نفسه يزيد الرأسماليين من شعور العمال بالحرمان والقلق بطردهم من وظائفهم. وقد تدفعهم الحاجة لأنْ يصبحوا عمالًا احتياطيين. وعندما يزيد وعي العمال بمصالحهم نتيجة التناقض بين اهتماماتهم بالدخل الثابت، ورغبة الرأسماليين في زيادة أرباحهم. ويصبح العمال تابعين للآلات؛ مما يفقدهم القدرة على تحديد ما يصنعونه في عملهم وكيف يصنعونه وأين يبيعون إنتاجهم.

لقد اظهرت الحقب التاريخية السابقة بأن الرأسمالية مثل مرحلة (الإقطاعية والعبودية) في تناقضاتهم، ولذا فإن الشوعية هي آخر الحقب التاريخية التي لن يشهد فيها المجتمع الرأسمالي الجديد هذه التناقضات. ومن الواضح أن هذا خطأ جسيم في نظرية ماركس السياسية في تحليل الرأسمالية. فهي نظرية عامة للصراع مجردة جعلها تنطبق على جميع المجتمعات أو حتى على كل الأنظمة الاجتماعية. وتشمل عناصر هذه النظرية الآتي: (أ) أن من يمتلكون السيطرة على الإنتاج هم القادرون على السيطرة على كل النظم السياسية في المجتمع، والأيديولوجيات التي تستخدم لتبرير هذه السيطرة. (ب) أن تلك السيطرة على وسائل الإنتاج الفكري والاقتصادي، بالإضافة إلى الكيان السياسي الحكومي، تسمح لهم باستغلال العالم؛ وبالتالي اكتساب الثروة. (ج) عندما تقدم السلطة لاستخلاص الثروة من الآخرين فإنهم يثيرون صراعًا جوهريًا في مصالحهم؛ وهو صراع المصالح تحت سيطرة الظروف. (د) يمكن الربط بين النظام الطبقي المبني على البناء التحتي "العمال" لزيادة الوعي باهتماماتهم لتغيير النظام عند إثارتهم عاطفيا. (هـ) التركيز البيئي للتابعين بإفساد الروتين الخاص بهم، وإبعادهم عن حاجاتهم الأساسية للسيطرة على أنشطتهم الإنتاجية، والتعليم؛ لأنها تسمح لهم بتوسيع دائرة انشغالهم بالعمال الآخرين؛ وبالتالي يزيد وعي االتابعين لتحقيق تغيير النظام. (و) حتما عندما يبرز قادة متحدثون وذوو الفكر الآخرون؛ وكل هؤلاء سيقدمون شكاوى تثير العواطف، ويدفعون التابعين إلى التركيز حول اهتمامتهم الحقيقية؛ مما يسهل تنظيم وتعبئة التابعين لتشجيعهم، فيصبحوا قوة ثورية لتسقط الصفوة (البرجوازية) والطبقة الوسطى؛ (في حالة ماركس البرجوازية) لتتحول إلى طبقات جديدة في المجتمع.

وفي الواقع من الصعب فصل أيديولوجية ماركس عن هذه النظرية. ومع ذلك فإن النظرية التي قدمها ماركس تحدد بعض الظروف المشتركة التي تزيد من احتمال حدوث صراع بين الصفوة

والتابعين في أي نظام اجتماعي يكون قابلا لذلك، وحتى بين القادة والمرؤوسين في النظام الاجتماعي الواحد تقريبًا. ولذلك، فقد ذهب ماركس بعيدًا في تلخيص الظروف الأساسية التي تنشأ نتيجة لعدم المساواة، وتضارب المصالح التي تقود إلى الصراعات والتغيير في النظم الاجتماعية. وقبل أن نشرح هذا الأمر بشكل واضح، نحتاج أيضًا إلى دمج انتقادات كل من (ماكس فيبر وجورج وسيميل) للنظريات الألمانية في الصراع في عصر التنظير الكلاسيكي.

نظرية الصراع لماكس فيبر Max Weber's Conflict Theory

على عكس كارل ماركس (Karl Marx)، لم يرَ ماكس فيبر أن الصراع حتمي أو هو القوة المحركة للتاريخ، وإنما يحدث الصراع تحت قوى تاريخية محددة، وكان بعيدًا كل البعد عن الحتمية. ومع هذا فإن نظرية فيبر تتشابه مع نظرية ماركس بشكل مذهل، فهي مشتقة من التفاصيل التاريخية الغنية في التحليل بما يسمي "الهيمنة"، ليبرز من هذه الممارسة نظرية تحليلية واضحة لعمليات الصراع.[٦] فيرى فيبر أن التابعين في أي نظام طبقي من المحتمل أن يتابعوا الصراع عندما تتراجع الشرعية عن السلطة السياسية. ولذلك بالنسبة لفيبر فإن الشروط الحرجة التي تبدأ بعملية الصراع على تراجع الشرعية للتابعين، وعليه يمكن القول بأن الشروط تتضمن: (١) عضوية الطبقة الاجتماعية، وتشمل (فرصًا للحياة في الأسواق والاقتصاد)، وحزب مجموعات التشريع، وهي(حقوق ونفوذ واحترام)، وهم مرتبطون بعضهم ببعض. (٢) هناك مستويات عالية من الانفصال "التوقف" بدرجات عدم المساواة من خلال التدرجات الاجتماعية المبنية حول الطبقة، والحزب، ومجموعات التشريع، ودرجة وجود فجوات كبيرة بين أصحاب المرتبات العالية، والمتوسطة، مع وجود اختلافات كبيرة عن السابق، وأصحاب المرتبة المنخفضة، مع احترام مرتبة الطبقة، ومفتاح السلطة، وقدرته على احترام الأوامر.(٣) المعدلات المنخفضة للتحرك: وهذه أيضًا تحت التدرجات الهرمية، وبالتالي تقليل فرص هؤلاء المنخفضين في النظام الطبقي بتحسين أوضاعهم في الحياة.

---

(٦)ماكس ويبر، الاقتصاد والمجتمع (بيركلي، كاليفورنيا: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٨م)، الصفحات ٣٠٢ – ٣١٠ ٩٢٧-٩٣٥.

حتى عندما تسببت هذه الظروف في فقدان شرعية الحكومة "السلطة التشريعية أو القانونية"، لم يرَ فيبر أن الصراع الثوري هو حقيقة حتمية، ولا يمكن لفرص الصراع أن تزداد بشكل كبير، إلا إذا برز القادة الكاريزميون عن طريق الصدفة بصفتهم مؤثرين على مشاعر التابعين؛ مما يؤدي إلى زيادة إستياء التابعين على السلطة ومن ثم الثورة. فإذا حدثت ثورة وكانت ناجحة فسوف يؤدي ذلك إلى نشوء مشكلة جديدة، هي: أن صفات القادة الكارزماتيين ليست مؤهلة للقيادة، وفي العادة ليست صفات مناسبة لتنظيم وإدارة نظام جديد، وبالتالي سوف تقع أزمة حتمية بين الفائزين من القادة في الصراع؛ أي بين قوى الصراع، وعادة غير القادة الكارزماتيين. حيث سيظهر قادة جدد لإدارة النظام السياسي ويؤسسون نظامًا جديدًا للهيمنة. وقد يؤدي ذلك، مرة أخرى إلى إطلاق جولة جديدة من تعبئة أو تشجيع الصراع. وإضافة إلى ذلك فإن فيبر -مقارنة بماركس- كان على النقيض من ماركس، حيث لم يرَ فيبر أن المجتمعات الرأسمالية مهيئة للصراع بسبب انتشار ماسماه بهيمنة العقلانية والشرعية؛ لأن القانون البيروقراطي يزيد من انمدماج الناس في البناء الاجتماعي، وتقلل السلطة القانونية من احتمال حدوث الثورات. وهذا عكس نماذج الهيمنة التقليدية في المجتمعات الإقطاعية كما ذكر ماركس. ورغم ذلك إلا أنه من المحتمل أن تكون هناك مجموعات منتشرة تحمل بذور الصراع الثوري. وبالرغم من حوار فيبر العقلاني، والاختلاف مع ماركس، وكل الظروف المذكورة سابقًا التي تزيد من احتمالية الصراع، وبالتالي يمكن أن تتداخل مع مثيلتها لدى ماركس بشكل كبير مع النظرية العامة للصراع التي تطورت في الفترة الكلاسيكية.

نظرية الصراع لجورج سيميل Georg Simmel's Conflict Theory

لم يتفق جورج سيميل (Georg Simmel) مع كارل ماركس حول الآثار المنتجة للصراع في النظام الرأسمالي، كما اختلف مع فيبر في التبرير عن "العقلانية". بالنسبة سيميل يرى أن المجتمعات التي يقودها السوق تزود الأفراد بالاختيارات عما يشترونه، وكيف يعيشون حياتهم؟ وبالتالي زيادة معنى الرفاهية.[٧] أن مجتمعات السوق غير شخصية بشكل مؤثر، وبالرغم من ذلك فإنها تكون أكثر

---

(٧) جورج سيميل، الصراع وشبكة انتماءات المجموعة (نيويورك: فري برس ١٩٥١م)؛ انظر أيضًا: له "علم اجتماع الصراع" المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٩ (١٩٠٣ - ١٩٠٤): ص ٤٩٠-٥٢٥.

حرية، وتسمح للأشخاص باختيارهم مجموعات الانتماء على تقيدهم بها، وعلاوة على ذلك فإن لدى الناس اختيارات في السوق لتأمين موارد الصراع التي تطابق حاجاتهم الشخصية.

وبقبول هذه النظرة المحدثة، فإن نظرية الصراع عند سيميل تركز على التأثيرات التكاملية أو الإيجابية للصراع، وعلى التوابع غير التكاملية. وقد ناقش سيميل أن الصراع له أثار تكاملية عندما تكون الصراعات متكررة، ومنخفضة الحدة والعنف أيضًا، ومثل هذه الصراعات تخلق توترات لا يمكن السيطرة عليها بالقانون، والتشريع. ويُعدُّ هذا النوع من أكثر الصراعات احتمالًا في المجتمعات التي تظهر مستويات عالية من البناء التوافقي بين أحزاب الصراع، فعندما يمثل التوافق اهتمامًا بين الممثلين للصراع، فإنه يقوم بتنظيم الصراع معياريًّا.

أما بالنسبة لسيميل فإنه يرى إمكان أن يكون للصراع نتائج تكاملية لدى أحزاب الصراع. فالصراع يزيد من معنى المجتمع، وتمركز السلطة، ويقلل التسامح في الانحراف ويعارضه، وهذا لا يزيد بدوره من صلابة المجموعة، بل يمكن أن يقود إلى تكوين التحالفات؛ لأن المجموعة الناجحة تقاد إلى تكوين حلفاء مع الأحزاب الأصلية المكونين للصراع، وكل هذه النتائج تفرز درجة من التكامل في النظام الاجتماعي الأكبر. ومع الأخذ في الحسبان أن الصراعات ليست دائمًا ذات طبيعة تكاملية. وإذا كان لدى الأحزاب المشتركة في الصراع درجة عالية من الالتزام العاطفي للصراع. ويمكن أن يصبح الصراع عنيفا وغير تكاملي، وقد يشتد أمره عندما يقنن أخلاقيًّا؛ لكي يكون فوق مستويات الأخلاق الأساسية، وتحت هذه الظروف لن يتمكن أحزاب الصراع من التسوية، وسيزداد التوتر والحدة، رغم أن نظرية ماركس كانت تتنبأ أن تلك العمليات غير التكاملية ستكون جزءًا من مستوى الصراع الاجتماعي الحضاري، بينما وضح سيميل أن هذا الشيء مجرد احتمال، على الرغم من وجود مستويات الاعتماد كالتوافق البنائي الذي يصور الأسواق التي تقودها المجتمعات الرأسمالية ضد هذا الاستقطاب، وغرس قيم الصراع. ومع ذلك يمكن لأفكار سيميل -على ما أظن- أن تندمج بسهولة مع صياغة كلٍ من فيبر وماركس لعمليات الصراع، وهكذا، وبحلول العصر الحديث للتنظير في علم الاجتماع، هناك مجموعة من المبادئ النظرية حول ديناميات الصراع التي يمكن توسيعها لإنشاء نظرية أكثر صرامة لديناميات الصراع.

نظريات الصراع المعاصرة Contemporary Conflict Theories

استمر تنظير الصراع في معظم أوروبا وفي الولايات المتحدة إلى القرن العشرين، وبالرغم من ذلك فقد حدثت الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والسوفيت من ذلك التنظير. وارتبطت نظرية ماركس بالشيوعية في وقت اقترن الجانب السياسي بمعاداة الشيوعية في عصر مكارثي في عام (١٩٥٠م)؛ ولذا انتقلت أفكار ماركس بسهولة إلى الولايات المتحدة. وبالرغم من ذلك كانت هناك تحليلات محددة للصراع؛ مفادها بأن الصراع العرقي، أو الصراع الذي يستهدف المجتمعات، أو نظريات الصراع التي ظهرت في أوروبا، بُنيت على صراع يكون نابعًا من عدم المساواة الذي لم يكن ملحوظًا بشكل كبير. ومع نهاية عصر مكارثي وصعود الاحتجاجات في جميع أنحاء العالم في عام (١٩٦٠م)، اكتسبت نظرية الصراع قوتها نتيجة انتقاد النظرية الوظيفية؛ لكونها مهتمة بالتشريع والتكامل الوظيفي (انظرالفصل٢) وأصبح هذا النقد معول هدم للنظرية الوظيفية، بوصفها نظرية مهيمنة في الولايات المتحدة.

وبمجرد هبوط نظرية الوظيفية نتيجة للنقد الموجه لها، كان هناك مناصرون واندفاع من قبل المنظرين الصراعيين لإعادة صياغة مجموعة واسعة من الأساليب والفروض لإعادة بناء نظريات الصراع. وأيضًا حصل التصنيف للاتجاهات النظرية للصراع، وظهر كثير من المفاهيم حول الصراع، ومنها كلمتي "القوة" و"الصراع" في العديد من الأعمال التي كانت ذات توجه هامشي بالانتماء إلى نظريات الصراع آنذاك، حتى أصبح لا يمكن استبعاد أي أسلوب من أنه لا يتضمن حالة من الصراع، وإلا يُعدُّ ذلك أمرًا مبالغًا فيه؛ بناءً على أن كل شيء في الأساس مبني على الصراع، وهذا كان من وجهة نظر التنظير الصراعي الذي كان نقيضًا من التنظير الوظيفي؛ لأن التنظير الوظيفي يرى أن جميع الظواهر في حالة تكاملية. وعلى الرغم من هذا التحاورات فإن نظريات الصراع الجديدة وسّعت من أفكار الأساتذة الأوائل للحقبة الكلاسيكية إلى مقارنات جدلية مميزة في الصراع. وتمكنت نظرية الصراع التحليلي من رفع مستوى التجريد بحيث يمكن النظر إلى أفكار العلماء على أنها عامة وعالمية.

نظريات الصراع التحليلية
Analytical Conflict Theories

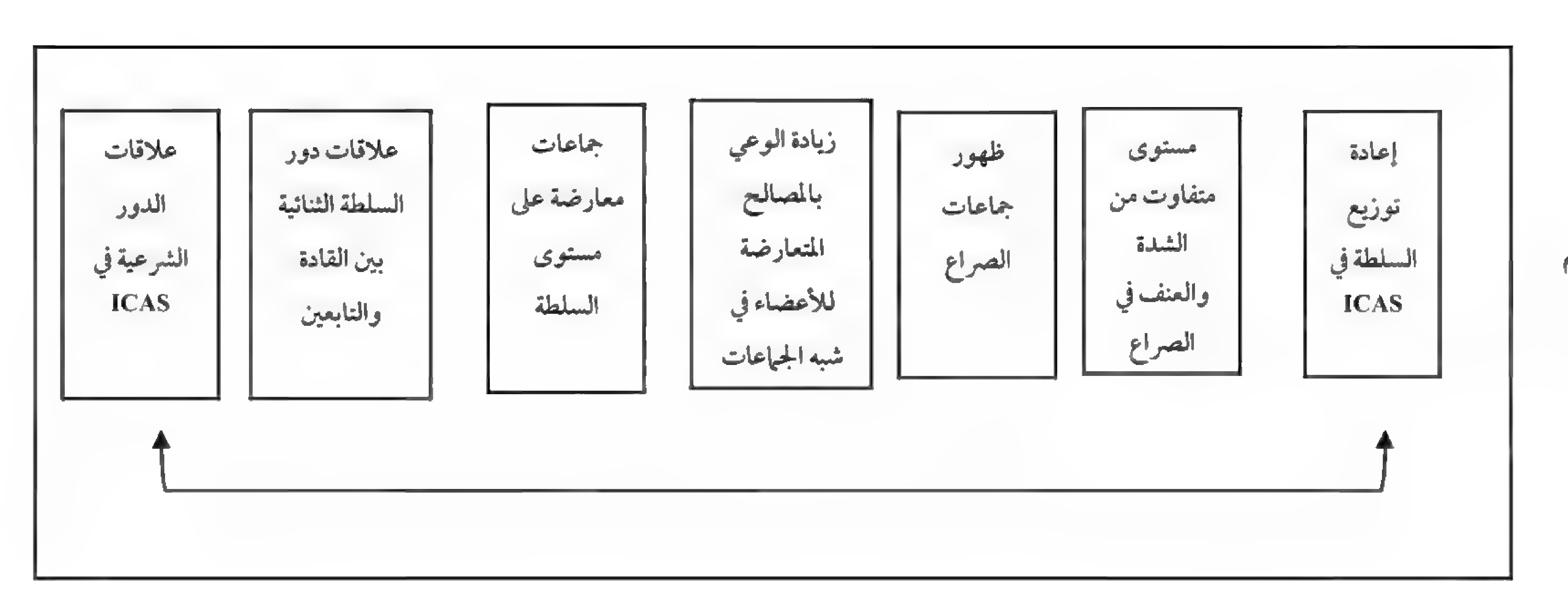
نظرية رالف داهريندورف للصراع Ralf Dahrendorf Conflict Theory

ليس من المدهش نقل تقاليد الصراع الأول الأوروبي إلى الولايات المتحدة عن طريق واضعي النظريات الأوربيين الأصلين الذين هاجر بعضهم إلى الولايات المتحدة؛ خوفًا من النازية الألمانية، في حين بقي آخرون في أوروبا. ويُعدُّ رالف داهريندورف عالم اجتماع ألماني تميز بالنقد اللاذع للوظيفية(٨)، وهو الذي بادر في بالحديث عن إسقاطها، وربما بسبب استعداده لجعل نظرية ماركس مجردة بشكل كبير، فضلًا عن إضافة بعض العلاجات الضرورية للنظرية التي قدمها فيبر وسيميل، وقد بدأ داهريندورف نظريته عن طريق تبديل وحدة التحليل لما أسماه التنظيمات الحتمية المنسقه ، أو (ICAS– ت ح م)*. الذي يمكن أن يتكون منه أي نظام اجتماعي– من خلال جماعة تنظيمية على مستوى المجتمع ككل؛ حيث يتم استخدامه في عدم المساواة في السلطة لتنسيق أفعال الممثلين لها(٩)، ويظهر ذلك نتيجة لعدم المساواة في القوة والسلطة، واتبعت النظرية منطق كارل ماركس عن طريق محاولة تفسير الجماعات لكل من القادة والتابعين في (ICAS– ت ح م)*. ويمكن تنظيمها في تتابع الصراع بدرجات متنوعة للحدة من العنف. ويوضح(الشكل ١ ,٣) الخطوط العامة لجدل داهريندورف في االظروف العامة.

(٨) رالف دارندورف، "خارج المدينة الفاضلة: نحو إعادة تنظيم تحليل علم الاجتماع" المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٦٤ (١٩٥٨م): الصفحات ١٢٥ – ١٣٥.

(٩) Ralf Dahrendorf, "Toward a Theory of Social Conflict," Journal of conflict Resolution 2 (1958): pp. 170—183; Class and Class Conflict in Industrial Societies (Stanford, CA: Stanford University Press 1969).

ت– منظمة ،ح حتمية ،م: منسقة (ICAS– ت ح م).



الشكل رقم (١ ,٣). نموذج داهريندورف الجدلي رابطة/ منظمة حتمية منسقة.

وعلى غرار كارل ماركس، يرى داهريندورف أن أي نظام اجتماعي أو (ICAS- ت ح م) نماذج واضحة للسلطة الشرعية التي تميل بشكل ما إلى الثنائية، ويؤسس هذا الشكل الثنائي صراع المنفيين أو " المجموعة شبه المعارضة" بين السادة والتابعين في الترتيب الهرمي للسلطة. ويشبه داهريندورف كارل ماركس في كونه لا يشعر بالرغبة في شرح كيفية نشأة تنوع السلطة. وبدلًا من ذلك، تبنى افتراضات لكل الأنظمة الاجتماعية بشكل عام، مع تشابه الجماعات وبخاصة جماعات التابعين في اهتماماتهم الحقيقية لتكوين جماعات متكاملة، من أجل الدخول في الصراع ضد السيادة، والظروف التي تزيد الوعي بالمصالح، وهي نفسها كما أحصاها كارل ماركس ولكن بشكل أكثر تجريدًا كالتالي: (أ) شروط تقنية تسمح بظهور القادة، وصياغة فكرة نظام، أو مخطط لأشباه المجموعات. (ب) شروط سياسية تحافظ عليهم في السلطة، وامتلاكها لمنع الحركية لدي التابعين. (ج) شروط اجتماعية تسمح لأشباه الجماعات بتجنيد أعضاء جدد لترويج شكواهم، وإدراج المجندين في مجموعة الصراع. كما استعار داهريندورف من فيبر مفترضًا بأنه يتم تلبية تلك الشروط كلما كان عدم المساواة أكثر ارتباطًا في السلطة مع عدم المساواة في توزيع الموارد، وكلما زادت حدة الصراع بين القادة والتابعين. وقد استعار داهريندوررف صيغة تصحيحية من سيميل لتصحيح فرضية كارل ماركس: وذلك بأنه كلما تحققت الشروط التقنية والسياسية والاجتماعية، كان الصراع أكثر عنفًا، وتم إدخال هذا التصحيح هنا؛ لأن ماركس افترض أنه كلما أصبحت البروليتاريا أكثر، ونظمت لأنفسهم طبقة (كطبقة العمال) كلما كان العنف والصراع أكثر حدة في واقع الأمر. ويبدو أن العنف يحدث في المراحل الأولى من تنظيم مجموعة الصراع، وعندما تكون القيادة والأيديولوجيات في حالة تغير مستمر، وعلى وشك التبلور في المراحل الأولى من الصراع، ويصبح الأفراد أكثر إثارة عاطفية، ولكن من دون تركيز واضح أو اتجاه محدد، كما تؤدي حالات أخرى إلى زيادة العنف؛ بما في ذلك الزيادة المفاجئة في شعور المرؤوسين أو العمال بالحرمان النسبي، والفشل في تشكيل اتفاقات تنظيمية بين أطراف النزاع. فعندما يحدث الصراع العنيف فسيؤدي إلى زيادة معدل تغيير الأبنية الاجتماعية في منطقة المنظمة الحتمية المنسقة (ICAS- ت ح م). في حين أن الصراعات الحادة سوف تزيد من درجة التغيير البنائي.

نظرية لويس أ. كوزر للصراع Lewis A. Coser's Conflict Theory

يُعدُّ لوس كوزر (Lewis Coser) أحد علماء الاجتماع الألمانيين، هاجر إلى الولايات المتحدة، وقام بتطوير نظرية أكثر قربًا من النظرية الوظيفية بالاعتماد على أفكار جورج سيميل. وتضادها مع النقد الماركسي للوظيفية، ويرى كوزر أن نظرية الصراع لم تؤكد على النتائج التكاملية للصراع، في حين أن الوظيفية لم تؤكد بشكل كافٍ على الآثار غير التكاملية للصراع ، واستعان بأفكار سيميل لتشكيل ما يراه كنظرية أكثر توازنًا[١٠].

وتدور أسباب الصراع عند كوزر حول تراجع الشرعية من قبل المرؤوسين أو التابعين في ظل عدم المساواة، وتم صياغته أكثر وضوحًا لطريقة فيبر بواسطة سيميل للمرحلة التي تستمر هذه الصور الفيزيائية، ومع رؤيةكوزر لتراجع الشرعية عندما تكون هناك قنوات ومنافذ قليلة لتصحيح المظالم، أو عندما يكون معدل الانتقال من المراكز المنخفضة كمراكز التابعيين إلى المراكز العليا، كالمراكز القيادية في أعلى السلم الهرمي بين طبقات المجتمع، وهذا يعني جمودَ أو ضعفَ الحراك الاجتماعي للطبقات الاجتماعية من الأسفل إلى أعلى السلم الطبقي. وبالتالي سيكون هناك فرص لظهور الصراع من قبل المرؤوسين أو التابعين، وقد يزداد الصراع بشكل مفاجئ وأكبر عندما يشعرون بالحرمان، كما يزيد العنف في الصراع عندما يكون الصراع على المسائل القيمية أو الأخلاقية دون واقعية. إلا أنه مع مرور الوقت قد يتشعب الصراع ويصبح معقدا من قبل الأطراف المتصارعة. وفي المقابل سيكون الصراع أقل عنفًا عندما ينتهي الأمر في قضايا واقعية قد يسمح بالتنازلات بين

---

(١٠)لويس أ. وظائف الصراع الاجتماعي (لندن: فري برس ، ١٩٥٦م)، "بعض الوظائف الاجتماعية للعنف "حوليات الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية والاجتماعية ٣٦٤ (١٩٦٠م)؛ "بعض وظائف السلوك المنحرف والمرونة المعيارية: "المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٦٨ (١٩٦٢): الصفحات .١٧٢-١٨١؛ و "وظائف المعارضة" ديناميات المعارضة" (نيويورك: جرون & شتراتون، ١٩٦٨م) ، ص. ١٥٨ - ١٧٠. الأعمال البارزة الأخرى ذات العناوين الأقل وضوحًا ولكن تشمل المواد المثيرة للجدل "الصراع الاجتماعي ونظرية التغير الاجتماعي" المجلة البريطانية لعلم الاجتماع ٨ (١٩٥٧م): الصفحات .١٩٧-٢٠٧؛ "العنف والبنية الاجتماعية" في العلوم والتحليل النفسي، أد. جي ماسيرمان ، المجلد ٧ (نيويورك: جرون & شتراتون ، ١٩٦٣م)، ص ٣٠-٤٢. هذه المقالات وغيرها تم جمعها في مدونة كوسيه في دراسة الصراع الاجتماعي (نيويورك، فري برس، ١٩٦٧م).

المتصارعين؛ لأنه يحقق لكل الأطراف المتصارعة بعض أهدافهم التي تسمح بالتسويات. وبالتالي يسمح لكل حزب بتحقيق بعض أهدافها. وتختلف الصراعات باختلاف فترة استمرارها، ومع احتمال ازدياد المدة تكون أهداف الأحزاب المتصارعة توسعية، وغير محددة، وعندما يكون الإجماع على الأهداف بين الفئات المنخفضة، وتكون الأحزاب داخل الصراع غير قادرة بسهولة على تحديد نقاط الأعداء الرمزية للنصر أو الهزيمة، وبالمقابل سوف يكون الصراع قصيرًا عندما تدرك الأحزاب المتصارعة حصولها الكامل على أهدافها، وليس الممكنة. والذي يزيد السلطة بين الأحزاب هو ما يشكل هزيمة أو نصرًا، أو عندما يستطيع القادة إقناع التابعين بأنهاء الصراع الذي يزيد بتمركز القوة وتكاملها بين كل الأحزاب.

وأخيرًا على غرار سيميل يقدم كوزر فرضيات عن وظائف الصراع للأحزاب المشاركة في الصراع والنظام الشامل الذي يحدث فيه الصراع. وعندما يكون الصراع عنيفًا وحادًّا فسيولد لكل حزب في الصراع حدود واضحة المعالم للجماعة، ويولد تمركز السلطة، وسلطة اتخاذ القرار وتماسك فكري بين أعضاء جماعات الصراع المتخصصة، ويقود إلى التضامن الأيديولوجى بين الأفراد وجماعات الصراع الإيجابية. وبالرغم من ذلك فعلى الأرجح أن هذه الظروف تسبب قمع هذه المعارضة، وسيزيد على المدى الطويل التوتر في داخل كل جماعة من جماعات الصراع، والجماعات الداخلية للصراع. وكلما كانت الوحدات في النظام أكثر تباينًا وتعقيدًا ومترابطة وظيفيًا تمت تلبية هذه الظروف، وكلما زادت احتمالية زيادة مستوى الإبداع بين جماعات الصراع، انطلقت العدوانية قبل تراكمها وقبل أن تصبح شديدة الارتقاء بالجهود في التنظيم المعياري للصراع، وزيادة عدد التحالفات المترابطة لكل من جماعات الصراع، ولدرجةٍ يمكن أن يدركها الصراع، والظروف المذكورة أعلاه. وكلما زاد مستوى التكامل للنظام الأشمل حيث يقع الصراع، زاد تكيف هذا النظام لبيئته الخارجية.

تحليل جونثان تيرنر Jonathan Turner's Synthesis

منذ بضع سنين مرت، بعد مراجعة نظريات داهندورف وكوزر، (Dahrendorf and Coser) قمت ببذل مجهود للجمع بينهما، وبعد ذلك، توافرت مجهوداتي للجمع بين ماركس وفيبر وسيميل عن طريق إبقاء النظرية في مستوى عال من التجريد، وتلك المفاهيم والآراء على مستوى عال من

التعميم[١١]، ونظرية أساسية واضحة في عمليات الصراع، ويرى أن الصراع يكتشف عبر مرور الوقت في الأنظمة غير العادلة وعدم المساواة. ويبدو أن هناك العديد من الخطوات الأساسية، ومنها المراحل التي تقود إلى الصراع الذي يظهر أخيرًا. وفي (الشكل ٢ , ٣) لخصت تتابع مراحل الصراع بالرجوع إلى جوهر نظريات الصراع، حيث يتحرك الزمن من اليسار إلى اليمين في الشكل التوضيحي، مع الأسهم التي تمثل الاتجاهات والأسباب. أما الأسهم المتجهة من اليمين إلى اليسار فإنها تمثل تأثيرات سببية معكوسة. فالنواتج تغذي وتؤثر بشكل راجع إلى العمليات التي تسبب هذه النواتج، وتوضح العلامات على الأسهم تأثيرهم؛ حيث إن الخط المنحني الإيجابي أو السلبي في قضية واحدة يبدأ بالأثر الإيجابي ولكن يتحول أخيرًا إلى سلبي. وعن طريق تتبع اتجاه السببية، والسببية المعكوسة يمكننا الحصول على معنى كيفية رؤية نظريات الصراع لدى واضعي النظريات الكلاسيكية ماركس وفيبر وسيميل وواضعي النظريات الجدد.

ويحدث الصراع في نظام اجتماعي موجود يتكون من وحدات مترابطة تعكس عدم المساواة في توزيع الموارد. (انظر الجانب الأيسر للشكل)، ويجب النظر إليه على أنه حالة متغيرة من الترابط، والتي تتباين حسب الدرجة، فكلما زاد مستوى عدم المساواة كانت احتمالية الصراع أكثر على المدى الطويل؛ لأن عدم المساواة يبدأ في تحريك ديناميات محدودة يصعب السيطرة عليها عندما تبدأ، وقد كان كل من فيبر وكوزر على صواب عندما أكدَا على أن المرؤوسين في هذا النظام ليس بينهم مساواة؛ مما يؤدي إلى تراجع الشرعية عندما يكون: (١) هناك مزيج من المكافأة والحرمان مع من يمتلكون مورد قيد التقييم بشكل عالٍ أو أقل، والذي ينبئ بتلقِّيهم باقي الموارد موضع التقييم. (ب) هناك بضع قنوات قليلة لمعالجة التنظيمات من اللامساواة. (ج) هناك فرص التنقل الصعودي في التسلسل الهرمي للموارد، ومخالفة هذه الظروف تقلل من فرص تراجع الشرعية من أيادي أصحاب السلطة، ومن لديهم التأثير في

(١١)انظر: "إستراتيجية لإصلاح النظريات الجدلية والوظيفية للنزاع"، القوى الاجتماعية (١٩٧٥)، الصفحات ٤٣٣-٤٤٤. لمزيد من التحديثات الأخيرة لهذه النظرية. انظر: المبادئ النظرية لعلم الاجتماع، المجلد ١ حول ماكروديناميك (نيويورك سبرينغر، ٢٠١٠) ,(New York: Springer. 2010)، الصفحات ١٥٣-٢٨٥؛ ومبادئ نظرية علم الاجتماع، المجلد ٣ في علم الديناميات (نيويورك: سبرينغر. ٢٠١٠)، ص ٣٣٧ – ٣٧٢.

توزيع الموارد في المجالات المؤسساتية، ومثال ذلك اقتصادي، وحكومي، وقانوني، وديني. وتلك مستويات أدنى من عدم المساواة وقنوات لمعالجة التظلمات، واحتمالات التحرك لأعلى سوف تعمل ضد تراجع الشرعية. ومع ذلك عندما تفرز الظروف انسحاب الشرعية يصبح المرؤوسون أكثر وعيًا بحقيقة أن اهتماماتهم ليست مثل من يمتلكون السلطة، فيبدؤون في رؤية أن مصالحهم التي تقف ضد من يمتلكون الموارد. وفي الجزء الأوسط من وثيقة الشكل أن الوعي بالمصالح يعمل على تغذية احتمال تراجع شرعية المرؤوسين. ذلك؛ لأن الوعي بالمصالح وتراجع الشرعية يعملأن على تغذية بعضهما بعضًا.

ومع ازدياد هذا الوعي يصبح الأفراد مستثارين عاطفيا، ومعبرين عنه بالغضب والإحباط لعدم المساواة مع من يسيطرون على الموارد. وهذا المزيج بين بداية تراجع الشرعية وتزايد تضارب المصالح بين المرؤوسين والرؤساء، والاستثارة العاطفية لعدم المساواة؛ يمكن أن يسببا معًا انفجار الغضب في النطاق المحلي على مستوى الأحياء والجيرة، وأماكن العمل، والأماكن المشتركة. وإذا تم كبت حالات الغضب عن طريق قوى من الضبط الاجتماعي مثل (الشرطة والجيش) ستزيد من إثارة المشاعر أكثر، ويعلو هذا بتغذية المشاعر ليزيد الوعي، مؤديًا إلى تراجع أبعد للشرعية، وإثارة مشاعر أكثر حدة. ويبدأ قادة الاحتجاجات في التشدق بأيديولوجية مترابطة، ولكن هؤلاء القادة غالبًا ما يكونون في صراع مع أنفسهم أو على الأقل يتنافس بعضهم مع بعض لجذب انتباه التابعين، وبذلك يحدثون تدفقًا لعدم الاستقرار، والتي سيزيد من حدة المشاركة لدى المرؤوسين، وبالتالي يتم اجتذاب الكثيرين لتلك المعارضة.

وهناك تصبح فكرة داهندورف عن الشروط الفنية، السياسية والاجتماعية للتنظيم، مهمة لتدفق الصراع بين المرؤوسين والرؤساء، وسوف يتباين حسب الدرجة التي يميل إليها، وهي: (أ) تشدد القادة بمجموعة من الأيديولوجيات مبررين لها، وواضعين لها في إطار، ومركزين على أهداف المرؤوسين. (ب) تكون الحكومة أو القانون أو من هم في موضع السلطة راغبين في تقديم التنازلات. (ج) يستطيع المرؤوسون تجنيد أعضاء جدد وموارد أخرى مثل النفوذ ومهارات تنظيمية، ورموز جديدة يمكن دمجها في تنظيم ظهور الصراع والأيديولوجية المبررة تشجع على الصراع.

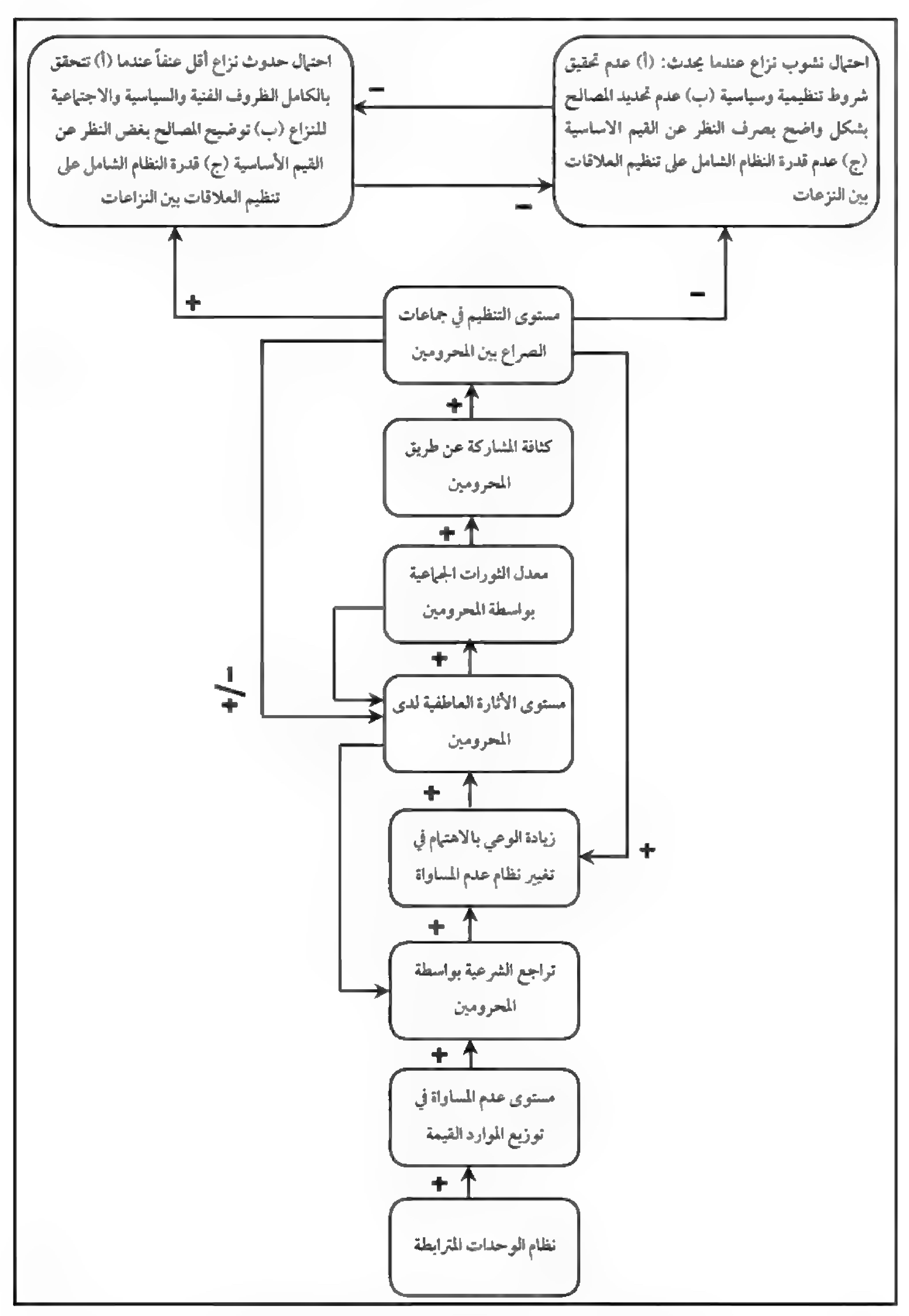
وعند هذه النقطة بالذات تحيد كل النظريات الألمانية التي طورها فيبر، وداهندورف، وسيميل وإلى حد ماكروز وكارل ماركس، فقد أدرك ماركس أنه كلما زادت القدرة على تلبية الظروف الفنية، والسياسية، والاجتماعية، زادت حدة الصراع وعنفه. ولكن المنظرين الآخرين أدركوا أن الصراع العنيف يميل إلى الحدوث في المراحل الأولى عندما لا يتم تلبية هذه الظروف بشكل كامل. فعلى سبيل المثال في السنوات الأولى من اتحاد المنظمة في الولايات المتحدة كان في الغالب عنيفا، ولكن عندما تصبح الاتحادات أكبر وأكثر قبولًا، وتعطي حقوقها عن طريق الحكومة والقانون، وتصبح أفعالها أكثر إستراتيجية مع بعض الاستعداد للتسوية مع أصحاب العمل. وبالرغم من ذلك عندما تبرز الأيديولوجيات أولًا، وتكون القيادة في تدفق فإن المشاعر تكون في حالة استثارة، ولكن ليست مركزة على إستراتيجية معينة. ونتيجة

لذلك؛ يصبح العنف أكثر احتمالًا، إلا أنه عندما يتم إدراك ظروف التنظيم، يقل العنف ويصبح الصراع أكثر إستراتيجية. وعلاوة على ذلك كما أدرك كل من سيميل وكروز عندما يظهر أي نظام على مستوى عال من الاعتماد، يصبح الممثلون أكثر تحفيزًا على تنظيم الصراع؛ لأن الصراع سوف يعرقل النظام بطريقة تضر كل ممثليه.

لذلك؛ فإن لوحدة تكوين المجتمع الأكبر تأثيرات على كيفية تلبية الظروف الفنية، والسياسية والاجتماعية. فالأنظمة عالية الترتيب تكشف فجوات كبيرة جدًّا من عدم المساواة، وكما أكد فيبر في مستويات من الاعتماد البنائي بين كل ممثليه بأنها ليست عالية. والنتيجة أن لدى المرؤوسين احتمالية أكبر في إعادة الضغط على الصراع عن طريق تحديد فرصهم في تلبية الظروف الفنية، والاجتماعية، والسياسية. وبشكل ساخر فعن طريق هذا يجهز المرؤوسون أنفسهم لصراع حاد وعنيف نتيجة لتراكم المشاعر بينهم. وكما أكد سبنسر أن الضبط الاجتماعي مكلف للقادة. فلكي ينخرطوا في ضبط اجتماعي حاد يجب عليهم فرض ضريبة على المرؤوسين وعادة الصفوة أيضًا، الأمر الذي يزيد من عدم المساواة والاستياء ليغذي الحشد للصراع عن طريق المرؤوسين.

ومن ناحية أخرى إذا كان من الممكن أن تكون الصراعات متكررة ومنخفضة الحدة فسوف تؤدي إلى التوترات لتقود إلى تنظيم الصراعات بشكل عام، والذي يعطي الحق للمرؤوسين بالاحتجاج، ويحدد حقوق الرؤساء بالسيطرة المستمرة على الموارد. وهذه الاستجابة إلى الصراع محتملة بشكل أكثر في الأنظمة التي تكشف مستوًى عاليًا من الاستقلال البنائي. وعلاوة على ذلك يدرك المرؤوسون أن لهم فرصًا للانتقال والحركية، وأن لديهم على الأقل موارد لها قيمة، وعندئذ يصبحون أقل احتمالية لتحمل مخاطر الصراع. وإذا حدث الصراع فإنه يميل إلى التركز حول قضايا محددة لا تتضمن التقنين للقادة في جميع مجالات المجتمع، أو أي نظام اجتماعي يقع فيه الصراع، وبالتالي يمكن أن يكون هناك صراع على الأجور في الاقتصاد، ومن دون تقنين للاقتصاد والمؤسسات الأخرى، ربما يكون هناك صراع على الرعاية الصحية، وفرص التعليم، والحرية الدينية .. إلخ. وتتركز هذه الصراعات في نواحٍ معينة ليست هجومًا على كل المجالات المؤسساتية في المجتمع. وما دام أن هناك آليات كالحلقة السياسية التي فيها تناقش كل القضايا بوصفها نظامًا شرعيًّا قادرا على الاستجابة للمشكلات التكاملية، واستعداد حكومي لعمل تنازلات إستراتيجية لتجنب العنف. ونتيجة ذلك سيكون هناك تغيرات بنائية وثقافية أكثر من التغيرات الجذرية. وعلى الرغم من ذلك لن يقع صراع عنيف ومعوِّق بشكل كبير للنظام الاجتماعي، والمربعات الأخيرة في (الشكل ٢, ٣) تلخص هذين الناتجين للصراع الذي يعتمد على البناء الشامل للوحدة الاجتماعية التي من خلالها يحدث الصراع.

(الشكل٢, ٣) وضع التنظير الصراعي الرسمي التحليلي بنهاية القرن العشرين جنبًا إلى جنب مع النظريات التحليلية، وكان هناك أنواع أخرى للنظريات التحليلية التي يجب مراجعتها، وأيضًا مجموعة أخرى من النظريات دارت حول التحليل المقارن للصراع في الماضي لرؤية ما توصلت إليه من تعميم.



الشكل (٢، ٣). نموذج تيرنر التركيبي لعمليات الصراع

نظريات الصراع التاريخية المقارنة

Historical-Comparative Conflict Theories

خلال العقود الخمسة الأخيرة ركز جزء كبير من الأعمال التاريخية داخل علم الاجتماع على الثورات والصراعات داخل المجتمعات. (١٢) وأكدت هذه النظريات على تعبئة الجماهير، والنخب ضد الدولة أو الحكومة،

ولذا قد يكون انهيار الدولة نتيجة لعدم رضا النخب عن الحكومة، وإذا ما اتحدت النخب مع الجماهير فستكون التحديات لمواجهة الدولة أكبر بكثير. ولذلك يمكن أن يسبب تشجيع النخب والجماهير، وحشد غير النخب بشكل فردي أو جماعي، بانهيار الدولة، فتصبح الدولة في موقف ضعيف يسبب الأزمات المالية التي قام قادتها بتبديد ثرواتها على الاستهلاك، أو بشكل أسوأ دخولها في حروب مع دول أخرى استنزفت -بشكل حتمي- خزائن تلك الدولة.

والكثير من هذا العمل في علم الاجتماع التاريخي يحمل طابع فكر فيبر، وهو (المعنى الفيبري) الذي يرى الصراعات كأحداث تقع تحت ظروف تاريخية محددة. والنظريات التي تم طرحها بهذا التعليم تميل إلى اتخاذ موقف متناقض إلى حد ما، لا -كما فعل فيبر- حول ما إذا كان من الممكن تحديد الظروف التاريخية المشتركة المسببة للصراع، وانهيار الدولة، أو بدلًا من ذلك تعتبر الصراعات أحداثا تاريخية فريدة من نوعها مرتبطة بظرف وقتي أو مكان معين أو أزمنة محددة. وبالرغم من ذلك قام بعض علماء الاجتماع التاريخي بجلب بعض الأفكار عن ديناميات الصراع التي يمكن عَدُّها جزءا من النظرية العامة لديناميات الصراع في المجتمعات فالنظريات المتنوعة تركز على المشكلات المختلفة إلى حد ما، ولكنها في جوهرها تسعى جميعها لتحديد الظروف التي تولد التغيير

---

(١٢)بارينجتون مور، الأصول الاجتماعية للديكتاتورية والديمقراطية: الرب والفلّاح في صنع العالم الحديث (بوسطن: بيكون، ١٩٦٦م) ؛جيفري بيج، الثورة الزراعية: الحركات الاجتماعية وتصدير الزراعة في العالم المتخلف (نيويورك: فري برس ، ١٩٧٥م) ؛ تشارلز تيلي ، من التعبئة إلى الثورة (قراءة، ماساتشوستس: أديسون ويسلي ، ١٩٧٨م) ؛ تشارلز تيلي ، الثورات الأوروبية ، ١٤٩٢-١٩٩٢م (أكسفورد ، المملكة المتحدة ،كامبريدج، ماساتشوستس: بلاكويل، ١٩٩٣م)؛ ثيدا سكوكبول ،الولايات والثورات الاجتماعية: تحليل مقارن لفرنسا وروسيا والصين (نيويورك: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٧٩م)؛ جاك غولدستون ، الثورة والتمرد في العالم الحديث المبكر (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا ،١٩٩١م).

في الصراع بين المرؤوسين، في أي نظام يفقد المساواة ضد أولئك الذين يتحكمون في الدولة، لكنهم يدركون أيضًا أنه غالبًا ما تمثل تحديات النخب في التقليد (كما هو واضح من تحليل النظريات التحليلية التي تلخصه أعلاه) وعندئذ يدركون أن الظروف التي أضعفت الدولة تُعدُّ حاسمة، وظروفًا في غاية التعقيد، وحينما تحدث الصراعات الثورية فقد تنجح أو تفشل. والكثير من التنظير التاريخي المقارن تمحور حول أكثر المجتمعات الزراعية، سواء كانت في نظام الإقطاع سابقًا، أو في العصر الحديث، ولذلك قدموا مقارنة مهمة للعديد من النظريات التحليلية التي تستمد إلهامها من المجتمعات الحديثة، حتى وهم يسعون لتطوير النظريات التي تفسر أنواع الصراع في جميع أنواع المجتمعات.

شروط تعبئة غير النخبة للصراع Conditions of Non-Elite Mobilization for Conflict

دعنا نبدأ بتعداد الشروط التي تزيد من احتمالية تشجيع غير النخبة والتابعين في نظام يسوده عدم المساواة للصراع، وهي تلك الشروط المشابهة لما تم تحديده في النظريات التحليلية الموجزة أعلاه. وفي وقت لاحق سوف أوضح الظروف التي تضعف الدولة وتصبح معها فرص الصراع ناجحة، وتليها الشروط التي من خلالها يتمرد النخبة ضد الدولة.

إن الشروط التي تزيد من احتمالية تعبئة التابعين للصراع في المجتمعات الزراعية تشمل :(أ) التركيز على الحيز المادي الذي يستطيعون من خلاله أن يتواصلوا بشكواهم لزيادة الترابط بين التابعين، والتي تزيد من الإحساس بالتهديد عما يمكن أن تقوم به النخبة. (ب) زيادة التضامن بين المرؤوسين و (١) الشعور بالتهديد لما قد تفعله النخب التي تزداد مع (٢) تجنب منافسة بعضهم بعضًا بحيث لاتتجزأ مصالحهم. (٣) ضعف العلاقات التقليدية مع النخبة؛ مثل انهيار الالتزامات الإقطاعية من النبلاء للفلاحين في دولهم. (٤) تصورات الاستغلال من قِبل النخبة (٥) الحكم الذاتي، كالإشراف المباشر من قِبل النخبة ومُديريهم. (٦) تقبُّل الأيديولوجيات الراديكالية الموجهة للتغير. (٧) إدراك أن النخبة لم يعودوا يوفرون مصادر مفيدة. (٨) إدراك أن النخبة والدولة ضعفاء.

وتلك هي الشروط التي تفرز التشجيع والتعبئة، ورغم ذلك فقد تمت مراجعتها وحسابها عن طريق الظروف التي تضعف عزيمة المرؤوسين إلى الحشد، وتشمل: (أ) التشتت البيئي

لكي يصبح التواصل صعبًا خاصة في المجتمعات الخالية من وسائل الإعلام، ومن الناس غير المتعلمين. (ب) القوى التي تعمل ضد تضامن المرؤوسين، وتشمل: (١) اعتماد المرؤوسين على النخب من أجل الموارد الأساسية. (٢) نقص الموارد التي يتم من خلالها التشجيع ضد النخب. (٣) إعاقة المجتمعات المحلية القوية المحتجزة في نطاق التقاليد وعدم المساواة. (٤) فرض التابعين للحراك الاجتماعي الصاعد. (٥) التنافس بين التابعين على الموارد التي تزيد مع دخول سوق العمل.

الحالات التي تُضعف سلطة الدولة Conditions Weakening State Power

هناك عدة قوّى متداخلة تضعف قدرة الدولة على ربط سيطرتها الاجتماعية على كل من النخب، وغير النخب؛ وبالتالي إيجاد ما أطلق عليه البعض "الوضع الثوري"، وتشمل هذه على: (أ) قوى ديموغرافية (سكانية) مثل: (١) النمو السكاني وزيادة الطلب على الموارد من الدولة من قبل النخب وغير النخب. (٢) تضخم الأسعار الذي أوجدته الزيادة السكانية، وزيادة الطلب في الأسواق على الموارد الأساسية. (٣) الأجيال العمرية الصغيرة التي تصحب النمو السكاني وهم غير مستعدين للصراع. (٤) الهجرة الريفية إلى المناطق الحضرية بسبب نمو سكان الريف (٥) وهجرة الأجيال العمرية الشابة إلى المناطق الحضرية، حيث يمكنهم التواصل بمشكلاتهم والتشجيع للصراع. (ب) القوى المالية نتيجة لما يأتي: (١) نمو السكان ونقص الموارد. (٢) إجراءات مسيئة وغير فاعلة في تحصيل الضرائب التي تثير العداء لكل من النخب وغير النخب (٣) طلبات كثيرة للنخب لرعاية الدولة. (٤) الإنفاق العسكري على الأنشطة الجغرافية والسياسية. (٥) الإنفاق العالي على التحكم الاجتماعي الداخلي للسكان المتمثلين. (ج) قوّى اجتماعية تشمل: (١) تقليل القوى الإدارية والقهرية نتيجة للقوى المالية. (٢) عدم القدرة على تقديم تنازلات إستراتيجية للنخب وغير النخب بسبب القوى المالية أو صلابة نظام السيطرة السياسية. (٣) التعاقدات الجغرافية السياسية التي تُضْعِفُ الموقف المالي للدولة، ومع فقدان الهيبة في النظام الجغرافي السياسي من خسارة حرب. (٤) تضاؤل شرعية الدولة في أعين النخب وغير النخب. (٥) الحكم الذاتي النسبي من الجيش بسيطرة النخب السياسية.

شروط احتمالية تعبئة النخبة Conditions increasing likelihood of Elite Mobilization

والشروط التي تزيد من احتمالية تعبئة النخب لا تبقى دائمًا موالية للدولة لعوامل عندما: (أ) لا يمكن تلبية مطالبهم للرعاية بسبب الأزمات المالية والتوسع في عدد النخب من النمو السكاني. (ب) لدى النخب شبكات اجتماعية قوية مستقلة عن تلك النخب في الدولة. (ج) تخشى النخب فقدان امتيازاتهم مع زيادة المشكلات المالية للدولة. (د) تجربة النخب بالشعور بالتهديد؛ لما يأتي: (١) اعتمادهم على الدولة من أجل الثروة يصبح مهددًا عندما تكون الدولة تحت أزمات مالية. (٢) التعبئة للأعلى تكون مهددة بسبب عدم قدرة الدولة على فتح فرص ومنح الرعاية. (٣) الإصلاحات الاجتماعية لتلبية الأزمات المالية أو لتلبية مطالب غير النخب التي تهدد القواعد التقليدية للثروة، والسلطة، والهيبة لهم.

لدرجة أن تلك الجماعات الثلاث من شروط التعبئة من قبل التابعين تمثل تهديدات لامتياز النخب، والأزمات المالية التي تواجه الدولة الضعيفة. ويمكن أن تعمل بشكل مستقل أو مشترك لإنتاج صراع ثوري في المجتمعات. وعندما تعمل الجماعات الثلاث في تناغم تنهار الدولة، ويتغير بناء المجتمع بشكل حتمي، بينما الكثير من هذه الشروط مرتبطة بالشروط الزراعية للتنظيم الاجتماعي، وليس من الصعب جعلها أكثر عمومية وقابلة للتطبيق في كل أنواع التكوينات الاجتماعية. فعلى سبيل المثال يمكن أن تكون النخب الصناعية مهددة من تصرفات الدولة، وإذا كان الأمر كذلك فربما يتم التشجيع لصراع سياسي من خلال تمويل حملات سياسية، أو من خلال جماعات الضغط. وربما لا تكون مثل هذه الصراعات عنيفة بشكل عام، فتكون صراعات سياسية تتولد عن طريق القوى نفسها كما هي في المجتمعات الزراعية.كما أن مختلف النظرات التاريخية المقارنة يمكن تحويلها إلى عبارات وبيانات أكثر تجريدًا، والتي تجعلها أكثر تحليلية وعمومية. وزيادة على ذلك، فإن علم الاجتماع التاريخي المقارن يؤكد شيئًا مدهشًا وغير مؤكد في النظريات التحليلية للصراع كقوة الدولة، ومركز السيطرة السياسية في المجتمعات. هذا وليس من المرجح دائمًا أن يكون الصراع الثوري ناجحًا عندما تكون سلطة الدولة قوية، علمًا بأن ذلك يكون جائز الحدوث حالَ ضعف الدولة في أثناء الأزمات المالية الناشئة عن مجموعة متنوعة من الموارد، تزامنًا مع وجود التعبئة عن طريق غير النخب التي ربما تكون فاعلة في تغيير أبنية المجتمعات.

نظرية الصراع لراندال كولينز Randall Collins' Conflict Theorizing

لقد كان راندال كولينز واحدًا من أكثر المنظرين إنتاجًا في العصر الحديث [١٣]؛ حيث كانت أعماله الأولى تحليلية للغاية، ومستوحاة من ماكس فيبر، ولكنها جاءت على شكل قوانين مجردة. فترتكزت أعماله على الوحدات الصغرى، حيث قام بجلب أفكار في نظرية الصراع من أعمال إيميل دوركايم اللاحقة عن الدين، ومن أعمال إيرفيج جوفمان في صناعة المسرح وفن التأليف المسرحي (انظر فصل ٧). وعندما أصبح في عمله مهتمًا بالوحدات الصغرى ، وقد أكد على أهمية تشكيل النضامن بين الأفراد المشاركين في الصراع . ودعونا نبدأ مع التنظير الفيبري المبكر.

التنظير الفيبري المبكر للصراع
Early Neo-Weberian Theorizing on Conflict

يُعدُّ عمل كولن Collins' work تأكيدًا تاريخيًّا مقارنًا، اقتبسه بشكل مفهوم من فيبر (Weber) صاحب العمل التاريخي. ولكن على العكس من فيبر كان معظم المفكرين التاريخيين على استعداد لتطوير مقترحات مجردة تسمو فوق أي مجتمع، أو حقبة تاريخية. وكان أحدث أعماله التأكيد على الاقتراحات، وكان تحليله محاولة لكشف الديناميات الدقيقة التي تعمل في جميع مواقف الصراع.

وفي مؤلَّفه علم اجتماع الصراع يكشف لنا العنوان عن "نحو علم تفسيري" عن تطوير علم عمليات الصراع. فالصراع ينتقل من مستوى الوحدات الصغرى إلى مستوى الوحدات الكبرى للصراع، كما أن الصراع متأصل في التنظيم الاجتماعي على جميع المستويات؛ لأن الحقيقة الاجتماعية تبرهن على عدم المساواة في توزيع الموارد قيد التقييم، وبخاصة السلطة والمواد الخام والهيبة، وتسعى نظرية فيبر في بناء الطبقات إلى تطوير الافتراضات عن الصراع على مستويات مختلفة من التنظيم الاجتماعي، من مقابلات مباشرة عبر المنظمات، والفئات الاجتماعية إلى المجتمعات، وما بين التكوينات الاجتماعية الحضارية.

وعلى مستوى الوحدات الصغرى يلحظ الأفراد -بشكل كبير- عدم المساواة في الموارد بينهم، وتعديل سلوكهم لتقديم سلوك إيجابي لمواردهم، في حين يعطي المستوى المناسب لاحترام

---

(١٣) *Rarndall Collins, Conflict Sociology: Toward an Explanatory Science (New York: AGIdemic, 1975).*

موارد الآخرين. فكلما كانت موارد الناس الخاصة أكثر تماثلًا كان الاحتمال الأرجح أن تكون التفاعلات بينهم أكثر هدوءًا. وفي حالة عدم وجود مساواة بشكل أكبر تكون التفاعلات قاسية وشديدة وتكون شكلية للغاية. وعلى المدى القصير عندما تكون هناك درجة عالية من عدم المساواة، وعندما لا يستطيع الموجودون ملاحظته سيحدث الاحترام بطريقة واضحة. وعلى سبيل المثال: عندما يحيِّي الضابط الأقل رتبة في الجيش رئيسه بنشاط؛ لوجود مراقبة شديدة، أو وجود آخرين في أماكن العمل فإنه يعطي احترامًا للرؤساء. ومن هذه التفاعلات ظهرت ثقافات الطبقة؛ حيث تعكس هذه الثقافات المدى الذي يكون الأفراد من خلاله مصدرين للأوامر، أو متلقِّين لها في أثناء المقابلات اليومية المباشرة، وأولئك هم من يمتلكون السلطة ويمكنهم إعطاء الأوامر، وهم أكثر احتمالية للبدء وضبط الكلام، ولديهم مشاعر ذاتية إيجابية، وتطابق مع أهداف الجماعات والمؤسسة. ولتجربة العواطف الإيجابية التي بدورها تمنحهم ثقة في المقابلات المقبلة. وفي المقابل فإن هؤلاء من يمتلكون سلطة أقل من هذه، وربما المشاعر السلبية مثل الغضب.

في المنظمات تعكس أنظمة التحكم، ومستوى ونوع الموارد الجوهرية والقهرية والرمزية التي توزع بين المكاتب والأفراد، وتكوينات هذه الموارد المستخدمة في السيطرة على الآخرين عند السعي للتحكم من خلال الاستخدام المكثف للإكراه، أولئك الذين يخضعون للسيطرة القهرية، وسوف يحاولون الهرب، ويحاربون. وإذا كان الهروب غير ممكن، فإنهم يمتثلون بالالتزام الواهي، وكلما زادت الرغبة في التحكم عبر استخدام الموارد المادية (الحوافز كزيادة الراتب)؛ طوَّر الأفراد التوجيه الاكتسابي، والسلوك الإستراتيجي، والاهتمام بالنفس. وكلما زاد اعتماد السيطرة على الموارد الرمزية؛ خضع الأفراد لتلقي طلبات المشاركة في المراسم والطقوس التنظيمية، والمكافأة للالتزام بالمعايير، والأيديولوجية الثقافية للجماعة المنظمة.

وكلما اعتمد من هم في السلطة على موارد الحافز المادي والقهري، وكلما اعتمدوا على مراقبة الالتزامات والتوجيهات؛ وكلما تم استخدام المراقبة أكثر؛ وكلما زاد مستوى تنفير الخاضعين لهذه المراقبة، -ونتيجة لذلك- كلما زادت نسبة الإشراف على الموظفين غير المراقبين؛ زاد الالتزام بالمعاير في المواقف المرئية بشكل كبير. وفي المقابل كلما زاد استخدام الموارد الرمزية لإدارة المنظمة؛ زاد التأكيد على القوانين الموحدة، والالتزام بالأهداف المنظمة، والذي -بدوره- سوف يقلل من الاعتماد على مستويات السلطة والعقوبات السلبية.

ويرى كولينز أن المجتمعات بُنيت أساسًا على ما أسماه طقوس التفاعل المنبعث من المقابلات اليومية المباشرة. وتلك الطقوس تمثل اللبنة الأساسية في كل المجتمعات من الجماعات إلى المنظمات، إلى أنظمة جغرافية سياسية أو اجتماعية أو حضارية. ولذا فإن ديناميات المنظمات المذكورة أعلاه مهمة؛ لأن التكوينات على نطاق واسع تبني من المنظمات. وإضافة إلى ذلك أن أهم تلك الأبنية الكبيرة المرئية، هي الاقتصاد والدولة. فحجم وميزان المنظمة السياسية مرتبط بالقدرة الإنتاجية للاقتصاد، ومستويات التكنولوجيا للوصول إلى الموارد، وكفاءة التنظيم، وحجم السكان في المجتمع، وعندما يصبح الاقتصاد أكثر إنتاجية يمكن للدول استخدام الضرائب على هذه الإنتاجية لتصبح أكثر. بالإضافة إلى ذلك كلما زاد احتمال انخراط الدولة في الأنشطة الجغرافية السياسية؛ فإنه يتم التحكم بأقاليم أكبر، وبالتالي ليس فقط الأقاليم التي يمكن حكمها، ولكن أيضًا عدد الناس الذين يجب التحكم بهم تحت تلك الظروف، ومن المحتمل أن تكون القوة الجبرية كالجيوش مستخدمة، وستكون مراكز القوى متناثرة عبر الأقاليم ليتم التحكم بها، وفي الوقت نفسه ستبذل الدولة جهودً لاتحاد رمزي بين وداخل الوحدات الاجتماعية التي تنظمها الدولة.

وتولد السلطة عادة بعض التوتر مع استقرار الدولة المرتبطة بمستوى ثروتها ودرجة تنظيمها، وقدرتها على حل الأزمات الدورية المتكررة. وكما أكد فيبر والعديد من علماء الاجتماع التاريخي المقارن أن الدولة هي أيضًا لاعب في حلبة سياسية أكبر. ومع استقرار الدولة وشرعيتها التي تعتمد غالبًا على نجاحها في هذا المجال سوف تسعى الدولة لاحتلال دول أخرى، وبناء الإمبراطوريات بوصفه نوعا مميزًا لتشكيل الجغرافية السياسية.كما ناقش سبنسر رغم أن كولينز لا يستخدم مفهوم سبنسر بل استخدم أسلوب ماركس، ولكن احتمال استخدامها في غزو دول أخرى. وكلما امتلكت الدولة ما أسماه ميزة المنطقة الحدودية، أو غياب الأعداء في الكثير من حدودها بسبب حواجز جغرافية مثل الجبال، والمحيطات؛ استطاعت هذه الدولة أن تتحرك من قاعدتها الرئيسة إلى النقطة؛ لما يلي: (أ) أن تفقد ميزة المنطقة الحدودية، ولقاء مزيد من الأعداء على حدودهم (ب) ومقابلات أرض حدودية لدولة أخرى في مواجهة حرب (ج) تتجاوز قدرتها في التنظيم والسيطرة

على انتشار السكان في الفراغ الجغرافي بعيدًا عن عاصمة الإمبراطورية.[١٤] وستكون النتيجة خسارة الحرب، وتصحر حدودها بسبب الهجوم المستمر من الأعداء، أو الأنهيار الداخلي بسبب نقص الموارد للسيطرة على السكان المتذمرين.

تحول دوركايم لتنظير صراع كولينز
The Durkheim Ian Shift in Collins' Conflict Theorizing

كان كولنز مهتمًّا دائمًا بالتفاعلات العاطفية للأفراد، وعندما يتم تقييمها في سياق الصراع، ثم تؤثر المشاعر على تماسك الأفراد وذوي الوحدات الاجتماعية، والمنخرطين في الصراع. ولذا كان تصور كولنز للأفراد بشكل متزايد مدفوعًا لتعزيز طاقتهم العاطفية الإيجابية، ويزيد رصيدهم الثقافي الذي بدوره ربما يسمح لهم بتلقي الاحترام. وكانت طقوس التفاعل هي نقطة التركيز في نظرية الوحدات الصغرى، وفي سنوات لاحقة وسع نموذج طقوس التفاعل لتشمل العمليات كما في (الشكل ٣,٣) التي تحدد القوى في اللعب.[١٥]

وقد وصف دوركايم كيف أن الوجود المشترك للأفراد يقود إلى الحديث والتفاعل، والذي يولد مزاجًا عاطفيًّا، وإحساسًا بالانفعال الذي يبدو أنه يأتي من خارج الأفراد. وهذه المشاعر تقود الأفراد إلى ترميزهم بوصفهم قوًى خارجية يقدسونها. وكما يشعر الأفراد بالحاجة للاعتراف بهذه القوى، فيبدؤون في صنع طواطم لترميز تلك القوى لسن طقوس موجهة إلى السلطة. ويبني كولينز الفكرة الأساسية ليطور نموذجًا أكثر تهذيبًا. وعن طريق اتباع الأسهم من اليسار إلى اليمين في (الشكل ٣,٣) بالإضافة إلى الآثار السببية المعكوسة (والأسهم من اليمين إلى اليسار) إلى نتائج عمليات التغذية الراجعة، والتأثير على تشغيل هذه العمليات، يمكن لنا أن نحصل على شعور بكيفية إثارة المشاعر بنقطة؛ حيث يصل الأفراد لدرجة عالية من الترابط، واختبار زيادة المشاعر وبناء على ما أسماه، رأسمال ثقافي جزئي (كالذكريات، والمشاعر، والخبرات، التي يتأثر بها أفراد الجماعة). وعندما

---

(١٤)انظر: راندال كولينز، نظرية علمية ويبيريا (كامبريدج مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٨٦)، ص ١٦٧ - ٢١٢ ؛ "التغيير الاجتماعي على المدى الطويل والقوة الإقليمية للدول" في علم الاجتماع منذ منتصف القرن: مقالات في تراكم النظرية (نيويورك: أكاديمي، ١٩٨١م).

(١٥)راندال كولينز ، سلاسل طقوس التفاعل (برينستون ، نيو جيرسي:مطبعة جامعة برينستون ، ٢٠٠٤م).

يتم بناء رأسمال ثقافي يشعر الأفراد بالحاجة لتحديد الترابط بالرموز، والأسماء، والكلمات، والعبارات، والملبس، والعلاقات والأجزاء في عضوية الجماعة.

وفي سياق الصراع، فهذه العمليات الأساسية لبناء الصراع في المجموعة، والمنظمات، وبالتالي جعل الصراع أكثر كثافة. وهكذا، فإن متغيرات في النماذج السابقة تشير ببساطة إلى زيادة الاستثارة العاطفية الموجودة في المتغيرات في النماذج الأولى التي تعطي ببساطة زيادة في إثارة المشاعر وترميزها، ولا يمكن أن تكون جماعات الصراع مؤثرة وتتماسك سويًا. وبالنسبة لكولينز، فإن نموذج إثارة المشاعر قابل للتطبيق في كل الأشكال الأخرى لمنظمات غير الصراعية كالمجموعات، والمنظمات، والمجتمعات، وحتى الأنظمة بين الاجتماعية والحضارية التي تتماسك من دون ديناميات طقوس التفاعلات التي تعمل على مستوى الوحدات الصغرى، والمشاعر المتولدة في طقوس التفاعل هي مصدر لجذب الأفراد وربطهم معًا في الوحدات الاجتماعية الكبرى التي تحافظ على دوافع الأفراد للمشاركة في أنشطة الوحدات الاجتماعية حتى لو كان هذا صراعًا مع وحدة اجتماعية أخرى تسعى لتحقيق أهداف غير صراعية.

النظرية الجديدة للعنف على مستوى الوحدات الصغرى

The New Theory of Micro-Level Violence [١٦]

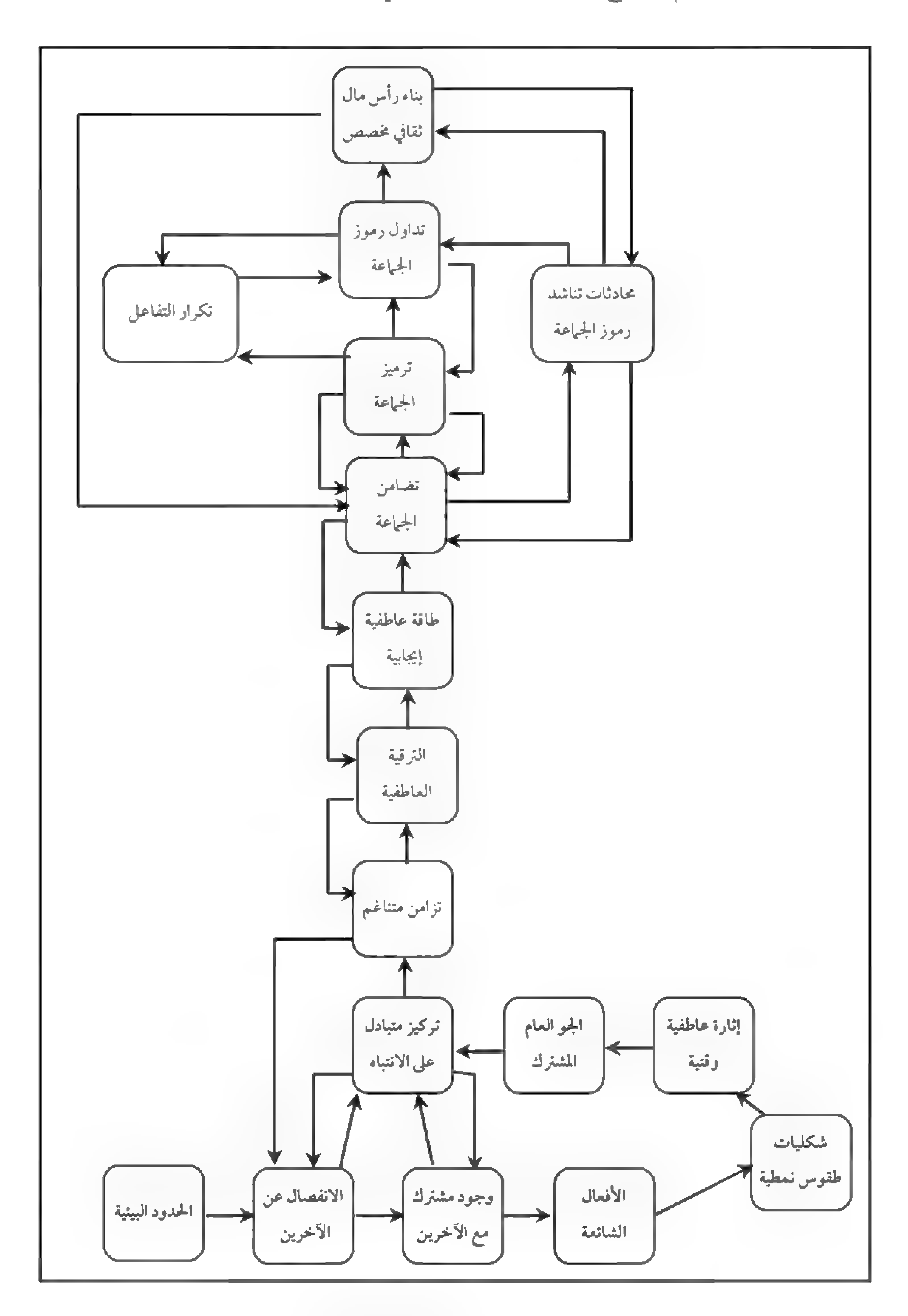
تشمل معظم التفاعلات مراحل طقوس التفاعل والموضح في (الشكل ٣.٣)، ولكن تبرز احتمالات العنف في الطاقة العاطفية الإيجابية في الطقوس التفاعلية، والمجال العاطفي للأفراد تحت مواقف العنف المحتمل التي تولد مشاعر الخوف القوية؛ مما يتسبب في توتر هائل أثناء المواجهة بين مراحل إثارة المشاعر الإيجابية المرتبطة بطقوس التفاعل، واستجابة للخوف وللعنف. وحتى عندما يكون لدى الأفراد الدافع للانخراط في الصراع يكون من الصعب الضغط للدخول في أعمال العنف. فمعظم مواقف العنف تفشل في أن تصبح عنيفة أو تولد التهيؤ، ولكنها لا تتضمن عنفا

---

(١٦) *Randall Collins, Violence: A Micro-sociological Theory (Princeton NJ: Princeton University Press 2008).*

بشكل كامل يسبب توتر المواجهة، وحتى عندما يصبح حزب واحد عنيفا لايكون هذا العنف محل الاهتمام في الغالب الأعم. وفي حالة العنف الجماعي؛ أي عندما تنخرط الجماعات المنظمة في العنف كما في حالة الحرب والشغب، فمعظم الأفراد لا يشاركون بشكل إيجابي في العنف. وبدلًا من ذلك غالبًا ما يتراجع الناس ويظهرون بشكل هامشي. فما القوة التي تمكن الأفراد من التغلب على قوة توتر المواجهة؟

لذلك تسعى نظرية كولنز لتوضيح بعض الظروف التي تجيب عن هذا السؤال بوصفه أحد هذه الحلول. وربما يكون الأكثر أهمية أن تستخدم طقوس التفاعل في (الشكل ٣ .٣) لتعبئة الممثلين لارتكاب العنف عند استخدامه للارتقاء بالصراع، ومراحل طقوس التفاعل الذي يتم تكديسه لشحن طاقة إيجابية شعورية لارتكاب عنف ضد العدو، والترفيه العاطفي، والانفعال، والطاقة الإيجابية للمشاعر، والترابط، ورموز الجماعات ، و الجماعات الثقافية المخصصة ككل والمركزة على العدو، والطاقة الإيجابية للمشاعر التي تنبع من الأذى والهزيمة.وهذا الاستخدام لتفاعلات الطقوس الأكثر تأثيرًا يحدث عندما يكون العدو على مسافة بعيدة، كما في حالة المواجهات العسكرية، والجيوش، والخلاف الإرهابي، والجماعات المجهزة للعنف. وجميعها تستخدم مراحل طقوس التفاعل وتمارس العنف برموزه المذكورة، كالإعلام، والإشارات، والذكريات الفريدة للجماعة، وتجهيز مشاعر إيجابية للانخراط في الصراع كما في حالة الارتقاء. بأهداف جماعة الصراع ولكي يحدث الصراع أو يعمل على مستوى التكتل يجب على واحد أو اثنين من الأفراد -بشكل جماعي- التغلب على توترات المواجهة، ولقد تعلّم البشر عبر الألفيات كيفية فعل هذا عن طريق السيطرة على ديناميات طقوس المواجهة. واستخدامها لشحن المشاعر الإيجابية، ورموز ترابط الجماعة، من أجل أهداف الصراع. وبالرغم من ذلك لا يشارك الجميع الخائف؛ لأن الخوف هو خوف البشر الأقوى المرتبط بالمشاعر، ومن الصعب تجاوز تلك المشاعر، حتى مع قوة طقوس التفاعل.



الشكل (٣ ,٣). كولينز الموسع لطقوس التفاعل.

نظرية الصراع الماركسية الجديدة Neo-Marxian Theories of Conflict

فصَّل منظرو الصراع التحليلي أفكار كارل ماركس التي تشرح الصراع من وجهات نظره بأن الصراع يجب أن يستخدم لإلغاء نماذج الاستغلال والظلم.[١٧] وهناك دائمًا عنصر تطبيق عملي، أو فعل يقود النظرية باسم الخير الاجتماعي، في كل تنظير ماركس والمنظرين الماركسيين الجدد، وسوف نرى هذا الموقف النقدي في (الفصل ١٠) في النظريات التفسيرية النقدية. ومما يدعى أحيانًا التحليلية الماركسية التي تسعى لتطوير النظريات النقدية التي تذكر عيوب نظرية ماركس التي تتنبأ بـــثورة الطبقة العاملة، وشروط المجتمع الماركسي المعاصر. فقام الماركسيون التحليليون بتبديل وحدة التحليل من المجتمعات إلى أنظمة المجتمعات مع رؤية الديناميات، ملخصة بواسطة ماركس بوصفها أكثر احتمالًا للحدوث على المستوى العالمي والمؤثر المرتكز على الدولة، والذي يسمح بتناقضات الرأسمالية التي توجه ثورة علماء الاجتماع على نطاق عالمي. ومازال هناك الكثير من الاهتمام على التطبيق العملي في كل من النوعين كالنظريات التحليلية، ولكن ما يجعلها تحليلية أنها تتولى عملية شرح دينامية الصراع بشروط أيديولوجية أقل، وخاصة عندما تقارن بالنظريات النقدية المذكورة في (الفصل ١٠).

---

(١٧)على سبيل المثال، بيري اندرسون، اعتبارات على الماركسية الغربية (لندن: استعراض اليسار الجديد، ١٩٧٦م)؛ مايكل بوراواي، سياسة الإنتاج (لندن: فيرسو، ١٩٨٥م)؛ سام باولز وهربرت جنتيس، الديمقراطية والرأسمالية (نيويورك: الكتب الأساسية ، ١٩٨٦م)؛ ج. أ. كوهين، تاريخ العمل والحرية: ثيمات من ماركس (أكسفورد: كلارندون، ١٩٨٨م) وكارل ماركس نظرية التاريخ: الدفاع (برينستون، نيو جيرسي: مطبعة جامعة برينستون ،١٩٧٨م)؛ جون إلستكر، فهم ماركس (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج) ١٩٧٨ ؛ باري هندس وبول ك. هيرست، رأس المال والرأسمالية اليوم (لندن :روتليدج ، ١٩٧٧م)؛ المواد خارج الرأسمالية غير المنظمة: التحولات المعاصرة للعمل والسياسة (كامبردج: مطبعة جامعة كامبريدج ،١٩٨٥)؛ آدم برزورسكي، الرأسمالية والديمقراطية الاجتماعية (كامبردج: مطبعة جامعة كامبريدج ،١٩٨٥م)؛ جون إيه رومر ، نظرية عامة للاستغلال والطبقة (كامبريدج، ماجستير: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٨٢م) والأسس التحليلية للنظرية الاقتصادية الماركسية (كامبريدج :مطبعة جامعة كامبريدج ١٩٨١م)؛ مايكل براوي وإريك أولين رايت، "الماركسية الاجتماعية في كتيب النظرية السوسيولوجية ، طبعة ج. هـ. تيرنر (كلوير اكاديمي / بلينوم ، ٢٠٠١م)، ص ٤٥٩ – ٤٨٦ ؛ إريك أولين رايت، "ما هية الماركسية التحليلية؟" استعراض الاشتراكية ١٩ (١٩٨٩م).

الماركسية التحليلية: إيريك أولين رايت Analytical Marxism: Erik Olin Wright

يُعدّ إيرك أولين رايت الماركسي التحليلي (Erik Olin Wright) الأكثر شهرة في الولايات المتحدة الأمريكية الذي قام بتكريس كل حياته المهنية في محاولة لفهم تنبؤات كارل ماركس عن فشل الثورة. وحديثًا جدًّا قدم دليلًا موجزًا لصنع ما سماه "المثالية الحقيقية" التي تصنع السلام بين الرأسمالية، والشتراكية؛[١٨] حيث قام رايت (Wright) بجمع معلومات ليست يسيرة لعرض الحقيقة للديناميات الاشتراكية عن تقدم مستوى الوحدات الكبرى، ووضع الناس الطبقي. وعندما حاول تفسيره بشكل تجريبي؛ وجد أن وضع الناس واهتماماتهم الطبقية تبرز تعقيدًا أكثر، وكانت إحدى تلك التعقيدات بأن ليس هناك ربط بين الوظائف عن طريق الإنتاج الاقتصادي والوضع الطبقي. وبالإضافة إلى ذلك حالما يتم إدراك هذه الحقيقة بين العلاقات المترتبة على مصالح الأفراد المادية، وخبراتهم اليومية وقدراتهم الجماعية لتنظيم الصراع، وهذا لا ينطبق على نظرية ماركس على المستوى الكلي.

وهذه الخاتمة يمكن مناقشتها عن طريق ما أسماه رايت "مشكلات الطبقات المتوسطة".[١٩] حيث يرى أن ماركس قد تنبأ بأن المجتمع الرأسمالي ربما يتمحور في طبقتين أساسيتين، هما: البرجوازيون الذين يمتلكون ويتحكمون في وسائل الإنتاج، والأخرى طبقة البروليتاريا الذي يتم استغلال جهودها من قبل الرأسماليين. ولذا فإن إحدى المشكلات الواضحة حاليًّا أن المجتمعات الرأسمالية أفرزت العديد من الطبقات بدلًا من التقليل منها، وهناك طبقة كبيرة في الوسط بين الأغنياء

---

(١٨) Erik Olin Wright, Envisioning Real Utopias (London: Verso, 2010).

(١٩) إريك أولين رايت، "تحليل الفصل ، التاريخ والتحرير" استعراض جديد ٢٠٢ (١٩٩٣م) ص ١٥ - ٣٥ ؛إريك أولين رايت ، "إعادة التفكير ، مرة أخرى، مفهوم البنية الطبقية" في النقاش حول الطبقات ، طبعة ه. رايت (لندن: فيرسو ١٩٨٩م) ص ٢٦٩؛ إريك أولين رايت، الفصل، الأزمة والدولة (لندن: فيرسو ، ١٩٧٨م)، بناء الفئة وتوزيع الدخل (نيويورك: أكاديمي ، ١٩٧٩م) ، الطبقات (لندن: فيرسو ، ١٩٨٥م)؛ إريك أولين رايت ولوكا بيروني "فئات الطبقة الماركسية وعدم المساواة في الدخل "استعراض علم الاجتماع الأمريكي٤٢ (١٩٧٧م): الصفحات ٣٢-٥٥؛ "المشروع المقارن حول الهياكل الطبقية والوعي الطبقي: نظرة عامة ، السوسيولجيا (١٩٨٩): (الصفحات ٢٢-٣٢).

والفقراء لم يتعرض لها ماركس، وهي طبقة تتسم بالغموض والمنفعة والصراعات فيما بينها أو مع الطبقات الأخرى إلى حد كبير، إلا أن كارل ماركس لم يشير إلى مصالح هذه الطبقة بوضوح. إضافة إلى أن التجارب الحية والإمكانات لهذه المجتمعات ينحرف في مفهومه عن تصور ماركس وتنبؤاته.

وقد يكون لأفراد هذه الطبقة الوسطى عدة مواقع طبقية متناقضة لاختلاف ترتيبات الأفراد بالنسبة لامتلاك وسائل إنتاجهم من بيع عملهم أو شراء عمل الآخرين، وعلى سبيل المثال: إذا كانت الأسرة هي وحدة التحليل عند ماركس، وهي التي تكسب أفرادها الخبرات والقدرات الأساسية لتعبئة الجماعات في طبقات مختلفة، ويكون هذا واضحًا وبخاصة عندما يكون أحد أفراد الأسرة من ذوي الياقات الزرقاء، والآخر من ذوي الياقات البيضاء، وبالتالي سيكون الموقع الطبقي للأسرة في مثل هذه الحالة متناقضًا، وهذا لا يتوافق مع رؤية كارل ماركس. وإضافة إلى ذلك فإن العمال ذوي المهارات العالية يمكن أن يبيعوا جهدهم في أسواق العمل بمزايا كبيرة؛ وبالتالي يمكن إضافة دخل إضافي على دخلهم بسبب قيمة عملهم. فمن الصعب لهؤلاء المحترفين والعمال والمهرة رؤية أنفسهم مستغلين. وهناك مشكلة تتوسط علاقات الطبقية عندما يقوم أحد أفراد العائلة بالأعمال المنزلية، بينما يعمل الآخرون خارج المنزل، فما هو مقابل هذا الجهد لفئة أفراد العائلة الذين يؤدون الأعمال المنزلية؟ كما أن هناك مشكلة أخرى لم يتنبأ لها ماركس، وهي أن هناك نسبة كبيرة يعملون من قبل الحكومة يصعب استغلالهم من قبل الرأسمالية، وهم موظفو الحكومة، فضلًا عن أن هناك من يعملون في منظمات غير حكومية، وقد تكون غير قادرة على الإسهام في الدخل كصناديق المعاشات التقاعدية للعمال التي غالبًا ما تكون أكبر حامل أسهم لشركة رأسمالية، إلا أنه لا يمكن لأحد أن يَعُدَّها برجوازية.

وقد استخدم رايت (Wright) عددًا من المناقشات التحليلية للحفاظ على مفاهيم كارل ماركس حول استغلال معيار فائض القيمة المستخرجة من أجور العمال، وكانت هذه ناجحة للغاية. ولكن القلق من التغلب على انتهاكات أشكال الإنتاجية الرأسمالية الناجحة. وهذا الجهد الأخير في

كتاب رايت[٢٠] بعنوان: "تصور المثالية الحقيقية" يظهر فيه رايت بأنه قام بالتخلص من أضرار الرأسمالية، ووضع لها المسارات المحتملة التي يمكن من خلالها تقليل تلك الأضرار، وذلك بإعادة بناء الاقتصاد ونظام الحكم، وبنفس القدر من الأهمية. وكما ذكر أنه قسَّم المسارات المختلفة القادمة بناءً على البنية الرأسمالية، والأشكال الديموقراطية للحكم. وبفعل ذلك فإن ما قدَّمه ليس فقط يوتوبيا حقيقية ؛ بل أيضًا يوتوبيا أكثر واقعية.

ويلخص الشكل (٤, ٣) نموذجَ رايت؛ حيث تظهر المسارات المحتملة للتحول من الرأسمالية إلى الاشتراكية. فالرأسمالية تخلف أضرارًا اجتماعية من خلال أربع آليات مختلفة من الإنتاج الجماعي للعلاقات الاجتماعية الضارة، وإحدى تلك الآليات الضارة هو الإكراه الذي ينطوي على عرض أنواع مختلفة من العقوبات لصنع التحديات للنظام.

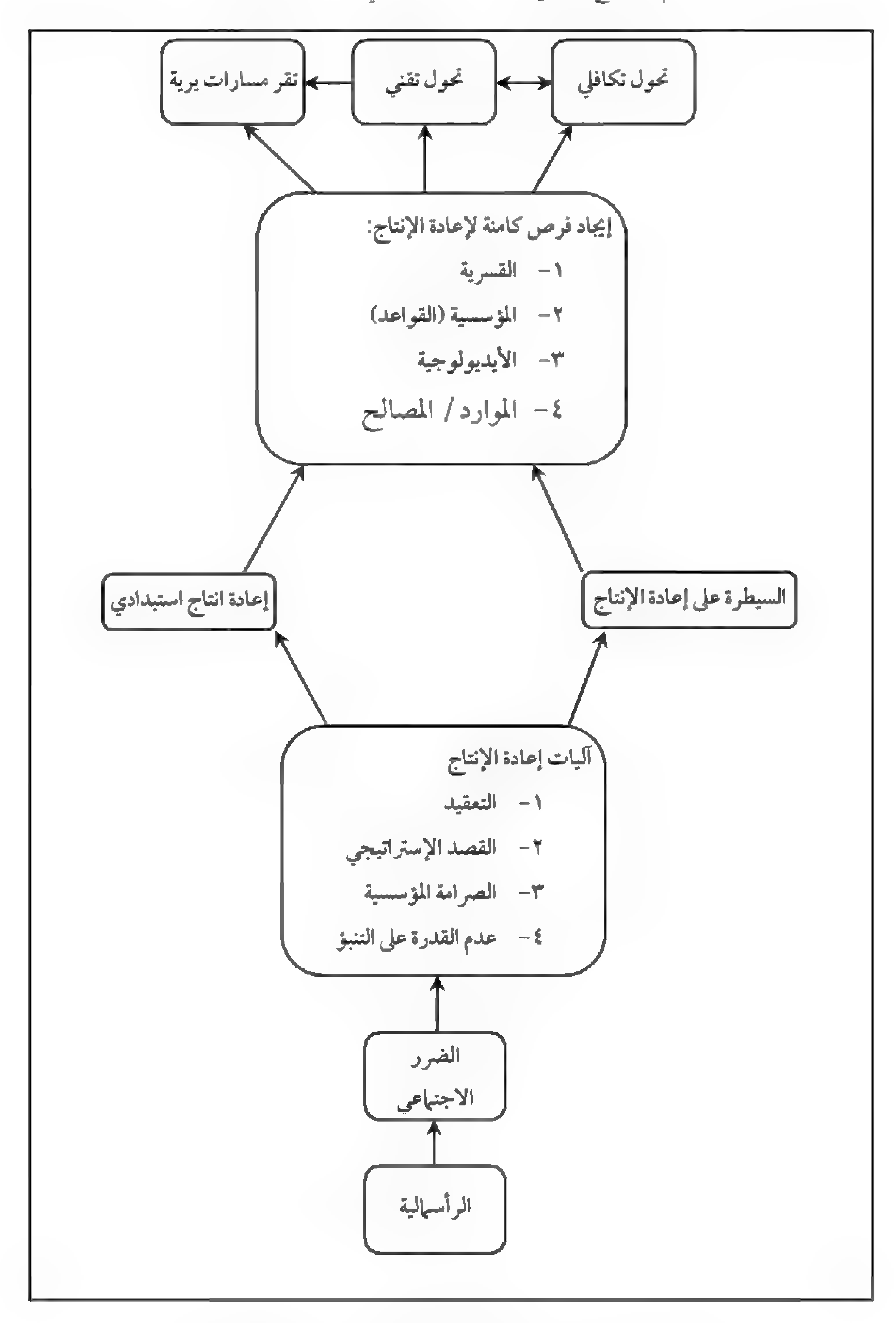
ولا يمكن أن يتحقق الإكراه من قبل الجهات الحكومية أو غير الحكومية التي تستخدم الإكراه أو التهديد لمنع الناس من تعبئة الصراع والتعبير في نظام العلاقات الاجتماعية. وهناك آلية أخرى هي القواعد المؤسسية، أو القواعد المقبولة في اللعبة التي تجعل من التحديات التي تواجه منظومة العلاقات صعبة المتابعة. والآلية الثالثة هي الأيديولوجية، أو على نطاق أوسع كالثقافة كما يقول كارل ماركس، ويتم التحكم فيها من قبل أولئك الذين لديهم القدرة على التلاعب بوسائل الإعلام والسيطرة على الأبنية المنتجة مثل (التعليم لتوليد التزامات الأفراد للمعايير)، وأيضًا من خلال (المعتقدات، والأيديولوجيات)، وبالتالي منع الأفراد من تحدي النظام. والآلية الرابعة هي المدرجة في (الشكل ٤, ٣) وهي المصالح المادية للأفراد المرتبطة بنجاح الرأسمالية، والتي تبقى الناس على اعتقادهم بمصالحهم الحقيقية، والتي ربما لا يدعمها النظام الرأسمالي، ولكنها في الواقع تكمن في المشاركة في الإجراءات، إلا النظام القائم من المحتمل أن يجعل علاقات الأفراد في حالة خوف من تحدى النظام، وبالتالي منعهم من النظر في المصالح الحقيقية لتغيير النظام المستغلهم في الواقع الاجتماعي.

ويلتزمون بالنظام المادي الذي يشكل هذه الآليات التي تعمل في مختلف التكوينات. ووفقًا للسؤال المطروح، يوجد نوعان أساسيان من التكوينات المحتملة حتى يتم إعادة الإنتاج الاجتماعي من خلال: (١) إعادة الإنتاج الاستبدادي الذي يعتمد على القسر والقواعد المؤسسية. (٢) إعادة

(٢٠) رايت، تصور اليوتوبيا الحقيقية (ورد ذكره في الإيضاح ١٨). المرجع نفسه، ص ٣٠١.

الإنتاج المهيمن عليه الذي يجذب الناس من خلال الأيديولوجية، وتصورات خاطئة توجه الناس عن القبول برضا نحو الالتزام بنظام الاستغلال من أجل تحقيق مصالحهم، وبخاصة عندما لا تكشف أنظمة الاستغلال عن حدود هذا الاستغلال للناس، وكذلك عدم الكشف عن ثغرات ونقاط الضعف التي تعطي فرصًا لإمكانية التغيير وفقًا لـ (الشكل ٤ , ٣) تحت بند (التعقيد والجمود المؤسسي) مما يعوق عدم القدرة على التنبؤ التي تؤدي إلى ثلاثة مسارات محتملة لإحداث تغير جذري المجتمعات الرأسمالية المعقدة.

وفي الواقع؛ غالبًا ما يتعرض النظام الرأسمالي المعقد إلى انقسامات؛ نتيجة لتضارب المصالح؛ مما يؤدي إلى التناقضات، والحاجة إلى المقايضة، واستخدام قوى أخرى تدفع الناس إلى خلق مشكلات مع النظام الأكبر، من أجل تحقيق الأهداف المرغوبة والدوافع المحتملة لتغيير النظام بنظام جديد، فضلًا عن مصادر أخرى من الأفعال معتمدة على إستراتيجية مصممة لتبدل النظام بنظام آخر جديد (إعادة الانتاج)، أو قد يتعرض النظام للمشكلات -بشكل أو بآخر- عندما ينتج إستراتيجية أو سلوكيات من بعض الممثلين المتغطرسين الذين قد يحدثون أزمة ومشكلات أكثر للنظام دون إيجاد الحلول المناسبة لها. كما أن اتخاذ القرارات المتحيزة أو الاعتماد على المعلومات غير الكافية قد يؤدي إلى وجود مشكلات جديدة أخرى للنظام في الأنظمة المعقدة أو الرأسمالية. ولذا فإن كل القرارات والأفعال والإجراءات في الأنظمة المعقدة يمكن أن ينتج عنها عواقب غير متوقعة قد تعرض النظام بشكل عام للمشكلات. وهكذا؛ فإن الإجراءات الصريحة لإعادة إنشاء نظام جديد يحل محل نظام غير مناسب؛ قد يقود هذا الإجراء -غالبًا- إلى مشكلات تدفع الأفراد للتشكيك فيه وعدم الثقة بالاعتماد عليه بشكل يجعل من المحتمل أن يتخذو إجراء لتغييره. وهناك مصدر ثالث لفرصة تغيير النظام يكمن في الجمود المؤسسي وفقًا لنموذج الحفز الذي يعمل على إعادة الإنتاج أو إحداث التوترات. ولكن قد يكون من الصعب تغيير النظام بسبب تبعيات المسارات التي ينتهجها، والأيديولوجيات القوية التي يستند إليها، وقدرة هذا النظام على الاستفادة من الممثلين الأقوياء فيه بوصفهم مساندين له، وبالتالي يصبح من الصعب تغيير النظام؛ ويمكن أن يتبع تغييره عواقب سلبية غير متوقعة، وبشكل مفاجئ قد يؤثر بشكل سلبي على الأنظمة الأخرى، وقد يلفت انتباه الناس نحو المشكلات الحقيقية التي تحتاج إلى معالجة بطرق تحويلية.



الشكل (٤ ,٣). تصور رأيت التركيبي لطريق التحول نحو التغير التحويلي.

وحتى يبدأ رايت برسم مسارات جديدة لتحويل الأنظمة الرأسمالية إلا أنه ما يزال متمسكًا بالرأي الماركسي الأساس الذي يكشف أنظمة الاستغلال، والتناقضات التي سوف يتم عرضها، مما قد يقود الناس للبحث عن أنماط جديدة من العلاقات الاجتماعية. ورغم ذلك قد يكون المسار مختلفًا -نوعًا ما- عن تصور كارل ماركس، إلا أن العلاقة الأساسية بين الاستغلال والتناقضات والتغير التحولي تبقى على حالها. وقد أكد رايت على التنبؤات المادية التاريخية التي ظهرت عن طريق التاريخ الحقيقي للرأسمالية.(٢١)

وأخيرًا؛ فقد حدد رايت ثلاثة مسارات لأشكال الاشتراكية، ومن المثير للاهتمام أنه يرفض اثنين من المسارات غير الواقعية. والمسارات الغير مكتملة هي الأقرب إلى معيار الماركسية، وتعتمد على إدراك التناقضات ومضار الرأسمالية، وأصبح الناس ملتزمين بالبديل الاشتراكي؛ وهو الأمر الذي لم يحدث حتى الآن في الأنظمة الرأسمالية، بسبب قوى إعادة إنتاج الرأسمالية. والمسارات المتخللة تكتسب قوة دافعة من خلال إيجاد ثغرات في البناء المؤسسي عن طريق إجراءات الفئات المحلية المختلفة، ولكن قدرتهم في تغيير بنية الرأسمالية أمر مشكوك فيه. وهكذا، يُعدُّ فقط المسار الأخير هو التحول التعايشي، والواقعي، ومن ثم يكون بمنزلة بديل للمشاركة الحقيقية للرأسمالية اليوم، وهنا يتم إجراء التسويات بين مصالح رأس المال وفئة من السكان القادرين على العمل.

ويُعدُّ التحول التعايشي عملًا من أسفل إلى أعلى يسعى إلى منح السلطة للناس في أثناء حل المشكلات التي واجهتها الرأسمالية؛ لأن التغيير تطوري ارتقائي، ويتضمن التسوية الطبقية التي تحقق التوازن بين مصالح العمال والمواطنين بصفة عامة مع أهداف الرأسمالية. وللعديد من المجالات الرئيسة للنشاط أهمية بالغة بالنسبة لهذه التسوية الطبقية، ولعل من أهمها: أولًا: مجالات التغيير، وديناميات السوق؛ فحيث يتقابل الناس مع الرأسمالية يجب أن تكون هناك تنازلات حقيقية في هذا المجال بين مصالح الطبقات غير الاشتراكية، وغير النخبوية، والرأسمالية. ثانيًا: مجال الإنتاج؛ حيث تكون العلاقات فيه بين العمل في الشركات ورأس المال الذي يجب أن يكون أكثر توازنًا لحل النزاعات بالمفاوضات بين الاثنين بوصفهما ممثلين للإنتاج بالمساواة. ثالثا: مجال السياسة؛ حيث يحدث تنازلات بين فئتي تشكيل وتنفيذ سياسات الدولة، والتي تلبي وبصورة متزايدة مصالح كل

(٢١) المرجع نفسه، ص ١٠٣.

من الدولة وأعضاء من طبقات غير الصفوة. وتبني رايت تجربة فكرة "القوة النسبية" للحفاظ على رأس المال التي من خلالها يتم تقسيم الطبقات. ولبناء قوة رأس مال مشتركة، وعندما تصبح قوة رأس المال ضخمة فإن المصالح المشتركة للعمال تكون أيضًا مرتفعة جدًّا، والعكس صحيح. وعلى النقيض الآخر يقول رايت: إن الوسط الذي يمكن أن يدرك كِلا الطرفين فيه مصالحهم يكون أكثر قابلية للتطبيق. ويضيف رايت: إن أمريكا على النقيض من السويد؛ إذ تهتم بجانب واحد من هذه الفكره للقوة النسبية؛ حيث تفضل رأس المال أو المصالح الطبقية المشتركة، بينما السويد يكون على الجانب الآخر من هذا التقسيم؛ إذ يفضل رأس المال. وبالتالي قد تحتاج الولايات المتحدة إلى التغيير على غرار الجانب السويدي حيث مصالح رأس المال، وهذا يساعد على سهولة تغيير النخب لتكون أكثر توازنًا بالتساوي بين النخب؛ من أجل تلبية الكثير من أهدافها.

وهكذا بحلول نهائية التصور الحقيقي للمثالية الأيديولوجية بشكل كبير، وأيضًا الدور التحويلي الذي تعتمد عليه قوة المؤسسات الرأسمالية الحالية وبما تركز عليه لتصبح عائقًا أمام الثورة كاملة. وبدلًا من تغيير وتطوير النظام إلى القدرة على التحول لقوة رأس المال بشكل يكون أكثر توازنًا في الرأسمالية، وحيث إن مصالح غير النخبة لها مثل هذا التأثير على السياسات. كما أن النخبة أكثر واقعية، وربما كبديل أكثر تطبيقًا لإقصاء التصرفات الضارة بالرأسمالية، إلا أن هذا قد ينطبق على المجتمعات الصغيرة جدًّا ومكونًا من نحو ستة ملايين شخص فقط؛ لأن النخبة في هذه الحال تكون قادرة على تحقيق هذا التوازن، ومثال ذلك قد نجده في دول مثل: السويد، الدنمارك، النرويج، ولكن ربما لا يكون واضحًا مثل هذا الإجراء على مجتمع مثل الولايات المتحدة الذي يتعدى (٣١٠) مليون شخص؛ لأن المجتمعات الصغيرة تكون متجانسة إلى حد كبير.

النظام العالمي للتنظير الصراعى
World Systems Conflict Theorizing

مثّل كل من سبنسر و فيبر التنظير لأنظمة عالمية بفحص ديناميات الصراع بين المجتمعات أكثر من فحصه بين الطبقات الاجتماعية في المجتمع، وكان في هذا الاتجاه الكثير من عناصر فكر فيبر، و لكن المنطق الأساس في كثير من الأحيان هو الماركسية، وهي أيديولوجية خفية في بعض الأحيان؛ بحجة أن الثورة سوف تحدث على المستوى العالمي عندما تحدث تناقضات الرأسمالية

بشكل كامل. ولم تبذل جهود كثيرة لتطوير النظريات ديناميات [٢٢] النظام العالمي، ولكن سوف أركز على المخطط الأول الذي حظي باهتمام واسع في الدوائر النظرية العامة.[٢٣]

قدَّم إيمانويل ولرستن (Emmanuel Wallerstein) أول مخطط نظري شامل لديناميات تحليل النظام العالمي، بالرغم من أن هناك كثيرين قد أسهموا أيضًا في التنظير للعمليات المجتمعية. وفي مخطط "والرستن" ومعظم المنظرين ينصب التركيز على الطبقية بين المجتمعات، ومع السلطة، وارتفاع مستوى الإنتاج لديها، والقدرة على نمو أقل في استغلال المجتمعات. ومن خلال الحصول على المواد الخام بأسعار منخفضة جدًّا. وهكذا لتحل البرجوازية محل الرأسمالية، وترى النظريات العالمية للأنظمة استخدام المجتمعات الرأسمالية مزايا السوق، والاعتماد على المجتمعات الأقل تطورًا في رأس المال لاستغلال المجتمعات الأضعف بالطرق التي تحافظ على تخلفها، بجانب القدرة على استخدام القوة القسرية للاستحواذ على الموارد، وغالبًا ما تكون المجتمعات الأقل نموًا في وضع غير مميز في هذا النظام من الاستغلال.

وفي مخطط والرستن هناك ثلاثة مستويات من المجتمعات في هذا النظام من الترتيب الاجتماعي، وهي: (١) الدول الأساسية من أكبر القوى المنتجة اقتصاديًّا. (٢) المجتمعات "المحيطة-الخارجية"

---

(٢٢)للحصول على نظرة مبكرة على ديناميات النظام العالمي، انظر: جون أتكينسون هوبسون، الرأسمالية والإمبريالية في جنوب إفريقيا (لندن : استعراضات معاصرة ، ١٩٠٠م)؛ شروط السلام الصناعي (نيويورك ماكميلان ١٩٢٧م)؛ اعترافات الزنديق الاقتصادية (لندن: جي .الين وأونوين .١٩٣٨م)؛ اقتصاديات التوزيع (لندن: ماكميلان ، ١٩٠٠م).

(٢٣)إيمانويل والرشتاين، نظام العالم الحديث، ٣ مجلدات (نيويورك: أكاديمي ١٩٧٤ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٩م) سيكون مصدري الرئيس، لكن العمل الذي قام به باحثون سابقون -مثل أندريه جاندر فرانك- حول "نظرية التبعية" كان متوقعًا كثيرًا مما كان سيقوله والبرشتاين. المجتمعات المتخلفة ، لا سيما في أمريكا اللاتينية ، لا يمكن أن تمر بالمراحل إلى التحديث لأنها تعتمد اقتصاديًّا على الاقتصادات المتقدمة ، وهذا التبعية والاستغلال المقابل من قبل القوى الصناعية المتقدمة منعهم من أن يصبحوا محدثين صناعيًّا بالكامل. انظر على سبيل المثال: رأسمالية فرانك والتخلف في أمريكا اللاتينية (مطبعة الاستعراضات الشهرية : نيويولود ، ١٩٦٧م). وانظر أيضًا عمله في وقت لاحق. تراكم الاعتماد (نيويورك: مطبعة الاستعراضات الشهرية ١٩٧٩م). أيضًا، أجرى المؤرخون -مثل فرناند بروديل- تحليلات حول عمليات النظام العالمي (للاطلاع على نظرة عامة عالية ، انظر: الحضارة والرأسمالية ، ٣ مجلدات (نيويورك: هاربر ورو ١٩٦٤م).

غير المتطورة اقتصاديًا. (٣) الدول شبه "المحيطه-الخارجية" التي تقع بين الأساسية و "المحيطة-الخارجية" التي تستخدم كدول وسيطة في منتصف الاستغلال الأساسي لدول النواة.

ولكن قبل ظهور الرأسمالية وبداية انتشارها كان الشكل الأكثر شيوعًا للنظام بين المجتمعات هو الإمبراطورية العالمية، وهي إمبراطورية أوجدها الغزو العسكري للدول الأخرى. والغزو الذي يحدث لأي تجمع سكاني يسمح باستخراج فائض الثروة لدعم امتياز القوى القهرية للمجتمع المهيمن. ونظرية كولنز (Collins' analytical theory) التحليلية التي تمت مراجعتها سابقًا توفر قائمة لبعض الظروف التي تؤثر على حجة وصول مثل هذه الإمبراطورية واستقرارها كما كان يفعل والرستن (Wallerstein) والكثير من المنظرين في تقليد النظام العالمي. وهذا النوع من التقسيم على مستوى العالم مستغل لأقصى درجة؛ لأن الدول التي تم غزوها ليس لديها قدرة حقيقية للمساومة مع الغزاة، إلا أن النظام على المدى الطويل غير مستقر بسبب الإمبراطوريات الجيوسياسية، وتميل للتوسع خارج نطاق قدرتها اللوجستية للسيطرة على الأراضي، ولقمع ثورة محتملة من قبل أولئك الذين يتم استغلالهم.

وبدأ مع الرأسمالية نوع آخر من النظام العالمي في التطور حيث يقول والرستن (Wallerstein) بأنه نظام جيو-اقتصادي (geo-economic system)، ويبنى النظام الجيو-اقتصادي على ثلاثة مستويات من التكوينات الاجتماعية الحضارية، كنواة المحيط أو شبه المحيط التي تنطوي على العلاقات الاجتماعية على أساس الاختلافات في السلطة، والإنتاج للنواة المحيطية وشبة المحيطية. وإلى جانب هذا البعد الجيوسياسية(this geo-political) لاقتصاد العالم الناشئ المتمثل في الأسواق حيث الموارد سوف تكون المصدر الرئيس. ويرى والرستن بأن المجتمعات المتخلفة وخاصة في أمريكا اللاتينية لم تستطع تخطي مراحل التحديث؛ لأنها كانت معتمدة اقتصاديًا على الدول المتقدمة، وأبعدهم هذا الاعتماد والتواصل مع الاستغلال عن طريق قوى صناعية متقدمة عن التحديث الصناعي الكامل. ويتم التبادل لاستثمار رأس المال عن طريق الأساس في الدول المحيطة، وشبه المحيطة في تجارة غير عادلة، واستغلالية في التوسع على مستوى الأسواق العالمية. والأساس الذي تتنافس عليه الدول بعضها مع بعضها أحيانًا بشكل جماعي يكمن في استغلال الدول الأقل نموًا، واستخراج المواد الخام بأسعار رخيصة، ثم إرسالها بعد التصنيع إلى المجتمعات المحيطة بأسعار عالية.

وفي الواقع أن الاقتصاد العالمي مستقر، فالمجتمعات الأعضاء في الأساس يمكن تغييرها عبر الوقت. كما كان الحال عند أسبانيا والبرتغال، فالفرصة لدول أساسية مثل الولايات المتحدة واليابان، والدول الأحدث مثل الصين والهند، فأصبح هناك حراك للأعلى بشكل نموذجي من شبه المحيطة إلى الأساسية، ويعتقد أن ظهور أسواق على مستوى العالم عن طريق منظرين للأنظمة العالمية من أجل توليد ظروف للانتقال إلى الاشتراكية في الأسواق من دون تنظيم خارجي عن طريق الحكومة على مستوى العالم، أو نظام قانوني فقط في بداية التناقضات، وديناميات التذمر الذاتي للرأسمالية الذي سوف يؤدي إلى أزمات تقود في النهاية إلى الاشتراكية. قاد هذا الطموح والتطلع نظريات الأنظمة العالمية لتكديس جهد معقول لفهم دورة الرأسمالية داخل وبين الدول؛ لأنها تخلف موجات مستمرة من الأزمات التي ترى بأنها قادرة في النهاية على تعبئة الإشتراكية على الصعيد العالمي.

وهكذا، يعيش الحلم المثالي للماركسية على بعد، وفي شكل آخر وراء جهود الماركسيين التحليليين، مثل: لنك أولن رايت (link OlinWright) بوصفهم منظرين لأنظمة العالم لإيجاد قضية مثيرة للديناميات المتحولة لتحليل ماركس للانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية. وعلى الرغم من أن هناك القليل من الأدلة نسبيا التي تشير إلى أن أزمات الأسواق على الصعيد العالمي ستؤدي إلى حشد من أعضاء المجتمعات المتنوعة في السعي لتحقيق الاشتراكية. (٢٤)

---

(٢٤)للحصول على نظرة أحدث على ديناميات النظام العالمي بناءً على الرشتاين، انظر: كريستوفر تشيس دان و بيتر غرايمز "تحليل النظم العالمية" الاستعراض السنوي لعلم الاجتماع ٢١ (١٩٩٥م): صفحات٣٨٧-٤١٧، ألبيرت جي.بيرجيسن، الطبعة، دراسات نظام العالم الحديث (نيويورك: المبطعة الأكاديمية، ١٩٨٠م)؛كريستوفر شاس دان و ت.د.هول (بولدر ، كولورادو: وستفيو ، ١٩٩١م)، بالإضافة إلى مؤهلاتهم المشتركة، الصعود والغياب: مقارنة الأنظمة العالمية (بولدر، كولارادو: وستفيو برس ، ١٩٩٧م): أندير جوندر فرانك و ب.ك. جيلس، طبعة، النظام العالمي: خمسمائة سنة أم خمسة آلاف؟ (لندن : روتليدج، ١٩٩٣م)؛ كريستوفر تشيس – دان ،التكوين العالمي (كامبريدج، المملكة المتحدة: بلاكويل ١٩٨٩م؛ فولكر بورنشيه وكريستوفر تشيس – دان، الشركات الانتقالية والتخلف (نيو يورك: بريغر، ١٩٨٥م).

خاتمة
Conclusion

وكما هو واضح في هذا الفصل فقد ذهب التنظير للصراع في عدة اتجاهات من الأعمال التأسيسية لكل من سبنسر، فيبر، سيميل وماركس (Spencer, Weber, Simmel, and Marx). ويوجد اليوم عدد قليل نسبيًّا ينادي بـ "نظرية الصراع"؛ لأن تحليل الصراع يشكل جزءًا عمليًّا لا يتجزأ من كل الاتجاهات للتحليل الاجتماعي. ولم تعد حملة عنيفة ضد الوظيفية التي اختفت منذ فترة طويلة لتعود للظهور متخفية في صورة غير الوظيفية، وينطبق الشيء نفسه على نظرية الصراع التي تعني التوسع التمثيلي للتنظيم من خلال عمليات الصراع. وما زال هناك أساس لتحليل الصراع الذي يمكن تلخيصه بصفته سلسلة من الاقتراحات الأساسية عما هو في التحليل الاجتماعي فيما يلي:

١- كل الأنظمة الاجتماعية من مجموعات المنظمات، والمجتمعات المحلية، والمجتمعات، والتكوينات الموجودة في المجتمع الحضاري تشهد عدم مساواة في توزيع الموارد.

٢- تولِّد تلك المساواة صراعات مصالح بين الممثلين: (أ) الذين يمتلكون الموارد والقدرة على استغلالها مع الممثلين الآخرين، أو (ب) الممثلين الذين يمتلكون ثروات أقل، وهم غالبًا ضحايا العلاقات والاستغلالية من قِبل الممثلين الذين يمتلكون قوة الاستغلال.

٣-يولد تفضيل بعض الطبقات في توزيع الموارد صراعًا أكثر من المصالح، فالظروف تقود التابعين في النظام تشجيع الصراع مع القادة على النظام، مع احتمالية حدوث زيادة التشجيع عندما يصبح التابعون أكثر وعيًا بصراع المصالح الخاص بهم مع القادة، والذي يزيد عندما: (١) يتم عرقلة أنشطة التابعين الروتينية، أو (٢) عند زيادة الشعور بالحرمان بين التابعين، أو (٣) عند التواصل بين التابعين في المظالم المشتركة، أو (٤) لظهور قادة لوضع أطر للقضايا وتطوير المعتقدات عن الطبيعة الاستغلالية، والحاجة للقيام بشيء ما حول هذا الموضوع، أو (٥) تراجع الشرعية بين حقوق القادة لاستخلاص الموارد والسيطرة على استنساخ ثقافة الحفاظ على العلاقات الاجتماعية الاستغلالية، أو (٦) الإثارة العاطفية بين الأفراد.

أ) يصبح الصراع أكثر احتمالًا، ويجعل المرؤوسين على استعداد لتحمل مواجهته وفقًا للشروط المذكورة أعلاه؛ عندما يستطيع التابعون تأمين الموارد التي تشتمل على التالي:

١- وجود الموارد الديموغرافية، أو الأعضاء في جماعات الصراع، والمنظمات داخل وبين المجتمعات.

٢- إيجاد الموارد المالية لدعم إدارة أعمال الصراع.

٣- إيجاد الموارد التنظيمية البنائية لتعبئة الأعضاء للصراع، مع التركيز على إجراءات إستراتيجية مع الجماعات، والمنظمات الداخلة في الصراع.

٤- توفر الموارد الفكرية التي يمكن أن تضفي الشرعية على عمل مجموعات الصراع ومنظماته، في حين يتم تحييد الشرعية عن القادة في نظام عدم المساواة والتقسيم الطبقي.

٥- توفر الموارد العاطفية التي تثير الاستياء، والتي يمكن أن تولد التزامات الأفراد للانخراط في الإجراءات

الإستراتيجية ضد القادة.

٦- الإثارة العاطفية للأفراد والتي تزداد في ظل الظروف الخمسه المدرجة أعلاه لسحب الشرعية ، والتي تجعل المرؤوسين مستعدين لتحمل تكاليف التعبئة أو الحشد من أجل الصراع .

أ) تصبح التعبئة من أجل الصراع أكثر احتمالًا عندما تكون الظروف تحت فقرات ٣ أعلاه ، وعندما يستطيع المرؤوسين تأمين الموارد، ويتضمن:

١- الموارد الديموغرافية أو أعضاء جماعة الصراع ، أو المنظمات ضمن المجتمعات.

٢- الموارد المالية لدعم إدارة إجراءات الصراع.

٣- الموارد التنظيمية لحشد أعضاء الصراعات بالتركيز على إجراءات إستراتيجية لجماعات ومنظمات الصراع.

٤- الموارد الفكرية التي يمكن أن تشرع عمل جماعات الصراع والمنظمات ،مع إلغاء شرعية المرؤوسين في نظام عدم المساواة.

٥- الموارد العاطفية التي تثير الاستياء التي تولد التزامات من الأفراد للانخراط في إجراءات إسترتيجية ضد المرؤوسين.

١- يتأثر مستوى العنف وشدة الصراع بين المرؤوسين وآخرين من خلال :

أ) إلى أي مدى يمكن للمرؤوسين تأمين الموارد، لزيادة العنف في الصراع في مراحله الأولى تحت (أ-٣ و ب-٣) أعلاه . وتقليل الموارد مع مستويات الصراع العالية. المذكورة أعلاه تحت فقرة (ب-٣).

ب) مدى شمولية ثقافة النظام الأكثر تأثيرًا لتحقيق أهداف الصراع بين المرؤوسين والقادة، مع:

١- احتمالية زيادة الصراع العنيف عندما يكون لدى المرؤوسين بعض الاستقلالية عن القادة مع :

أ) عدم اعتماد المرؤوسين كليًّا على القادة.

ب) المرؤوسين لا يعتمدون على الغالبية العظمى.

ج) عندما لا يخسر المرؤوسين الا القليل عند بدء الصراع.

د) قدرات المرؤوسين للضبط الاجتماعي ضعيف.

٢- أن احتمالية ظهور صراع إستراتيجي ومنظم قد يزيد مع:

أ) المستويات العالية من الاعتماد البنائي بين كل الممثلين في النظام بما فيهم المرؤوسين والقادة.

ب) المعدلات العالية من الحراك الاجتماعي من قبل المرؤوسين.

ج) نشوء ساحة سياسية يمكن من خلالها حل صراعات المصالح ومناقشتها سياسيًّا.

د) نظام قانوني على استيعاب الصراعات عن طريق تغيير السياسات وصياغة الحلول الوسطية.

هـ) قدرة النظام القانوني على استيعاب صراعات تضارب المصالح، وذلك عن طريق سن قوانين جديدة.

و) عندما تكون المعدلات العالية من الصراع منخفضة الشدة.

٥ - يمكن حدوث الصراع على عدة مستويات مختلفة من التنظيم الاجتماعي في المقابلات المصغرة من خلال الجماعات والمنظمات والطبقات لأنظمة اجتماعية على النحو الآتي:

أ) على المستوى الوحدات الصغرى، عندما يفوق الصراع على الخوف بين المشاركين المحتملين، يقل الخوف عندما تكون طقوس التفاعل مخصصة لشحن العواطف الإيجابية ورموز الجماعة من أجل إقناع وتشجيع الأشخاص لمتابعة الصراع ضد العدو.

ب) عندما يكون الصراع بين المنظمات والشرائح (الطبقات الاجتماعية) الأكثر احتمالًا، ويتبع الديناميات المدرجة بالأعلى. ومن الأفضل اتباع أسلوب الفقرات من (١-٤) كما هو أعلى.

ج) من المحتمل حدوث الصراع بين المجتمعات عندما يكون :

١- أن يكون أحد المجتمعات لديه ميزة الكثافة السكانية والإنتاجية أعلى من اي مجتمع آخر.

٢- أن يكون لدى مجتمع ما ميزة المنطقة الحدودية على جيرانه.

٣- ٣- عندما تصبح المجتمعات منظمة من الداخل مع إنتاجية عالية، ولديها القوة، والرغبة في تغيير السلطة الأعلى، وعندئذ يبدأ الصراع التنافسي بين الناس سويًا وربما المجتمع. وعندما تعجز بعض المجتمعات الأقوى على استغلال المجتمعات الخارجية وشبه الخارجية عن بواسطة:

أ) استخلاص مواردها بأسعار معقولة لتسويقها في أسواق ذات مستوًى عالمي.

ب) استخدام القوة القسرية لتعزيز ممارسة الاستغلال.

الفصل الرابع

التنظير البيئي
ECOLOGICAL THEORIZING

التفكير البيئي المبكر في علم الاجتماع
Early Ecoogica1 Thinking in Sociology

في وقت مبكر في السنوات الأولى (١٨٥٠م)[١] قدَّم هربرت سبنسر (Herbert Spencer) بعض نماذج للتطور الاجتماعي؛ حيث إن مبدأ " البقاء للأصلح" هو واحد من المبادئ التي تحكم التطور الاجتماعي، ففي هذا السياق، قدّم سبنسر بعض ما نَشَر داروين قبل تِسْع سنوات حول أصل الأنواع[٢]؛ ليقترب من مفهوم الاصطفاء الطبيعي. ويرى سبنسر أن الدافع وراء التطور المجتمعي مجتمعات أكبر وأكثر إنتاجية وتنظيمًا، والتي تفوز بالحروب ضد المجتمعات الأصغر والأقل إنتاجية وتنظيمًا.[٣] فالمجتمع الأكثر مرونة هو الذي سوف يفوز في الحرب، وهو غالبًا ما يمتص الأقل مرونة، وبالتالي فإن العالم الاجتماعي يمكن تصوره بهذا الشكل بوصفه نظامًا بيئيًّا؛ حيث تكون فيه المجتمعات البشرية أكثر تنظيمًا، على سبيل المثال: المجتمعات التي يمكن النظر إليها على أنها في حالة منافسة على الموارد في المجتمع الأكثر تنظيمًا والسائد فيه هذه المنافسة.

---

(١) هربرت سبنسر، الثبات الاجتماعي، أو الشروط الأساسية للسعادة البشرية المحددة، وأولها تطورًا (نيويورك أبليتون-سينشري-كروفتس، ١٩٨٨م، منشورة أصلًا في ١٨٥٠-١٨٥١م).

(٢)تشارلز داروين، على أصول الأنواع (لندن: موراي، ١٩٨٠م، منشورة في الأصل في عام ١٨٥٩م).

(٣) هربرتسبنسر، مبادئ علم الاجتماع، ٣ مجلدات (نيويورك: أبليتون-سنشري كروفيس١٨٩٥م، نُشرت أصلًا في شكل تسلسلي ابتداءً من ١٨٧٤م).

وبعد عشرين عامًا أُخَر طوّر إيميل دوركايم (Emile Durkheim) وجهة النظر البيئية في التطور الاجتماعي، ولكن في هذه الحالة، فقد استعار بعض التفسيرات من داروين (Darwin).(٤) وناقش داروين بأن أنواعًا جديدة هي نتيجة للاصطفاء الطبيعي لأنماط الحياة المختلفة، والتي تطوّرت مع التكيف؛ ولهذا فإن الأنواع الجديدة مثل: أنواع جديدة من أصل لاتيني من الأفراد والممثلين في مجتمع ما، يتم قيادتهم عن طريق عمليات الاصطفاء؛ فكلما أصبحت المجتمعات أكثر مادية وأكثر انتشارًا في العالم كان هناك منافسة بين الأفراد والوحدات الاجتماعية، وأكثر ملاءمة بين الأفراد والوحدات المؤسسية وتظل على قيد الحياة، والأقل تناسبا يجد مكانًا جديدًا للموارد، عند القيام بذلك، وعندما تتخصص في طريقة جديدة.

وهكذا، أدرك سبنسر ودوركايم (Spencer and Durkheim) أن التمايز الاجتماعي هو -إلى حد كبير- عملية بيئية للوحدات الاجتماعية الباحثة عن موارد في مختلف المنافذ، فكلما ازدادت كثافة السكان فسوف يزداد معدل المنافسة بين هذه الوحدات، ونتيجة لهذه المنافسة تأتي الزيادات في درجة الأنواع الاجتماعية الجديدة، أو التباينات بين الوحدات، وأن النموذج العام الكامن في البيئة الموجهة المبكر اجتماعيًّا كما هو في (الشكل ١ , ٤)(٥).

وكما أكد داروين فإن معدل كثافة المادة للكائنات الحية التي تبحث عن الموارد في بيئة المصدر سوف يزيد لديها مستوى المنافسة، ولكن مستوى كثافة المادة يقل من خلال الأعداد الإجمالية للمصادر، ومقدار المكان، أو المساحة التي يتم فيها توزيع هذه الموارد، وهكذا فإن مستوى الموارد ومقدار المساحة سوف يقلل كثافة المادة، ولكن إذا كان عدد السكان كبيرًا واستمر في النمو، فإن كثافة المادة في النهاية سوف تزداد، وتبدأ المنافسة من أجل الموارد. فمع المنافسة يأتي الاختيار بين الوحدات الاجتماعية، مع تلك التي هي أكثر مرونة وقدرة على توفير مصادر البقاء في البيئة، وتلك التي لا يمكنها الفناء، أو أنها تنتقل بالتبادل إلى أماكن مصادر أقل كثافة وهذا يؤدي إلى التباين المتزايد، والتخصص، وأنواع اجتماعية جديدة بين الوحدات للسكان، والتي -بدورها- تزيد التعقيد للنظام الاجتماعي الأكبر الذي ينظم السكان.

---

(٤) إميل دوركايم، تقسيم العمل في المجتمع (نيويورك: فري برس، ١٩٤٧م، نُشرت أصلًا باللغة الفرنسية في عام ١٩٩٣م)، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٥) مقتبس من جوناثان هـ وألكسندرا مارياسكي، على أصول المجتمعات عن طريق الانتقاء الطبيعي (بولدر،كلورادو: الصحافة النموذجية، ٢٠٠٨م).

لقد عرض كل من سبنسر ودور كايم (Spencer and Durkheim) لعملية التطور الاجتماعي على أنها التباين أو الأنواع الاجتماعية الجديدة بين المجتمعات، وبالإضافة إلى ذلك فإن كلًّا منهما كان لديه جدل قائم على الاصطفاء؛ حيث تدفع المنافسة على الموارد إلى الاختلاف، ولقد مال سبنسر للتأكيد على المنافسة بين المجتمعات، وحيث أكدها أيضًا دوركايم بين المجتمعات، وإضافة إلى ذلك لقد أدرك دوركايم أن المجتمعات والأفراد أحيانًا يموتون في أثناء هذه المنافسة. ورغم أن دوركايم كان لديه وجهة نظر جيدة بأن الأفراد ووحدات الشركات يبحثون عن الموارد في أماكنها الجديدة إذا لم يستطيعوا المنافسة في مكان محدد مأهول بأفراد أكثر منهم مرونة.

وكما أن مجال البيئة تطور داخل البيولوجيا فإنه ازدهر أيضًا في علم الاجتماع في القرن العشرين. ولذا فإن أفكار كل من سبنسر ودوركايم (Spencer and Durkheim) -وعلى وجه الخصوص دوركايم (Durkheim)- كانت أفكاره ممتزجة بالأفكار من علم البيئة الموجهة للبيولوجيا بوصفه مجالًا للبحث من أجل إنتاج أنواع عديدة من التحليلات البيئية داخل مجال علم الاجتماع، كما أن هذه النظريات البيئية لم تهيمن قطّ على علم الاجتماع، ولكنها كانت باستمرار موجودة في منعطف القرن العشرين حتى الآن، ومع إحياء للنظريات الموجهة لعلم الأحياء في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأكثر بشكل عامّ. (انظر: فصل ١٢)، وقد وجد -حاليًا- التحليل البيئي الجديد.

التنظير البيئي المعاصر في علم الاجتماع
Contemporary Ecological Theorizing in Sociology

التحليل البيئي الحضري Urban Ecological Analysis

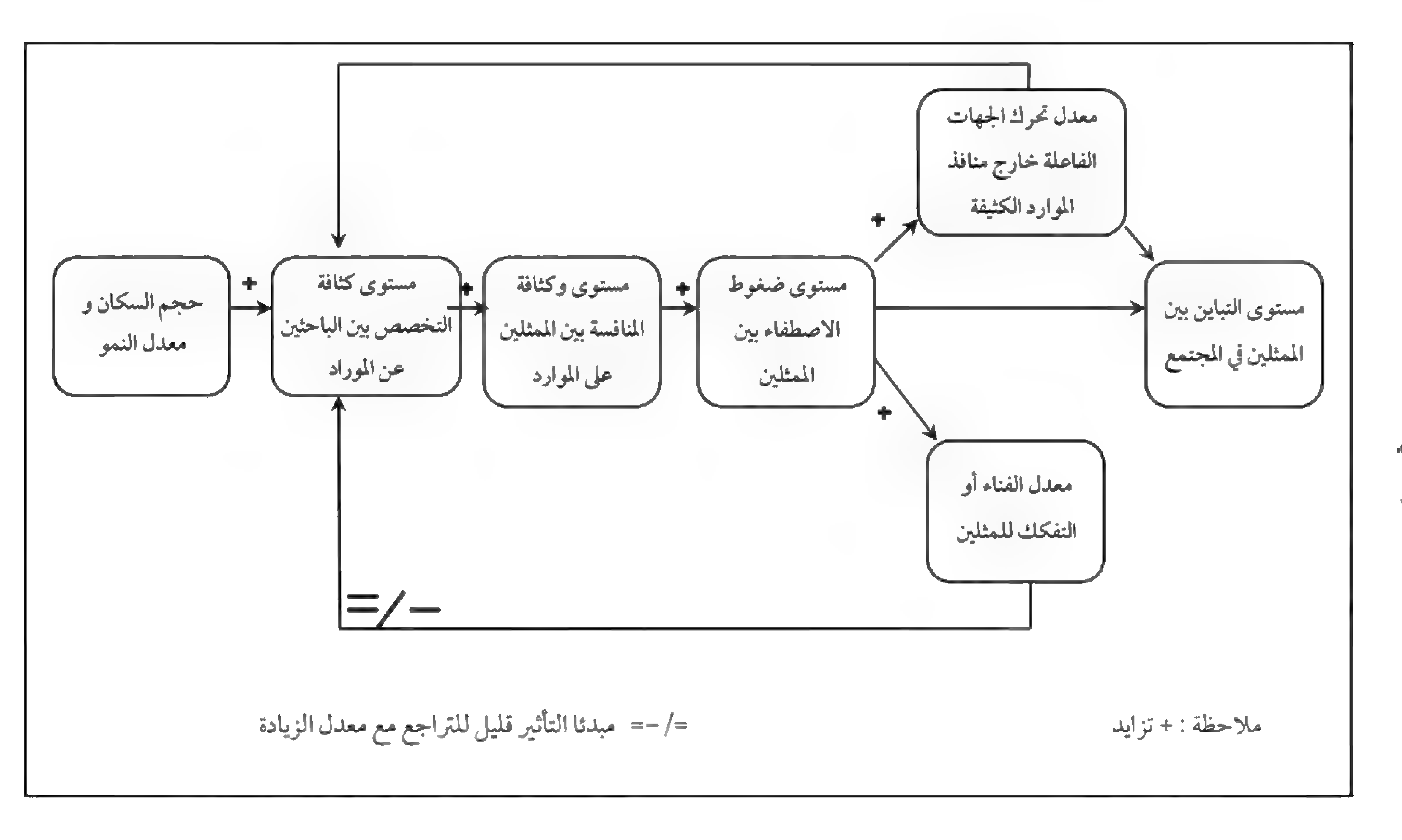
في جامعة شيكاغو، بدأ علماء الاجتماع استخدام مدينة شيكاغو مجالا للدراسة على العمليات الحضرية، ولعل التحليل البيئي قد وجد اتجاهًا جديدًا في التنظير البيئي المعاصر لعلم الاجتماع ، وأحد الديناميات التي اهتم بها هؤلاء العلماء هو استخدام العناصر المختلفة(٦)؛ ولذا فقد تم

(٦)للحصول على أمثلة من علماء البيئة من مدرسة شيكاغو في وقت مبكر، انظر: آرنست دبليو "نمو المدينة" في مقدمة لعلم الاجتماع، أد. ر. إ. بارك و اي .دبليو .بيرجس (شيكاغو، اليون: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٢١م؛ شاوسي د. هاريس و إدوارد اي. التهان، "طبيعة المدن"حوليات الأكاديمية الأمريكية للعلوم السياسية

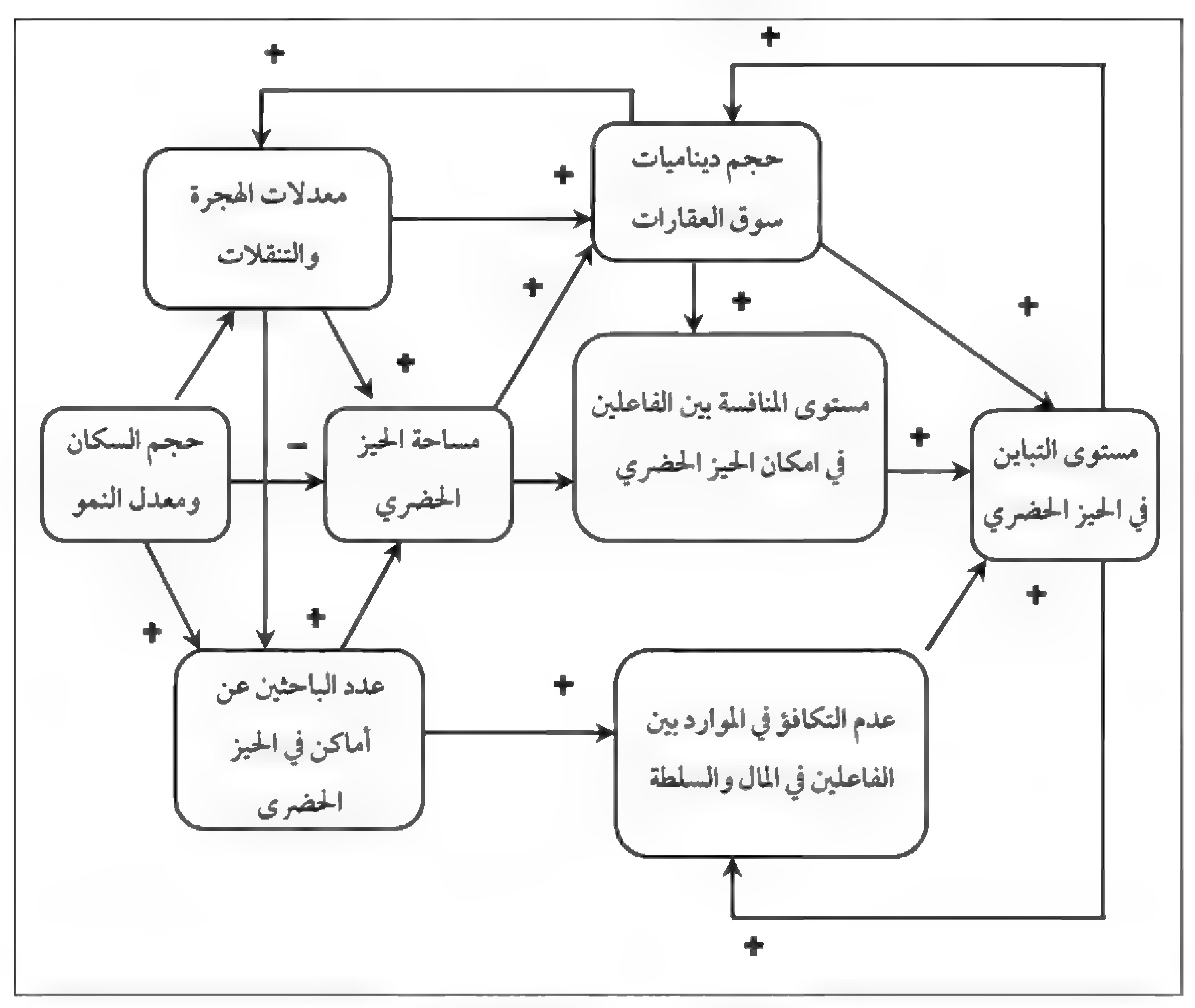
تطوير عدد من النماذج المحددة للنمو الحضري والتقدم التي كان يعوقها الاعتماد على مدينة واحدة ، ولكن الجدل النظري الكامن كان عميقًا. لقد كان تأكيدهم على تفسير كيفية الكشف عن المدن المأهولة بأنواع مختلفة من السكان، وعلى سبيل المثال: الأسر، والحكومة، والدين، والمدارس وغيرهم من الأنماط المختلفة ... إلخ. وقد كان تفسيرهم -نظريًا، وبشكل عام- عبر الخطوط الموضحة في (الشكل ٢ , ٤)[٧] فالأفراد الذين لديهم مقادير مختلفة من الأموال والموارد الأخرى، مثل: السلطة، والنفوذ، والتصرف، قد يبحثون عن مصدر رئيس على سبيل المثال؛ المكان الجغرافي في المدينة ليستخدموا هذه الموارد ويستفيدوا منها، كما أن وجود سوق العقارات يعمق المنافسة حسب السعر، وبالتالي فإن أولئك الذين يملكون معظم الموارد النقدية سيكونون أكثر ملاءمة من أولئك الذين ليسوا كذلك ، وبالتالي يمكن أن يستقروا في الأماكن التي يفضلونها أكثر، وأيضًا إن السلطة والنفوذ هما مثل المال ؛ بمعنى أنه يمكن استخدامها للبذل من أجل التأثير على المكان الذي يقيمون فيه، وعلى سبيل المثال: يمكن للحكومة أن تستخدم سلطتها للحصول على أماكن ومناطق معينة والتأقلم فيها، والتي لا يمكن للذين يملكون المال أن يشغلوها أو يحصلوا عليها ، والنتيجة لهذه المنافسة وجود الحيز الحضري الذي يؤدي إلى التباين في المدن حسب المناطق والأحياء والأماكن المجاورة، والمهيمن عليها عن طريق جهات فاعله من السكان وأنشطتها، وهذا التباين في المساحة او المكان هو نتيجة الكثافة السكانية، والمنافسة للحصول على الموارد نتيجة للاصطفاء الأكثر مناسبة وملاءمة. والتباين في الحيز الحضري عن طريق السكان بدرجات متباينة من الموارد، أو المناسبة للسيطرة على أماكن خاصة من المدن.

والاجتماعية (١٩٤٥م): الصفحات ٧٩٦ – ٧٨٩ ؛ هومر هويت، هيكل قاحل نمو الأحياء السكنية في المدن الأمريكية (واشنطن العاصمة: هيئة الإسكان الفيدرالية، ١٩٣٩م).

(٧)مقتبس من جوناثان ه. "تجميع السكان البشريين: نحو توليفة النظريات البيئية والجيوسياسية"، التطور في علم البيئة البشرية ٣، (١٩٩٤م): ص ٦٥ – ٩١؛ الديناميكا الكلية: نحو النظرية حول منظمة الشعوب البشرية (نيوبرونزيك: مطبعة جامعة روتجرز ، ١٩٩٥م).



الشكل (١ , ٤). نموذج دوركايم وسنبر المبكر للعمليات البيئية.

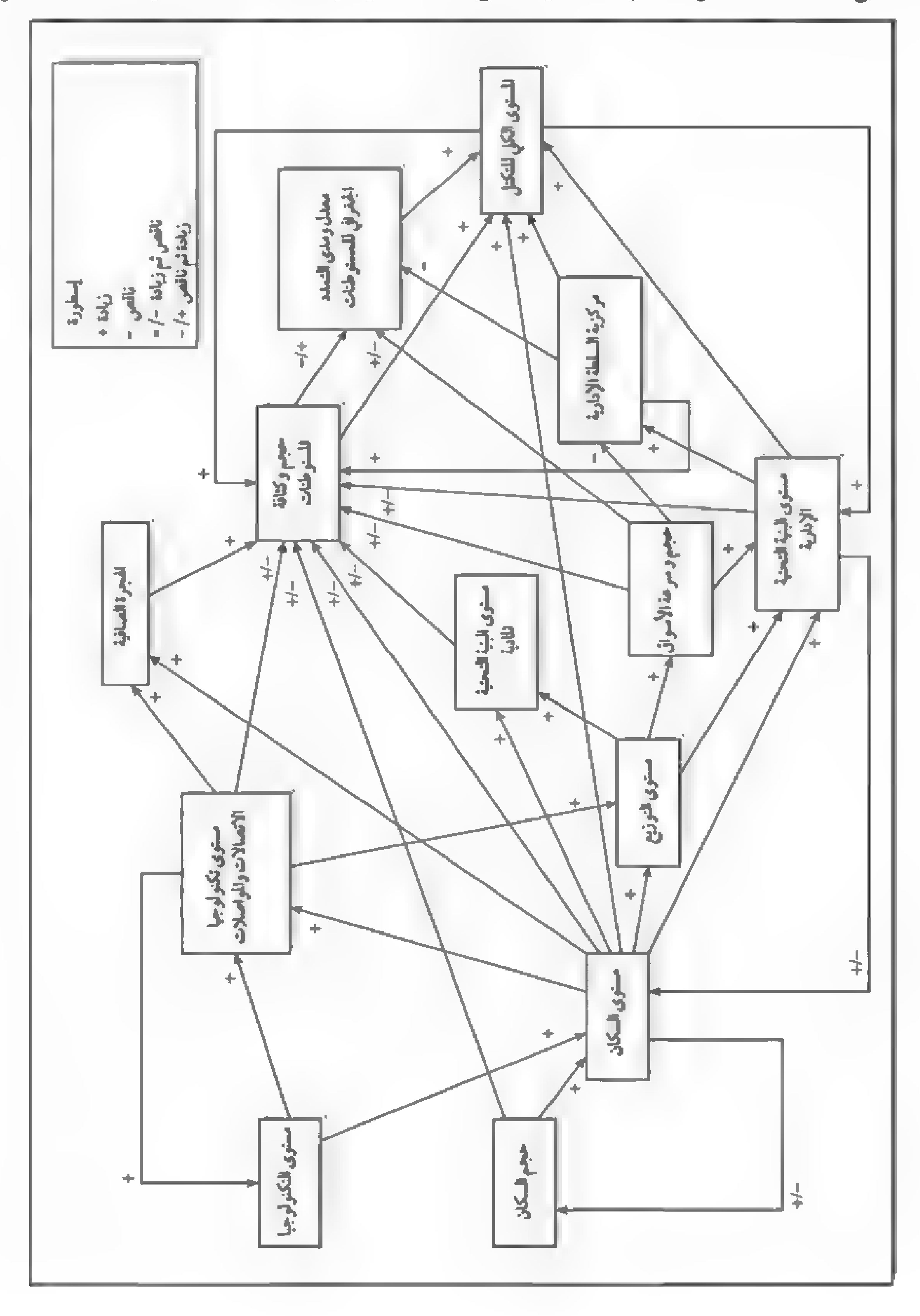


الشكل (٢, ٤). النموذج المبكر للبيئة.

وبالمثل إن أغلب النظريات البيئية الحضرية الحديثة تسعى إلى تفسير العمليات الحضرية، مع التحليل خلف التباين الداخلي لنواة المدن مثل مدينة شيكاغو. كما أنهم أيضًا يسعون لفهم الاتجاهات الحضرية الأوسع خاصة التباين بين أنواع المدن والاتجاهات في عملية التحضر، كما هو مشار إليه في (الشكل ٣, ٤). [٨] ولقد وسعوا أماكن البيئة الحضرية لكي تتضمن عمليات النمو

(٨)على وجه الخصوص، يلخص النموذج أفكار باركر دبليو فريسبي، "النظرية والبحوث في البيئة الحضرية" في النظرية السوسيولوجية والبحوث: نهج نقدي ،إد .. هـ م. بلالوك (نيويورك: فري برس ، ١٩٨٠م) ؛باركر دبليو. فريسبي وجون الأول). كاساردا، "العمليات المكانية في كتيب علم الاجتماع، طبعه. نيو جرسي سميلسر (نيوبوري بارك، كاليفورنيا/ سيج ، ١٩٨٨م) ؛مارك جوتدينر، الإنتاج الاجتماعي للفضاء الحضري (اوستن : مطبعة جامعة تكساس ، ١٩٨٥م)؛ اموس هـ هاولي المجتمع الحضري: نهج بيئي (نيويورك: رونالد ، ١٩٨١م)؛ جون د. كاساردا، ="تاريخ التوسع الإيكولوجي: اختبار تجريبي القوي الاجتماعية:) (١٩٧٢م) ٥١ (الصفحات .١٦٥-١٧٥؛سي.

والتباين بين الموضوعات المشار إليها في هذا الشكل. وكما هو مؤكد في علم البيئة الحضرية على ان القوى التي تزيد المساحة والكثافة للمدينة تمثل الشعار الذي يشير إلى الدرجة التي تتنوع فيها المدن الحضرية؛ لتشكل منطقة حضرية كبيرة مكونة من مدينة مركزية محاطة بمستوطنات حضرية أكبر.





الشكل (٣,٤). نموذج البيئة الحضرية المجردة.

كلارك "الكثافة السكانية الحضرية" مجلة الجمعية الإحصائية الملكية، السلسلة أ، ١١٤ (١٩٥١) الصفحات: ٤٩٠- ٤٩٦؛ بي.ج.ل بيري وجون د. كاساردا، البيئة الحضرية المعاصرة (نيويورك: ماكميلان، ١٩٧٧م).

وكما هو مع معظم النظريات البيئية فإن حجم السكان، ومعدل النمو السكاني هما القوتان الرئيستان، وكذلك المستوى الاقتصادي، ومستوى تكنولوجيا النقل ، وتكنولوجيا الاتصالات في المناطق الحضرية. والتي تدفع الأفراد إلى الأمكنة الحضرية بحثًا عن الوظائف، بينما تقوم تكنولوجيا الاتصال والمواصلات في تسهيل الحركة. أو على الأقل بالاتصال مع مراكز المناطق النائية. كما يصبح مستوى التوزيع أيضًا قوة مهمة؛ لأنه يشجع تطوير تكنولوجيا وسائل المواصلات؛ لأنه يعمل كحافز لزيادة الإنتاج، وبالتالي فإن هذه القوى معًا تزيد من حجم الموارد مثل: (الطرق، والموانئ، والمطارات، والقطارات وغيره)، والبنية التحتية الإدارية (البيوقراطية) في المجتمع. وكلما ازداد هذا الحجم في الدوائر الحكومية كلما زاد جذب أفراد أكثر إلى المناطق الحضرية كعمال للعمل في الأعمال والمصانع، وكشاغلين في الوظائف الإدارية للحكومة، وكعمال في المدارس، والمنظمات الدينية، وأنواع أخرى من المنظمات؛ على سبيل المثال: الرياضية، والطبية، والفنية، والترفيهية إلخ. وفي مختلف المجالات المؤسساتية التي تخدم الأفراد، وخاصة الاعداد الكبيرة من الأفراد في المناطق الحضرية. فعندما تنمو المدن الحضرية فإنها تكون مناطق جذب للهجرة من المناطق الريفية، والمراكز الحضرية الأخرى، ومجتمعات أخرى. وينعكس ذلك على ديناميكيات المناطق الحضرية الغير مقيدة لتستمر في النمو خلال تقسيم مناطق الضواحي حول المدينة الرئيسة.

إن تطور تكنولوجيا الاتصالات يسمح للمناطق الحضرية بالاتصال بالمناطق النائية وتندمج؛ لأن الأفراد يمكنهم العمل عن بُعد الأمر؛ الذي يمكن ان يقلل من الهجرة، كما أن وجود البنية التحتية المادية والإدارية في المدن الأكبر سوف يستمر لجذب الأفراد للهجرة إليها. وعندما يتم تطوير البنية التحتية في الأماكن الأكثر بعدًا عن المدن الحضرية الموجودة، فإن الناس سينجذبون إلى المراكز الحضرية الجديدة، وهكذا يقللون من معدل التزاحم عن مدن المنشأ؛ والنتيجة هي أن المدن الجديدة البعيدة عن المدن المنشأة يمكنها أن تندمج في المجتمعات بتكنولوجيات أعلى في الاتصالات والمواصلات، وهكذا يتم إنشاء نظام متعدد المراكز من المدن. إن المبدأ القديم الذي يقول بأن المجتمعات الحضرية يقل تمددها بعيدا عن قلب المدن الحضرية ربما لا ينطبق لو أخذنا في الحسبان نمو العديد من المدن بعيدًا عن مركز المدن الرئيسة؛ نتيجة لتوفر الموارد للسكان، وقد يكون هذا المبدأ الأساس صحيحًا عندما لا تتوافر في مدن الاستيطان الموارد المناسبة للنمو الحضري، وهذا

المبدأ قائم على أهمية وجود الموارد في المدن الذي يؤثر على تكاملها، وهذا التكامل في المدن يدفع المهاجرين للاستيطان فيها، ويزداد هذا النمو السكاني ويتطور مع تطور البنية التحتية من وجود المواصلات، وهو أمر مهم بشكل خاص. وخدمات علمية ديناميكية للأسواق ، ودرجة متزايدة باستمرار من الأماكن المتصلة بالأسواق التي تزيد من سرعة تدفق المعلومات، والبضائع، والخدمات وأي مورد أو منتج بشكل مرضي عبر المناطق الحضرية، وبالتالي يؤدي إلى تكاملهم بدرجة متزايدة.

التحليل البيئي التنظيمي Organizational Ecological Analysis

على مدى الأربعين سنة الماضية، فإن البيئة التنظيمية حلت محل البيئة الحضرية بوصفها نمطًا أكثر انتشارًا للتنظير البيئي في علم الاجتماع، [٩] وإن الطلاب [١٠] لدى آموس هاولي[١١] (Amos Hawley) هم الذين لعبوا دورا مؤثرا في مدرسة علوم البيئة الحضرية في شيكاغو. وكان التحليل البيئي لسكان التنظيمات امتدادًا لها؛ حيث اعتمد التحليل البيئي للتنظيمات على البحث عن الموارد في البيئة؛ نظرًا لأن سكان التنظيمات هي مجموعة من التنظيمات التي تبحث عن نفس مجموعة الموارد في مصدر خاص مناسب لها. وعلى سبيل المثال: إن شركات السيارات تعمل في نفس الموارد بموضعها المناسب والمكون من هؤلاء الذين يشترون السيارات والشاحنات، وأيضًا الصحف تعمل في

(٩) بالنسبة لبعض النظرات العامة للبحث والنظرية حول علم البيئة التنظيمية، انظر: غلين كارول، طبعه: نماذج إيكولوجية للمنظمات (كامبريدج ، ماساشوستس: بالينجر ، ١٩٨٨م)، والإيكولوجيا التنظيمية الاستعراض السنوي لعلم الاجتماع ١٠(١٩٨٤): الصفحات .٧١-٩٣؛ جيتندرا في سينغ وتشارلز جي "النظرية والأبحاث في علم البيئة التنظيمية" الاستعراض السنوي لعلم الاجتماع ١٦ (١٩٩٠م): الصفحات ١٦١-١٩٥.

(١٠)مايكل ت. هانان وجون فريمان، "الإيكولوجيا السكانية للمنظمات المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٨٢ (١٩٧٧م): الصفحات ٩٢٩-٩٦٤.

(١١)كان آموس هاولي آخر جيل من علماء البيئة الحضريين في شيكاغو ، وعندما انتقل إلى جامعة نورث كارولينا في تشابل هيل ، تراجعت البيئة الحضرية لمدرسة شيكاغو ، بينما كانت تنمو في نورث كارولينا ، حيث قام هولي بتدريس جون هـ. فريمان ومايكل تي. هانان ، الذين بدأوا -كطلاب الدراسات العليا- بوضع علم البيئة التنظيمية.

موضعها اللائق المكون من المؤيدين، وكذلك الجامعات والكليات تعمل في مواضعها المناسبة متضمنةً تجمعات الطلاب الباحثين عن التعليم وموارد البحث المتاحة من الحكومة، والأصول والفاعليات الاقتصادية، وبالتالي فإن الهدف من التحليل البيئي لسكان التنظيمات هو فهم سبب زيادة عدد التنظيمات في مكانها، وسبب بداية بعض التنظيمات في الفشل في مكان آخر.

إن نموذج علم البيئة التنظيمي يبدأ من مجموعة من التنظيمات في مكان ذوي صلة بالموارد المتاحة في مكان معين، وكلما تزايد عدد المتنظمات في مكانها المناسب أصبحت الأماكن أكثر كثافةً بالسكان، وكلما ازدادت الكثافة تزداد المنافسة بين التنظيمات في المكان نفسه، كما أن المنافسة تزيد مستوى ومعدل الاصطفاء بين السكان، فكلما ازدادت المنافسة والاصطفاء ازداد معدل الفشل التنظيمي، لدرجة أنه كلما انخفضت الكثافة في المكان سمحت للتنظيمات الموجودة في المكان بالبقاء؛ لأن المنافسة تقل، وتصبح هذه التنظيميات مناطق جذب للمستفيدين من هذه التنظيمات، أو على الأقل لوقت معين لأهميتها في الاستمرار أو الانسحاب.[١٢].

كما أن مجموعة واحدة من القوى المؤثرة على الديناميات التنظيمية تكون مصدرا للموارد في الأسواق المتخصصة والعامة على نطاق واسع مما يخلق العديد من منافذ الموارد ، ولذا فإن الأسواق بوصفها تنظيمات على نطاق واسع توجد العديد من الأماكن التي فيها مصادر جذب المستهلكين إلى

(١٢)هذا الرقم هو الأقرب إلى نموذج هانان وفريمان لأعمال التمثيل من قبل هانان وفريمان ، انظر: "القصور الذاتي الهيكلي والتغيير التنظيمي" استعراض علم الاجتماع الأمريكي ٤٩ (١٩٨٤م): الصفحات ١٤٩-١٦٤؛ "بيئة التأسيس المؤسسي: الاتحادات العمالية الأمريكية ١٨٣٦ – ١٩٨٥م" المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٩٢ (١٩٨٧م): الصفحات ٩١٠-٩٤٣؛ "إيكولوجيا الوفيات التنظيمية: اتحاد العمال الأمريكي " المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٩٤ (١٩٨٨م): الصفحات٢٥-٥٢؛ علم البيئة التنظيمية (كامبريدج، ماساتشوستس: مطبعة جامعة هارفارد ،١٩٨٩م). انظر أيضًا: م.ت. هانان ، "إيكولوجيات المنظمات: التنوع والهوية" مجلة المنظورات الاقتصادية ١٩ (٢٠٠٥): الصحات .٥١-٧٠؛ م. ت. هانان ، إل. بولوس ،وجي. آر. كارول ،منطق نظرية المنظمة:

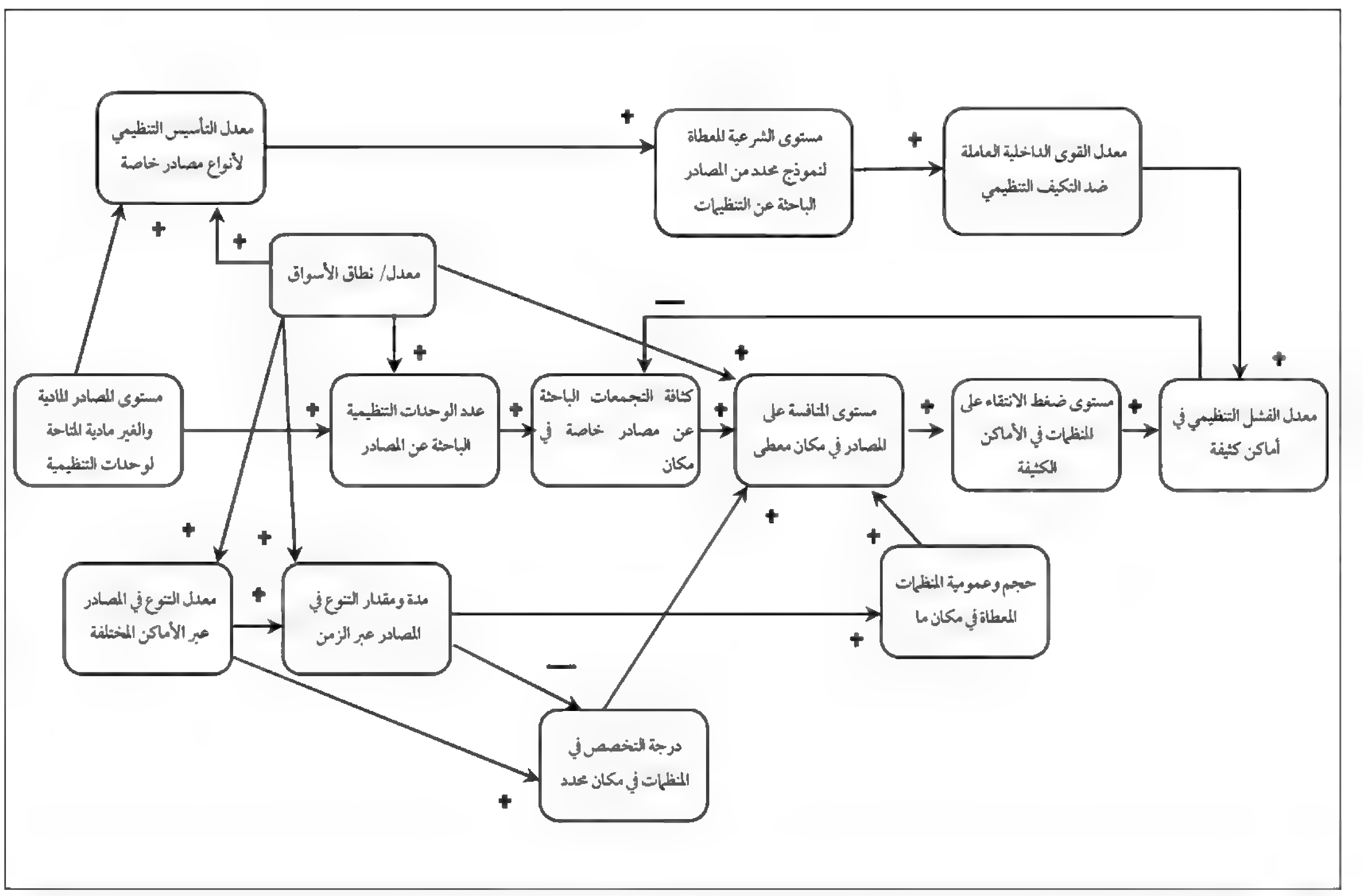
الجماهير ، الرموز ، والإيكولوجيات (مطبعة جامعة برينستون ، ٢٠٠٧م) ؛ ت. هانان و سي. كارول ديناميكيات السكان التنظيميين:

١) الكثافة الشرعية والمنافسة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٢م).

هذه الأماكن؛لأن هذه الأسواق تلبي الإشباع المتنوع لطلبات المستهلكين واحتياجاتهم. وهكذا فكلما ازداد مقدار الأسواق ونطاقها ازداد عدد أماكن الموارد المحتملة للتنظيمات، وسوف تصبح مكان جذب للمستفيدين منها بناء على ما تقدمه من مستوى يلبي حاجاتهم من هذه الموارد في أماكنها؛ لذا فإن المستويات العالية من الموارد في مكان ما، سوف تشجع النمو لعدد من المستفدين من الموارد في هذه الأماكن؛ وكلما ازداد عدد الأماكن فسوف يزداد تنوع النماذج للتنظيمات الباحثة عن الموارد في هذه الأماكن المتباينة، ونتيجة لذلك تزداد الكثافة السكانية، والمنافسة، والاصطفاء للتنظيمات. وبالتالي عند زيادة معدلات الفشل لتلك التنظيمات التي لاتستطيع البقاء أمام المنافسة يمكنها الانتقال كما اقترح دوركايم إلى أماكن أخرى مجاورة؛ حيث تكون الكثافة أقل بكثير، ، فعلى سبيل المثال عندما دخل كي مارت ووال مارت إلى مكان تجار التجزئة العام عارضين قدرًا كبيرًا من بضائعهم للمستهلكين، "المتجر التقليدي"، فقد تعرضو للمنافسة المكثفة عندما ظهر العديد من المتاجر مثل واردس وولورسزر، ثم خرجوا من سوق العمل، بينما بقيت الأخرى مثل سيرز التي ما تزال تنصاع أمام المنافسة، وكذلك فعل كي مارت، الذي بدأ بشكل متحدٍّ للانتقال إلى مناطق أخرى أقل كثافة سكانية. ليجد نفسه ما إذا كان من السهل المنافسة مع لاعبين جدد في التنظيمات في سوق المستهلك، مثل: وول مارت، تارجيت وتجار آخرين عموميين. ومتاجر أخرى مثل (بيني) التي بدت أكثر مثل (سيرز)، قد انتقلت إلى منطقة جديدة، أكثر رقيًّا إلى حد ما، وتعرض البضائع الناعمة كالملابس بشكل أساس، والأثاث بوصفها بضائع ثقيلة. إن المثال الأفضل لخروج التنظيمات من أماكن التنظيمات السكانية هو ماحدث لعدد الشركات المصنعة للسيارات على مدار السبعين عامًا الماضية، والتي كان لسياراتها إقبال مميز من المستهلكين بما تصنعه من موديلات تحقق رغباتهم، مثل سيارات (Plymouth ،Pontiac ،Saturn ،Studebakei; Mercury) Oldsmobile ،Nash ،as Packard) (باكارد، ناش، ستوديباكر، ميركيرى، أولد موبايل، ساتيرن، بونتياك، بلاى ماوثو) إلا أن هذه الشركات المصنعة لهذا النوع من السيارات فشلت أمام سوق المنافسة مع شركات أخرى، بينما لاتزال في سوق المستهلك، ومن بينهن الشركة المصنعة لسيارات ساب (Saab) التي لا تزال موجودة في سوق التنظيمات التجارية المصنعة لهذا النوع من السيارات.

وبغض النظر عن المستوى الكلي للموارد في مكان معين؛ فإن معدل التنوع في مستوى الموارد ومكانه وحجم وطول تنوع الموارد ودوراتها صعودًا وهبوطًا لتلك التنظيمات، يمكنه أن يؤثر على بقائها أو فشلها في الدخول بشكل مؤثر للتنافس مع تجار التجزئة العموميين وفي الحقيقة حتى وإن كان حجم التنوع للتنظيمات كبيرًا، ووقت الدورة المنخفضة طويلًا أو قصيرًا، فإن تجار التجزئة الأكثر تخصصًا ربما لا يستطيعون البقاء طويلًا في مكان التنظيمات التجارية. في حين يستطيع التجار الكبار الصمود أمام الانكماش التجاري؛ لأنهم يستطيعون الانتقال إلى أماكن أخرى أقل كثافة للتنظيمات المنافسة، إلا أنها ستكون في دورة منخفضة. وهذه القوى المشحونة والمتحفزة يعبر عنها (الشكل٤ , ٤).

إن عدد التنظيمات المدرجة في أماكن معينة مهمة جدًا بتوضيح حجم التنظيم، وتنوعه، وتنوع موارده ضمن عدد من التنظيمات المدرجة في مكان معين، وتأثيراته الكبيرة على مستوى الموارد المتاحة في المكان؛ لأنها عرضة للكثافة السكانية والمنافسة التي ستزداد مرة أخرى، إضافة إلى أن الأسواق ستزداد أيضًا لعدد من التننظيمات الأخرى في المكان المختار. وعندما يزداد نجاح إحدى التنظيمات، فسوف تقوم الأخرى في اتباع تأسيس تنظيمات على غرارها في هذا المكان، وغالبًا ما ينسخون بناءها؛ لنجاحها بين هذه التنظيمات الموجودة في المكان. إلا أنه كلما بدأ عدد التننظيمات يزداد في مكان بمعدلات أعلى من تأسيس هذه التنظيمات لنوع محدد مشروع، وبنائها المنسوخ لتنظيمات في نفس النوع، أدى ذلك إلى نمو نوع من الركود بين هذه التنظيمات. كما يمكن للمنظمات أن تصبح صارمة في الحد من استنساخ بنائها أو ثقافتها، وعلى سبيل المثال: إن شركات السيارات الأمريكية قبل غزو التنظيمات الأخرى المنافسة كانت لا تسمح للمصنعين الأجانب بالمنافسة في غضون ما بين (١٩٦٠ – ١٩٧٠م) إلى حد ما، وبكل ثقة ترى أنها الأفضل، إلا أن الأهم من ذلك هو وقوفها عند نقطة ثابتة؛ فهي لا تسطيع المنافسة في السعر أو الموثوق به لمنتجاتها أمام الواردات من سيارات قارتي آسيا وأوروبا. وهذه الأنواع من التوجهات لهذه التنظيمات داخليًا من الشركات العالمية أعطى شيئًا من الاصطفاء لهذه المنتجات؛ لأن من الصعوبة تغيير البناء الاجتماعي ومتطلباته وتغيير البناء التنظيمي وأدواره بسرعة، وهذا يعنى أن الشركات أصبحت أقل مرونة في المكان؛ حيث تبتعد عن المنافسة، والنتيجة هي أن الاصطفاء يبعد هذه التنظيمات عن المنطقة أو المكان أو أن تبقى. وهذه القوى موضحة في (الشكل ٤ , ٤).



الشكل (٤ , ٤). نموذج علم البيئة التنظيمي للأجيال.

في حين أن الشركات التي تبيع البضائع في السوق هي مجموعات نموذجية للمنظمة، والمدارس، ووكالات الحكومات، والجمعيات الخيرية، والمؤسسات، وأنواع أخرى من تنظيمات الخدمات التي تتطلب موارد في المناطق، كما أنها تخضع للضبط المشابهة في الكثافة، والمنافسة، والاصطفاء، أو في النهاية كمنظمات عمل في الأسواق الديناميكية، فالأسواق تضفي الطابع المؤسسي للمنافسة على الأسعار التي تكون على صلة بجودة المنتجات والخدمات، وهكذا عندما تبدأ الكثافة في الارتفاع في منطقة ما؛ فإن قوى الأسواق مثل الاصطفاء الطبيعي في العالم الحيوي سوف يزيل هذه المنظمات (في مقابل الكائنات الحية في العالم الحيوي) الذي لا يستطيع تعديل ضغوط الانتقاء هذه من خلال تغيير هياكلهم أو الهجرة إلى مكان أقل كثافة في الموارد.

وفي حقيقة الأمر أنه عندما تتباين المجتمعات تنظيماتها وتنتشر الأسواق في كل ميادين الحياة الاجتماعية؛ فإن الديناميكيات التي تضع تعريفا للتباين، يمكنها أن تكون عرضة للقوى البيئية التي تدور حول الكثافة، والمنافسة، والاصطفاء، وهذا يظهر في التصنيع وربما في الخدمات الأساسية، ولكن كل هذه القوى تعمل في كل ميدان في الحياة الاجتماعية والدينية، والفنية، والتعليمية، والعلمية، والرعاية الصحية، السياسية إلخ.وحتى القرابة تنشأ من خلال الأفراد الذين يتقابلون في مجال الزواج، وهكذا فإن القائمين على وضع النظريات النقدية في (الفصل ١٠) يبدو كأنهم متحسرون إذْ لا ميدان في الحياة في مأمن عن المنافسة، والاصطفاء في المجتمعات الحديثة، والتي تعني أن المنظور البيئي يكون أداة أكثر فاعلية في توضيح ديناميكيات التنظيمات في أماكن الموارد.

التنظير البيئي للوحدات الكبرى في علم الاجتماع
Macro-Level Ecological Theorizing in Sociolog

إن تكيف أفكار سبنسر ودوركايم (Spencer's and Durkheim's) حول العمليات البيئية قد نقلت وحدة التحليل في التنظير البيئي إلى أسفل المستوى المتوسط. كما أن المجتمعات والمنظمات هي أبنية على المستوى المتوسط التي تقف بين المستوى المجتمعي الكلي والتحليل المؤسسي من ناحية، وتحليل المستوى الجزئي لعمليات الوجه في اللقاءات، من الناحية الأخرى. ولذا فقد سعى العلماء

مؤخرًا إلى الأخذ بالوحدات الكبرى.[١٣] وفحص جميع المجتمعات في مصطلحات القوى البيئية والدينامية أكثر، وكما فعل سبنسر ودوركايم (Spencer and Durkheim)، وأن عمل آموس هاولي (Amos Hawley) كان مثالًا مفيدًا؛ لأنه قد حمل علم البيئة الخاص بمدرسة شيكاغو في الحقبة الحديثة للتنظير وأرشد المؤسسون للبيئة التنظيمية، وبعد ذلك، في عام ١٩٨٠م نقل التنظير البيئي إلى المستوى المجتمعي الكلي للتنظيم الاجتماعي.

وبالنسبة لهاولي (Hawley) فإن المجتمعات توجد في البيئات الطبيعية والاجتماعية والبيولوجية، والتي يجب عليها التكيف معها. وتقوم المجتمعات بعمل هذا من خلال تشكيل أنظمة للترابطات بين الأفراد وبين السكان والوحدات الاجتماعية التي تنظم أنشطتهم، وأن الديناميكيات الكامنة تعمل عل تكامل أجزاء النظام، وتدور حول نمو السكان، وبعد ذلك تباين السكان والوحدات المنظمة لأنشطتهم، إلى الحد الذي تفرضه التقنيات. وعلى سبيل المثال، فإن هاولي قد أكد على أن الثلاث فئات للتكنولوجيا تشكل بناء المرافق والبنى التحتية وهي: (١) الاتصالات. (٢) المواصلات. (٣) الإنتاج. وعندما يتجاوز النمو والتباين قدرات الإمكانيات التكنولوجية، يتوقف النمو حتى يكتسب السكان المزيد من المعلومات والمعرفة التي يمكن ترجمتها إلى تكنولوجيا لبناء البنى التحية للاتصالات، والمواصلات، والإنتاج.

---

(١٣)آموس إيل هاولي، بيئة الانسان: نظرية بنية المجتمع (نيويورك: رونالد ، ١٩٥٠م). تؤدي الأعمال الأخرى المؤدية إلى هذا التحول إلى المستوى الكلي إلى ما يلي: آموس هـ. هاولي ، منطق علم ماركوسوسيولوجي: الاستعراض السنوي لعلم الاجتماع ١٨ (١٩٩٢م): الصفحات ١-١٤؛ "البيئة الإيليونية" في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية، طبعة .د. سيلز (نيويورك: كروويل، كولير وماكميلان، ١٩٦٨م)؛ المجتمع الحضري: نهج بيئي (نيويورك: رونالد ، ١٩٧١ و ١٩٨١م)؛ الإيكولوجيا البشرية: المثابرة والتغيير "عالم سلوك أمريكي٤ (٣ يناير ١٩٨١م): الصفحات ٤٢٣-٤٤٤؛ النظرية الإيكولوجية والنظرية الماركسية: المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٨٩ (١٩٨٤م) الصفحات ٩٠٤-٩١٧؛ "علم البيئة والسكان ١٧٩ (مارس ١٩٧٣م): ص ١١٩٦-١٢٠١ ؛ "التغيير التراكمي في "النظرية والتاريخ" استعراض علم الاجتماع الأمريكي ٤٣ (١٩٧٨م): الصفحات٧٨٧-٧٩٧؛ "الجوانب المكانية للسكان: نظرة عامة في الديموغرافيا الاجتماعية ، طبعة. ك. دبليو. تاوبر إل إل .بومباس ، و ج .أ. هلو (نيويورك: أكاديمي، ١٩٧٨م)؛ "علم البيئة البشرية الاجتماعية: الماضي، الحاضر والمستقبل"، في علم البيئة البشرية الاجتماعية ، طبعة. ميكلين ه .م .كولدين (بولدر ، كولورادو: وستفيو ١٩٨٠م).

وبما أن المجتمعات تتباين فإن هناك تباينًا وظيفيًّا متماثلًا لوحدات النظام الاجتماعي، وهذه الوحدات المشتركة سماها هاولي بالوظيفة الرئيسة أو الوساطة بين المجتمع وبيئاته الاجتماعية، والبيولوجية والطبيعية، ويكون لديها تأثيرات على عوامل وظيفية أخرى في المجتمع؛ لأن العوامل الوظيفية الأخرى تكتسب عمليات للبيئة في مقابل تلك المشتركة في الوظائف الرئيسة مع بيئة المجتمع، ولهذا السبب فهي تبذل أقصى تأثير على عملية تأسيسهم؛ ونتيجة لذلك فإن نظام الترابطات الذي تم بناؤه بالمجتمع يدور حول الترابطات بين البنائي مع تلك المشتركة في الوظائف الرئيسة، وإنه من خلال المجالات المؤسسية المشتركة في الوظائف الرئيسة فإن الطاقة، المواد، والمعلومات الضرورية للتكيف يتم الحصول عليها عن طريق المجتمع، ويتم استخدامها في المخرجات التكيفية للمجتمع وللبيئة، وكلما توسطت الوظيفة الرئيسة في العلاقات البيئة كانت لها قوة أكبر على العوامل الوظيفية، وقيّدت التطور في هياكل المجتمع، وأيضًا كلما تباينت الوظائف الرئيسة ازدادت نسبة البنائي الاجتماعية المتعلقة بالبيئة في مقابل الروابط للوظائف الرئيسة، وكلما استقرت تلك الروابط للوظائف الرئيسة استطاعت النظم الاجتماعية في المجتمع أن تتوافق مع الترتيب الوظيفي الناشئ عن الوظائف الرئيسة.

ويحدث التغير الاجتماعي عندما يتعرض المجتمع لما يصفه هاولي (Hawley) بالبيئة العالمية أو البيئة الاجتماعية المكونة من المجتمعات الأخرى، ومهما كانت طبيعة الروابط فسوف تحدث معلومات جديدة للمجتمع سواء من خلال انتشار الأفكار، أو الاحتلال، أو أنماط الهجرة، وهذه المعلومات الجديدة سوف تغير التكنولوجيا المشتركة في الإنتاج، والمواصلات، والاتصالات؛ ولذا فإنه كلما قللت هذه التكنولوجيا تكاليف الانتقال أو الوقت، والطاقة، والمال، على الناس، وأيضًا المشاركة في نقل الموارد عن السكان ، كلما ازداد النظام الاجتماعي نموًّا إلى درجة التعقيد والتباين، وصولًا إلى النقطة التي تزيد فيها تكاليف الانتقال إلى حد قد يتجاوز التقنيات والبنية التحتية. وهكذا فإن هاولي (Hawley) شبَّه المجتمع بأنه سيصبح أكثر تعقيدًا مثل سبنسر (Spencer)، وقد رأو أن تعقيد البناء الاجتماعي سيرتبط بعمليات التوزيع، وتزداد تكاليف التنقل، وتعقد البنى التي تجعل من نمو السكان زيادة في التكاليف وصعوبة في التكيف، وسوف يسبب النمو والتباين. وفي الجانب الآخر فإن قلة تكاليف الانتقال سوف تسمح للمجتمع أن يمدد مساحة المكان لزيادة حجم

سكانه، ولتطوير أنواع جديدة من الوحدات الاجتماعية التي تنظم أنشطة الناس، ولتظهر أنظمة سياسية لتطوير أنواع جديدة من الأسواق، وتنمية المزيد من الشبكات الواسعة بين الوحدات الاجتماعية. وبالمقابل فكلما ازداد اختلاف المجتمع القادر على دمج الوحدات الاجتماعية المتنوعة، استطاع أن يتكيف مع البيئات العالمية والبيولوجية والطبيعية، وازداد الحجم والتباين لعمل ضغوط انتقاء لهذه الوحدات، فضلًا عن إيجاد تقنيات جديدة لتقليل تكاليف الانتقالات؛ وبالتالي يؤدي إلى زيادة الإنتاج.

إن نظرية هاولي لم يتم تطويرها بشكل تام، ولكنه من الواضح أن ما يحاول أن يوصل إليه هو أنه عندما ينظر للمجتمع كنظام متكيف مع البيئة، ويكون الاختلاف والتكامل في هذا النظام بالتأثر بشكل كبير عن طريق هذه الأبنية المشتركة مع الوظائف الرئيسة، أو الاتصال المباشر مع البيئة. وسوف يحدث التكامل حول البنائي التي تعتمد على الموارد المضمونة والمشتركة بالوظائف الرئيسة. ولكن القدرة الإنتاجية والبنية التحتية للاتصالات والمواصلات سوف تضع دائما سقفًا لحدوث كيفية تباين السكان وتكاملهم، وبذلك فبدون مدخلات جديدة للمعلومات داخل النظام من بيئتها سوف تصل المجتمعات إلى نقطة التوازن، ولكن المعلومات الجديدة والمكتسبة سوف يتم استخدامها في تقليل تكاليف الانتقال، وزيادة الإنتاج، وذلك بداية جولة جديدة من النمو، والتباين والتكامل حتى يتم الوصول إلى حدود التكنولوجيا. فعلى سبيل المثال، كلما اكتسبت المجتمعات الأوروبية في القرن التاسع عشر للتكنولوجيا الصناعية والتي يمكن استخدامها في مد السكان بالإنتاج المتزايد، فإنه من المهم توزيع السلع، وإنتاج المعلومات، علاوة على التوسع في الإنتاج والتي بدورها سوف تؤدي إلى استخدام الناس للتقنيات التي تقليل من تكاليف الانتقال، فعندما تقل هذه التكاليف بواسطة (القطارات والسفن البخارية على سبيل المثال)، فسوف تزداد مقياس المجتمعات للحصول على التقنيات التي تدفع ضغوط الانتقاء إلى اكتساب المزيد من التقنيات التي يمكنها تقليل تكاليف الانتقال من خلال أنواع جديدة من الأسواق ونظم المواصلات، ونظم الاتصالات. وبالتالي فإن الثورة الصناعية في النهاية سوف يتم تتبعها من خلال ثورة المعلومات، كي تقلل تكاليف الانتقال للمعلومات، والموارد والناس، وكل يؤدي إلى النمو والتباين في المجتمعات ما بعد الصناعية. كما يؤدي أيضًا إلى التوسع في نظام عالم حقيقي بين المجتمعات التي كانت فقط متاحا لها الزيادة في البنى

التحتية للإنتاج، والمواصلات، والاتصالات بتكاليف أقل، وليس من النمو الأدنى في الحجم والتعقيدات للمجتمعات وأنظمة المجتمعات التي يمكن أن تحدث دون تطوير البنى التحتية للاتصالات، والمواصلات المرتبطة بنظام إنتاج جديد، التي هي النقطة الأساسية لنظرية المستوى الكلي لها وللبيئة الاجتماعية.

الخاتمة
Conclusion

إن التنظير البيئي يمكن أن يصبح دائرة مكتملة – من التحليل على مستوى الوحدات الصغرى والوسطى، وأيضًا على مستوى الوحدات الكبرى، وبالفعل فإن التنظير البيئي قد يتحرك لأسفل إلى المستوى المتوسط لسلوك العلاقات الشخصية؛ حيث إن منظرين مثل إيرفنج جوفمان (Irving Goffman) الذي بدأ في التأكيد على بيئة الموقف و(المساحة، والدعائم، والمساحة المستخدمة والأجزاء) وملامح طبيعية أخرى للبيئة الصغرى، وعمله فسر في (فصل: ٧) في التأليف المسرحي ولكنه من المهم أن ندرك أن المنظور البيئي لم يكن في أكثر من قرن قد تم الأخذ به على المستوى الكلي من التنظيم الاجتماعي في الوقت الحاضر، ولذا فإنه يجب أن ننتهي بمجموعة من الافتراضات والمسلمات للتحليل البيئي في علم الاجتماع:

١ – العالم الاجتماعي مؤلف من منافذ الموارد التي يكون فيها الممثلون جميعهم من الأفراد والتجمعات التي تبحث عن البقاء لأنفسهم.

٢ – إن مبادئ داروين الأساسية تعمل من أجل اصطفاء الموارد المتضمنة الآتي:

أ) إن الكثافة تزداد كلما ازداد عدد الممثلين الباحثين عنا الموارد في أماكن معطاة مع عدد الممثلين بزيادة طفيفة وذلك عندما:

١- يؤدي نجاح الباحثين الأولين في المكان إلى إضفاء الشرعية على الشكل التنظيمي للسكان الأوليين في المنطقة.

٢- تبدأ منظمات أخرى في نسخ البناء والنظام الاجتماعي للسكان الأولين إلى منطقة كانوا فيها ناجحين.

ب) زيادة كثافة المنطقة سوف يزيد المنافسة بين الممثلين الباحثين عن الموارد، وكلما ازدادت الكثافة والمنافسة الداخلية سوف يكون هناك اثنين من المخرجات هما:

١- موت بعض الأشكال التنظيمية.

٢- سوف تبحث بعض الأشكال التنظيمية عن أماكن جديدة عن طريق تغيير أهدافها وربما ثقافتها والبناء التنظيمي.

ج) كلما ازدادت الهجرة من مكان إلى آخر وانهيار التنظيمات الضعيفة، كان لا بد أن يتبعها انخفاض الكثافة التنظيمية، ويحدث بعض السقوط التمثيلي للممثلين في مكان ما، ويؤدي ذلك إلى بدء ظهور ممثلين جدد للدخول إلى المكان لإعادة تكيفها.

٣-في المستوى المجتمعي للتنظيم الاجتماعي سوف يبحث المجتمع ككل عن التكيف مع بيئاتها، المكونة من العناصر الاجتماعية الثقافية والحيوية الطبيعية.

٤-سوف ينمو المجتمع عندما يكون لديه قدرة إنتاجية لدعم أعضائها، وعندما تؤدي تقنيات الاتصالات والمواصلات إلى تطوير البنى التحتية الذي يقلل من تكاليف الانتقال لنقل الموارد والناس، والمعلومات عن المجتمع.

٥-كما أن الديناميكيات الداخلية للمجتمعات سوف تتبع طرق الفقرات الأعلى في كل من (١و٢أ- ب) ولكن العلاقة للوحدات الفرعية في المجتمع لأولئك الذين يشاركون في الوظائف الرئيسة، أو يتناوبون مع البيئة التي ستحدد معدل النمو والمستوى بوصفه نموذجًا للتباين في المجتمع الذي سوف يزداد مع الشبكات الشاملة في الوحدات المتصلة بتلك الوظائف الرئيسة، وبالتطور في التقنيات المستخدمة في البنى التحتية التي تقلل من تكاليف الانتقال.

الفصل الخامس

التنظير التبادلي
EXCHANGE THEORIZING

الإحجام عن تبني النزعة النفعية والسلوكية
The Reluctance to Embrace Utilitarianism and Behaviorism

انعدام الثقة المبكر في الاقتصاديات النفعية Early Distrust of Utilitarian Economics

في عام (١٧٧٦م) نشر آدم سميث (Adam Smith) "ثروة الأمم" [(١)]؛ حيث وضح القوانين الأساسية للعرض والطلب في الأسواق للنظم الرأسمالية الصناعية الناشئة التي تهيمن على العالم اليوم، وركزت مناقشة سمث الأشهر على أن سعر السلعة أو الخدمة مرتبط بعرضها، ومرتبطة بطلب السوق. فهي الفكرة التي تعارضت مع مجهود ماركس (Marx) لربط قيمة السلع بقوة العمل المطلوبة لإنتاج هذه السلع. ونظر آدم سميث في نظرية العمال للقيمة مؤكدًا أنها لم تكن عملية، وقد احتج ماركس (Marx) على تصور التعريف العملي للاستغلال بقوله: يستطيع الرأسماليون عمل الأرباح من خلال استخلاص قيمة فائض العمل المتضمن في السلع ببساطة عن طريق الدفع للعمال أقل مما تساويه السلعة في وقت العمل، مولدة أرباحًا وثروة للرأسماليين.

ومن المحتمل أن يكون مجهود سميث (Smith's) لتطوير النظرية العامة للسلوك الإنساني أكثر جوهرية لنظرية علم الاجتماع على المدى الطويل، بدافع من المصلحة الذاتية في تعظيم المنفعة

---

(١)آدم سميث ، تحقيق في طبيعة وأسباب ثروة الأمم (إنديانابوليس: صندوق الحرية ، ١٩٨١م، نُشر في الأصل في ١٧٧٥-١٧٧٦م). (Indianapolis: Liberty Fund, 1981, originally publislied in 1775—1776) .

للمكافآت من الموارد بمتابعة تكاليف المكافأة واستقطاعها، فعندما يسعى الأفراد إلى تحقيق المصلحة الذاتية، فإن "اليد الخفية للنظام" تظهر في الأسواق العامة أو المفتوحة وبشكل غامض لتحافظ على النظام الاجتماعي. وبالنسبة لعلماء الاجتماع فقد يبدو لهم أن هذا المنطق خياليٌّ إلى حد ما. ولذلك إلى ما يقرب من (١٤٠) عامًا لم يستعر علماء الاجتماع جزءًا واحدًا من منطق سميث لإعادة صياغته التابعة في الاقتصاديات الكلاسيكية الجديدة، وبسهولة لم يكن هناك العديد من الافتراضات الصحيحة؛ لأن الناس دائمًا يحاولون توسيع خدماتهم، مع ندرة ما لديهم من معلومات لتحقيق ذلك. فالناس ليسوا عقلانيين في حساب التكاليف والمكافآت؛ لأنهم يصنعون قرارها واختيارها بناء على الإجراءات القائمة على كل أنواع القوى الداخلية والخارجية والعواطف، والاحتياجات والقيود المفروضة بشكل واسع عن طريق المعتقدات، أو المعايير، والقيم، أو القوى والأبنية الاجتماعية، وبهذا الشكل فقد انتهت الانتقادات.

وبشكل آخر؛ هناك عمل عظيم يدعو للاهتمام يتمثل في "نظرية المشاعر الأخلاقية"[٢] لسميث التي أصبحت أكثر قبولًا لعلماء الاجتماع المبكرين. وبالفعل فقد اقترح سميث (Smith's effort) المشكلات الاجتماعية الأساسية التي تهيمن على علم الاجتماع في القرن التاسع عشر في فرنسا على وجه الخصوص. ومع تباين المجتمع لم يعد الناس يعيشون في عوالم متشابهة؛ نتيجة للتخصص في أنشطتهم، ومن الممكن أن يُسأل عن: ما القوة التي يمكنها تكوين مجتمع متكامل؟ إجابة واحدة هي "اليد الخفية" التي كانت غير مرئية، وكانت وبكل صعوبة تمثل تفسيرًا مقنعًا للنظام الاجتماعي. فكما ورد في نظرية المشاعر الأخلاقية فإن القوى التكاملية الأخرى تمثل المشاعر المشتركة أو الالتزامات الثقافية بين الناس الذين يعيشون حياتهم اليومية في عوالم اجتماعية مختلفة إلى حد ما، وكان للفكرة صدى عند أوجست كونت وإيميل دوركايم.

وعندما تطور علم الاقتصاد على مدار (١٥٠) عامًا، وبخاصة في أمريكا كانت فكرة سميث الأساسية تركز على أن الأفراد هم صانعو القرار المنطقي، وبالذات أولئك الذين يبحثون عن الحصول على الأرباح؛ لأنه لم يعد لتوسيع أرباحهم أو خدماتهم أومكافآتهم فائدة تذكر، أو

---

(٢)آدم سميث ، "نظرية المشاعر الأخلاقية (إنديانابوليس: صندوق الحرية ، ١٩٧٤م، الذي نُشر في الأصل عام ١٧٥٩ ، وتم تنقيحه في وقت لاحق في ضوء الأسئلة المطروحة في ثروة الأمم").

استثمارات تستوعب ذلك. ولذا فقد برز الفكر الاقتصادي، واعترض علماء الاجتماع على علم الاقتصاد التقليدي الجديد لتيسيره معالجة الظروف الاقتصادية.وبمنتصف القرن العشرين، بدأ علماء الاجتماع في دمج أفكار علم الاقتصاد التقليدي الجديد في النظريات الاجتماعية، ولكن بعد إجراء العديد من التعديلات عليه. وقبل عام (١٩٦٠م) ظهر نوع جديد من التنظير أطلق عليه اسم "نظرية التبادل"، ويُعدُّ اليومَ أحد الأشكال الأساسية للتنظير في علم الاجتماع، كما تبنى علماء الاجتماع الأفكار الوظيفية، وأكدوا على أن الناس تبحث عن الخدمات تحت أنواع عديدة من القيود، وأيضًا اجتماعية، وبنائية، وثقافية، وتحفيزية، وقد كانوا عقلانيين بشكل كبير، وعازمين على زيادة الأرباح إلى الحد الأقصى، وبالتالي أصبحت الوظيفية أكثر قبولًا؛ لأن علماء الاجتماع بدؤوا في تبنى الأفكار من جدل نظري آخر هو "السلوكية".

التصعيد والرفض الأولي للسلوكية The Rise and Initial Rejection of Behaviorism

انبثقت نظرية التبادل إلى حد ما عن مصدر فكرى بوصفها مدرسة فكرية أصبحت في النهاية معروفة باسم المدرسة السلوكية. وجميعنا يعرف تجارب إيفان بتروفيتش بافلوف (Ivan Petrovich Pavlov's) الشهيرة [٣] (١٨٤٩ - ١٩٣٦م) عن الكلاب التي اكتشف فيها بالصدفة أنه عندما تُتبع خطاه بأنارة الأضواء في شرفته الخلفية عندما يُطعِم الكلب (يستخدم في التجارب على اللعاب)، فالكلب فيما بعد يربط الضوء بالإطعام، وبدأ في عرض سلوكيات التغذية، وبالطبع لم يكن لدى الناس شك مشار إليه مثل الاستجابات المشروطة في حيواناتهم الأليفة والحيوانات لآلاف السنين، ولكن قد فهم بافلوف (Pavlov)حدود الإثارة لمثل هذه الظروف للبشر، والحافز المرتبط باستمرار الاستجابات الفيزيولوجيه المشروطة باستخدام المعرفة، ولذا فقد اكتشف بعض الخفايا للمدرسة السلوكية، ومؤداها؛ بأن الحفز يرتبط بالاستجابة النفسية المعطاة بشكل ثابت، وسوف تستنبط هذه الاستجابة عندما تقدم في العديد من المواضيع المختلفة؛ وهذه الاستجابات المشروطة

---

(٣)إيفان بتروفيتش بافلوف ، رسائل على ردود الفعل الشرطية ، الطبعة الثالثةترجمة. و.ت.كانت (نيويورك:الناشرين الدوليين، ١٩٢٨م) .. (New York: International Publishers, 1928) .

يمكن أن تختفي عندما يتم عزل الإيعازات أو المكافآت المرتبطة بالحوافز خلال التجارب المتكررة؛ فالحافز المشابه للمشارك في الاستجابة المشروطة يمكنه استخلاص الاستجابة المشروطة، بينما لن يكون الحافز المختلف بشكل متزايد قادرًا على استثارة هذه الاستجابة. ويمكن لهذه المبادئ أن تفسر الكثير من السلوك البشري، كما يعتقد ، وعلى نفس القدر من الأهمية يمكن استخدامه من قِبل الأكاديميين في ضبط سلوك الناس والسيطرة عليهم من خلال الإعلانات لإقناعهم . وكان بافلوف قلقًا لاستخدام مثل ذلك ولم يغفل عنه. وفي الحقيقة إن هذا العمل اعطى الفرصة لأحد القائمين الأوائل من السلوكيين الأمريكيين الذي ترك العمل الأكاديمي لمواصلة مهنة ناجحة جدًّا في الإعلان، من خلال إقناع الناس بقيمة المكافأة باستخدام نوع خاص من الدخان (cigarettes) يحمل شعار تجاري ذا شعبية عالية يسمى "ضربات الحظ". وفي الواقع حتى يومنا هذا ما يزال الإعلان مرتبًا بأحرف (LSMFT) او (Lucky Striles) بمعنى "الدخان المميز". وقد عرفتها منذ (٦٠) سنة مضت عندما كنت في سن العاشرة (من خلال بث الإعلانات التجارية المكثفة على الراديو، ثم التلفزيون لمثل هذه الدعاية) إلا أنني لم اكن مدخنًا على الإطلاق.

وفي جامعة هارفارد (Harvard University) كان عالم نفس يُدعى إدوارد سورندايك[٤] (Edward Thorndike) يُجري أيضًا تجارب بوضع قطط صغيرة في صندوق له متاهات كثيرة، وقد سجّل سلوكهم حيث تعلمت القطط الهروب من بين المتاهات الموجودة في الصندوق، وكان يلحظهم في طريقة الهرب، ومن خلال محاولة الصح والخطاء كانت الاستجابة المشروطة تأخذ وقتًا أقل في كل محاولة. واكتشف ثورندايك (Thorndike) بعض الاستجابات المتشابهة التي تم الكشف عنها في تجربة بافلوف: بأن السلوك في المواقف التي تنتج الإشاعات في حالة الهروب من "صندوق المتاهات"، وكثرة المتاهات والعديد من الطرق المسدودة التي سوف يتم تكرارها في مواقف متشابهة. كما أن اتصالات الاثارة للوضع والاستجابة قد تتصلب مع التكرار والممارسة، والاتصال بين الموقف والاستجابة، كما يضعف عندما يتم قطع الممارسة، وعادةً عندما لا تنتج المكافأة الاستجابة المتوقعة.

---

(٤) Edward Lee Thorndike, The Elmnents of Psychology (New York: Seiler, 1938).

ولذا فالناس يشبهون الحيوانات الأخرى؛ لأنهم ينقادون بنفس طريقة الاهتمامات بالمكافأة المؤمنة، وتجنب العقاب، ويتعلمون السلوكيات باقترانها بشرط القيمة لمكافأتهم. فعن طريق صياغة الجدال للسلوكين بهذه الطريقة يمكننا أن نرى كيف أنها تتلاقى مع النظرية الوظيفية، ولكن نستطيع ان نرى كيف التقارب مع هؤلاء المنظرين النفعيين. ولكن مع ماذا يصبح الاختلاف كبيرًا.

كما تطورت المدرسة السلوكية في علم النفس في الولايات المتحدة في النصف الأول من القرن العشرين وتعرضت لموجة من التأكيد المنهجي التقليدي؛ بأنه ليس من الممكن أن تلحظ أفكار الإنسان، كما أن المعرفة والتجربة لا يمكن إدراكهما وفهمهما إلا عند ملاحظتها وتحليلها. ولذلك رأى السلوكيون المبتدئون مثل جون بى واتسون (John B. Watson)، وكذلك الأكثر أهمية مثل بي إف سكنر، (B. F. Skinner) في جامعة هارفارد (٥) أنه من الممكن فقط ملاحظة الموقف الخارجي واستجابات الحيوانات لهذه المواقف، وبناءً على ذلك يمكن أن تكون النظريات فقط حول المواقف والسلوكيات التي يمكن ملاحظتها، والتي ابتعدت عن الفكر، والعاطفة، واتخاذ القرار من الأجندة النظرية للسلوكين. فقد أجرى سكنر وجيل مع تلاميذه اختبارات على ما أسموه صندوق "سكنر"، والذي كانت فيه الاستجابات السلوكية للحيوانات، وكانت في الغالب من الحمام والفئران التي تتذبذب تحت الشروط الحفز، وتكشف القوانين نفسها للسلوك التي عبر عنها ثورنديك بافلوف .(Thorndike and Pavlov)

وفي الحقيقة تم تزوير التجارب في "صندوق سكنر" بطريقة لا يمكن ملاحظتها وأسلوب متعاطف مع التجربة، وقد حرمت الحيوانات من الطعام والماء قبل دخولها الصندوق، وتمت مكافأتها من خلال الحصول على جرعات قليلة من الماء والطعام. وبهذا الشكل فقد وجه الحيوان على ما تريده التجربة، وسيندفع إلى صندوق "سكنر" ليحصل على بعضٍ من الماء والطعام مكافأة، وهكذ كان التسلل للباب الخلفي لصندوق "سكنر" مجرد افتراضات معقولة إلى حدٍّ ما، ولكن لا يمكن ملاحظتها كليًّا كالحمام الجائع أو العطشان، ويمكن قياسها بمدة الحرمان، ووجود مكافأة الطعام أو الماء. وهكذا سوف تشترك في هذه السلوكيات التي تقدم لها المكافأة، وكلما زاد الجوع

(٥) *B. F. Skinner, The Behavior of Organisms (New York: Appleton-Century, 1938).*

والعطش ازدادت قيمة الطعام والماء. وبالتالي سوف يؤدون بنفس الطريقة السلوكيات التي تقدم لهم المكافأة فقط لو تم استدعاء السلوكيات المشروطة في موقف ما، سوف تصبح المكافآة سلوكيات، ويكون البحث عن المكافآة مشروطا. وبمرور الزمن أهملت هذه النظرية، ثم ظهرت بعد ذلك نظرية سكنر مرة أخرى، وبشكل صحيح محاولة إثبات أنه عندما لا يحصل الحمام على المكافأة المتوقعة بسبب الشروط الماضية يبدأ بالغضب، ويتراقص بشكل عدواني حول "صندوق سكنر"، وغالبًا ما يضرب بجناحيه الباب الذي لم يعد يحضر له المكافأة المتوقعة من خلاله مرة أخرى. لأن التوقعات للمكافأة ، وغير عادلة للحصول على المكافأة ، فالإسهام في تقديم المكافأة لم تكن مناسبة؛ (لأن القضيب الذي يستند عليه الحمام ضعيف) ولذا سار من الحمام من خلال الباب الخلفي، وكان من المفترض في النظرية أن تكون الملاحظة مباشرة.

وعندما بدأ علماء الاجتماع في تبني الأفكار السلوكية التي تم تأكيدها على أيدي الاقتصاديين التقليدين الجدد، اتخذ الناس القرارات المبنية على تقييم التكاليف، والاستثمارات المتطلبة في تلقي المكافأة، أو الخدمات لأنواع خاصة من السلوك، وبالفعل توضحت عملية اتخاذ القرار وإجراء الحسابات، وتوضح في جوهرها كل التصرفات بين البشر، وهكذا كان فهم السلوك البشري ومن المهم أن نفهم ما المكافأة للفرد، وما أنواع الحسابات التي المتوقعة بخصوص هذه المكافأة، وما التكاليف ، والاستثمارات، والمعلومات، والعدل وعمليات أخرى مشتركة في اتخاذ القرار. فعندما يتم التخلص من القيود المنهجية في المدرسة السلوكية، فإن المدرستين السلوكية والنفعية تكونان متشابهتين بشكل مفاجئ وكبير، فعندما وُجِدَ الكثير من المحتوى الاجتماعي عن البناء والثقافة في المواقف في عملية التنظير، وبدأ علماء الاجتماع في تصديق أن المذاهب لا يمكنها تفسير السلوك والتفاعل الاجتماعي بين البشر، ولكن أيضًا في اندماج الثقافة والبناء الاجتماعي. وعلى الرغم من الحقيقة أن كثيرا من علماء الاجتماع كانوا من علماء الاجتماع مشككين في صحة ذلك، وكسر الاندماج بين المدرسة السلوكية والنفعية في نظرية التبادل، ووُجِدَ منذ أكثر من ثمانين عامًا لم تكن منظمة بشكل كبير. وعلى الرغم من حقيقة تبني علماء الاجتماع المبكرين أفكار نظرية التبادل، وإخفاء ذلك التبني عن طريق مفردات مفاهيمهم.

النظريات التبادلية المبكرة في علم الاجتماع التقليدي
Early Exchange Theories in Classical Sociology

نظرية التبادل الضمنية لماركس Marx's Implicit Exchange

إن الأفكار الجوهرية في التراث النظري التبادلي كانت واضحة في نظرية ماركس[٦] (Marx's)، وقد أكد ماركس (Marx) أن هؤلاء الذين يسيطرون على الموارد الشحيحة القيمة يكونون في وضع التحكم والاستغلال لأولئك الذين ليست لديهم موارد إلا قليلة أو غير مرغوب فيها للتبادل. وأن هؤلاء الذين ليست لديهم موارد قليلة أو قيمة سوف يكونون في وضع غير مؤاتٍ عند التبادل مع هؤلاء الذين يمتلكون الموارد القيمة. ولإعطاء هذا التصور الموضوعي على هذا التعميم، فإن لدى الرأسماليين الوظائف والعمال الذين يرغبون في العمل فيها، ولكن الوظائف أقل من عدد العمال، وبالتالي، فإن لدى الرأسماليين السلطة على العمال، وسوف يكونون في وضع ضغط لاستغلالهم، وسوف يقومون في النهاية بمكافحة التعبئة عن طريق أولئك الذين يتم استغلالهم من خلال تبعيتهم لهم بناءً على هذه السلطة. فهؤلاء الأفراد المستغلون سيشعرون في النهاية بأن تبادلاتهم غير عادلة مع الرأسماليين. وكلما ازداد هذا الشعور بعدم العدل سيزيد من تحملهم للتكاليف والمخاطر المتعلقة بالتعبئة ضد هؤلاء أصحاب السلطة، ويمكن بهذا أن نرى نظرية ماركس بوصفها نظرية تبادلية لكن بطابع نظرية الصراع.

نظرية التباد لسميل Simmel's Exchange Theory :

لقد عرض جورج سميل (Georg Simmel) أفكار التبادل، حتى إنه انتقد ماركس: [٧] فكلما زادت قيمة الموارد المسيطر عليها من قِبل أحد الممثلين، أو كلما كانت هذه الموارد أكثر ندرة ، ازداد انجذاب ممثلين آخرين تجاه الممثل القابض لهذا المورد. ولكن لو أصبح هؤلاء الممثلون ذوي أهمية، فستكون لديهم السلطة بوصفهم ممثلين للسيطرة على هذه الموارد القيمة، وعندما ينظر الى التبادل على انه غير منصف ، ولم يكن لدى الممثلين موارد بديلة لهذه االموارد القيمة، ومن يمتلكون السلطة

---

(٦) Karl Marx, Capital: A Critical Analysis of Capitalist Production, vol. 1 (New York: International Publishers, 1967).

(٧) *Georg SimmeL The Philosophy of Money trans. Tom Bottomore and David Frisby (Boston: Routledge, 1990).*

يقدمون القليل بينما يطالبون بكثير من أنماط التبادل، وهذا سوف يشعر الممثلين المستغلين بالاستغلال، وسيصبح تكلفة عدم العدالة عالية للتحمل. وهكذا فمن الأفكار الجوهرية عن التبادل تأتي موضوعات اجتماعية متشابهة تدور حول ديناميكيات السلطة والصراع، ويمكن للفرد أيضًا أن يَعُدَّ نظرية الصراع بديلًا عن نظرية التبادل، أو ربما العكس صحيح.

المقاومة المستمرة The Persisting Reluctance:

على الرغم من إيحاءات علماء الاجتماع في ترددهم من دمج الأفكار سواء من المدرسة النفعية أو علم النفس السلوكي، وإضافة إلى أن جورج هيربرت ميد (George Herbert Mead) [٨] بوصفه مؤسسًا للتفاعلية الرمزية قد فهم الملاءمة لتقاليد كل منهما لفهم السلوك البشري الذي يتم توجيهه عن طريق المجهودات للتكيف مع البيئة الاجتماعية. فقد اعترض على المدرسة السلوكية الصارمة؛ لأنها أكدت بطريقة دوغمائية إذا استطاع الفرد أن يدرس ظاهرة يمكن ملاحظتها، فإن التحفيزات التي يمكن ملاحظتها والاستجابات المرتبطة بهذه التحفيزات تكون واجبة على الفرد.كما ناقش "السلوكيون"، (behaviorism) بالوقوف خارج الصندوق الأسود للمعرفة والفكر البشري؛ لأن هؤلاء لا يمكن رؤيتهم. ويرى ميد أن العمليات الفكرية للفاعلين من البشر هي السلوك الذي يجب دراسته، على الرغم من الصعوبة في الملاحظة المباشرة، وهذه السلوكيات يتم تعلمها أو اشتراطها بقيمة المكافأة التي يمتلكونها من أجل تسهيل نمو الأطفال وتكيفهم مع الحالة الاجتماعية المستمرة. وفي حقيقة الأمر فإن ما يجعل الإنسان فريدًا هو مقدار التفكير عن نفسه، وعلاقاته بالعالم الخارجي، وهكذا الأمر بالنسبة لميد. فالمدرسة السلوكية لم تهتم بدراسة السلوكيات المهمة للإنسان.

وما يزال علماء الاجتماع يسيرون ببطء في تبني أي جانب من المدرسة السلوكية بسبب صلابة مناهجها، ويميلون إلى تبني الجدل النفعي بأن البشر دائمًا عقلانيون، وأنهم يبحثون دائمًا عن توسيع خدماتهم في كل المواقف. فقد أكدت المدرسة النفعية على أن الناس تفكر وتتخذ قرارات، وأن العمليات التي يقومون من خلالها بعمل ذلك يمكن دراستها من ناحية المنفعة للبشر؛ حيث إنهم يبحثون عن التكيف مع العالم الاجتماعي.

---

(٨) *George Ilerberl Mead, Mind, Self and Society (ChIcago, I1k: University of Chicago Press, 1934).*

وقبل حلول منتصف القرن الماضي بدأ علماء الاجتماع بخلط مذهبي جمع بين صنع التفكير واتخاذ القرار والإثارة العاطفية والعدل وإجراء عمليات فكرية أخرى من المدرسة السلوكية، في حين أن التقليل إلى حد ما من أهمية فكرة أن الناس دائمًا ما يبحثون عن توسيع خدماتهم على الرغم من أن العديد من نظريات التبادل المعاصرة تحافظ على هذا الافتراض. فضلًا عن ذلك فقد بدأوا في إعادة اكتشاف الأفكار الكامنة في كيفية أن علاقات التبادل يمكنها توليد السلطة، والاستغلال، والصراع الذي أكد عليه ماركس وسيميل (Marx and Simmel)، وكانت النتيجة ازدهار مسرحي لنظريات التبادل في النصف الثاني من القرن العشرين. ولهذا كانت مجموعة من الافتراضات حول عمليات التبادل في بداية طريقها في تيار النظرية الاجتماعية في الحقبات الأخيرة من القرن العشرين، وتضمنت تلك الافتراضات ما يأتي:

١- أفعال الأفراد والفاعلين المجتمعيين بواسطة الاحتياجات للمكافأة والخدمات.

٢- كلما ازدادت المنافع والخدمات المكتسبة من العلاقات الاجتماعية؛ اتبع على الأرجح الأفراد والفاعلين المجتمعيين مسار السلوك والفعل الذي يؤمّن هذه المكافأة.

٣- يقيم الأفراد قيمة المكافأة البديلة للسلوك، ويختارون البديل الذي يقدم المكافأة الأكثر إن لم تكن الأشمل.

٤- كلما ازدادت قيمة المكافأة المستلمة عن طريق الأفراد؛ تمكن الأفراد من متابعة السلوك الذي يسمح لهم باستلام هذه المكافأة القيمة في الوقت الراهن والمستقبل.

٥- سوف يحسب الأفراد بشكل ضمني أو بصراحة تكاليف الموارد البديلة للمكافأة التي يجب الإقلاع عنها، والاستثمارات للتكاليف المتراكمة في تعقب خط السلوك، وسوف يبحثون عن عمل الفائدة من الموارد المستلمة. فالفائدة تعني قيمة الموارد المُستلمة بتكاليف أقل واستثمارات للحصول عليها، وتخضع مسارات السلوك للفائدة الأكثر التي يتم تعقبها.

٦- كلما زاد استلام المكافأة من النوع المُعطي في الماضي القريب؛ انخفضت تفضيلات الأفراد لهذه المكافأة، وسوف تصبح هذه المكافأة ذات قيمة أقل لدى الفاعل. وفي علم النفس هناك مبدأ "الشبع" الذي يوصف في علم الاقتصاد بالمنفعة الحدية، وتظل

الديناميكية لدى وجهتي المنظر. وكلما ازدادت المكافأة التي يحصل عليها الفرد؛ أصبحت قيمته أقل أو يكون لها الخدمة الأقل لدى الفاعلين.

٧- يتبادل الأفراد والجهات الفاعلة الجماعية متخلّين عن بعض من التكاليف لاستلام الموارد من الآخرين، وأكثر الموارد في التفاعل البشري جوهرية مثل: العاطفة، والقبول، والهيبة، والشرف، والحب، وتحقيق الذات، على الرغم من أن بعضها خارجي مثل: المال، والسلطة.

٨- يقيم الأفراد والجهات الفاعلة الجماعية العدل والعدالة للموارد المستلمة المتعلقة بتكلفتهم واستثماراتهم التي تمكنهم من تجميع عدد من نقاط المقارنات المختلفة، أو معدلات عمل هذه الحسابات العادلة. وعلى سبيل المثال يمكنهم تجميع معايير ثقافية عامة محددة لما هو عادل، كما يمكنهم مقارنة هذه المكافأة بهؤلاء الفاعلين الذين يتكبدون تكاليف واستثمارات متكافئة تمكنهم من الاستخدام والإحساس بالمكافأة كما لو كانت استلمت في تبادل بينهم، أو يمكنهم استغلال ذلك كنقطة موجهة للمكافأة التي من المتوقع أن يستلموها، والمتعلقة بالمكافأة التي استلموها بالفعل.

٩- عندما تقع الرشاوى للفرد أو الممثلين الجماعيين ضمن العديد من نقاط المقارنة التي يمكن استغلالها لتقييم العدل بين الأفراد صانعي القرارات للممثلين الجماعيين، فسوف توجه المشاعر السلبية للبحث عن إعادة المفاوضة للتبادل. ويمكنها أن تستخدم عدد من الإستراتيجيات في إعادة المفاوضات هذه متضمنة العقاب، وبهذا يتم تحميل التكاليف لهؤلاء الذين أخفقوا في تزويد مكافأة عادلة، أو بتبادل البحث عن شركاء للتبادل يمكن أن يكونوا أكثر عدلًا.

النظريات التبادليه المعاصرة

Contemporary Exchange Theories

إن نظريات التبادل هذه الأيام غالبًا ما تستخدم مفردات الاقتصاد أو علم النفس السلوكي، ولكنها في جوهرها تحتضن الظاهرة نفسها التي يتبادل من خلالها الناس الموارد والتأثيرات المتبادلة بين الأبنية الاجتماعية والثقافة، والعكس صحيح. وإن المزج بين المفردات هو النتيجة للنقيضين بين

المدرسة السلوكية في مبدأ "المحرمات حول إدخال الصندوق الأسود للمعرفة البشرية" والنفعية في مبدأ "الفاعلون هم دائمًا عقلانيون ومتخذو القرار الذين يبحثون دائمًا عن توسيع "الخدمات".

أساس العمليات التبادلية
Basic Exchange Processes

أنواع المكافات والتكاليف والقيمة Types of Rewards, Costs, and Value

تهدف جميع نظريات التبادل الحديثة للتفاعل في دراسة علم الاجتماع إلى تبادل الموارد بين اثنين أو أكثر بوصفهما متفاعلين، وقد تكون الموارد المتبادلة خارجية مثل المال. وفي كثير من الأحيان يكون التبادل صداقة جوهرية أو تضامنا، أو مساعدة، أو معلومات أو أي شيء آخر له قيمة مجزية لهذا التفاعل والأبنية الاجتماعية التي تراكمت خلال التفاعل الاجتماعي؛ لأن الناس يتبادلون الموارد التي يجدونها ذات قيمة عالية. فالناس يخلقون هياكل اجتماعية لتأمين موارد قيمة لتجنب العقوبات أو التكاليف عندما تكون البنية الاجتماعية ما تزال قابلة للبقاء، في حين عندما تصبح البيئة أقل قدرًا من المكافاة للأفراد، أو تفرض المنشأة استمرار عقوبات، أو تفشل في تقديم المكافاة المتوقعة يصبح الصراع عندئذ أمرًا محتملًا.

أشكال التبادل: Types of Exchange

يمكن للتبادل أن يكون من أنواع متعددة ذات قيمة جوهرية ومنها(٩): (١) التبادل التفاوضي الذي يكون فيه الأفراد، في الجوهر يساومون على الموارد المعطاة والمستلمة، ويمكن لهذه المفاوضات أن تكون نشيطة جدًّا عندما يشتري فرد سيارة من التاجر، وتكون عمليات التفاوض في معظم التفاعلات بارعة وسرية. (٢) التبادل العكسي، وهي تبادلات تسلسلية للموارد التي يعطِي حزبٌ فيها موردًا ذا قيمة بالنسبة إلى الآخر، كإعطاء هدية، مع التوقعات أن هذا العطاء سوف يكون متبادلًا مع العطاء من جانب واحد، كردٍّ هدية للفرد الذي قدم هدية للآخر. (٣) التبادل الإنتاجي؛ حيث يقوم فيه الأفراد بتنسيق أعمالهم من خلال الموارد المعطاة إلى الآخر لإكمال مهمة ما، وعندما

(٩) *Edward J. Lawler, "An Affect Theory of Social Exchange" American Journal of Sociology 107 (2001): pp. 321—352.*

تكون المساهمة محددة لحزب يكون من الصعب تحديده بسبب المشاركة للنشاط. (٤) التبادل المـُعَمم؛ حيث لا يتفاوض فيه الأفراد بشكل مباشر، ولا يتبادلون بشكل منتج بعضهم مع بعض، ولكن -إلى حد ما- قد يقوم أحد الأحزاب بمد الموارد إلى حزب آخر يقوم -بدوره- بمبادلة تلك الموارد مع طرف ثالث، وهذه تُعدُّ حركة موارد من جانب واحد مطولة إلى حد ما. وفي مثل هذه التبادلات المعممة، تتدفق الموارد في دائرة تحتاج إلى أن تغلق.

القوى الحافزة التي تقود التبادلات Motivational Forces Driving Exchanges

إن الفاعلين سواءٌ أكانوا أفرادا أم وحدات جماعية مثل: المجموعات، والمنظمات أو حتى المجتمعات بأكملها، دائمًا ما يقيمون مواردهم بتلك الموارد المتعلقة بالآخرين لمعرفة ما هي الموارد المتاحة، وماهي الموارد الأكثر قيمة، وما الموارد البديلة المتاحة للموارد القيمة، وماذا يجب الإقلاع عنه من أجل الحصول على موارد معينه؟ [١٠] وهكذا، يُقيِّم الفاعلون المكافأة المحتملة ليتم إنجازها بخط مُعطًى للنشاط ضد التكاليف (التمتع بالموارد البديلة) والاستثمارات (التكاليف المتراكمة) التي يجب الإقلاع عنها، أو تكبدها للحصول على المكافأة. وهم يحسبون أيضًا الأرجحية بأن المكافأة سوف تكون قادمة أو محتملة للحصول على مكافأة التكاليف والاستثمارت التي تكبدها. ولذا يقيم الأفراد الموارد البديلة للمكافأة إذا أمكن إيجادها؛ لأنه لو امتلك العديد من الفاعلين مكافأة سوف تكلف عمومًا أقل من الحصول على المكافأة للفرد الواحد الذي حاز على مكافأة ذات قيمة، حتى لو أن لدى هذا الفاعل موارد عديدة للمكافأة من جهات فاعلة مستقلة، أو عندما لا تقيِّم موارد الجهات الفاعلة للمكافأة. وبعد ذلك، سوف تكون أكثر تكلفة للجهات الفاعلة المستقلة لتستلم المكافأة المرغوب فيها. بالإضافة إلى ذلك عندما تصبح الجهات الفاعلة مستقلة عن فاعل يملك الاحتكار على مورد ذي قيمة، فإن هؤلاء الفاعلين يمكنهم التوقع بأن الفاعل المحتكر للمكافأة سوف يمارس السلطة عليهم ويطلب منهم دفع تكلفة أعلى لأي موارد، وسوف يحتاج الفاعلون إلى تغييره، وإلى السلطة، وهكذا سوف تورث في كل التبادلات حتى لو كان هناك العديد من الموارد

(١٠) *Gcorge C. Homans charmpioned this conception of motivation; see, for example, the early work of George C. Homans: Social Behavior: Its elementary forms (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1961; second edition in 1972).*

لكل مكافأة عن طريق الفاعلين المشتركين في التبادلات. وسيكون لدى هؤلاء الفاعلين مزيد من السلطة المتكافئة؛ ونتيجة لذلك سوف يقل استخدام السلطة، وسوف تُطوِّر الجهات الفاعلة وجهة نظر إيجابية نحو بعض أفرادها، لأن كلّا منه سوف يتلقى مكافأة ذات قيمة؛ فيما يفهم على أنه التكلفة العادلة.

وكلما ازداد تطور رؤية التبادلات بوصفها وجهات نظر إيجابية وعادلة، فسوف تكشف على الأرجح علاقات الجهات الفاعلة، والالتزامات تجاه كل منهما الآخر، ويكون التضامن على درجة عالية. وفي المقابل لو تمت رؤية المكافأة على أنها غير عادلة؛ لأن المحتكرين يستخدمون سلطتهم لطلب موارد أكثر من أي وقت مضى من الجهات الفاعلة المستقلة هذه، وسوف تسعى الجهات الفاعلة المستقلة بجدية إلى تقليل السلطة للفاعل المميز، مستخدمةً في ذلك العديد من الإستراتيجيات التي منها(١١): (أ) السعي إلى إيجاد بدائل للمورد ذي القيمة من الجهات الفاعلة الأخرى؛ وبالتالي تقليل ميزة السيطرة الاحتكارية على المورد. (ب) تسعى الجهات الفاعلة لتزويد الموارد الجديدة التي تكون ذات قيمة أكثر لصاحب الاحتكار، وبذلك يقلل اختلافات السلطة بين الجهات الفاعلة.(ج) تسعى لقطع الموارد البديلة عن الموارد التي تُعطيها الجهات الفاعلة المستقلة لأصحاب المورد الاحتكاري، وبالتالي تجعل السلطة المستخدمة أكثر استقلالية عن الموارد التي كانت مستغلة. (د) تسعى إلى تكوين تحالفات مع تلك الجهات الفاعلة الأخرى، وبالتالي تتكون جهة فاعلة مفردة جديدة يمكن أن تمنع الموارد من الجهة الفاعلة التي كانت هي المحتكرة، وبالتالي تنتج سلطة تقدم مكافأة أكثر؛ لأن أصحاب الاحتكار لم يعد لديهم موارد بديلة للمكافأة التي تثمنها، وبالتالي يكون التحالف بسلطة متكافئة لصاحب الاحتكار السابق، وتحاول إجبار أو عقاب الجهات الفاعلة التي أساءت استخدام احتكارها من خلال استخدام السلطة ضد الجهات الفاعلة المستقلة. (هـ) تسعى للعمل من دون المكافأة القيمة المحكومة من خلال الاحتكار، واستخدام السلطة على المسيطرين على الموارد. وهكذا تتبعها إستراتيجيات الجهات الفاعلة إذا ما وجدوا أنفسهم مستقلين عن الجهات الفاعلة الأخرى للموارد القيمة. وتحاول أغلبية هذه الإستراتيجيات الاشتراك في إعادة

---

(١١) *Richard Emerson, "Power Dependence Relations: Two Experiments," Sociometry 27 (Sptember 1964): pp. 282-29*

التوازن المتبادل من خلال تقليل احتكار السيطرة عن طريق جهة فاعلة واحدة، أو من خلال زيادة قيمة الموارد المـُعطاة لصاحب المصدر القيم من خلال الجهات الفاعلة المستقلة.

ودائما تؤثر الثقافة في الجهات الفاعلة والإستراتيجية والحسابات المعمولة بواسطة الجهات الفاعلة، كما يتعاملون مع استخدام السلطة بجهة فاعلة أخرى ويوجد العديد من الحسابات حول ما إذا كان المستوى المُعطى لتبادل الموارد عادلا، وتتضمن هذه الحسابات استغلال نقاط المقارنات العديدة، كما تمثل[١٢] نقطة المقارنة الوحيدة الأخلاق والمعايير في الثقافة التي تكون فيها المعايير لتقييم التبادلات سواءٌ أكانت عادلة أم لا. ونقطة مقارنة أخرى يمكن أن تكون فيها التوقعات عندما يكون الفرد على وشك الدخول في تبادل لسبب ما. وبإمكان نقطة المقارنة الأخرى أن تكون معدل الماضي لتبادل الموارد التي تم اكتسابها مسبقًا، ولكن تم تغيرها فجأة عن طريق شخص آخر، وتتمثل نقطة مقارنة أخرى توجه إدراك الفرد غالبا للموارد التي سوف يحصلون عليها في علاقات تغيير متبادلة، وهكذا يفسر سلوك التبادل. ومن الناحية الأخلاقية عندما يشعر الأفراد أن هذه التبادلات ليست عادلة من خلال استغلال نقطة المقارنة يصبحون غاضبين كحمام سكنر. بالإضافة إلى ذلك سيكونون عازمين على احتكار الآخر. وكما يرى كارل ماركس سيتبع ذلك صراع الطبقة العمالة ضد الطبقة الوسطى.

العمليات التبادلية اللامساواة والسلطة: Exchange Processes of Inequality and Power

واحدة من نظريات التبادل الحديثة المبكرة تم اقتراحها عن طريق بيتر.إم.بلاو[١٣] Peter M. Blau) في منتصف عام (١٩٦٠م)، فقد وضح بلاو أن العديد من العمليات الجوهرية تجسد

---

(١٢)جوناثان ه. تيرنر، "القاعدة البنائية لتوزيع الموارد"، في دليل نظرية الموارد الاجتماعية، محرران. كجي تورنبلوم وعلي كاظمي (نيويورك: سبرينغر، ٢٠١٣م).

(١٣)عمل التبادل الكبير لبيتر إم. بلاو هو التبادل والطاقة في الحياة الاجتماعية (نيويورك: وايلي ، ١٩٦٤م). كان هذا البيان الرسمي والموسَّع حول منظور التبادل الخاص به متوقعًا في الأعمال السابقة.فمثلًا، انظر: بيتر م.بلاو "نظرية التكامل الاجتماعي"، المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٦٥ (مايو ١٩٦٠م) الصفحات ٥٤٥-٥٥٦؛ "التفاعل: التبادل الاجتماعي" في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية، المجلد ٧ (نيويورك: ماكميلان،

التبادلات في المستوى المتوسط بين الأفراد، وفي مستوى الوحدات الكبرى للتبادلات بين المنظمات، والشركات المتحدة على نطاق واسع، وقد رأى بلاو العمليات المتابعة في كل التبادلات ومنها:

١- الانجذاب (Attraction) بين الجهات الفاعلة بسبب الموارد التي يمتلكونها، فيحدث الانجذاب بين الأفراد؛ بسبب دمجهم في الثقافة العامة؛ وبالتالي تنتج موارد قيمة مماثلة على حد سواء خارجيًّا وداخليًّا.

٢- البداية للموارد المتبادلة (an exchange of resources) التي يتم تنظيمها دائمًا من خلال معايير "التبادل العادل" تمامًا مثل: التحريمات الثقافية، وعن طريق معايير التبادل العادلة للجهات الفاعلة للأفراد، أو الجهات الفاعلة للشركات عن طريق السلطة السياسية الداخلية والقوانين الرسمية.

٣- المنافسة من أجل السلطة (Competition for power) بين شركاء التبادل كاشتراكهم في عروض وسمات مواردهم من خلال إدارة الانطباع، في حين يسعى لخفض قيمة الموارد لشركاء التبادل المحتملين أو الفعليين. ويقوم الأفراد بهذا العمل من خلال عروض العلاقات الشخصية، في حين تعلن وحدات الشركات وتسوق لقيمة مواردهم وجهًا لوجه مع شركاء التبادل المحتملين.

٤- التباين بين الفاعلين (Differentiation between actors) لكسب المنافسة من أجل السلطة، بامتلاك الجهة الفاعلة لموارد أكثر قيمة للحصول على المتطلبات الآتية:

(أ) الشرف والهيبة على الأقل، ولو أن الموارد ليست على قيمة متساوية مع وجود حزب أكثر استقلالًا من حزب آخر، ويمكن بعد ذلك أن يطالب بحزب آخر.

(ب) السلطة وحق الحزب بالموارد الأكثر قيمة للإخبار بها يجب على الجهات الفاعلة الأكثر استقلالية القيام به.

١٩٦٨م)، ص ٤٥٢ - ٤٥٨؛ و بيتر م.بلاو ديناميات البيروقراطية، الإصدارين الأول والثاني، (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٥٥، ١٩٦٣م).

٥-سلالات التناقض (Contradictory strains) من أجل:

أ) تكامل عدم التكافؤ في السلطة بفضل الجهات الفاعلة المستقلة وذلك: (١) قبول إضفاء الشرعية على التباينات في القيم الخاصة بالموارد المتعلقة بجهة فاعلة أخرى. (٢) ونوايا المرؤوسين في العقوبة بشكل سلبي لمن يحتج على التبادل، وإضفاء الهيبة والسلطة للجهات الفاعلة، وأصحاب الموارد ذات القيمة الأكبر.

ب) صراع الفئات الفاعلة المستقلة ضد المرؤوسين خاصة عند: (١) اختلال التوازن في موارد التبادلات التي تنتهك المعايير للتبادل العادل، والأنماط السابقة للتبادل. (٢) مرور المرؤوسين بخبرة الإحباط والشعور بالظلم بشكل جماعي؛ لأنهم في حالة تشابه، ويمكنهم التواصل مع مظاليمهم. (٣) يمكن للمرؤوسين تطوير أيديولوجيات معبرة عن إحساسهم بالظلم الذي بدوره يثير المشاعر. (٤) يمكن للمرؤوسين التنظيم ومعارضة السلطة بشكل جماعي. (٥) يمكن للمرؤوسين تطوير الإحساس بالتضامن والإحساس بأن قضيتهم ليست فقط يمكن تبريرها، بل هي قضية نبيلة. (٦) تطور الإحساس بالمعارضة واعتبارها نهاية وضرورة أخلاقية.

وانطلاقًا من مناقشات كارل ماركس، فإن التبادلات التي تنتهك المعايير للتبادل العادل، والتي سوف توضع موضع عمليات الصراع بوصفها سلالات للمعارضة المبنية بشكل مكثف. وبالفعل، فقد أعاد بلاو بسهولة صياغة جدل ماركس (Marx) بطريقة أكثر تجردًا، ولكن تظل العمليات الأساسية هي التي أوضحها ماركس في حديثه عن العلاقات (Marx) بين طبقة العمال والطبقة الوسطى. ولجعل الجدل أكثر تجردًا كان بلاو (Blau) قادرًا على تطبيقه في المواقف الوسطى والكلية. وسواء كان توترا أو صراعا في مكتب أو في التعبئة الجماهرية لطبقة من الناس في المجتمع تكون الديناميكيات الجوهرية المتشابهة في العمل عندما يتم قبول عدم التكافؤ، ويتم إضفاء الشرعية عليه ليصبح الصراع غير متماثل؛ لأن كل الجهات الفاعلة تعتقد بأنه على الرغم من عدم التكافؤ، فإنهم يحصلون على مشاركة عادلة للموارد، معطيةً قيمة أقل للموارد المعروضة لأصحاب تلك الموارد الأكثر قيمة.

يجب أن أشير إلى نظرية التبادل التي تتم دراستها بشكل أكثر فاعلية اليوم عن نظرية بلاو (Blau's theory)، الذي تم تطويره بنشاط أكثر من عام (١٩٦٠م) بواسطة إميرسون (Emerson) [١٤] عن طريق العديد من الباحثين والمنظرين، ولقد سيطر إميرسون. (Emerson) على الفكرة الجوهرية في اختلافات السلطة بين شركاء التبادل بصيغة معادلة يسيرة، وهي:

(Pab= Dba)، أو يترجم: قوة أ*(العامل A–أ) على *(العامل B–ب) سواء كان (فرديًا أو وحدة شركة) ووظيفة العامل المستقل (B- ب) على (A– أ) ويعني القيمة للموارد.

تمامًا مثل ماركس وبلاو، فقد قام إميرسون بعمل بعض الافتراضات الإضافية المشتقة من الأصول السلوكية؛ بأن الجهات العاملة مع السلطة سوف تدفع بشكل عام مزاياهم عن طريق طلب المزيد من الجهات الفاعلة، إذا ما أراد الأخير الحصول على الموارد القيِّمة التي يمتلكونها، ولقد سمى هذه التبادلات (غير المتساوية) للموارد بشكل غير عادل "احتكارات" من جانب واحد؛ لأن جهة فاعلة واحدة مثل معامل (A– أ) تتحكم في الموارد التي تريدها الجهات الفاعلة الأخرى معامل (B1،2 ،3 ،4...n / ب١،٢،٣،٤...ر) ولكنَّ لديه فقط مكانًا واحدًا للحصول على هذه الموارد معامل (A1 - ١ب). ناقش إميرسون فكرة أن الاحتكارات من جانب واحد سوف تنشط العمليات المتوازنة التي تتضمن: (١) الجهات الفاعلة عامل (B- ب) التي تقلل من قيمة المكافاة المقدمة عن

---

(١٤) من الأفضل توضيح وجهة نظر ايميرسون في "نظرية التبادل الخاصة به الجزء الأول: أساس نفسي للتبادل الاجتماعي " ونظرية التبادل ، الجزء ١١: علاقات التبادل وبناء الشبكات "في نظريات علم الاجتماع في التطور ، طبعة. جي بيرجر ، م. زيليديتش ،و ب. أندرسون (نيويورك: هوتون ميفلين ، ١٩٧٢). ص ٣٨ – ٨٧. في وقت سابق من العمل التجريبي الذي وفر الدافع الأولي إليّ ، أو الدعم التجريبي هذا المنظور النظري يتضمن "علاقات الاعتماد على السلطة". استعراض علم الاجتماع الأمريكية ١٧ (فبراير ١٩٦٢م): ص ٣١-٤١؛ جون ف. ستولت و ريتشارد إميرسون ، "عدم المساواة البنائية: المركز والقوة في هياكل الشبكات" في نظرية السلوكية في علم الاجتماع، طبعة. ر. هامبلين (نيو برونزيك، نيوجيرسي: كتب المعاملات. ١٩٧٧م). وتشمل الأعمال المفاهيمية الأخرى الأخرى "علم النفس الفعال ونظرية التبادل" في علم السلوك السلوكي .طبعة. ر. بورجيس و د (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا ، ١٩٦٩م)، و "نظرية التبادل الاجتماعي في الاستعراض السنوي لعلم الاجتماع ، طبعة. أ. إنكيليس و ن. سميلسر ، المجلد ٢ (١٩٧٦م)، ص ٣٣٥-٣٦٢.

طريق عامل (A1–أ١)، (٢) ستزيد الجهة الفاعلة (B- ب) عدد الموارد البديلة التي يتم تقديمها فقط من خلال العامل (A1–أ١) لإيجاد (A1,2,3,4...n–أ١،٢،٣،٤...ر) وبذلك يتم التقليل من الاستقلال عند العامل (A– أ) الأصلي أو أي جهة فاعلة في العامل(A– أ) الذي يمتلك الموارد ذات القيمة. (٣)أي جهة فاعلة (B- ب) يمكنها محاولة زيادة قيمة الموارد التي تمد العامل (A– أ) ، وبالتالي تجعل العامل (A1–أ١) أكثر استقلالًا عن الفاعل (B- ب) .(٤) الجهات الفاعلة (B- ب) يمكنها أن تسعى إلى تقليل الموارد البديلة للعامل (A– أ) المقدمة من الفاعل (B1،2 ،3 ،4...n – ب١،٢،٣،٤...ر) وهذه الطريقة في عرض النقاش أقل دراماتيكية من عرض ماركس أو بلاو (Marx or Blau)، ولكنه يصل بطريقة أكثر جمالًا لنفس المعلومات عن واحدة من العمليات الجوهرية للتبادل سواء كانت بين الأفراد أو إحدى الشركات أو المجتمع ككل، أو أي عاملين يتبادلان الموارد تحت شروط عدم التكافؤ للتوتر والصراع، واستخدام السلطة عن طريق جهات فاعلة متميزة عن طريق شركاء التبادل المستقلين.

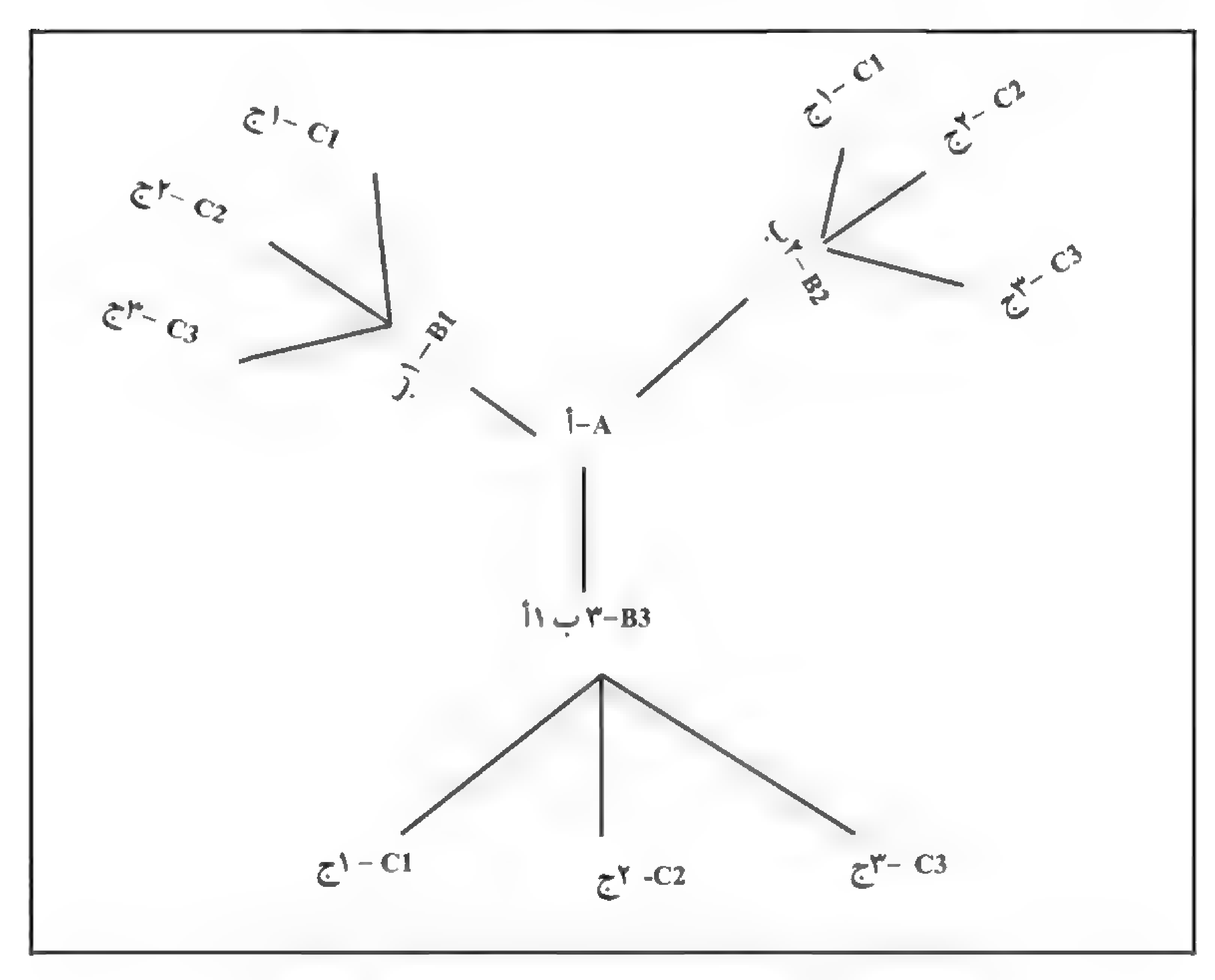
بناءات التبادل الأساسية Basic Exchange Structures

واحدة من أعظم الابتكارات لنظرية إميرسون (Emerson) أنه طوَّر تصورات أكثر دقة للبناء الاجتماعي التي بنيت حول تحليل الشبكة (انظر فصل ٩ ص١٥٠-١٦٠) ويمكن النظر إلى الفاعلين من تفاعلهم من خلال النقاط الأساسية والعقد في شبكة العلاقات. وهذا التحليل يشير إلى الأطراف التي تملك الموارد المختلفه ويشاركون فيها بأحروف مختلفة مثل: (A وB / أ و ب). ويشار إلى الأطراف الذين يمتلكون نفس الموارد للتبادل بنفس الحرف؛ ولذا فإن امتلاك الجهات الفاعلة لنفس الموارد من أجل التبادل المشار إليها بنفس الحروف المشتركة بالعدد الفعلي لهذه العوامل كما هو معمول به في (B1،B2،B3B4/ ب١، ب٢،ب٣،ب٤) الأعلى. فالخطوط التي تربط بين الحروف تدل على علاقة تبادلية بين الفاعلين ، ويحملون تكوينات وترتيبات مختلفة من الخطوط، وعن طريق هذه التكوينات يتم الكشف عن البناءات المختلفة مثل: البناء المشار إليه في (الشكل ٥.١)، وهو بناء شائع جدًّا؛ حيث تكون فيه نقطة الالتقاء المركزية في تبادل مع الجهات الثلاث العاملة الفرعية التي تمتلك الموارد المختلفة، وتمر من خلال الخط الخارجي للشبكة إلى نقطة الالتقاء المركزية. وهذه

الشبكات -كما ذكر إيميرسون (Emerson)- غير مستقرة من الداخل؛ لأن الجهات الفاعلة (B2,B3 B1,) تستمد الموارد من الجهات الفاعلة المستقلة عنها، أو من الجهات الفاعلة (C3،C2،C1..n)(ج١،ج٢،ج٣...ر) كما في(الشكل ٥.١).

وكلما ازداد هذا الاستياء من الجهة الفاعلة (B - ب) فإنها تبدأ بالاشتراك في واحدة من العمليات المتوازنة المدرجة أعلاه. فلنفترض أن الفاعل(A-أ) هو ملك النظام الاقطاعي، و(B - ب) هم أباطرة العالم و(C-ج) هم الجهات الفاعلة في الدولة الإقطاعية، والذين يقدمون إنتاجهم لمجلس اللوردات وهؤلاء بدورهم يقدمونه بشيء من السخاء للملك. إذن؛ لماذا يقومون بذلك؟ لماذا لا يحتفظون بكل هذا لأنفسهم؟ لأن ذلك للملك؛ وتقدم كموارد ذات قيمة عالية جدًّا له، والتنسيق مع مجلس اللوردات بوصفه وسيطًا للملك، وهذه الموارد ذات القيمة تقدم لجيش الملك الخاص المعدِّ لمواجهة الغزاة القادمين من إمبراطوريات أخرى. وعندما يحين وقت الخطر يدرك مجلس اللوردات أن تبادلهم مع الملك بالموارد القيمة تفيد الدولة في تنسيق وضبط الموارد لحماية المملكة الإقطاعية. ولكن عندما تكون الحياة أكثر أمنًا، أو تفهمًا يكون مجلس اللوردات هو الفاعل (B - ب)، وفي هذه الحالة في (الشبكة) يبدؤون الشعور بالاستياء متنازلين عن الفائض الاقتصادي للحماية التي كانت تُعدُّ مطلوبة في تفكيرهم. ولذلك يتبنون أي عمليات تحقق التوازن متضمنة ربط الاثنين معًا للإطاحة بالملك، وهذا هو السبب وراء عدم استقرار النظم الإقطاعية، ولكنهم لا يكونون في مأمن؛ لأن الطمع يؤدي بمجلس اللوردات للتخلص من الفرد الواحد الذي يسيطر على المنافسة، ويكون الاقتتال الداخلي ذاتي التدمير بين مجلس اللوردات ومن يساندهم لحماية النظام الإقطاعي للملكة.

وتمثل هذه الأنواع من أشكال الشبكات المرفقة مع المفاهيم البسيطة لعدم التكافؤ في التبادلات والعمليات التي تحقق التوازن. فالعديد من الأنواع المختلفة للأبنية الاجتماعية يمكن أن توصف في مصطلحات نظرية عامة، وأن أفكار التبادل لدى إميرسون (Emerson) ومعاونيه تعمل بشكل جيد بين طلابه، وتسمح لنا برؤية كيفية تكوين البناء، وكيف تبدأ في التآكل أو الضعف وفي النهاية يحدث الاختفاء، وبالإضافة إلى ذلك؛ لأن بناء الشبكة عام يمكن تطبيقه في تشكيلات اجتماعية ثقافية على نطاق صغير، أو على نطاق كبير، ويمكن تفسيرها بالأفكار الأساسية المتشابهة عن عمليات التبادل.



الشكل (١ , ٥). الشبكة بين مجموعتين من نقاط المقابلات المركزية*

عقلانية التكوينات البنائية الاجتماعية The Rationality of Social Structural Formations

تسعى جميع نظريات التبادل إلى تفسر نشأة وتغير وربما تفكك البناءات الاجتماعية وثقافاتها. وبخاصة في التقليد النظري المميز للتبادل والمحاكاة، وكان هذا المقترح عن طريق إميرسون(Emerson)، وانتشر بين العلوم الاجتماعية، وفي نظرية الاختيار العقلاني[١٥]. وهذا الاتجاه هو الأقرب للمناقشات النفعية التي تبناها آدم سميث (Adam Smith)، وعلق عليها من قبل بواسطة الاقتصاديين التقليدين الجدد، ولكنه أضاف ما لم يفحصه أبدًا معظم الاقتصادين، وهو أن تأثيرات

*(A-أ) و(B-ب) و(C-ج)

(١٥) هذا النهج له أسماء مختلفة في مجالات أخرى ، ولكن الأفكار الأساسية تأتي من النظرية الكلاسيكية الجديدة ونظرية اللعبة في (CCOIIOHIICS) والعلوم السياسية -إلى حد ما- في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

الأبنية الاجتماعية على عمليات التبادل والعكس صحيح، وإنشاء الأبنية الاجتماعية منذ نشأة التبادلات بين الجهات الفاعلة العقلانية التي غالبًا ما تعظم فائدة الجهات الفاعلة.

واحد من الرواد الأوائل لنظرية الاختيار العقلاني في العلوم النظرية كان جيمس إس كولمان (James S. Coleman)[١٦] ودعْني ألخص أفكاره من مؤلفه في النظرية الأخيرة التي طورها خلال ثلاثين عامًا، بوصفها نظرية عقلانية، حيث ناقش فيها كولمان (Coleman) الجهات الفاعلة التي توسع الفائدة لتحويل بعض من الحقوق إلى الجهات الفاعلة الخارجية مثل الدولة أو نظام قانوني لاتخاذ القرار. وكان سؤاله يدور حول: لماذا لا تسعى الجهات الفاعلة لزيادة خدماتهم وتقليل تكلفتهم واستثماراتهم التي تُعطى زيادة على بعض حقوقهم؟ وإعطاء السلطة للسلطات الخارجية التي سوف تنظم إلى حد يمكنهم من فعله؟ وكانت إجابته: هي الجهات الفاعلة بممارسة الخبرات للعوامل الخارجية السلبية، أو التكاليف المرتفعة والعقوبات في الأنشطة. فالمنظمة هي التي تبادلهم وتكون وراء تحكمهم. فعلى سبيل المثال: لو كان هناك احتيال على نطاق واسع وبشكل إجرامي وغش، وكانت هناك عمليات انفصامية أخرى في الأسواق أو في العلاقات المبنية سوف تصبح التكاليف مرتفعة جدًّا، والمكافأة غير أكيدة مع انخفاض الأرباح بشكل ملحوظ. وخلال هذه الظروف تحتاج الجهات الفاعلة العقلانية إلى تطوير وفرض أنواع جديدة من المعايير التنظيمية التي يتم رصدها للمطابقة، وأيضًا فرض العقوبات التي تسبب انتهاك تلك المعايير، وليس بمقدور أي فرد القيام بهذا. ولذلك يجب على الجهات الفاعلة أن توافق على إعفاء الحقوق من أجل التحرك للجهات الفاعلة الخارجية التي سوف تفرض المعايير والعقوبات. وخلال القيام بذلك ستقل العوامل الخارجية السلبية وتهبط تكاليف وعقوبات الجهات الفاعلة التي هي على علاقة بالمزيد من المكافآت .

إن هذه الديناميكيات تفسر كيفية تطور تاريخ الأنظمة السياسية والقانونية في المجتمع، ومن دونها سوف تصبح المجتمعات أرضية للعلاقات الخارجية السلبية التي تفرض تكاليف مرتفعة، وتعمل طريقة للمكافأة من التبادلات المنتظمة الصعبة لتأمين أسس منتظمة. وعلى سبيل المثال: لو

---

(١٦) للحصول على أمثلة: انظر جيمس س. كولمان ، الاهتمامات الفردية والعمل الجماعي: مقالات مختارة (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج ، ١٩٨٦م). أهم أعماله كانت أسس النظرية الاجتماعية (كامبريدج ، ماسانشوستس: بلكناب ، ١٩٩٠م).(Cambridge. MA: Belknap, 1990)

أن هناك لصوصًا في الغابة لنظام إقطاعي مثل "روبن هود"، ولكنه من الممكن ألا يكون قويًا، فهؤلاء الضعفاء سوف يتعرضون لقطاع الطرق عندما يتحركون نتيجة لضعفهم، وبالتالي سوف تتحمل تكاليف مرتفعة في محاولة لحماية هذا الضعف؛ لأنه أسهل وأرخص من القيام بدفع المزيد من الضرائب للتخلي عن هذه السلطة من أجل القبض على اللصوص ومحاكمتهم من خلال سلطة العلاقات الخارجية مثل: العمدةبالمنطقة، والممثلين السياسيين الآخرين الذين يسنون القوانين ويحمونها بالقوة.

وهكذا تنشأ الأبنية الاجتماعية وتبنى عندما تمر الجهات الفاعلة بالعلاقات الخارجية السلبية في أنشطة تبادلية مستمرة. بالإضافة لذلك تصبح في الغالب عقلانية؛ بأن تعطى بعض الموارد للجهات الفاعلة الخارجية لزيادة قيمة المكافأة في بيئة أكثر أمنًا، وتجبر عادة الجهات الفاعلة سواء كانوا أفرادًا أو وحدات للشركات للتخلي عن التحكم والسيطرة، ويقومون بذلك عندما يكون الأمر عقلانيًا. وإنه لمن العقلانية زيادة الأبنية الشاملة عندما تزداد العلاقات الخارجية والأرباح من التبادلات، وقد تسقط الجهات الفاعلة المسيطرة نتيجة لذلك.

عمليات التبادل والتضامن الاجتماعي والالتزامات السلوكية
Exchange Processes, Social Solidarity, and Commitments

وهناك تركيز رئيس آخر على نظريات التبادل، يكمن في التركيز على تفسير عمليات التضامن بين الجهات الفاعلة في الشبكات، أو أي نوع من الأبنية الاجتماعية؛ حيث تستمر فيه التبادلات من حيث كيف يمكن للأفراد أن يلتزم كل منهم تجاه الآخر لاستمرار التبادل؟ وأيضًا مدى التزامهم للأبنية الاجتماعية الكبرى بأكملها التي تحدث فيها تلك التبادلات؟ وكيف يمكن أن يتم تفسير هذه العمليات لو أن الجهات الفاعلة انانية بالفعل؛ وموجهه إلى استلام المكافأة بأقل التكاليف ؟ فالتضامن يتطلب عملًا وتكاليف أخرى، في حين يحتاج التضامن إلى خفض الأرباح الكبيرة من أجل تحقيق التضامن. بالمثل فإن الالتزامات للبناء الاجتماعي تعمل على ربط الفرد بالأبنية الاجتماعية البعيدة –إلى درجة ما– بإعطاء موارد البناء هذه مثل الالتزامات لتحمل التكاليف في أثناء الحرب، أو أثناء المشاعر العاطفية في معظم التاريخ الإنساني التي تعطى من خلال القرابة أو أفراد الجماعات الصغيرة.

إما جماعات على مستوى الوحدات الصغرى في التنظيم الاجتماعي تكون أكثر قابلية للتطبيق من خلال التضامن، وكذلك المنظمات التي تعمل على تنظيم هذه الجماعات؛ حيث لا يمكن بناء المجتمعات إلا عندما يتخلى الناس عن بعض الموارد الخارجية، مثل: النقود التي تدفع في الضرائب إلخ. مع أهمية وجود الموارد الداخلية مثل: الالتزامات، وإضفاء الشرعية على الأبنية الاجتماعية الكبرى كالدولة والمجتمع ككل. أو بعض مؤسساته مثل: الدينية والقانونية. إذن؛ ما السبب الذي تسعى له الجهات الفاعلة لتحقيق أقصى حد من الأرباح ؟ في الواقع أن كل من اتجاه إميرسون لشبكة التبادل، ونظرية الاختيار العقلاني يمكنهما تفسير هذه الديناميكيات النقدية بطرق مختلفة إلى حد ما.

نظريات الاختيار العقلاني للتضامن Rational Choice Theories of Solidarity

لقد طوّر هيشتر[١٧] (Hechter) واحدة من أكثر النظريات المؤثرة في كيفية أن الأنانية والجهات الفاعلة العقلانية يمكنهما كسب مستويات عالية من المكافأة في الجماعات ذات التضامن المرتفع. واهتم كِلا المنظَرين هيتشر ولكمان بالانتقاء الطبيعي. وافترض هيشتر (Hechter) بأن البشر موجهين نحو الهدف، حيث يوجد لديهم تسلسلات هرمية للتفضيلات، وهذا يعتمد على اختيار مسار السلوك المناسب لتحقيق أهدافهم بناءً على التسلسلات الهرمية لتفضيلاتهم، وعليهم السعي وراء الأعمال التي تنتج لهم أكثر مكافأة وبأقل تكلفة، وبالتالي سيسهم ذلك في توسيع الخدمات؛ لأن الأبنية الاجتماعية يتم تطويرها نتيجة لقرار توسيع الخدمات للأفراد. وهذا الافتراض الغالب في التوسيع الأقصى للخدمات يعطي الاختيار العقلاني لنظرية التبادل.

لقد بدأ هيشتر (Hechter) تحليله للتضامن بالتشديد على أنه يجب على الأفراد أن يسعوا دوما إلى الموارد التي تحقق لهم الخدمات في مجتمعاتهم. وكان هناك الكثير من التساؤلات حول كيف يمكن إعادة المشاركة من خلال التضامن بين الجماعات؟ ويمكن تصور الخدمات بوصفها سلعًا من منظور النظرية؛ حيث يسعى الأفراد لتحقيقها من خلال مشاركة الرفاق فيها أو التفاعل مع

(١٧) مايكل ل. هتشتر، مبادئ التضامن الجماعي (بيركلي:مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٨٧م)؛ "أسس الاختيار الرشيد للنظام الاجتماعي".

الآخرين. ويحدث هذا أيضًا بين الجماعات التي تسعى لتزويد أفرادها بالسلع. ويمكن أن تزود الجماعات أفرادها بإنتاج السلع المشتركة حيث تعمل الجماعة على توفير الخدمات المترابطة والآلية لأنشطتها وتنسقها لاستهلاكها خارج الجماعة المنتجين لها (بمعنى تصدرها لاستهلاك جماعة أخرى خارج الجماعة المنتجة للاستفادة منها). فعلى سبيل المثال: لو أنشأت جماعة طريقًا سريعًا لخدمة عامة فإن هذه السلعة المشتركة يمكن أن يستخدمها ويستفيد منها أعضاء خارج الجماعة. وفي المقابل، هناك سلع خاصه يتم إنتاجها لتستهلك عن طريق أفراد الجماعة، ويمكن لهذه الجماعة أن تحقق الشعور بالتضامن؛ حيث يكون لديهم تسلسل هرمي للتفضيلات يحقق لهم مكافأة أكثر بأقل التكاليف؛ لأن السلع المعدة للاستهلاك عن طريق أفراد الجماعة تقدم المكافأة التي تحقق أهدافه؛ نتيجة التضامن المتبادل بين أفراد الجماعة.

إن المشكلة الجوهرية من منظور الاصطفاء العقلاني لتضامن الجماعات تتمثل في مشكلة حصول الأفراد على السلع التي لا يعملون في إنتاجها، فعلى سبيل المثال إن الأفراد الذين يستعملون السلع المشتركة، ولكن لا يدفعون لها ضرائب كالطرق السريعة الذي يستخدمها الجميع وما يتبعها من رسوم لهؤلاء الذين قدموا إنتاج هذه الخدمة المشتركة ، أو الأفراد الذين لم يشاركوا أو يعملوا في العمل المشترك شعورا بالتضامن، ولكنهم يتمتعون بالفوائد المشتركة لهذا التضامن، ويعد هذا من باب الصعود المجاني؛ لأن المشتركين يستخدمه دون مقابل. وسبب مشكلة الصعود المجاني هو عندما يصعد كل شخص بالمجان، وبالتالي سيؤدي إلى قلة إنتاج السلع ومن ثم ينخفض استمرار تطور الأبنية الاجتماعية. لأن المخرجات الخاصة بالسلع تستهلك بواسطة الصعود المجاني، وعندما لا يدفع المكافأة مقابل السلعة أو الإسهام في أنشطة الجماعات، فسوف تفشل الجماعات، وبالمثل سوف تفشل الأبنية الاجتماعية المكونة لهذه الجماعات. ولذا يجب على الجماعات تجنب الصعود المجاني الذي سيوثر في النهاية على تراجع البناءات الاجتماعية وديموميتها.

وهناك سؤال عن: كيف تكوّن الجماعات نفسها لتجنب الانتفاع المجاني ؟ أو كيف يتم تخفيفه؟ إلا أن هذه مسألة النظام الاجتماعي في اخر المطاف، وجميع الأبنية الاجتماعية الأخرى تتكون من جماعات وتنظيمات ومجتمعات في كل المجتمعات. وبالتالي اذا كانت مخرجات السلع تستهلك

بواسطة الانتفاع المجاني ، دون دفع ثمن لهذا الاستهلاك عن طريق الرسوم او المشاركة في جماعات الأنشطة الجماعية ؛ فسوف تفشل، وكذلك الأبنية التي بنيت من هذه المجموعات الفاشلة.

الفصل ٥ :التنظير التبادلي

في الملخص أعلاه هناك فرق بين السلع الخارجية والسلع الداخلية التي يتم استهلاكها من قبل الآخرين، وكما هو الحال بالنسبة لأي منتج يتم إنتاجه من خلال الإجراءات المشتركة للجماعة التي تعمل في شركة لبيع منتجاتها من سيارات، وأجهزة التلفاز، والملابس ... إلخ في الأسواق. والسلع الجوهرية هي تلك التي تصنع للاستهلاك الداخلي من قبل الأشخاص الذين ينتجون السلعة. وبالتالي فإن معظم السلع الجوهرية التي تقدم كمكافآت تدور حول العواطف ، والصداقة ، والرفقة ، والتضامن الاجتماعي على الرغم من أنها ليست سلعة ضخمة إلا أنها يمكن أن تكون ذات قيمة عالية لأولئك الذين ينتجونها ويتقبلونها، ومن المنطقي أن يتجنب الممثلون تكاليف إنتاج السلعة الجوهرية، والتمتع بمكافآت تجربة التضامن الجوهري. ولكن إذا اعتمد الجميع على الانتفاع المجاني في الإنتاج التضامني ، فلن يكون هناك فائدة مهمة لاستهلاك تلك السلع الجوهرية. ولذا ، كما هو موضح أعلاه، يمكن ان يؤدي الاعتماد المكثف على الانتفاع المجاني الى مشكلة في إنتاج السلع الصعبة والبسيطة على السواء؛ لأنه سيدمر الجماعة ومدى توافر السلع التي تنتجها.

ولكن كيف نقلل من الانتفاع المجاني؟ لقد أوجز هيشتر (Hechter) الإجابة عن ذلك من خلال أساسيات الضبط الاجتماعي؛ حيث يرى أن كل الجماعات عليها الحد من الانتفاع المجاني، إلا أن عمليات الضبط الاجتماعي لديها قدرة التحكم بالجماعات، ويتم تحقيق هذا الضبط من خلال: (١) استقلال الأفراد عن الجماعات من أجل الموارد القيمة التي لا يتم الحصول عليها بسهولة في أي مكان آخر أو حتى بتكاليف أعلى. (٢) مراقبة مجهود الأفراد في إنتاج السلعة المشتركة والخاصة. (٣) المعاقبة بطريقة سلبية هؤلاء الذين لا يسهمون بمشاركتهم العادلة في إنتاج السلع، في حين يتم منح عقوبات إيجابية لهؤلاء المُسْهِمين. وهناك نوعان رئيسان من الجماعات؛ فالنوع الأول: أسماها هيشتر الجماعات الإلزامية؛ حيث يقوم الأفراد بإنتاج السلع المشتركة وعادة السلع الداخلية لاستهلاكهم الخاص. والنوع الثاني:

-وهو الأساس- وهو الجماعات التعويضية التي يتم من خلالها تعويض الأفراد بالدفع من أجل إسهامهم في السلع المشتركة، والتي يتم استهلاكها عن طريق الآخرين، فمعظم الجماعات المنتجة للبضائع المشتركة تكون تعويضية، في حين أن الذين ينتجون السلع الخاصة تكون إلزامية.

ويحدد نوع الجماعات طبيعة الضبط الاجتماعي، ففي الجماعات التعويضية يكون الناس مشتركين بالتعويض النقدي؛ وذلك من أجل المشاركة في الأنشطة الضرورية لإنتاج سلع للاستهلاك عن طريق الآخرين، وما تزال عقلانية الفرد الذي يعظم الموارد من أجل الحصول على المال ولا يعمل بجهد، ولهذا فمعظم الجماعات التعويضية يجب أن يكون لها مستويات مرتفعة من الإشراف، وذلك للتأكد على أهمية أفرادها الذين يعملوا بجهد وبدرجة كافية، كما يكون هناك استعداد لفرض عقوبات على الذين لا يعملون. فإذا كان الاستغلال مرتفعًا للفاعلين في الجماعة عن قيمة الموارد فلا بد من حفزهم، مثل: الأفراد الذين يحتاجون إلى المال من أجل التعويض، فإنه يتم حفزهم للعمل بجدية كي يبذلوا جهدًا لإنتاج الموارد القيمة. وما زال البعض يعمل بأقل من جهده لكسب المال، وهناك من يعمل بجهد أكثر من كسبه للمال. ولذا فإن بعض الإجراءات الرقابية أو العقابية لا بدَّ أن تكون فيما يناسب إجراء العمل. وأحيانًا تكون الرقابة الأكثر فاعلية عندما تحدث بين الموظفين أنفسهم بشكل غير رسمي، وبخاصة عندما يراقب ويعاقب الموظفون بعضهم بعضًا من أجل الصعود المجاني عن وضع جماعة أخرى مكلفة من مسؤولي الرقابة للمراقبة والعقاب.

إن الجماعات الإلزامية غالبًا ما تشترك في رقابة غير الرسميين وعقابهم، وبالإضافة لذلك فإن الأفراد عادةً ما يستقلون عن الجماعة من أجل مصادر القيمة كمشاعر إيجابية، وإحساس بالتضامن من قبل المنتج والمستهلك معًا من خلال أفراد الجماعة. وهكذا فإن تكاليف الضبط الاجتماعي في الجماعات الإلزامية يكون أقل. ولكن إذا ازدادت الجماعات، فسوف تصبح الرقابة غير الرسمية أقل فاعلية، مؤديًا بذلك إلى إجراءات عقابية، ورقابية بشكل رسمي، فالعديد من الظروف تزيد من التضامن في الجماعات الإلزامية؛ وذلك بسبب ما يأتي: أولًا: يجد الأفراد السلع الداخلية مهمة جدًّا، وعندما تنتج كل جماعة نوعًا خاصًّا من السلع الداخلية، فلن يكون لهذا المورد قيمة في جماعة ما، وعادة يكون ذلك النوع متوافرًا لدى جماعات أخرى. وبالإضافة لذلك يقوم الأفراد بعمل استثمارات لأوقاتهم، وطاقاتهم وعواطفهم التي لا يمكن استردادها إذا ما غادر الفرد هذه

الجماعة، ولا يوجد برامج لتحول التكاليف الثابتة، والاستثمار في الجماعات الإلزامية. وعندما يترك الفرد الجماعة، ويسعى إلى الالتحاق بجماعة أخرى، فإن هذا يزيد من استقلاله عن الجماعة التي تفرض سلطتها عليه وعلى الأفراد الذين يشعرون بأهمية الإحساس بالمسؤولية أكثر من الإلزام؛ للمساهمة في إنتاج المكافأة الخاصة بهم والداخلية. ثانيًا: إذا لم يتم توفير الموارد الخاصة بالأفراد في مجتمع ما؛ فإن ذلك سيزيد من استقلال الأفراد عن الإنتاج، ومن المحتمل خروج الأفراد على الجماعة، وهذا مكلف جدًّا على الجماعة. ثالثًا: إذا استطاع الأفراد مراقبة كل منهم الآخر ومعاقبته في المسار الطبيعي لأنشطتهم المشتركة؛ فإن تأثير التضام الضعيف على الإشراف الخارجي يتم تجنبها بوصفها تكاليف إضافية لهذا الإشراف. رابعًا: عندما تصبح البيئة هدف الجماعات المفتوحة، فستصبح الرقابة والعقاب غير الرسمي جزءًا من العملية الأساسية في إنتاج السلع المشتركة داخليًّا، مثال:

التضامن الاجتماعي. خامسا: لو استطاعت الجماعات تطوير الالتزامات المعيارية الخارجية للإنتاج المشترك، أو أن هذه الالتزامات يمكن أن تحققها؛ فإنهم سيعملون للتأكيد ليس فقط على إنتاج السلع المشتركة، ولكن أيضًا للعمل كوسيلة فاعلة جدًّا للضبط الاجتماعي؛ لأن انتهاك المعايير الأخلاقية بمثابة الشعور بالذنب. كما أن زيادة حجم الجماعة يؤدي إلى تعويض مجهود تضامن الجماعة، حيث إن التعويض للمجهودات المشتركة سيؤدي إلى أنها تستطيع الإنتاج لاستهلاك الجماعات الخارجية عن طريق أفراد خارج الجماعة.

لهذا السبب تظهر جماعات تعويضية عادةً بمستويات أقل من التضامن؛ لأن كل الظروف المنتجة للتضامن المدرجة أعلاه أكثر صعوبة، ولو تم وضعها في الإنتاج بوجه خاص لأصبحت الجماعات أكبر، وعندما تصبح المنظمة أكبر من إنتاج الجماعة. ولكن عندما يوجد هناك جماعات تعويضية يمكنها تلبية العديد من الشروط الخاصة بالتضامن. وعندما تشكل الجماعات الفاعلة بيئات جماعية، ويحصل الأفراد منها على المكافأة أكثر من كونهم شركاء، أو خياراتهم كمُسْهِمين، فهم يحصلون أيضًا على المكافأة مثل شركات (دوت كوم مثل: جوجل وفيس بوك) التي تقدم الأنشطة المشتركة بين الجماعات في حد ذاتها من أعلى، وتصبح تعويضاتهم الخارجية هذه نوعًا من التضامن كسلعة خاصة منتجة مشتركة داخليًّا، والتي تكافئ بشكل مرتفع. وتستطيع أن تنتج من خلال

الأفراد في التفاعل اليومي المثير للعواطف، فأعضاء الجماعة يصبحون مستقلين عن السلعة الخاصة الإضافية، وسيعملون بجد من دون مراقبة من أجل توفير السلعة الخاصة، وبهذا يتم تقليل تكلفة المراقبة والمعاقبة. وأنها ليست بمحض الصدفة أن تنوي هذه المنظمات ذات الجماعات العاملة أن تكون مفتوحة بيئيًا، والتأكيد على عدم المساواة في السلطة، والنتيجة هي أنهم يستطيعوا تلبية الشروط التي تزيد من التضامن في الجماعات الأكاديمية، وهي من مكان آخر تستطيع جذب معظم الأساتذة الجامعيين للعمل من خلالها؛ لأن المكافأة الداخلية في عملهم تكون في جامعات البحث على وجه الخصوص، ولكن يكون أكثر في جامعات المنح التدريسية، وبالمثل النتيجة هي التضامن النسبي المرتفع بالمقارنة بمنظمة خاصة، مثل: مصنع سيارات؛ حيث لا تتم المكافأة الداخلية في العمل، وحيث يكون التعويض والمراقبة تمامًا مثل المعاقبة عن طريق موظفي الإشراف التي تكون نقدية لأداء الفاعلين.

وهكذا يبنى المجتمع على مزيج من الجماعات الإلزامية والتعويضية تمامًا، مثل التي لديها عناصر من كِلا الجماعتين، والصعود المجاني يكون مشكلة، ولكنّه أقل في الجماعات الإلزامية، حيث يكون الاستقلال مرتفعًا من أجل تسلُّم السلع الخاصة والمشتركة، وحيث تكون المراقبة والعقاب جزءًا من الأنشطة المشتركة التي تنتج السلعة الخاصة التي تكافئ بها كل أفرادها. وهكذا فإن القدرة على الضبط في الجماعات الإلزامية يحفظ الجهات الفاعلة العقلانية من الصعود المجاني للتأثير على أعضاء الجماعات التابعة لتحمل تكاليف النشاط المشترك الذي ينتج السلعة الخاصة. وفي المقابل فإن قدرة الضبط في الجماعات التعويضية يكون أقل، ونتيجة لذلك فإن الإنتاج للسلعة الخاصة يكون أقل إمتاعًا جاعلًا من الصعود المجاني مشكلة أكثر إلحاحًا للجماعات وللمنظمات التي تعمل فيها الجماعات، ولو أن الصعود المجاني مرتفع في الجماعات الإلزامية والتعويضية، فإن الجهات الفاعلة العقلانية سوف تحتاج إلى زيادة قدرة ضبط الجماعات خلال المراقبة والمعاقبة الأكثر فاعلية، وبهذا يُعدُّ الإقلال من الصعود أمرًا عقلانيًا أن تقوم بتقليل الصعود المجاني. وكما هو في مصطلح كوليمان (Coleman) عن الصعود المجاني الذي أسماه "العوامل الخارجية السلبية" التي تجبر المجموعة على إنشاء قدرة لضبطها.

تحليل الشبكة التبادلية للالتزامات تجاه شركاء التبادل

Exchange-Network Analyses of Commitments to Exchange Partners

تُعدُّ عملية توليد الالتزامات عملية لا عقلانية في هذا المعنى الآتي: وبهذا المعنى تحد الالتزامات من مجهودات الجهات الفاعلة العقلانية لاكتشاف الموارد البديلة للمكافأة؛ لأنها تكون ملزمة بشرط التبادل، لماذا يجب على الالتزامات أن تكون منتشرة بين الجهات الفاعلة التي تُدْفَعْ سلوكها الجوهرية من خلال تقدير المكافأة، والتكاليف البديلة والاستثمارات؟ توضح الإجابة على السؤال السابق مدى قوة نظريات التبادل في تفسير العلاقات طويلة المدى والالتزامات تجاه الأبنية الكبرى الاجتماعية المتولدة.(١٨)

وإن العمل المبكر حول الالتزامات في الإعدادات التجريبية يؤكد على أن الالتزامات يمكن أن تكون عقلانية؛ لأنها تقلل من تكلفة مهمة في كل علاقات التبادل. وعندما يطور شركاء التبادل الالتزامات من أجل تكوين العلاقات، فتقلل التكاليف المفروضة عن طريق شيء مجهول مقترنًا بإيجاد شركاء بديلين، وبالتالي فإن زيادة المكافأة الصافية عندما تُؤخذ التكاليف الأقل في عين الاعتبار بعلاقات مع الآخرين الذين يمدون أقل من المكافأة الشمولية. وهناك مسار آخر من النقاش هو أن الالتزامات مثل التكافل هي مصدر داخلي وذي قيمة، والذي ينشأ عندما يتحمل الأفراد علاقة التبادل، ولذلك حتى لو حصل الفرد على القليل من المكافأة الداخلية، مثل النقود مع

---

(١٨) إدوارد ج و جيوريجكو يون ، "الالتزام بعلاقات التبادل: اختبار لنظرية التماسك المترابط " استعراض علم الاجتماع الأمريكي ٦١ (١٩٩٦م): ص ٨٩-١٠٨؛ إدوارد لولر ،جينجكو يون ، موراين ر. بيكر ،ومايكل د. جراند، "الاعتماد المتبادل وإعطاء الهدايا في علاقات التبادل" التطور في عمليات المجموعة ١٢ (١٩٩٥م): ص. ٢٧١-٢٩٨؛ إدوارد ج و جينجكو يون ، "السلطة وطوارئ سلوك الالتزام في التبادل التفاوضي" استعراض علم الاجتماع الأمريكي ٥٨ (١٩٩٣م): ص ٤٨-٤٦٥ ، للعمل في وقت سابق على ديناميات الالتزام داخل التنظير بالاعتماد على الطاقة انظر كارين إس .كوك و ريتشارد إميرسون، "القوة والإنصاف والالتزام في شبكات التبادل" استعراض علم الاجتماع الأمريكية ٤٣ (١٩٧٨م): ص ٧٢١-٧٣٩؛ كارين إس. كوك و ريتشارد إميرسون، "شبكات التبادل وتحليل المنظمات المعقدة" بحث في علم اجتماع المنظمات ٣ (١٩٨٤م): ص ١-٣٠ ؛ بيتر كولوك ، "ظهور هياكل الصرف: دراسة تجريبية عن عدم اليقين. الالتزام والثقة"، المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ١٠٠ (١٩٩٤م): ص٣١٥-٣٤٥.

الالتزامات لشركاء التبادل، فهناك معزز آخر أو مكافأة في العمل كالمشاعر الإيجابية، والتضامن مع هؤلاء الذين يطورون التزاماتهم.

تحليل شبكة التبادل للالتزامات تجاه الأبنية الاجتماعية

Exchange-Network Analysis of Commitments to Social Structures

برهن إدوارد لولير (Edward Lawler) وزملاؤه بأنه عندما تتضمن التبادلات الجهات الفاعلة الذين هم متساوون إلى حد كبير في تحكمهم في الموارد ذات القيمة، والذين هم متساوون في اعتماد بعضهم على بعض للمكافأة والموارد دون أن تتمتع جهة فاعلة بميزة السلطة، فإن الجهات الفاعلة تشترك في التبادلات المتكررة التي تنتج المشاعر الإيجابية المعتدلة والاهتمامات، والإثارة، والمتعة، والرضا الذي يؤدي بدوره إلى سلوكيات الالتزام، مثل: إعطاء الهدية الرمزية، ويظل له تأثير في العلاقة على الرغم من وجود بديل جذاب آخر. وقد تكون الموارد المشاركة التي تشترك في الأنشطة محفوفة بالمخاطر.[١٩] وما هو ملحوظ خلال هذه النتائج أن الجهات الفاعلة لا يرى بعضها بعضًا أبدًا ؛ لأنهم في الحقيقة يتفاعلون من خلال نظام الحلول اللوغارثمي للحاسب الآلي أكثر من كونهم أشخاصًا يتفاعلون وجهًا لوجه. ومع ذلك فإنهم يطورن مشاعر إيجابية وسلوكيات الالتزام؛ لأن هذه المشاعر ذات قيمة، وهذا التفاعل يُعدُّ مجزءًا عن هتشير، وهكذا تأتي الموارد الإضافية إلى حيز التنفيذ في أثناء تبادل: كالعواطف الإيجابية، وسلوكيات الالتزام، وأن هذه المكافأة الداخلية هي المكافأة هي مجزية للغاية تمت من تبادل للسلع الداخلية. و(الشكل٥.٢) يوضح النتائج التجريبية.

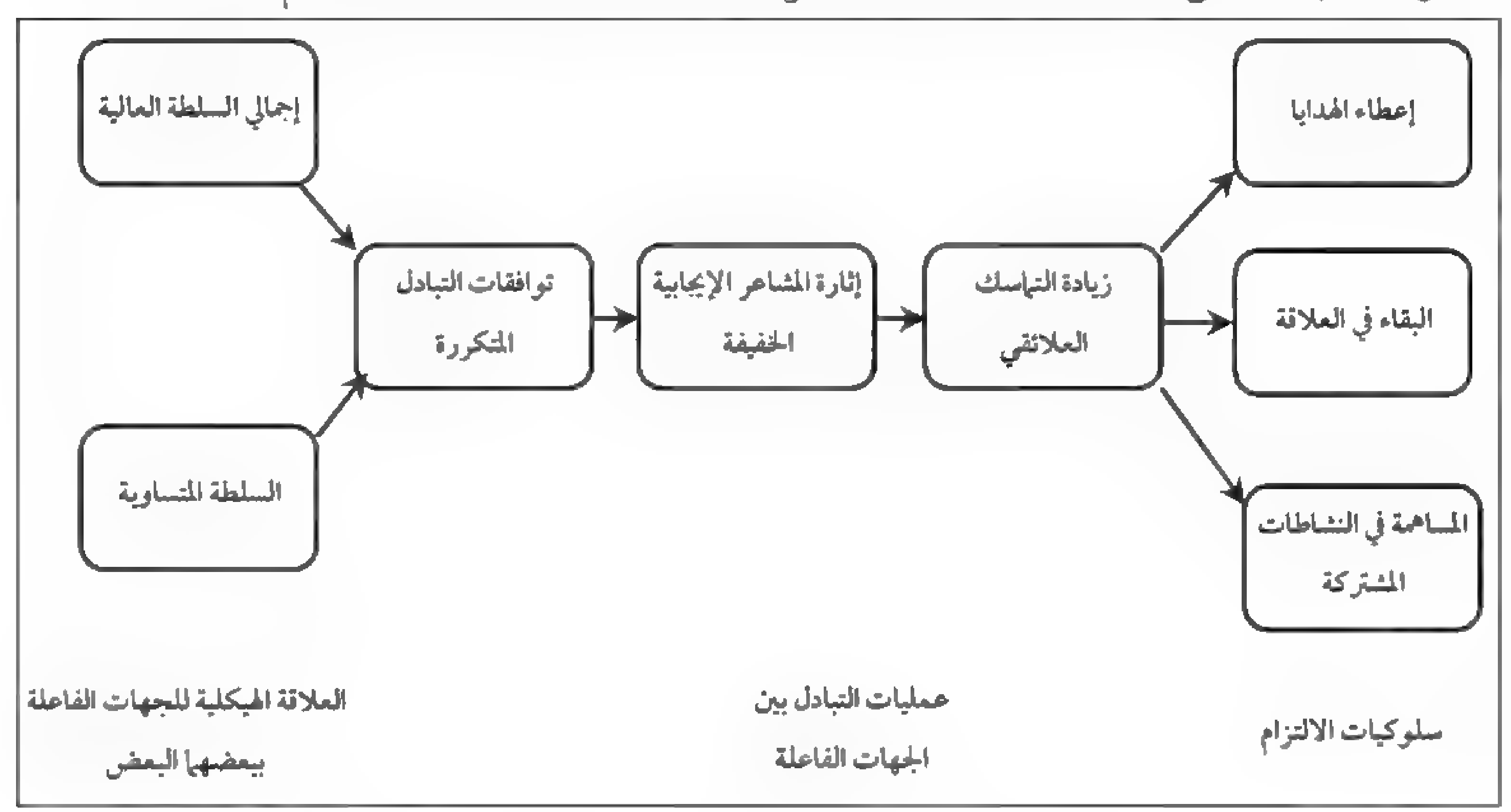
وهكذا، فإن الأفراد المتساوين في الموارد والمعتمد -بشكل متساوٍ- بعضهم على بعض سوف يشتركون في المزيد من التبادلات المشتركة، وبهذا التكرار تزيد المشاعر الإيجابية التي تؤدي بهم للاشتراك في سلوكيات الالتزام مرة أخرى. كما أن الموارد الإضافية ذات القيمة المرتفعة حتى المعطاة للأفراد من خلال الكمبيوتر تنشئ السلوكيات الأساسية التي تربط الجماعات معًا.

---

(١٩)إدوارد ج. لولير. شين ر. و جينكجو يون، الالتزام الاجتماعي في عالم غير أخلاقي (نيويورك: مؤسسة راسل سايد، ٢٠٠٩م).

ولر "نظرية التأثير على التبادل الاجتماعي (مذكور في الإيضاح ٩) (New York: Russell Sage Foundation, 2009).

بدأ لولير (Lawler) بعد ذلك في تساؤل مفاده: كيف تستطيع الالتزامات الأكثر عمومية أن تصنع الأبنية الاجتماعية على نطاق واسع؟![٢٠]، وهو يرى أن المشاعر الإيجابية يكون لها تحيزات من الأقارب، فالأفراد سوف يشعرون أن الآخرين مسؤولون عن نشأة هذه المشاعر، كما أن المشاعر السلبية المنفرة بين الأفراد عندما تصدر من الآخرين فسوف تأخذ بعدًا تحيُّزيًّا، وهذا ينعكس على بناء الجماعة. إذن كيف تطورت الالتزامات للأبنية الاجتماعية الكبرى على نطاق واسع كالدولة، والمجتمع مع التحيزات العاطفية والمعرفية في معظم العلاقات الاجتماعية؟ وكيف تستطيع التحيزات القريبة المحاصرة بالمشاعر الإيجابية أن تُكْسَر وتبعد المشاعر نحو الخارج؟ وكيفية التغلب على سلبية التحيز المنفر؟ وبالإجابة عن هذه الأسئلة علينا أن نفسر كيف أن المجتمعات تتساند لتدعم نفسها.



الشكل (٢، ٥) السلطة المتساوية، التبادل، التكرار، وسلوكيات الالتزام.

إن لأنواع التبادل التي تم ذكرها تأثيرًا على الفرد سواء استطاع الأفراد بناء صفات نافرة أم مشاعر إيجابية، وبالتالي كسر التحيز، ففي التبادلات الإيجابية[٢١] يكون من الصعب فصل الإسهامات ذات الصلة لتحقيق أهداف الجماعة؛ لأن الأنشطة على صلة مبرمجة بالمنظمة. وكما هو مقترح لهدف

(٢٠) لولر، ثاي، ويون، التزام اجتماعي (ورد ذكره في الإيضاح ١٩).

(٢١) Lawler, Thye, and Yoon, Social Commitment (cited in note 19).

الفرد بأن عدم الانفصال في الإسهامات يسبب مرور الفرد بمشاعر إيجابية، وسلبية قوية معتمدة على الإجراءات المنسقة الناجحة لتحقيق الأهداف. فلدى الناس في التبادلات الإنتاجية إحساس بالمسؤولية المشتركة، وسوف يمرون بمشاعر إيجابية وسلبية بطريقة جماعية أكثر من الفرد. إنها الجماعة بدلًا من الأفراد الذين يكونون ناجحين أو فاشلين. وعندما تكون الأفعال المشتركة في الجماعة ناجحة تصبح المشاعر الإيجابية المشتركة، كما أسماها هيشتر، "سلعة خاصة"، ذات قيمة عالية عندما يتم استهلاكها بواسطة أعضاء الجماعة. وعندما تكون التبادلات الإنتاجية غير ناجحة في تلبية الأهداف تشعر الجماعة، بدلًا من أي فرد واحد بالمشاعر السلبية التي تأتي مع الفشل، ولكن هذه المشاعر تطمح إلى حفز الجماعة من أجل محاولة أكثر جدية، وهكذا يتم خلق شعور مكافئ مرتفع للأهداف الجماعية والتضامن حتى مع الفشل.

فمن هذه الديناميكيات تأتي الإسهامات حول أسباب النجاح والفشل، وكلما زاد عدم فصل التبادلات الإنتاجية كل فرد زاد توليد الإحساس بالمسؤولية المشتركة، وأنتجوا شعورًا من الفاعلية بين الأفراد في أنشطتهم الإنتاجية، وأيضًا كلما زادت على الأرجح الإسهامات التي تصنع تجاه الجماعات. كما أن الإسهامات للمشاعر الإيجابية سوف تبدأ في كسر عقدة من التحيز للقريب، وعندما تتجه إلى مستوى الجماعة يمكنهم الانتقال إلى أبنية اجتماعية أكثر شمولًا من أي وقت مضى. إذن؛ لماذا تستمر حركة الإسهامات في الاتجاه نحو الخارج لبناءات أكبر؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن في حقيقة الأمر في أن الجماعات تكون منضمة عادةً في المنظمات التي تضمن للمجتمعات دورها في استقرار المؤسسات. وعلى سبيل المثال فإن الاقتصاد، والحكومة والتعليم إلخ. تمثل كلها جزءًا من مجتمع أكبر، وتصنع هذه الطبقات أبنية أصغر ضمن أخرى أكبر، وتصنع قنوات لنشأة المشاعر الإيجابية في المجموعة لتنتقل للخارج واستهداف البناء الأكبر. وبهذا يخلق التحرك صفات خارجية إلى بناءات مستوى الوحدات الكبرى المحتملة مثل المجتمع كله الذي يُرى كمسؤول عن المشاعر الإيجابية التي يشعر بها الأفراد في تبادلاتهم الإنتاجية التي زادت من خلال شعورهم المشترك بالنشاط الجماعي للمشتركين، وشعورهم بالمسؤولية المشتركة للمخرجات، وشعورهم بالفاعلية بوصفها مشروعا جماعيًا.

إنه من الصعب عمل إسهامات ذاتية في التبادلات الإنتاجية للأفراد المحددة للآخرين بالمشاعر الإيجابية كما يحدث عادةً في هذه الحالة بسبب قوة التحيز القريب، كما أن الإسهامات الخاصة بالأفراد قد دُمَجِ بعضها مع بعض؛ ولذلك فإن الأفراد يبدؤون في رؤية الجماعات والشبكات والبناءات الأكبر التي تدمج فيها الجماعات بوصفها مسؤولة عن المشاعر الإيجابية. فعندما تُصْنَعْ الصفات الخارجية والبعيدة؛ يطور الناس التزاماتهم ليس فقط لتبادلاتهم الإنتاجية التي أجريت من أجل إدراك الأهداف البنائية الكلية التي تتضمن فيها هذه التبادلات، لكنه عندما تضعف التحيزات القريبة للسلطة فيمكن للمشاعر الإيجابية أن تبتعد مثل الأبنية الاجتماعية التي تقود الناس لتطوير التزاماتهم البنائية الكلية. وهكذا فكلما زاد ضم التبادلات الإيجابية في الطبقات المتعاقبة في البناء الاجتماعية بشكل متزايد، تحركت المشاعر الإيجابية على الأرجح نحو الخارج في اتجاه البناء الكلي، وبالتالي فإن زيادة الالتزامات لهذه الأبنية الكلية تضفي -بهذه الطريقة- الشرعية على الأبنية الكلية؛ وبذلك تجعل البناء الكلي والمجتمعات كلها قابلة للتطبيق.

وهكذا، فكلما زاد عدد التبادلات الإنتاجية التي تعمل في المجتمع (مثل حصة كل الأنواع الأخرى من التبادل) زاد عدد المهام المشتركة الغير المنفصلة، وكلما ازداد شعور الناس بأنهم مشتركون بشكل جمعي في مشاريع مشتركه، كان لهم شعور مشترك أكثر من المسؤولية (في مقابل المسؤولية الفردية). وكلما ازداد شعورهم بالفاعلية في الأنشطة المشتركة قاموا بعمل صفات قاسية وتطوير الالتزامات لبناء الوحدات الكبرى. إن المشاعر الإيجابية التي تأتي من القوى وتنتشر كسلعة خاصة بين أعضاء المجموعة، ولكن الأهمية بالتساوي الذي يرفع صفات المشاعر هذه لطبقات الأبنية المتضمنة التي تكون في النهاية مسؤولة عن النجاح في التبادلات الإنتاجية على مستوى الوحدات الصغرى.

لاحظ لولير (Lawler) وزملاؤه أنه عندما تكون هذه الديناميكيات فاعلة فإنها تزيد من الشعور العام وتنتشر الثقة بين الأفراد، ويحدث هذا أيضًا في الوحدات الكبرى التي تتضمن الجماعات. وهذه الديناميكيات تُعاد عندما يتبع نجاح الناس للتبادلات الإنتاجية شعورهم بالهوية، ففي كل المواقف يرى الناس أنفسهم في موضوع وتطوير لهويتهم حول أنفسهم في المواقف، فعندما يفعلون ذلك تصبح الهويات مرتبطة بالتبادلات الإنتاجية التي سوف تسمح بظهور المزيد من

الصفات التي تعيق النجاح في الأنشطة، وبذلك يصبح البناء الكلي مسؤولا ولو جزئيًا عن ذلك. وعندما يشعر الناس بوجود هذه الصفات العائقة في هوياتهم فسيبدؤون في رؤية مشاعرهم لهوياتهم الخاصة بهم أو الذاتية التي تكون متصلة بعمليات البناء الكلي، وعندما يشعر الناس بأن هذا الاتصال بين البناء الكلي بعد التأكد من قابلية تطبيقه على مشاعرهم بالذات فإنهم سيكونون أكثر التزاما بالمستوى الكلي للبناء.

وهكذا أنجز لولير (Lawler) وزملاؤه -شان ذي، و جونجكو يوون- (Shane Thye and Jeongkoo Yoon)[٢٢] من استخدامه لنظرية التبادل من أجل تفسير بعض العمليات الأكثر أهمية التي تساعد في استمرار المجتمعات. ولقد ربطوا بشكل أساس مستوى الوحدات الصغرى للتبادلات بين الأفراد، ليس فقط للتضامن الإقليمي، ولكن أيضًا لتعميم الشعور بالثقة مع الآخرين والبناء الأكثر أهمية، ومشاعر الالتزام للوحدات الكبرى. وعندما تحدث هذه العمليات بسلاسة تصبح المجتمعات أكثر قابلية للتطبيق والاستقرار.

الخاتمة

Conclusion

لم أعرض جميع النظريات التبادلية، بل عرضت لبعض منها فقط، وقد ركزت على نظريات معينة، وخاصة النظريات المحدودة؛ لأنها تعرض التيار الذي يوجه نظرية التبادل، ولكن نظريات عديدة أخرى صارت جزءًا من الحركة العامة لاستخدام نظريات التبادلية لتفسير الظواهر الاجتماعية على مستوى الوحدات الكبرى ومستوى الوحدات الصغرى، ويمكن التلخيص بالتفصيل عن قائمة من الافتراضات من نظرية تبادليه مبكرة المدرجة من قبل، ولكي أقدم الشعور الأكثر قوة للفكرة الرئيسة في نظريات التبادل اليوم.

١ - كل السلوك الإنساني هو هدف موجَّه -للأفراد الذين يتخذون القرارات- سواءٌ بوعي أو بشكل ضمني حول المكافأة التي يتم اكتسابها عن طريق تعقب الأساليب البديلة للنشاط.

---

(٢٢) المرجع نفسه.

٢- تصنع قرارات الأفراد بناء الأفعال في المواقف، فعندما يقوم الأفراد بعمل مجموعة من العمليات الحسابية المتصلة أحيانًا بالإدراك، ولكن من المحتمل:

أ) يكون من أجل اكتساب المكافأة بشكل ضمني.

ب) احتمالية أن تقدم هذه المكافأة لآخر قد يكون من الأقارب مما يفقد الفرد الحصول على قيمتها.

ج) إضافةً إلى مايترتب على ذلك من ضياع الطاقة والوقت في السعي ورائها.

د) إضافة إلى مستوى التكاليف المترتبة على ذلك (التكاليف المتراكمة) لمعرفة جدوى المكافأة المعطاة لتحقيق الهدف منها.

هـ) أيضًا مستوى المكافأة -المنخفض إلى حد ما-، والعدالة.

٣- الوحدات الجماعية أو الوحدات المشتركة في الشركات لهذه العمليات الحاسوبية التي تسعى إلى تحقيق الأهداف.

٤- أرجحية تعقب وحدات الشركات أو الأفراد لمسار مُعطى من السلوك المتعلق بمستوى المكافأة، والمتصل بالتكاليف اللازمة للاعتبارات المدرجة في ٢ب-ه أعلاه.

٥- يوجد على الأقل أربعة أنواع أساسية للتبادل، هي:

أ) إنتاجي.

ب) تفاوضي.

ج- متبادل.

د- عامّ.

٦- يوجد هناك العديد من العمليات الأساسية التي يُكْشَف بها التبادل سواءٌ أكانت الجهات الفاعلة أفرادًا أم وحدات أو شركات؛ وذلك نتيجة إلى :

أ) الموارد المتاحه للتبادل.

ب)تبادل المكافأة خلال الأنواع الأساسية المدرجة في (٥ أ-د).

ج) المنافسة من أجل السلطة والمكانة من خلال العروض المتبادلة بين الجهات الفاعلة على قيمة المكافأتها مقارنة مع الشركاء.

د) اختلاف الجهات الفاعلة بالاحترام والسلطة معتمدة على الاستقلال المتصل بالجهات الفاعلة من أجل المكافأة ذات القيمة؛ لأن التباين متزايد إلى حد ما، ولأن مجموعة من الجهات الفاعلة مستقلة عن جهة فاعلة أخرى للموارد القيمة خاصةً عندما لا توجد مصادر بديلة أخرى لمصدر القيمة، وتصبح الجهات الفاعلة مستقلة بشكل كبير من عامل لآخر لهذا المصدر.

هـ) سلسلة نحو التكامل بين الجهات الفاعلة المختلفة من خلال:

١- شرعية اختلافات السلطة.

٢- الرقابة الاجتماعية.

٣- الائتلافات بين الجهات الفاعلة.

و) سلسلة من المعارضات التي تزيد نتيجة لـ:

١- عدم المساواة في توزيع المكافأة القيمة.

٢- الحرمان من المكافأة المتوقعة من أصحاب السلطة.

٣- عدم العدالة في التبادل.

٤- المعاملة بالمثل في البورصات.

٥- التجربة الجماعية للحرمان من قبل الجهات التابعين والجهات الفاعلة الفرعية.

٦- تعبئة الصراع التي تزداد بين هذه الجهات الفاعلة المستقلة التابعة للجهات الفاعلة القوية مع احتمال التعبئة المتزايدة مع:

أ) التركيز البيئي للجهات الفاعلة.

ب) التواصل مع الجهات الفاعلة.

ج) الخبرة الجماعية في حرمان التبادل.

د) الخبرة الجماعية للظلم في التبادل.

هـ) زيادة التضامن الجماعي من المرؤوسين.

و) التوترات اتجاه التكتيكات المتوازنة من خلال التابعين او المرؤوسين التي تتضمن:

١- تقليل قيمة موارد المكافأة للمرؤوسين.

٢-بحث المرؤوسين لمصادر بديلة للموارد التي يسيطر عليها.

٣- زيادة قيمة الموارد المقدمة للمرؤوسين.

٤- الحد من الموارد الممنوحة للإداريين الكبار من قبل المرؤوسين.

٧-أرجحية كشف علاقة التبادل بين التوتر والصراع، وتزايد الأنشطة مع معدل عدم التكافؤ لتبادل الموارد الناشئة عن استقلال المرؤوسين على موارد الجهات الفاعلة العليا، ومستوى استخدام السلطة من قبل الرؤساء لاستخراج المزيد من الموارد أكثر من أي وقت مضى من المرؤوسين.

٨- أرجحية زيادة التضامن في تبادل العلاقات بين الأعضاء مع :

أ) الإنتاج والاستهلاك عن طريق أفراد الجماعة للسلع الخاصة ، والتي ترتفع قيمتها واستهلاكها من قِبل أفراد المجموعة.

ب) تطوير المعايير الإلزامية للإسهام في الإنتاج لهذه السلع .

ج) القدرة على التحكم بالمجموعة من خلال :

١-استقلال الأعضاء عن الجماعة يزيد من:

أ) قيمة السلعة الخاصة.

ب) صعوبة توفير سلعة أخرى للجماعة .

ج) تكاليف الخروج المرتفع لأعضاء الجماعة يعرضها لفقدان الاستثمارات في الجماعة.

٢- سهولة الرقابة غير الرسمية للصعود الحر دون قيود.

٣- استخدام العقوبة غير الرسمية للصعود المجاني أو الحر يُعدُّ جزءًا من التفاعل الطبيعي بين أعضاء الجماعة.

٩- أرجحية انخفاض التضامن بين أعضاء الجماعة مع :

أ) استخدام المكافأة الخارجية للسلع المشتركة للاستهلاك عن طريق أعضاء غير الجماعة.

ب) حجم الجماعة أو المنظمة التي تتضمن الجماعة.

ج)عدم قدرة الجماعة على الإنتاج والاستهلاك للسلع الأساسية بالنسبة لهم.

د) انخفاض القدرة للسيطرة على :

١ - حجم الجماعة.

٢ - الرقابة الرسمية على الصعود المجاني أو الحر لأعلى.

٣ - العقوبة عن طريق السلطة الرسمية.

٤ - الاستقلال المنخفض لأعضاء الجماعة من أجل الموارد الخاصة.

٥ - تكاليف الخروج المنخفض على الموارد البديلة للمكافأة الخارجية لحفز أعضاء الجماعة.

١٠ -تزايد مستوى الالتزام للجماعة عن طريق تضامن أعضائها في الحالات المذكوره تحت (فقرة ٨) في الأعلى . وتنقص في الحالات المذكورة تحت (فقرة ٩) في الأعلى ، والحالات الإضافية تكون في الآتي:

أ) أن الانخفاض بين أعضاء الجماعة يعتمد على حصول كل واحد منهم على المكافأة .

ب) أن التبادل المثمر بين أعضاء الجماعة يكون من خلال أنشطة أعضائها بناءً على أهداف الجماعة، والذي يزداد مع الظروف المناسبة له ، وتتناقض بسبب الشروط الإضافية التالية:

١ - عدم التكافؤ المنخفض بين أعضاء الجماعة والاعتماد المتساوي بين كل منهما على الآخر من أجل تحقيق أهداف الجماعة.

٢ - عندما لا تنفصل المهام الإنتاجية وإسهامات الأعضاء عن أهداف الجماعة.

٣ - إثارة المشاعر الإيجابية المعممة بسبب التبادلات المتكررة كمسار للنشاط المنتج.

٤ - عندما يمر أعضاء الجماعة بشعور قوي من الفاعلية التبادلية.

ج) تعريف هويات الأعضاء من خلال أنشطة مشتركة بناءً على معايير الجماعة.

١١ - وتزداد نسبة تبادل الالتزمات بين الأعضاء على مستوى الوحدات الكبرى مع الشروط المدرجة تحت فقرة (١٠) في الأعلى، ويتضمن:

أ) النسبة التي تحدد المشاعر الإيجابية في تحقيق نجاح أهداف الجماعة -ككلٍ- بدلًا من تحقيق الأهداف الفردية لأعضاء الجماعة أنفسهم.

ب) مدى ودرجة اندماج الجماعة ضمن بناءات أكبر في شبكة أكثر شمولًا وطبقات متتالية على نحو متزايد على مستوى الوحدات الكبرى في البناء الاجتماعي .

ج) وضوح الروابط بين الجماعات في الشبكات الكبرى والطبقات في البناء الاجتماعي للمجتمع .

د) نسبة تبادل الأنشطة للجماعات في المجتمع، يتضمن:

١- تنطوي على الإنتاج والاستهلاك للسلع الأساسية والخاصة، حتى عندما تنتج السلع للاستهلاك العام من قِبل أعضاء خارج الجماعة .

٢- تنتج التبادلات الإنتاجية شعورًا مشتركًا بالنشاط والمسؤولية ، والفعالية، وتحقيق الذات.

الفصل السادس

التنظير التفاعلي الرمزي
SYMBOLIC INTERACTIONIST THEORIZING

أكد معظم علماء الاجتماع في وقت مبكر مخاوفهم من التغيرات التي تحدث في المجتمعات الإنسانية على مستوى الوحدات الكبرى التي جاءت مع التصنيع والحداثة، واهتم بعضهم بالتركيز على مستوى الوحدات الصغرى كما هو الحال في تحليل إميل دوركايم (Emile Durkheim's) للدين والطقوس، كما حلل جورج سيميل (Georg Simmel's analysis) الذات الحديثة في المجتمعات المعقدة التي تكشف انتماءات الجماعات الكاملة والمنفصلة. في حين حلل ماكس فيبر الأنماط الأربعة للنشاط الذي يقوي الأوامر المشروعة، واهتم هربرت سبنسر ((Herbert Spencer بالمؤسسات الرسمية، أما في تصوير الاغتراب لكارل ماركس (Karl Marx) فاهتم بالاستثارة العاطفية المصحوبة بالتحفيز للصراع، والذي كان يطمح إلى شرح المزيد من القوى الاجتماعية الكبرى للاتجاهات التطورية على المستوى المجتمعي.

وفي الولايات المتحدة الأمريكية في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، كان هناك التقاء في الفكر بخصوص تنوع السلوكيات لفهم السلوك الإنساني والتفاعل الاجتماعي، وكان أهم شخصية في هذا التحليل وأكثر شمولية هو جورج هربرت ميد [1] الذي كان فيلسوفًا بجامعة شيكاغو، ودافع عن مدرسة فلسفية عرفت بالبراغماتية .

---

(١) يمكن العثور على أهم الأفكار الاجتماعية لميد في مذكرات المحاضرة التي نشرها طلابه عن أفكاره في علم النفس الاجتماعي. "عثر على أهم إيضاح له عن العقل والنفس والمجتمع"، محرر. سي. دبليو. موريس (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو ، ١٩٣٤م). ومن المصادر المفيدة الأخرى: جورج هيربيرت ميد، كتابات مختارة (إنديانابوليس:

وترى البراغماتية أن البشر يسعون إلى إجراء تعديلات في أنشطتهم للتكيف مع العمليات الاجتماعية المستمرة. معتمدة على معيار التكيف الذي يمكن من خلاله تفسير تطور الأشخاص منذ بداية حياتهم الأولى في المجتمعات. وكانت البراغماتية حركة فكرية واسعة الانتشار، ولا تزال لديها أتباعها، خاصة وأن هناك العديد من الشخصيات الرئيسة في تاريخ الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماعي يعتبرون أنفسهم برغماتيين، ومن تركيبة أفكارهم جورج هربرت ميد الذي يرى أن علم الاجتماع يتكون من الوحدات الصغرى. على الرغم أن ميد لم يكن عالم اجتماع.

توليفة تركيبية لجورج هيربرت ميد
George Herbert Mead's Synthesis

لم يتبع ميد فقط الفلسفة العامة من البراغماتية، لكنه أيضًا لحظ التقارب بين البراغماتية مع المدرسة السلوكية والنفعية، والداروينية في هذه الاتجاهات النظرية على التوالي مع علم النفس، وعلم الاقتصاد، وعلم الأحياء الذي وصف السلوك الإنساني بأنه يستطيع التكيف بالنسبة لهم. [٢] ولو تحررت المدرسة السلوكية من المنهجية الحازمة لتجنب الصندوق الأسود للمعرفة الإنسانية والسلوكيات المختفية في العقل البشري، فإن القدرات في تعلم اللغة، والتفكير في اتخاذ القرارات، والرؤية، وتقييم الذات من خلال الآخرين، والرموز الثقافية، والتعاون مع الآخرين في مجموعات منظمة يمكن رؤيتها بوصفها سلوكيات مكتسبة تأتى بالمكافأة المرتبطة بالتعاون بين الآخرين في المجتمعات. وبالمثل فإن الجهات الفاعلة تسعى إلى تحقيق المنفعة والعقلانية في وضع القرارات النفعية، والاقتصاد في الكلاسيكية الجديدة، وتفعل الشيء نفسه في محاولة التكييف والتكيف مع الظروف الاجتماعية من أجل تعظيم المنافع والمكافآت. ويمكن تضييق مفهوم دارون "الاصطفاء الطبيعي" من أجل زيادة الخدمات أو المكافآت، وأن رؤية داروين للاصطفاء الطبيعي يمكن تطبيقها

=بوبس ميريل، ١٩٦٤م)، وأنسيلم شتراوس ، محرر ، جورج هيربرت ميد في علم النفس الاجتماعي (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٦٤م).

(٢) *Jonathan H. Turner, Contemporary Sociological Theory (Thousand Oaks, CA· Sage. 2012), pp. 312-313.*

على السلوكيات الاجتماعية، وبالتالي يمكن الاحتفاظ بهذه السلوكيات التي تسهل عملية التعديل والتكيف مع البيئة الاجتماعية في الاختيار السلوكي للفرد.

ولذلك فإنه بالنسبة لميد كان السؤال الأساسي: ماهي القدرات السلوكية التي يكتسبها الأفراد أثناء التدريب خلال حياتهم، والتي تمكنهم من التكيف مع الأنشطة المستمرة المتصلة في مجتمعاتهم؟ إن إجابته عن هذا السؤال تستقى من الأفكار الفلسفية والعلوم الاجتماعية. وفي استحضار لمعايير من تفكيرهما معًا، فقد أنجز ميد مالم ينجزه أحد من قبله؛ حيث كشف عن العمليات الجوهرية في التفاعل الاجتماعي بين الكائنات الحية، وأن السلوك الإنساني، والتفاعل والمنظمة الاجتماعية يمكن أن تكون متاحة بحكم القدرات الإنسانية الفريدة المتعددة، مبتدئًا بالقدرة على استخدام وقراءة الإشارات التقليدية أو المهمة التي تُعنى بالشيء نفسه بالنسبة لإرسال واستقبال الكائنات الحية -كما يعتقد ميد بطريقة لم تكن صحيحة- أن البشر فقط لديهم القدرة على تطوير المعاني التقليدية للكلمات، وإيماءات الجسم التي تعنى الشيء للأجزاء في التفاعل. ولكن لا يزال البشر قادرين على المشاركة في التفاعلات التي تستخدم الرموز العشوائية والإشارات أكثر من أي مخلوقات أخرى. ومع القدرة على استخدام الإشارات الكبيرة يتعلم البشر القيام بأدوار الآخرين وأدوارهم، وتكون لهم القدرة على قراءة الإشارات التقليدية، ووضع أنفسهم في مكان الآخرين والمشاركة في الدور الذي يلعبونه على الأرجح، ومن ثمّ اتخاذ التعديلات الضرورية للآخرين؛ وذلك من أجل تسهيل التعاون.

ومن خلال القدرة على قراءة وتفسير واستخدام الإشارات التقليدية، وبعد أخذ الدور مع الآخرين تأتي كذلك القدرات الإضافية. ولعل من أهم الإمكانيات القدرات العقلية التي تبناها ميد من جون ديوي[٣] في جامعة شيكاغو، وبالنسبة لديوي فيرى أن العقل ما هو إلا القدرة على التدريب بطريقة مبتكرة على إشارات بديلة للسلوك البديل، وإدراك النتائج المحتملة لهذه البدائل في وضع ما، ومن ثم اختيار البديل الذي من شأنه تسهيل التعديل والتكيف مع الآحرين وتعاونهم معه. إذا استطاع الكائن الحى الاشتراك في مثل هذه السلوكيات الخفية. وأكدّ ديوي على أن القدرة العقلي هي

(٣) جون ديوي، الطبيعة البشرية والسلوك البشري (نيويورك: هنري هولت ، ١٩٢٢م)، ص ١٩٠. لبيان سابق لهذه الأفكار ، انظر: جون ديوي. علم النفس (نيويورك: هاربر ورو ، ١٨٨٦م).

قدرة سلوكية يتم تعلمها مثل أية استجابة سلوكية أخرى تجلب بالتعزيز والمكافآت من خلال التسهيل والتعديل والتكيف مع البيئة الاجتماعية، وسيتم الاحتفاظ بها على حيز الظهور السلوكي للفرد وهكذا؛ لأن السلوكيات العقلانية لها أساس بيولوجي، وهذا الأساس يستخدم فقط عندما يتم تعبئتها لتسهيل التعديل والتكيف والتأقلم للأفراد في السياقات الاجتماعية الجارية؛ لأن من طبيعة البشر التعاون في جماعات من أجل البقاء. فإن امتلاكهم للقدرات التي حددها ديوي للعقل سيكون كافيًا للغاية، ومع العقل فإنه يمكن التعامل مع الدور مهما كان معقدًا، وهذا كافٍ للغاية؛ لأنه يجعل التعاون أكثر قابلية للاستمرار.

ومع القدرة على القراءة واستخدام الإيماءات التقليدية؛ لاتخاذ الأدوار وتوقع الاستجابات المحتملة من الآخرين لأنواع متعددة من السلوك. وعلى سبيل المثال: فسيكون لدى الفرد سهولة الإدراك العقلي، والمقدرة السلوكية النقدية، وأخرى يتم اكتسابها. والقدرة على رؤية الذات بنفسها. ولقد استعار ميد هذه الفكرة من تشارلز هارتون كولي[٤] بجامعة ميتشجين، منذ بداية عمل ميد الوظيفي مع عالم النفس البرغماتي، ومع عالم النفس وليام جميس [٥]. وكانت نظرة كولي هي العبارة المهمة عن "النظر في داخل الفرد"؛ أي داخل الذات، مشيرًا إلى السلوكيات التي تحدد ذات الفرد بشفافية. وتفاعله مع الناس بالإشارات التقليدية التي تصدر من الآخرين ليقرأها الناس كما لو كانوا ينظرون في المرآة، أو من خلال الزجاج الشفاف وقد استخدم هذا المصطلح بدلًا من مصطلح المرآة في القرن التاسع عشر. فعن طريق النظر إلى المرآة تنعكس ذات الفرد، وهي تشبه انعكاس ردود أفعال الآخرين، كما يفهم الفرد الإيماءات الخاصة بالآخرين، ويفسرها الآخرون أيضًا. وهذا الفرد سوف يمر بشعور الذات الذي يتراوح من الفخر عند النهاية الإيجابية للعواطف، أو الخزي عند النهاية السلبية للتواصل من خلال رؤية الفرد لنفسه كجسم يعكس إشارات الآخرين التي تعمل كمرآة. ويقوم الأفراد بعمل تعديلات لسلوكياتهم كي يحملوا رد فعل إيجابي لأنفسهم. ولقد أضاف ويليام جميس إلى أن هذا النوع من التحليل يحمل فكرة صور الناس عن أنفسهم، كما تعكسها المرآة

---

(٤) تشارلز هورتون كولي، الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعي (نيويورك: سكريبنر ، ١٩٠٢م) والمنظمة الاجتماعية: دراسة للعقل الأكبر (نيويورك: سكريبنرز ، ١٩١٦م).

(٥) *William James, The Principles of Psychology (New York: Henry Holt, 1890) ,vol. 1, pp. 292—299.*

كانعكاس ردود أفعال الآخرين التي سوف تتبلور هذه الأفعال عبر الوقت إلى تصور عن الذات والنظر إليها بما يحمله الأفراد عن أنفسهم.ل قد أكدّ جيمس أن الأفراد يطورون أنماطا مختلفة من الذوات المادية والاجتماعية، الروحية على سبيل المثال: التي تصبح ذات صلة بهم في العديد من المواقف والحالات، وأنهم يسعون إلى التأكد منها في نظر الآخرين. وكما تجيب عنه تساؤلات الآخرين عن سلوك الشخص في الجماعة.

كما أخذ ميد هذه الأفكار وطور وجهة نظره بأن الأفراد يعكسون صورة الذات من استجابات الآخرين التي يتبنونها بناء على استجابات الآخرين عن سلوك شخص ما في جماعات مستمرة. وبعد ذلك أضاف جيمس فكرته الرئيسة عن صور الذات التي تظهر في كل تفاعل، فشعور الناس عن الذات يتم اكتسابه من مفهوم الذات التي تكون أكثر استقرارًا وتحملًا، وأن مفهوم الذات هذا يكون أكثر استقرارًا؛ لأنه يعرض المعرفة الجوهرية والمشاعر وتقييم الذات التي تظهر عبر حياة الأفراد، كما أن مفهوم الذات يتشكل عبر مرحلة البلوغ، ويعطى أفعال الفرد قدرة محددة على التنبؤ والثبات؛ لأن سلوكيات الناس تعكس نوع الأشخاص الذين يعتدُّون بأنفسهم بما يصدر منهم من أفعال.

لقد أضاف ميد العديد من التحسينات لفكرته عن الذات، فلقد أدرك أن الأفراد لا يأخذون الأدوار من الآخرين في موقف ما، ويمكنهم غالبًا أخذ أدوار مع الآخرين الذين لا يشاركونهم في الحاضر، ولكن من هم المؤثرون على الفرد وقيمه؛ لأن التقييم يكون ظاهرا بشكل محسوس، ويستطيع الفرد أن يتخيل ما يود الآخرون قوله، وعمله، وما يفكرون فيه كما لو كانوا حاضرين في موقف ما، وغالبًا ما يستجيب الناس إلى بعض المرجفين البعيدين أكثر من الظهور أمام الناس. وبعد ذلك أضاف ميد فكرة نقدية أخرى بأن الناس يأخذون الأدوار مع ما أسماه "الآخر المعمم" أو مجتمع المواقف والمنظور الأوسع للموقف، وبالفعل لقد شعر ميد بأن قدرات الناس كي يأخذوا الدور لا تكون كاملة إلى أن يستطيعوا توقع تلك المنظورات عن القيم، والمعتقدات، والاتجاهات الجماعات نحو الآخرين والمجتمعات.

وهذه هي الأفكار الجوهرية لنظرية ميد للتفاعل التي تصور العمليات الأساسية للتفاعل وجها لوجه. وخدم منظور ميد علم الاجتماع لمدة ليست بالقصيرة. إن اتجاهات الجماعات يمكنها أن

تكون أكثر من تأثير على الأفراد كونها جماعات، ولا بدّ أن تكون الأبنية مترابطة تتضمن المجتمع كله، وهكذا تأتي الثقافة للأفراد من خلال أخذ الأدوار مع الآخرين العامة ولن يكون هناك أي احتمال إعداد سابق لخطته. وقد تم تبني أفكار ميد من خلال منظور نظري عرف "بنظرية التفاعل الرمزي"، وهذا الاسم أعطى لعمل ميد عن طريق هربرت بلومر[٦] الذي أخذ الدورة التدريبية لعلم النفس الاجتماعي الشهير لميد في جامعة شيكاغو قبل وفاته. وقد أطلق ميد اسمًا خاصًّا لتنظيره سماه "نظرية التفاعل الرمزي"، وتدل على مجموعة من الظواهر التي لها تأثير متبادل للإشارات في التفاعل لتدوين مفهوم الذات، ولكن العنصر الآخر في خطة ميد كانت الذات الاجتماعية التي كانت بمثابة التفاعل الرمزي المشهور في الحقبتين الأخيرتين.

التفاعلية الرمزية المعاصرة وتحليل الهوية/ الذات
Contemporary Symbolic Interactionism and the Analysis of identities

لعقود من الزمن استخدم مصطلح صورة الذات عن طريق القائمين على نظرية التفاعل الرمزي، ولكن في الوقت الحاضر قد أصبح أكثر انتشارًا بوصفه مصطلحًا للذات، والسبب لتغير هذا المصطلح هو أن علماء الاجتماع قاموا بوضع نظريات على شكل متزايد لعديد من أبعاد وأنواع وأنماط الذات، وبكل وضوح يدل مفهوم الذات على هذا. وكما أدرك ذلك ميد (Mead)، ولكنه لم يوضحه؛ لأن الناس لهم ذوات متعددة، ولها أبعاد مختلفة تتضمن: كيف أن الارتباط العاطفي للأفراد ينوِّع ذواتهم؟ وكيف أن الموقف العام أو الخاص هو بمثابة ذوات متعددة؟ كيف ترتبط الثقافة والقواعد بالأخلاقية والذوات المختلفة؟ كيف ترتبط الذوات المختلفة بالمواقف المحددة؟ وما الترتيب علوًّا أو انخفاضًا في التسلسل الهرمي للذوات في مواقف مختلفة؟ وهذه الأنواع من الأسئلة أصبحت مهمة بشكل متزايد، بينما كان المنظرون يتابعون أفكار ميد على مدار الثلاثين عامًا الماضية.

تضاعف الهويات Multiple Identities

أصبحت أهمية هذه الأنواع من التساؤلات آخذة في الصعود باستمرار. فقد اندفع المنظرون في اتباع مبادرة ميد وما تلاها من رؤًى وأفكار أطلقها أتباعه ومنظرون آخرون من أجل التميز بين

---

(٦) *Herbert Blumer, Symbolic Interaction (Englewood Cliffs) NJ: Prentice Hall, 1969).*

الهوية المرتبطة بالمواقف المحددة كالأسرة، والعمل، والمدرسة، والفريق إلخ. فضلًا عن مفهوم الهوية العام الذي يكونه الفرد عن نفسه، كما كشف أن مفهوم البحث التجريبي كشف عن أن لدى الناس العديد من الهويات المحتملة متضمنة مفهومًا عامًّا عن أنفسهم، وآخر خاصًّا للشخص نفسه، ولا يوجد هناك إجماع حول أنواع الهويات الأساسية، ولكن هناك قائمة عن الميزات التي يعمل بها لتوضح الحالة الحالية للتنظير بخصوص أنواع الهويات، كما يلخص (الشكل ١ ,٦) أربعة أنماط أساسية ومستويات هول، ١٩٦٩م).

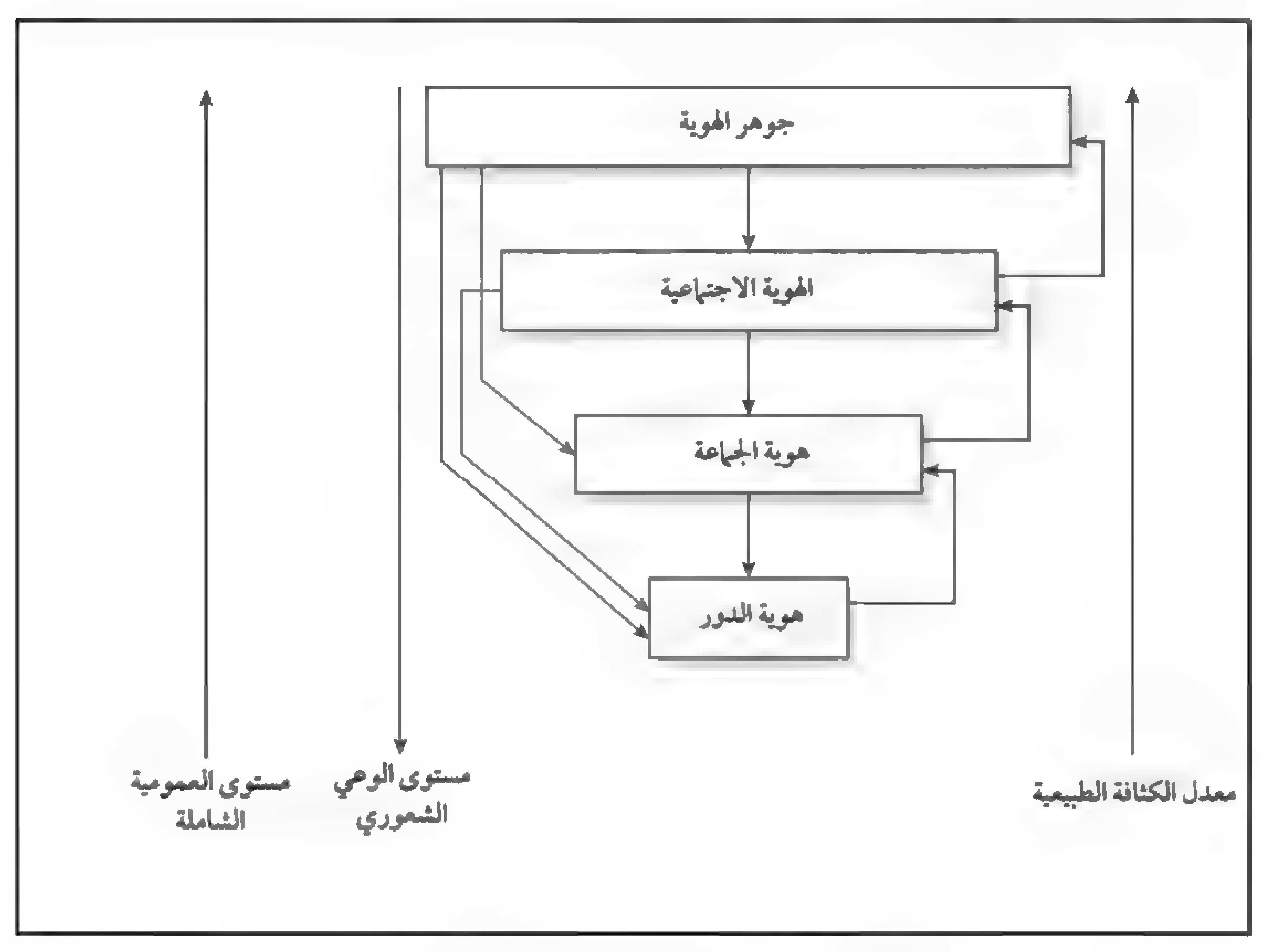
للهويات في على أساس محتواها العمومي والعاطفي،[٧] وبعض الهويات تكون عامة جدًّا. وبالإضافة إلى ذلك تكون دائما مع الفرد مثل الصدف على ظهر حلزون، فنحن جميعا نسير معها، كما أنها دائما تتصل وتبرز بدرجة محددة. وفي الجانب الآخر ترتبط بعض الهويات بدور محدد في بناء اجتماعي خاص. فعلى سبيل المثال عندما يكون لدي هوية كأستاذ جامعي، ودور محدد للمنظمة، وأيضًا الأنثى من الممكن أن يكون عندها هوية عن ذاتها كأم في بناء أسرة، ولذا تكون الهوية بشكل أوضح أضيق من مفهوم الذات العام، ولذا فنحن نحتاج إلى أن نكون حريصين هنا؛ لأن بعض أدوار الهويات من الممكن أن يكون رئيسًا لمفهوم هويات أكثر عمومية للشخص، فعلى سبيل المثال كلما زاد طول عملي كأستاذ جامعي كلما ارتبطت بالمزيد من الهوية العامة وبدوري كأستاذ جامعي، وهذه غالبًا ما تكون مثل حالة وأدوار هويات المرأة كأُمٍّ.

في (الشكل ١ ,٦) وضعت ما سميته جوهر الهوية في قمة التسلسل الهرمى الذي يؤكد أيضًا على بعدين للهوية هما: (١) المشاعر المرتبطة بها. (٢) الدرجة التي ندرك بها طبيعة الهوية وهذا غني عن الجدل بأن الناس سوف يكون لديهم بعض الصعوبة في التعبير عن جوهر هوياتهم الخاص بهم، أو ما يسمونه الآن بهوية الشخص، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن بعض الأبعاد للهوية تكون لا شعورية أو حتى مكبوتة. ولكن ما تزال هذه العناصر تؤثر على كيفية تصرف الأفراد، وكيفية تقييمهم لأنفسهم. ويرتبط قدر كبير من المشاعر بالهوية الخاصة وتفاعل الناس بشكل عاطفي، تجاه

---

(٧) جوناثان ه. تورنر، مباشرة نحو نظرية اجتماعية للسلوك الشخصي (ستانفورد كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستاينفورد ، ٢٠٠٢م) ؛ وانظر أيضًا: جوناثان ه. تيرنر ، المبادئ النظرية لعلم الاجتماع ، المجلد ٢ حول الديناميكيات الدقيقة (نيويورك: سبرينغر، ٢٠١١م). *(New York: Springer, 2011).*

الفشل لتنويع مستوى الهويات. وكنتيجة لذلك، فإنهم غالبًا ما يدفعون بالمشاعر السلبية التي تأتى مع الفشل تحت مستوى الوعي، ولكن هذا لا يعنى أن المشاعر تذهب بعيدًا، أو أن تقييمات الآخرين عن جوهر الهوية سوف يتم تجاهله، بل تندرج تحت مستوى الوعي. وفي النهاية سوف تخرج المشاعر بشكل متحول عن طبيعته إلى حد ما، وسنرى فيما بعد في مناقشة المزيد من نظريات التحليل النفسي لرواد التفاعلية الرمزية.



الشكل(١ ,٦) أنواع ومستويات تشكيل الهوية .

وفي أسفل التسلسل الهرمى في (الشكل ١ ,٦) يوجد أدوار للهويات التي يستطيع الناس -عادةً- وصفها بدقة. وهكذا إذا سألت شخصا ما عن نوع الأب، أو الطالب، أو الأستاذ الجامعي، أو الأم، أو العامل إلخ. يمكنهم الإجابة بوضوح وبالتحديد، ولذا تقيم هذه الذوات بواسطة الأفراد، وبالمثل كل الهويات، ولا توجد مشاعر متداخل بعضها مع بعض، كما أنها ليست بمدى أفكار الشخص، ولو أن هناك دورًا محددًا متاخمًا لمشاعر الفرد الأساسية حول أنفسهم في مستوى هوية الشخص، فسوف يكون هناك الكثير من المشاعر الملازمة لوصف الأفراد الهوية بأدوار محددة.

وبين مستويات هويات الدور والمستويات الأساسية يوجد هناك اثنان آخران أود أن أسلط عليهما الضوء هما: هويات الجماعة التي تتشكل من خلال هوية الدور، وتبنى هذه الهويات حول الأعضاء، أو برغبة أن تكون عضوًا في الهوية، أو الهوية المشتركة مع جماعة أو منظمة. ويمثل المشجع لفريق رياضي مثالًا جيدًا لهوية الجماعة التي غالبًا ما تبنى حول الهوية المشتركة ، وكما هو معروف فإن مشجعي الرياضات السريعة يكونون عاطفيين إلى حد ما، ويتحدثون عن هويتهم إلى حد ما لبعض الوقت، وغالبًا بلا حدود، شأنهم في ذلك شأن الطالب الذي يظل محتفظًا بهويته بعد مرحلة التخرج من الجامعة لكونه عضوًا في الجماعة. ولذا تتباين الناس بشكل كبير في مدى أهمية هوياتها الجماعية، وعادة ما يكون لدى العامل بعض الإحساس بهويته ومكانته، أو مكانه الخاص بالعمل ولو كان سلبيًا. ونادرًا ما يكون لدينا مشكلة للحديث عن هويتنا في مكان العمل مثل: هوية الدور، وهوية الجماعة مثل: المنظمة والمجتمع، ويمكن أن يحمل العامل المشاعر تجاه هويته، ولكنها تظل لا إدراكية يعرف الناس طبيعة هذه الهوية. وبالإضافة إلى ذلك قد تكون الهوية محددة وليست عامة بشكل كبير حتى عضوية الجماعة لموقف ما أو لشخص مهم يعتمد على المستوى ونوع الهوية، وهذا ما يسمى بالهوية الاجتماعية في المنظور النفسي. وهذه الهوية تدل على المكانة الاجتماعية الواسعة التي ينتمى إليها الناس وتسمى الهوية الاجتماعية مثل: الجنس، والعرق، والدين، والسن، والطبقة الاجتماعية وأي فئة اجتماعية بارزة. كما أن هذه الهوية تتعلق بفئات اجتماعية واسعة ينتمي إليها الناس مثل أطباء الأسنان بشكل عامّ، ويجب حملها مثل هويات الأشخاص الجنسية والعضوية، وعضويتنا الاجتماعية. وغالبًا ما تكون تلك الهويات مرئية بشكل واضح للآخرين، ولكن الأهم من ذلك هو أن هناك معتقدات وتقييمات وتوقعات وقواعد مرتبطة بكل هوية من تلك الهويات الاجتماعية. ويجب على الجميع أن يحمل هويته الاجتماعية؛ لأنها تكون أجناسًا، وأعمارًا، وأعراقًا وعضويات أخرى في الهوية الاجتماعية.[٨] وربما لا يحب بعض الناس بهويته؛ لأنها ربما لا تحمل التقييمات

---

(٨) في أدب توقعات الدول. يتم تصور هذه العضويات في الوحدات القاطعة على أنها "خصائص الحالة المنتشرة" التي توجد بها معتقدات حول قيمة وخصائص الأعضاء. تُترجم هذه إلى سلسلة من التوقعات لكيفية تصرف هؤلاء الأفراد من الفئات الاجتماعية.

والتوقعات المناسبة لهم؛ لأنه غالبًا ما تكون المشاعر مرتبطة بهذه الهوية الاجتماعية، كما يدرك الناس طبيعة هويتهم. ولكن إذا كان الناس يخجولون أو يشعرون بالنقص من هويتهم الاجتماعية؛ لأن المشاعر وميكانيزمات الدفاع ستشوه صورة هذه الهوية في أنفسهم، عندما تكون درجة وصف هوييتهم الاجتماعية أقل مما هو معتاد عليه في وصف هويات الجماعة الاجتماعية، وأيضًا يكون أقل من وصف هوية دور الجماعة التي يكون عضوًا فيها.

إلا أن الهوية الاجتماعية ليست فقط هي الهوية الموجودة في النظرية والبحث حول الذات؛ فعلى سبيل المثال ناقش بعضهم مؤخرًا بأن هناك هوية أخلاقية[٩] منفصلة؛ لأن الناس يختلفون في مستوى الدرجة الأخلاقية، وكيفية شعورهم تجاه هذه الأخلاق، ويمكن اعتبار هذه الهوية الأخلاقيه إحدى مكونات الهوية الأساسية. ولكن تجرى العديد من أبحاث الذات حول السؤال الخاص عن الضمير والأخلاق، ويمكن هذا التصنيف لهوية الضمير والأخلاق أن يصبح هوية مميزة في تصنيفات رواد علم الاجتماع؛ لأنها درست بوصفها نمطًا مميزًا على مستوى النوع والنفس لهويات الناس، ولكن هؤلاء الذين يقدمون النقاش الخاص بالهوية الأخلاقية، يجب عليهم أن يوضحوا أنها تؤثر على كل المستويات الأخرى للهويات المتعددة. وفي (الشكل ٦,١) يتضح أن الزمن سيخبرنا كيف يمكن لهولاء وغيرهم من المرشحين المحتملين لنوع جديد من الهويات أن يحوزوا اهتمام الأدب النظري خلال العقد القادم؟

التسلسل الهرمى للشهرة والمكانة: Hierarchies of Salience and Prominence

يخلص كثير من التنظير الخاص بالهوية إلى أن ديناميات الهويات تدور حول التسلسل الهرمى للمكانة، كما أن الهوية الكامنة في هذا الاتجاه تكمن في ظهور المكانة التي تشكل الهوية في التسلسل الهرمي بناءً على كيفيتها وأهميتها بالنسبة للناس في العديد من المواقف. فكلما تعرض الشخص لموقف ما يحدد هويته ارتقت هذه الهوية في التسلسل الهرمى عندما تزداد أهمية مكانة الشخص.

---

(٩)انظر -على سبيل المثال-: ستيفن هيتلين ، محرر ، كتيب علم الأخلاق (نيويورك: سبرينغر ، ٢٠١٠م) ؛ ستيفن هيتلين ، الأخلاقيات المعنوية ، الأشرار: علم النفس الاجتماعي للضمير (لندن ، المملكة المتحدة: بالجريف / ماكميلان ، ٢٠٠٨م).

وكلما تم التحقق من هذه الهوية وقبولها من قبل الآخرين فإنها تبقى في التسلسل الهرمى، وإذا لم يقبل الناس هذه المكانة فإنها سوف تتحرك إلى أسفل التسلسل الهرمى، وقد تختفي في الحالات القصوى، وهكذا ينتج عن ذلك قوة التفاعل، ودائمًا يسعى الناس إلى التحقق منها، وتأكيد هذه الهوية، فتصبح عالية في ترتيب التسلسل الهرمى على كل الهويات، وأكثر ما يتضمنه التفاعل مع الآخرين هو ذلك الدور الذي يقدمه الشخص لهم انطلاقًا من مكانته التي تمثل هويته، وهذه المكانة تكون محددة يتوقعها الآخرون ويتقبلونها، وبالتالي تتحقق هوية الشخص بناء على مكانته؛ ولذا فإن الهوية التي يتم التحقق من ثباتها سوف تتحرك لأعلى وتظل عالية لأهميتها وتبرز مميزة في التسلسل الهرمى، وأحيانًا تحاصر مجموعة من المكانات بالقيود الثقافية والبناءات الاجتماعية لتعوق عرض ما تقدمه من أدوار للآخرين، وعادة ما تكون هذه الحالة في الأعمال الرسمية، ولكن حتى مع هذه القيود غالبًا ما يستطيع الأشخاص التعديد من هوياتهم. وعندما تكون هذه الهويات عالية في التسلسل الهرمى فمن المؤكد بروزها بوصفها مكانة تضاف إلى تقييم الشخص من قبل الآخرين وشهرته، ويوجد هناك بعض التنوعات في النظريات التي تستخدم هذه الهوية الأساسية في التسلسل الهرمى، ولذلك سأوضح اثنتين من النظريات أكثر أهمية في هذا المجال.

نظرية ستريكر في بروز الذات Stryker's Theory of Identity Salience

ناقش شيلدون ستريكر[10] (Sheldon Stryker) أن الناس يكونون ملتزمين بهوياتهم لعدد من الأسباب، وأن الهويات تقيّم إيجابيًا عن طريق الآخرين، وعن طريق تعريفات ثقافية أوسع

---

(١٠) شيدون سترايكر ، التفاعلات الرمزية: نسخة بنائية (مينلو بارك ، كاليفورنيا ؛ بنجامين / كامينغز ، ١٩٨٠م) ؛ "بروز الهوية وأداء الأدوار: أهمية نظرية التفاعل الرمزي لأبحاث العائلة"، مجلة الزواج والأسرة (١٩٦٨): الصفحات ٥٥٨ - ٥٦٤ ؛ "المبادئ الأساسية للتفاعل الاجتماعي" ، في علم الاجتماع ، الطبعة الثانية. نيل ج. سميسلر ، (نيويورك: وايلي ، ١٩٧٣م) ص ٤٩٥-٥٤٧. للحصول على نسخة أحدث من النظرية، انظر: شيلدون سترايكر وريتشارد ت. سيرب ، "الالتزام ، وسلامة الهوية ، وسلوك الدور" ، في الشخصية ، الأدوار والسلوك الاجتماعي ، محرران. وليام إيكيس واريك نولز (نيويورك: دار نشر شبرينغر، ١٩٨٢م) ، ص. ١٩٩ ٢١٨ ؛ ريتشارد تي. سيرب وشيلدون سترايكر ، "بناء الذات وإعادة بناء العلاقات الاجتماعية" ، التقدم في عمليات المجموعة ، ٤ (١٩٨٧م): ص. ٤ - ٦٦ ؛ وشيلدون سترايكر، "استكشاف أهمية المعرفة الاجتماعية

تكون منسجمة مع التوقعات المنتظرة من الآخرين، ومعها سوف يعتمد الشخص على التحقق من هويته التي هي جزء من شبكة واسعة من توقعات هوية الأفراد. ومن الممكن أن يكون توقع الهويات لعدد كبير من الناس بأن يقدموها بغض النظر عن مكانتهم، فالهوية التي تمثل التزامات للأشخاص تتحرك إلى أعلى التسلسل الهرمى للبروز؛ نتيجة لأن الأفراد سوف يقومون بأداء الأدوار للآخرين بما يتفق مع هذه الهوية البارزة في اعلى التسلسل الهرمي، و إضافة إلى ذلك فإن الهوية العالية البارزة في تسلسل الهرمى تقوم على الأرجح بدفع الأفراد إلى الفهم بأن الموقف المعطى هو فرصة لعرض هذه الهويات. وبشكل أكثر عمومية يبحث الأشخاص على الأرجح عن المواقف التي يمكنهم من خلالها عرض هذه الهويات البارزة، وإذ لم يتم تحقيق الهوية من خلال الآخرين لأى سبب ما فإنها سوف تتحرك إلى أسفل التسلسل الهرمى.

كما ترتبط الهويات للافراد بالبناء؛ لأن الناس يحبون -على الأرجح- عرض هوياتهم بما يتفق مع المعتقدات الثقافية والقيم والمعايير في المواقف التي يكون لهم فيها فرص لعرض الهويات مع شبكات من الأفراد، وتوجد لديهم توقعات لأنواع خاصة من أداء الأدوار والمواقف التي يسمح فيها للفرد أن يقدم هويته من خلالها. وتعني هذه الضغوط أنه سوف يكون هناك اتصال بين الهويات على وجه العموم لأنواع محددة بشكل عام وبين الهويات التي تكون بارزة بشكل شخصي، والتوقعات التي تكون متلازمة مع الأبنية الاجتماعية وثقافات تلك الأبنية، فالثقة بالنفس للشخص تعتمد على إيجاد هوية بارزة بشكل مرتفع، ولذا فهي تعتمد على تلبية التوقعات الخاصة بالشبكات والأبنية الاجتماعية، والثقافة، وبهذه الطريقة يكون الفرد الهوية البارزة، والأدوار التي تقدم هذه الهوية والأبنية الاجتماعية، والثقافية، وعادة يكونون متوافقين معها.

وعندما يتغير البناء والثقافة في موقف ما فإن بروز الهوية والتزامها سوف يتغير، وأي هوية يمكنها أن تتغير إذا اتفقت مع التزامات تكون ذات قيمة للشخص. وعندما يمر الأفراد

للعلاقة بين الذات والمجتمع" في ديناميكية المجتمع الذاتي: الإدراك. العاطفة ، والعمل ، المحرران. جوديث هوارد و بيتر إل (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج ،١٩٩١م) ، الصفحات ١٩-٤١.

بمشاعر سلبية قوية في موقف ما فإن ذلك يعنى في الغالب بأن هناك توافقًا مع الهويات المعروضة، والتوقعات الموقفة التي تنشأ عن طريق الشبكات والأبنية الاجتماعية، والثقافية. وسوف يضطر الأفراد إلى تغيير التزاماتهم لهوياتهم، ويبحثون عن أفكار جديدة تكون منافسة في موقف قد تغير. وهكذا، تكون المشاعر المتصلة بالهويات بمنزلة نظام تحذيري مبكر بأن شيئًا ما ناقص، و كذلك تكون القوة المحفزة التي تدفع الأفراد لإيجاد شبكة جديدة كاملة من العلاقات، أو أن تلغى الهويات. وعلى الأرجح يكون الأخير بسبب أن الناس عمومًا ليسوا متميزين في الأبنية الاجتماعية التي يعتمدون عليها، وهكذا فإن الهويات غير المتحققة سوف تتحرك إلى أسفل التسلسل الهرمي، وسوف تتحرك إلى أعلى التسلسل الهرمى هويات أكثر توافقًا مع التوقعات الموقفية.

التسلسل الهرمى لماكول وسيمونز للشهرة McCall and Simmons' Hierarchy of Prominence

لقد ركز جورج ماكول وجى إل سيمونز (George McCall and J. L. Simmons) على هويات الدور[١١] لارتباطها بالأدوار، وهذه الأدوار ترتبط بدورها بالبناء الاجتماعي والبناء الثقافي، في حين قيد البناء الاجتماعي والثقافي بالأدوار التي يستطيع الفرد القيام بها، وكيفية القيام بهذه الأدوار، ونجد أن هناك دائمًا مقدارًا محددًا لمدى كيفية تقديم الشخص نفسه إلى الآخرين في موقف ما. ولقد طرح كل من ماكول وسيمونز(George McCall and J. L. Simmons) التسلسل الهرمى للأهمية بين العديد من الهوايات والأدوار الذي يتكون من العديد من العناصر الآتية: (أ) النظرية المثالية، وهى أن الأفراد يكونون معبرين عن أنفسهم بأنه على سبيل المثال: أنيق، مرح، ذكي إلخ، و هذه النظرية المثالية سوف تحدد الدور الذي سوف يلعبه الفرد، وأيضًا سوف توضح كيفية قيامه بهذا الدور (ب) والذكريات عن المدى الذي تم اقتراح وجهة النظر المثالية عن الذات من خلال الجماهير (ج) والالتزامات المشتركة لهذه الأدوار التي تم تأييدها (د) ومقدار الاستثمار السابق في الوقت، و الطاقة لهوية محددة قد تم لعبها في دور ما؛ لأن معظم التفاعلات محدودة لحد ما عن كيفية سلوك الفرد، فإن هذا الغموض يعطى الأفراد

---

(١١)جورج بي. مكافي. و جي. آي سيمونز، الهويات والتفاعلات (نيويورك: كتب أساسية ، ١٩٦٠م). نُشرت طبعة ثانية من هذا الكتاب في عام ١٩٧٨م. على الرغم من أن النظرية ظلت دون تغيير تقريبًا.

بعض المرونة في عرض الأدوار للآخرين. كما يمكن التخفيف من الغموض من خلال دور الفرد مع الآخرين، ومن خلال ما دعا إليه ماكول وسيمونز (McCall and J. L. Simmons) في منتدى داخلي (أو مداولات التفكير في مخطط جى إتش ميد) ليعدل الأفراد أدوارهم، و هوياتهم، فهي جزء لا يتجزأ منهم لكي يستوعبوا تصرفات الآخرين. وبالمثل الجهات الفاعلة إذا كانوا يستطيعون. وتوجد هناك دائمًا إستراتيجيات معبرة عن إيماءات التنسيق لكي يعرض الشخص نوعًا خاصًا من الهويات للآخرين في أثناء أخذ الدور، وأن هذه الإيماءات المعروضة المعبرة سوف تعرض دور الهوية إلى أعلى في التسلسل الهرمى للأهمية الخاصة بالشخص.

وتُعدُّ هذه العروض الإستراتيجية للهويات بمثابة دينامية تبادلية. ويمكن أن توجد مكافأة خارجية في موقف ما مثل: المال، كما توجد أيضًا مكافأة داخلية مثل: الرضى، والفخر، والسعادة، والشعور بالفاعلية، والدور الذي يعززه الآخرون. وبالفعل لعل واحدًا من أهم المكافآت الداخلية هو الذي دعم الآخرين لأفكار الدور الذي يعرضه الفرد، ويكون الأفراد متشجِّعين لتأمين هذا الدعم؛ لأنه يقدم المكافآت الخاصة بعرض هوية الدور. كما يناقش ماكول وسيمونز (George McCall and J. L. Simmons) يوجد نوعٌ من التسوق لتبادل المكافأة، ومثل أي تبادل فيما يبدو على نحو ما يشبه الأسواق يحاول الأفراد من خلالها تبادل مكافآت مماثلة تسمح للجزأين بالتفاعل من أجل إدراك الفائدة، والمكافأة الأقل تكلفة، والاستثمارات في إطار الأدوار المتوفرة، فهناك أيضًا يوجد دائمًا عملية حسابية خاصة بالعدل والعدالة تحدد ما إذا كانت المكافأة المعطاة لكل شخص متناسبة مع تكاليفهم الخاصة، واستثماراتهم في هوية دور محددة.

ولقد ميّز ماكول وسيمونز بين الذات الواقعية والذات المثالية، فالذات الواقعية هي الدور الذي يلتزم به الشخص في حالة موقف معين أو على الأرجح غالبًا ما يعرضه على الآخرين، وسوف تختلف وتتنوع عناصر الذات الواقعيه معتمدةً على موقف معين يكون فيه للأفراد تسلسلات هرمية مختلفة الأهمية، أما الذات المثالية مثل مفهوم الذات أو جوهر الذات الخاص بـ (جى إتش ميد) - (انظر الشكل ١ ,٦ أعلاه)- ويتم عرضها دائمًا أكثر في التمثيل الذاتي؛ ولذا تمثل الذات المثالية - بوجه عام- الذات الأعلى في التسلسل الهرمى للأهمية، وإن هذه الذات هي أكثر الأفكار البارزة التي يملأها الأفراد بالعناصر لأفكار الآخر ودوره حول هذه الذات المثالية.

وفي النهاية توقع ماكول وسيمونز (George McCall and J. L. Simmons) المزيد من التحليل النفسي الذي وجه اتجاهات التفاعل الرمزي؛ فقد ذكرَا في أثناء عرض الذات أنه لا يتم قبولها بالكامل عن طريق الآخرين، وسوف يشترك الأفراد في إستراتيجيات الدفاع لحماية أنفسهم، وأنهم يدرجون عددا من الإستراتيجيات المحتملة وهي: (١) الإدراك الاصطفائي لإيماءات الآخرين للتأكيد على تحقق الهوية والدعم.(٢) التفسيرات المختارة لإيماءات الآخرين.(٣) إنكار الأداء؛ حيث إنه لا يدل على الذات، كما أن إنكار الجمهور ليس متعلقًا بتقييم الذات. (٤) ظهور التناقض المؤقت بين مشاعر الذات وتقييمات الآخرين؛ حيث لا تفهم الذات من أنه قد تم التحقق منها بواسطة الآخرين، كما أن هذا الدعم لإثبات أفكار الدور هو أكثر المكافأة الداخلية القيِّمة للأفراد؛ لأن المشاعر تتحرك مرتفعة في عملية أخذ الدور المتبادل، وفي عرض أفكار الدور، وبهذا فإنه ليس من المدهش أن يسعى الأفراد إلى حماية أنفسهم من المشاعر السلبية المؤلمة مثل العار.

العواطف، وإستراتيجيات الدفاع وآلياته

Emotions, Defensive Strategies, and Defense Mechanisms

إن المبدأ الأساس في التنظير للتفاعلية الرمزية حول الهوية هو أنه عندما لا يتم التحقق من الهوية بواسطة الآخرين، فإن الأفراد سوف يشعرون بمشاعر سلبية قوية، ويتم تشجيعهم لتقديم الهوية المعروضة، والاستجابات للآخرين مرة ثانية إلى الوراء أو التوافق، وأكد ماكول وسيمونز أن إجراء التعديلات على تصرفات الدور والإستراتيجيات الدفاعية؛ تشبه تمامًا الإستراتيجيات المدافعة. وهناك نظرية أخرى تناولت موضوع تحكم الهوية لبيترجى باركيس و جيين أى ستيتو "نظرية التحكم في الهوية"[١٢].

---

(١٢)بيتر جي.بورك ، "الذات: آثار القياس من منظور التفاعل الرمزي"، علم النفس الاجتماعي الفصل ٤٣ (١٩٨٠م): ص ؟؟؟ "نموذج الهوية في ظل التبادل الشبكي" علم الاجتماع الأمريكي"، علم الاجتماع الأمريكي مراجعة ٦٢ (١٩٩٧): ص ١٣٤-١٥٠ "المواقف والسلوك والذات" في ديناميكية المجتمع الذاتي ١، المحرران. جوديث هوارد و بيتر إل (ورد ذكره في الإيضاح ١٠) ، ص ١٨٩ - ٢٠٨ "إثبات الهوية والإجهاد الاجتماعي"، علم الاجتماع الأمريكي مراجعة ٥٦، (١٩٩١م)، ص ٨٣٦ -٨٤٩ ب. ج. بورك و دي. ريتز ، "نهج نظرية الهوية إلى الالتزام"، علم النفس الاجتماعي الفصلية ٥٤ (١٩٩١م)، ص ٢٥١ - ٢٣٩ ب. ج. بورك و جان إي. ستيتس، "الثقة

بيريك وستيتس في نظرية التحكم في الهوية Burke' and Stets' Identity Control Theory

في البداية، طوَّر بيتر بيرك هذا الاتجاه عن نظرية ديناميكية الهوية مع جين ستيتس،[١٣] (Burke' and Stets) وكانت تدور حول أن الأفراد لديهم العديد من الهويات التي لم يتم ترتيبها في التسلسل الهرمي. وباستخدام مستويات الهويات في (الشكل ١ , ٦)، وطرَحَا فكرة أن على الناس أن يتأكدوا من أفكار مستوى الشخص، أو ما يسمونه بالهوية الجوهرية كما هو موضح في نفس (الشكل ١ , ٦). ولذا فإن عددًا من الهويات الاجتماعية، والعديد من هويات الدور تكون محتملة. فلكل واحدة من هذه الهويات يوجد هناك ما يطلق عليه مصطلح "المقارنة" التي هي بمنزلة هوية قوية ضد ما تُقارن به سلوكيات الشخص، واستجابات الآخرين لرؤية المخرجات السلوكية للشخص، ومدخلات الهويه للتقييم العكسي، أو أن تقوم بتلبية معدلات الهوية. فإذا ما قاموا بذلك فسوف يمر الفرد بمشاعر إيجابية ويستمر في لعب الهوية. وإذا لم يوجد هناك انسجام بين المقارنة من ناحية، والمخرجات السلوكية للشخص، والمدخلات الخاصة بالناس ردًّا لمدخلاتهم السلوكية، والتقييم العكسي من ناحية أخرى فسوف يمر الشخص بمشاعر سلبية مثل المحنة، والقلق، والحزن، ومشاعر سلبية أخرى عن الذات.

إن البشر هم كائنات حية معرفية، حيث إنها تسعى إلى حفظ توازن كل هوية. وهكذا فعندما لا يتم التحقق من هوية الشخص سيمر بمشاعر سلبية، وسوف يعمل هذا الشخص على استعادة التوازن بين كل من (أ) تعديل المخرجات السلوكية التي تسمح للآخرين للتحقق من الهوية (ب) وعرض هوية جديدة بمعدلات هوية مختلفة ومقارنة.

ويوجد بالطبع بديل وهو ليس جزءًا من نظرية بيرك وستيتس (Burke' and Stets)، بل هو استدعاء إدراكي محدد وتفسيرات، واستجابات الآخرين، وإنكار مايصدر من مخرجات سلوكية وإنكار حق الجمهور في تقييم جماعة من المخرجات السلوكية، أو إنكار المخرجات السلوكية كذات فرد دالة. وهكذا تذهب نظريات الهوية إلى مجموعة أصغر من التفاعل الرمزي، والتي تؤكد الكبت

والالتزام من خلال التحقق الذاتي" علم النفس الاجتماعي الفصل ٦٢ (١٩٩٩م): ص ٣٤٧ - ٣٦٦؛ و بيتر ج. بورك وجان إي ستيتس، نظرية الهوية (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد).

(١٣) Peter J. Burke and Jan E. Stets, Identity Theory (New York: Oxford University Press, 2009).

واستخدام ميكانزمات دفاع أكثر قوة للدلالة على مشاعر التوازن. ولكن عندما يتم قمع المشاعر تتغير ديناميكيات الذات بشكل ملحوظ؛ لأن المشاعر المكبوتة سوف تتحول إلى مشاعر سلبية أخرى، ولن يكون للأفراد اتصال معرفي للمشاعر المكبوتة الأصلية، ونتيجة السلوكيات الفعلية لهذا الشخص قد لا تستجيب الذات لهذه السلوكيات. بالإضافة إلى ذلك فإن تقييمات الآخرين لهذه السلوكيات سوف تكون ردًّا على الإشارة العاطفية حول ما لدي الشخص من قلة الوعي.

وهكذا، ففي نظرية بريك وستيتس اللذين أكدا على أنه كلما ازداد بروز الهوية في الدور ازداد تشجيع الأفراد على تحقيق إحساسهم بالانسجام بين التوقعات التي تنشئها معدلات الهوية واستجابات الآخر في الموقف. وعندما تتناسب استجابات الآخرين مع التوقعات التي تم إملاؤها بواسطة معدل الهوية تكون المشاعر التي يمر بها الأفراد أكثر إيجابية. ووتزيد درجة احترام الذات، ويمر الناس بخبرة تعزيز المشاعر الإيجابية عندما يتم تحقق الذات عن طريق الآخرين. ونتيجة لذلك يطورون مشاعر الثقة الإيجابية، والالتزامات نحو الآخرين. وعلى النقيض كلما قلت ملاءمة استجابات الآخرين في معدل الهوية زادت المشاعر السلبية التي يمر بها الأفراد. وبهذا التعارض بين التوقعات المعدة بواسطة معدل الهوية واستجابات الآخرين تحدث زيادة عندما يكون لدى الأفراد: (أ) معايير هوية متعارضة ومتعددة من اثنين أو المزيد من هويات الدور. (ب) التحكم المفرط في الذات الذي تكون فيه عناصر الهوية منسوجة بإحكام في معايير هوية غير مرنة. (ج) معايير الممارسة القليلة في عرض الهوية في الدور. (د) الفشل والتوافق في مجهوداتهم لتغيير أو لترك الموقف.

كما تزداد كثافة المشاعر السلبية في هذه المحاولات الفاشلة لتحقيق الهوية مع بروز الهوية في الموقف مع: (أ) ظهور الآخرين الذين لم يتحققوا من الهوية. (ب) معدل التناقض حيث تكون التوقعات العليا أو السفلى متصلة بمعدل الهوية. (ج) بالمقابل تقل كثافة المشاعر السلبية من الفشل للتأكد من هوية عبر الوقت كمعدل الهوية الذي يتم إعادة تعديله إلى الأسفل من أجل تقليل التوقعات لعمل انسجام بين معدلات الهوية والتقييمات المنعكسة لاستجابة الناس لمخرج السلوك. ومثل العديد من مذاهب التفاعلات الرمزية فلم يُعدّ نموذج بيرك ستيتس (Burke' and Stets) طريقة أخرى لخلق الانسجام، حيث إن كبت المشاعر السلبية المثارة عند عدم التحقق من هوية أو عدم تأييدها من خلال الآخرين، ودعت هذه المتابعة إلى العديد من نظريات التحليل النفسي.

التحليل النفسي لرواد النظرية التفاعليه الرمزية

Psychoanalytic Symbolic Interactionist Theories

يعدُّ توماس وجون ثان تيرنر من أصغر المنظِّرينَ الذين قاموا بإيجاد نظريات الهوية من التفاعل الرمزي بالنقاش الرئيس حول نظرية التحليل النفسي. والخط العام للنقاش هو عندما تقود سلوكيات العلاقات الشخصية للأفراد، وللمرور بخبرة العرض غالبًا ما يتم قمع الأفراد بطريقة ما بهذا الشعور المؤلم جدًّا. وعندما يفعلون ذلك أيضًا لم يعد للشخص اتصال مباشر لهذا العرض، ولكن سوف يمر بمشاعر أخرى مثل الغضب، وسوف يتصرف بطرق تعطل عمليات العلاقات الشخصية. والنقطة المهمة هي أن الناس غالبًا ما يحمون أنفسهم عن طريق كبت المشاعر السلبية كالعار، والغضب، والذنب، والإذلال، والغيظ، إلخ، والتي تدل عن قصد التوافق بين عروض الناس لذاتهم، والاستجابات السلبية للآخرين المتعلقة بالمجهودات؛ لكي يتم التحقق من الذات.

سشيف الفخر و العار وتناغم العلاقات الشخصية

Scheff on Pride, Shame, and Interpersonal Attunement

إن أحد القصور في توليفة جورج هيربرت ميد George Herbert Mead's synthesis هي أن المشاعر لا يتم فحصها، وإن القدرة على التصدي للمشاعر المحيطة بالذات والهوية موجودة في مصادر تركيب ميد. لقد أكد تشارليز هولتون كولي -بالفعل-(١٤) أن لدى الناس مشاعر عن أنفسهم، حيث إنهم يقرؤون إيماءات الآخرين في أخذ الدور. أما بالنسبة لكولى (Cooley) فإن لدى الناس في حالة ثابتة من انخفاض معدل الفخر والعار. وعندما تشير إلى أن الشخص قد سلك سلوكًا بصورة صحيحة، فسوف يكون هناك لهذا الشخص مستويات معتدلة من الفخر، ولكن إذا ما أشارت إيماءات الآخرين إلى أن هذا الشخص قد تصرف بطريقة غير لائقة فإن المشاعر السلبية عن الذات سوف تدور حول مستويات متنوعة من العار.

إن القائمين على التفاعل الرمزي الذين اتبعوا كولى كثيرًا مثل ميد كانوا متعاطفين مع تنظير التحليل النفسي، كما أكد سيجمون فرويد(١٥) فإن المشاعر السلبية مثل العار، والذنب تكون مؤلمة،

---

(١٤) كولي، الطبيعة البشرية والنظام الاجتماعي (الاستشهاد الكامل في الايضاح رقم ٤).

(١٥) سيغموند فرويد، تفسير الأحلام (لندن: هوغارث برس، ١٩٠٠م).

وغالبًا ما يستعير الأفراد ميكانيزمات دفاع لحماية الذات. ولقد كان توماس ستشيف واحدًا من أبرز المدافعين عن عناصر نظرية التحليل النفسي في التفاعل الرمزي، على الرغم من كونه متمردًا لتخصيص هذه النظرية بمثل التحليل النفسي.

لقد تبنى سشيف [١٦] وجهة نظر كولى بأن البشر يكونون في حالة ثابتة من الشعور بالذات خاصةً بشأن الفخر والعار، وهذه الحالة من شعور الذات هي مخرج في الحقيقة بأن الناس يكونون في حالة ثابتة من تقييم الذات حتى إذا كانوا بمفردهم لا يرجعون إلى المواقف. وبالإضافة إلى ذلك فكما يقيّمون أنفسهم في المواقف سوف يمرون بخبرة سواء بالفخر أو العار.

إن الفخر هو شعور إيجابي لتأكيد الذات، ويولد شعورًا من الحالة الجيدة، ويجعل الأفراد أكثر انسجامًا مع الآخرين، ويدفعهم إلى تقديم استجابات مؤيِدة من قبل الآخرين. وهكذا فإن الفخر هو الميكانزيم الرئيس الذي من خلاله تنشأ القيود الاجتماعية القوية، والتضامن الاجتماعي عند المقابلات المباشرة في المجتمعات. وفي المقابل، فإن العار شعور سلبى إذا لم يتم التعرف عليه عن طريق الفرد فإنه يؤدي إلى التناغم مع الآخرين، وقد ينتشر بين العديد من الناس الآخرين في المجتمع. وهكذا ليس لدي الفخر والعار توابع فقط لشعور الشخص المعني بالأفراد، ولكنهما يؤثران على التناغم بين العلاقات الاجتماعية. ومن المحتمل أن يؤثرا على جدوى البناء الاجتماعي على نطاق واسع متضمنًا المجتمع كله. إن الفخر والعار -كما يؤكد سشيف- يمثلان مشاعر جوهرية للنظام الاجتماعي غير مرئية تقريبًا، وذلك للعديد من الأسباب؛ أحدها: أن ممارستهما -عامةً- على مستويات منخفضة من الكثافة بالآخر، والثاني: يمكن كبتها إلى درجة محددة، ففي حالة الفخر نجد أن الشخص لا يميل إلى كشف الكثير منه؛ لأن بعض الناس يرونه غرورًا. أما المزيد من أنماط العار فيدفع المتأثرين به إلى عملية الكبت والكتمان. ولقد استعار سشيف من المحلل النفسى

---

(١٦)للحصول على أمثلة لعمل شيف ، انظر: "العار والمطابقة: نظام التنازل والعاطفة مراجعة علم الاجتماع الأمريكي ٥٣ (١٩٨٨م): ص ٣٩٥ - ٤٠٦؛ "التنشئة الاجتماعية للعاطفة: الفخر والعار كعوامل سببية ، "في أبحاث الأجندات في علم اجتماع العواطف (المحرر. تيث كيمبر (ألباني ، نيويورك: مطبعة جامعة ولاية نيويورك)، ص ٢٨١ - ٣٠٤ ؛ "العار والرابط الاجتماعي: نظرية اجتماعية"، نظرية علم الاجتماع ١٨ (٢٠٠٠م): ص ٨٤-٩٩ ؛ "العار والجماعة: المكونات الاجتماعية في الكساد"، الطب النفسي ٦٤ (٢٠٠١م): ص ٢١٢-٢٢٤ ؛ "العيب والذات في المجتمع" التفاعل الرمزي ٢٦ (٢٠٠٢م): ص ٢٣٩ - ٢٦٢.

هيلين لويس[١٧]؛ كي يؤكد على أن العار غالبًا ما يكون غير معترف به، ويتم إنكاره أو يتم كبته. فعندما تكون هذه هي الحال فإن دورة الغضب والعار يمكن أن تبدأ بتحول العار فيها إلى الغضب، فمع كل انفجار من الغضب يحدث المزيد من العار الذي يتم إنكاره بطرق عديدة لتصعيد كثافة الانفجار الناجم عن الغضب.

فقد أكد ستشيف بأن هناك طريقة واحداة لإنكار العار يكون من خلال تجربة علنية "العار غير المتمايز" الذي يكون لدى الشخص فيه مشاعر مؤلمة، وهي التي تأتى من العار ولكنها تختفي من المصدر الحقيقي لمشاعر العار.

وعن طريق الكلمات وأحاسيس الإيماءات التي هي أكثر من العار يستطيع الناس أن يخفضوا المستوى السمعي لأصواتهم، وينطقوا بمثل هذه الكلمات مثل: "أحمق"، "سخيف"، "غبى"، وبعض الصفات الأخرى التي تدل على المشاعر السلبية، ولكنها تخفي حقيقة هذه المشاعر التي قد تتزايد بسبب العار. وهناك طريق آخر لإنكار العار عبر تجاوز الخجل. فعندما يتم توظيف ميكانزيم الدفاع يشترك الأفراد في السلوك المفرط، مثل: الحديث السريع، والإيماءات قبل أن يمر العار بها بشكل كامل، والسبب يكمن في تجنب الأفراد ألم العار، وقد يكون التعايش مع العار غير المعترف به مكلفا، والذي بدوره سوف يعطل العلاقات الاجتماعية.

وبعد ذلك بدأ ستشيف بتسمية هذين الأسلوبين لإنكار العار: تحت التباعد (علني وغير متمايز) وفوق التباعد (مجتنب أو متجاوز). ففي كلتا الحالتين يتم كبت العار من المعرفة الشعورية، وفي النهاية يؤدي إلى الغضب والعداء الذي -بدوره- يعطل التناغم بين العلاقات الشخصية، فمن دون التناغم يكون من الصعب للأفراد تطوير الاحترام المتبادل والتضامن كما في (الشكل ٦,٢) الذي أوضح فيه النموذج الكامل أن قمة الشكل يعبر عن رصيد الاحترام من الآخرين الذي يؤدي إلى تقييمات ذاتية إيجابية، والإحساس بالفخر الذي سوف يشجع التناغم بين الأشخاص، والاحترام المتبادل والتضامن الاجتماعي.

(١٧) *Helen Lewis, Shame and Guilt in Neurosis (New York International Universities Press, 1971)*

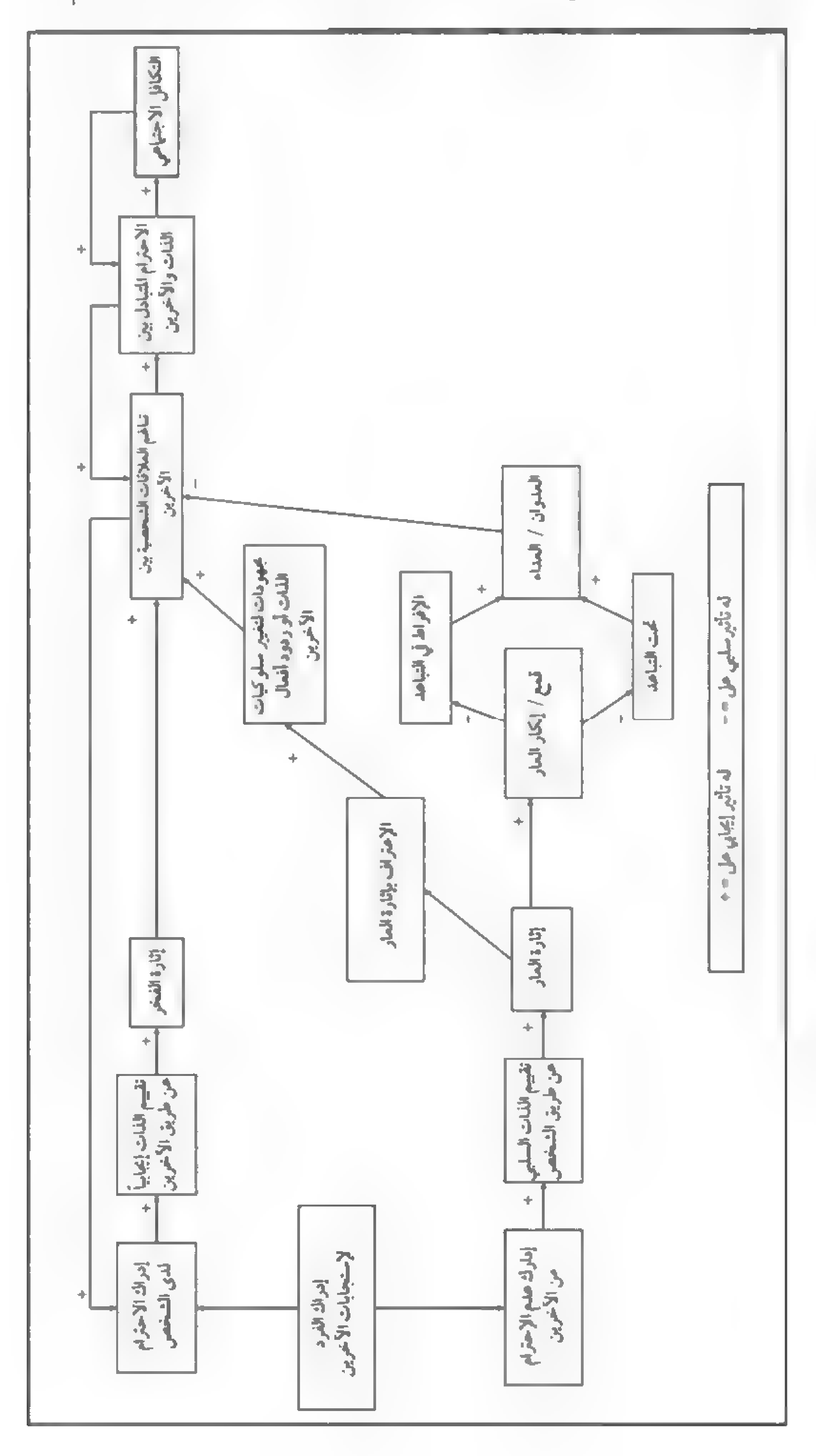
أما الديناميكيات أسفل هذا الصف الموجودة تحت العمليات العليا فهي سبب المشكلات الخاصة بالأفراد والبناء الاجتماعي على نطاق واسع. فعندما يفهم الأفراد أن الآخرين يظهرون عدم الاحترام لهم فسيعانون من تقييمات ذاتية سلبية، ويصبح هذا العار كأنه معترف به، ويمكن رؤيته، فإنه يؤدي إلى صعوبات في التناغم بين الأشخاص، أو تناغم العلاقات الشخصية بين الفرد والآخرين؛ فيكون سببا لتبادل الاحترام والتضامن الاجتماعي. فعندما يتم تجاهل نفس الشيء عن طريق أعلى التباعد أو تحت التباعد تبدأ دورة العار والغضب التي تؤكد على أن الأفراد سوف يفتقرون إلى الاحترام اللائق تجاه الآخرين، وسوف يدركون افتقار الاحترام من الآخرين، وفي المقابل فإن التقييمات السلبية سوف تسبب العار حتى إذا اعترف بها في هذه النقطة، ويمكن أن تؤدي إلى التناغم والاحترام المتبادل، ولكن إذا أصبحت دورة العار والغضب اعتيادية فيكون إنكار العار بمثابة تصعيد أو زيادة للعداء العاطفي الذي يؤيد أن تكون الدورة في القاع، كما يوضحان بعض التأمينات الضخمة لدورة العار والغضب المشار إليها في (الشكل ٢ , ٦).

إن (الشكل ٦,٣). يفسر بعض من أكبر الآثار المترتبة على دورة الغضب في(الشكل ٦ , ٢)[١٨] لو أن الأبنية الاجتماعية والثقافية في المجتمع قامت بإنشاء العار بطريقة منهجية؛ فسوف تكون العلاقات هرمية في الغالب، وتفرض تحديات ضد العار المعترف به، وتستطيع المجتمعات أن تكشف العنف الجماعي المحتمل، حتى لو أُجبر عدد كافٍ من الأفراد مع عدد كاف من المقابلات على فترات طويلة من الوقت لتحمل العار من دون الاعتراف به. وبدلًا من ذلك يكون من الواجب عليهم قمع عارهم، والبحث عن التناغم بين الأشخاص، للحد من حدوث المزيد من دورة العار والغضب والمزيد من العداء الذي سيكون أمرًا مؤذيًا. وأن الأفراد في هذه الحالة يمكن تشجيعهم للعمل الجماعي، وغالبًا ما يكون بطبيعة عنيفة على قدر عال. وهكذا لو أن خبرة العار انتشرت، ومنعت المحرمات الثقافية الأفراد من الاعتراف بعارهم، فإن إنكار الشعور السلبى يصبح -بدوره-

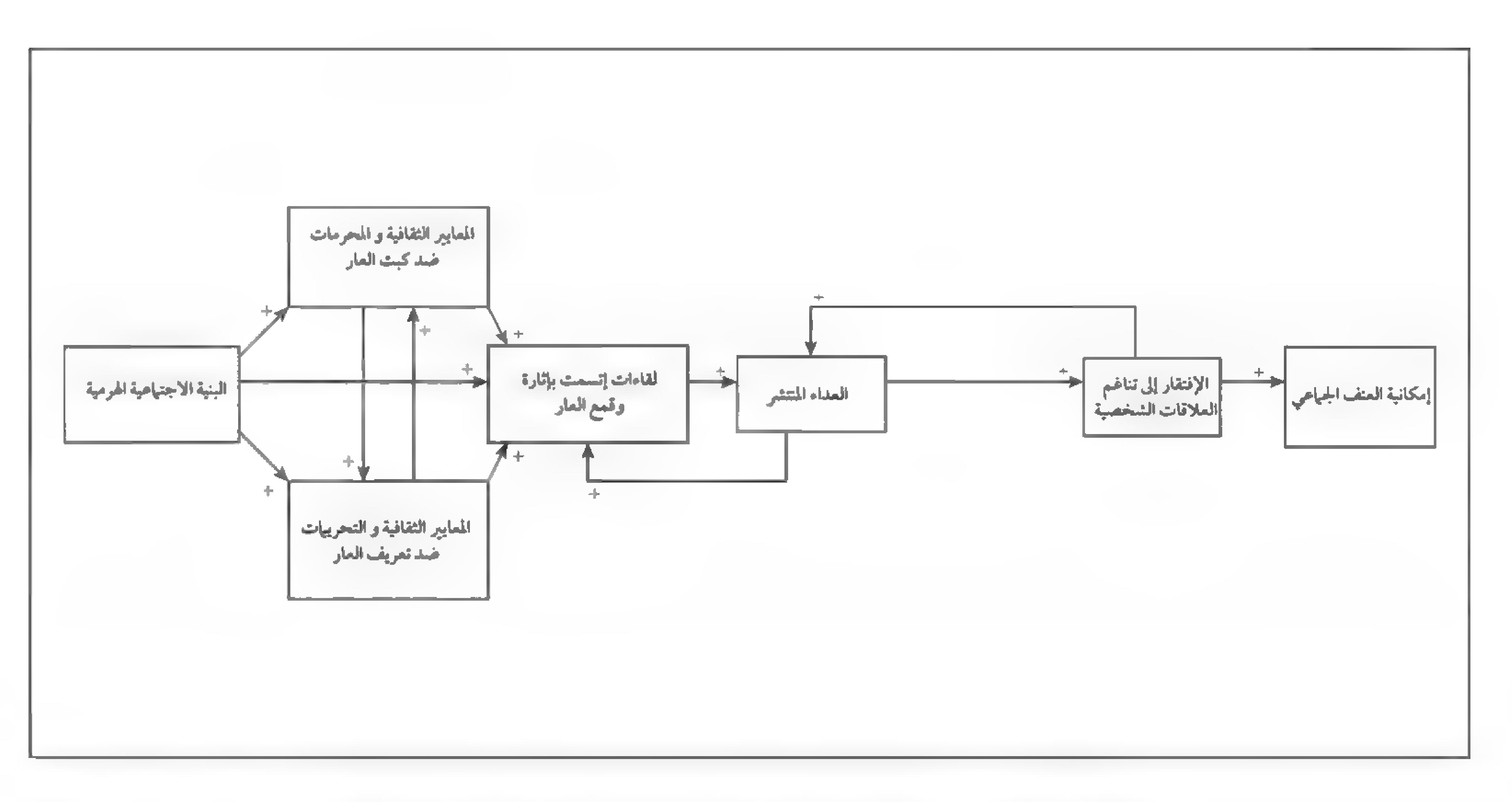
---

(١٨) اطّلع على أمثلة عن أعمال النزاع والعنف من العار المكبوت ما يلي: توماس ج وسوزان م. ركتزينغر ، العواطف والعنف: العار والغضب في الصراعات المدمرة (ليكسنجتون، ماساتشوستس، ليكسنجتون ١٩٩١م كتب). للحصول على مثال على العمل الذي يطرح نفسه مثل شيف من طبيب نفسي ، انظر: فارنيك فولكان ، القتل باسم الهوية: دراسة في الصراعات الدموية (شارلوتسفيل ، فرجينيا: مطبعة البيتستون ، ٢٠٠٦م) ، خطوط الدم: من الفخر العرقي إلى الإرهاب العرقي (شارلوتسفيل، فيرجينيا: بيتشستون، ١٩٩٩م).

شيئًا مخزيًا في المجتمع، وإن الأحداث في مستوى العلاقات الشخصية الجزئية يمكن أن تكون سببًا بعيدا للوصول إلى الاستقرار الخاص بتشكيلات البناء الضخمة للأفراد وثقافاتهم.



الشكل (٦, ٢). نموذج سشيف للمشاعر، والتناغم، والتكافل.



الشكل (٣, ٦). نموذج سشيف للعواطف، ووحدات البناء الكلي، وإمكانية العنف الجماعي.

ثالثًا: نظرية جوناثان تيرنر لاحتياجات التعاملات
Jonathan Turner's Theory of Transactional Needs

بوصفها جزءًا من النظرية العامة لجوناثان تيرنر للعمليات الدينامية للوحدات الصغرى [١٩]؛ حيث يرى أن الاحتياجات للتعاملات تكون بمنزلة قوة حاسمة لتفاعل الإنسان؛ لأن لدى البشر حالات احتياجات جوهرية محددة بدرجات متباينة. والتي دائما يتم تنشيطها من خلال تفاعل الأفراد، وأن احتياجات التعاملات هذه تكون على حالتين من: أولًا: أن بعض هذه الاحتياجات يتم تنشيطها بشكل نموذجي من خلال أو في أثناء التفاعل. وثانيًا: قد يؤثر النجاح أو الفشل في تلبية هذه الاحتياجات بشكل كبير على تدفق التفاعل، ولعل من أهم الاحتياجات في التسلسل الهرمى لحالات الاحتياج يتمثل في: الاحتياج لتحديد الهويات التي تشكل الذات كما هو موضح في (الشكل ٦.١ ص١٤١). ولقد صورت الذات كشكل مكون لأربعة هويات جوهرية، على الرغم من أن الناس يمكن أن يكون لديهم أفكار في الغالب عن أي شيء، فعلى سبيل المثال: إن هناك اهتمامًا كبيرًا في الهويات الأخلاقية للناس أو إلى أي مدًى يرى الناس أنفسهم أخلاقيين، وما تزال الهويات الأكثر مركزية هي: (١) هوية الجوهر أو الإدراك الجوهري والمشاعر التي يمتلكها الناس عن أنفسهم وتكون ظاهرة بشكل عام في كل المواقف، وسمى بعضهم هذا باسم "هوية الشخص". (٢) الهويات الاجتماعية والمشاعر التي يكونها الناس عن أنفسهم بوصفهم أعضاء في التصنيفات

---

(١٩) انظر -على سبيل المثال-: "نظرية التفاعل الاجتماعي" (ستانفورد ، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد ، ١٩٨٨م)؛ المبادئ المباشرة ونظرية علم الاجتماع المجلد ٢ بشأن الديناميكيات الدقيقة (المشار إليه في الإيضاح ٧) ؛ العواطف البشرية: نظرية علم الاجتماع (لندن: روتليدج ، ٢٠٠٨م)؛ "نحو نظرية من اللقاءات المدمجة" التقدم في عمليات المجموعة ١٧ (٢٠٠٠م): ص ٢٨٥ – ٣٢٢ ؛ جوناثان ه. تيرنر وجان إي ستيتس ، "المشاعر الأخلاقية:" في كتيب علم اجتماع العواطف ، جان ف. ستيتس وجوناثان ه. تيرنر ، محرران. (نيويورك: سبرينجر ٢٠٠٦م)، الصفحات من ٥٤٤ إلى ٥٦٨ ؛ جوناثان ه. "المشاعر والبنية الاجتماعية: نحو نظرية عامة" في العواطف والبنية الاجتماعية ، د ، روبنسون وج. كلاي-وارنر ، محرران. (نيويورك: إلسفير ، ٢٠٠٨م)، الصفحات ٣١٩ – ٣٤٢ ؛ جوناثان تيرنر ، "النفس. العواطف والعنف الشديد: توسيع التفاعل التفاعل الرمزي ٣٠ (٢٠٠٨م): ص. ٥٤٤-٥٦٨ ؛ "نحو أ "نظرية العمليات الشخصية في علم النفس الاجتماعي الاجتماعي ، جي تشين و ج. كارديل ، محرران. (بوسطن، ماساتشوتيس: الين و بيكون ٢٠٠٨ م)، ص ٦٥– ٩٥ ؛ جوناثان تيرنر ، "الهويات ، العواطف ، وعمليات التراجع" ، التفاعل الرمزي ٣٤ (٢٠١١م): ٣٣٠-٣٣٩.

الاجتماعية مثل: الجنس، والمتميزات الجنسية، والعرقية كالطبقة أو أي نوع اجتماعي يتعرف به الناس بعضهم على بعض من خلاله كشيء مميز، والتي تؤدي عمومًا إلى تقييم متباين للعضويات في التصنيفات الاجتماعية. (٣) هويات الجماعة والإدراك والمشاعر عن الذات التي تظهر للعضوية في للتحقق من وحدات المجتمع، وتكشف التقسيمات مع العمال كالجماعات، والمجتمعات، والمنظمات التي هي بمثابة الموارد لهوية الجماعة. (٤) هويات ذوات الدور أو الأدوار التي يلعبها الناس في أي سياق اجتماعي، وخصوصًا الأدوار المحددة والمرتبطة بالعضوية في تصنيفات العمال في الشركات والعضويات في التصنيفات الاجتماعية أو ما أسميته "الوحدات التصنيفية"[٢٠]، ولكن يشك في أن هناك خطًّا تسلسليًّا واضحًا بين الهويات كما يفترض في معظم نظريات الهوية، ولكن يعتقد أن البعض أكثر عمومية من الآخر كما تم تلخيصه في (الشكل ١ ,٦).

وتكشف دينامية الهوية العديد من العمليات المشار إليها في نظرية بيرك، وينسق الناس سلوكهم في مجهود لتحقيق بعض أو كل الهويات الأربع في موقف، وقد أشار الآخرون إلى قبولهم لهوية أو الهويات، وسوف يمر الشخص بمشاعر إيجابية من الرضا عند الأقل كثافة، وفي النهاية فإن الفرحة والفخر تكون لأعلى كثافة في المشاعر الإيجابية. وبالنقيض لو لم يتم تحقيق الهوية فسوف يمر الأفراد بمشاعر سلبية مثل الغضب الخوف والإحراج والعار والذنب، والعديد من المشاعر السلبية الأخرى، وعندما يصبح الناس على علم بمشاعرهم السلبية فإن هذه المشاعر سوف تشير إليهم كما هو واضح جدًّا في ستاركار؛ أنَّ هناك شيئًا خطأً يحدث في عرض الذات التي تتبع نظرية بيروك، وتدفع الأفراد لإعادة حصاد سلوكهم، وتعدل أفعالهم لحماية التحقق من الهوية، ولكن هذه الديناميات تكشف -فقط- ما إذا كان الفرد سيصبح على وعي تام أو أن الهوية لم يتم التحقق منها.

وكما اقترح مكول وسيمونز (As McCall and Simons suggest) أن الناس غالبًا ما تستدعى العديد من إستراتيجيات الدفاع من أجل حماية الذات من هذا المصير. ويستطيع الناس الاشتراك في الإدراك المحدد، أو تفسير استجابات الآخرين، وغالبًا ما يتنصلون من الجمهور الذي اعترض على مطالبهم من أجل التحقيق، وغالبا ما يتركون المواقف التي لا يستطيعون فيها تأكيد أفكاهم من خلال الآخرين. وأنا لا أعتقد أن مكول وسيمونز (that McCall and Simons) يذهبان بعيدًا عن ما

---

(٢٠) انظر: تيرنر، المبادئ المباشرة ونظرية علم الاجتماع، المجلد ٢ (كلاهما مذكوران في الإيضاح ٧).

يكبته الناس من المشاعر السلبية التي تأتي من الفشل من أجل تحقيق الهوية؛ وذلك لأنهما بسهولة يدفعان هذه المشاعر إلى أسفل مستوى الوعي ولا يشعران به بوصفه درجة من الوعي الكافي.وعلى الرغم من أن هذه المشاعر تبقى مؤكدة للآخرين، أو تصبح متحولة إلى مشاعر جديدة تنتهك بطريقة أكثر المشاعر السلبية التي يجب أن يتحملها الآخرون. وهكذا، فإن ميكانزمات الدفاع الحقيقية تكسر الدائرة السيبرانية المشار إليها عن طريق بيرك، والمتضمنة في نظريات الهوية الأخرى، كما يمنع الكسر الأفراد من تقييم عكسي دقيق بين معدل هويتهم وسلوكياتهم واستجاباتهم لسلوكيات الآخرين.

وفي (الجدول ١ ,٦) سردت أنواعًا متعددة من ميكانزمات الدفاع التي ترى الكبت بمنزلة الميكانزيم الرئيس الذي يزيل المشاعر من الوعي، ويضيف أيويل أيضًا أنماطا إضافية من ميكانزمات الدفاع التي يمكن تنشيطها بعد تلك الإزالة، وتحديد المشاعر الموجهة للذات عن الآخرين، والإسقاط بإسناد المشاعر المسقطة للآخرين والتسامي، وتحويل المشاعر السلبية إلى طاقة إيجابية شعورية، وتكوين رد الفعل بتحويل المشاعر السلبية الداخلية إلى مشاعر إيجابية موجهة نحو الآخرين الذين تسببوا في المشاعر السلبية. وبالنسبة لتحديد المصدر المتسبب في ردود الأفعال العاطفية، والخمس الميكانيزمات الدفاعية الأولى هي تلك التي تم طرحها من خلال هؤلاء الذين يعملون في التحليل النفسي، في حين أن النسبة الأخيرة تأتي من علم النفس المعرفي، وقبل ذلك من علم النفس الجسطلت (Gestalt psychology).

الجدول (١ ,٦) للقمع، والدفاع، والتحول، واستهداف العواطف.

المشاعر المكبوتة	ميكانزيم الدفاع	التحول إلى	الهدف
الغضب، الحزن، الخوف، العار، الذنب، والعزلة	الإزاحة	الغضب	الآخرون، وحدات الشركات و وحدات نوعية
الغضب،الحزن، الخوف، العار، الذنب، والعزلة	الإسقاط	القليل منه ولكن بعض الغضب	إلصاق الغضب، الحزن، الخوف، العار، الذنب، لحالة الميول للآخرين
الغضب، الحزن، الخوف، العار، الذنب، والعزلة	تشكيل رد فعل	المشاعر الإيجابية	الآخرون، ووحدات الشركات و وحدات نوعية
الغضب، الحزن، الخوف، العار، الذنب، والعزلة	التسامي	المشاعر الإيجابية	المهام في وحدات الشركات
الغضب، الحزن، الخوف، العار، الذنب، والعزلة	عزو	الغضب	الآخرون، ووحدات الشركات ووحدات نوعية

لا يعتبر توزيع النسبة عامة للميكانيزمات في حالة الدفاع، ولكن أعتقد أنها ممكن أن تكون الميكانزيم الاجتماعي الأكثر أهمية، ويقوم الناس بعمل نسب معينة لخبراتهم، كما يقومون بعمل توزيعات أو نسب ذاتية إذا ما رأوا أنفسهم مسؤولين عندما يقومون بتجربة إيجابية. ويمكنهم بالمشاعر السلبية أن يضعوا اللوم على الآخرين، وتصنيفات الآخرين، والبناء الاجتماعي في مجهود لحماية الذات من وجود مشاعر ذاتية سلبية.

لهذا التحيز القريب للمشاعر الإيجابية تعزى إلى الذات أو الآخرين في الموقف المباشر، وله تحيزات بعيدة في المشاعر السلبية لتحقيق هدفه البعيد، وكونها مسؤولة عن هذه المشاعر السلبية التي تحمل آثارًا على التزامات الناس نحو الآخرين وعلى البناء الاجتماعي. ويشعر الناس بمشاعر إيجابية عن أنفسهم في الموقف الحالي عندما يمرون بتجربة المشاعر الإيجابية التي تأتى مع تحقيق الهوية، فإنهم يشعرون بتمام معاقبتهم بطريقة إيجابية وأنهم قاموا بتلبية التوقعات الموقفية. ولهذا سيشعرون بأهمية أنفسهم؛ لأن هويتهم أو هوياتهم قد تم التحقق منها، وفي المقابل عندما لا يقوم الناس بتلبية التوقعات فإنه يتم معاقبتهم بطريقة سلبية، وبالتالي فإنهم يفشلون في تأكيد الهوية في الموقف، وبهذا الشكل تثار المشاعر السلبية مثل العار، وهي التي تكون أكثر ألمًا وكبتًا، وبعد ذلك الوحدات الاجتماعية البعيدة مثل أعضاء التصنيف الاجتماعي، أو البناء الاجتماعي للشركات. وبهذه الطريقة، وعلى الرغم من الشعور بالمشاعر السلبية، يستطيع الشخص أن يحمي الذات من خلال رؤية موضوعات خارج الذات تكون مسؤولة عن المشاعر السلبية، وتولد هذه المشاعر السلبية التحيزات ضد أعضاء التصنيفات الاجتماعية عن طريق الجنس، العرق، الانتماء الديني؛ مما يؤدي إلى والعزلة وفقدان الالتزام للبناء الاجتماعي، ويحدث على النقيض من ذلك عندما تزيد المشاعر الإيجابية والالتزامات نحو الآخرين والمواقف.

ومع ذلك فإن البناءات الاجتماعية قد تلغي إمكانية إيجابية الآخرين، وتعمل على تنشيط التقارب بين الناس، والعودة إلى المقابلات على مستوى الوحدات الصغرى للمنظمات الاجتماعية. ولكن ماذا لو أن العواطف لها أخذت طابع التحيزات القريبة والبعيدة؟ وكيف يتم تحقيق الموضوعات البعيدة كالتزام الأفراد بالأهداف الاجتماعية من أجل تحقيق الذات وتلبية التوقعات المحلية؟ إذا كان للمشاعر هذه التحيزات فكيف يكون الحديث عن موضوعات أكثر بعدًا مثل البناء

الاجتماعي الذي يضم كل هذه التكوينات من الأفراد إلى التنظيمات؟ إضافة إلى أن البناء الاجتماعي يعمل على إيجاد أهداف للالتزامات التي يؤديها الأفراد من أجل تحقيق ذواتهم وتلبية التوقعات لهوياتهم، وقد تؤدي تلك المكافآت الإيجابية من الآخرين إلى تنشيط تلك التحيزات، وبالتالي فإنها تظل إقليمية ومرتبطة بالمعايير على مستوى الوحدات الصغرى للمنظمات الاجتماعية. إضافة إلى صنع تعادل سيسمح للمشاعر الإيجابية بكسر القوى الجاذبة للتحيزات الذاتية في عمليات البناء الاجتماعية، وللإجابة عن تلك التساؤلات نقول: إنه عندما يقوم الناس بتجربة المشاعر الإيجابية بثبات لأنواع معينة من المواقف، فإنهم يبدؤون في تكوين إسهامات البناءات الاجتماعية الكبرى التي يتم تضمينها في هذه المواقف. وعندما يقومون بفعل مثل هذا فإنهم يطورون المشاعر الإيجابية والالتزامات لهذه البناءات؛ لأنهم يرون أن هذه الأبنية الاجتماعية مسؤولة عن تحقيق المشاعر الإيجابية للذات، وترفع من إمكانية تحقيقها.

وبهذه الطريقة فإن تحقيق الذات التوافقية سوف يؤدي في النهاية إلى الالتزامات بهذه الأبنية الاجتماعية، وبمعاييرها التي تثير المشاعر الإيجابية لتؤدي إلى تحقيق الذات. وكلما ازداد تحقيق الهويات فسوف يؤدي في النهاية إلى ازدياد وجود هذه الالتزامات، وإن لم توجد هوية لمجموعة أنماط محددة للشركات، أو للمجتمع ككل. وبالفعل فإنها سوف تقوم بالتكوين عندما يتيح الأفراد هويات أخرى بأنواع يحددها البناء الاجتماعي، وإلى أي مدًى تكون فيه الهويات الأخرى مرتبطة بالأدوار في تقسيمات العمل، ويتم تحققها في معايير من خلال هذا التقسيم للفاعلين، وتؤدي ديناميات الهوية بقوى كامنة خلف الالتزامات لهذا البناء الاجتماعي، وربما على النطاق المؤسسي الأكبر الذي يتضمنه هذا البناء. وعلى سبيل المثال فإن التلميذ الجيد الذي تمت مكافأته باستمرار وكانت لديه هوية الدور لتحقيق المطالب سوف يطور الالتزامات لمدارس ناجحة، وبالنهاية سيطور النطاق المؤسسي الشامل للتعليم، وبهذه الطريقة وعن طريق القوى مثل احتياجات التعاملات من أجل تحقيق الذات. ويمكن أن يكون لها آثار كبيرة على مزيد من البنى الاجتماعية على مستوى الوحدات الكبرى، والعكس صحيح؛ لأن الأبنية الكلية تعدُّ الناس للنجاح لتحقيق هويات الدور، وأي هويات أخرى تكون مرتبطة بهذه الأدوار في الجماعات والمنظمات التي سوف تستفيد من التزامات الأفراد، وهذه

الالتزامات ممكن أن تنتقل في النهاية إلى مستوى النطاقات المؤسسية أو المجتمع ككل، والذي يتضمن هذه الجماعات والمنظمات.

الخاتمة
Conclusion

حملت نظرية التفاعل الرمزي تركيبات جورج هيربرت ميد (George Herbert Mead) إلى القرن الحادي والعشرين، وبفعل هذا، فإنها قد أتت للتأكيد على أهمية الذات في التفاعل والديناميات التي تدور حول مجهودات الأفراد لكي يتم التحقق من هوياتهم. ولكن كما هو واضح لإستريكر ومكول وسيميونز وبيرك وستيتس وستشيف (Stryker's McCall and Simons, Burke and Stets Scheff's،) ونظرياتي، وهناك مجهود جدي متنوع لربط ديناميات الذات بالبناء الاجتماعي والثقافات، ويمكن أيضًا للذوات أن تلعب من خلال حدود الثقافة والبناء التي تضع حدودًا، حيث يتم عرض الهويات بطريقة ما ويصبح تأكيد الهويات مرتبطًا بالبناء الاجتماعي والثقافي، وهذا يمكنهم من التشغيل من أجل تأكيد ودعم البناء الاجتماعي، والهويات غير القابلة للتطبيق سوف تنتقل إلى أسفل في التسلسل الهرمى، وللبروز والأهمية سوف تنتقل إلى أعلى الهويات الجديدة متوافقة أكثر مع البناء والثقافة، وبهذا يزيد الانسجام بين الهويات والبناء الاجتماعي والثقافة في المجتمع.

وكما هو موجود في العديد من النظريات الموجهه للتحليل النفسي، فإن إثارة المشاعر السلبية حول تمثيلات الذات للآخرين، والمشاعر السلبية التي تمت ممارستها عندما لا يقوم الآخرون بتحقيق الذات، أو قبول خطوط محددة من السلوك بطريقة أكثر عمومية، فإن النظريات تقود الشخص بأن يمر بمشاعر سلبية مثل العار التي إذا لم يتم إدراكه بشكل كامل، أو تم كبته فسوف يتحول إلى مشاعر أخرى تتعلق بسلوكيات لخرق الحدود الاجتماعية، فعندما يتم كسر هذا الحد الاجتماعي فإن التفاعلات تصبح مدمرة لتضامن الجماعة. وعندما يتم كبت المشاعر فإنها تتحول إلى الغضب ومشاعر سلبية أخرى تعطل التفاعل الاجتماعي، وتؤكد على أن الأفراد سوف يكون لديهم مشكلة في تحقيق هوياتهم؛ لأنها تؤدي إلى المزيد من المشاعر السلبية.

إن المشاعر المثارة على مستوى سلوك العلاقات الشخصية تكون خاضعة للصفات التي تسبب هذه المشاعر، بينما المشاعر الإيجابية تؤدي مكافآة إيجابية نحو الآخرين، وبشكل نموذجي فإنها تبقى إقليمية أو داخلية للمواقف التي تم إثارتها بشكل أولي. كما تميل المشاعر السلبية إلى أن تكون قاسية أكثر بسبب آثار الكبت لحماية الذات. وعندما يتم قمع المشاعر السلبية فإنها غالبًا ما تتحول إلى الغضب؛ و الغضب يؤدي إلى حالات إدراكية مثل: التحيز في البناء الاجتماعي والثقافة وتصنيفات الآخرين، وبالتالي تحمى الذات والموقف الإقليمي. وهكذا فإن العديد من عمليات الوحدات الكبرى مثل الصراع والعنف العرقي، والتعبئة الجماهرية للأشخاص الغاضبين، يمكن أن يكون -غالبًا- مرتبطًا بما مر به الأفراد في معدل التفاعل وفي مجهوداتهم؛ لكي يتم تحقيق هوياتهم.

إن تحقق الهويات بثبات عبر المواقف يبدأ في كسر التحيزات القريبة للمشاعر الإيجابية التي تسبب للناس في عمل ما مساهمات إضافية للجماعات الداخلية، وبعد ذلك البناء الاجتماعي الأكبر الذي يتضمن الجماعات، وهذا يولد قنوات للمشاعر الإيجابية كي تنتقل نحو الخارج للبناء الاجتماعي الكلي، ومن المحتمل أن تخلق الجماعات الالتزامات والشرعية للبناء الاجتماعي الكلي الذي يبنى في النهاية من الأفراد عند المستوى الوحدات الكبرى لتتحقق الهوية الرئيسة عبر العديد من التفاعلات على المستوى الوحدات الصغرى.

وهكذا فإن علم الاجتماع النظري قد أخذ أفكار ميد بعين الاعتبار وراء تكوينه الأساسي، وبهذا يمكننا أن نخلص بالإشارة إلى العناصر الأساسية للتفاعل الرمزي كما تطور عبر المائة سنة الأخيرة، وهي كالآتي:

١ -يولد الأفراد في نشاط اجتماعي مستمر مقيّد بالبناء الاجتماعي، ويتم تنظيمه عن طريق الثقافة، وسوف يتعلم الأفراد ويقومون بحفظ سلوكياتهم من مخزون السلوكيات التي تسهل عملية التكيف للأنماط المستمرة للسلوك التعاوني.

٢ -أول قدرة سلوكية نقدية يتعلمها الأفراد هي الإيماءات التقليدية التي تحمل نفس المعاني للشخص الذي يرسل ويستقبل الاتصال، ومثل هذه القدرات تكون متكيفة، حيث إنها تسمح للأفراد بالتواصل بفاعلية مع احتياجاتهم و نواياهم.

٣-مع القدرة التكيفية لاستخدام الإيماءات التقليدية يُكتسب الأفراد قدرة أخذ الأدوار مع الآخرين، ووضع أنفسهم في أدوار الآخرين، وتحديد منظورهم -وبالمثل مسار العمل- في مواقفهم، وبالتالي التعاون مع الآخرين في النشاط المنسق المستمر، ومع مرور الوقت تزداد قدرة أخذ الدور الذي يمكن للفرد أن يحصل عليه مع:

أ) الآخرين المشتركين في نفس الوقت في الأنشطة المنسقة.

ب) الآخرين غير الموجودين في الموقف.

ج) الآخرين المعموميين الذين يقومون بتشخيص القيم، والمعتقدات، والاتجاهات، ووجهات نظر المواقف، والمنظمات، والمجتمعات، والمجالات المؤسسية، والمجتمع بأكمله.

٤-عند الحصول على الدور فإن القدرة العقلية تصبح قادرة على تخيل مسارات بديلة للعمل لرؤية التبعيات المتشابهة في الموقف التي تسهل التفاعل بين الآخرين.

٥-يكتسب الأفراد القدرة على رؤية أنفسهم في موقف ما لقراءة وتفسير إيماءات الذات وإيعازاتها الخاصة بالآخرين يقدمه الأفراد عن الذات من أجل تقييمها من منظور الآخرين والعموم، واستخلاص الصور والإدراكات للآخرين في موقف ما.

٦-عندما تتبلور صورة الذات فإنها سوف تشكل إدراكات لمعرفة هويات الجماعات التي بدورها يسعى الأفراد من خلالها تنويع التفاعل مع الآخرين، ويمكن لهذه الهويات أن تتطور من خلال العديد من الأبعاد الأساسية:

أ) تمثل هوية الشخص أو الجوهر إدراكات ومشاعر أكثر ديمومة واستقرارًا يشعر بها الأشخاص عن أنفسهم في كل المواقف.

ب)الهويات الاجتماعية التي هي بمثابة الإدراكات، والتقييمات والمشاعر وربط الذات بالعضويات في التصنيفات التي تكون بارزة في موقف وعلى نطاق أوسع في المجتمع.

ج) هويات الجماعات التي هي بمثابة الإدراكات عن الذات وحالات من إثارة المشاعر المرتبطة بكشف الهوية مع العضوية في الجماعات والمنظمات، والمجتمعات.

د) هويات الدور التي هي بمثابة إدراكات عن الذات وحالات المشاعر المثارة من خلال تولي المكانة في البناء الاجتماعي ولعب الأدوار في هذا البناء.

٧-غالبًا ما يحدد تنظيم الهويات في تسلسل هرمي بروزها، وأهميتها، ومتى وأين يتم تقديم هوية خاصة للآخرين؟

٨-الهويات من أهم القوى الدافعة في عمل الانسان؛ لأن جميع الهويات يتم عرضها في كل المواقف كي يستطيع الآخرون التحقق من تلك الهويات من خلال:

أ) يمكن التحقق من الهوية عبر الآخرين عندما يمر الأفراد بتجربة مشاعر إيجابية، بمكافآت إيجابية، مع تطوير الالتزامات نحو الآخرين والموقف.

ب) إذا لم يتم التحقق من الهويات عن طريق الآخرين فسوف يمر الأفراد بمشاعر سلبية، والسعي لإيجاد قبول لهوياتهم وردود أفعال الآخر في الانسجام معها، وقد يتبع الأشخاص طرقًا عدة لقبولها منها:

١- تعديل السلوكيات بحيث يتسنى للآخرين التحقق من الهوية.

٢- تغير الهوية المعروضة للآخرين.

٣- تجنب المواقف السلبية حيث لا يتم التحقق من الهويات.

٤- الاشتراك في الإستراتيجيات الدفاعية التي تتضمن الآتي:

أ) الإدراك المحدد لاستجابات الآخرين.

ب) التفسير المحدد لاستجابات الآخرين.

ج) التنصل من السلوكيات التي تؤدي إلى الفشل لتحقق الذات.

د) التنصل من الجمهور كامتلاك الحق في تقييم الذات.

هـ) استخدام الاعتمادات من الخبرات الماضية التي تحقق الهوية للخروج سالمًا من موقف محدد.

و - كبت المشاعر السلبية المرتبطة بالفشل في تحقق الذات.

٩- النجاح أو الفشل لتحقق الذات نسبة للهوية من الممكن أن تكون له تداعيات لالتزامات الأفراد نحو الآخرين، أو لموقف، والبناء الاجتماعي الأوسع معتمدة على النسبة التي يعملها الأفراد لمعرفة المشاعر عندما:

أ) يتم التحقق من الذات والهويات عندما يطور الأفراد مشاعر إيجابية عن الذات والآخرين والالتزامات نحو الآخرين والمواقف الحالية.

ب) عندما يتم التحقق من الذات والهويات بثباتها عبر عدد كبير من المواقف التي يتم فيها التحقق من خلال المجالات المؤسسية في المجتمع فسوف يقوم الأفراد بتجربة مشاعر إيجابية تبدأ في تحقيق الأبنية الاجتماعية الضخمة؛ وبالتالي تؤدي بهم إلى تطوير الالتزامات لعدد من الأبنية الاجتماعية الكلية وثقافاتهم.

ج) عندما لا يتم التحقق من الذات والهويات سوف يقوم الأفراد بعمل المزيد من المشاركات المتنوعة لآخرين متنوعين أكثر من الذات والآخرين في الموقف الإقليمي، والقيام بذلك لتقليل التزاماتهم إلى الأبنية الاجتماعية الخارجية.

١٠ -تقيد بعض أنماط المنظمات الاجتماعية والثقافية الأفراد؛ ليتم تبديلهم بأفراد آخرين لظهور قدراتهم السلوكية لأعلى ولتحقيق ذواتهم الذي قد يؤدي إلى التزامات تكبد البناء الاجتماعي والثقافي لتحكم عليه بالفشل، ويؤدي هذا الأمر إلى تحقيق ذوات بمشاعر سلبية تستهدف البناء الاجتماعي الخارجي وثقافاتهم. وهكذا تثار المشاعر الإيجابية من أجل التحقق من الذات لتكبد الذات وتضفي الشرعية على البنائي الاجتماعية، حيث تثار المشاعر السلبية بالفشل في تحقق الذات الذي يمكن أن يؤدي إلى تغيير في البناء الاجتماعي والثقافات.

الفصل السابع

تنظير التمثيل المسرحي
DRAMATURGICAL THEORIZING

جذور نظرية التمثيل المسرحي لدوركايم
The Durkheimian Roots of Dramaturical Theory

في أواخر سنوات القرن التاسع عشر عام (١٨٩٠م)، بدأ إميل دوركايم البحث عن الآليات التي تولد التضامن في المجتمعات البشرية، وقد قام إميل دوركايم[١] (Emile Durkheim) بالتدريس لفترة طويلة لمقرر علم الاجتماع الديني، إلا أن تفكيره بدأ يتغير بمجرد أن شرع في البحث بصورة أكثر وضوحًا عن الآليات التي تولد التضامن. وفي عمله الأخير المميز بعنوان "الأشكال الأولية للحياة الدينية"[٢] راجع دوركايم البيانات حول ما كان يعتقد أن يكون عليه المجتمع الأكثر بدائية كقبيلة الأرونتا الأصليين بوسط أستراليا (the Arunta aboriginals of central Australia). وقد شعر دوركايم أن من الممكن رؤية الآليات الأساسية للتضامن الاجتماعي من خلال إزالة التعقيدات الأكثر في المجتمعات الصناعية. ومن خلال مواصفات قبيلة الأرونتا الموجودين حول آليس سبرينجز بأستراليا (Australia ،Alice Springs)، فإن الأرونتا الموجودين في المناطق النائية من شأنهم أن يجتمعوا بصفة منتظمة، وهذا يوجِد -بدوره- حديثًا متبادَلًا وعواطف متبادلة بينهم، أو ما أطلق

---

(١) إميل دوركهايم ، الأشكال الأولية للحياة الدينية (نيويورك: فري برس ، ١٩٤٧م، نُشرت أولًا في عام ١٩١٢م) ، ولكن قبل وقت طويل من النشر ، تساءل دوركهايم عما إذا كان قد غاب عن قوة رئيسة من التكامل الاجتماعي في عمله في وقت سابق.

(٢) المرجع السابق.

عليه دوركايم "الانفعال والغليان" بين تلك التجمعات. والواضح أنه مع مرور الوقت بدأ الأرونتا يشعرون بقوى خارجية تضغط عليهم، حيث إنهم اجتمعوا في ما يمكن أن يكون أفضل وصف له بأنه نوع من "الكرنفال" (these carnivals)، وإضافة إلى ذلك فإن شعورهم بالحاجة إلى القوة جعلهم يرمزون إليها بطواطم، ويحتفلون بها بوصفها قوة خارقة. وعند اجتماعهم في مكان ستكون هذه الطواطم مصدر الطقوس التي تؤكد على روح التضامن في هذه المجتمعات البدائية، واعتقد دوركايم أن هذه الكرنفالات كانت تعبر عن أصول الدين، ولكن كان هذا لخدمة مقاصدهم، وكانت هذه الطقوس أيضًا أساسًا لتضامن الجماعة من خلال: (أ) التفاعل، و (ب) الانفعال العاطفي الساري، (ج) التمثيل الرمزي لقوة هذا الانفعال في الطوطم، (د) الطقوس الموجهه لهذا الطوطم، وهي التي تُنشئ التضامن في نهاية المطاف.وأدت هذه القوى إلى إعادة إيجاد الدين بين السكان البدائيين، حيث إن الأرونتا وغيرهم من السكان البدائيين جسدوا قوة علاقاتهم الخاصة؛ ومن ثم اعتقدوا أنها قوى خارقة، بينما هي في الحقيقة كانت قوة الناس أنفسهم.

أدرك دوركايم في عمله السابق عام (١٨٩٢م) أهمية تقسيم العمل في المجتمع[٣] بوصفه عنصرَ أساسٍ من عناصر التكامل في المجتمعات المعقدة. فعندما تكون المجتمعات متباينة يكون هناك احتمال بتطوير أواصر التضامن على نطاق المجتمع، والتزامات مشحونة عاطفيًّا تجاه المجتمع كله عن طريق طقوس يتم توجيهها بوصفها رموزًا ذات درجة عالية من التعميم تمثل المجتمع بأسره، فيقضي الناس حياتهم اليومية مختلفة نوعًا ما بسبب مواقعهم المختلفة في تقسيم العمل في المجتمعات المتباينة، إلا أنهم لا يزالون يمارسون "العبادة" مثل (قبيلة الأرونتا الأكبر مجتمعًا) وبالنسبة لدوركايم أيضًا المجتمع الفرنسي بأكمله. ومن خلال سن طقوس مثيرة للانفعال للطواطم فإنها ترمز للمجتمع، وليس من الضروري أن تكون الطواطم أشياء مادية مثل العصا الطوطمية الفعلية، بل قد تكون شكلًا آخر من الأشكال الرمزية مثل إصرار الفرنسيين الطويل الأمد على عدم "مزج" لغتهم بكلمات وعبارات من لغات أخرى. وفي الواقع إن دوركايم بوصفه شخصية بارزة في

---

(٣) Emile Durkheim, The Division of Labor in Society (New York: Free Press. 1947, originally published in 1892).

التعليم عَمِل على تطبيق مدرسة علمانية في المدرسة في فرنسا، مع إحلال المعلم محل الكاهن في الدين، وقيادة الطلاب نحو طقوس يومية تشكل طواطم مثل هذا كالشعار ورموز أخرى لفرنسا.

وأثار هذا الاتجاه نقاشًا له تأثير هائل على عدد من أصحاب النظريات في العصر الحديث، مثل تحليل راندال كولينز (Randall Collins's analysis) لطقوس التفاعل في نظريته للصراع (انظر: الفصل ٣)، إلا أن كولينز (Collins) لم يتأثر فقط بدوركايم (Durkheim)، بل تأثر أيضًا بمؤسس واضع النظريات المسرحية في الولايات المتحدة وهو إرفنج غوفمان (Erving Goffman). ومما قدمه بالتأكيد دوركايم أعلاه عن الصناعة المسرحية، فعادة ما ينظر إليها على أنها مخالفة للتفاعلية الرمزية، إلا أن غوفمان لم يرَ نفسه -بوصفه سليلًا فكريًّا لجورج هربرت ميد (انظر الفصل الأخير)- المؤسس الفكري للتفاعلية الرمزية. وكان غوفمان دائمًا ما يدّعي أنه كان من أتباع دوركايم، مركزًا على العمليات التي من خلالها تقوم على أعمال الأفراد الطقوسية التي تحدث في أثناء المقابلات التي تكون وجها لوجه، وبتشكيل محتمل للمجتمعات. وقد رأى أن الذات مهمة في هذه العملية؛ لأن الأفراد يقومون بتقديم ذواتهم للآخرين، لكن هذا التقديم لا يعكس إلى حد كبير الشعور الداخلي العميق للهوية كممارسات إستراتيجية في موقف معطًى لتنفيذ اتجاه التعامل وجها لوجه مع الآخرين، وكان يشك في أن الناس يمتلكون هويات ثابتة ودائمًا ما يسعون لتحقيقها، بل إن الذات جزءٌ من لعبة إستراتيجية لتحقيق التفاعل وإدراكه أيًّا كانت المقاصد التي يسعى إليها الأفراد، وهكذا يوجد تحول كبير جدًّا في التركيز على المقارنة بين التمثيل المسرحي (dramaturgy) للتفاعلية الرمزية.

التمثيل المسرحي لإرفنج غوفمان Erving Goffman's Dramaturgical

نظرية المقابلات Theory of Encounters

الاستعارة في التمثيل المسرحي The Dramaturgical Metaphor

يطلق مصطلح التمثيل المسرحي على منهج غوفمان بسبب القياس الذي أجراه على المسرح الذي يتساوى مع شكسبير (Shakespeare) في أنه أقل في الأقدمية. فبالنسبة لغوفمان (Goffinan) فإنه يمتلك التفاعل بطريقه مماثلة لنص معياري ومجموعة من التوقعات الواضحة نسبيًّا حول الكيفية التي يُفترض أن يتصرف بها الأفراد، إلا أن قدرًا كبيرًا من الدراما تكون محتملة ضمن النص،

فيستطيع الأفراد لعب الدور المطلوب في النص بطرق كثيرة مع نمط شخصي يعكس نوع الاتجاه الذي يتخذه الشخص عند تقديمه لذاته. هناك أيضًا مرحلة تتضمن البيئة المحيطة (تكوين مساحة) والدعائم التي يمكن استخدامها لتنفيذ الأداء المسرحي فهناك دائمًا جمهور سواء أكانوا حاضرين بالفعل أم هم مجرد خيال في عقل الممثل، وتُقَدم الذات لإقامة نوع معين من الاتصال بالجمهور. وأخيرًا أكد غوفمان، (Goffinan) على أن الممثلين دائمًا ما يقومون بالتصرف بشكل إستراتيجي، فغالبًا ما يوجد لديهم برامج عمل تعكس تصرفاتهم تجاه الجماهير، حتى لو كانت هذه البرامج مخفية عن الجمهور. فعلى سبيل المثال، تقديم ذات رجل محتال للجمهور بطريقة إستراتيجية على أنه على سبيل المثال: صادق، وجدير بالثقة وأمين، إلا أنه في الحقيقة يخفي المقاصد الإستراتيجية الحقيقية كتزوير لعلامة الأموال. لذلك يأتي التشابه على المسرح من خلال الناس الذين يقومون عمدًا بالتلاعب عند تقديم ذواتهم كالتظاهر بشعور معين لمقاصد إستراتيجية وفي أغلب الأحيان سلبية.

المقابلات Encounters

استخدم غوفمان بشكل عام مصطلحات (unfocused and focused) التركيز وعدم التركيز للإشارة إلى نوعين أساسيين من التفاعل؛ هما: مقابلة مقصودة، وسماها: المقابلات المركزة، ومقابلة غير مقصودة، سماها: المقابلات غير المركزة. والمقابلات غير المركزة تكون مقابلة عابرة في مكان ما دون تفاعل مباشر بين المشاركين في هذه المقابلة؛ لأن المقابلة غير المركزة تحدث كما هو الحال عندما يتقابل اثنان لا يعرف أحدهما الآخر في غرفة أو مكان عام، وقد يتعرف كل منهما على الآخر عن طريق الملاحظة[٤] من خلال طريقة لبسه، أو أسلوبه في الحديث، أو تصرفه في أثناء المواقف. ودون سابق تخطيط لهذا النوع من المقابلة، ولم تحدث هذه المقابلة لهدف أو لأمر ما بين المتقابلين، إلا أن كلًّا منهما يحاول أن يظهر أمام الآخر بالشكل المناسب واللائق كنوع من التفاعل العابر. ويرى غوفمان أن هذه المواقف في المقابلات هي جزء مهم من التفاعل غير المباشر أو غير المقصود؛ لأن معظم ما يفعله الناس هو تبادل النظرات وملاحظة كل منهما الآخر في الأماكن العامة. وعلى النقيض من ذلك

(٤) إيرفينج غوفمان، لقاءات: دراستان في علم اجتماع التفاعل (إنديانابوليس، إن: بوبس – ميريل، ١٩٦١م)، ص ٣٠.

المقابلات المركزة التي تحدث لهدف معين وتفاعل مركز أو لتحقيق ما يسعى إليه المشاركون، ويحدث بين المشاركين بوصفه فعلًا مقصودًا، ويتم المحافظة على وقت المقابلة، والانتباه المعرفي والبصرى لكل منهما نحو الآخر، فالذي يجمعهم في المقابلة المركزة مهمة مشتركة يسعى كل منهما إلى القيام بها، ويتم التعارف بينهما والتفاعل المباشر على أنها تفاعل مشترك حول موضوع ما أو ظرف ما لتحقيق هدف مقصود مخطط لها مسبقًا، ويتم اللقاء على أنه تفاعل مباشر وجهًا لوجه. (٥)

المقابلات التركيزية
Focused Encounters

ويعرَّف اللقاء على أنه تفاعل تركيزي مقصود وتفاعل مباشر يكشف عن الخصائص الآتية: (٦)

١ – التركيز المرئي والمعرفي الموجَّه باهتمام.

٢ – الانفتاح المتبادل والتفصيلي للتواصل اللفظي.

٣– الملاءمة المرتفعة المتبادلة في أثناء المقابلات.

٤ – زيادة الإدراك والمراقبة المتبادلة عن طريق التواصل مباشرة في أثناء الحشد البيئي.

٥– إبراز الضمير "نحن" للشعور بالتضامن واتحاد المشاعر.

٦ – الطقوس التشريفية والاحتفالية للافتتاح والخواتم والمداخل والخروج.

٧– مجموعة الإجراءات البديلة أو التعويضية لتصحيح الأفعال المنحرفة.

ولاستمراريته ذلك؛ تقوم المقابلات بتطوير حاجز يمنع اختراقه للعالم الاجتماعي الأوسع، حيث تتم التفاعلات وتستمر المقابلات من خلال مجموعة من القواعد. وقد وضع جوفمان في كتابه (المقابلات) العديد من القواعد، ومن أكثر أعماله أهميةً: كتابه عن"الطقوس التفاعلية". (٧) ويمكن الجمع بين كل من المقابلات والطقوس التفاعلية عن طريق مجموعة من القواعد التي تُوجّه التفاعل في المقابلات التركيزية على النحو الآتي:

---

(٥) المرجع السابق، ص ٣١.

(٦)المرجع السابق ، ص ٣٣؛ انظر: العمل الرئيس في وقت سابق حيث تم تطوير هذه الأفكار لأول مرة: إيرفينج جوفمان ، تقديم الذات في الحياة اليومية (جاردن سيتي ، نيويورك: مرساة ، ١٩٥٩م).

(٧) إيرفينج غوفمان ، طقوس التفاعل: مقالات عن السلوك المباشر (جاردن سيتي ، نيويورك: آنكور ، ١٩٦٧م).

١- قواعد اللاعلاقية: التي تؤطر الموقف بحيث تستبعد فيه أدوات معينة مثل: (خصائص المشاركين، والحالات النفسية، والقيم، والمعايير الثقافية، إلخ).

٢- قواعد التحول: هي الأدوات التي تعمل على تحديد وتعديل أدوات التنقل عبر حاجز المقابلات من خلال القواعد اللاعلاقية غير ذات الصلة وتغييرها لتناسب وتلائم التفاعل.

٣- قواعد الموارد المحققة: وتعمل على توافر مخطط عام لتفسير الأنشطة بين المشتركين، والتعبير عنها عند المقابلات.

٤- قواعد الحديث: وهي الإجراءات والاتفاقيات والممارسات التي تُوجه تسلسل العبارات اللفظية فيما يتعلق بـ:

أ) الحفاظ على التركيز الموجه للانتباه.

ب) تأسيس تلميحات صريحة لتحديد متى ينتهي متحدث ومتى يستطيع الآخر في البدء.

ج) تحديد متى وكم مرة يمكن للشخص الكلام خلال المقابلة المركزة؟ وتنظيم فترات المقاطعة والتوقف في المقابلة.

د- التوجيه باستخدام أسلوب اللباقة والأدب حتى أثناء مواجهة الخلافات.

٥-قواعد احترام الذات التي تشجع المشاركين لتكريم جهودهم الخاصة وتقديم أنفسهم في ضوء معين من اللباقة والإتكيت.

وهكذا يتم توجيه التفاعل من خلال أشكال معقدة من القواعد التي يتعلم الأفراد منها كيفية استخدامها وتطبيقها في الأنواع المختلفة للمقابلات عند الدخول في أنواع متغايرة من التجمعات والمناسبات الاجتماعية. وبالتالي فإن قدرة الناس على التمسك بهذه القواعد واستخدامها يدعم -إلى حد كبير- واقع العالم الاجتماعي، وعندما تعمل هذه القواعد على نحو فاعل يقوم الأفراد بتطوير حالة من النشوة (الاعتزاز)، أو ما أطلق عليه راندال كولينز "الطاقة العاطفية "المدعومة. ويكون الآلية الرئيسة للابتعاد عن القلق والمحافظة على التكامل في أثناء المقابلة هو استخدام الطقوس .

الطقوس Ritual

في طقوس التفاعل، كان من أعظم إسهام غوفمان (Goffmans) هو التعرف على الطقوس البسيطة التي تبدو تافهة، وطقوس الحياة اليومية مثل: "مرحبًا، كيف حالك؟ " "صباح الخير"،

"من بَعدِك"، والأشكال النمطية الأخرى للكلام، تعتبر جميعها ضرورية للحفاظ على النظام الاجتماعي تمامًا بنفس القدر الذي تم به النظر إلى الطقوس الكبرى التي أكد عليها دوركايم بين سكان الأرونتا الأصليين على أنها تحافظ على النظام الاجتماعي. ومن خلال كتاب جوفمان، فإن هدفه هو إعادة صياغة علم النفس الاجتماعي لإميل دوركايم في ثوب عصري[٨] عن طريق الإقرار أنه عندما يجتمع الأفراد ويبدؤون في التفاعل يكون سلوكهم طقوسي إلى حد كبير. فالذوات الفاعلة تُشكّل كل مرحلة من مراحل الاتصال الشخصي بالتسلسلات النمطية للسلوك الذي يحتج بقواعد المقابلة ويصبح في الوقت نفسه وسيطًا أو وسيلة يتم من خلاله اتباع القواعد. وهكذا فإن الطقوس أساسية؛ لأنها: (أ) تشجع الأفراد على المشاركة في التفاعل. (ب) وتجعلهم يدركون قواعد التحول اللاعلائقى، واستخدام الموارد، والحديث المناسب. (ج) وتوجِّههم في أثناء فترة التفاعل. (د) وتساعدهم على تصحيح الخروقات والتجاوزات.

ولعل الأكثر أهمية هي تلك الطقوس التي تتمحور حول الحماية والسلوك هي الأكثر أهمية. فالاحترام يتعلق بالطقوس الشخصية التي تعبر عن احترام الأفراد للآخرين[٩]. ورغبتهم في التفاعل، وعن عواطفهم ومشاعرهم الأخرى، ومشاركتهم في المقابلة. وبتعبير غوفمان يؤدي الاحترام إلى ظهور الإخلاص الذي من خلاله تقوم الذات الفاعلة بالاحتفاء وتأكيد علاقتها بالمتلقي. وهكذا على ما يبدو فإن العبارات النمطية البسيطة مثل "من الجيد؟"، كيف حالك؟ "، "ماذا تفعل؟ "، "مع السلامة"، "أراك لاحقًا"، والكثير من العبارات النمطية الأخرى بجانب الحركات الجسدية، تكون عبارة عن طقوس تعرض استشهاد السلوك بقواعد مناسبة وتوجيهه نحو الافتتاح، واختتام التفاعل.

إن طقوس الانقياد عند غوفمان يمكن تقسيمها إلى نوعين: (١) طقوس التجنب (٢) والطقوس التقديمية. وطقوس التجنب هي التي يستخدمها الفرد للحفاظ على وجود مسافة من الآخر، ولتجنب خرق الدائرة المثالية التي تحيط حول الآخرين، ويُعدُّ مثل هذه الطقوس الأكثر

---

(٨) المرجع السابق ص. ٣٩ ، وبخاصة عمل دوركايم في وقت لاحق في الأشكال الابتدائية للحياة الدينية، (انظر: الإيضاح ١ للاقتباس الكامل).

(٩) Gofiman, Interaction Ritual pp. 56-67 (sec note 7).

شيوعًا بين غير المتكافئين. أما الطقوس التقديمية: وتنقل كيف يحترم الشخص الآخرين كمتساوين ، أو أقل شأنًا أو أعلى شأنًا منه ، وكيف يتوقع من الآخرين معاملة هذا الشخص. وقد رأى غوفمان أن التفاعل دائمًا ما يشتمل على نقاش بين طقوس التجنب والطقوس التمثيلية فيحترم الأفراد بعضهم بعضًا، ويحافظون على وجود مسافة في أثناء اتصالهم وإنجاز الأمور.

وفي المقابل، فإن السلوك هو تصرف طقوسي رسمي يدور حول السلوك والهيئة والشكل العام الذي يعطي تصورًا للآخرين عن الفرد أنه شخص ذو صفات معينة مرغوب فيها أو غير مرغوب فيها، فمن خلال طقوس السلوك يقوم الأفراد بتقديم صورة عن ذاتهم للآخرين، وتوصيل رسالة -في نفس الوقت- بأنهم يمكن الاعتماد عليهم، وأنهم جديرون بالثقة، ويتحلون باللباقة حتى لو كان هذا مجرد خدعة أو شكلي.

وهكذا، وعن طريق تلك الطقوس والسلوك يقوم الأفراد بإقحام أنفسهم في مقابلات من خلال الاستناد إلى القواعد المناسبة لذلك، وإبراز قدراتهم على اتباعهم، في حين يمكنهم إظهار احترامهم للآخرين وتقديم أنفسهم بوصفهم نوعًا مميزًا من الأفراد، ويوفر سَنّ طقوس الاحترام والسلوك هذا في التجمعات المحددة، خاصةً في المقابلات التركيزية، بل ويشمل أيضًا المواقف غير التركيزية بوصفه أساسًا لتكامل المجتمع.

الأدوار Roles

بما أن الناس يقومون بتمثيل الظهور للآخرين في المقابلات، ويستندون في ذلك إلى القواعد المناسبة، ويتبنون الطقوس السلوكية، ويتبادلون الاحترام في سلوكهم، فإنهم أيضًا يحاولون تنظيم الأدوار لأنفسهم أمام الآخرين. والدور جزء من النشاط يمثل اتجاها معينا من التصرف مع الآخرين. في الحقيقة يتوقع من الأشخاص محاولة القيام بأدوار تتسق مع الصفات الشخصية التي جربها الشخص للتعامل مع الآخرين من خلال سلوكهم، وتقديمهم لذواتهم، ووجهاتهم، ودعائم المرحلة، والأدوات التعبيرية، والمظهر. وإذا كان هناك تعارض بين الدور المقدم وهذه الجوانب الإضافية من الأداة، فمن المحتمل عندها أن يقوم الآخرون المشاركون في الموقف بزجر الفرد من خلال إشارات وإيماءات خفية. وتم دفع هؤلاء الآخرين لفعل ذلك بسبب التناقض بين الدور

الأخير وإشارات الأداء الأخرى التي تعصف بتعريف الموقف، والمعنى الأساس للواقع الذي يفرز التعريف. وهكذا فإن لعب الأدوار في موقف ما سيتطلب بطريقة كبيرة استجابات وردود أفعال الآخرين، (فيكون من الصعب تغيير الدور في موقف بمجرد إقرار الآخرين به؛ لأن هذا قد يتطلب الكثير من العمل من جانب الآخرين، وسيؤدي إلى خلل في الإجراءات الروتينية القائمة في الموقف.

ومع ذلك غالبًا ما يدرك مزيل هذه الأدوار بأنها تتعارض مع نظرتهم لذاتهم، وفي هذه الأحوال سيقوم الأشخاص بإظهار ما أسماه جوفمان بـ (تباعد الدور)؛ حيث يتم الانتقال إلى انفصال الشخص عن الدور. وأكد جوفمان بأن مثل هذه الأبعاد تسمح للأفراد: (أ) إبعاد التوتر المصاحب للدور الذي تم عدُّه تقليلًا من الكرامة .(ب) تقديم جوانب إضافية للذات تتجاوز حدود الدور. (ج) إزالة عبء الامتثال الكامل للدور؛ مما يجعل الخروقات الصغيرة أقل مأساوية وقلقًا للآخرين.[١٠] لقاءات غوفمان، ص ١١٣، (انظر: الإيضاح ٤).

ويعدُّ تباعد الدور أحد جوانب عملية اعتناق الدور الأكثر شمولًا، فيكشف الأشخاص عن درجات متفاوتة من التعلق والانخراط في الدور مثل تطرف أحدهم في اختيار تباعد الدور لتطرف الآخر في استحواذ الدور عليه، أو انهماكه بالكامل فيه. فالأدوار التي يسيطر عليها الأفراد من المرجح أن تشتمل على درجات عالية من الاعتناق، بينما يتم لعب الأدوار التي يخضع لها الفرد بطريقة تباعد الدور إلى حد كبير.

الذات Self

يرى جوفمان الذات على أنها واقعية، ومتوقفة على استجابات الآخرين، وعلى الرغم من أن أحد النشاطات الأساسية للممثلين في موقف ما هو تقديم ذاتهم للآخرين، إلا أن جوفمان كان مشككًا حول الجوهر ومستوى الشخص، أو ما وراء الموقف المتعلق بمفهوم الذات الذي يعدُّ جزءًا من شخصية الأفراد. فبالنسبة لغوفمان يرى أن الأفراد لا يمتلكون شخصية أو هوية أساسية يمكن حملها من موقف لموقف، كما سيؤكد الكثير من علماء التفاعلية الرمزية. فلا يزال الناس يقدمون ذواتهم في موقف معين، وتكون ردود فعل الآخرين على هذا التقديم هي القوى الرئيسة المحركة في

(١٠) Goffman Encounters,P.113 (see note 4)

جميع المقابلات، ويصدر الأفراد باستمرار إشارات للسلوك التي تُبرز صور ذواتهم، وهكذا يشارك الناس دائمًا في الأداء؛ لأنهم يمثلون اتجاهًا ما يسعى الأفراد فيه إلى أن يظلوا في المواجهة أو يحافظوا عليها عن طريق تقديم صورة لذاتهم من خلال اتجاههم الذي يدعمه ردود فعل الآخرين، وتسانده القوى الموضوعية في موقف ما. وعلى العكس من ذلك يكون الشخص في مواجهة الخطأ أو خارج المواجهة عندما يكون الاتجاه المرسل غير مناسب، أو غير مقبول للآخرين. وهكذا فإن مواجهة الأشخاص هي فقط على سبيل الاستعارة؛ لأنه يجب على الآخرين الإقرار باتجاه الفرد في السلوك. إلا أن الناس سيحاولون -بشكل عام- إذا استطاعوا السماح للآخر بتقديم مواجهة معطاة، والاستمرار عليها. إنهم يتواصلون مع إيماءات جسدية خفية، وكلام لفظي يؤكد المواجهة المعطاة، وعند القيام بذلك يؤكدون على تحديد الموقف، وتعزيز شعور الواقع المشترك. ولأن شعور الناس عما هو حقيقي يعتمد على تحديد متفق عليه للموقف؛ فسيكون من الصعب تغيير الاتجاه والمواجهة لهذه المقابلة بمجرد إقامتها. ولتغيير المواجهة والاتجاه الذي عن طريقه تم تقديمها؛ فإن ذلك يتطلب إعادة تحديد الموقف، وإعادة بناء الشعور بالواقع الذي يمكن أن يكون مرهقًا، ويستطيع أن يخرق التفاعل.

وعادة ما تبدأ مشاركات المواجهة باستخدام العين للتواصل، وبمجرد البدء فإنها تتضمن طقوسًا افتتاحية مناسبة للموقف على النحو الذي يحدد طول آخر مشاركة، ومقدار الوقت منذ المشاركة السابقة، ومستوى التفاوت، وهكذا. ويستخدم كل فرد في أثناء فترة مشاركة المواجهة المهارة للمحافظة على تقديمات مواجهة بعضهم بعضًا ما أمكن ذلك. واتجاه السلوك الذي يتطلب هذه التقديمات. ويسعى المشاركون إلى تجنب حدوث اختلال في الموقف، لذلك يقومون باستخدام اللباقة وآداب السلوك للحفاظ على مواجهتهم، ومواجهات الآخرين أو بالإضافة إلى ما يبدو مناسبًا لنوع المقابلة، وكذلك للمجموعة الكبرى، وللمناسبة الاجتماعية الأكثر شمولًا، يحاول الأفراد المحافظة على ما أسماه جوفمان أحيانًا بـ (مساحة الذات) التي تدور حول مثل هذه الأمور؛ كالدعائم الجسدية، والفضاء البيئي، والحفاظ الشخصي، والبيئة التي تحيط بالفرد، وحقوق التخاطب بأن تتحدث ويتم الاستماع إليك، والتي تُعدُّ ضرورية للناس لتطبيق اتجاهاتهم والاستمرار في المواجهة بشكل عام. وكلما زادت مكانة الأفراد كلما كانت مساحة الذات الخاصة بهم أكبر في اللقاء، وانتهاك

مثل هذا الموقع يعطل الموقف، مجبرًا باتخاذ الإجراء التصحيحي للمشاركين لإعادة اتجاهاتهم الشخصية، ومواجهتهم، وتحديدات الموقف، والإحساس بالواقع.

المحادثة Talk

أكد غوفمان في جميع كتاباته على أهمية العبارات اللفظية لتركيز انتباه الناس. فالكلام [١١] يُستخدم لافتتاح وإنهاء التفاعلات، وللسعي للذاتية المشتركة بين الأفراد، ولوضع إطار حول ما يجب التحدث عنه، ولتنظيم التفاعل بشكل متناغم من خلال الكلام كل حسب دوره في المحادثة، والانتقال في المواضيع. وبالتالي يكون للحديث آلية بالغة الأهمية لجذب الأفراد معا، وتركيز انتباههم، والفصل في إيجاد تعريف شامل للموقف. ولأن الحديث أساسي جدًّا للتركيز التفاعلي؛ لأنه ينظمه معياريا، كما أنه ينظم أشكالا أخرى من اختصارات الكلام كإشارات الاستجابة أو المدخلات التعجبية التي ليست بكلمات كاملة مثل: "أي"، "واااو"، "أووه"، "ياي" فقد تم تنظيمهم على أساس متى يمكن استخدامهم، والطريقة التي يتم نطقهم بها، وينظم الحشو اللفظي أيضًا: "أه"، أوه"، أمم"، وما أشبه ذلك، ويتم استخدامه لتسهيل متابعة الحديث. وجوهريًّا، فإنهم يشيرون إلى أن المتحدث لم يجد بعد الكلمة المناسبة، ولكنه يعمل على ذلك، وأنه لا يزال يشارك في المحادثة حتى الإشارات العاطفية، والعبارات المحظورة على ما يبدو، مثل جميع الكلمات القصيرة التي تتكون من أربعة حروف، فهم لا يعبرون بشكل كبير عن المشاعر كالوقوف في صف الآخرين، والتأكيد على أن اهتماماتنا الداخلية يجب أن تكون ملكًا لهم. فمثل هذه العبارات الجياشة تكون معيارية ومنظمة، ولذا فإن هذه الدعوة للدخول إلى بواطننا غالبًا تتم فقط عندما يكون من السهل على الأشخاص الآخرين الحضور إلى أين تأخذهم هذه الرحلة إلى داخلنا؟ [١٢]. ولذا أكد غوفمان أن الأمر ليس كذلك عند صياغة تعريف لقواعد المحادثة؛ لأن المحادثة تتم بطرق معقدة للغاية. فعندما يتحدث الأفراد فإنهم ينشئون قاعدة أو أساسًا للمحادثة والتفاعل، كما يتم التلاعب بسهولة بالرموز الشفوية، وأيضًا يمكنهم تغيير القاعدة الأساسية التي تقوم عليها المحادثة بسهولة، إلا أن

---

(١١) Erving Goffman, Forms of Talk (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1981).

(١٢) المرجع السابق، ص ٨٥.

هذه التغييرات في قواعد المحادثة تمثل طقوسية عالية. وعادة ما تكشف عن رموز واضحة لهذا التغيير عندما يقول أحدهم شيئًا؛ مثل: "دعنا لا نتحدث عن ذلك"، وبالمثل عندما ينطق آخر: هذا "عظيم"، وهذا الشخص أيضًا يغير القاعدة من خلال الطقوس.

وقد أثارت التغييرات في القاعدة قضية الهيمنة بصورة متزايدة على أعمال غوفمان الأخيرة، وهي: قضية التضمين. فقد أدرك غوفمان أن المحادثات يتم تغطيتها بتركيبات، وبالتالي تضمينها في قواعد مختلفة، ومن ثم تكون مدمجة في قاعدة أخرى من المحادثة بما تحمله من معانٍ، وغالبًا ما توجد قواعد عدة للكلام، مثل عندما "يقول أحدهم شيئًا ويقصد به آخر" أو عندما "يُلمِّح" شخص أو "يُضمِّن" كلامه شيئًا آخر. وتكون تركيبات المحادثات هذه التي تم تضمينها في سياقات مختلفة محتملة؛ لأن الكلام قادر على توليد معانٍ معقدة وخفية. فعلى سبيل المثال قد تُبرز السخرية، والتهكم، والتورية، وخِفَّةُ الظِّلّ، وازدواج المعنى، والالتواءات، والتظليل وغيرها من أشكال التلاعب بالكلام لقدرة الأفراد على تغيير القواعد وتضمين السياق في المحادثة، وسوف تشتمل على تركيبات متغيرة مستمرة في القاعدة والسياق، إلا أن هذه التغييرات في القاعدة يتم تنظيمها معياريًّا -إلى حد ما-؛ كي تتم المقابلات بطريقة سلسة ومألوفة.

الارتباك والإصلاح Disruption and Repair

أكد غوفمان أن الارتباك في المقابلات ليس مسألة تافهة، (١٣) فعندما يُصدر الشخص إيماءات تُعارِض الأدوار المعيارية، وتظهر متناقضة، أو تفشل في سن طقوس معينة، أو تبحث عن دور غير ملائم، أو تسعى لاتجاه غير صحيح معياريًّا أو تنظيميًّا، أو تظهر مواجهة خطأً، فإنه يوجد احتمال لوجود موقف من وجهة نظر الشخص ويوجد احتمالية لحدوث إحراج. واستخدام غوفمان عبارته المفضلة "حالما يشعر الفرد بالإحراج" فإن إجاباته قد تتحول إلى دائرة متصاعدة من مستويات الإحراج الأعلى أكثر من أي وقت مضى، ويقوم بتحديد الموقف من وجهة نظر الآخرين، فإنه يهدد معنى الواقع الضروري لهم كي يشعروا براحة. فالأفراد يفترضون ضمنًا أن الناس أُمناء وجديرون بالثقة، وكما يبدو أنهم أكْفاء، وأنه يمكن الاعتماد عليهم، وهكذا عند الحدوث لموقف ما فإنه يتم دفع

---

(١٣) غوفمان، طقوس التفاعل (انظر: الإيضاح ٧).

هذه الافتراضات الضمنية. ويدخل في تنظيم المقابلة الحشد والمناسبة الاجتماعية الكبرى التي تنطوي عليها المقابلة. ولهذا السبب، سوف يسعى الفرد إلى إصلاح الموقف الناجم عن استخدام إيماءات غير ملائمة، وسيستخدم الآخرون المهارة في مساعدة الفرد في جهود الإصلاح، ويتم دعم الشعور بتنظيم الموقف عن طريق مجموعة متنوعة من استجابات الأفراد الصحيحة، واستعدادات الآخرين لاستخدام المهارة في تجاهل الأخطاء الصغيرة. وإذا لم يكن ذلك ممكنًا فبالإمكان توظيف المهارة لتسهيل الجهود التصحيحية لتجاوزات الأفراد، ويعمل الناس على عدم قبول السلوك المخالف كثير الاحتمال. وعندما لا يعدُّ هذا خيارًا يكونون على استعداد لقبول الاعتذارات والتقارير والمعلومات الجديدة والأعذار وغيرها من الجهود اللازمة المعيارية المنظمة في الإصلاح، ويحدث هذا الاستعداد لتَقَبُّل الناس على ما هم عليه، وافتراض جدارتهم، والتغاضي عن الأخطاء الشخصية الصغيرة، يجعلهم بالطبع عُرضة للتلاعب والخداع.

المقابلات غير التركيزية Unfocused Encounters

اهتم غوفمان (Goffman) بالتنظيم الاجتماعي، وكان واحدًا من قلة علماء الاجتماع الذين أدركوا أن السلوك والتفاعل في الأماكن أو المقابلات العامة بأنها صفات مهمة من أجل التفاعل والتنظيم الاجتماعي بشكل عام (١٤)؛ ولذا تمثل بعض الأعمال اليسيرة؛ كالمشي في الشارع، والوقوف في طابور، والجلوس في غرفة الانتظار أو على مقعد في حديقة، والوقوف في المصعد، وغيرها من الأنشطة العديدة، وهذه ما تسمى المقابلات غير التركيزية التي يشارك فيها الناس بالحضور وليس بالحديث المطول و"المقابلات وجهًا لوجه". ويعدُّ موضوعًا أساسًا في تساؤلات البحث الاجتماعي، وغالبًا ما ينظر إلى مثل هذا الموضوع على أنه لا قيمة له، ولكن عندما ينتبه له الناس فإنهم كثيرًا ما يتأثرون به.

---

(١٤) إيرفينج غوفمان. السلوك في الأماكن العامة: ملاحظات على المنظمة الاجتماعية للتجمعات (نيويورك: فري برس ، ١٩٦٣م) ؛ إيرفينج غوفمان ، العلاقات العامة: الدراسات الدقيقة في النظام العام (نيويورك: هاربر كولوفون ، ١٩٧٢م) ، نُشرت أولًا في عام (١٩٧١م) من قبل الكتب الأساسية.

وتشبه التجمعات في المقابلات غير التركيزية إلى حد كبير في القواعد للمقابلات التركيزية؛ حيث تتضمن قواعد معيارية تتعلق بالأداء من قبل الأفراد، ويتضمن ذلك تقديم الذات، واستخدام طقوس المحادثة، فضلًا عن امتلاك إجراءات إصلاح مناسبة معياريًا، وطقوسيًا للمقابلات غير التركيزية. مع الاعتماد على عدد كبير من مظاهر الآداب واللباقة في التعامل.

وقد تكشف المقابلات اللاتركيزية كل سمة من هذه السمات المذكورة على نحو يكون فيه أكبر قدرًا من التفصيل. و تشتمل أيضًا على قواعد معيارية تخص التباعد، والحركة، وتحديد الموقع، والاستماع، والتحدث، وتقديم الذات. إلا أنه عكس المقابلات التركيزية يجب أن تستند القواعد إلى حدود واضحة المعالم، فلا يوجد ضمنها اختتام للمقابلة أو تركيز شديد للانتباه، أو التزامات للمقابلة وجهًا لوجه في المقابلات غير التركيزية. وبدلًا من ذلك فتتعلق القواعد بكيفية انسجام الأشخاص مع أنفسهم دون أن يصبحوا محط اهتمام، ودون المشاركة في المقابلات بالمواجهة. وهكذا تدور القواعد حول كيفية التحرك، والحديث، والجلوس، والوقوف، وتقديم الذات، والاعتذار، وأداء الأفعال الأخرى اللازمة للحفاظ على النظام العام دون إيجاد موقف يتطلب عملًا إضافيًا بين الأفراد للتفاعل التركيزى.

وعندما يستمر الأفراد في بالمشاركة في الأداء في الأماكن العامة يمكن للمقابلة أن تكون أكثر صمتًا وأقل حركة؛ وذلك لأن الحاضرين لم يشاركوا في المقابلات التي تتطلب مواجهة أوحديثًا لفترة طويلة. وقد استخدم جوفمان مصطلحات متنوعة لوصف تلك المقابلات، ويمثل اثنان منها أكثر المصطلحات شيوعًا: "لغة الجسد"[15]، و"معانى الجسد".[16] ويدل كِلا المصطلحين على التشكيل العام للإيماءات أو السلوك الذي يسلكه الفرد أمام الآخرين. وعلى العكس من ذلك يقوم الآخرون بعمل فحص مستمر لتحديد محتوى لغة الجسد، ومعانى الجسد الخاصة بالآخرين. ويدل مثل هذا السلوك على اتجاه الأشخاص، وسرعتهم، وعزمهم، وهدفهم، والجوانب الأخرى لمسار الفعل، وفي العلاقات التي تحدث في الأماكن العامة. وعدد جوفمان ثلاثة أنواع لمعاني الجسد، هي[17]: (١) إيماءات أو معانٍ

(١٥) غوفمان، السلوك العام، (انظر: الإيضاح ١٤)، ص ٨.

(١٦) المرجع السابق.

(١٧) المرجع السابق، ص ١٢٩-١٣٨.

توجيهية تعطي دليلًا للآخرين للتأكيد على أن الشخص يشارك في نشاط مناسب ومميز في الوقت والمكان المعنيين. (٢) المعاني أو الإيماءات التي تُبين للآخرين أن الشخص لن يتعدى أو يهدد نشاط الآخرين. (٣) معاني أو إيماءات المبالغة التي تشير إلى أن الشخص ليس بمقيد أو مُكرَه، بل هو مسؤول بشكل كامل عن التحكم في حركاته وأفعاله الأخرى. وهكذا فإن الأداء العام لشخص في التفاعل غير التركيزي يدور حول توفير المعلومات على أن الشخص ذو شخصية سليمة وكفاءة معقولة.[١٨]

وفي الأماكن العامة وخلال التفاعلات غير التركيزية يصبح موقع الذات أحد أهم الاعتبارات، وقد وضع جوفمان قائمة بأنواع عديدة لاعتبارات الموقع التي يمكن أن تصبح بارزة في أثناء التفاعل غير التركيزي، وتشمل:[١٩] (أ) مساحات جغرافية ثابتة تتعلق بشخص معين. (ب) محفوظات متمركزة حول الذات لا يمكن التعدي عليها، وهي التي تحيط بالأفراد؛ حيث يتحركون في تلك المساحة. (ج) المساحات الشخصية التي لا يمكن للآخرين انتهاكها تحت أي ظروف. (د) المقاعد أو الأماكن المحددة بحدود يتطلبها الفرد بشكل وقتي. (ه) استخدام المساحات المُتطلبة لمشاركة الفرد في بعض الأنشطة الأساسية. (و) التحولات أو الأمر الذي يتطلب فعلًا أو تلقيَ شيء متعلق بالآخرين في موقف. (ز) الموقع المملوك أو الأشياء التي تحددها الذات والمختارة حول جسد الأفراد. (ح) الحفظ الإعلامي أو مجموعة الحقائق حول الشخص التي تم التحكم بها وتنظيمها. (ط) المحافظة على المحادثة أو الحق في التحكم في من يستطيع الدعوة والحديث مع الفرد. وستختلف مواقع الذات اعتمادًا على نوع التفاعل غير التركيزي، بالإضافة إلى العدد، والعمر، والجنس، والمكانة، والموضع، وغيرها من خصائص المشاركين، إلا أنه توجد في كل المجتمعات معايير محددة بشكل واضح عن أي تشكيل لهذه المواقع، والتكوين المناسب، ولأي درجة يمكن الاحتكام إليه.

ويكون موقع الذات واضحًا من خلال ما أسماه غوفمان بالعلامات، والعلامات هي إشارات أو أشياء تبين نوع المواقع المطلوبة، ونطاقها، وحدودها، ومدتها. وانتهاك هذه العلامات يتضمن تعديًا على ذات الشخص، والسماح بإخلال النظام العام المتعارف عليه في التفاعلات بين

---

(١٨) المرجع السابق، ص ١٦٢.

(١٩) المرجع السابق، الفصل الثاني.

الأفراد. وقد تحدث بعض الأفعال البريئة ظاهريًا وعادة تكون من غير قصد، مثل: (إحلال شخص مكان شخص آخر – مقاطعة شخص ما في أثناء الحديث) وما أشبه ذلك. وممكن أن تصير انتهاكًا أو اصطدامًا بذات الآخر عندما تكون مقصودة، مما يدعو إلى رد فعل حادٍّ وعنيف نتيجة لذلك من قِبل المنتهَك حقه. ولذلك فإن التنظيم العام المتعارف عليه لدى الأفراد يعطي صورة واضحة عن مواقع الذات التي تعتمد على قدرة الأفراد لقراءة هذه العلامات لتحديد المواقع ذاتها في المواقف العامة.

ويخلق انتهاك القواعد والمواقع خروقات ومشاهد محتملة عندما لا يشارك الأفراد في التفاعل التركيزى. وعادة ما يتم إصلاح هذه الخروقات من خلال أنشطة منظمة، مثل: (أ) تقارير تشرح لماذا تم حدوث التجاوز: إما جهلًا، أو لظروف غير عادية، أو لعدم كفاءة مؤقتة، أو لغفلة، وهلم جرًّا. (ب) الاعتذارات وهي مزيج من التعبير عن الحرج، أو الكدر، وتوضيح أن السلوك السليم معروف ومفهوم، ورفض ذلك السلوك، والتكفير عن الذنب، والتطوع في الارتداد عنه، وهكذا. (ج) الطلبات أو الاستعانة الوقائية برخصة لفعل شيء يمكن خلافًا لذلك أن يعدَّ انتهاكًا لمعيار، أو لذات الشخص. [٢٠] واستخدام هذه الأشكال المنظمة للإصلاح، وتؤكد تحديد المكان، والحركة والتدفق السلس للنشاط بين الناس في المواقف غير التركيزية، ومن دون ترتيب الإصلاح، وسوف تصاعد هذه الغضب، وتطغى الأفعال المعطلة على النظام العام.

وتسلط الضوء على أهمية الاستجابات الطقوسية لتوجيه المقابلة غير التركيزية بشكل عام، حيث يقوم الأفراد بالتحرك والوقوف والانخراط في الأعمال الأخرى في الأماكن العامة. وتُشَكّل هذه النشاطات طقوسًا خاصة عندما يميل الناس إلى التواصل مع بعضهم البعض بواسطة الإيماءات، والابتسامات، وإشارات اليد، والحركات الجسدية، والدخول في حلقات قصيرة من الحديث عند الضرورة (وبخاصة في أثناء الإصلاحات). وقد تم تنظيمهم جميعًا بطريقة كبيرة متضمنة سلسلة من السلوك النمطي الذي يعزز القواعد ويُوجّه استعدادات الأفراد كي ينسجموا ويستوعب بعضهم بعضًا.

لذا يشمل التفاعل غير التركيزى اللباقة، ويستطيع الناس التجمع والتنقل دون وجود توتر وحِدّة غير مبررين في أثناء تفاعلهم. وبسهولة قد يحدث ذلك عن طريق التجاهل أو التغاضي عن

---

(٢٠) المرجع السابق، ص ١٠٢ – ١٢٠.

الانتهاكات الصغيرة للقواعد، وللذات، وللممارسات الطقوسية. وبهذه الطريقة، تبدو التفاعلات غير التركيزية هادئة ومُمكِّنةً الأفراد من زرع إحساس عميق بالواقع في التصورات الخفية، والإيماءات، واتصال العين اللحظي، وتَحَول الاتجاه إلى أمر ما، وغيرها من الأفعال التي تتم في الحياة العامة. وحيث إنه يحدث الكثير من الحركة في المجتمعات المتباينة والمعقدة بين الغرباء الذين ينتقلون في الأماكن العامة، وبالتالي فإن آليات التفاعل غير التركيزية تكون حاسمة لاستمرارية النظام الاجتماعي للمجتمع ككل.

إضافات غوفمان للتمثيل المسرحي Extensions of Goffmanian Dramaturgy

كان غوفمان Goffman واحدًا من علماء الاجتماع المعاصرين الذين قاموا بوضع تصور للعواطف في وقت اتجه علم الاجتماع بشكل عام لتجاهل مسألة العواطف ما بين تحليل تشارلز هورتون بوصفه وليًّا للفخر والعار في العَقد الأول من القرن العشرين إلى أواخر الستينيات والسبعينات (١٩٦٠- ١٩٧٠م). والذي يُعبر عن ثغرة مهمة في التنظير تُعطِي أهمية للعواطف في الشؤون الإنسانية.[٢١] إلا أن غوفمان لم يُطور نظرية قوية عن العواطف، لكنه -عوضًا عن ذلك- ذكر مرارًا أهمية الحرج، أو ما قد نراه شكلًا يسيرًا للخجل. وعندما لا يستطيع الفرد النجاح في تقديم الذات، وعندما يفشل في الالتزام بالنص من خلال التحدث بشكل غير لائق، أو الاستخدام الخاطئ للطقوس، أو الفشل في البقاء ضمن الإطار المطلوب، أو تصنيف الموقف بصورة غير ملائمة، أو إساءة استخدام دعائم المرحلة، أو التعبير غير المناسب للعواطف، فإن العواطف السلبية المستثارة ضمن الجمهور ستؤدي إلى العاقبة السلبية للشخص الذي سيختبر -بدوره- مشاعر الإحراج. وفي كثير من الأحيان لا يحتاج الجمهور في الواقع إلى معاقبة أولئك الذين أخلوا بالمواجهة؛ لأنه عادةً ما سيُدرك الأفراد هذا الإخلال ويشعرون بالحرج. وفي ظل هذه الظروف، يستتبع هذا الشعور سلسلة من طقوس الإصلاح التي تدور حول العقوبات والأعذار وإعادة التقديم لمواجهة واتجاه أكثر ملائمةً،

---

(٢١) انظر -للمراجعات-: جوناثان ه. تيرنر وجان إي ستيتس. سوسيولوجيا العواطف (كامبريدج ، المملكة المتحدة: صحافة جامعة كامبريدج ، ٢٠٠٥م)؛ وجان إي ستيتس وجوناثان ه. تيرنر، دليل علم اجتماع العواطف (نيويورك ؛ سبرينغر ، ٢٠٠٦م).

ويتم تشجيع الناس للقيام بذلك بسبب إدراكهم ضمنيًّا أن النسيج الاجتماعي والنظام الأخلاقي على المحكّ، وتعتمد المقابلات على انسيابية التفاعل الذي يحافظ على النظام الأخلاقي؛ وبالتالي يقوم الناس فيها بالتأقلم مع السيناريو الثقافي والتقديمات المتبادلة للذات طبقًا لذلك السيناريو.

وبالرغم من أن غوفمان نفسه لم يُطور مفهومًا قويًّا للعواطف، إلا أن الكثير ممن اتبعوه فعلوا ذلك. ولم يكن علم اجتماع العواطف موجودًا في علم الاجتماع في أثناء مسيرة حياة غوفمان المهنية، ولكن بعد أن توفي في الثمانينيات عام (١٩٨٠م) أصبحت هناك دراسة للعواطف، وبالتالي أصبح التنظير حول الديناميكية العاطفية أكثر انتشارًا. ويعدُّ الوقت الحاضر أحد المميزات الأساسية للتنظير على مستوى الوحدات الصغرى في علم الاجتماع، دعني أتتبع ذلك من خلال استعراض عينة من علماء الاجتماع الذين قاموا باستخدام منظور التمثيل المسرحي الذي ابتكره جوفمان لتطوير نظريات جديدة من العمليات العاطفية

أرلي هوشسشيلد حول العمل العاطفي Arlie Hochschild on Emotional Labor

ثقافة العاطفة: Emotion Culture

كانت أرلي راسل هوشسشيلد[٢٢] (Arlie Russell Hochschild) واحدة من علماء الاجتماع الأوائل الذين قاموا بتطوير وجهة نظرهم حول العواطف بوصفها أعمالًا منظمة يقوم بها الأفراد ضمن قيود القواعد الموقعة، والأفكار الثقافية الأوسع عن ما هي العواطف التي يمكن الشعور بها وتقديمها أمام الآخرين. فمن وجهة نظر هوشسشيلد[٢٣] تتكون ثقافة العاطفة من سلسلة من الأفكار عن كيف، وما الذي يُفترض على الناس اختباره في الأنواع المختلفة من المواقف؟ وتتشبع هذه الثقافة بأيديولوجيات عاطفية عن السلوكيات والمشاعر الملائمة لأجواء وأنشطة معينة. والمؤشرات العاطفية هي الأحداث في السير الذاتية للأفراد التي تجسد وترمز إلى الأيديولوجيات العاطفية الأكثر عمومية.

(٢٢) أرليش ر. إيلوشيلد، "العاطفة العمل، قواعد الشعور، والبنية الاجتماعية، "المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٨٥ (١٩٧٩م): ص ٥٥١-٥٧٥؛ القلب المدارة: تسويق الشعور البشري (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٣م).

(٢٣) هوتسشيلد، القلب المدارة (ذُكر في الإيضاح، رقم ٢٢).

وقد أكدت هوشسشيلد (Arlie Russell Hochschild) أنه يوجد في أي سياق قواعد تتكون من نوعين أساسيين هما: (١) قواعد الشعور التي تشير إلى: (أ) كمية العاطفة المناسبة التي يمكن الشعور بها في موقف، (ب) واتجاه العاطفة سواء أكان إيجابيًّا أم سلبيًّا، (ج) ومدة العاطفة؛ (٢) قواعد العرض التي تشير إلى طبيعة وشدة وأسلوب السلوك التعبيري الذي يتم إصداره. وبالنسبة لأي تفاعل تحدد قواعد العرض والشعور ما يمكن القيام به، كما تعكس هذه القواعد أيديولوجيات ثقافة العاطفة الأوسع، وأهداف، ومقاصد الجماعات التي توجد فيها التفاعلات، وتوزيع الطاقة، والخصائص التنظيمية الأخرى للموقف.

العمل العاطفي Emotion Work

إن وجود الأيديولوجيات الثقافية والقيود المعيارية حول تنظيم مشاعرهم التي عاشوها ويظهرها الآخرون. وفي هذه المرحلة يشبه تحليل هوشسشيلد (Hochschild's analysis) إلى حد كبير غوفمان؛ حيث ترى أنه يجب على الممثلين إدارة تقديم ذاتهم في المواقف الموجهة بالنص الثقافي للقواعد والأيديولوجيات الواسعة. وهناك أنواع عديدة لما تسميه هوشسشيلد "عمل العاطفة"، وآليات التحكم في العواطف وتقديم الذات الملائم من خلال: (١) عمل الجسد الذي به يسعى الأفراد فعليًّا إلى تغيير الأحاسيس الجسدية في محاولة لاستحضار العاطفة الملائمة (مثل، أخذ نفس عميق لخلق الهدوء). (٢) التمثيل السطحي؛ حيث يقوم الأفراد بتغيير الإيماءات التعبيرية الخارجية بطرق يأملون في أن تجعلهم يشعرون فعلًا بالعاطفة المناسبة، وعلى سبيل المثال إصدار إيماءات تُعبر عن الفرح والمخالطة الاجتماعية في حفلة؛ من أجل محاولة للشعور بالسعادة. (٣) التمثيل العميق حيث يحاول الأفراد تغيير مشاعرهم الداخلية أو على الأقل بعضًا من هذه المشاعر على أمل أن يتم تفعيل باقي العواطف الملائمة وجعلها واضحة، كاستحضار مشاعر الحزن في محاولة للشعور بالحزن في جنازة. (٤) العمل المعرفي؛ حيث استحضار المعتقدات والأفكار المرتبطة بعواطف معينة في محاولة لتنشيط الشعور المقابل.

وكما تؤكد هوشسشيلد أنه غالبًا ما يتم وضع الأفراد في مواقف؛ حيث يجب عليهم أداء قدر كبير من عمل العاطفة، فعلى سبيل المثال في دراستها الرائدة عن ضيافة الطيران؛ [٢٤] حيث يضع اشتراطًا هو أن يكون المضيفون دائمًا لطيفين ويتحلون بروح المساعدة، حتى ولو كان الركاب يتصرفون بفظاظة أو بكره. يكون من الواجب عليهم التحكم في عواطفهم من خلال عمل العاطفة، وتقديم أنفسهم بطرق تتفق مع قواعد الشعور والعرض المحددة للغاية، فتقريبًا، تتطلب جميع المواجهات عمل العاطفة على الرغم من أن البعض، مثل التي يوجهها مضيفو الطيران، ويكون مُكلِّفًا، ويتطلب قدرًا كبيرًا من تحكم العاطفة في تقديمات الذات.

وجهة النظر الماركسية The Maxtrian Slant

في التأكيد على عمل العاطفة لم تضمن عناصر تحليل هوشسشيلد العواطف لإرفنج غوفمان فقط، بل تُضيف أيضًا ميزة بالغة الأهمية، والتي تُعدُّ أكثر تذكيرًا في وجهة نظر كارل ماركس عن الاغتراب، فمن وجهة نظر هوشسشيلد بأنه عادةً ما يشارك الأفراد في أداء إستراتيجية غير مُرضية. وهكذا، تفرض السيناريوهات الثقافية شروطًا حول كيفية

شعورهم. وكقاعدة عامة إذ سيكون عمل العاطفة أكثر وضوحًا عندما يواجه الناس أيديولوجيات العاطفة، وقواعد العاطفة، وقواعد العرض التي تتعارض مع مشاعرهم الفعلية، وبخاصة عندما تطلب منهم هذه القواعد التعبير عن أوإظهار عواطف لا يشعرون بها. فمن المرجح أن تُولّد الأنظمة الاجتماعية المعقدة ذات التسلسل الهرمى للسلطة، أو أنظمة السوق التي تُجبر بائعي البضائع ومقدمي الخدمات بالتصرف بطرق معينة تجاه العملاء الذين لديهم حرية أكثر في التعبير عن عواطفهم، ومواقف يجب على الأفراد فيها الانخراط في عمل العاطفة، حيث إن هذه الأنواع من الأنظمة تكون أكثر مماثلة للمجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية. وترى هوشسشيلد الحداثة على أنها تُزيد بشكل كبير من كمية عمل العاطفة التي يجب على الناس أداؤها، ومثل هذا العمل دائما يكون مُكَلِّفًا؛ لأنه يجب على الناس -إلى حد ما- قمع مشاعرهم الحقيقية، حيث إنهم يحاولون تقديم أنفسهم بطرق يتطلبها السيناريو الثقافي.

---

(٢٤) المرجع السابق.

وجهة النظر الإستراتيجية The Strategic Slant

وهذا امتداد آخر لهذا الاتجاه من التفكير يكون أكثر تناغمًا مع انجذاب إرفنج غوفمان المتكرر بكيفية أن يخدع الأفراد بعضهم البعض. فإذا كان جميع المشاركين في المواجهة على علم بقواعد الشعور والعرض، ويكون الفرد في وضع يُمكنه من إظهار الإيماءات لإقناع الآخرين بأنه أيضًا يشعر بنفس العواطف، ويمتلك نفس الأهداف، بينما هو في الحقيقة قد تكون له مقاصد أخرى مخادعة. إن المخادع الجيد رجلا كان أو امرأة يستطيع على سبيل المثال أن يُظهر روح المعاونة للناس التي تعاني من مصاعب عن طريق عرض إيماءات تشير إلى أنه يشعر بآلامهم، وأنه يقدم أفضل ما لديه لمساعدتهم في الخروج من الوضع الصعب، بينما في الحقيقة يحاول هذا الفرد خداعهم، إلا أن الأفراد في معظم الوقت، وفي أغلب المواقف، يقومون ببذل الجهد بحسن نية للشعور وللتعبير عن العواطف الملائمة؛ لأن قواعد الثقافة لديهم نوعية أخلاقية تستدعي المشاعر السلبية والعقوبات عند انتهاكها حتى فيما يخص التفاعلات التي تبدو تافهة، وبالتالي يفهم الناس ضمنيًّا أن انتهاك قواعد الشعور والعرض هو تعطيل للمقابلة، وربما لفرصة اجتماعية أكبر.

نظرية كانديس كلارك عن التمثيل المسرحي Candace Clark's Theory on the Dramaturgy

وسَّع كانديس كلارك منظور التمثيل (Candace Clark) بالتحليل المفصل للتعاطف بوصفه عملية إستراتيجية ودراماتيكية [٢٥]، وهما نقطتا التركيز في نظرية غوفمان. ومثل كل نظريات التمثيل المسرحي يتصور كلارك ثقافة شعور تتألف من معتقدات وقيم وقواعد ومنطق ومفردات وعناصر رمزية أخرى تضع عملية التعاطف في إطار توجهها. ويدرك الأفراد ضمنيًّا أن هذه العناصر الثقافية هي التي يعتمدون عليها لعمل مقابلات للتمثيل المسرحي، والظهور على خشبة المسرح أمام جمهور مع الآخرين. وبالرغم من وجود قواعد ثقافية تُرشد السلوك إلا أن العديد من أبعاد الثقافة لا

---

(٢٥)كانداس كلارك ، البؤس والرفقة: التعاطف في الحياة اليومية (شيكاغو ، إيل: مطبعة جامعة شيكاغو ، ١٩٩٧م) ؛ "سيرة التعاطف وسيرة التعاطف" ، المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٩٣ (١٩٨٧م): ٢. ٢٩٠ - ٢٣١؛ و "العواطف والسياسة الجزئية في الحياة اليومية: بعض الأنماط والمفارقات " في جداول البحث في علم اجتماع العواطف ، المحرر: تي. دي. كيمبر (ألباني ، نيويورك: مطبعة جامعة نيويورك الحكومية ،١٩٩٠م).

تُشكل سيناريو واضحًا، ولكنها تعمل أكثر كقواعد اللغة التي تسمح للممثلين بتنظيم عناصر الشعور، مثل: أيديولوجيات الشعور، وقواعد الشعور، ومنطق الشعور، ومفردات الشعور في إطار عمل لإبداء التعاطف والاستجابة له. ويشعر كل فرد بأهمية توقعات الثقافة حول كيفية حدوث التعاطف، ويجب على كل فرد المشاركة في الأداء مستخدمًا: (أ) التقنيات الملائمة للشعور. (ب) إظهار العواطف المناسبة، وعادةً ما يقوم الممثلون الذين يسعون إلى تقديم أنفسهم وفقًا لسيناريو يتم تجميعه باستخدام التمثيل السطحي، والتمثيل العميق، واستخدام الطقوس بشكل خاص في إثارة العواطف وتتبعها من العناصر الثقافية ذات الصلة.

الأبعاد الإستراتيجية لإعطاء التعاطف Strategic Dimensions of Sympathy Giving

يوجد أيضًا بُعدا إستراتيجيات للتعاطف، وهي نقطة تأكيد تتبع وجهة نظر غوفمان (Goffman) على أن المقابلات إستراتيجية للغاية. فالأفراد لا يلعبون دورًا سلبيًّا يفرضه السيناريو الثقافي عليهم، ولكن بدلًا من ذلك، يقومون أيضًا بالمشاركة جزئيًّا في ألعاب الاقتصاد والسياسة. وفيما يتعلق بالاقتصاد فقد أكد كلارك أن العواطف غالبًا ما يتم تبادلها عن طريق -أخذ ورَد- للتعاطف، ويخضع التعاطف كتصرف بلطف وإيثار لهذه الديناميات المتبادلة. وغالبًا ما تقضى قواعد الشعور بإلزام المتلقين للتعاطف بأن يردوا للمتعاطفين مشاعر مثل الامتنان والسرور والراحة.وفيما يتعلق بالسياسة فإن الأفراد يسعون دائمًا إلى تعزيز مكانتهم، أو مركزهم تجاه الآخرين، حتى عندما يستمرون في جهلهم لمحاولاتهم كسب المكَانة على حساب الآخرين. وتقوم مثل هذه الصراعات على المكانة تجاه الآخرين بإدخال عدم المساواة في المواجهات، وبالتالي توجد التوترات التي دائمًا ما تنشأ عن عدم المساواة. فالتعاطف كمجموعة من العواطف قد يكون أداة مهمة لتعزيز مكانة الأفراد ومنزلتهم في المقابلات، فمن خلال التعاطف مع أحدهم فإنه يُثبت للشخص بأنه في مكانة أعلى؛ حيث إن الشخص الذي يتلقى التعاطف يحتاج إلى مساعدة، أو هناك نوع يتضمن إستراتيجية التمثيل المسرحي. وحدد كلارك عدة إستراتيجيات من أجل الحصول على مكانة مستحسنة وهي: إظهار تعاطف كاذب للفت الانتباه حول صفات الآخرين السلبية، ومنح هدية تعاطفية بطريقة تُبرز عجز وضعف ومشكلات الآخرين، ومنح التعاطف لأصحاب المكانة العالية لتقليص المسافة بين

المكانات التي يشير إليها عدم المساواة، وتذكير الآخرين بالدين العاطفي من خلال الإشارة إلى المشكلات التي تم منح التعاطف بسببها، وبالتالي تكون الإستراتيجية ليس فقط بتقليل مكانة الآخرين، بل -أيضًا- بإلزام متلقي العاطفة بالرد بالمثل، واستخدام العاطفة بطرق تجعل الآخرين يشعرون بمشاعر سلبية مثل: القلق أو الذل أو الخجل، أو الغضب من أجل التقليل من مكانتهم.

تأثير التعاطف التكاملي Integrative Effects of Sympathy

على الرغم من وجود جانب مظلم لعمليات التعاطف في الأدوار الجزئية الاقتصادية والسياسة إلى حد ما، إلا أن التعاطف على مستوى المقابلة له أثار تكاملية على النظام الاجتماعي الأكبر من حيث؛ أولًا: يتم تبادل العواطف الإيجابية، بمعنى التعاطف مع المشاعر الإيجابية الأخرى، مثل الامتنان، مما يجعل طرفي التبادل كليهما يشعران بالتوافق والتكامل. ثانيًا: تعزيز الروابط الاجتماعية في حد ذاتها بدرجة التفوق بصرف النظر عن التبادل الذي سيحدث في النهاية عن طريق معرفة أولئك الذين يمنحون التعاطف لمن هم في حاجة إلى ذلك التعاطف. ثالثًا: يعمل التعاطف صمام أمان لأولئك الذين يواجهون صعوبات في التحرر المؤقت من المحظورات، والأوامر الثقافية المعيارية، بينما تتم إعادة تعبئة طاقتهم لتلبية التوقعات الثقافية في المستقبل. رابعًا: التعاطف أيضًا هو مفروض من قِبل التمثيل الأخلاقي؛ لأنه دائمًا ما ينطوي على الاحتكام للمبادئ التوجيهية الثقافية عن العدالة، والإنصاف، والاستحقاق لأولئك الذين يتلقون العواطف التي تشير إلى التعاطف. خامسًا: على الرغم من أن السياسة تستطيع جعل طرف أعلى شأنًا من الآخر، وجعل المتلقي للتعاطف أقل شأنًا، إلا أنها تنشئ تسلسلات هرمية لتنظيم العلاقات الاجتماعية. بالرغم من أنها أيضًا تستطيع أن توجد احتمالية حدوث استثارة للعاطفة السلبية والصراع.

التغييرات المجتمعية وتوسع العواطف Societal Changes and the Extension of Sympathy

ناقش كلارك (Clark) فكرة أن حجم المحن أو المآسي التي يمكن أن تدعو إلى التعاطف آخذة في الاتساع، ويعود بعض الأسباب وراء هذا التغيير إلى أن المستويات العالية من التمايز

البنيوي، وبخاصة في الأنظمة التي يحركها السوق، تؤكد على الفردية التي عزلت الشخص عن الأنماط التقليدية المتأصلة في الأبنية الاجتماعية؛ ونتيجة لذلك سلطت الثقافة الضوء على أهمية الفرد والمشكلات التي يواجهها الأفراد، وتوسع نطاق التعاطف ليشمل "الأوهام العاطفية" التي يعاني منها الأفراد مثل: الإجهاد، وأزمة الهوية، والطلاق، والشعور بالوحدة، والظلم الاجتماعي، والإجرام، والعلاقات الصعبة، وعدم الرضا في العمل والمنزل والمدرسة والعديد من المعاناة التي يواجهها الأفراد في المجتمعات المعقدة.

وقد أدى هذا النوع من التمايز إلى إيجاد وظائف جديدة؛ كتعاطف أصحاب المشاريع مع الأفراد من خلال تسليط الضوء على بعض المشكلات، ويطالبون في إدراجها ضمن قائمة الأوضاع التي تستدعى الاستجابات العاطفية. وقد توسع هذا التعاطف في الطب والعلاج النفسي وبمجموعة كبيرة من الأمراض الجديدة، الجسدية والعقلية على السواء، والتي يمكن أن تكون موضع التعاطف. وقد أضافت الأساطير الاجتماعية أكثر من ذلك، بما في ذلك محنة الأشخاص الذين يتعرضون للعنصرية والتميز، وانخفاض المستوى التعليمي، وضعف مهارة العمل، والحياة الأسرية الصعبة، وما أشبه ذلك. وهكذا فإن المجتمعات الحديثة، على الأقل تلك الموجودة في الغرب التي وسعت إلى حد كبير قائمة الشروط لمن يستدعي التعاطف معه.

وبالنظر إلى مجموعة المحن التي يمكن تعريفها على أنها تستحق. من خلال آليات للفرز الضمني أو منطق ثقافي يتيح للجهات الفاعلة الحصول على التعريفات الثقافية لمن يستحق التعاطف. وجوانب المنطق الثقافي حول تحديد المسؤولية عن محنة الشخص. فالأمريكيون على سبيل المثال يضعون ضمنيًّا محنة الشخص على حد قول كلارك على سلسلة متصلة تتراوح بين قطبين يبدآن بـ "لوم الشخص"، وتنتهي هذه السلسة بـ "لا لوم للشخص"، هؤلاء الأشخاص "بلا لوم" يستحقون التعاطف، في حين أن الأشخاص الملومين يستحقون تعاطفًا أقل. كما أن التعاطف ممكن أن يندرج على الأشخاص أصحاب "الحظ السيء"؛ لأنهم ليسوا سببًا في جلب المحن التي يعانون منها.

ويضيف كلارك (Clark) قائمة من قواعد تنافسية لتحديد ما هي المحن التي اتسمت بالحظ بالنسبة لأفراد إحدى الفئات لتستحق التعاطف؛ حيث تُسلط إحدى القواعد الضوء على مبدأ الحرمان عندما يكون خارجًا عن المألوف، ويعانى منه الأفراد، كما تؤكد القاعدة الثانية على مبدأ

الدور الخاص الذي ينطبق على الذين عليهم أداء مهامَّ صعبة للغاية، وهؤلاء يحق لهم الحصول على التعاطف، بينما تؤكد القاعدة الثالثة على مبدأ التعادل في الحظ، وهم أولئك الذين يعيشون حياة مليئة بالحظ ومدللة فمثل: المشاهير، والأغنياء، والأقوياء يستحقون تعاطفًا أقل من الشخص العادي أو الفرد الذي لم يحالفه الحظ. وهناك من تشدد على مبدأ الضعف بأن بعض الفئات من الأطفال وكبار السن والنساء هم أكثر عرضة لسوء الحظ عن غيرهم، وبالتالي يستحقون التعاطف. وهناك قاعدة أخرى تؤكد على أن إمكانية التعاطف الأكثر يكون مع أولئك الذين قطعو مسافة أقصر لتحقيق مستقبلهم، كالأطفال الذين قد أخذوا فرصتهم بالفعل لتحقيق إمكاناتهم وكأنهم كبار في السن، وتناقش قاعدة أخرى" مبدأ المسؤولية الخاصة"، وهؤلاء من لديهم قدرات ومعرفة خاصة ولا يستخدمونها بشكل جيد أو بحكمة، وهم أقل استحقاقًا للتعاطف. أما القاعدة الأخيرة التي تُعدُّ ذات أهمية خاصة في تحديد ما إذا كان الناس يستحقون التعاطف من عدمه، فهي "مبدأ القيمة الاجتماعية" التي تؤكد على أن الأشخاص أصحاب القيمة بفضل امتلاكهم مكانة وسلطة وثروة ورأس مال ثقافي وغيرها من الموارد الأخرى، يستحقون التعاطف. وبالتالي هناك سيناريو ثقافي لتقرير من يستحق التعاطف في المجتمع، والكم الذي يستحقه، ومن لا يستحق.

وقد لحظ كلارك وجود طرق متعددة في المجتمعات المعاصرة للتعبير عن التعاطف تتضمن نقصًا ملموسًا في عمل العاطفة التي يجب أن يتحملها الشخص المانح للتعاطف، وتشمل هذه الطرق على: بطاقات معايدة، وتقديم الزهور، وتسامح في السلوكيات، وإجازة من الالتزامات، وتخفيف الضغط، والاستماع، والزيارات، والطقوس النمطية باللمس والكلام، والعمل الهادئ الذي يعطي الناس الوقت للتنفيس عن أنفسهم، وعرض المساعدة، وما أشبه ذلك. إلا أن استخدام الطرق المعيارية لتقديم التعاطف ما زال يتطلب بعضًا من عمل العاطفة، حيث يحاول المتعاطف أن يقرر بين هذه الأفعال التوليفية الصحيحة.

ولعل من أكثر المفاهيم أهمية في تصور كلارك هو مفهوم حد ائتمان التعاطف المعطى للأفراد أساسًا. فكل فرد لديه هامش عاطفي هو عبارة عن حد من ائتمان التعاطف يوضح كمية التعاطف المتوفرة عند الشخص. وتخضع هذه الهوامش العاطفية لمثل كل الائتمانات إلى التفاوض؛ بمعنى كم عدد الهوامش التي يدعيها الفرد؟ معتمدة على القيمة الأخلاقية للأفراد وتاريخهم الماضي من كونهم

أفرادا صالحين لديهم تعاطف تجاه الآخرين، وطبيعة محنتهم التي تنص على القواعد الثقافية مع أن أفراد العائلة يحصلون على أكبر الهوامش العاطفية، وأن من لديه قيمة اجتماعية من الناس من حيث الثروة والتعليم والسلطة، والجمال، والشهرة والأشكال الأخرى لرأس المال الاجتماعي يحصلون على هوامش كبيرة. وأن أولئك الذين أظهروا اللطف والإصلاح في أدوارهم الأخرى يتلقون هوامش أيضًا كبيرة، وأن المستحقين من الفقراء وغيرهم ممن هم في محنة أو دين يحاولون مساعدة أنفسهم يتلقون كذلك هوامش تعاطفًا كبيرًا.

ويوجد على الرغم من ذلك حدٌّ لهوامش التعاطف. فإذا استخدم الشخص كل ائتمانيات التعاطف لديه فلن يتم تقديم المزيد من الائتمانيات. وفي واقع الأمر غالبا ما سيشعر الآخرون ويعبرون عن مشاعرهم السلبية تجاه من سعوا إلى المبالغة في حد ائتماناهم. فضلًا عن ذلك إذا لم يحاول الأفراد الذين تم إعطاؤهم التعاطف مبادلة الآخرين بعواطف مناسبة سيقوم الذين وسَّعوا ائتماناتهم العاطفية بسحب ائتمان آخر واختيار إثارة المشاعر السلبية.

آداب التعاطف Sympathy Etiquette

ناقش كلارك (Clark) عمليات الاستدعاء والقبول وسداد الائتمان التي تسترشد بآداب التعاطف، والفكرة في تحليل غوفمان للمقابلات في الحقيقة إذا تم الإخلال بقواعد آداب التعاطف في أفعال الشخص يتم إنقاص حد الائتمان لدى هذا الشخص. وهكذا يحسب الأفراد ما إذا كان لدى الشخص سيرة ذاتية معيبة، أو مشكلة تصنيف ائتماني عند البت في كمية التعاطف الذي سيقدم له. وتشير معلومات كلارك إلى وجود العديد من قواعد الثقافة الأساسية التي ترشد جهود الأفراد نحو المطالبة بالتعاطف التي تمت صياغتها كمحظورات متعلقة بالمطالبة بالتعاطف فإنها لا تقوم بمطالبات كاذبة، ولا تطلب الكثير من التعاطف، ولا تأخذ التعاطف على أنه أمر سهل جدًّا، ولا على أنه أمر مفروغ منه. وتؤكد من تأمين بعض التعاطف للحفاظ على الحسابات العاطفية المفتوحة، والتصنيف الائتماني للعواطف عاليًا، ورد بالمثل مع الامتنان والتقدير لأولئك الذين قدموا التعاطف.

ويوجد لهذه القواعد قواعد مماثلة موجهة للمتعاطفين، من حيث إنها لا تعطي التعاطف غير المستحق، ولا تعطي الكثير من التعاطف غير المناسب مع المحنة، ولا تعطى التعاطف الذي يجرى بطريقة غير ملحوظة، أو القليل من التقدير. ويمكن للناس أن يكونوا أقل استثمارًا أو أن يفرطوا في الاستثمار في التعاطف عندما يتبع المفرطون في الاستثمار القواعد المذكورة أعلاه، بينما يقوم قليلو الاستثمار بعدم الحفاظ على حسابات التعاطف مفتوحة، بحيث يمكنهم إذا لزم الأمر المطالبة بالتعاطف في المستقبل.

راندال كولينز حول طقوس التفاعل Randall Collins on Interaction Rituals

لقد تم فحص نظرية الصراع لكولينز في (الفصل ٣)، وأساس هذه النظرية هو مفهوم طقوس التفاعل التي تتوافق عناصرها تقريبًا مع تحليل غوفمان في المعضلة. وتتضمن طقوس التفاعل لدى كولينز [٢٦] على العناصر الآتية: (١) التجمع للأفراد المشتركين. (٢) الوعي المتبادل بعضهم مع بعض. (٣) الاهتمام المشترك. (٤) المزاج العاطفي المشترك بين الأفراد في الوقت الحاضر. (٥) التزامن والتنسيق الإيقاعي للمحادثة والإيماءات غير اللفظية. (٦) الانفعال العاطفي للمشاركين. (٧) التمثيل الرمزي للجماعة بالمزاج والتركيز على الأشياء والأشخاص والإيماءات والكلمات والأفكار بين الأفراد المتفاعلين. (٨) تداول رأس مال ثقافي معين. (٩) الشعور بالاستقامة الأخلاقية تجاه هذه الرموز يحدد عضوية الجماعة.(٢٦) والشكل (٣,٣) في ص (٤٩) يعطي تصورًا عن ديناميات الطقوس.

يرى كولينز أن هناك سوقًا لأنواع مختلفة من طقوس التفاعل ، مما يزيد من تكاليف الناس للمشاركة في مثل هذه الطقوس من حيث الوقت المناسب لها، وحشد الطاقة ، والقدرات الثقافية ، والموارد الأخرى التي يجب أن ينفقها الأفراد للمشاركة في مختلف الطقوس المتاحة لهم، ثم يقومون بعد ذلك باختيار تلك الطقوس التي تزيد من الأرباح العاطفية. ووفقًا لهذا المعنى، صرح كولينز أن الطاقة العاطفية هى قاسم مشترك للخيار العقلانى[٢٧] وهكذا، بدلًا من تمثيل قوة غير عقلانية في

---

(٢٦) راندال كولينز ، علم اجتماع الصراع: نحو علم اجتماعي توضيحي (نيويورك: مطبعة أكاديمية ١٩٧٥م).

(٢٧) راندل كولينز ، العنف: النظرية الاجتماعية الصغرى (برينستون، نيوجيرسي: مطبعة جامعة برينستون ، ٢٠٠٨م).

التفاعل الإنساني.كما يرى أيضًا أن السعي وراء العواطف عقلاني للغاية ،حيث يسعى الناس للحصول على طقوس التفاعل من خلال عرض الطقوس التي تعمل على زيادة الأرباح (تكاليف أقل من الطاقة العاطفية الإيجابية التي تنتجها الطقوس). ومن ثم فإن البحث عن الطاقة العاطفية يكون المعيار الذي يتم من خلاله تقييم مختلف المقابلات البديلة من ناحية كم عدد الأرباح العاطفية التي يمكنهم توليدها.

وقد يكون الناس "مشحونين عاطفيًا"، إلا أنهم -ضمنيًا- عقلانيون حيال هذا الأمر. فيجب عليهم الاستمرار لموازنة هذه المقابلات، حيث تنتج طقوس التفاعل مستويات عالية من الطاقة العاطفية الإيجابية. (مثل: الحب، والأنشطة العائلية، والمشاركة الدينية، وتجمعات الأصدقاء). ومع هذه الأنشطة الأكثر واقعية والعمل الذي يعطيهم الموارد المادية للمشاركة في المقابلات الأكثر إثارة عاطفيًا. وفي الحقيقة، سرعان ما يفقد أولئك الذين يختارون الخروج عن أنشطة العمل الواقعية هذه ويسعون إلى المقابلات ذات العاطفة العالية (مثل الإنسحاب إلى ثقافة المخدرات) الموارد المادية للاستمتاع بالمقابلات المثيرة للعاطفة. زيادة على ذلك، وضمن سياق نشاط العمل الواقعي، يسعى الأفراد عادة إلى خلق المواجهات التي توفر زيادة في الطاقة العاطفية. فعلى سبيل المثال، يقوم العمال بخلق ثقافة فرعية غير رسمية، والتي من خلالها تُنتج المقابلات الاجتماعية طاقة عاطفية تجعل العمل أكثر احتمالًا، أو كما هو الحال غالبًا مع المهنيين فهم يسعون إلى الطقوس المشتركة في اكتساب الطاقة والسلطة والمكانة في العمل كمكافأة كافية للغاية ولإعطائهم شحنة عاطفية، وهذا دائمًا ما يكون عليه الحال، فعلى سبيل المثال: "مدمنو العمل" الذين يقومون باستخدام محيط العمل مكانًا لشحن مستويات طاقاتهم العاطفية.

وليست تكاليف الماديات، وكذلك نفقات رأس المال الثقافي هي وحدها المكلفة في طقوس التفاعل ولكن الطاقة العاطفية تكون مكلفة في حد ذاتها، فيقضي الناس طاقتهم العاطفية في طقوس التفاعل، وهم على استعداد للقيام بذلك طالما أنهم يدركون الربح العاطفي؛ بمعنى، أن الطاقة العاطفية التي تم الحصول عليها أيضًا يتم ردها بعواطف أكثر إيجابية تتدفق من التركيز المشترك للانتباه والمزاج والانفعال والتزامن الإيقاعي والترميز. وعندما تتطلب طقوس التفاعل أكبر طاقة عاطفية دون مردود عاطفي كافٍ فقد ينجذب الأفراد لطقوس تفاعل أخرى حيث تكون أرباحها

أعلى. وماهو نوع الطقوس التي توفر طاقة عاطفية أكثر إيجابية بالنسبة للتكاليف المترتبة على ذلك؟ بالنسبة لكولينز وهذه المقابلات يستطيع الأفراد من خلالها امتلاك السلطة؛ أي (القدرة على إخبار الآخرين بما يجب عليهم القيام به والمكانة)، و (القدرة على الحصول على الاحترام والشرف)، وهى الأكثر احتمالًا لتوليد مردودات عاطفية عالية. وبالتالي هؤلاء الذين يمتلكون رأس المال الثقافي للتحكم في الاحترام والطاعة من المحتمل أن يتلقوا طاقة عاطفية أكثر إيجابية من طقوس التفاعل.

وعلى مستوى الوحدات الوسطى والوحدات الكبرى في البناء الاجتماعي فقد تنمو وتتغير بواسطة طقوس التفاعل، وذلك بناءً على الدرجة التي تؤدي الى توليد طاقة عاطفية إيجابية أو سلبية . وتكون في حالة تطور كما هو في في نموذج كولينز موضح في (الشكل ٣.٣ ص ٧٠) ، حيث ينتقل الأشخاص بنجاح ، ويزيد من مشاعرهم الإيجابية والخبرة في رأسمالهم الثقافي، ويطور الخطوط والمسارات الداعمة للجماعات. ويحدث العكس عندما لا تتدفق هذه العمليات بسلاسة او تخترق (تكسر). وهذا الاستنباط يتفق مع حجة تحليل جوفمان عندما يتم اختراق اللقاءات.

وأخيرًا؛ إن تنظيم طقوس التفاعل يفرض عوائق على الصراع على مستوى الوحدات الصغرى؛ لأن لدى الأفراد في موقف الصراع إرثًا في الانجذاب لطقوس التفاعل، وهي على العكس من الصراع العنيف؛ لأن الصراع المحتمل يقوم بتنشيط الخوف، وهذا المزيج يمنع الأفراد من المشاركة في الصراع، ويحد من مدته وشدته العنف الشخصي بشكل عام. ولكن إذا ربط تنظيم التفاعل معا نحو السعي وراء الصراع يكون العنف أكثر احتمالًا للحدوث، إلا أنه حتى الآن يقوم الخوف والانجذاب نحو تنظيم تفاعلي ناجح بتقليل إشراك ممن هم على استعداد للصراع.

ولو كان غوفمان قد طور النظرية، لاتخذ حجة مماثلة إلى حد كبير، مشيرًا إلى أن الناس تستمد العواطف الإيجابية من المقابلات، ويكون لديهم دافع كبير لإصلاحها عند الإخلال بها. وهكذا تحافظ المقابلات على النظم الأخلاقية والاجتماعية للمزيد من التنظيم الاجتماعي على مستوى الوحدات الكبرى ومستوى الوحدات الصغرى. زيادة على أنها تعمل على دفع الناس بعيدًا عن العنف الشخصي، وخاصة عندما يتم تنظيم المقابلات من أجل العنف الذي يتم إدراكه للحفاظ على نظام أخلاقي. ويمكن استخدام هذه المقابلات بطريقة فاعلة للعنف على المدى الطويل.

الخاتمة
Conclusion

بينما يتم الخلط بين التفاعلية الرمزية والتمثيل المسرحي في كثير من الأحيان، على الرغم من وجود اختلاف كبير بينهما، حيث تؤكد التفاعلية الرمزية على الذات وإثباتها بوصفها أساسا لفهم السلوك، وديناميات عمليات التعامل مع الآخرين، في حين تؤكد نظرية التمثيل المسرحي على أن السيناريو وخشبة المسرح، والجمهور، والأدوار، والطقوس الأكثر أهمية. وصحيح أن الناس يقومون بتقديم ذواتهم، واتجاههم، والبحث عن مكانتهم وغيرها من الأنشطة التي تعرف الذات، إلا أن الكثير من هذا النشاط يتضمن محاولة لوضع الذات في موقف ما وفي أعين الآخرين. فالذات ليست إلى حد كبير قوة دافعة، في التفاعلية الرمزية، ولكنها قوة إستراتيجية؛ حيث يلعب الأشخاص أدوارا على خشبة المسرح أمام الجمهور.

وبمقارنة الافتراضات والتوجه الأساس لتنظير التمثيل المسرحي فيما يلي بالقوائم المماثلة في الفصل الأخير، تصبح هذه الاختلافات أكثر دراماتيكية، وهي :

١ - التفاعل هو عملية مسرحية يقدم الأفراد ذواتهم لبعضهم البعض في ضوء العديد من الخصائص الأساسية لأي أداء تمثيلي مثل:

أ) السيناريو أو الأنشطة المحددة معياريًا يجب أن تُحدّث.

ب) المسرح أو المكان الذي يحتوي على مجموعة من الدعائم التي يقوم الأفراد باستخدامها في عروضهم التمثيلية.

ج) جمهور من الآخرين يقوم بمشاهدة العروض على خشبة المسرح ويقدم أحكامه على نوعية هذه العروض.

د) الأدوار المحددة في السيناريو تتيح للأفراد إمكانية إضافة تفسيرهم التعبيري الدرامي الخاص للدور.

٢ - تتكون المقابلات من شكلين رئيسين هما :

أ) المقابلات التركيزية: حيث يتقابل الأفراد وجهًا لوجه مع وجود تركيز مشترك للمقابلة التي تستند إلى :

١- طقوس تشير إلى الافتتاحات والإغلاقات والتحولات في زيادة التفاعل.

٢- أشكال المحادثة الملائمة للموقف التي تغذي الشعور الذاتي المشترك بين الأشخاص للتفاعلالمتعدد الطبقات والمعقد.

٣- اللباقة واحترام الآخرين.

٤- الإصلاحات المنظمة للاختلالات الموجودة في التفاعل.

٥- تعريفات الموقف أعلاه التي وصلت من (١إلى٤) والعديد من العمليات الإضافية ومنها :

أ) تقديمات الذات التي تُنشئ اتجاهًا وأساسًا للتفاعل الذي يتفق مع التعريف الجماعي للموقف.

ب) قواعد الدور التي تتفق مع السيناريو والتعريف الظاهر للمواقف.

ج) المقابلات غير التركيزية؛ حيث يراقب الأفراد بعضُهم أفعال بعض، ولكن يجتنبون المشاركة

المباشرة، التي كانت ستعمل على تركيز المواجهة، وتستند المقابل التركيزية إلى :

١- لغة الجسد؛ حيث يشير الأشخاص إلى أنهم يشاركون في سلوكيات مشروعة و مميزة وغير مُهَددة.

٢- احترام مساحة أو مواقع الذات المحددة معياريًا التي تحيط بالفرد.

٣- الفهم المتبادل للحدود التي تهدد الذات .

٤- الاعتذارات القائمة على تفاهمهم طقوسيًّا، أو تجاوزات محتمله للقواعد التي تحكم المشاركة غير المباشرة في الأماكن العامة.

٤- المشاركة التي لا تتضمن المباشرة وجهًا لوجه في الأماكن العامة. بينما تتضمن جميع التفاعلات تقديم درامي على خشبة المسرح للجمهور يعتبر الكثير من السلوك الإنساني إستراتيجيًّا؛ حيث يتلاعب الأفراد في تقديمات الذات لأهداف معينة تكون أحيانًا كاذبة، ودائمًا ما يرفع التفاعل احتمال إثارة المشاعر من خلال الخروقات التي تحدث في التفاعل والناتجة عن:

أ) الفشل في الوفاء بالشروط المذكورة تحت ٢- أ و ٢- ب أعلاه.

ب)الفشل في الابتعاد عن المقابلات وجهًا لوجه في المقابلات غير التركيزية، والفشل في المحافظة على المشاركة وجهًا لوجه في المقابلات التركيزية.

٥-لأن المواجهة يمكن أن تنتهك العواطف وتثيرها، فإن تغيير العواطف أو المشاعر ينظمه التباين الثقافي والطبقي من خلال:

أ) الأيديولوجيات التي تحديد ما يجب ان تكون عليه العواطف التي تظهر بشكل عام، وأنواع المواقف.

أ- القواعد التي تُحدد العواطف وما يجب أن يكون عليه الشعور؛ حيث تُعيِّن ما هي العواطف الواجب أن تكون فيها المشاعر مرئية للآخرين وأنواع الموقف التي يجب أن تظهر فيها .

٦- التنظيم الثقافي للعواطف غالبًا ما يخلق مشكلات للأفراد على الالتزام بأيديولوجيات الشعور وقواعد العواطف، مجبرةً إياهم على المشاركة في العمل العاطفي لتقديم العواطف المناسبة حتى لو كانوا لا يشعرون بهذه العواطف.

٧- يمكن استخدام عرض العواطف بشكل إستراتيجيات معينة في كثير من الأحيان لتقديم أهداف مخادعة، وفي الأدوار السياسية لكسب مكانة مباشرة أمام الآخرين، وفي الأدوار الاقتصادية لكسب الموارد المباشرة أمام الآخرين.

الفصل الثامن

التنظير البنائي
STRUCTURAL THEORIZING

البناء الاجتماعي: اعتراف محرج
Social Structure: An Embarrassing Confession

قد يكون محرجًا بعض الشيء أن ليس لعلم الاجتماع تصور واضح لواحد من أهم المفاهيم الأساسية وهو البناء الاجتماعي. فالمجتمعات تتكون من أبنية اجتماعية وما إلى ذلك في كل الواحدات الأخرى؛ من مقابلات، وجماعات، ومجموعات، ومنظمات، ومجتمعات محلية، والنظم الطبقية، والمجالات المؤسسية، والفئات الاجتماعية إلخ. وفي النهاية جميعها يتكون منها بناء المجتمعات. وإلى الآن لا يزال هذا المفهوم غامضًا على الرغم من أهمية البناء الاجتماعي للتحليل الاجتماعي. وعلى سبيل المثال: أنماط العلاقات الاجتماعية التي تستمر على مر الزمن وتنظم الإجراءات، أو لكونه مميزًا أكثر لاتجاه نظري معين الذي يؤكد بأنه ليس هناك إجماع على مفهوم البناء الاجتماعي.

وبالنسبة للبعض ليس هذا النقص في الوضوح هو المشكلة النظرية؛ لأن فكرة البناء الاجتماعي بسهولة هي طريقة معممة للحديث عن المقومات التي تحدد تصرفات البشر. وإضافة إلى ذلك بالنسبة للكثير من علماء الاجتماع؛ فإن الهدف هو التأكيد على القوة البشرية، أو قدرة الأشخاص على تشييد الأبنية ذاتها التي تفيدهم، وبالفعل يذهب البعض أبعد من ذلك ليؤكد بأنه لا يمكن إبداء أن يكون هناك تعريف توافقي للبناء الاجتماعي، أو قوانين مقبولة عالميًا للبناء

الاجتماعي؛ لأن البشر لديهم القدرة على تغيير الطبيعة الأساسية للبناء الاجتماعي، وبالتالي تنتفي القدرة على صياغة القوانين الثابتة، والدائمة عن ديناميات البناء.

وعلى وجه التقريب ما زال كل عالم اجتماع يستخدم مفهوم البناء الاجتماعي لشرح السلوك وديناميات المجتمع بشكل أكثر عمومًا، ويبدو أنه يجب أن يكون هناك على الأقل بعض القواسم الأكثر شيوعا والمشتركة في وجهات النظر عن هذا الموضوع الأساس، وإذا ألقينا نظرة على وضع المفاهيم للبناء الاجتماعي، تظهر أفكار رئيسة معينة باستمرار بشكل متوافق ومتشابه في النظرية متضمنة الآتي:

١ ــ العلاقات الاجتماعية الإنسانية تتضمن العلاقات بين الممثلين المجتمعين والمتعاونين، وهي أنماط ظاهرة للعلاقات الإنسانية التي تستمر عبر الزمان والمكان.

٢ ــ يعزز الثبات عن طريق البناء الاجتماعي، وأنظمة الرموز الثقافية المرتبطة بالتركيبات الاجتماعية.

٣ ــ تتكون الأبنية الاجتماعية من العلاقات بين الوحدات الاجتماعية من خلال العلاقات المحددة بما يأتي:

أ) موقع الشبكات العاملة للأفراد، والوحدات المشتركة في الحيز المادي وحيز العلاقات.

ب) تداول الموارد الجوهرية وغير الجوهرية بين الأفراد، والجهات الفاعلة الفردية، والجماعية المشتركة في الحيز المادي وحيز العلاقات.

ج) ظهور الخلافات التبادلية فضلًا عن القوة والسلطة لتنظيم تداول الموارد.

د) تطوير أنظمة الرموز الثقافية، وقواعد السلوك المحددة للالتزامات والممنوعات للممثلين في النظم الاجتماعية، والأيديولوجية التي تربط القيم العامة بمجالات الأنشطة في الأبنية الاجتماعية التي تفسر العلاقات الأخلاقية بين الجهات الفاعلة.

هـ) ترتيبات الدمج بين الممثلين في نظام الأبنية الاجتماعية التي تشمل: -

١ - تقسيم الوحدات الاجتماعية أو إنتاج نفس النوع الأساسي من الوحدات التي تكون متكافئة بنائيًّا وثقافيًّا.

٢- التمايز بين الوحدات الاجتماعية، وإنشاء وحدات مختلفة في بنائها وثقافتها، فضلًا عن مشاركتها في الأنشطة الاجتماعية المختلفة.

٣- التكوينات من الترابط البنائي بين الوحدات الاجتماعية سواء أكانت مقسمة أو متباينة، وتتضمن:

أ) التكافؤ البنائي والثقافي بين الوحدات المجزأة، حيث إن الأفراد والممثلين المجتمعيين في الأنظمة الأساسية يتمسكون بالتوجهات المتشابهة؛ لأنه يجب عليهم الاستجابة لنفس القيود البنائية والثقافية.

ب) تبادل الموارد بين الوحدات حيث تتخلي الوحدات عن موارد من أجل الحصول على موارد أخرى من وحدات أخرى، وبالتالي خلق رابط تكاملي بين الوحدات.

ج) دمج الوحدات الاجتماعية الصغرى داخل الوحدات الاجتماعية الكبرى؛ مما يقود إلى تكامل البناء والثقافة بدرجاتها المختلفة وأنواع الوحدات.

د) تداخل الحدود والقطاعات بين الوحدات الاجتماعية المتعددة.

هـ) هيمنة واحدة أو مجموعة من الوحدات الاجتماعية على الوحدات الاجتماعية الأخرى عن طريق التعبئة، واستخدام القوة في العلاقات بين الوحدات التي تم بناؤها من خلال القدرة على السيطرة للوحدات المهيمنة.

و) تطابق الوحدات الاجتماعية في التدرج الهرمي للتوزيع غير العادل والمتباين للموارد؛ لكي تكون الوحدات ذات الأنواع المتشابهة في مستويات الموارد متكافئة من حيث البناء مع أولئك الذين يحملون النصيب الأكبر من الموارد والقادرين على حشد القوة على حساب تلك الموارد الأقل.

ز) الفصل في الزمان والمكان بين الوحدات الاجتماعية المشتركة في الأنشطة غير المتوافقة (المتضاربة) لكيلا تدخل في صراع من أجل تعزيز التضامن.

٤- تتألف الأبنية الاجتماعية أيضًا من أشخاص متّحدين بنائيًا في البناء الاجتماعي من خلال المكانة والقوانين المنظمة معياريًا التي حددتها المعتقدات والأيديولوجيات بناءً على الأنماط المتتابعة للتضمين على المستوى الجزئي والمستوى الكلي، ومنها ما يأتي:

أ) المقابلات داخل الجماعات والفئات الاجتماعية (مثال: الجنس، والأصل العرقي، والدين ، والانتماء ، والطبقة)

ب) الجماعات داخل التنظيمات .

ج)التنظيمات داخل المجتمعات محلية .

د) التنظيمات والجماعات المحلية داخل المجالات المؤسسية على سبيل المثال (الاقتصاد، والتعليم، والدين ،والقرابة ... إلخ).

هـ) الفئات الاجتماعية والوحدات الفئوية داخل الأنظمة الطبقية.

و) المجالات المؤسسية والأنظمة الطبقية داخل المجتمعات.

ي) المجتمعات داخل الأنظمة الاجتماعية.

٥-تقيد الأبنية الاجتماعية بثقافتها تصرفات الأفراد على المستوى الجزئي للمنظمة الاجتماعية، بينما يتم إعادة إنتاجها من خلال تفاعل الأفراد في المقابلات الجزئية، وتولد المقابلات الجزئية التزامات على الأبنية الاجتماعية وثقافتها عبر إثارة المشاعر الإيجابية، بينما تقل الالتزامات وتزيد احتمالية التغيير في الأبنية الاجتماعية عندما تتم إثارة المشاعر السلبية.

وتختلف النظريات في التأكيد على التباين في البناء الاجتماعي عن المذكور أعلاه. فعلى سبيل المثال هناك بعض النظريات عن الشخصيات الكلاسيكية في النظرية الاجتماعية، حيث أكد هربرت سبنسر (Herbert Spencer) أن التمايز هو مفتاح الملكية للبناء الاجتماعي مع دمج الاختلافات التي تم تحقيقها من خلال التوافق البنائي عبر تبادلات السوق وهيمنة مراكز القوة والقانون. لقد أكد إيميل إيفا على التمايز مع الدمج الذي يتم تحقيقه عن طريق التوافقات البنائية المنظمة معياريًّا، وعن طريق الالتزامات المعتقدات المعممة عبر أنشطة الطقوس في المقابلات والجماعات التي تستهدف الطواطم وترمز إلى ثقافة المجتمع، وأكد كارل ماركس (Karl Marx) على مفاضلة الأيديولوجيات الثقافية وتكون الطبقات (التكوين الطبقي)، وأكد ماكس فيبر (Max Weber) على تطور الأوامر الشرعية المؤلفة من الشبكة العاملة بين المنظمات المعقدة، وأشكال الهيمنة لصنع أنظمة التكوين الطبقي التي أقرت بشرعيتها الأيديولوجيات الثقافية، كما أكد جورج سيميل (George Simmel) على التمايز في الوحدات الاجتماعية التي وحدتها أنماط جماعة الانتماء، وعلاقات السوق بين الأفراد المتابعين لها.

وكان الهدف هو تسليط الضوء على أشكال الخصائص المختلفة قليلًا عن البناء الاجتماعي، كما هي في الأعلى. ورغم وجود قواسم مشتركة في تركيز سبنسر، وفيبر، وسيميل على التمايز والدمج، وعلاوة على ذلك، تشير هذه النظريات -على مستوى الوحدات الكبرى للبناء الاجتماعي- إلى تحيز مختار للخصائص، وهناك نظرية على مستوى الوحدات الصغرى تؤكد على الحالة ودور الديناميات، بالإضافة إلى الطقوس؛ لأنها تقوي أواصر التضامن في الجماعات التي تتكون منها المنظمات، والأنواع الأخرى من الأبنية الاجتماعية.

نظرية أنتونى جيدنز البنائية

Anthony Giddens' "Structuration" Theory

خلال الأربعين عامًا الماضية كان أنتونى جيدنز (Anthony Giddens) من أبرز النقاد لعلم الاجتماع، إلا أنه في نفس الوقت طور خطة تصورية مجردة نسبية لتحليل الحياة الاجتماعية. وفي كتابه باسم "الدستور المجتمعى"[١] (Constitution of Society) أجاب جيدنز عن عناصر دعوته في تركيب نظري مهم عن التقاليد النظرية المعكوسة للمذهب البنائي والماركسي، وصناعة المسرح، والتحليل النفسي، وحتى عناصر الاتجاه النفعي، إلى ما أسماه سابقًا بـ (النظرية البنائية) (structuration theory) وتمثل هذه النظرية جهودًا إبداعية في النصف الثاني من القرن العشرين. وعلى الرغم من أن جيدينز قد اهتم بتطوير نظرية الحداثة، بل صار مسهمًا بشكل مهم في النقاش عن الحداثة وما بعد الحداثة.[٢] و لا يزال إسهامه النظري مسيطرًا بشكل أساس على العبارات في نظرية البناء الاجتماعي.

---

(١) أنتوني جيدينز ، دستور المجتمع: الخطوط العريضة لنظرية البناء (أكسفورد بولتي، ١٩٨٤م)، والمشاكل الأساسية في النظرية الاجتماعية (لندن: ماكمان، ١٩٧٩م). لدى مطبعة جامعة كاليفورنيا أيضًا طبعات من هذين الكتابين. للحصول على نظرة عامة ممتازة، من الناحية الاجتماعية والفلسفية لمشروع جيدنس النظري، انظر: إيرا كوهين، نظرية البنية: أنتوني جيدينز والدستور الاجتماعي (لندن: ماكمان، ١٩٨٩م). للحصول على تعليق ونقاش حول عمل جيدينز ، راجع: نظريات فالينر، ك.موجدل و ج. كلارك (لندن، فيلنر١٩٩٠م). للاطلاع على مجموعة من القراءات ، راجع كتبابات جيدينز ، إيد، فيليب كاسيل (ستانفورد، مركز معلومات جامعة ستانفورد، ١٩٩٣م).

(٢)لمزيد من الأمثلة أنظر، أنتزني جيدينز ، نتائج وعواقب التحديث (ستانفورد، مركز معلومات جامعة ستانفورد ١٩٩٠م)، أريتش بييك، انتوني جيدينز و سكوت لاش، العولمة المرنة (ستانفورد، مركز معلومات جامعة ستانفورد، ١٩٩٤م)؛ أنتوني جيدنس، العولمة و الهوية الذاتية (ستانفورد، مركز معلومات جامعة ستانفورد، ١٩٩١م).

نقد جيدنز علم الاجتماع لعلميته Giddens' Critique of Science in Sociology

أوضح أنتوني جيدنز (Giddens) أنه لا توجد أية قوانين اجتماعية عالمية، [٣] مثل تلك الموجودة في الفيزياء وعلوم الأحياء، فالبشر لديهم القدرة على تغيير طبيعة التنظيم الاجتماعي ليتفادوا أي قوانين حددت عالميًا، وفي أحسن الأحوال يجب أن ينظر للمفاهيم النظرية في كثير من الأغراض البحثية، والنوعية، والأجهزة، ولا شيء أكثر من ذلك.[٤]

البناء Structuration

لا يعتقد جيدنز (Giddens) بوجود القوانين المجردة للأفعال الاجتماعية، والتفاعلات، والتنظيم، كما أن نظرية البناء ليست سلسة من المقترحات، ويمكن أن يقترح نقد جيدنز للعلوم. فنظريته هي مجموعة من المفاهيم الحسية مرتبطة سويًا بشكل طردي، والمفهوم الرئيس لها هو البناء الذي يهدف إلى التواصل بشكل مزدوج في البناء والتركيب.[٥] ويستخدم الأبنية الاجتماعية عن طريق العملاء النشطين في استخدام خصائص البناء الاجتماعي، وهي تحول أو تعيد هذا البناء الاجتماعي، ويتطلب عملية البناء وضع تصور لطبيعته، وكذلك الذين يستخدمون البناء، وطرق أو وسائل التداخل بشكل تبادلي لإنتاج أنماط متنوعة للتنظيم البشري.

إعادة التصور المفاهيمي للبناء والنظام الاجتماعي

Reconceptualizing Structure and Social System

يعتقد جيدنز Giddens أن مفهوم البناء يمكن أن يكوّن قواعد ومصادر يستخدمها الممثلون في جهات الفاعلين ضمن سياق المقابلة التي تمتد عبر المكان وأكثر من الوقت. وباستخدام تلك القواعد والموارد يتحمل الممثلون أو يعيدون تكوين البناء في المكان والوقت المحددين.

---

(٣) انظر -على وجه الخصوص-: ١ أنتوني جيدينز ، الملامح والنقد في النظرية الاجتماعية (لندن: ماكميلان، ١) والقواعد الجديدة في المنهج الاجتماعي: نقد إيجابي لعلم الاجتماع التفسري، الطبعة الثانية) . ستانفورد،١٩٨٢م كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد،١٩٩٣م).

(٤) جيدينز، الدستور الاجتماعي (في الملحوظة رقم ١)، صفحة ٣٢٦.

(٥) نفس المرجع ، صفحة ٢٠٧-٢١٣.

ويرى جيدنز أن القواعد هي إجراءات يمكن أن تعمم لفهمها، ويستخدمها الممثلون في الظروف المختلفة. ويفترض جيدنز أن القاعدة هي منهج أو تقنية يعرفها عادة الممثلون بطريقة ضمنية بتوفير صيغة وثيقة الصلة بالأفعال [٦] من منظور اجتماعي. وأهم القواعد التي يستخدمها الوكلاء في إعادة ظهور العلاقات الاجتماعية عبر فترات طويلة عبر المكان والزمان، وهذه القواعد يمكن أن تكشف عن خصائص معينة هي: (١) تستخدم بشكل متكرر في: (أ) المحادثة، و(ب) طقوس التفاعل، و (ج) الروتين اليومي للأفراد؛ (٢) يتم إدراكها وفهمها ضمنيًا، وهي جزء من رصيد المعرفة للممثلين المؤهلين؛ (٣) هي غير رسمية وتبقى غير مكتوبة وغير منطوقة؛ (٤) وهي مقبولة بشكل ضعيف عبر الأساليب الشخصية. [٧]

وناقش جيدنز أن القواعد هي جزء من القوى الفاعلة، وللإلمام بها؛ فإن بعضها يمكن أن يكون معياريًا؛ حيث يستخدمها الممثلون بشكل واضح ويشيرون إليها، ولكن الكثير من القواعد مفهومة بشكل أكثر ضمنيًا ويستخدم لتوجيه تدفق التفاعل بطرق لا يتم التعبير عنها بسهوله أو بطريقة لفظية. وعلاوة على ذلك يمكن للممثلين الانتظام لتحويل القواعد من تركيبات جديدة؛ لأنها تواجه ويتعامل بعضها مع بعض، ومع التفاصيل السياقية لتفاعلاتهم.

ومثل الخاصية الأخرى في البناء للموارد هي: التسهيلات التي يستخدمها الممثلون لإنجاز الأمور حتى لو أن هناك مناهج وصِيَغًا مفهومة كقواعد توجيه الأفعال، ويجب أيضًا أن تكون هناك قدرة على أداء المهام، وتتطلب تلك القدرة موارد أو أدوات مادية، وقدرات تنظيمية للتصرف في المواقف. وتصور جيدنز[٨] أن القوة ليست موردًا، كما تتصور إحدى النظريات الاجتماعية. وبدلًا من ذلك فإن تعبئة الموارد الأخرى هي ما يعطي الجهات الفاعلة القدرة على إنجاز العديد من الأمور. وهكذا، فالسلطة جزء لا يتجزأ من وجود أي بناء. فعندما يتفاعل الممثلون يستخدمون الموارد، وعندما يستخدمون الموارد يشحذون القوة لتكوين أو رسم أفعال الآخرين.

---

(٦) نفس المرجع، صفحة ٢٠-٢١.

(٧) نفس المرجع، صفحة ٢٢.

(٨) نفس المرجع، صفحة ١٤-١٦.

كما صور جيدنز القواعد والموارد كتحولي، وتوسطي (٩) وما يعنيه بهذه الشروط هو أن القواعد والموارد يمكن أن تتحول إلى العديد من أنماط وملامح مختلفة. والموارد يمكن تعبئتها بطرق مختلفة لأداء الأنشطة وتحقيق الغايات من خلال ممارسة أشكال ودرجات القوة المختلفة. فالقواعد يمكن أن تولد العديد من الجماعات المتنوعة من المنهجيات والصيغ عن طريق التوجيه في كيفية التواصل، والتفاعل بين الناس، وتكيُّف بعضهم مع بعض. فالقواعد والموارد تتوسط لربط العلاقات الاجتماعية معًا، فهي ما يستخدمه الممثلون لخلق تعزيز وتحويل العلاقات عبر الوقت والمكان، ولأن القواعد والموارد التحويلية بطبيعتها يمكنها ربط الكثير من الأنماط المختلفة للعلاقات الاجتماعية في الوقت والمكان.

وقد قام جيدنز بتطوير تصنيف للموارد والقواعد الغامضة وغير الدقيقة نوعًا ما[١٠] وهو يري أن المفاهيم الثلاثة للتصنيف -وهي: الهيمنة، وإخفاء الشرعية، وإخفاء المضمون- بدايات لنظرية، أو لتحديدها بشكل غير دقيق. والفكرة الأساسية تكمن في أن الموارد أصل الهيمنة؛ لأنها تنطوي على تعبئة المرافق المادية، والتنظيمية لفعل الأشياء، كما أن بعض القواعد تحول إلى أدوات شرعية؛ لأنها تجعل الأشياء تبدو صحيحة، وملائمة وتستخدم قواعد أخرى لخلق الدلالة، أو أنظمة رمزية ذات مغزى؛ لأنها تفسر للناس بمنطقية أكثر لطرق ورؤية الأحداث في الواقع، ويكون تأكيد المضمون أقل إذا لم يتم إعطاء مفاهيم للهيمنة، والشرعية. وتعطى دلالة أقل تأكيدًا، ويمكن استخراج العناصر بشكل اصطفائي من التصنيف الوارد في (الشكل١ ,٨) الآتي:

في(١) العمود الأيسر من (الشكل١ ,٨) يرى جيدنز أن البناء يتألف من القواعد والموارد. و يتم تحويل القواعد إلى نوعين أساسيين من العمليات المتوسطة: (١) المعايير أو إنشاء سياق الحقوق والالتزامات؛ و (٢) تفسيرية أو توليد المخططات والمخزونات للحصول على المعرفة المسلم بها في

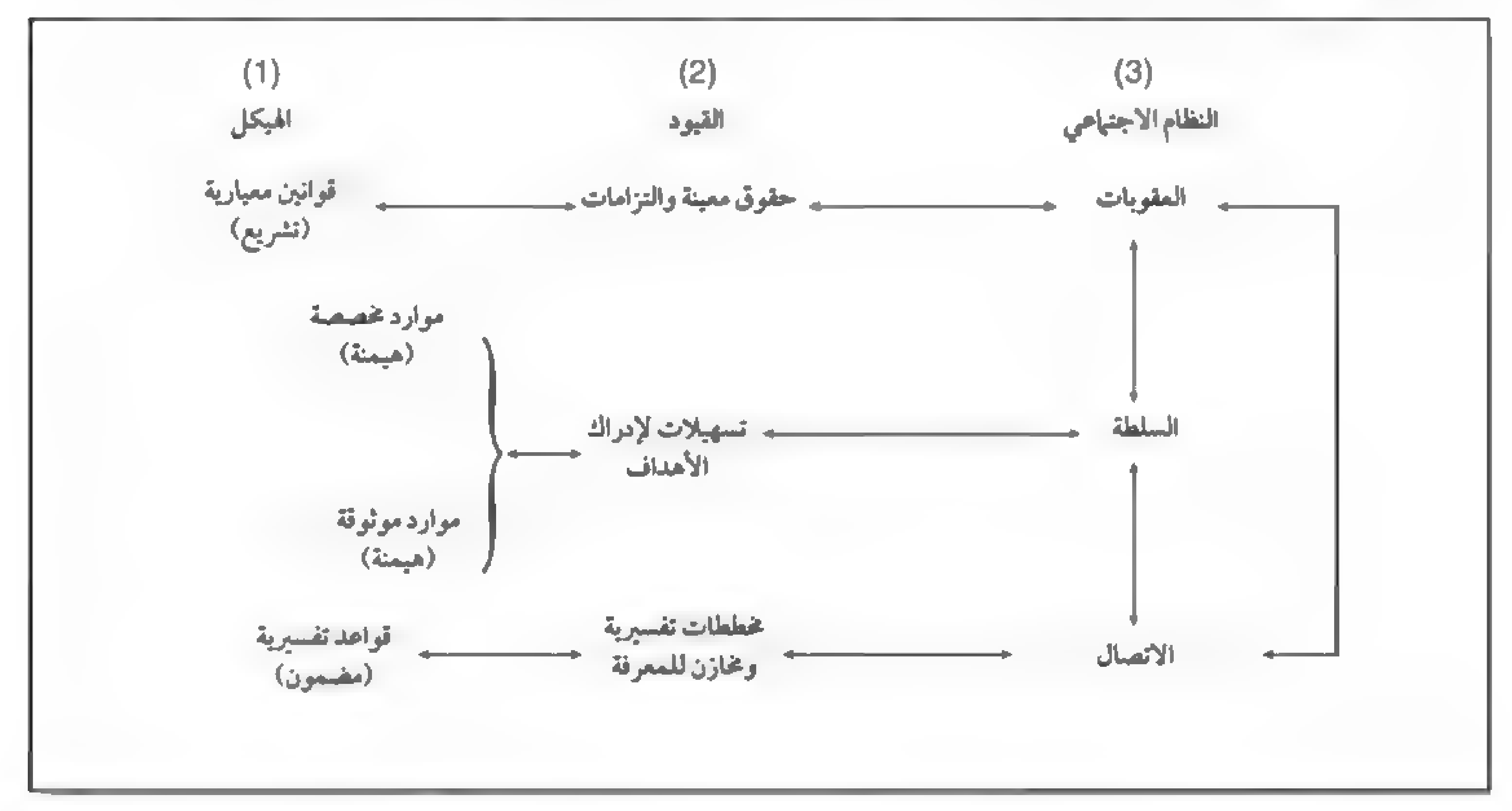
---

(٩) وهنا يبدو أن جيدنز أخذ ما هو مفيد من "البنيوية" أعاد صياغة هذه الأفكار إلى نهج اجتماعي أكثر. ويبدو أن جيدنز لا يزال ينتقد بشدة فكرة البنيوية؛ انظر له: "البنيوية، ما بعد البنيوية وإنتاج الثقافة"، في النظرية الاجتماعية اليو ، محرران، جيدنز وج. ترنر (كامبريدج، إنجلترا: الكيان السياسي، ٢٠٠٠م).

(١٠) الدستور الاجتماعي، ص ٢٩ و والمشاكل الأساسية في النظرية المجتمعية صفحة ٩٧- ١٠٧ (كلاهما في الملاحظة رقم ١).

السياق. ويتم تحويل الموارد إلى نوعيين رئيسين من المرافق التي يمكن ان تتوسط بين العلاقات الاجتماعية: (١) موارد موثوقة ،أو القدرة التنظيمية للمراقبة والتوجيه في سياق أنماط من التفاعلات، (٢) والموارد المخصصة أو استخدام المميزات المادية والأدوات والسلع للسيطرة على سياق الأنماط المباشرة للتفاعل.

ويرى جيدينز أن تلك الأنواع من القواعد والموارد هي تفاعل يتوسط بين ثلاثة قيود، كما صورت في العمود (٢) (الشكل١ ,٨) هي : الحقوق والواجبات، والمرافق، والخطط التفسيرية. وينحرف الشكل إلى حدما عما ناقشه جيدينز، ولكن الفكرة تظل بأن القواعد نفسها هي الموارد المرتبطة بالتفاعل أو نظام اجتماعي بشروط جيدنز عبَّر عنها بطرق ثلاث تُستخدم في: (أ) توليد القوة التي تمكن بعض الجهات الفاعلة (الممثلين) للسيطرة على الآخرين. (ب) التأكيد على المعايير التي بدورها تتيح للجهات الفاعلة أن تكون مقبولة لمطابقتها أو عدم مطابقتها. (ج) إنشاء واستخدام مخططات تفسيرية تجعل من الممكن للجهات المعنية التواصل مع بعضهم البعض.



المصدر : الشكل (٢٨)ص ٦١٥ج.تيرنر النظرية الاجتماعية المعاصرة، دار نشر ساجا ٢٠١٣

الشكل (١ ,٨). الهيكل الاجتماعي. النظام الاجتماعي و قيود الاتصال.

ويؤكد جيدنز أيضًا أن القواعد والموارد مترابطة، وأن طرق استخدامها في التفاعل يكون مفعلًا فقط من الناحية التحليلية. وفي التدفق الفعلي للتفاعل في العلم التجريبي الحقيقي توجد معًا وفي نفس

الوقت، مما يجعل انفعالها مجرد ممارسة الانفعال التحليلي، وهكذا تحدث القوة، والعقوبات، ووسائل الاتصال متصلة بعضها ببعض، وكذلك القواعد وموارد البنية الاجتماعية. وفي النظم الاجتماعية حيث يشارك الناس في التفاعل ويتم استخدام القوة لتأمين مجموعة معينة من الحقوق والواجبات فضلًا عن نظام الاتصال، وبشكل معكوس يمكن ممارسة القوة فقط من خلال التواصل والعقاب.

وبالتالي يرى جيدنز أن البناء الاجتماعي هو ما تستخدمه الجهات الفاعلة، وليس كما في الواقع الخارجي الذي يدفع الجهات الفاعلة نحوها. ويعرف البناء الاجتماعي بأنه القواعد والموارد التي يمكن أن تتحول كلما استخدمها الممثلون في أماكن محددة. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: كيف يرتبط البناء بما يفعله الناس فعلًا في إعدادات التفاعل، أو ما يسميه جيدنز بالنظم الاجتماعية؟ فالإجابة عن ذلك تكمن في فكرة أو مفهوم الوسائل، حيث يتم تحويل القواعد والموارد إلى السلطة والعقوبات والاتصالات. وطوّر جيدنز البناء الاجتماعي التحولي والمرن ليصبح جزءًا من الجهاز الفاعل في حالات محددة، ويتم استخدامه من قبلهم لخلق أنماط من العلاقات الاجتماعية عبر المكان والوقت.

وهذا التصنيف يسمح لجيدنز بالتأكيد على أن وكلاء التفاعل في الأنظمة الاجتماعية يمكنها استنساخ القواعد والموارد عن طريق الأساليب، أو يمكن تحويلها. وهكذا يكون التفاعل الاجتماعي والبناء الاجتماعي في حالة متبادلة. فالبناء هو: العمليات المزدوجة التي تحكم تنظيم التفاعل عبر الوقت (الزمن) والمكان. وبواسطة هذا الاستخدام يمكن إعادة الإنتاج او تغيير هذه القواعد والموارد.

إعادة التصور المفاهيمي للمؤسسات Reconceptualizing Institutions

اعتقد جيدنز أن المؤسسات هي أنظمة التفاعل في المجتمعات التي تعمل على مر الزمن، وتعمل على توزيع الناس في المكان، ويستخدم جيدنز عبارات مثل (مترسبة بعمق عبر الزمان والمكان في المجتمعات)؛ للتعبير عن فكرة أنه عندما تستنسخ القواعد والموارد على مدى فترات طويلة من الزمن، وفي مناطق واضحة من المساحة، فإنه يمكن الإقرار بوجود المؤسسات في المجتمع، ويقدم جيدنز تصنيفًا للمؤسسات يبين أوزان وترابط القواعد والموارد المختلطة والمتداخلة [١١]، وأضاف: إذا

---

(١١) المشكلات الأساسية في النظرية الاجتماعية، صفحة ١٠٧، والدستور الاجتماعي، ص ٣١ (كلاهما في الملاحظة رقم ١).

كان المغزى قواعد تفسيرية هو الأساس فإنه يتبع على التوالي بالهيمنة السلطوية والتشريع، كما يسود المغزى طابع المؤسس الاقتصادي والتشريع، ويحدث تأسيسًا للقانون كما في الجدول رقم (١ ,٨).

ولخص جدال جيدنز في هذا المفهوم المؤسسات التي يسعى جيدنز لتبني النظرة الآلية للتأسيس فيها، ومنها: أولًا: أن نظم التفاعل في سياقات تجريبية هي مزيج من العمليات المؤسسية، فلا يتم فصل الترتيب الاقتصادي والسياسي والشرعي بسهولة، وعادة ما يكون هناك عنصر من هذه العناصر في كل سياق نظام اجتماعي. ثانيًا: ترتبط المؤسسات بالقواعد والموارد التي يستخدمها العملاء ثم يقومون باستنساخها، فهي ليست خارجة عن الأفراد؛ لأنها تكونت من خلال استخدام القواعد والموارد في العلاقات الاجتماعية الحقيقية. ثالثًا: الأبعاد الأكثر أهمية لكل القواعد والموارد هي المغزى، في حين تشارك الهيمنة، وإخفاء الشرعية جميعها في إضفاء الطابع المؤسسي، فهي ليست سوى ظهور نسبي للجهات الفاعلة التي تعطي الاستقرار في العلاقات عبر الزمان والمكان إلى الطابع المؤسسي المتمايز.

مبادئ البنائية والجماعات والصفات Structural Principles, Sets, and Properties

يرتبط مدى وشكل الطابع المؤسسي في المجتمعات بما أسماه جيدنز (المبادئ البنائية) [١٢] هي أهم المبادئ العامة التي توجه تنظيم الجماعات الاجتماعية الحضارية، وتمدها بالأنظمة عبر الزمان والمكان. وكذلك تسمح بتكامل النظام، أو الحفاظ على العلاقات المتبادلة بين وحدات المجتمع. وبالنسبة لجيدنز فإن المبادئ البنائية يمكن فهمها، مثل مبادئ التنظيم التي تسمح بأشكال متناسقة معترف بها في تحديد الزمان والمكان على أساس الآليات المحددة للتكامل الاجتماعي.[١٣] وتظهر الفكرة الأساسية من خلال القواعد والموارد المستخدمة من قِبل عناصر نشطة، وفقًا للمبادئ الأساسية للمنظمة. وتوجه هذه المبادئ كيف يتم تحويل وتوظيف القواعد والموارد للتوسط في العلاقات الاجتماعية؟

---

(١٢) الدستور الاجتماعي (في الملاحظة رقم ١) صفحة ١٧٩ - ١٩٣.

(١٣) نفس المرجع، صفحة ١٨١.

وعلى أساس مبادئ البناء التي تقوم عليها فهناك ثلاثة أنواع رئيسة من المجتمعات، هي: (١) المجتمعات القبلية التي تنظمها المبادئ البنيوية، والتي تؤكد صلة القرابة والتقاليد بوصفهما قوة للتوسط وراء العلاقات الاجتماعية عبر الزمان والمكان. (٢) المجتمعات المقسمة إلى طبقات التي يتم تنظيمها من خلال التمايز بين المناطق الحضرية والريفية، وفي المناطق الحضرية، فإنها تكشف عن المؤسسات السياسية المميزة التي يمكن فصلها عن المؤسسات الاقتصادية الأخرى، والرموز الرسمية للقانون أو المؤسسات القانونية، وطرق التنسيق الرمزي، أو الطلب من خلال النصوص المكتوبة والوصايا. (٣) المجتمعات الطبقية التي تنطوي على مبادئ البناء المنفصلة. وبالرغم من ذلك ترتبط جميع المجالات المؤسسية الأربعة مع بعضها البعض، خصوصًا الاقتصادية والسياسية.[١٤]

إن المبادئ البنائية تتضمن الإنتاج، وإعادة إنتاج البناء أو الجماعات البنائية، وهذه الجماعات البنائية هي مجموعات قواعد وموارد، أو تركيبات من الترتيبات للقواعد و الموارد التي تستخدم لإنتاج وإعادة إنتاج أنواع وأشكال مكونة من علاقات اجتماعية معينة عبر الزمان والمكان. وقدم جيدنز مثالًا عن كيفية أن المبادئ البنائية للمجتمعات الطبقية المتمايزة، والفصل بين الاقتصاد ونظام الحكم هو: توجيه استخدام المجموعة البنائية، وهي: الملكية الخاصة، والنقود، ورأس المال، والعمالة، والعقود، والربح، و تفاصيل هذه التحليلات أقل أهمية من الفكرة الرئيسة، وأن المبادئ البنائية العامة للتقسيم الطبقي يتم تحويلها إلى مجموعات أكثر تحديدًا من القواعد والموارد التي تستخدم وكلاء للتوسط في العلاقات الاجتماعية، وتستخدم هذه الجماعات البنائية في المجتمعات الرأسمالية؛ ونتيجة لذلك يؤكد إعادة إنتاج هذه الجماعات البنائية على المبادئ البنائية المجردة من المجتمعات الطبقية.

---

(١٤) لمزيد من المناقشة المستفيضة لهذا النوع ، انظر كتاب جيدنز في النقد المعاصر للمادية التاريخية: السلطة والممتلكات والدولة، (لندن: مكميلان، ١٩٨١م).

جدول (١ , ٨). تصنيف المؤسسات .

ترتيب المكانة كتأكيد على القواعد والموارد		أنواع المؤسسات
استخدام قواعد (المغزى) في الاقتران مع قواعد المعيارية (الشرعية). والتخصص وكذلك موارد موثوقة (الهيمنة)	**تنتج ويعاد إنتاجها عن طريق**	١- أوامر رمزية أو وسائط الخطاب وأنماط الاتصال
استخدام الموارد الموثوقة (الهيمنة) في الاقتران مع قواعد تفسيرية (المغزى) والقواعد المعيارية	**تنتج ويعاد إنتاجها عن طريق**	٢- المؤسسات السياسية
استخدام الموارد المخصصة (الهيمنة) في الاقتران مع القوانين التفسيرية (المغزى) والقواعد المعيارية	**تنتج ويعاد إنتاجها عن طريق**	٣- المؤسسات الاقتصادية
استخدام القوانين المعيارية (الشرعية) بالاقتران مع الموارد المخصصة الموثوقة (الهيمنة) والقواعد التفسيرية	**تنتج ويعاد إنتاجها عن طريق**	٤- المؤسسات الشرعية

كما تُستخدم هذه الجماعات البنائية الأخرى مِن قِبل وكلاء؛ وبالتالي يعاد إنتاجها وتُطور الخصائص البنائية للمجتمعات، وهي ميزات مؤسسية من الأنظمة الاجتماعية الممتدة عبر الزمان والمكان.[١٥] وهكذا، أصبحت العلاقات الاجتماعية مزخرفة بطريقة تقليدية، وبالتالي فإن المجموعة البنائية من الملكية الخاصة كالنقود، ورأس المال، والعمالة، والعقود، والربح يمكنها التوسط لتكون فقط لأنماط معينة من العلاقات ممثلة في مجموعات القواعد والموارد التي يجب أن يعمل بها العملاء. فعندئذٍ يمكن إنتاج أشكال معينة من العلاقات، وإعادة إنتاجها في المجال الاقتصادي، وبالتالي إضفاء الطابع المؤسسي على العلاقات في الزمان والمكان؛ مما يكشف عن شكل معين، أو بالنسبة لجيدنز الملكية البنائية.

التناقض البنائي Structural Contradiction

يؤكد جيدنز دائمًا على التحويلية المحتملة الكامنة للقواعد والموارد والمبادئ البنائية، كما يقول بأنها تعمل في مجال واحد آخر،[١٦] ولكن -أيضًا- يناقض بعضها البعض. وبعبارة أخرى فإنها تكشف التناقضات التي يمكن أن تكون إما أولية أو ثانوية، والتناقض الرئيس هو: إحدى المبادئ

(١٥) الدستور الاجتماعي، (في الملاحظة رقم ١) صفحة ١٨٥.

(١٦) نفس المرجع ، صفحة ١٩٣.

البنائية التي تكون وتشكل المجتمع، في حين أن التناقض الثانوي هو: الذي جلب إلى حيز الوجود من خلال التناقضات الأساسية،[١٧] وعلى سبيل المثال هناك تناقض بين مبادئ البنائية التي تتوسط لإضفاء الطابع المؤسسي على الأرباح الخاصة من جهة، وتلك التي تتوسط الإنتاج الاجتماعي من جهة أخرى. فالجهات الفاعلة لها ممارسات اجتماعية معينة .

إن التناقضات عند جيدنز ليس في حد ذاته صراعًا، والتناقض هو اختلال بناء المباديء في نظام التنظيات أو المنظمات ، في حين ان الصراع الفعلي يحدث بين الفاعلين في الممارسات الاجتماعية[١٨]كما أن التناقض بين الأرباح الخاصة والعمل اجتماعيًا ليس في حد ذاته صراعًا. ولكن قد يحمل حالات من الصراع مؤقتة ، مثل المواجهة بين الإدارة والعمل في نفس الوقت والمكان؛ ولذا تختلف هذه الصراعات عن التناقضات في مضمونها وتمثل الأنماط المؤسسية للمجتمع.

ويرى جيدنز أن الأنماط المؤسسية للمجتمع يمكن استخدامها من قبل الوكلاء بشكل معمم ومبادئ مجردة، وعندما تتطور هذه المباديء المجردة ستولد المزيد من تعبئة الموارد العامة مكونة مجموعة من المبادئ الملموسة الأكثر صلابة وحزمًا من القواعد، والموارد التي يستخدمها الوكلاء لإنتاج أو إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية في أماكن محددة. وكثير من هذه المبادئ و الجماعات تحتوي على عناصر متناقضة يمكن أن تشجع الصراعات الفعلية بين الممثلين في النظام. وبهذه الطريقة قد يكون البناء مقيدًا، إذا لم يتم تجسيده من قِبل الوكلاء بدلًا من الخصائص الإجمالية للمجتمعات غير الخارجة عن الأفراد والجماعات، ولكن قد تتكرر باستمرار من خلال استخدام المبادئ البنائية التي يضعها الوكلاء الفاعلون . وسنرجع لمناقشة جيدنز لهذه العوامل النشطة .

عملاء، ووكالة، وعمل Agents, Agency, and Action

كما هو واضح، يتصور جيدنز البناء بطريقة ازدواجية كشيء يكون جزءًا من الإجراءات والعملاء، وحينئذ يحتاج نهج جيدنز إلى فهم ديناميات الوكالة البشرية، وعلم الأصول العرقية ،

---

(١٧) نفس المرجع.

(١٨) نفس المرجع ، صفحة ١٩٨.

وعناصر نظرية الفعل ، وهذا النموذج موضح في الوكلاء، وهكذا عند جيدنز ؛حيث يقترح "نموذج التقسيم الطبقي" لمحاولة تجميع نظرية التحليل النفسي لعلم الظواهر، وعلم الاجتماع، وعناصر الحركة في هذه النظرية، ويصور هذا النموذج في الأجزاء السفلى من (الشكل ٨,٢). وتدل كلمة وكالة عند جيدنز على الأفعال التي يرتكبها الممثلون (الفاعلون) بدلًا من نوايا، وأغراض، ونهايات، أو غيرها من الوكالات. فالوكالة هي ما يفعله الممثل الفاعل، وفي حالة التكرار ، ولها عواقب واضحة (وليس بالضرورة عواقب مقصودة)، ولفهم ديناميات الوكالة ، فإنه يلزم تحليل كل عنصر في النموذج كما تم توضيحه.

وكما هو مرسوم في نموذج جيدنز في (الشكل ٨,٢)؛ حيث جمع بين نموذجين متداخلين في نقاشه، بأنه عند مراقبة سلوك البشر يدل ذلك على أن سلوكهم انعكاس لسلوك الآخرين، وقد أولى اهتمامًا للـــملاحظ ليقيم الآثار المترتبة على توابع الأفعال. [١٩] وتتأثر المراقبة عنده بمستويين من الوعي؛ [٢٠]أحدهما: الوعي الاستطرادي، وهو الذي ينطوي على قدرة العطاء لأسباب أو ترشيد ما، وهو ما يفعله المرء، ويفترض أن يفعل الشيء نفسه بالنسبة لسلوك الاخرين. والآخر: هو الوعي العملي، وهو المخزون من المعرفة الذي يستخدمه أحد الأفراد في مواقف العمل، ويستخدم ضمنيًّا للتصرف في حالات تفسير تصرفات الآخرين. فإن هذه القدرة من المعرفة تستخدم باستمرار، ولكن نادرًا ما يصرح بها لتفسير الأحداث التي تقع للفرد مع الآخرين ، وتقريبًا جميع الأفعال تكون مفهومة في أنه يجب تفسيرها من خلال سياقها.

---

(١٩) نفس المرجع، صفحة ٥-٧؛ انظر أيضًا: المشكلات الأساسية في النظرية الاجتماعية (في الملاحظة رقم ١) صفحة ٥٦-٥٩.

(٢٠) دينه إلي ألفريد سديوتز والظواهر هو واضح هنا، لكنه أخرجه من خصوصياته. انظر: الفصل السادس على صعود التنظيرية التفاعلية.

وهناك أيضًا أبعاد غير واعية لوكالة الإنسان، كالعديد من الضغوط على التصرف بطرق معينة التي لا يلاحظها الممثل (الفاعل). ويؤكد جيدنز أن الدافع غير الواعي -زيادة على الدافعية في كثير من الأحيان- هما أكثر انتشارًا؛ ولذلك لا توجد علاقة واحدة بين الفعل والدافع. فقد تكون الجهات الفاعلة قادرة على الترشيد من خلال قدرتها على وعي استطرادي بطريقة تجعل من هذه العلاقة شرطًا -بين واحد لواحد- فتبدو وكأنها توجه الأفعال، ولكن ما يدفع العمل يقع تحت الوعي. وفي أحسن الأحوال يوفر ضغوطًا عالية جدًا للعمل والتصرف. وإضافة إلى ذلك ربما لا يكون الكثير من العمل مدفوعًا على الإطلاق. فالممثل ربما يراقب ويستجيب بسهولة للبيئة حوله.

كما تؤكد الأجزاء العليا في (الشكل ٢, ٨) على أن الأنماط المؤسسية لها تأثير في أثناء وجود عواقب لديناميات الوكالة. فالدوافع اللاواقعية للأمن تتطلب تفاعلات روتينية يمكن التنبؤ بها، وهي مستقرة على مر الزمن، وتستقر بترتيب في المكان، وهذه الرتابة هي نتاج تفاعلات الماضي للعملاء يتم تعزيزها أو إعادة دورها من خلال الإجراءات الحاضرة والمستقبلية للحفاظ على الروتين وحدود المناطق على الممثلين، ومراقبة تصرفاتهم في أثناء اعتمادهم على مخزون المعرفة، وقدراتهم الخطابية.

أنماط مؤسسية:

أ) سياقات إقليمية

ب) سياقات روتينية

↕

تفاعل مع الآخرين في سياقات

(النظام الاجتماعي)

↕

مراقبة انعكاسية للأفعال

↕

الترشيد من خلال الوعي

الاستطرادي

↕

التفسير من خلال الوعي العملي

↕

ضغوط اللاوعي

↕

دوافع اللاوعي لتعزيز الأمان الوجودي

(تحقيق الثقة مع الآخرين وتقليل القلق)

Source: figure 28,2 on p.620 of
Turner,J.Contemporary
Sociology Theory,
SAGE Publications Inc.,2013

الشكل (٢, ٨). ديناميات الوكالة.

وفي محاولة لإعادة اللاوعي في النظرية الاجتماعية يتبنى، جيدنز فكرة إريك إريكسون عن التحليلي النفسي " القوة الأساسية ". وأن [٢١]وراء الكثير من الأفعال مجموعة من عمليات اللاوعي للحصول على شعور بالثقة بعمليات التفاعل مع الآخرين، وقد اشترط جيدنز هذه المجموعة من العمليات لنظام الأمان الوجودي للعميل. وهذه هي إحدى القوات القيادية المنتشرة لغاية وراء الأفعال، وهي الرغبة في المحافظة على الشعور بالأمن وبالثقة التي تكون قادرة على الحد من القلق في العلاقات الاجتماعية. ويحتاج الممثلون إلى وجود هذا الشعور بالثقة، وكيف يحدون من القلق لتأمين هذا الشعور، وهو غالبًا ما يكون الشعور اللاوعي؛ لأن الآليات التي تشارك فيها قد تطورت قبل ظهور المهارات اللغوية لدي الشباب، ولأن الديناميات النفسية –مثل القمع- يمكن أيضًا أن تحافظ على هذه المشاعر الأساسية وثباتها عن كونها واعية. بشكل عامّ. يقول جيدنز: إن الحفاظ على الأمن الوجودي من خلال روتينية المقابلات مع الآخرين، ومن خلال التفسير الناجح للأفعال كمعرفة عملية أو مخزنة يكون من خلال القدرة على وجود روتين يأتي مع الوعي الاستطرادي. وبهذه الطريقة تصور جيدنز أنماطًا متضمنة من طبيعتها الوكالة، فلا يمكن أن توجد المؤسسات والوكلاء من دون الآخر، في حين أن ديناميات الوكالة للوعي واللاوعي تعتمد على الروتين والمناطق التي تقدمها الأنماط المؤسسية.

روتينية وإقليمية التفاعل Routinization and Regionalization of Interaction

يعتمد الوجود الأمني للعملاء، وإخفاء الطابع المؤسسي على البناء في الزمان والمكان، كما يعتمد على التفاعل الروتيني والإقليمي بين الممثلين (الفاعلين)، كما أن أنماط التفاعل هي ما يعطيهم الاستمرارية عبر الزمن، وبالتالي إعادة إنتاج بنية قواعد الموارد والمؤسسات. وفي الوقت نفسه تعطي الروتينية القدرة على التنبؤ للإجراءات، كما أن القيام بها يوجد الشعور بالأمن. وهكذا تصبح الإجراءات الروتينية حاسمة بالنسبة للجوانب الأساسية للبناء ووكالة الإنسان، وبالمثل إجراءات الترتيب الإقليمي في المكان عن طريق وضع الممثلين في أماكن ذات صلة بعضها ببعض، مع تقييدها بالطريقة التي تقدم بها نفسها، كما هو الحال مع الروتين. ويعتبر إضفاء الطابع الإقليمي للتفاعل

---

(٢١) الدستور الاجتماعي (في الملاحظة رقم ١) صفحة ٤٥-٥٩.

ضروريًا لاستدامة الأنماط البنائية ووجود الأمن للممثلين، حيث تترتب عليها تفاعلات الناس في المكان والزمان الذي بدوره يعيد إنتاج البناء الاجتماعي، ويلبي حاجات العملاء ووجود الأمن.

الروتين Routines

يرى جيدنز أن الروتينية حلقة وصل رئيسة بين التفاعلات العريضة عندما تبدأ وتمضي قدمًا، وتنتهي من جهة أخرى، وبين الثقة الأساسية والأمن من ناحية أخرى. وزيادة على ذلك فإن روتينية المقابلات لها أهمية كبيرة في ربط المقابلات العابرة بالإنتاج الاجتماعي، أو بما يسمى ثبات المؤسسات. وفي مناقشة مثيرة للاهتمام للغاية استعارها من جوفمان، ولكن مع تطور الظواهر، اقترح جيدنز عدة إجراءات، أو آليات يمكن أن يستخدمها البشر للحفاظ على الروتين هي: فتح وإغلاق الطقوس، والتحول، واللباقة، وتحديد المواقع، وطريقة الإطراء، والتي سأناقشها بالنقاط الآتية:[٢٢]

١- أن التفاعل المتسلسل يحدث بالتتابع، ويجب تحدي العلامات الرمزية لفتحه أو إغلاقه، وهذه العلامات ضرورية لصيانة الروتينية؛ لأنها تحدد عند تدفق الوقت بداية عناصر التفاعل الروتيني ونهايته. وهناك العديد من مثل هذه العلامات الشخصية كالكلمات، والإيماءات، وتعابير الوجه، ووضع الجسم، كما أن هناك علامات ملموسة وحسية مثل: شكل الغرف والمباني والطرق، والمعدات التي تشير أيضًا إلى بدء تفاعلات روتينية ونهايتها. ويمكن ملاحظة ذلك على سبيل المثال من خلال العلامات الشخصية والجسدية للمحاضر الذي يُعدُّ فاعلًا روتينيًا جيدًا يحافظ على وجود الأمن للعملاء، ويدير الأنماط المؤسسية.

٢- أن التحول في المحادثة عملية أخرى تحافظ على الروتين. فكل الممثلين المؤهلين عمليًا لديهم مخزون ضمني للمعرفة والشعور بكيفية تتابع المحادثة. فالناس يعتمدون على أساليب الشعبية لبناء التسلسل في الحديث، والشعور النفسي بالأمن، والسياق المؤسسي الأكبر. وعلى سبيل المثال: فإن المحادثة قد لا تتم بسلاسة في أثناء التحول؛ لأنها قد تذكر بالشيء السيئ لإحساسك بالنظام والروتين.

---

(٢٢) تم عمل هذه القائمة من نص أكثر منطقية.

٣- اللباقة: في رأي جيدنز هي: الآلية الرئيسة التي تحافظ على الثقة، ووجود الأمن على المدى الطويل بواسطة اللباقة. ويعني جيدنز اتفاق المفاهيم بين المشاركين في التفاعل حول كيفية إيماءات كل مجموعة واستجابتها وحول ما هو لائق وغير لائق، وتحمل الناس بمخزون المعرفة الضمني التي تحدد لهم ما يمكن أن يكون مناسبًا لبقائه، وما سيكون غير مناسب، ويستخدمون هذا الشعور ببراعة لتنظيم انبعاثاتها وإيماءاتها، والحديث عن القائمة التي تم تكوينها بما يسمى نص أكثر استطرادًا، ووضعهم المترابط في المواقف لكي يبقى إيجابيًا، وبالتالي الحفاظ على شعورهم بالثقة والنظام الاجتماعي بشكل أكبر. ومن الصعوبة أن نجد تفاعلات لا يوجد فيها إيجابية، وكيف تفسد الروتين، وإحساسنا بالراحة، وإدراكنا لموقف منظم.

٤- يرفض جيدنز فكرة الدور ويستبدلها بمفهوم المنصب. فالناس يجتمعون في موقف أو مكان الهوية الاجتماعية التي تحمل في طياتها مجموعة معينة من الصلاحيات والواجبات التي تنبعث منها إيماءات في عملية تحديد المواقع المتبادلة. مثل: تحديد مكان أجسادهم في بعض المواقع، مؤكدًا صلاحياتها وتحديد التزاماتها. وبهذه الطريقة يمكن أن تكون التفاعلات روتينية، ويمكن للناس أن يحافظوا على شعورهم بالثقة المتبادلة، فضلًا عن الأبنية الاجتماعية الكبيرة التي يحدث تفاعلها أثرًا ملموسًا على علاقات البناء.

٥- يتكون ترابط الكثير من أنشطة المواقع بشكل محتمل بواسطة الأطر التي توفر الصيغة لتفسير سياق التفاعلات الأطرية؛ أي وجود قواعد تنطبق عليها، ولكن ليست هذه معيارية بحتة لوجود تعليمات دقيقة للمشاركين بنفس القدر من أهمية الأطر، وتكون ضمنية، وتعمل كعلامات تؤكد وقت حدوث سلوكيات معينة وتفعيلها. وعلى سبيل المثال: قارن بين إحساسك في كيفية تعاملك في أثناء جنازة، وفي حفلة كوكتيل، وفي الصف، وفي سياقات أخرى.

وباختصار يتم توسيع البنية الاجتماعية عبر الزمان بواسطة هذه التقنيات التي تنتج الروتين، وتعيد إنتاجه في التفاعلات الممتدة عبر الزمن بطريقة منظمة، ويمكن التنبؤ بها. ويدرك الناس حاجتهم إلى الشعور بالثقة مع الآخرين. وبهذه الطريقة يربط جيدنز الخصائص الأساسية للبنية والقواعد والموارد بأهم السمات الأساسية للعوامل البشرية (دوافع اللاوعي).

الأقلمة Regionalization

تهتم نظرية البناء بإعادة بناء العلاقات ليس فقط عبر الزمن، ولكن أيضًا في المكان، ولكن مع مفهوم أقلمة التفاعل. وتناول جيدنز نقاط الالتقاء بين الزمان والمكان،(٢٣) فعلى سبيل المثال ليس فقط للتفاعل المتسلسلة، والتحرك في الوقت المناسب ولكن أيضًا المكان. ومرة أخرى استعار جيدنز من جوفمان وأيضًا من جغرافية الزمان والمكان، ليقدم مفهوم المكان والموقع للتعبير عن المكان المادي، حيث تقع التفاعلات، بالإضافة إلى المعرفة النصية عما يحدث في المكان وفي الموضع. فلا يؤسس الممثلون وجودهم في علاقاتهم ببعضهم البعض فقط ولكن لتخدم أيضًا مخزوناتها من المعرفة العملية لتفسير سياق المكان. وتوفر مثل هذه التفسيرات الثقة والإجراءات الملائمة للباقة، والأشكال البارزة للتتابع والإيماءات والحديث.

ويصنف جيدنز المواضع بأنماطها، وتتنوع المواضع من خلال: (١) الحدود المادية والرمزية، (٢) ومدتها عبر الزمن، (٣) ومداها وامتدادها في المكان المادي، (٤) وصفاتها أو الطرق التي من خلالها تتصل بالمواضيع الأخرى، وبالأنماط المؤسسية الأوسع حدودًا، وتتنوع المواضع بالدرجة التي تجذب الناس للحفاظ على وجودها العام بدرجة عالية بما أسماه جوفمان بـ "المرحلة الأساسية"، أو السماح بالتراجع إلى المناطق التي يقل فيها الوجود العام،(٢٤) وهي تتنوع أيضًا في مدى الإفصاح عن الذات (المشاعر والمواقف) التي تتطلب بعض التسامح أو حجب النفس، والمواضع الأخرى التي تحتاجها على الأقل بعض جوانب الذات.

ومن أقلمة التفاعل عبر إنشاء تسهيلات للمواضيع للحفاظ على الروتين عبر الزمان والمكان للمحافظة على الأبنية المؤسسية، وبالتالي تغير الأنظمة الروتينية الإقليمية من التفاعل، والقدرات الانعكاسية للعملاء، وتغير إنتاج الأنماط المؤسسية.

ويمثل (الشكل ٨,٣) الطريقة التي يلخص بها (جيدنز) المخطط للمفاهيم والتقاليد النظرية التي رسمها بالمعنى. فعند الانتقال من اليسار إلى اليمين يزداد المخطط بشكل جزئي، على الرغم من أن جيدنز لا يدرك نظرية الشروط الكلية في مقابل الجزئية، ولكن الرسالة العامة واضحة

---

(٢٣) المرجع نفسه، صفحة ١١٠-١٤٤.

(٢٤) انظر: إيرفينج غوفمان، عرض الذات في الحياة اليومية (جاردن سيتي، نيويورك: دوبليداي، ١٩٥٩)؛ وانظر أيضًا: الفصل السابع عن التنظير الدرامي.

في أنها تستخدم القواعد والموارد لبناء البناءات، وتمثل هذه القواعد والموارد أيضًا جزءًا من مبادئ البناء التي تشمل الجماعات البنائية، وهذه الخصائص البنائية تتضمن تأسيس شروط التفاعل مثل: أنظمة التفاعل التي يتم تنظيمها عبر عمليات الأقلمة والروتين. وتتأثر كل هذه العمليات بالوعي العملي الافتراضي الذي تحركه دوافع اللاوعي وخاصة الحاجة إلى وجود الأمن.

ولا ينظر جيدنز إلى النظرية أكثر من كونها مخططًا مفاهيميًّا لوصف وتحليل وتفسير الأحداث التجريبية. وإضافة إلى ذلك فربما لا يرى مخططه ممثلًا للعمليات الاجتماعية الخالدة. فبالرغم من أنها سبب احترام أعماله وقراءاته، إلا أنها تبدو كعمليات أساسية وجوهرية تسمو فوق الزمان والمكان.

شبكة التنظير على البناء
Network Theorizing On Structure

تطور تحليل الشبكة: The Development of Network Analysis

تطور تحليل الشبكة خلال الأربعين سنة الماضية[٢٥] تلاقى العمل فيها ضمن علم الإنسان، والنفس الاجتماعي، وعلم الاجتماع، والاتصالات، والجغرافيا، والعلوم السياسية على وضع مفهوم

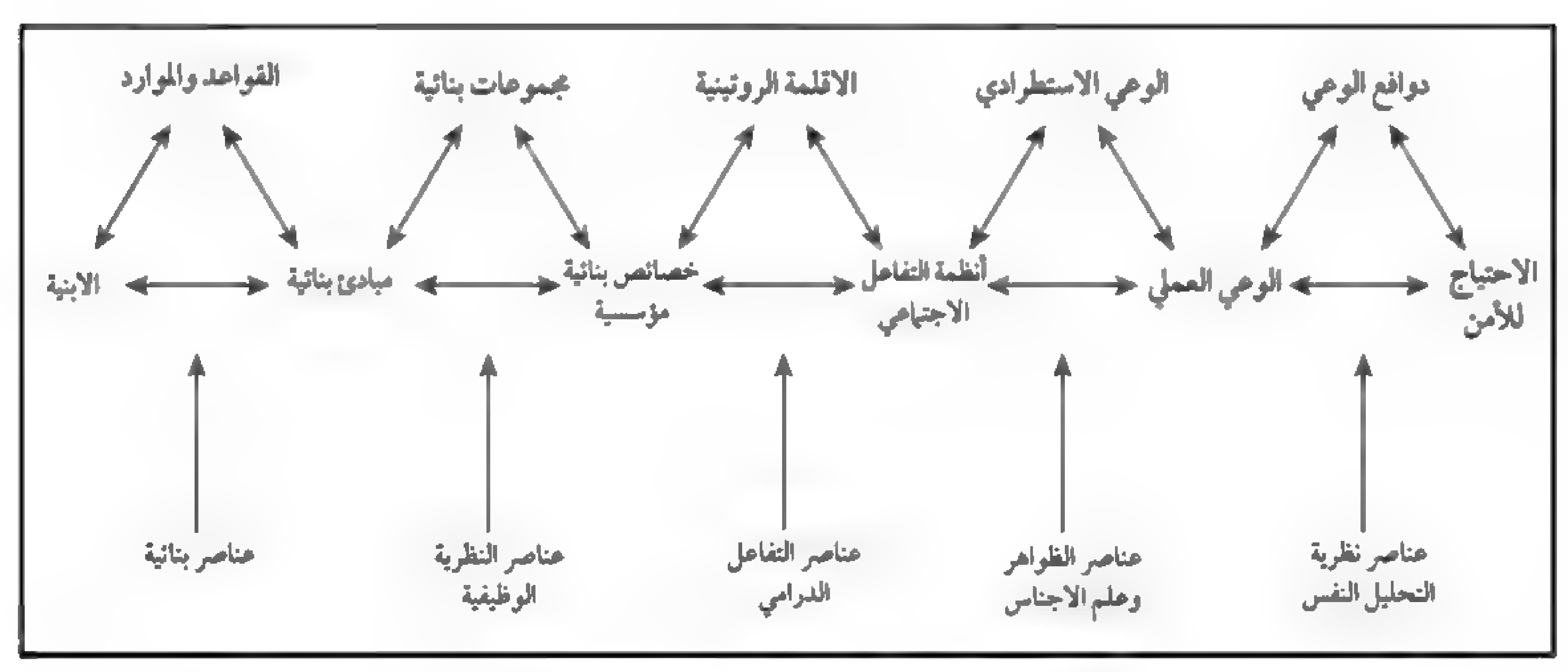
---

(٢٥)بالنسبة لبعض المراجع عن أوائل الرواد في تحليل الشبكات في علم الحيوان وعلم الاجتماع وعلم النفس، انظر: س.د. فادال، دراسة البنية الاجتماعية (لندن: كوهين والغرب، ١٩٥٧م) ؛ ج. كلايد ميتشل. "مفهوم الشبكات الاجتماعية واستخدامها" ، في جيريمي ف. بويسفين وجيليد ميتشل، محرران، تحليل الشبكة: الدراسات في التفاعل البشري (لاهاي: موتون ، ١٩٧٣م)، إليزابيث بوت، العلاقات الاسرية والاجتماعية، (أيديسون، ويسلي مديول، رقم ٢٦، ١٩٧٢م). وانظر أيضًا: كتابه في " العلاقات و العملية السياسية، في ج.بوسيفين و ج. ميتشل، تحليل العلاقات: دراسة في التفاعل الإنساني (موتن، ١٩٧٣م)، إليزابيث بوت، العائلة والعلاقات الاجتماعية: =الأدوار، الترتيب و العلاقات الخارجية في العائلات الحضرية العادية (لندن: تافيستوك، ١٩٥٧، ١٩٧١م) يعقوب مورينيو، مَن الباقي؟ (واشنطون، انتشار الأمراض العصبية والعقلية، ١٩٣٤م، إعادة نشر في صورة ثابتة من دار بيكون للنشر، نيويورك،١٩٥٣م)؛ أليكس بافليز، " التمثيل الرياضي لبنية المجموعة" علم دراسة الحيوان التطبيقية ٧ (٣) (١٩٤٨م): صفحة ١٦٣٠، هارولد ج.ليفت وكنيث نايت، " أكثر الحلول فاعلية للعلاقات الاجتماعية: الإمبريالية ضد بحث استطلاعي؛ سوميتري ٢٦ (١٩٦٣م): صفحة ٢٦٠-٢٦٧، تيدور م. نيوكومب، طريقة دراسة أنشطة التواصل، " مراجعة علم النفس ٦٠ (١٩٥٣م): صفحة ٣٩٦ – ٤٠٤. انظر أعماله السابقة عندما أخذَتْ أفكاره طابعًا خاصًا، التغير الفردي والاجتماعي (نيويورك درايدن، ١٩٤٣م).

البناء بأنه شبكة اجتماعية. وخلال هذه الفترة تمت إعادة صياغة المفاهيم والأفكار المجازية حول الشبكات الاجتماعية بأنواع مختلفة من الجبر لرسم نظرية الاحتمالات. وكان هذا التقارب في بعض النواحي ذات جانبين يتراوح بين الإيجابية والسلبية ، ومن ناحية أخرى يمكن مفاهيم الرياضيات أن تمنحهم دقة أكبر وتوفر لغة أحادية يجمع بين المفاهيم الأساسية والمشتركة من مختلف التخصصات الأخرى. كما أن الاستخدام المكثف والمشترك للرياضيات والحاسوب قد يتجاوز المهارات التقنية لمعظم علماء الاجتماع، والأهم من ذلك أن أصبح استخدام تطبيق التقنيات للحسابات الكمية في حد ذاته يحظى بأقل اهتمامًا في التحليل، وتوضيح ما يتم في العالم الاجتماعي والفعلي من تدريب على توضيح وشرح كيفية إدارة العالم الاجتماعي الواقعي [٢٦].

---

(٢٦) على سبيل المثال، د. كونك (Theorie der Endlichen und Undlichen Graphen Leipzig, Teubner, 1936 reissued, نيويورك، شيلسي ١٩٥٠م) هذا أفضل ما وُجد في أول أعمال النظرية البنائية، ويبدو أن أول تطبيق مهم لهذه النظرية على العلوم الاجتماعية جاء مع دونكان، لوسي و بيري "طريقة دراسة تحليل منظومة البناء الجماعي" سايدروميتركا ١٤ (١٩٤٩م): صفحة ٩٤ -١١٦، تم العمل بواسطة دانكان لوسي، " "الترابط والقطع العامة في بناء الجماعات الاجتماعية، سايكروميتريكا ١٥ (١٩٥٠م)، صفحة ١٦٩-١٩٠ أصبحت نظرية فرانك هاريري للرسم البياني (قراءة: أديسون – ويسلي ١٩٦٩م) مراجعة معيارية، والتي سبقها فرانك هاراري ور. ز. نورمان ، نظرية الرسم كنموذج رياضي في العلوم الاجتماعية (آن آربر: جامعة مشتجن، معهد الدراسات الاجتماعية، ١٩٥٣م)، وفرانك هاري، ز.نورمان، وداروين كاترويت، نماذج البناء: مدخل لنظرية الرسم البياني (نيويورك: ويلي. ١٩٦٥م)؛ داروين كاترويت وفرانك هارواي، "التوازن البنائي": تعميم نظرية هيدر: " مراجعة نفسية ٦٣ (١٩٥٦م): صفحة ٢٧٧-٢٩٣: لمزيد من الأعمال الحديثة، راجع "التوازن والقابلية العنقودية: نظرة عامة:" في هولندا ولينهاردت، محرران، وجهات نظر حول بحوث الشبكات الاجتماعية (نيويورك: أكاديمي ، ١٩٧٩م).



شكل (٣,٨). مفتاح عناصر النظرية البنائية .

وبالرغم من هذه العوائق فإن إمكانية تحليل الشبكه كمقارنة تجسد خاصية العلاقات الاجتماعية في البناء الاجتماعي بين الوحدات الاجتماعية المختلفة ؛ سواء كان بين الأفراد أو الجماعات أو الأماكن ، أو المكانة الاجتماعية .وقد أكد جورج سيميل من خلال وضع مفهوم دقيق لتحديد طبيعة العلاقات والبناءت الاجتماعية.في تصوره عن البناءات الاجتماعية؛ بأن البناءات الاجتماعية تتكون من العلاقات والروابط فيما بينها ، وأن قوى التحليل الشبكي يضع مفهومًا دقيقًا لطبيعة البناءات والعلاقات ، بالإضافة إلى الخصائص الديناميكية التي تكمن وراء هذه العلاقات.

المفاهيم النظرية الأساسية في تحليل الشبكة

Basic Theoretical Concepts in Network Analysis

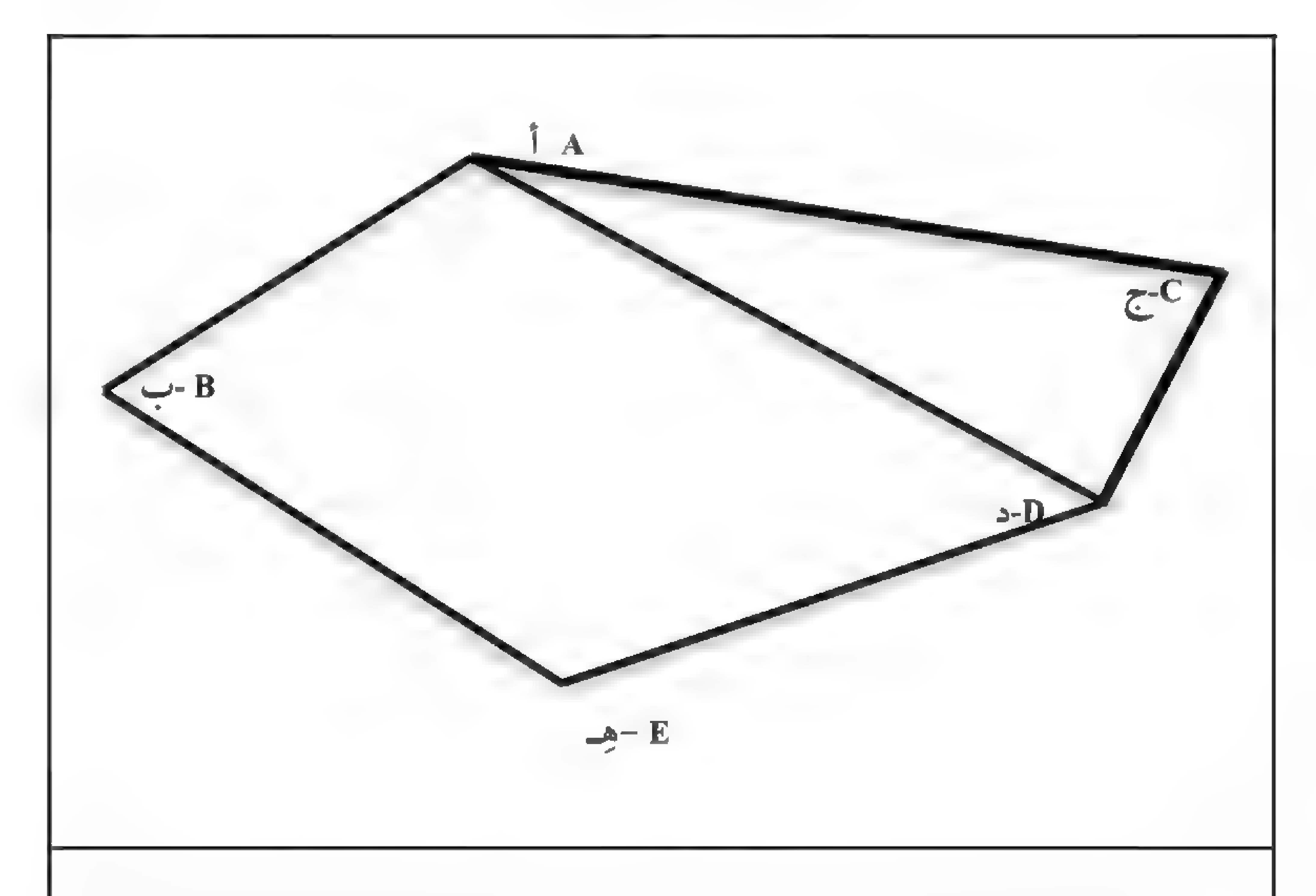
نقاط وعقد Points and Nodes

يمكن أن تكون وحدات الشبكة من مراكز أشخاص ممثلين للشركات والجماعات، أو تقريبًا أي كليات يمكن توصيلها بكيانات أخرى بشكل عام. وتعد هذه الوحدات بوصفها نقاطًا أو عقدًا عادة ما يرمز إليها بالحروف والأرقام في (الشكل ٤ ,٨). ويتم رسمها بشبكة يسيرة للغاية. ويمثل كل حرف نقطة أو عقدة في الشبكة، أو أحد أهداف تحليل الشبكة، وبالتالي هو الترتيب في نموذج فراغي بصري من الارتباطات بين الوحدات المرتبطة بعضها ببعض. وبالمعنى الرياضي فهو يوضح اختلافًا يسيرًا عن ماهية النقاط والعقد، وهذا له فضل عظيم؛ لأنه يوفر مجموعة مشتركة من الإيرادات التحليلية، من أجل تحليل الظواهر المتنوعة. والهدف الآخر من تحليل الشبكة هو شرح

ديناميات وأنماط مختلفة من العلاقات بين العقد. وغالبًا ما يخضع لتطوير ديناميات أعمال الكمبيوتر لتمثيل الروابط بين النقاط والعقد في شبكات أكثر تعقيدًا من تلك التي صورت في (الشكل ٤ ,٨).

وصلات وروابط وعلاقات Links, Ties, and Connections تمثل الحروف في (الشكل ٤ ,٨) النقاط أو عقد البناء، وتشير الخطوط التي تصل الحروف إلى هذه النقاط مرتبطة بعضها ببعض في نمط معين. فمفهوم التعادل هو الطريقة الأكثر شيوعًا للدلالة على هذه الخاصية في الشبكة في (الشكل ٤ ,٨). وهناك علاقات من الروابط بين (AوB) و(AوC) و(A وD)و(BوE)و(Cو D)و(DوE) وليس علينا معرفة أن هذه النقاط موجودة في الشبكة، بل يجب أن يكون لدينا فكرة عما يربط هذه النقاط. ما طبيعة الرابط؟ ما الموارد التي تتلاقي من عقدة لعقدة؟ ما وجهة نظر الرسم البياني؟ وعند الأخذ بعين الاعتبار لعلماء الاجتماع فمن المهم أن نعرف طبيعة العلاقات بينها في السوسيوجرام الذي أسسه جاكوب مورينيو، واشتملت العلاقات عنده على حالات عاطفية مثل: المحبة، والصداقة، وكانت العقد نفسها فردية، ولكن يمكن تنوع طبيعة العلاقات، وتدفق المعلومات، والنفوذ، والبضائع، والخدمات، والتأثير، والمشاعر، والاحترام، والهيبة، وتقريبًا أي قوة أو موارد تربط الممثلين بعضهم ببعض.

وفي كثير من الأحيان يكون تبادل الشبكات كما في الفصل الخامس، عن نظرية شبكة العمل التبادلية ، حيث تصورالروابط على انها الموارد. فعندما يتم تمثيل النقاط أو العقد على شكل أحرف مختلفة ، فإن هذا يدل على ان الجهات الفاعلة تتبادل الموارد المختلفة، مثل: الهيبة للحصول على المشورة، والمال مقابل الخدمات، والاحترام من أجل الحصول على المعلومات إلخ. وعلى النقيض من ذلك إذا كانوا يتبادلون موارد متماثلة، فسيتم تمثيل العقد بنفس الحروف والأرقام بمثل: .A1. A2 (A3)، ولكن يُعدُّ هذا اصطلاحًا واحدًا فقط. فطبيعة العلاقة يمكن أيضًا تقديمها عن طريق خطوط مختلفة كخطوط منقطة، أو مكونة في نظرية الرسم البياني. ويمكن للخطوط أن تظهر في الاتجاه كما هو موضح بالأسهم. وعلاوة على ذلك إذا كانت الموارد متعددة. وهي التي تربط المراكز في الرسم البياني، والخطوط المتعددة، وإذا لزم الأمر يمكن أن تربط بالأسهم لتحديد الاتجاه الذي سوف يتم توضيحه. وهكذا فإن الرسم البياني الممثل في (الشكل ٤ ,٨) واضح وسهل جدًا، ولكنه يربط الهدف الرئيس من تحليل الشبكة للتمثيل في البناء المكاني بين الوحدات.



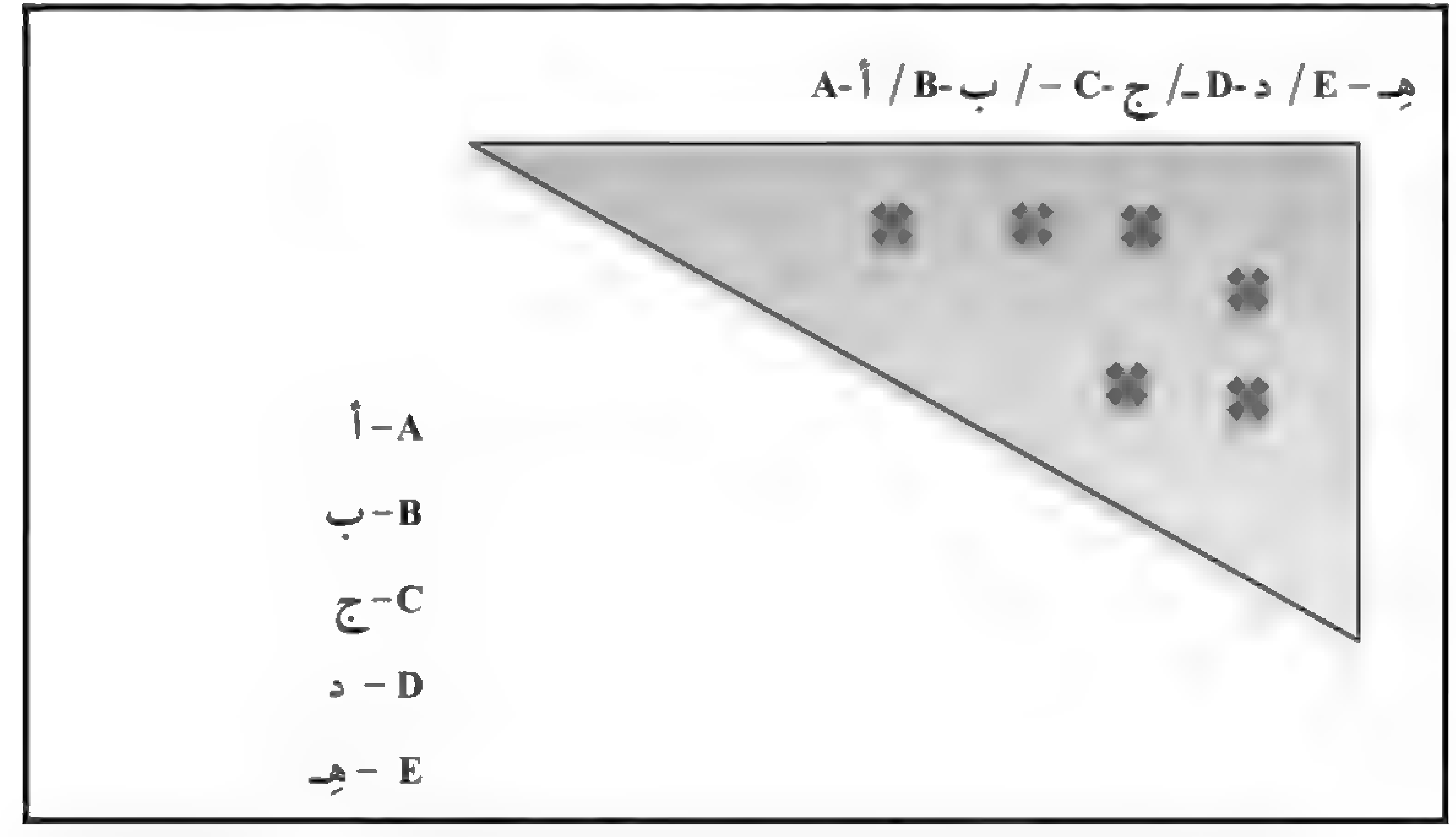
Source Figure29.1 on p.628 OF Turner ,Contemporary Sociology Theory @SAGE publications inc.2013

الشكل (٤ ,٨). رسم بياني ميسَّر للشبكة .

هناك طريقة واحدة للزيادة أعلى من تنوع الموارد التي تمت دراستها في تحليل الشبكة لتصور تدفق الموارد في شبكات الاتصال لثلاثة من أنواع عامة: الموارد والرموز والعواطف ، وهذا هو ما يربط الأشخاص والمواقف، وإشراك الممثلين في العالم الاجتماعي، وهو: (١) رموز المعلومات والأفكار والقيم والمعايير والرسائل وما إلى ذلك. (٢) الموارد والأشياء المادية والرموز مثل: المال الذي يتيح إمكانية الوصول إلى الأشياء المادية. (٣) العواطف والموافقة، والاحترام، والمحبة ، والاعجاب وما إلى ذلك.وهكذا الحال في الاستخدامات غير الاجتماعية للشبكات. ويمكن للعلاقات والروابط أن تكون أنواعًا أخرى من الظواهر، وعندما تكون العلاقات ذات طابع اجتماعي فإنها توجد على طول الأبعاد المادية ، والرموز والأبعاد العاطفية.

ويمكن أيضًا تمثيل تكوين الروابط على شكل مصفوفة. وفي معظم الدراسات الشبكية يتم إنشاء مصفوفة قبل شبكة الرسم الفعلي. وزيادة على ذلك عندما يتعلق الأمر بأعداد كبيرة من العقد،

أو مصفوفة، غالبًا ما تكون أفضل طريقة لفهم تعقيد الاتصالات عن الرسم البياني التي من شأنها أن تصبح مرهقة جدًا لتكون مفيدة. ويعرض (الشكل ٨,٨) منطق المصفوفة باستخدام شبكة يسيرة للغاية ، ويمكن لرياضيات مثل هذه المصفوفة أن تكون معقدة للغاية. ولكن النقطة العامة واضحة عبر جدولة النقاط التي ترتبط مع بعضها ،كما يحدث في داخل المنطقة الثلاثية من المصفوفة في (الشكل ٨,٥)، وقد يحتاج الى خوارزميات حاسوب متطورة في تحليل الشبكة، وربما لا يتم رسم مخطط فعلي لأن التصورات الرياضية معقدة للغاية .وإذا كان استخدام خوارزميات الحاسوبية المتطورة في تحليل الشبكة، فتُعدُّ المصفوفة الخطوة الأساسية الأولى لتحليلها بشكل متتابع. والمخطط الفعلي ربما لا يمكن استخلاصه؛ لأن التصورات الرياضية معقدة جدًا. ومع ذلك سوف يكون في نهاية المطاف تحويل معظم المصفوفات في تحليل الشبكة إلى شكل من أشكال التمثيل البصري، وربما في المكاني. وليست كشبكة رسم بياني، ولكن تقنية أخرى مثل الرسوم البيانية ثلاثية الأبعاد، أو مجموعات من النقاط، وسوف تستخدم للتعبير عن الفراغ البصري للعلاقات بين الوصلات.



Source figure29.2 on p. turner ,contemporary sociology theory @sage publications inc.2013

شكل رقم (٨,٥) مصفوفة يسيرة

أنماط وتكوينات من الروابط[٢٧] Patterns and Configurations of Ties

من وجهة نظر الشبكة يتم تصور البيئة الاجتماعية بوصفها شكلًا من أشكال العلاقات، وهذا هو النمط أو التكوين بين ما هو موارد يحدد العقد، أو النقط في الرسم البياني؟ وللإجابة عن أسئلة من هذا القبيل، يتناول علم الاجتماع عدة خصائص للشبكات، وأهم هذه الخصائص هي عدد العلاقات، وتوجيه الأعضاء، والمعاملة بالمثل من العلاقات، وتعددية العلاقات، وكثافتها وقوتها، والوساطة المالية، ومركزها وتكافؤها. وكل واحدة منها موضحة بإيجاز أدناه.

عدد الروابط Number of Ties

جزء مهم من المعلومات في تحليل أداء الشبكة، وهو العدد الإجمالي للعلاقات بين النقاط والعقد. وبشكل طبيعي، يعتمد هذا التحليل على عدد من الروابط المحتملة من النقاط في الرسم البياني، وعدد من الموارد المستخدمة في ربط النقاط، ومع ذلك بالنسبة لأي عدد معين من النقاط والموارد. ومن المهم حساب كل من الرقم الفعلي، و المحتمل للروابط الموجودة والممكن توليدها، ويمكن استخدام هذه المعلومات بعد ذلك لحساب الأبعاد الأخرى للبنية الشبكية.

---

(٢٧) بالنسبة لبعض النظرات العامة القابلة للقراءة على تحليل الاتصالات، انظر: باري ويلمان، "تحليل الاتصال؛ بعض المبادئ الأساسية"، النظرية الاجتماعية (١٩٨٣م)، ص. ١٥٥ – ٢٠٠؛ جيريمي إف بويسفاين وجيليد ميتشل، محرران، تحليل الشبكة (هاج،موتن ١٩٧٣م) العلاقات الاجتماعية في المواقف الحضارية (مانشيستر: جامعة مانشيستر، ١٩٨٨م). يمكن العثور على ملخصات تقنية أكثر بعض الشيء لأبحاث الشبكات الحديثة في صامويل لينهاردت ، محرر ، الشبكات الاجتماعية: نموذج تنامي (نيويورك: أكاديمي ، ١٩٧٧م)؛ بول هولاند وصمويل لينهاردت ، محرران ، وجهات نظر في المجال الاجتماعي، بحث في العلاقات (نيويورك: أكاديمي، ١٩٧٩م)؛ رونالد س.برت "نماذج من بنية العلاقات مراجعة سنوية لعلم الاجتماع ٦ (١٩٨٠م): صفحة ٧٩-١٤١؛ بيتر مارسدن و نان لين، النية المجتمعية وتحليل العلاقات(نيوبيري بارك، كاليفورنيا، سيج، ١٩٨٢م). للبحث المتقدم عن العلاقات، راجع الإصدارات الأخيرة من مجلة العلاقات الاجتماعية.

توجيه الأعضاء Directedness

من المهم أن نعرف الاتجاه الذي تتدفق من خلاله الموارد، وخلال الشبكة. لذلك كما هو مبين في وقت سابق، كثيرًا ما وضعت الأسهم على خطوط الرسم البياني ليعطي شعورًا أفضل بهياكل الشبكة، وعلى سبيل المثال: إذا كانت الخطوط تدل على المعلومات فسيكون لدينا فهم أفضل لكيفية بناء العلاقات في الشبكة والحفاظ عليها؛ لأنه يمكننا رؤية اتجاه وتتابع تدفق المعلومات.

تبادلية الروابط Reciprocity of Ties

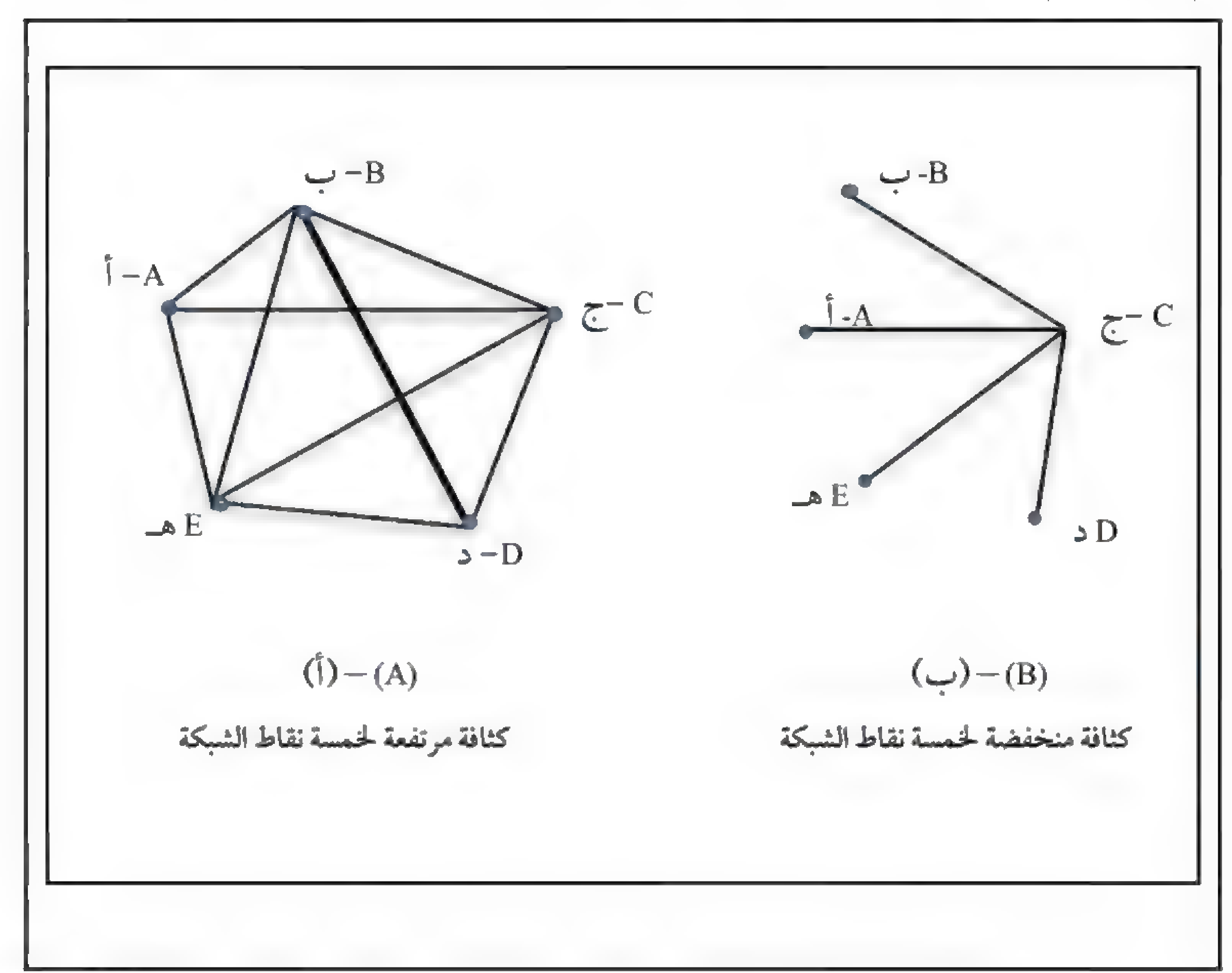
وميزة أخرى للشبكات هي تبادلية الروابط بين المواقع، وهذا يساعد على تدفق الموارد في اتجاه واحد، هل هي تقابل للموقفين؟ فإذا تم بالمثل تتدفق الموارد، فمن التقليدي أن تكون لدينا خطوط مزدوجة مع أسهم تشير إلى اتجاه تدفق الموارد. وإضافة إلى ذلك، إذا تدفقت الموارد ذهابًا وإيابًا يمكن تمثيل ذلك أيضًا. والمثير للدهشة أنه لم يتم تطوير عادات كيفية تمثيل التعددية لتدفق الموارد بشكل كامل. ولعل استخدام مسارات متنوعة ملونة أو خطوط مرقومة هو إحدى طرق الدلالة على تدفق الموارد المختلفة: وهناك طريقة أخرى هي تصنيف النقاط بنفس الحروف المكتوبة، وهي (A1،A2،A3) وما إلى ذلك عندما تكون الموارد متشابهة. وإذا تدفقت الموارد بأحرف متنوعة (A,B,C,D) كانت هناك موارد التي تربط بين الجهات الفاعلة مختلفة، ولكن مهما كان تدوين ومدى طبيعة المعاملة بالمثل في العلاقات، فإنها تصبح خاصية من شبكة اجتماعية.

تحول الروابط Transitivity of Ties

أحد الأبعاد الخطيرة للشبكة هو مستوى تحول الروابط بين مجموعة المراكز، ويشير هذا التحول إلى الدرجة التي يوجد بها تحول لعلاقة بين مجموعات فرعية في المواقع. وعلى سبيل المثال: إذا ارتبطت العقد (A1,A2) بأثر إيجابي، وارتبطت المراكز (A2,A3) بشكل متشابك، يمكننا أن نتساءل: هل المراكز (A1,A3) سترتبط معًا بأثر إيجابي؟ فإذا كانت الإجابة على هذا السؤال بـ (نعم) ستكون العلاقات بين (A1,A2.A3) ترابطية. ويعدُّ اكتشاف أنماط تحول الروابط في الشبكة أمرًا مهمًّا؛ لأنه يساعد على تفسير العلاقات الحيوية الأخرى المناسبة للشبكة مثل الثقافة وتشكيل الرموز.

كثافة الروابط Density of Ties

تُعدُّ درجة الترابط خاصية مهمة في الشبكة، أو إلى أي مدى تكشف العقد عن أكبر عدد ممكن من العلاقات. وكلما زاد العدد الفعلي للعلاقات بين العقد، زادت الكثافة الإجمالية للشبكة. [٢٨] كما هو موضح في (الشكل٦, ٨)، ويقارن بنفس الشبكة ذات الخمس عقد تحت ظروف الكثافة العالية والمنخفضة من الروابط. وهناك طرق أخرى لقياس الكثافة، ويقصد بهذا التعريف أن يكون موضحًا للفكرة العامة.

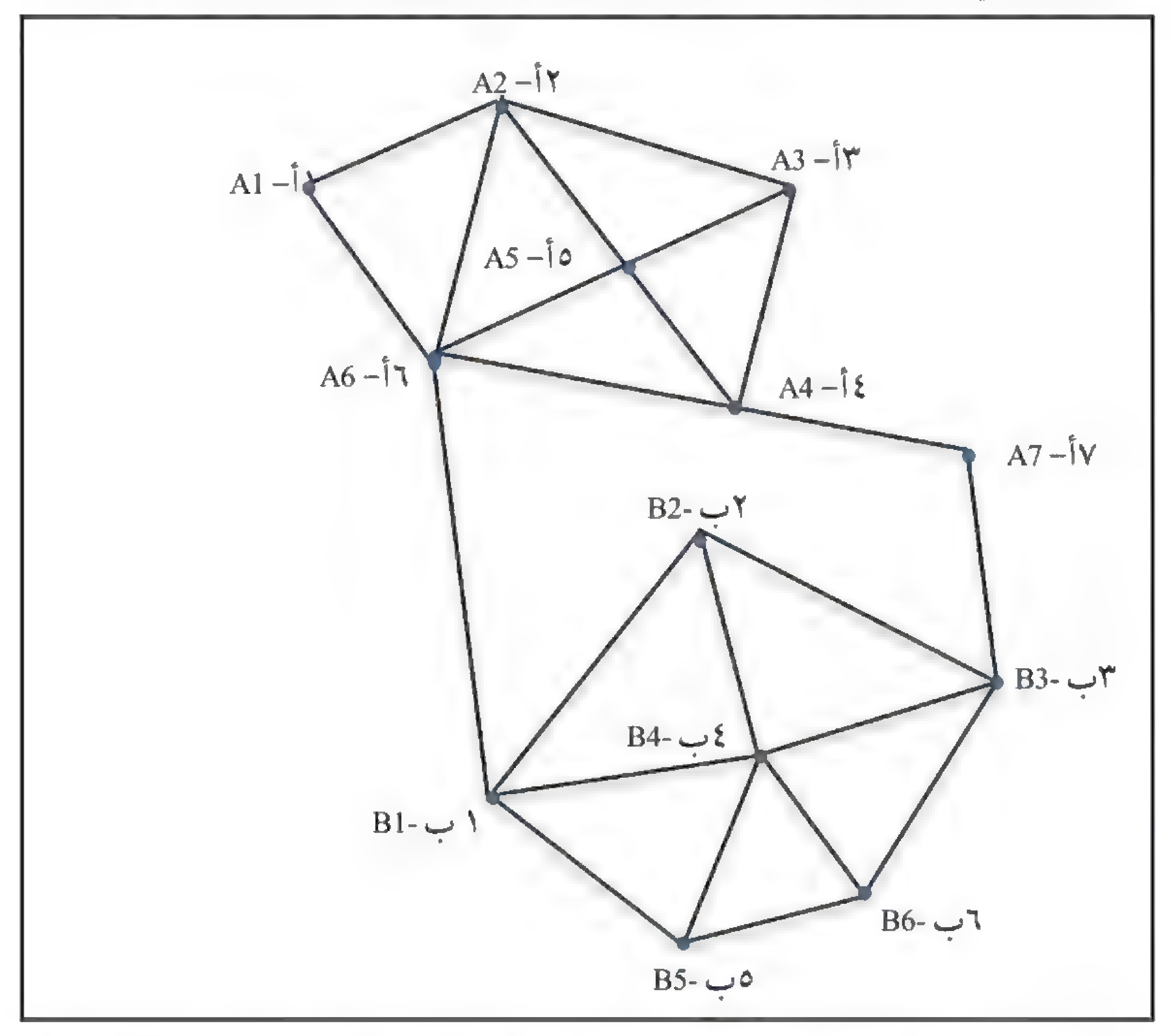


Source figure29.3 on p632. turner ,contemporary sociology theory @sage publications inc.2013

الشكل (٦, ٨). الشبكة العالية والمنخفضة الكثافة.

(٢٨) هناك طرق أخرى لقياس الكثافة: الغرض من هذا التعريف هو توضيح الفكرة العامة.

ومن الفائدة الكبرى الشبكات الفرعية للروابط داخل بناء الشبكة الكبرى، مثل تلك الشبكات الفرعية التي يشار إليها أحيانًا بالزمرة التي تظهر علاقات قوية ومتعددة بين مجموعة فرعية معينة في المناصب داخل الشبكة العامة.(٢٩) وعلى سبيل المثال في (الشكل ٨,٧) هناك مجموعتان من العلاقات الكشفية نسبيًا في الشبكة، وبذلك تكشف عن اثنين من الرموز الفرعية المتميزة ضمن شبكة أكبر.



Source figure29.3 on p632. turner ,contemporary sociology theory @ sage publications inc.2013

الشكل رقم (٨,٧). شبكة ذات إمكانيات للوساطة.

(٢٩) تختلف المصطلحات على الفروع. ما زال مصطلح "عصبة- اتحاد" هو المصطلح الأبرز، لكن "التحالفات" عرضت كبديل. زيادة على ذلك ، يبدو أن "الجماعة" و "الجماعة الفرعية" الاجتماعية القديمة قد حققت عودة في تحليل الشبكة.

قوة الروابط Strength of Ties

يعدُّ حجم ومستوى الموارد التي تتدفق بين المراكز جانبًا آخر بالغ الأهمية، والرابط الضعيف هو عندما تتدفق كميات قليلة أو متقطعة للموارد بين المراكز، ويشهد البناء العام لأي شبكة ذات رابط قوي بمستوًى عالٍ من تدفق الموارد، ويتأثر البناء العام للشبكة بشكل كبير بالتجمعات والترتيبات والروابط القوية والضعيفة. وعلى سبيل المثال إذا كانت العلاقات بين الجماعات كما في (الشكل ٨.٧) كلها قوية وتتكون الشبكة من شبكة الجماعات الفرعية المتماسكة، ولها علاقات قليلة نسبيًّا بعضها من بعض، وكذلك إذا كانت العلاقات في الكثافات الفرعية. كما أن المصطلحات تتنوع بوصفها بديلًا. وعلاوة على تلك البدائل الاجتماعية القديمة من المجموعة الفرعية تبدو أنها عادت لتحليل الشبكة. وعندما تكون الشبكة ضعيفة فإن الجماعات الفرعية سوف تتضمن روابط أقل كثافة[٣٠] ، وبالتالي فإن بناء الشبكة الكلية سوف يكون مختلفًا جدًّا عندما يكون في حالة ما إذا كانت هذه الروابط قوية.

الجسور Bridges

عندما تكشف الشبكات الكثافات الفرعية تكون دائمًا مهتمة لمعرفة أي الأشكال تتصل بالكثافات الأقل أو الجماعات مع الأخرى، فعلى سبيل المثال في (الشكل ٨,٧) نجد أن (B1،A6) تكون متصلة بشكل مباشر، وهكذا فإنها تكوِّن جسرًا بين الكثافات الفرعية في الشبكة الكلية، فإن مثل هذا الترابط يربط الكثافات الفرعية المتصلة التي تكون حاسمة في المحافظة على الترابط الكلي للشبكة، فإذا ما أزال شخص واحدةً من هذه الأوضاع أو خدم الرابط سيكون بناء الشبكة مختلفًا جدًّا، وسوف يتحول إلى ثلاث شبكات منفصلة. فيما عدا (A7) تكون روابط الجسور هذه ضعيفة

---

(٣٠) في وقت من الأوقات ، يبدو أن "الكثافة" قد استُخدمت في تفضيل "القوة". انظر: ميتشل ، "مفهوم الشبكات الاجتماعية واستخدامها، يبدو أن المادة "الكلاسيكية" قد غيّرت الاستخدام لصالح "القوة "و "الضعف". . انظر: الملاحظة رقم ٣١.

بشكل نموذجي؛[٣١] لأن كل وضع في الجسر سوف يكون متضمنًا أكثر في تيار الموارد ، وفي كثافة فرعية محددة أو مجموعة. ولكن غالبًا ما تكون مثل هذه الروابط حاسمة في المحافظة على البناء الاجتماعي الأكبر، وليس من المدهش أن عدد وطبيعة الجسور داخل بناء الشبكة يتم تسليط الضوء عليها في تحليل الشبكة.

الوساطة Brokerage

في بعض الأحيان يكون موقع معين خارج مجموعات فرعية ، ويكون خارجًا عن الأوضاع، ولكنه مهم للغاية للموارد من وإلى هذه الفروع. وهذا الوضع غالبًا ما يكون في وضع الوسيط؛ لأن أنشطته تحدد طبيعة ومستوى الموارد التي تتدفق مِن الفروع الخاصة وإليها[٣٢] بالأوضاع ، وفي (الشكل ٨.٧) يكون الوضع في (A7) هو على الأرجح الوسيط لتيار الموارد من الفروع التي تتكون من الأوضاع من (A1,A2.A3,A4,A5) إلى (B2،B3،B4،B5،B6و B1). والوضع (A7) يمكن أن يصبح الوسيط إذا: أن الموارد المميزة -التي تمر مِن هذين الفرعين وإليهما- تكون مطلوبة أو ذات قيمة بواسطة واحد أو اثنين على الأقل من هذه الفروع(٢) الروابط المباشرة، أو الجسور بين فرعين اللذين لا يوجدان. وفعلًا فإن الشخص العامل في وضع الوسيط غالبًا ما يسعى إلى منع التطور للجسور، مثل ذلك بين (A6) و (B1) ويوقف تيار الموارد ، ولو تيار واحد على الأقل موجود في الأماكن، فإن الفروع لا تكون مستقلة بشكل كبير على أنشطتها.

---

(٣١) انظر لكتب مارك جوفرنيريت: "قوة العلاقات الضعيفة" مجلة علم الاجتماع الامريكية ٧٨ (١٩٧٣م): صفحة ١٣٦٠-١٣٨٠؛ و "قوة العلاقات الضعيفة: نظرية العلاقات الثابتة" نظرية اجتماعية (١٩٨٣م): صفحة ٢٠١-٢٣٣. "العلاقات الأساسية .. قانون" من دراسة جرانوفكتر الأساسية يمكن أن يتم التعبير عنه بـــــــ: درجة تداخل العلاقات عالية هي وظيفة إيجابية من اتساع الجسور، التي تنطوي على روابط ضعيفة.

(٣٢) ربما قام رونالد س. بيرت بأكثر الأعمال إثارة هنا . انظر -على سبيل المثال له-: نحو "نظرية العمل البنائية" (نيويورك أكاديميك ، ١٩٨٢م)، و "النظرية البنائية للمؤسسات المتداخلة للشركات ،" الشبكات الاجتماعية ١ (١٩٧٨-١٩٧٩م): الصفحات ٤١٥-٤٣٥.

المركزية Centrality

هناك خاصية مهمة للغاية للشبكة هي المركزية، ويوجد هناك العديد من الطرق لحساب المركزية، ومنها: [٣٣](١) عدد الأوضاع الأخرى التي يكون لها خلاله وضع خاص كمتصل .(٢) عدد النقاط التي تقع بين الموقعين. (٣) وقرب من موقع الآخرين في الشبكة. فعلى الرغم من أن هذه القياسات الثلاثة يمكنها أن تدل على نقاط مختلفة إلى حد ما بصفتها مركزية في الشبكة إلا أن الفكرة النظرية واضحة إلى حد ما؛ فبعض الأوضاع في الشبكة تتوسط تيار الموارد عن طريق أفضلية أنماطهم للروابط عن الأنماط الأخرى. فعلى سبيل المثال، في (الشكل ٨.٧) (B) تُعدُّ النقاط (B4 ، A5) أكثر مركزية من الأوضاع الأخرى؛ لأنها تتصل -بشكل مباشر بالعوامل- الأكثر في المجموعتين، وبالتالي فإن نسبة أعلى للمصادر سوف تقوم بالمرور من خلال هذين الوضعين في المجموعتين كما هو مشار إليه في (الشكل ٨,٧)، ويمكن للشبكة أيضًا أن تكشف العديد من الملاحظات المركزية كما هو واضح في (الشكل ٨,٧) وبالإضافة إلى ذلك قد تتغير أنماط المركزية عبر الوقت، وهكذا فإن العديد من ديناميات بناء الشبكة يدور حول طبيعة ونمط المركزية.

التكافؤ Equivalence

التكافؤ عندما تقف الأوضاع في نفس العلاقة بوضع آخر فإنها تُعدُّمتكافئة، فعندما تم عرض هذه الفكرة أولًا في تحليل الشبكة تم تسميتها المطابقة البنائية ، وتقتصر على المواقف التي تتصل فيها مجموعة من الأوضاع بوضع آخر أو مجموعة أوضاع بالتحديد في نفس الطريقة[٣٤]، فعلى

---

(٣٣) الأعمال النهائية من لينتون. فريمان، "المركزية في الشبكات الاجتماعية: المفهوم التوضيحي" العلاقات الاجتماعية ١ (١٩٧٩م): صفحة ٢١٥-٢٣٩؛ و لينتون. فريمان، دوجلاس بويدر وروبرت ماهولاند، "المركزية في العلاقات الاجتماعية: نتائج تجريبية؛ علاقات اجتماعية ٢ (١٩٧٩م) صفحة ١١٩-١٤١. انظر أيضًا: لينتون. فريمان، "الرسم البياني المركزي وبنية تواصل الأنا، علم الاجتماع الرياضي ٣ (١٩٨٢م) صفحة ٢٩١-٣٠٤، وفيليب بونسيتش، "القوة والمركزية: عائلة القياس " مجلة علم الاجتماع الأمريكية ٩٢ (١٩٨٧م): صفحة ١١٧٠-١١٨٢.

(٣٤) فرانسيس لوريان و هاريسون وايت،" "التكافؤ البنائي للأفراد في الشبكات الاجتماعية: مجلة علم الاجتماع الرياضي ١ (١٩٧١م): ص. ٤٩-٨٠؛) فرانسيس لوريان و هاريسون وايت، سكوت بروومان وورونالد بيجر، "البنية الاجتماعية من شبكات متعددة: ١. نماذج كتلة الأدوار والمواقع" ، المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٨ (١٩٧٦م): صفحة ٧٣٠-٧٨٠.

سبيل المثال إن الأوضاع (A2،A3،A4،A6) في (الشكل ٨,٧) متطابقة بشكل بنائي؛ لأنها تكشف نفس العلاقة مع الوضع (A5)، وإن (الشكل ٨,٨) يزودنا بتوضيح آخر للمطابقة البنائية تمامًا بالمثل (A2،A3،A4)، وهي متطابقة بشكل بنائي إلى (A1)، وبالتشابه (D2،D3،D4) متطابقة مع (D1) ؛ و (A1, D1, C1)، متطابقة بشكل بنائي مع (B) .

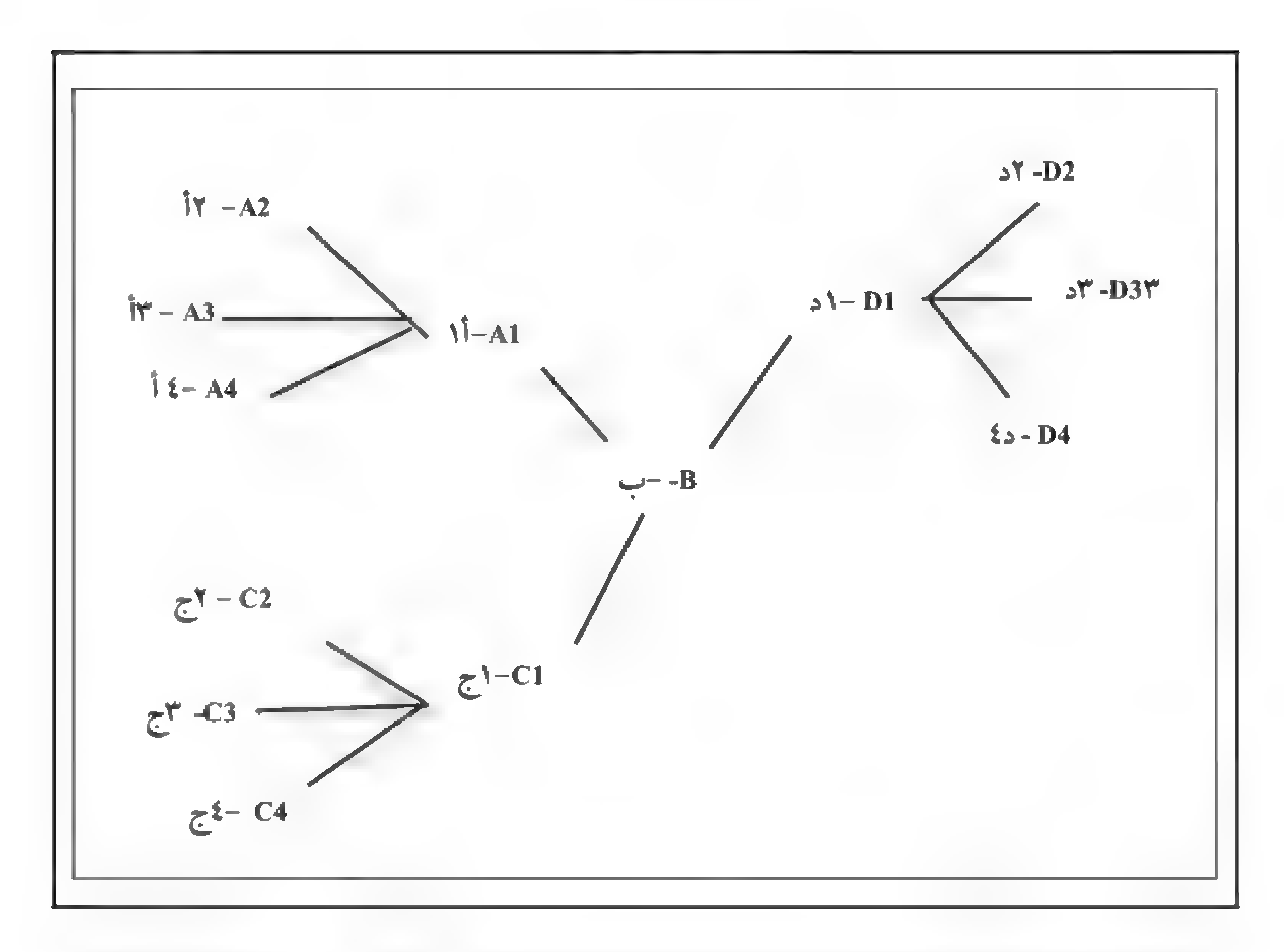
إن هذه الصيغة الأساسية للتكافؤ محدودة بطريقة ما، حيث إن الأوضاع يمكنها أن تكون متكافئة فقط عندما تكون متصلة بالفعل في نفس الوضع، ويمكننا أيضًا أن نَعُدَّ الأوضاع كلها متكافئة عندما تكون متصلة بأوضاع أخرى، ولكن بنفس الصيغة والنمط والطريقة. فعلى سبيل المثال في (الشكل ٨,٨) نجد أن (A2،A3،A4,D2,D3,D4,C2.C3,C4) يمكن النظر إليهم بوصفهم متكافئين؛ لأنهم يحملون نفس النوع من العلاقة للوضع الآخر لـ (A1،D1،C1) على وجه الخصوص. إن التصور المفاهيمي لهذا التكافؤ يسمى بالتكافؤ المنتظم [٣٥]؛ بمعنى أنه يستوعب الفكرة الأصلية للتكافؤ البنائي الذي يوجب أن تكون الأوضاع به متصلة فعليًا، وبنفس الطريقة تكون نوعًا محددًا ظاهرة التكافؤ بنحو أكثر عمومية، وهذه المصطلحات "بنائي ومنتظم" تكون غير ملائمة، ولكنها أصبحت اصطلاحية في تحليل الشبكة؛ لذلك فنحن نتشبث بها. إن الفكرة النقدية هي أن عدد الأوضاع المتكافئة في الشبكة وطبيعتها يعتبران ذات تأثيرات مهمة على ديناميات الشبكة.[٣٦] إن الفرضية العامة هي أن الممثلين الفاعلين في أوضاع متكافئة بنيويًا بانتظام سيتصرفون أو يعملون بطرق متشابهة.[٣٧]

---

(٣٥) لي دوجلاس، " التكافؤ البنائي" ، العلاقات الاجتماعية ٢٤ (٢٠٠٢م): صفحة ٣١٥ -٣٣١، جون بول و كاي جونس، "هل التكافؤ الاجتماعي منتظم؟ التقليب والاختبارات الدقيقة" العلاقات الاجتماعية ٣٢ (٢٠٠١م)؛ صفحة ٨٧-١٢٣؛ كاثرين فوست، "مقارنة طرق التحليل الموضعي: المعادلة البنائية والمعادلة العامة" العلاقات الاجتماعية ١٠ (١٩٨٨م): صفحة ٣١٣-٣٤١.

(٣٦) وبطرق متعددة، على سبيل المثال فكرة كارل ماركس بأن أولئك الذين يقفون في علاقة مشتركة مع وسائل الإنتاج لديهم مصالح مشتركة هو اتفاق تكافؤ. وبالتالي ، فإن فكرة التكافؤ ليست جديدة على علم الاجتماع ، فقط الشكليات المستخدمة للتعبير عن ذلك جديدة.

(٣٧) هناك -بالطبع- بعض الاستثناءات البارزة لهذا البيان . على سبيل المثال: جون ليفي مارتن، النية المجتمعية (برنسيتون، المركز الإعلامي بجامعة برينسيتون ٢٠٠٩م): صفحة ١٩٧-٢٢٥، و " تشكيل واستقرار التسلسل الهرمي الرأسي بين المراهقين، "علم النفس الاجتماعي (٢٠١٠م)؛ رونالد برت، مقدمة في النظرية البنائية (في



Source figure29.6 on p. turner ,contemporary sociology theory @sage publications inc.2013

الشكل (٨،٨). التكافؤ في الشبكات الاجتماعية.

هل يستطيع تحليل الشبكة أن يجعل مفاهيم البناء أكثر دقة ؟

Can Network Analysis Make Conceptions of Structure MorePrecise?

يمكن أن يصبح علم رياضيات تحليل الشبكة معقدًا إلى حد ما، كما يمكن للحاسب الآلي أن يستخدم الخوارزميات في تحليل مجموعات البيانات للعمليات المشار إليها بالأعلى. فإن هذه القائمة من المفاهيم هي مجازية إلى حد ما؛ لأنها تزيل السمة على الكمية والشكلية لتحليل الشبكة. وبالفعل فإن الكثير من تحليل الشبكة يتجاوز تحويل المصفوفات إلى أشكال مثل هذه الأشكال المتعددة

الملحوظة رقم ٢٧)، الفجوة البنائية: البناء الاجتماعي للمنافسة (كامبريدج، المركز الإعلامي لجامعة هارفرد، ١٩٩٢م) نوح فريدكن، نظرية بنائية للتأثير الاجتماعي (جامعة كامبريدج، المملكة المتحدة: مركز جامعة كامبريدج الإعلامي، ١٩٩٨م).

المعروضة. وبدلًا من ذلك يقوم بعمل عمليات رياضية وإحصائية فقط على المصفوفات نفسها. وإذا كان تحليل الشبكة هو أن يتم التعرف على النظرية والاحتمالية، فإنه من الحكمة أن يتم استخدام تصورات على الأقل مبدئيا من خلال إطار لفظي؛ بمعنًى أكثر لفظية وبديهية.

وقد يختلف عدد قليل مع فكرة أن البنية الاجتماعية تتكون من العلاقات بين الأوضاع ، ولكن هل هذا هو كل البناء الاجتماعي؟ هل تستطيع المفاهيم التي تدل على العقد أو الروابط وأنماط الروابط مثل: العدد، القوة التبادل، الانتقالية، الجسور، شركات الوساطة، المركزية والتكافؤ بأن تلتقط كل الخصائص النقدية للبناء الاجتماعي؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة ربما تكون محتملة؛ لأن البناء الاجتماعي قد يتضمن عمليات حاسمة أخرى لم يتم التقاطها من خلال هذه المفاهيـــم، وأن الخاصية الأساسية للبناء الاجتماعي هي صفات الشبكة كما كان جورج سيمل هو أول من قام بتقدير هذا الموضوع بشكل واقعى لكشف أبعاد البناء الاجتماعي، الثقافي، السلوكي، البيئي، الوضع النفسي، وإلى المزيد من ذلك، فإن عموده الفقري هو نظام من الترابطات بين العوامل التي لها صلة بعضها ببعض، وتقوم بعملية استبدال الموارد. ولذلك فإن لدى تحليل الشبكة احتمالات عظيمة للنظريات الخاصة بالبناء الاجتماعي. فهل من الممكن إدراك هذه الاحتمالات؟ لا يمكن ذلك للأسباب الآتية:

أولًا: كما هو جدير بالذكر يكون تحليل الشبكة بطريقة علمية مهتما بالتقنيات الكمية المكونة لتنظيم المعلومات داخل المصفوفات، ومن ثم تحويل هذه المصفوفات إلى عمليات وصفية لشبكات محددة كأشكال أو معادلات. وفي هذه الحالة، يظل علم اجتماع الشبكة بشكل مبدئي أداة للوصف التجريبي.

ثانيًا: يوجد القليل من المجهود لتطوير المبادئ لديناميات الشبكة، والقليل منهم بدأ يسأل أسئلة نظرية في تقاليد الشبكة نفسها. [٣٨]فعلى سبيل المثال: كيف تكون درجة الكثافة المركزية والتكافؤ وإقامة الجسور والوساطة؟

(٣٨) مارك جوفنتر، نظرية- الفجوة في تحليل العلاقات الاجتماعية " في وجهات نظر على شبكة البحوث الاجتماعية: ب.هولاند و س.لينهارتن (نيويورك: أكديمي، ١٩٧٩م).

وكيف تؤثر على طبيعة الشبكة وتيار العلاقات بين الأوضاع داخل الشبكة؟ وتوجد هناك عمليات وصف تجريبية للأحداث التي تهتم بهذا السؤال، ولكن لا يوجد منها إلا القليل من القوانين النظرية الفعلية أو المبادئ حولها.[٣٩]

ثالثًا: قد فسر علم اجتماع الشبكة الاهتمامات النظرية التقليدية، والمفاهيم داخل مصطلحات الشبكة بطريقة تسليط الضوء على التوافق أو على الأقل بقاء استخدام التكوينات النظرية للشبكة لأجل نظرية التيار في علم الاجتماع. فعلى سبيل المثال أن القوة، والتسلسل الهرمي، والتباين، والتكامل، والمطابقة، والصراع، والعديد من الاهتمامات الأخرى للنظرية الاجتماعية لم يتم تصورها بشكل كاف في مصطلحات الشبكة، وبالتالي فإنها ليست مثل النظرية الاجتماعية التي سوف تتبنى أو تجسد منهج الشبكة إلى أن يحدث تفسير الأسئلة التقليدية.

تحتاج كل هذه النقاط إلى تأهيلها؛ لأن علماء الاجتماع قد سعوا بالفعل إلى تطوير القوانين لعمليات الشبكة، ووضع عناوين لاهتمامات نظرية تقليدية. وعلى الرغم من المجهودات التي قدمتها مفاهيم الشبكة التي هي أبعد من تكوين نظرية متناسقة لديناميات الشبكة، إلا أنها توضح الخدمات المحتملة لعلم اجتماع الشبكة. كما رأينا على سبيل المثال في الفصل الخامس.

نحو تصور أكثر سهولةً للبناء الاجتماعي

Toward a More Simplified Conception of Social Structure

منذ السنوات العديدة حتى الآن، فإنني أدافع عن اتجاه ميسَّر حول البناء الاجتماعي، ومن وجهة نظر الآخرين قد أوجدوا أنواعًا قليلة من الأبنية الاجتماعية عند ثلاثة مستويات أساسية للواقع الاجتماعي هي: مستوى الوحدات الكبرى، ومستوى الوحدات الصغرى ومستوى الوحدات المتوسطة، ولكي نكون متأكدين أن الوضوح بين الكبرى والصغرى والمتوسط تم تلخيصه في (الجدول ٨,٢)، وهي توضيحات تحليلية، ولكنها أيضًا تدل على الطريقة الفعلية التي انطوى عليها الواقع الاجتماعي في أثناء النمو والتعقيد المتزايد بين المجتمعات (انظر: الفصل ١١ في نماذج مرحلة التطور)، ففي كل هذه

---

(٣٩) على سبيل المثال، انظر للإصدارات الثلاثة الخاصة بي: المبادئ النظرية لعلم الاجتماع ، المجلدات ١ و ٢ و ٣ (نيويورك: سبرينر، ٢٠١١-٢٠١٢م). يتناول المجلد الأول الديناميكيات الديناميكية ، والحجم الصغير ٢ الديناميكي والحجم الحراري.

المستويات الثلاثة تم ذكر أنواعها الأساسية القليلة في البناء الاجتماعي على مستوى الوحدات الصغرى للتنظيم الاجتماعي؛ حيث يتم تنفيذ السلوكيات الشخصية، فيوجد فقط القارئ الذي هو موجود في (الجدول ٢ ,٨) الذي يؤكد على نوعين منهما: يسلط عليهم، المقابلات والغير مركز عليها هي المقابلات التي تكون عبارة عن أبنية عابرة يتجمع فيها ويتفكك فيها الناس على الرغم أنه يمكن أن يكونوا سلسلة معًا عبر الوقت كتجمع ناجح في مقابلات ما. ولكن لكي يحدث هذا تحتاج المقابلات إلى أن تكون متضمنة أبنية المستوى المتوسط التي تمد تضامنًا محددًا، واستمرارية للمقابلات. فمن حيث المقابلات تكون بمثابة لبنات لأبنية المستوى المتوسط. ومن ناحية أخرى، فإن أبنية المستوى المتوسط تزود الحد الذي يتحكم في هذه المقابلات معًا، ويعطيهم الاستمرارية عبر الوقت.

الجدول (٢ ,٨) البناء الاجتماعي العالمي.

بناءات مستوى الوحدات الكبرى
المجالات المؤسسية: الأبنية الاجتماعية الواسعة تبنى من المجتمعات التي تزداد في الاستجابة للمشكلات المتكيفة المواجهة للسكان على سبيل المثال: الاقتصاد، الأدب، القرابة، الدين، القانون، التعليم ... إلخ..   **الأنظمة الطبقية**: الأبنية الاجتماعية العريضة تزداد في التوزيع غير العادل للموارد في الشركات التي تخلق أنواعًا من الأفراد المعروفة التي يتم تقييمها من خلال مشاركتهم بالموارد القيمة، على سبيل المثال: الطبقات الاجتماعية، والسكان، لتجمعات العرقية، والنوع ... إلخ).   **الأنظمة الاجتماعية الداخلية**: وهى البنائية التي تنشأ من خلال العلاقات المتداخلة بين المجتمعات والمجالات المؤسسية الرئيسة في المجتمعات التي تبني أنماطا من العلاقات طويلة المدى بين المجتمعات.
بناءات مستوى الوحدات المتوسطة
وحدات الشركات: هي الأبنية التي تنظم الأفراد في تقسيمات العمال لمجموعة من الأهداف، مع احتمالية غموض تعريف هذه الأهداف. وتوجد هناك ثلاثة أنواع أساسية من المجتمعات التنشئة عن طريق البشر: مجموعات التفاعل وجهًا لوجه التي توجد عبر الزمن، وهى غالبًا متضامنة مع المنظمات التي ترتبط فيها الجماعات معها في حزمة الأهداف والمجتمعات التي تقدم المنظمة الجغرافية السياسية لمنطقة ما حيث تسكن فيها المنظمات.   **الوحدات التصنيفية**: هي الأبنية التي يتم إنشاؤها من خلال التباينات التي يلاحظها الأفراد في المجتمع، ويقومون بتقييمها عندما يوضع الأفراد في تصنيف اجتماعي، فانهم يصبحون أعضاء لوحدة تصنيفية تتضمن توقعات وتقييمات للأفراد في هذه الوحدة النوعية.
بناءات مستوى الوحدات الصغرى
المقابلات المركزة هي عبارة عن حلقات التفاعل وجهًا لوجه، والتي تولد تضامنًا لحظيًا أو تكافلًا لحظيًا مؤقتًا، ويمكن أن تزداد عبر الوقت.   **مقابلات غير مركزة** عبارة عن حلقات من الملاحظة المتبادلة للآخرين كأفراد يتحركون ويشغلون الأماكن العامة، ولكن في نفس الوقت يسعون إلى تجنب التورط المباشر الذي سوف يجبر المقابلات كي تصبح أكثر تركيزًا.

وتوجد على المستوى المتوسط وحدات شراكة تكشف جماعات العمال. وفي تاريخ المجتمعات البشرية يوجد فقط ثلاثة أنواع مختلفة من وحدات الشراكة، وهي: جماعات منظمة، ومجتمعات، وما يعطي أبنية وحدات الشراكة تضامنًا هو أنها متضامنة في كليهما مع الآخر من حيث: أولًا: أن تكون المقابلات دائمًا متضامنة في جماعات دائمة في المجتمع، فعلى سبيل المثال، كمقابلة لطبقة أو أي تلبية لفئة، ولكن هذه الفئة متضامنة في منظمة الجامعة، والكلية مثل التي تقع في مجتمع. فإن المنظمة تمد الثقافة والموارد المادية لمجموعات المنظمة الأقسام، الفئات، إلخ بينما تزود الجماعات العوامل المتغيرة للسلاسل المنظمة من المقابلات وجهًا لوجه. ويمد المجتمع الموقع في الحيز الجغرافي، والمصدر الرئيس للمنظمة، مثل الطرق من وإلى الكلية، الكهرباء، إدارة المجتمع، والموارد البيئية المهمة لأي منظمة من أجل أن تعمل.

والنوع الآخر من البنائي على المستوى المتوسط من الصعب ملاحظته كبناء؛ وهو أنماط اجتماعية يتم تصنيف الناس بناءً على أساسيات من الملاحظات المتنوعة المختلفة مثل السن، والجنس، والعرق، ووضع الفئة الاجتماعي، والانتماء الديني وأي شيء يجعل الجماعات واضحة ومختلفة عن الأخرى. لقد توصلت إلى تسمية هذه المفاهيم النوعية بوحدات؛ لأنها مرتبطة بالعضوية في وحدات تصنيفية، وهي تكون توقعات ثقافية، وتقييمات للأعضاء لها تأثيرات كبيرة جدًّا بما يحدث في المقابلات، حيث إن بناء الشراكة أو الجماعات يُعدُّ كنظام السلطة الذي يكون في تقسيم عماله، فيحدد لهم المسؤوليات على مستوى الوحدات الصغرى للمنظمة الاجتماعية في المقابلات، ولذلك تؤثر المعتقدات على خصائص الأعضاء في الوحدات التصنيفية، كما تؤثر على كيفية سلوك الأفراد داخل المنظمة. فعلى سبيل المثال، أن المقابلات المكونة من كل الذكور سوف تكون مختلفة عن التي سوف تكون كلها من الإناث، أو من المقابلات التي يكون فيها اختلاط ما بين الجنسين. إن المقابلات ما بين الكبار والصغار سوف تكون مختلفة تمامًا عن المقابلات بين الأشخاص الصغار فقط، وإلى المدى الذي تقوى فيه سلوكيات الناس للتوقعات لوحدة التصنيف للأعضاء، فإنهم يعيدون إنتاج وحدات تصنيفية أكثر مما يعيدون إنتاج نظام السلطة في تقسيمة العمال لوحدة الشركة عندما يتصرف الأفراد بشكل مناسب.

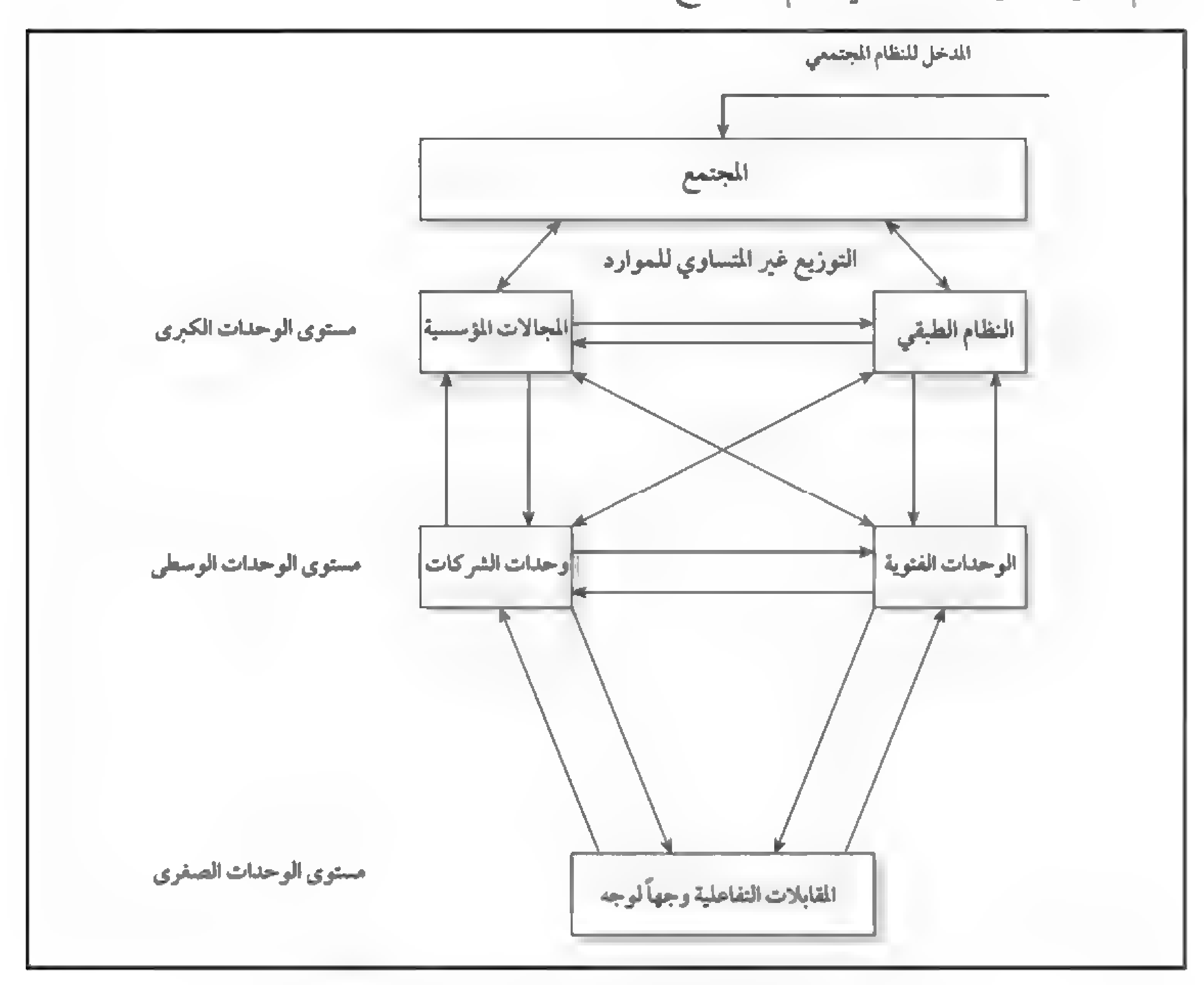
أبنية الوحدات الكبرى في المستوى المجتمعي والمجالات المؤسسية، والأنظمة الطبقية التي تبنى من الشركات والوحدات التصنيفية، وعندما يتم بناؤها فإن هذه البنى الكلية تحدد ما يقيِّد في بناء المستوى المتوسط، وفي مستوى الوحدات الصغرى، وتتكون المجالات المؤسسية من وحدات الشركة المتضامنة التي يتم إنشاؤها للتعامل مع المجتمع العريض ومع مشكلات المجتمع الكبيرة، حيث إنها تطور ثقافة واضحة ومعايير وأيديولوجيات لتقيِّد الثقافة ووحدات الشراكة في مجال، وكل المقابلات بكل وحدات الشراكة للمجال المؤسسي.

إن الأنظمة الطبقية التي تتكون من الوحدات التصنيفية، حيث الإسهام للمصادر القيّمة، تكون مع الوحدات التصنيفية أو بعضويات الوحدات التصنيفية. فعلى سبيل المثال، أن الفئة الاجتماعية هي وحدة نوعية يتم تصنيفها من خلال مستوًى خاص بالدخل والثروة، ووحدات نوعية أخرى يتم تصنيفها من خلال الموارد التي تستطيع تأمينها في النظام الطبقي. وعلى سبيل المثال لو أن الذكور قاموا بتكوين أموال أكثر من الإناث فسوف يكون هناك بُعد نوعي في النظام الطبقي. ولو أن الأعضاء في المجتمعات العرقية على سبيل المثال يكسبون أقل، ثم إن هناك بُعدًا أخلاقيًّا للنظام الطبقي للأيديولوجيات التي تُبنى في المجالات المؤسسية غالبًا ما يتم تجميعها من أجل إنشاء الأيديولوجية التي تضفي الشرعية على نسبة غير متكافئة للمصادر، وبهذا تعطي النظام بعضًا من الصلابة، حتى لو أنه يولد توترات بشأن عدم التكافؤ، وعلى سبيل المثال: فإن أيديولوجيات الاقتصاد هي العمل الجاد، والتعليم، واكتساب مهارات ومعرفة عن طريق العمل الجاد داخل المدارس، ويتم تجميعها لكي تصبح جزءًا أساسيًّا من الأيديولوجيات التي تسوِّغ وتضفي الشرعية غير المتكافئة. إن هؤلاء الذين يعملون بجد ويحصلون على أوراق اعتماد تعليمية يجب أن يكسبوا الكثير من المال من هؤلاء الذين ليس لديهم أوراق، أو بهذه الطريقة ينظر إليهم الأمريكيون بمنتهى السهولة بعدم التكافؤ.

غالبًا ما ترتبط المجتمعات بشكل نموذجي من خلال المجالات المؤسسية المتعددة، مثل: الاقتصاد أو نظام الحكومة بمجتمعات أخرى، وبالتالي فإنها تشكل نظامًا مجتمعيًّا داخليًّا يُعدُّ بمنزلة البناء الاجتماعي الأكبر الذي ينشأ هكذا عن طريق البشرية. وفعلًا فإن نمو النظام العالمي من خلال

علاقات السوق قد تزايد بشكل كبير عبر الخمسين عامًا الأخيرة، الأمر الذي يؤكد على النمو المتزايد أو ربما يتخلل النسق الانهيار.

وفي (الشكل ٨.٢) وضحت هذا النوع من البناء الاجتماعي كما هو مكون في التكوينات البنائية، وفي ثقافاتهم عند المستويات الثلاثة للتنظيم الاجتماعي والخطوط التي تربط البناء الاجتماعي، ومن المرجح أن تكون متصلة إحداهما بالأخرى والعديد من الديناميات.[٤٠] ولكن هنا نقطة مهمة تتمثل في كيفية توضيح التضاريس العامة للمنهج البنائي، إلا أنه في النهاية سيتقدم إلى الأمام أكثر مما هو عليه الآن في علم الاجتماع.



(شكل ٩ ,٨). مخطط تصوري يسير لتحليل البناء الاجتماعي.

(٤٠) جوناثان ترنر، الأساسيات النظرية لعلم الاجتماع، ٣ مجلدات (نيويورك: سبرينر، ٢٠١٠م).

الخاتمة

Conclusion

إن التنظير حول البناء الاجتماعي متباين بشكل كبير، وربما ليس من المدهش أنه لم يعطِ تفسيرًا واضحًا لأي تصورات للبناء المشار إليه، حيث إن النظريات المعروضة توضح أن البعد الثقافي للبناء يتكون من القواعد، والمعتقدات، والأيديولوجيات، والمقدمات المنطقية القيمة، كما يوجد هناك مجموعة من المبادئ، أو أنواع المنطق المشار إليها، والمعروفة بمثابة طرق تكون الأبنية الاجتماعية، وأن بعضًا من هذه الأبنية قد تكون ثقافية، بينما يكون الآخر منها محتملًا يعبر عن التفكير البشري. وتوجد هناك ملكية للعلاقة بين الأبنية الاجتماعية تتكون من العلاقات والملاحظات التي يتصل بعضها ببعض عن طريق حركات الموارد بين العوامل في الملحوظات والإشارات الخاصة. وما علم الاجتماع هذا إلا بمثابة الخطوط العريضة لتصور أكثر وضوحًا لملكية البناء الاجتماعي، كما أن هناك أنواعًا من الديناميات يمكن أن توجد في العديد من النظريات المشار إليها في فصول هذا الكتاب، وإن هذه الديناميات من الأنماط داخل الشبكة في مستويات من القوة بشكل غير متساوٍ، كما أن الصراع من طبيعة التفاعل والتبادل في تقييمات التمثيل المسرحي في ديناميات الأدوار، ومواقع الحدث، وفي العديد من الموضوعات الأخرى في علم الاجتماع النظري، وما تم فعله بشكل متكامل في هذه النظرية الأكثر عمومية من خصائص وديناميات الأبنية الاجتماعية.

تُعدُّ نظرية البناء لجيدنز مثالًا على مجهود لمحاولة تحقيق هذا التكامل الضروري؛ ولذا فقد كان علم الاجتماع البنائية الوظيفية واضحًا؛ حيث عرَّف الخصائص والأبعاد للبناءات الاجتماعية، وبعد ذلك استخدم النظريات الموجودة في الترابطات المتعددة من أجل تفسير الديناميات العاملة التي تنتج وتعيد إنتاج وتغيير هذه الخصائص والأبعاد البنائية الاجتماعية.

الفصل التاسع

التنظير الثقافي

CULTURAL THEORIZING

إقرار آخر مُحَيِّر

Another Embarrassing Confession

ومثل مفهوم البنية الاجتماعية، فإن وضع تصور للثقافة في علم الاجتماع يتَّسم نوعًا ما بالغموض، على الرغم من إعطاء علماء الاجتماع قدرًا كبيرًا من الاهتمام لخصائص وديناميات الثقافة. ودائمًا ما كان هناك إقرار بأن الثقافة مرتبطة بالبناءات الاجتماعية، والعكس صحيح، وكانت النتيجة هي تَحدُّث علماء الاجتماع كثيرًا بشأن التكوينات الاجتماعية الثقافية أو البناءات والنُظم الاجتماعية الثقافية. ونادرًا ما يُوَضِّح هذا الدمج بين البنية والثقافة تعريفًا دقيقًا للثقافة. وهكذا، فإن الفكرة الأساسية لعلم الاجتماع هي-الثقافة- تُشبه كثيرًا مفهوم البنية الاجتماعية. ويُعدُّ التصور المتعلق بالثقافة مجازيًا بعض الشيء، وفي أغلب الأحيان غير دقيق إلى حدٍ ما. ولا يوجد إجماع على تعريفات الثقافة تتجاوز الفكرة العامة عن خلق البشر لأنظمة رمزية، مبنية على القدرات اللغوية تُستخدم لتنظيم السلوك. وحتى هذا التعريف قد يتم الاعتراض عليه من قِبل البعض.

ومنذ الثمانينيات، ومع سرعة التغير لكل عصر، زاد حجم التنظير الثقافي بشكل كبير. ففي منتصف القرن العشرين أكدت النظرية الوظيفية على أهمية الثقافة، ولكن ليس بطريقة سياق محددة أو قوية؛ بدلًا من ذلك، نظرت الوظيفية إلى الثقافة باعتبارها الآلية التي عن طريقها يتم التحكم

بالأفعال وتنظيمها[1]، بينما قامت النهضة الحديثة للثقافة بالنظر إليها بطريقة أكثر قوة وشمولًا. وعندما ظهرت نظرية الصراع بدفع الاتجاه الوظيفي عن محور الاهتمام، فقد كانت تميل أيضًا إلى طرح وجهة نظر أكثر ماركسية للثقافة "كبنية فوقية" يُولدها الأساس الاقتصادي. وأصبحت الثقافة المصاحب للبنية الاجتماعية، والتي تشبه كثيرًا "تونتو" في فيلم "الحارس الوحيد"؛ ونتيجة لذلك، لم يتم التأكيد على حرية ذاتيتها وقوتها المستقلة عن البناءات الاجتماعية. وفي بعض الأحيان، لم يتم حتى الاعتراف بها. ومع ذلك، لم يكن هذ هو الحال دائمًا.

المفاهيم السوسيولوجية المبكرة للثقافة
Early Sociological Conceptions of Culture

كلٌّ من أوجست كونت وإميل دوركايم Auguste Comte and Emile Durkheim

دائمًا ما أكد التنظير السوسيولوجي، منذ بداياته في فرنسا، على قوة الثقافة. فمن وجهة نظر أوجست كونت[2]، وإميل دوركايم[3]- فضلًا عن فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين- يتم النظر للمجتمع على أنه متماسك عن طريق التزامات الأفراد للجوهر الثقافي المشترك. ودائمًا ما كانت

---

(١) على سبيل المثال، رأت تالكوت بارسونز أنها نظام عمل يوفر المعلومات اللازمة لتنظيم الأنظمة الاجتماعية ودورها في الوضع القائم والبناء المعياري للأنظمة الاجتماعية التي تنظم -بدورها- نظام العمل النفسي؛ حتى النظام العضوي. (انظر: الفصل ٢). أو ، في عمل نيكلاس ليمان ، يُنظَر إلى الأيديولوجيا كآليات ، وهو أمر حاسم لدمج المجالات المؤسسية ؛ انظر له: التمايز للمجتمع ، العابرة. هولمز اريد، لارمور (نيويورك: المركز الإعلامي لجامعة كولومبيا، ١٩٨٢م).

(٢)أوجست كونت ، دورة الفلسفة الإيجابية ، مترجمة ومكثفة من قِبل هارييت مارتينو كفلسفة إيجابية من أوجست كونت (لندن: بيل وأولاده ، ١٨٩٨م). انظر أيضًا: نظام الحكم السياسي الإيجابي الذي قدَّمه كونت (بيرت فرانكلين ، ١٨٧٥م، الذي نُشر في الأصل عام ١٨٥١م).

(٣)أعطى مفهوم إيميل درخام للضمير الجماعي الأولوية للثقافة كقوة تكاملية في قسم العمل (نيويورك: ماكملان ١٩٣٣م، الذي نُشر أصلاً في ١٨٩٢م) ، وفيما بعد، أعطى تركيزًا أكبر للثقافة في تحليله للطقوس كصلة بين الثقافة والتزام الفرد بالثقافة في الأشكال الأولية للحياة الدينية (نيويورك: فري برس، ١٩٤٧م، منشورة أصلاً في عام ١٩١٢م). واستمرت كونت وسبنسر فقط في التقاليد التي أرساها الفلاسفة الفرنسيون قبل قرن من الزمان ، الذين أكدوا جميعهم على أهمية الثقافة كقوة تكاملية ، فضلًا عن قوة للتغيير.

الطبيعة المحددة لهذا الجوهر غامضة في الفلسفة وفي علم الاجتماع الفرنسي، ولكن تدل في مفردات اليوم على أنظمة الرموز الثقافية التي تحمل معاني يشترك فيها أفراد من جماعة قطاع سُكَّاني، ولديها القدرة على تنظيم أفعال الأفراد والوحدات المشتركة. وتم بناء الثقافة من اللغة، وحَمَلت تاريخ الشعوب وتقاليدها وعِلمها، وقامت أيضًا بتنظيمها إلى قيم ومعتقدات وأيديولوجيات ومعايير وقوانين توجه الأفعال والتفاعلات بين الوحدات الاجتماعية. وأكد دوركايم على نحو متزايد أن المجتمعات المتباينة تتطلب جوهرًا ثقافيًّا مشتركًا، ويقوم الأفراد باستدعاء هذا الجوهر عند مشاركتهم في طقوس تستهدف الطواطم التي ترمز إلى العناصر الرئيسة لهذا الجوهر. ومن خلال الطقوس التي تثير العواطف، لم يتم التعرف على الثقافة فقط، بل تم أيضًا تفسيرها أخلاقيًّا كعواطف تم ربطها بالعناصر الرئيسة للثقافة، مُعطية الثقافة طابعًا حتميًّا وسببًا في الشعور بالذنب والخجل لجميع مَن كانوا سينتهكون هذه القوة الحتمية للقواعد الأخلاقية. وهكذا أعطت العواطف قوة للثقافة وذلك؛ لأن العواطف قد تكون سلبية، وبالتالى، تكون مؤلمة عندما يفشل الأشخاص في الالتزام بالتوجيهات الثقافية تجاه المواقف.

كارل ماركس وماكس فيبر Karl Marx and Max veber

أكد علماء الاجتماع الألمان -أيضًا مثل كارل ماركس، وماكس فيبر- على الثقافة، ولكن بطرق مختلفة إلى حد ما. فمن وجهة نظر ماركس،[٤] كما هو موضح أعلاه، تكون الثقافة جزءًا من البنية الفوقية للمجتمع. ويتم التحكم في هذه البنية الفوقية من قِبل أولئك الذين يمتلكون وسائل الإنتاج، ويتم تنظيمها في أيديولوجيات تدعمها الدولة بوصفها جزءًا آخر من البنية الفوقية الاجتماعية. وبمجرد تنظيمها، تقوم أيديولوجيات البنية الفوقية الثقافية بتشريع مصالح أصحاب رأس المال الأقوياء ووسائل الإنتاج، وبالتالي كانت الثقافة قوة مشوشة؛ لأنها أغفلت العمال والمستضعفين عن إدراك مصالحهم المُستحَقة في تغيير نظام الإنتاج والسلطة في المجتمع. إلا أن ماركس أدرك أيضًا أن أيديولوجيات المرؤوسين المضادة في النظام الذي يتسم بعدم المساواة كان حاسمًا في إثارة العواطف وتشجيع المرؤوسين على تكبد عناء الصراع مع الرؤساء. وكجزء من القوة

(٤)كارل ماركس وفريدريك إنجلز الأيديولوجية الألمانية (نيويورك: الدولية ،١٩٤٦م، نشرت أصلًا في ١٨٤٦م).

الثورية. وفي نظر ماركس تستطيع الثقافة كسب بعض الاستقلال الذاتي؛ لأنها تدفع الفاعلين إلى البحث عن أشكال بديلة للبنية الاجتماعية، وبذلك، يقوم المرؤوسون بتنظيم أيديولوجية مضادة تُعطي اتجاهًا لسعيهم إلى الصراع مع الرؤساء.

لم يذهب ماكس فيبر[٥] إلى أبعد من ذلك حيث يرى الثقافة "مجرد" بنية فوقية؛ فقد شعر -في الواقع- بأن الثقافة يمكن النظر إليها على أنها قوة مستقلة ذاتيًا تقود التنظيمات البنيوية الاجتماعية. ويؤكد التصنيف النموذجي المشهور لديه عن الأخلاق البروتستانتية والزهد الدنيوى[٦](٦) أنه يمكن حدوث التغيير البنيوي عند وضع أوضاع بنيوية معينة في موضعها الصحيح، مثل: الأسواق، وأسواق العمل، والمال، والمراكز الحضرية، واستقرار نظام الحكم، وما إلى ذلك. وبمجرد وضعها في موضعها الصحيح، يمكن أن تظهر معتقدات وأيديولوجيات حديثة لدفع المجتمع إلى نمط جديد تمامًا من التنظيم المجتمعي. وهكذا، من وجهة نظره، كانت الثورة الصناعية والرأسمالية أحداثا تصادفية ظهرت فقط معالتناوبات في المعتقدات الدينية، ومع التطور في الفكر الأكثر علمانية عن الزهد الدنيوى، (انظر: الهامش رقم ٦) الذي ينظم القواعد الأخلاقية للبروتستانتية في إيديولوجية يمكنها دفع الفاعلين إلى تشكيل أنواع جديدة من العلاقات الاقتصادية. كما أدرك أمثال ماركس، أن الأنظمة الاجتماعية المُشَرَّعة أو ما قد نسميه اليوم بالمجالات المؤسسية والنظم الطبقية، قد قامت الأيديولوجيات بتشريعها، وأنه إذا تم تغيير هذه الأيديولوجيات في أى وقت؛ فإن تعبئة الفاعلين بأيديولوجيات جديدة مضادة وزعماء ذوي شخصيات براقة سيكون حتميًا.

جورج هربرت ميد George Herbert Mead

وعلى المستوى الأكثر جزئية للتنظيم الاجتماعي، تُشبه فكرة جورج هربرت ميد[٧] للآخَر المُعمم كثيرًا أفكار دوركايم حول الوعي الجمعى (وهو مصطلح رئيس في أعمال دوركايم الأولى

---

(٥)ماكس ويبر، العقيدة الكاثوليية و وروح المواطنة، ترجمة: بارسونز (نيويورك، سكبنر، ١٩٤٨م، تم النشر في جزئين رئيسين بين عامي ١٩٠٤ و ١٩٠٥م. انظر أيضًا: ترجمات ستيفن كالبرج لجريدة روكسبيري، ٢٠٠٢م).

(٦)يؤكد الزهد الدنيوي على العمل الجادِّ والاجتهاد والادخار وتكديس رأس المال والعقلانية – وكلُّ ذلك باسم الله-.

(٧)جورج هربرت ميد، العقل، الذات، والمجتمع (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو ١٩٣٤م).

لكن تم التخلي عنه فيما بعد). فالأفراد يأخذون الدور ليس فقط من أشخاص حقيقيين، بل تفترض أيضًا منظورًا للآخر المعمم المرتبط بجميع البناءات الاجتماعية. ومن وجهة نظر ميد، فإن الآخر المعمم هو "مجموعة من السلوكيات "أو" مجموعة من المعتقدات" التي يشترك فيها الأفراد وتُوجّه سلوكهم وتقييمهم لذواتهم عندما يأخذون دورًا في موقف ما. وعلى الأرجح فإن فكرة الآخر المعمم تكتظ بالكثير من القيم الاجتماعية، والمعتقدات، والأعراف، ووجهات النظر، والسلوكيات، والمشاعر، وما إلى ذلك، إلا أن ميد قد أعطى آلية، وهي "الدور المأخوذ من الآخر المعمم" يستخدمها الأفراد من أجل استدعاء الثقافة لتنظيم سلوكهم ولتقييم ذواتهم. ومع ذلك لم يُطور ميد أفكار دوركايم حول الطقوس كآليات رئيسة أخرى تمارس الثقافة سلطتها من خلالها، عندما يقوم الأفراد بعمل دعوات طقوسية للطواطم ترمز إلى القوة الخارقة التي هي في الحقيقة نظام جماعي للمجتمع وثقافته، فيخضع الأفراد لسلطة الثقافة، إلى جانب تشريع قدسيتها. ومع ذلك، فقد كان كل من دوركايم وميد يسعيان إلى أساس مستوى الوحدات الصغرى للتنظيم الاجتماعي، وأدى بهم هذا البحث إلى محاولة فهم كيف تصبح الثقافة مقبولة وجزءا من وجهات النظر العالمية للأشخاص، وأيضًا المفاهيم حول الأشكال المناسبة للسلوك.

في ألمانيا، وبعد الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. اشتهر ألفريد شوتز (Alfred Schutz) "الفينومينولوجي" بالظاهراتي كعالم الاجتماع ، وكان من أكثر علماء الاجتماع المهتمين[٨] بالبحث عن كيفية تخزين الأفراد للمعرفة، بما في ذلك المعرفة والمؤشرات العاطفية للتوجيهات الثقافية، وكيف يمكنهم توفير هذه المعرفة في مواقف محددة. ويشير شوتز بعبارته الشهيرة "مخزون المعرفة في متناول اليد" التي استعارها جزئيًا من الفيلسوف إدموند هوسرل، مؤكدًا أن الثقافة قوية للغاية، وتطرح مخزونًا واسعًا من القدرة المعرفية التي يمكن الاعتماد عليها لتسهيل التفاعل بين الأفراد. ويتم تراكم هذه المخزونات في أثناء فترة الحياة، وغالبًا ما تكون ضمنية، وليس من السهل التعبير عنها، ولكنها متاحة عند الحاجة إليها؛ وبالتالي تكون الثقافة أكثر من أنها مجرد معايير، ومعتقدات، وأيديولوجيات، وقيم، وتخرج مخزونات واسعة من المعلومات المناسبة للأشخاص في مواقف

---

(٨)ألفريد شوتز ، الظواهر في العالم الاجتماعي (إيفانشتن: مطبعة جامعة نورث وسترن ١٩٦٧م، نُشرت أصلًا في عام ١٩٣٢م).

محددة. كما أكد مفكرو علم الظواهر/ الظاهرتية "الفينومينولوجيا" للآخرين في أوروبا بطرق مختلفة على أن الهيئة الثقافية أكثر قوة خفية وكامنة في دماغ الإنسان، ويمكن الاعتماد عليها سريعًا وتجميعها لإعطاء توجيهات لمختلف أنواع المواقف. وأصبح هذا الرأي الأكثر قوة عن الثقافة وجزءًا من النهضة الحديثة لعلم الاجتماع الثقافي.

إرث منتصف القرن لكلود ليفي ستراوس

The Mid-Century Legacy of Claude Levi-Strauss

إرث آخر من علماء الاجتماع المبكرين، وهو ما نطلق عليه أحيانًا البنيوية، وهو مزيج من أفكار دوركايم وأصحاب اللغويات البنيوية في بداية القرن العشرين. وتُعدُّ تفاصيل هذا المركب أقل أهمية مما تم تركه على الساحة طويلًا بعد تلاشي البنيوية من صدارتها في منتصف القرن العشرين. وربما كان كلود ليفي ستراوس شخصية حاسمة هنا؛ حيث إنه اتّبع منذ البداية اتجاه دوركايم ومارسيل موس[٩]في النظر إلى المنطق الثقافي على أنه يعكس التنظيمات البنيوية، بما في ذلك الإيكولوجية للمجتمعات، بمعنى: أن أصناف التفكير الأساسية حول مسائل الزمان، والمكان، والسببية هي: انعكاس لكيفية تنظيم المجتمعات. وكان ليفي ستراوس على وشك قلب فكرة دوركايم في تأكيده أن البنية الثقافة تنشأ من برمجية مستقرة في التشريح العصبى لدماغ[١٠] الإنسان. وتوجد أبنية عميقة لقواعد مُولِّدة، ومنطق، وافتراضات، ومفاهيم الزمان والمكان الآخرين، وخصائص أخرى للثقافة تساند معنويًا جميع ظواهر الثقافة، ويرتبطون ببعضهم البعض في الدماغ من وجهة نظره. وحتى ولو لم يُرد أحدهم الذهاب بعيدًا عن ليفي ستراوس في رؤيته لعناصر الثقافةكإظهار للبرمجة الحيوية في الجهاز العصبي للدماغ، وهي فكرة تقوم على أن استخدام الناس للثقافة في حياتهم اليومية ما هي إلا بنية سطحية تُوجهها بُنَى عميقة للثقافة مكونة من القواعد والمنطقيات التي تتضمنها الثقافة، وتكون أساسية في فهم الثقافة أكثر من الدراسة التجريبية الطفيفة

---

(٩)إيميل درخام و مارسيل موس، التصنيف البدائي (شيكاغو: مجلة جامعة شيكاغو، ١٩٦٣م، وتم نشرها أصلًا في عام ١٩٠٣م).

(١٠) كلود ليفي ستروس، الأسطورة والحقيقية (نيويورك: تشوكن، ١٩٧٩)؛ عالم من دون عوائق (لندن: هتشسن، ١٩٦١م) هيكلة علم الأنثربيولوجي (باريس: بيون ١٩٦٤م).

للبِنَى السطحية. فعلى سبيل المثال، يمكن فهم الأسطورة الثقافية، وافتراضات القيمة، والأيديولوجيات، والمعايير، والقصص التقليدية وجميع الثقافة السطحية تقريبًا بطريقة أفضل عندما يتم عزل البناءات العميقة التي تُولِّد تلك الظواهر الثقافية بشكل منهجي ودراستها بوصفها مصدرًا أساسيًّا للثقافة.

وامتدادًا لهذا الاتجاه من الجدال حول البنيوية تأتي استخدامات استعارية للأفكار من المجال الناشئ في علوم الحاسوب، على الرغم من ظهور هذه الأفكار أيضًا في أعمال دوركايم الأخيرة. وعلى سبيل المثال، كان ينظر إلى الثقافة على أنها تُنظَم من خلال المتضادات الثنائية، مثل: جيد-سيئ، طويل-قصير، حاضر-ماضي، إلا أنه في الحقيقة يكمن التنوع في الثقافة وقدرتها على إعادة بناء نفسها في البنية الثنائية؛ لأن رمزًا ثقافيًّا واحدًا أو أخلاقيًّا حول ما هو "صواب"، ويشتمل أيضًا على ما "ليس بصواب"، أو الرموز التي تدفع الناس للتفكير في الحاضر أو المستقبل تتضمن أيضًا ما تعنيه بالتفكير في الماضي. ولا تزال توجد هذه الاستعارات في البنيوية، وفي العديد من المناهج الأخرى في علم الاجتماع[11] .على سبيل المثال، النظرية البنيوية لجيدنز[12]التي تم تلخيصها في الفصل السابق أو في النظريات الوظيفية مثل التي طورها نيكولاس لوكمان[13]، الذي جعل أن كل مصطلح ثقافي يصنع "نُسخًا عكسية لنفسه"، وهي طريقة أخرى للتعبير عن فكرة المتضادات الثنائية.

(١١)بالنسبة لبعض الأعمال العامة مراجعة البنيوية، انظر: أنتوني جيدينس ، "البنيوية ، ما بعد البنيوية وإنتاج الثقافة" ، في النظرية الاجتماعية اليوم، جيدينز وترنر (جامعة كامبريدج: ٢٠٠٠م)، كلارك، (تأسيس البنية الأساسي (ساسكس، المملكة المتحدة هارفستر، ١٩٨١م) الهيكلة والعلم (أوكسفورد: مجلة جامعة أوكسفورد، ١٩٧٩م)؛ ما هي عملية الهيكلة في علم الاجتماع وأماكنها؟ (كامبريدج: جامعة كامبريدج، ١٩٧٠م) إينو روسي من علم اجتماع الرموز إلى علم اجتماع الإشارات (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا ، ١٩٨٣م)، إينو روسي، البنية الاجتماعية (نيويورك: دوبداي، ١٩٧٠م)، فيليب بتيت، أساسيات عملية الهيكلة: تحليل نقدي (باركلي، جامعة كاليفورنيا، ١٩٧٧م)؛ تشارلس ليمرت "استخدام الهيكلة الفرنسية في علم الاجتماع" ومايكل ليمونت و روبرت ويثنو، "علم الاجتماع الثقافي الحديث في أوروبا والولايات المتحدة"، ج.ريتزر (نيويورك جامعة كلومبيا، ١٩٩٠م).

(١٢)أنتوني جيدينس ، دستور المجتمع (بيركلي ، كاليفورنيا: مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٨٤م).

(١٣)نيكلاس لوكران، الاختلاف في المجتمع (انظر الملاحظة رقم ١).

ولتصوير التباين في تطبيق هذه الأفكار في علم الاجتماع الثقافي المعاصر(١٤)؛ قمتُ باختيار عدة علماء منظرين ومنهم: روبرت وثنو، وبيير بورديو، وجيفرى ألكسندر، وجارى ألن فين، وإسهاماتي النظرية في التنظير الثقافي.فقد وسع وثنو ميراث دوركايم بطرق مثيرة للاهتمام، ويماثل تحليل لبورديو بشكل كبير تحليل ماركس عن البنيات الطبقية من منظور ثقافي، ويُعدُّ ألكسندر وزملاءه من أكثر الدعاة البارزين "للبرنامج القوي" في علم الاجتماع الثقافي؛ حيث يتم التأكيد على الاستقلال الذاتي للثقافة كقوة، ويُطَوِّر فين نظرية الثقافة الخاصة التي تؤكد على أهمية عمليات الجماعات، وأنا أسعى إلى إصلاح الأفكار القديمة الناتجة عن الوظيفية في الثقافة في ثوب أكثر قبولًا.

التحليل الثقافي المعاصر
Cultural Analysis Today

نظرية روبرت وثنو لمعاني الثقافة Robert Wuthnow's Theory of Cultural Meanings

تُعدُّ نظرية الثقافة (١٥) لروبرت وثنو واحدة من أكثر الطرق ابتكارية للبنيوية؛ لأنها قبل كل شيء تمزج بين المصالح البنيوية حول العلاقات بين النُظُم الرمزية، والنظرية التقليدية الأخرى (١٦). ومن بين هذه التقليدية الأخرى عناصر التمثيل المسرحي، والتحليل المؤَسسي، والاتجاهات الذاتية المستمدة من علم الظاهراتية.

---

(١٤) بالنسبة لبعض المراجعات ، انظر: روبرت واثنو ومارشا ويتن ، "الاتجاهات الجديدة في دراسة الثقافة" ، الاستعراض السنوي لعلم الاجتماع ١٤ (١٩٨٨م): ص ١٤٩ - ١٦٧. وانظر أيضًا: روبرت واثنو ، وجيمس دافيدسون هنتر ألبرت بيرجيسن ، وإيديث كورزويل ، التحليل الثقافي: عالم بيتر ل. بيرغر. ماري دوغلاس. مايك فروسكولت وجورجان هابيرماس (لندن: رونليدج و كيجان بول، ١٩٨٤م).

(١٥) للحصول على أمثلة حول عمل روبرت واثنو في الدين ، راجع كتابه: "إصلاح الوعي" (جامعة بيركلي: جامعة كاليفورنيا بروكس ، ١٩٧٦م)، والتجريب في الدين الأمريكي (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٧٨م).

(١٦) روبرت واثنو، المعنى والترتيب الأخلاقي: استكشافات في التحليل الثقافي (بيركلي ، كاليفورنيا: مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ١٩٨٧م). لمراجعة هذا العمل ، انظر: جوناثان ه. تيرنر ، "التحليل الثقافي والنظرية الاجتماعية" ، المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ٩٤ (يوليو ١٩٨٨م): الصفحات ٦٣٧-٦٤٤.

البناء الثقافي، والسياق المؤسسي، والطقوسي
Cultural Structure, Ritual, and Institutional Context

من وجهة نظر وثنو، من الأفضل الابتعاد عن التركيز المفرط على الاتجاهات والمعتقدات والمعاني التي يمتلكها الأفراد في تحليل الثقافة. حيث إنه من الصعب قياسهم. وبدلًا من ذلك، يكون من الأفضل التركيز على الاتصالات الملحوظة للأفراد المتفاعلة لفهم الثقافة بمجرد تحويل التركيز بعيدًا عن المعنى الثقافي في حد ذاته إلى البنية الثقافية في السياقات الاجتماعية. وفي النصوص التي تم إنتاجها اجتماعيًا لتُصبح الطرق النظرية الأخرى مفيدة.

ويعدُّ التمثيل المسرحي (الفصل ٧) إحدى الإضافات الجوهرية بسبب تأكيدها على الطقوس كآلية للتعبير عن الرموز وإضفاء بُعدًا دراميًّا عليها -التأكيد الذي ترجع جذوره بوضوح إلى نظرية دوركايم- بمعنى، أن الطقوس الشخصية الفردية، بالإضافة إلى الطقوس الجماعية، يعبران بعمق عن المعاني المحمولة. لكنهما في نفس الوقت، يؤكدان على بناءات ثقافية معينة. وعند القيام بذلك، تؤدي الطقوس مثل هذه الوظائف المتنوعة كتعزيز القيم الجماعية، ممثلة في إضفاء بُعد تمثيلي على علاقات معينة، والتأكيد على وظائف رئيسة، وتحسين وسائل محددة، والتنظيمية، مقابل الأدوار وتسليط الضوء على أنشطة بعينها.

فالتحليل المؤسسي إضافة نظرية أخرى مهمة، فلا توجد الثقافة -كبناء- مجردة في حد ذاتها، كما أنها ليست أداءات طقوسية أو درامية؛ فهي جزء لا يتجزأ من البناءات المجتمعية المنظمة. ويتم إنتاج الثقافة من خلال فاعلين ومنظمات تتطلب موارد مادية، وتنظيمية، وسياسية إذا أريد بهم تطوير أنظمة الرموز الثقافية وطقوسها ونقلها للآخرين. وبمجرد الاعتراف بالأساس المؤسسي للنشاط الثقافي يصبح عدم التكافؤ في الموارد، واستخدام السلطة، ونشوب الصراع عناصر ضرورية للتحليل الثقافي.

النظام الأخلاقي The Moral Order

وصف وثنو Wuthnow هذه النظرة للثقافة على أنها دراسة النظام الأخلاقي. ويدور النظام الأخلاقي حول: (١) بناء أنظمة رموز ثقافية، وطبيعة الطقوس. (٢) الذات الحقيقية والأدوار. (٣) المحافظة على مثل هذه الرموز الثقافية والطقوس. وفيما يلي عرض لدور كل منهم.

بناء الرموز الثقافية The Structure of Cultural

وهي مجموعة من العناصر الرمزية التي تحدد طبيعة الالتزام بمنهج معين من السلوك. وخلافًا لآراء القوانين الثقافية التي تقول بأنها تمتلك حيزا ضيقا، مثل ما أكد ليفي شتراوس،(Levi Strauss)بأنه لا يرى سوى مجموعة من العناصر الثقافية التي تمتلك بنية قابلة للتمايز، والتي يمكن استخدامها لفهم المواقف والمجالات التي تُولِّد مشكلات في طبيعة الالتزامات الأخلاقية. ويرى وثنو أن هذه التمايزات الثلاثة تُعدُّ مهمة في بناء النظام الأخلاقي من رموز ثقافية، مثل : (١) الأهداف الأخلاقية مقابل البرامج الحقيقية. (٢) الأدوار الاجتماعية الأساسية مقابل الذات الجوهرية. (٣) الحتمية والقصدية في سن القيود الحتمية مقابل الخيارات المتعددة التالية :

١ - تتميز الأهداف الأخلاقية والبرامج (Moral Objects and Programst) في بناء النظام الأخلاقي بين: (أ) أهداف الالتزام، و(ب) الأنشطة أو البرامج الحقيقية التي يشارك فيها المُلتزِم بها. ويمكن أن تختلف أهداف شخص والتزامه بمجموعة من المعتقدات والقيم وما إلى ذلك. وغالبًا ما تكون البرامج نوعًا من النشاط، وتظهر أهداف الالتزام الأخلاقي بالسلوك سواء أكانت متصلة أم غير متصلة. فعلى سبيل المثال: قد يكون هدف الشخص من الالتزام إيجاد حياة أفضل، وهو ما يمكن إدراكه من خلال العمل الشاق والأنشطة الأخرى أو البرامج الحقيقية. ولجعل بنية النظام الأخلاقي أكثر فاعلية؛ يجب أن يتضمن التميز في الأداء من خلال ربط هذه الأهداف مع البرامج الواقعية.

٢- الذات الحقيقية والأدوار (Real Self and Roles) يرى وثنو أنه يجب أن نميز بين بنية الرموز الأخلاقية من حيث: (أ) الذات الحقيقية للشخص، وبين (ب) الأدوار المختلفة التي يلعبها الشخص. فدائمًا ما تربط البناءات الأخلاقية بين القيمة الذاتية والسلوك، إلا أنها في نفس الوقت تسمح بأن تكون متمزة ؛ ليكون هناك "الأنا الحقيقية" ذات القيمة الأخلاقية التي يمكن أن تنفصل عن الأدوار التي من شأنها أن تقلل هذا الشعور "بالقيمة الذاتية". فعلى سبيل المثال: عندما يُظْهِر أحدهم رفض الدور الذي يقوم به؛ لأنه في ذلك يؤكد على أن الدور الذي يقوم به يقلل من قيمته الذاتية.

٣- الحتمية والقصدية (The Inevitable and Intentional) يجب أيضًا أن تتميز الرموز الأخلاقية بين: (أ) القوى التي هي خارج سيطرة الناس، و(ب) تلك الموجودة ضمن علم الإرادة ؛ بمعنى أنه

لا بد من تمييزها المحتوم عن المتعمد. في هذه القوانين الثقافية يفترض أن هناك تقييمًا أخلاقيًّا عن تلك السلوكيات التي يمكن أن تتحقق من خلال القصد والقوة. في حين يغفر لما لا يمكن للشخص السيطرة عليه. ومن دون هذا التمييز سيكون من الصعب معرفة أنواع السلوكيات الخاصة بالأفراد أن يخضعوا للتقييمات الأخلاقية.

وهكذا، فإن بنية النظام الأخلاقي تدور حول ثلاثة أنواع أساسية من الرموز فيما يتعلق بـ: (١) الأشياء الأخلاقية/ البرامج الحقيقة. و (٢) النظام الذاتي. و (٣) والخيارات الجامدة/ المتعمدة التي لا مفر منها. فالقيود الحتمية مقابل الخيارات المتعمدة تشير إلى تلك الأنواع الرئيسة الثلاثة للرموز إلى ما هو مرغوب فيه، ولكن في الوقت نفسه يتم ربط الأهداف والسلوك والذات والأدوار والقيود والنوايا. ومن دون التمييز لهذه الدلالات الثلاث سيقوم النظام الأخلاقي والنظام المؤسسي الموجود بها بالبدء في السقوط. ومن دون التدليل، ومن دون التمييز و الربط بين الأهداف والبرامج، ستظهر الأزمات، ويصبح الكل مستشريًا. وإذا تم الخلط بين الذات والدور ستنتشر خسارة القيمة الذاتية. وإذا كانت القيود والتحكم غير واضحين ستزداد اللامبالاة أو الإحباط.

طبيعة الطقوس The Nature of Ritual

تضفي الطقوس الأخلاقية بُعدًا دراميًّا على القيم الجماعية، وتوضح المسؤولية الأخلاقية للأفراد تجاه هذه القيم من خلال سن طقوس مثيرة للعاطفة. وعند القيام بذلك تعمل هذه الطقوس للحفاظ على النظام الأخلاقي، وهو: نظام القوانين الرمزية الذي يُنظم الأهداف الأخلاقية كالبرامج الحقيقية، والذات والأدوار، والقيود والخيارات (التعمد). ويمكن أن تكون مثل هذه الطقوس جزءًا لا يتجزأ من التفاعل المعتاد بالإضافة إلى الاحتفالات الجماعية الأكثر تطورًا. ويمكن أداؤها سرًّا أو علنًا، إلا أن النقطة الرئيسة هي أن الطقوس آلية وأساسية للحفاظ على النظام الأخلاقي. وتم استعارة هذه الفكرة بشكل واضح من دوركايم، وتَناولها غوفمان بشكل موسع للتمثيل المسرحي (انظر فصل ٧).

وتُستخدم الطقوس أيضًا للتصدي لحالة عدم اليقين الموجودة في العلاقات الاجتماعية التي تُنَظّم من خلال رموز النظام الاجتماعي. ويتم استدعاء حالة عدم اليقين سواء من خلال زيادة

الخيارات، أو استخدام السلطة، أو غموض التوقعات، كما أن عدم وضوح القيم، أو التباس الرموز الأساسية، أو التقلُّب في العلاقات الاجتماعية الرئيسة، للتعامل مع هذه الأسس المختلفة توجد عدم اليقين. فعدم اليقين -إذن- هو أحد مصادر النشاط الطقوسي المتصاعد لالتماس اليقين. ولذا فإن الطقوس عادةً ما ترتبط بالجهود الرامية إلى تعبئة الموارد في سياقات مؤسسية لخلق نظام أخلاقي جديد.

السياق المؤسسي والموارد Institutional Context and Resources

لإيجاد النظام الأخلاقي يجب إنتاجه وإعادة إنتاجه لظهور رموز أخلاقية جديدة كما رآها وثنو كأيديولوجيات، ويجب أيضًا إنتاج هذه الأيديولوجيات الجديدة بشكل فعال من خلال الفاعلين المستخدمين للموارد. وهكذا تعتمد أنظمة القواعد الرمزية على الموارد المادية والتنظيمية. ولاستمرار النظام الأخلاقي، وتصبح الأيديولوجية الجديدة جزءًا من النظام الأخلاقي يجب أن تكون لديهم إمدادات مستقرة من الموارد للفاعلين لاستخدامها في الحفاظ على النظام الأخلاقي، أو نشر أيديولوجية جديدة. أي أنه، يجب على الفاعلين أن تكون لديهم القيمة المادية اللازمة للإبقاء على أنفسهم والمنظمات التي يشاركون فيها. ويجب أن يكون لديهم قواعد تنظيمية لا تعتمد فقط على القيم المادية، مثل المال، ولكن تعتمد أيضًا على المعرفة التنظيمية، وشبكات الاتصال، والقيادة. وفي بعض الأحيان، يجب أيضًا أن تكون لديهم سلطة. وبالتالي يرتكز النظام الأخلاقي على البِنى المؤسسية التي تتمحور حول القيم المادية، والمال، والقيادة، وشبكات الاتصال، والقدرات التنظيمية.

الأيديولوجيا Ideology

يُعرّف وثنو الأيديولوجية على أنها رموز تعبّر عن أو تُصور بطريقة مسرحية بعض جوانب النظام الأخلاقي، ويبدو أن الفكرة الأساسية تكمن في كون الأيديولوجية عبارة عن مجموعة فرعية من القواعد الرمزية التي تؤكد على جانب معين من النظام الأخلاقي الأكثر شمولًا. ويتم تغيير النظام الأخلاقي من خلال التطوير المؤسسي أيديولوجية جديدة، وتعدُّ الأيديولوجية القوة الدافعة للتغيير، وهذا ما أكد عليه كثيرًا ماركس.

ويعتمد إضفاء الطابع المؤسسي على الأيديولوجيات الجديدة في نهاية المطاف على: (١) تعبئة أنواع أخرى من الموارد كـ (القادة، وشبكات الاتصال، والمنظمات، والسلع المادية). (٢) إضافة إلى تطوير واستخدام الطقوس لتسليط الضوء على الأخلاق الأيديولوجية. ويجب أن تتنافس الأيديولوجية الجديدة كثيرًا بعضها مع بعض للفت الانتباه، مع ما يترتب على ذلك عند فوز الأيديولوجية صاحبة الموارد العالية الفائقة في المنافسة لتصبح جزءًا من النظام الأخلاقي، وهناك أيضًا بُعد إيكولوجي للأيديولوجية؛ حيث إنها تتنافس في بيئات الموارد التي تتألف من الاتباع المحتملين للأيديولوجية.

ديناميات النظام الأخلاقي The Dynamics of the Moral Order

قدم وثنو إطار عمل بيئي لتحليل الديناميات للنظام الأخلاقي(انظر: فصل ٤). فالنظام الأخلاقي -إذن-: (١) لا يقوم بتحديد تنظيم الأهداف الأخلاقية والبرامج الحقيقية، والذات، والأدوار، والقيود الحتمية، الضوابط المُتعَمدة. (٢) أو غير قادر على تحديد الممارسات الاتصالية والطقوسية المناسبة لتأكيدها وإضفاء الطابع الدرامي عليها. (٣) أو غير قادر على تقليل المخاطر المرتبطة بالأنشطة المختلفة، فسيكون هناك بعض من الغموض في معظم المواقف. فالنتيجة سيؤدي هذا الغموض إلى أن الأفراد لن يمتلكوا توجيهًا كافيًا، وستكون أفعالهم إلى حد ما غير متوقعة، وتصبح الأيديولوجيات الجديدة محتملة الظهور، في ظل مثل هذه الأحوال عندما يكتنفها الإبهام والغموض، وكوسيلة لتقليل حدة تلك الأوضاع، فإنه سيزداد الإنتاج الأيديولوجي مع ظهور: (١) وجود درجات عالية من عدم التجانس في أنواع الوحدات الاجتماعية والطبقات، وكذلك الجماعات، والمنظمات، وما إلى ذلك في المجتمع. (٢) وجود مستويات عالية من الاختلاف في الموارد وتوزيعها. (٣) وجود معدلات مرتفعة من التغيير كإعادة تنظيم السلطة، وإعادة توزيع الموارد، وإنشاء هياكل جديدة، وخلق أنواع جديدة من العلاقات الاجتماعية. (٤) انعدام المرونة في الرموز الثقافية الناشئة عن الترابطات المحدودة بين عدد قليل من الرموز. (٥) انخفاض قدرة السلطة السياسية على قمع الرموز الثقافية الجديدة، والطقوس، وتعبئة الموارد.

ومن منظور إيكولوجي، تزيد هذه العمليات من الاختلاف الأيديولوجي الذي يزيد بدوره من مستوى المنافسة بين الأيديولوجيات. فتكون بعض الأيديولوجيات أكثر ملاءمةً للفوز بهذه المنافسة، ويتم اختيارها نتيجة لذلك. وتعتمد مثل هذه الملائمة والاختيار على قدرة الأيديولوجية في تحقيق عدد من الأهداف، ومنها: (١) تحديد العلاقات الاجتماعية بطرق تحد من حالة عدم اليقين حول الأهداف الأخلاقية، والبرامج، والذات، والأدوار، والقيود، والخيارات، والمخاطر، والغموض، وعدم القدرة على التنبؤ. (٢) إظهار بناء مرن يتكون من العديد من العناصر الضعيفة الصلة. (٣) تأمين أساس للموارد خاصة المال، والأتباع، والمنظمات، والقيادة، وقنوات الاتصال. (٤) تحديد ممارسات تواصلية وطقوسية. (٥) وضع أهداف مستقلة. (٦) تحقيق الشرعية في نظر السلطة السياسية وفيما يتعلق بالقيم الموجودة والقواعد الإجرائية.

فكلما أمكن تحقيق تلك الحالات الست السابقة كان من الأرجح للأيديولوجية أن تفوز في المنافسة مع الأيديولوجيات الأخرى، وزاد احتمال أن تُصبح مُؤَسَسَة كجزء من النظام الأخلاقي وتعتمد كمَؤسَسِة أيديولوجية بشكل خاص، لإقامة الطقوس وأنماط الاتصال المؤكدةَ على الرموز الأخلاقية الجديدة داخل الترتيبات التنظيمية، والتي تسمح للطقوس وللرموز الجديدة بتقليل حالة القلق وعدم الثقة التي تعمل على تأمين أساس مستقر للموارد، وفي نهاية الأمر تحصل على القبول من السلطة السياسية.

وأكد وثنو أن أنواعًا مختلفة من الحركات الأيديولوجية سوف تظهر في ظل التشكيلات المتفاوتة للظروف التي ينتج عنها اختلاف، ومنافسة، واختيار، ومؤسسة.

البنيوية التكوينية عند بيير بورديو[١٧] Pierre Bourdieu's Constructivist Structuralism

وصف بيير بورديو عمله بالبنيوية التكوينية أو التكوين البنيوي [١٨]، فالبناءات تُقيّد الأفعال، إلا أن هذا التقييد ليس أمرا مطلقًا، ويستخدم الناس قدراتهم على التفكير والتَدَبُر والفعل لبناء ظواهر

(١٧) هذا القسم مشترك مع ستيفان فوكس.

(١٨)في الواقع ، كان بريدو غزير جدا، بعد أن كتب نحو خمسة وعشرين كتابًا ومئات المقالات في مجموعة متنوعة من المجالات ، بما في ذلك الأنثروبولوجيا ، والتعليم ، والتاريخ الثقافي ، واللغويات ، والفلسفة ، وعلم الاجتماع.

ثقافية واجتماعية، ويقومون بفعل ذلك في إطار معايير من البِنَى القائمة، إلا أن هذه البنى هي مستودعات من المواد والموارد التي يمكن استخدامها من أجل إنشاءات ثقافية واجتماعية متنوعة واسعة، وبمعرفة جذوره البنيوية، ولذا فإن بوردو يشبه العلاقة اللغوية في تحقيق هذه النقطة؛ حيث تُطلِق القواعد اللغوية القيود لإنتاج الخطاب الفعلي، وهو ما يمكن رؤيته على أنه تحديد احتمالات وجود مناطق جديدة للأعمال الخطابية [١٩]، وهذا هو الحال مع البنى الاجتماعية والثقافية. إنهم موجودون بشكل مستقل عن الممثلين، ويوجهون سلوكهم، وفي نفس الوقت، يعملون أيضًا على إيجاد خيارات، واحتمالات، وطرق لأفعال إبداعية ولبناء ظواهر اجتماعية وثقافية جديدة وفريدة.

نظرية الصراع الثقافي لبورديو
Bourdieu's Cultural Conflict Theory

بحث بورديو العديد من المواضيع إلا أن الجوهر مفاهيم لعلم الاجتماع عنده هو: تصور الطبقات الاجتماعية والأشكال الثقافية المرتبطة بهذه الطبقات[٢٠]. وفي الحقيقة فقد جمع بورديو بين النظرية الماركسية لموقع الطبقة الموضوعية، فيما يتعلق بوسائل الإنتاج، وتحليل فيبر لمكانة الجماعات كأنماط الحياة، والأذواق، والمـنزِلَة، وفي السياسة، كالجهود المنظمة للحصول على ثقافة الطبقة المهيمنة؛ والسبب الرئيس لهذا الجمع لوجهات نظر كارل ماركس وماكس فيبر حول الطبقات من أجل توسيع مفهوم رأس المال إلى كونه أكثر من موارد مادية واقتصاديه، مقرونة بالعناصر البنائية. [٢١]

=يغطي عمله التجريبي مجموعة واسعة من الموضوعات – الفن والأكاديميين والبطالة. الفلاحين ، الطبقات ، الدين. الرياضة ، القرابة ، السياسة ، القانون ، والمثقفين" .نحو علم اجتماع انعكاسي: ورشة عمل مع بيير بورديو، "نظرية علم الاجتماع ٧ (سبرينج ١٩٨٩م) صفحة ٢٦-٦٣ تحتوي هذه المقالة أيضًا على قائمة مرجعية مختارة على أعمال بورديو الخاصة بالإضافة إلى التحليلات والتعليقات الثانوية على بورديو.

(١٩)بير بورديو "الفضاء الاجتماعي والقوة الرمزية" نظرية علم الاجتماع ٧ (١ربيع ١٩٨٩م): ص ١٤.

(٢٠)بيير بورديو ، اللغة والقوة الرمزية (كامبردج ،: مطبعة جامعة هارفارد ، ١٩٨٩م).

(٢١) بيير بورديو، التمييز: نقد اجتماعي لحكم الذوق (كامبريدج ، ماساشوستس: مطبعة جامعة هارفارد ، ١٩٨٤م) بيير بورديو، (ستانفورد ، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد ، ١٩٨٨م).

الطبقات ورأس المال Classes and CapitaL

لفهم وجهة نظر بورديو حول الطبقات، يلزم أولًا معرفة التمييز بين أربعة أنواع من رأس المال على النحو التالي:[٢٢] (١) رأس المال الاقتصادي، كالملكية الإنتاجية كالمال والأشياء المادية التي يمكن استخدامها لتقديم السلع الخدمات. (٢) رأس المال الاجتماعي كالمواقف والعلاقات بين الجماعات والشبكات الاجتماعية. (٣) رأس المال الثقافي، كالمهارات، والعادات، والأخلاق، والأساليب اللغوية، والمؤهلات العلمية، والأذواق، وأنماط الحياة الشخصية غير الرسمية. (٤) رأس المال الرمزي، كاستخدام الرموز لتشريع امتلاك مستويات وأشكال متنوعة من الأنواع الثلاثة الأخرى لرأس المال.

ويمكن لهذه الأشكال الثلاثة من رأس المال أن تتحول إلى بعضها البعض، ولكن فقط إلى حد معين، وتكون درجة قابلية تحول رأس المال في مختلف الأسواق في حد ذاتها على المحك من الصراعات الاجتماعية. فقد يقلل الإفراط في الحصول على المؤهلات الأكاديمية. على سبيل المثال، قابلية تحول رأس المال التعليمي لرأس مال اقتصادي (تضخم المؤهل). ونتيجة لذلك يجب أن يكافح أصحاب المؤهلات لتحويل رأس مالهم الثقافي إلى مكاسب اقتصادية، مثل: الحصول على وظائف ذات رواتب عالية، وبالمثل فإن الحد الذي يمكن معه تحويل رأس المال الاقتصادي إلى رأس مال اجتماعي يكون على المحك في الصراعات حول سيطرة الجهاز السياسي، ويمكن في كثير من الأحيان أن تكون الجهود المبذولة من أصحاب رأس المال الاقتصادي لشراء رأس المال الثقافي محدودة؛ بسبب الانعدام الملحوظ لديهم في الذوق بوصفه نوعًا من أنواع رأس المال الثقافي. ويُحَدِد توزيع هذه الأنواع الأربعة لرأس المال بنية الطبقة الموضوعة للنظام الاجتماعي، وتعكس بنية الطبقة ككل المقدار الإجمالي لرأس المال المملوك للمجموعات المختلفة. وبالتالي ستمتلك الطبقة المهيمنة

(٢٢) بيري بيردو " أشكال رأس المال" ، في كتيب النظرية والأبحاث في علم اجتماع التربية ، ج. ريتشاردسون (نيويورك: غرينوود ، ١٩٨٦م)، بورديو، الخطوط العريضة لنظرية الممارسة (كامبريدج: مطبعة جامعة كامبريدج ، ١٩٧٧م). وانظر أيضًا: ميشيل لامونت وآنيت ب. لاراو "العاصمة الثقافية: التلميحات ، الثغرات" ، و جليسدنوس في "التطورات النظرية الحديثة ، نظرية علم الاجتماع" 26)، (خريف ١٩٨٨م) صفحة ٥٣-١٦٨.

معظم رأس المال الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والرمزي، وستمتلك الطبقة الوسطى كمية أقل من هذه الأشكال لرأس المال، بينما ستحصل الطبقة الدنيا على أقل قدر من موارد رأس المال.

ومع ذلك، فالبنية الطبقية ليست بتسلسل هرمى سهل مباشر؛ حيث توجد داخل كل طبقة فئات يمكن تمييزها من خلال: (١) المكانة أو الوضع الاجتماعي الخاص بهم. (٢) رموز التقدير ونمط الحياة والقيود البنائية التي تسمح لجماعات مختلفة باستخدام "القواعد الرسمية" للمعرفه الضمنية للأفراد ذوي المصالح المختلفة لبناء رموز ثقافية اجتماعية خاصة بكل طبقة . والمقدار الذي يحصل عليه الأفراد من الموارد داخل الأسرة .

ويمثل (الجدول١ , ٩) بشكل تخطيطي تصويرًا لفئات بورديو في ثلاث طبقات، تسيطر الفئة العليا داخل طبقة محددة على النسبة الأكبر من رأس المال الاقتصادي أو الإنتاجي المثالي للطبقة، وتمتلك الفئة الدنيا أكبر قدر من رأس المال الثقافي والرمزي للطبقة، وتحصل الفئة الوسطى على رأس مال اقتصادي اقل من الفئه العليا. ولعل الجدول التالي يعطي تصور واضح لكل طبقة من هذه الطبقات الثلاث. وكان علي في هذا الجدول أن أصل إلى استنتاجات من نص بورديو المشتت إلى حدٍّ ما، إلا أن الجدول يقوم بتصوير صورة لتحليل بورديو (Bourdieu's analysis). ولم يكن بورديو ليُعجب بمثل هذه الطبقات (التي تشبه الكعكة) الـمُصَوَرة في الجدول، ولكن تكمن نقطة التحول في أن الأفراد والأُسر في الفئات داخل الطبقات المختلفة تمتلك الكثير للمشاركة أكثر من الأفراد والأُسر في الفئات المختلفة داخل طبقة واحدة. وهذا يجعل الطبقات ظاهرة أكثر تعقيدًا، حفزت العديد من العلماء بتصورها بشكل خاص.

وقد استعار بورديو تمييز ماركس بين "الطبقة من أجل ذاتها" التي تُعرف بأنها طبقة منظمة للسعي الدؤوب من أجل تحقيق مصالحها، و"الطبقة في ذاتها" التي تُعرف بأنها طبقة غير منظمة لكن لديها مصالح مشتركة، وموقع موضوعي في الطبقة والفئة الطبقية. ثم أكد أن الطبقات ليست بمجموعات حقيقية، ولكن احتماليات. وقد لوحظ في وقت سابق فيما يتعلق بالتوزيع الموضوعي للموارد عند بورديو جماعات فعلية مثلما تتعلق القواعد النحوية بالخطاب؛ فهو يحدد الاحتمالات للفاعلين، لكن يتطلب ذلك أناسًا فاعلين، وأوساط ملموسة ليصبح حقيقة. ويُعدُّ تحويل الطبقة ومصالح فئات الطبقة إلى جماعات فعلية هو ما يمثل ديناميات المجتمع.

جدول رقم (٩,١). تمثيل للطبقات والفئات الطبقية في المجتمعات الصناعية.

الطبقة المهيمنة: الأغنى في جميع أشكال رأس المال
الفئة المسيطرة وهي: الأغنى في رأس المال الاقتصادي الذي يمكن استخدامه لشراء الأنواع الأخرى من رأس المال. وتتكون هذه الفئة في المقام الأول من أولئك الذين يمتلكون وسائل الإنتاج، وهذه هي البرجوازية الكلاسيكية. *الفئة المتوسطة ولديها:* بعض من رأس المال الاقتصادي بجانب مستويات معتدلة من رأس المال الاجتماعي والثقافي والرمزي. وتتكون هذه الفئة من مهنيين ذوي درجة عالية. *الفئة المُسَيطَر عليها:* وتملك القليل من رأس المال الاقتصادي، ولكن مع وجود مستويات عالية من رأس المال الثقافي والرمزي، وتتكون هذه الفئة من المثقفين والفنانين والكُتّاب وغيرهم ممكن يمتلكون موارد ثقافية ذات قيمة في المجتمع.
الطبقة الوسطى: مستويات معتدلة من جميع أشكال رأس المال
الفئة المسيطرة: الأعلى في هذه الطبقة في رأس المال الاقتصادي، لكنها تمتلك رأس مال اقتصاديًّا أقل بكثير من الفئة المسيطرة في الطبقة المهيمنة. وتتكون هذه الفئة من البرجوازية الصغيرة أصحاب الأعمال الصغيرة. *الفئة المتوسطة: ولديها* بعض من رأس المال الاجتماعي والثقافي والرمزي، ولكن أقل بكثير من الفئة المتوسطة في الطبقة المهيمنة، وتتكون هذه الفئة من أصحاب الكُتّاب المهرة. *الفئة المسيطر عليها:* تمتلك القليل، أو ينعدم لديها رأس المال الاقتصادي مع وجود رأس مال اجتماعي وثقافي ورمزي عالٍ نسبيًّا، وتتكون هذه الفئة من العمال المتعلمين، مثل معلمي المدارس، وغيرها من المهن الروتينية ذات الدخل المنخفض التي تشارك في الإنتاج الثقافي.
الطبقة الدنيا: مستويات منخفضة من جميع أشكال رأس المال
الفئة المسيطرة: وتملك رأس مال اقتصاديًّا عاليًا نسبيًّا لهذه الفئة العامة، وتتكون من العمال اليدويين المهرة. *الفئة المتوسطة:* تمتلك كميات أقل من رأس المال الاقتصادي، وأنواع رأس المال الأخرى. وتتكون من الشبه مَهَرَة بدون مؤهلات. *الفئة المسيطر عليها:* وتمتلك مقدارًا قليلًا جدًّا من رأس المال الاقتصادي. ويوجد بعض من رأس المال الرمزي عند المثقفين والأيديولوجيين غير المتعلمين الذين يعملون لخدمة الشخص العامل والفقير.

*كان لديَّ استدلالات حول ما أشار إليه بورديو في جدوله هذا، ولكن هذا الجدول يحمل صورًا تحليلة لبورديو، وربما لا يجب هذا النوع من الصور التحليلة على شكل كعكة كما في الجدول، لكن كان عليه أن يقدم استنتاجات من هذا النص المتشائم الى حد ما خاصة وأن هذا الجدول يحمل صورًا عن الطبقات الاجتماعية المختلفة، والتي تشترك في كثير من القواسم المشتركة، والأكثر الظواهر تعقيدًا كما يصورها علماء الاجتماع.

ويشتمل مثل هذا التحويل على استخدام رأس المال المادي والثقافي والرمزي الإنتاجي لتعبئة رأس المال الاجتماعي، كالجماعات، والشبكات. والأهم من ذلك أن الصراع الطبقي يميل إلى أنه يدور حول تشجيع الرموز في أيديولوجيات تعمل على إتاحة تشكيل معين من الموارد. وبالتالي، تتمحور معظم الصراعات في المجتمعات البشرية حول المجهودات للتلاعب بالرموز ولخلق نمط معين من الموارد الاجتماعية والثقافية والإنتاجية التي تبدو أكثر مناسبةً. فعلى سبيل المثال، عندما ينتقد المثقفون والفنانون "الروح التجارية الفجة"، و"الحِرْصُ على الاكْتِساب"، و"الطمع" للشركات الكبرى، فإن هذا النشاط يتضمن تشجيع للرموز في أيديولوجية تسعى إلى تحقير أشكال رأس المال التي تمتلكها النخب؛ وبالتالي، تخفيف هيمنتها من أصحاب وسائل الإنتاج ،وتشتمل العلاقات الطبقية على أكثر من مجرد نظام تسلسلي اجتماعي. فهناك أيضًا تجانس بين الفئات التي تتشابه في الموقع داخل الطبقات المختلفة. يحدث مثل ذلك عندما يتساوى الرأسماليون (الأغنياء) في الطبقة المهيمنة مع أصحاب الأعمال الصغيرة في الطبقة المتوسطة في سيطرتهم على الموارد الإنتاجية، وفي مكانتهم البارزة بالنسبة للفئات الأخرى الموجودة في طبقاتهم الخاصة بهم.

بالمثل، يتساوى المثقفون والفنانون والنُخب الثقافية الأخرى أصحاب الطبقة المسيطرة بمعلمي المدارس أصحاب الطبقة المتوسطة؛ حيث يعتمد كلاهما على رأس المال الثقافي، وبسبب تَبَعيَّتِهم للمسيطرين على الموارد المادية الخاصة بطبقاتهم التابعين لها ، ويحدث بين هذه التجانسات في الفئات الطبقية عبر مختلف الطبقات بخلق صراع طبقي معقد؛ لأن أولئك المتشابهين في المواقع الموضوعية للطبقات المختلفة، مثل: المثقفين ،ومعلمي المدارس سيقومون بحشد الموارد الرمزية في أيديولوجيات متشابهة بعض الشيء. وفي هذا المثال، تأكيد على التعلم والمعرفة، وعلى الحياة العقلانية، وفي نفس الوقت، انتقاد للمادية الفجة. وتُشرّع مثل هذه الأيديولوجيات لبيان موقع طبقاتهم وتُهاجم أولئك المهيمنين عليهم عن طريق التأكيد على أهمية تلك الموارد الثقافية التي يمتلكون كثيرًا منها. وفي نفس الوقت، تنفصل مواقعهما المتجانسة من خلال اختلاف مقدار ما يمتلكونه من رأس مال ثقافي، فيحتقر المثقفون جهود معلمي المدارس المتكلفة في الظهور بمظهر أعلى مستوًى مما هم عليه، بينما يسخط معلمو المدارس من انحطاط وانعدام المسؤولية النسبية للمثقفين المغرورين. وهكذا يتزايد الصراع الأيديولوجي بسبب التقارب المتزامن للفئات داخل الطبقات المختلفة، وبسبب تباين هذه الفئات بحكم موقعهم في الطبقات الاجتماعية المختلفة.

زيادة على ذلك، فقد ينشأ تعقيد إضافي للصراع؛ نتيجة لمشاركة الناس نفس الأنواع والمقدار من الموارد مع وجود أصول ومسارات اجتماعية مختلفة جدًّا، فأولئك الذين انتقلوا مؤخرًا إلى فئة طبقية مثل، النخبة المنتجة المهيمنة أو الفئة المتوسطة في الطبقة الوسطى الذين سيكون لديهم أساليب وأذواق مختلفة -إلى حد ما- عن من ولدوا في هذه الطبقات أصلًا، وقد يخلق هذا الاختلاف مصدرًا آخر من الصراع الأيديولوجي. فعلى سبيل المثال: غالبًا ما يقوم الأغنياء القُدامى بالتعليق على الطبقة الأقل منهم والتباهي المغالى فيه للأغنياء الجدد، أو عندما تشعر الطبقة المتوسطة بالغيرة -نوعًا ما- تجاه الفقير الذي عوض عن فقره ولا يزال لديه الكثير ليتعلمه.

وهذا التقارب والاختلاف داخل وبين الطبقات والفئات الطبقية، تجعل من ديناميات التقسيم الطبقي شيئًا معقدًا جدًّا. وبالرغم من وجود المكانة الطبقية لكل طبقة، كما تم تحديده من خلال مقدار وتكوين رأس المال، ومن خلال الأصول الاجتماعية لأصحاب رأس المال، إلا أن تطور المنظمات والأيديولوجيا ليس بعملية سهلة. وكثيرًا ما يجازف بورديو بوضع أسلوب أكثر عند محاولته لتصنيف: كيف أن العديد من الطبقات والفئات الطبقية والانقسامات بين الأفراد بسبب الأصول الاجتماعية المختلفة داخل الفئة الطبقية تقوم بتوليد أصناف من الفكر ونظم الكلام ودلائل التمييز وأشكال الميثولوجيا وأساليب التقدير والأذواق ونمط الحياة؟

فالحجة العامة -إذن- أن المكانة الموضوعة هي: (١) الطبقة. (٢) الفئة داخل الطبقة. (٣) والأصل الاجتماعي الذي يخلق مصالح وقيودًا بنيوية، التي -بدورها- تسمح بالبناءات الاجتماعية المختلفة [٢٣]. وتتضمن هذه البِنى قواعد رسمية تستخدم، وتعرف ضمنًا من خلال الأفراد ذوي المصالح المختلفة لبناء رموز ثقافية تصنف وتنظم الأشياء، والرموز، والدلائل والناس في هذا العالم. ولم يقدم هذا النوع من التحليل لبورديو نموذجًا بنائيًّا معرفًا بدقة لكيفية بناء الأفراد رموزًا ثقافية معينة؟ لكنه قدم تحليلًا مثيرًا حول ثقافات الطبقة. وغالبًا ما تكون مثل هذه الثقافات الطبقية متغيرًا تابعًا، في حين تكون المكانة الطبقية الموضوعة هي المتغير المستقل، بينما تكون العمليات البنائية للقواعد المولدة للرموز الثقافية هي المتغيرات الطارئة. ومع ذلك، فإن الوصف المفصل لهذه الثقافات الطبقية هو الإسهام الأكثر تفردًا لبورديو في علم الاجتماع وقد صورها من خلال مفهومه الأعراف والتقاليد.

---

(٢٣) بورديو، التمييز ومخطط نظرية الممارسة (المذكورة في إيضاح ٢٢).

الثقافات الطبقية والأعراف / التقاليد Class Cultures and Habitus

يشترك أصحاب كل طبقة معينة بأنماط محددة من التصنيف القيمي والحكم والإدراك والسلوك. وقد صور بورديو هذه العملية الوسيطة بين الطبقة ومفاهيم واختيارات وسلوك الفرد. مما يعني أن العرف (Habitus) هو "اللاوعي الجمعي" لمن هم في مواقع متشابهة؛ لأنها توفر توجيهات عاطفية، ومعرفية تمكن الأفراد من تمثيل العالم بطرق مشتركة، وبتصنيف واختيار وتقييم الفعل بطريقة معينة.

وتحمل الأعراف متلازمات الذوق، والكلام، واللبس، والأسلوب، والاستجابات الأخرى. فعلى سبيل المثال: تفضيل أطعمة معينة يميل إلى أن يتطابق مع الأذواق، والفن، وطرق اللباس، وأساليب الحديث، وآداب الطعام، والأفعال الثقافية الأخرى، بين مَن يتقاسمون مكانة طبقية مشتركة؛ مما يدل على أن هناك علاقة بين التسلسل الطبقي والحاجات، والميول، والسلوكيات الثقافية للأفراد في طبقات معينة من التسلسل الهرمى. وقد أولى بورديو اهتمامًا كبيرًا للذوق الذي عدَّه واحدًا من أبرز مظاهر الأعراف.

وقد نظر بورديو إلى "الذوق" بالمعنى العام والأنثروبولوجي على أنه يتضمن التقدير للفن، وطرق اللبس، والتفضيلات للطعام [٢٤]، وبالرغم من ظهور الذوق على أنه ظاهرة فطرية وطبيعية وشخصية، إلا أنه يسهم في التمييز بين مختلف الطبقات، فالطبقة العليا بالنسبة للطبقة العاملة بمنزلة المتحف الفني إلى التليفزيون، والطبقة العليا القديمة بالنسبة للطبقة العليا الحديثة هي بمثابة التألق البعيد المدى والمهذب بالميل إلى الاستهلاك التفاخري الصاخب، والفئة المسيطرة بالنسبة للفئة المسيطَر عليها في الطبقة العليا هي بمثابة الأوبرا مقابل المسرح المعاصر؛ وذلك لأنه يتم تنظيم الأذواق في التسلسل الهرمي الثقافي الذي يعكس التسلسل الهرمي الاجتماعي للموقع الطبقي المكاني، فالصراعات بين الأذواق صراعات طبقية.

---

(٢٤) بورديو، "أشكال رأس المال" (المذكورة في إيضاح ٢٢). لنهج ثقافي آخر لتحليل الطبقات ، انظر: ميشيل لامونت ، المال. الأخلاق والآداب: ثقافة الطبقة المتوسطة الفرنسية والأمريكية (شيكاغو، جامعة شيكاغو ١٩٩٢م) "الحدود الرمزية والوضع." في علم الاجتماع الثقافي ، أد. لين سبيلرمان (٢٠٠٢م) ، ص ٩٨ – ١١٩ ؛ كرامة الرجال العاملين: الأخلاق والحدود من التوسع ، الطبقة ، والهجرة (كامبريدج: مطبعة جامعة هارفارد ونيويورك: مؤسسة راسل ساغي. غلاف عادي ٢٠٠٢م).

وميز بورديو تقريبًا بين نوعين من الأذواق، والتي تتوافق مع رأس المال المنخفض مقابل رأس المال المرتفع، أو الموقع الطبقي المكاني المنخفض مقابل المرتفع؛ حيث يكون ذوق الحرية والرفاهية هو ذوق الطبقة العليا. وعلى هذا النحو تتم إزاحته عند الضرورة الاقتصادية المباشرة والاحتياج المادي. فذوق الحرية هو فلسفة حب الفن من أجل الفن. وأطلق بورديو على هذا الفن الجمالي "النظرة النقية" التي تنظر إلى الشكل الفني المطلق، وتضع هذا الشكل فوق الوظيفة والمحتوى، فلا يهتم ذوق الرفاهية التابع لأصحاب الطبقة العليا بإظهار الفن أو تمثيله للبعض خارج الواقع. فالفن قد يتم إزاحته عن الحياة مثلما قد تتم إزاحة حياة الطبقة العليا عند الضرورة المادية القاسية، ونتيجة لذلك يظهر ذوق الرفاهية ويتسامى فوق العادي والمدنس ليحوله إلى جمال حسن، وتضفي النظرة النقية معنًى جماليًّا على الأشياء العادية؛ وذلك لأن ذوق الحرية يمتلك من الرفاهية ما يخولة لتبرئة الأشياء من وظائفها الواقعية، ولأن ذوق الحرية يتبع الطبقة المهيمنة، فيكون هو أيضًا الذوق المهيمن والأكثر شرعية في المجتمع.

وفي المقابل تصنع الطبقة العاملة جمالًا شعبيًّا مذاقه الضروريات؛ لأن حياة الطبقة العاملة مقيدة باحتياجات اقتصادية قاسية. فيزيد الذوق الشعبي من الفن الذي يمثل الواقع ويحتقر الفن الرسمي المكتفي ذاتيًّا، ويراه فنًّا منحطًّا ومتدهورًا، ويفضل الذوق الشعبي البساطة والصدق بدلًا عن المعقدة والمتكلفة، ويقل ذوق "الرفاهية الشرعي" على عدِّه ساذجًا وقانعًا، وتنشأ هذه الصراعات على الأذواق؛ وهي صراعات طبقية على رأس المال الثقافي والرمزي.

ومع ذلك فإن التفضيلات لأعمال وأساليب فن معينة ما هي إلا جزء من الأذواق التي تنظمها الأعراف، وترتبط الخيارات الجمالية بالخيارات الموجودة في المجالات الثقافية الأخرى، فيتوافق ذوق الرفاهية والحرية، ونجد مثالًا لذلك في أسلوب المحادثة المهذب في الطبقة العليا بالأدب والبرود والانضباط، وكما يتوقع للفن أن يبتعد عن الحياة، فكذلك يتوقع من أجسام المحاورين أن تتباعد عن بعضها البعض، أو كما يتوقع أيضًا من الروح أن تكون بعيدة عن المادة. فالبعد عن الاحتياج الاقتصادي في أسلوب حياة الطبقة العليا لايتوافق فقط مع الشكل الجمالي النقي؛ ولكن أيضًا يستلزم ترميم جميع الرغبات الطبيعية والفيزيائية واللامركزية لتكون متسامية وغير مادية، وبالتالي تكون الطبقة العليا على درجة عالية من التنظيم والانضباط، ويتم تفضيل

الطعام غير المشبع بالأطباق الدسمة. وبالمثل يتم اختيار قِطَع الملابس حسب الموضة والتناسب الجمالي؛ دلالة على الملائمة الوظيفية. فالبعد عن الحاجة هو الحافز الذي يقوم عليه أسلوب حياة الطبقة العليا بكاملها، فليست الأذواق الجمالية هي فقط اتجاه واحد للممارسة.

وعلى العكس من ذلك، يتفاعل أصحاب الطبقة العاملة بطرق أكثر مادية، ويقتربون من أجسام بعضهم البعض عند التحاور، ويضحكون بحرارة، ويقدرون الكلام الصريح الواضح أكثر من البرود، والصدق أكثر من الزائف. وبالمثل يفضل ذوق الطبقة العاملة الطعام الدسم الأقل صحية ولكن الأكثر إشباعًا بدنيًّا، ويختارون الذوق الشعبي من الملابس والأثاث حسب الأداء الوظيفي، وهذا ليس فقط بسبب القيود الاقتصادية البحتة، ولكن أيضًا بسبب الكره الحقيقي والعميق لما هو شكلي وباهظ الثمن.

وخلاصة القول، قدّم بورديو نموذجًا تصوريًّا عن الصراع الطبقي الذي يجمع عناصر كل من علم الاجتماع الماركسى والفيبرى والدوركايمى، إلا أنه لم يتم التأكيد بصورة كافية في هذه النظرية على الجوانب البنائية لمفهوم بورديو للأعراف بوصفها عملية وسيطة بين المكانة الطبقية وسلوك الفرد. ولكن من الواضح أن بورديو أبرز دور دوركايم مرة أخرى عن طريق التأكيد على أن موقع الطبقة يحدد العرف، وعلى الرغم من ذلك فإنه أوجد العناصر المفيدة للبنائية مثل الأنظمة والرموز كبناءات مولدة للقواعد.وتندرج ضمن نظرية الصراع الطبقي حيث تتمحور حول حشد الرموز في أيديولوجيات معطاة شرعية للموقع (المكانة) الطبقي المقترن بأسلوب الحياة والعرف.

اتجاه جيفرى تشارلز ألكسندر نحو البراغماتية الثقافية

Jeffrey C. Alexander's Approach to Cultural Pragmatics

يُعدُّ تحليل الثقافة بالنسبة للعديد من علماء الاجتماع [٢٥]جزءًا من برنامج ضعيف يتم فيه النظر للثقافة على أنها تظهر من خلال تنظيمات بنيوية، ويتم التنظير لها فقط عند الإشارة إلى البناءات

(٢٥)انظر -على سبيل المثال-: جيفري ألكسندر ، ورون إكرمان برنار جيسن ، ونيل جي سملسر ، والصدمات الثقافية والهوية الجماعية (مطبعة جامعة كاليفورنيا ، ٢٠٠٤م) ؛ جيفري ألكسندر بيرنارد جيسن ، وجيسون ماست ، الأداء الاجتماعي: العمل الرمزي ، البراجماتية الثقافية ، والطقوس (كامبريدج ، المملكة المتحدة: مطبعة جامعة كامبريدج ٢٠٠٦م) ؛ فيليب سميث، رايلي، النظرية الطبيعية (أوكسفورد ، المملكة المتحدة: بلاكويل) ٢٠٠٦م؛

المجتمعية. وعلى النقيض من ذلك فإن الذي يجعل البرنامج الثقافة قويًّا هو الموضوع الرئيس بدلًا من كونها "بنية فوقية"، في أعمال ماركس، للأحوال الاجتماعية الثقافية المادية. ويتضمن هذا البرنامج القوى وصفًا كثيفًا للمعاني الرمزية والآليات التي تنشأ من خلالها تلك المعاني. وينظر إلى الثقافة على أنها نصوص ذات أفكار رئيسة، وأسلوب محكم يتم فيه عرض الأحداث، وتقييمات أخلاقية، وتقاليد، وأُطر عمل، وغيرها من المميزات التي تجعل للثقافة مجالًا مستقلًّا ومنفصلًا عن البنية الاجتماعية.

وسيكون هناك عمل كثير في مثل هذا البرنامج القوى تجريبيًّا، يدرس أنواعًا معينة من التشكيلات الثقافية ويحللها بالتفصيل، وينبغي فقط بعد وجود هذا البرنامج القوى لفترة من الوقت بحث العلاقة بين الثقافة والبناء الاجتماعي من خلال العمليات، مثل الطقوس، والتفاعلات الاجتماعية. وتُعدُّ المحاور الرئيسة الأخرى في التنظير الثقافي جزءًا من الحركة التي حثت على وجود برنامج قوي.

كما هو أيضًا عند جيفري ألكسندر وزملائه في جامعة (ييل)، على الرغم من أن علماء علم الاجتماع الثقافي لم يصلوا إلى هذا الحد من التفكير. ولكن تأثر معظم علماء علم الاجتماع الثقافي بالدعوة إلى تحليل الثقافة في حد ذاتها، وبالحاجة إلى المشاركة في وصف تجريبي وفير، وبالطبع لا يؤدي الوصف دائمًا إلى التنظير حول وجود الثقافة الموصوفة، وطريقة عملها وهكذا، يجب حتى على البرنامج القوي أن يبدأ في شرح الديناميكيات الثقافية أكثر من أن يصف بسهولة التوضيحات التجريبية لهذه الديناميكيات. ويُعدُّ عمل ألكسندر في "البراغماتية الثقافية" مثالًا جيدًا يتجاوز حد الوصف ليشرح على الأقل نطاقًا محدودًا من العمليات الثقافية.[٢٦]

في السعي إلى تحقيق هدف تطوير نظريات حول الثقافة، ومزج ألكسندر جرعة كبيرة من تحليل إميل دوركايم للطقوس والعواطفة في الأشكال الأولية للحياة الدينية" مع تمثيلة إرفنج

=جيفري ألكساندر ،) معنى الحياة الاجتماعية: علم الاجتماع الثقافي(نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد ،) ٢٠٠٥م ؛ جيفري أليكساندر ، رونالد جاكوبس ، وفيليب سميث ، دليل أكسفورد لعلم الاجتماع الثقافي (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد. ٢٠١٢م).

(٢٦)جيفري سي الكسندر، "البراغماتية الثقافية: الأداء الاجتماعي بين الطقوس والاستراتيجية"، النظرية الاجتماعية ٢٢ (٢٠٠٤م): ص. ٥١٢ - ٥٧٤.

جوفهان في(الفصل السابع). ويُعدُّ هذا المزج منطقيًا، وأحد أبرز خيوط التنظير الثقافي حول الطقوس والأداء الذي يثير العواطف بما يحمله من "تمثيليات جماعية"، و"النصوص الضمنية" و"الموضوعات" في مقدمة التفاعل مع الجماهير الآخرين.

تاريخ الأداءات الطقوسية History of Ritualized Performances

استقى ألكسندر (Alexander) من دوركايم Durkheim التضامن بين الآلي والعضوي الذي تم توظيفه في كتاب تقسيم العمل في المجتمع، ولكن تم التخلي عنه فيما بعد لتقديم تاريخ مختصر للادعاءات الطقوسية. ففي المجتمعات البسيطة المتجانسة (الآلية) تكون كل عناصر الادعاءات مستمرة؛ لذلك تكون الثقافة دائمًا في المقدمة؛ مما يجعل الأفراد يختبرون الطقوس الشخصية والفورية والتصويرية. وينصهر السيناريو الثقافي، والنصوص، والتمثيلات الجماعية، وخشبة المسرح، والدعائم، والممثلون، والجمهور، ووسائل الإنتاج الرمزي، والقوى الاجتماعية للأفراد معًا، وفي بعض الأحيان في الجماعات الأولية، تكون إعادة الدمج أمرًا غير ضروري حتى في المجتمعات المعقدة؛ فتقدم الطقوس التفاعلية بسهولة وسلاسة عندما تصبح الخلفية إلى المقدمة بطريقة مرضية عاطفيًا. ومع ذلك تزداد الدراما في عدد من المجالات الاجتماعية، وفي المجال العام الواسع في المجتمعات الحديثة المعقدة بسبب الفصل بين عناصر الأداء على نحو حتمي.

ونتيجة لذلك غالبًا ما تحدث هذه الإشكالية حول كيفية إعادة الدمج بينهم من خلال الأداء الطقوسي الذي يحدث بين الناس. فالعالم الثقافي مجزأ ومنفصل عن العديد من الأداء مما يضفي على العالم الحديث مشكلات في المعنى والتكامل الثقافي في المواقف الاجتماعية، ومحاور قديمة جدًا تعود إلى تأسيس علم الاجتماع.

وقد استخدم ألكسندر مفردات مختلفة لإعادة صياغة المشكلة الرئيسة التي أكد عليها دوركايم في عمله السابق تقسيم العمل في المجتمع. كيف يمكن للأداء أن يحدث بطرق تعمل على إعادة دمج ما تم انفصاله بشكل حتمي بسبب التمايز البنيوي والثقافي في المجتمع؟ ومن وجهة نظر ألكسندر، فإن الأداء الناجح هو الذي يعيد دمج الخلفية بالمقدمة، ويقع على أو يرجع إلى التحقيق في أفعال الأفراد والأفعال الجماعية وبهذه الطريقة فقط يمكن التغلب على الانقسامات الموجودة في

المجتمعات المعقدة بأن يتم التغلب عليها في الأداء من خلال: (١) التمديد الثقافي للتمثيلات ذات الخلفية وترجمتها في نص أمام الجمهور(٢) التجانس النفسي والعاطفي للجمهور مع الأداء وترجمتها للتمثيلات الخلفية كنص. وبهذا تدور نظرية ألكسندر حول خطوات وإستراتيجيات الفاعلين في إعادة دمج الثقافة بنجاح في أثناء قيامهم بالأداء الخاص بهم، وسأتعرض لبعض الافتراضات الأساسية التي طرحها.

افتراضات عن الفاعلين والأداء Assumptions About Actors and Performances

افترض ألكسندر أن الفاعلين تدفعهم المصالح الأخلاقية، وأنهم يسعون إلى إحضار كل من التمثيلات ذات الخلفية الثقافية ونصوص الثقافة لمقدمة الفعل والتفاعل مع الجمهور، ولإدراك هذا الهدف الأساس، تؤكد القواعد التي وضعها ألكسندر على العديد من خصائص الدمج الرئيسة، وهي:

١- يُحَوِّل الفاعلون التمثيل الخلفي للثقافة والسيناريو إلى نصوص تترجم وتفسر تلك العناصر الخلفية الثقافة.

٢- لتقديم أداء ناجح يجب على الفاعلين أيضًا تحقيق تركيز فكري، أو نوع من الارتباط العاطفي بالنص مثلما تم ترجمته.

٣- مع تفسيرات التمثيلات الخلفية والنصوص المتكافئة عاطفيًا، يكون الفاعلون في وضع أفضل للمشاركة في التمديد الثقافي للنص أمام الجمهور، وفي حال نجاحهم، سيتجانس الجمهور نفسيًا مع الأداء وما يتضمنه من نص وسيناريو وتمثيلات خلفية.

٤- في تحقيق الأداء أمام الجمهور يحدد الفاعلون دائمًا وسائل إعادة الإنتاج الرمزي، أو المقدمة والدعائم المتوفرة للأداء.

٥- يحتوي العرض الدرامي للنص على إيماءات جسدية ولفظية على المِنَصّة؛ حيث تُستَخْدم الدعائم لتعزيز الأداء.

٦- يتقيد الأداء مثل جميع الأفعال بالسلطة، التي تمكنه من تعيين، وتحديد وتسهيل الوصول إلى النص، بالإضافة إلى إتاحة المنصات، ودعائم الإخراج، والفاعلين الذين يمكنهم المشاركة في الأداء، والجمهور الذي يمكن للفاعلين الوصول إليه من خلال تفسير وترجمة العناصر الثقافية إلى نصوص.

كما هو واضح تكون الاستعارة التمثيل أساسية للبراغماتية الثقافية، التي قد تجعلها جزءًا من التمثيل المسرحي. وزيادة على ذلك توجد التمثيل المسرحي تأكيدًا على العناصر الإستراتيجية من حيث كيفية التوجه نحو: (أ) الوصول إلى أو تحقيق التمديد الثقافي أمام الجمهور. (ب) الوصول بأفراد الجمهور إلى التجانس مع الأداء والنص الثقافي.

التحديات والإستراتيجيات التي تواجه أداء الموظفين

Challenges and Strategies Employed in Performances

دائمًا ما يطرح الدمج تحديات تقود الأفراد بدورها نحو تبنِّي إستراتيجيات مختلفة لتحقيق امتداد ثقافي، وتجانس الجمهور مع الأداء، وما يتضمنه من نص على النحو الآتي: أولًا: من أجل تقديم أداء ناجح؛ لا بدَّ من تشكيل سيناريو يعمل على تركيز المعاني ذات الخلفية الثقافية، ويشدد على هذه المعاني بطرق تسهل الأداء الفاعل. وضع ألكسندر قائمة بالعديد من التقنيات التي تُستخدم للقيام بذلك: (أ) كالتبسيط المعرفي للتمثيلات الخلفية؛ بحيث لا يحتاج الجمهور إلى التعامل مع الكثير من التعقيدات. (ب) ضغط الزمان والمكان الذي يعمل على تداعي العناصر في الزمان والمكان؛ بحيث يتم إبراز العناصر، وجعلها أقل اعتمادا على تفسيرات السياق. (ج) التصارع الأخلاقي؛ حيث يتم إظهار التمثيلات على شكل ثنائيات مثل الخير في مقابل الشر، والصراعات ضد الأعداء، والتحديات التي يجب أن تتغلب على العقبات. (د) الانعطافات والالتواءات في مسار الخطة التي تُبقي الجمهور منهمكًا ومنشغلًا.

ثانيًا: يتضمن إعادة الدمج لسيناريو فعل وأداء؛ حيث يتحرك الفاعلون في المكان ويتحدثون فيه، وتكون هذه العملية أكثر جذبًا للمشاركة عندما يترك كاتبو السيناريو مجالًا للاختراعات والاجتهادات الدرامية، وعندما يسمح مخرجو الأعمال التي تحدث على المسرح ببعض الرخص الدرامية للفاعلين. فعندما يُنظّم السيناريو والإخراج والعَرْض بإحكام شديد، يظهر الأداء على أنه جامد ومصطنع وأقل جذبًا للمشاركة، إلا إذا تم النظر للفاعلين على أنهم يظهرون للجمهور بشكل صادق عناصر خلفية للثقافة مشحونة عاطفيًا.

ثالثًا: دائمًا ما يحتوي إعادة الدمج على استخدام السلطة الاجتماعية التي يجب أن تجمع على الأقل في ثلاثة مظاهر، هي: (أ) تخصيص وسائل إنتاج رمزية ذات صلة مثل: الأماكن والمنصات

المناسبة؛ حيث يمكن للأداء أن يكون أكثر فاعلية، ويتم توصيله إلى الجمهور المناسب. (ب) تخصيص وسائل توزيع رمزية؛ حيث يمكن للتمثيلات الخلفية أن تكون مؤمنة، ويتم توزيعها على الجمهور بعد ذلك من خلال الأداء. (ج) تخصيص بعض الرقابة على الجدال والنقاش والانتقاد اللاحق للأداء.

رابعًا: دائمًا ما يكون الفاعلون في وضع من إعادة الدمج المزدوج، فعليهم التواصل مع النص ومن ثم، مع الجمهور، ويُعدُّ تقديم الأداء الذي يبدو طبيعيًا، بوصفه جزءًا من التدفق المستمر للموقف، هو أفضل الطرق للنجاح في إعادة الدمج المزدوج، في حين أن الأداء المفكك يعمل فقط على زيادة حدة عملية إعادة الدمج، وتتفاقم هذه المشكلة في المجتمعات المعقدة؛ حيث يلعب الأفراد أدوارًا مختلفة في سياق اجتماعي مختلف للغاية. وفي ظل هذه الظروف، يكون من الصعب تقديم أداء طبيعي على جميع المنصات بدلًا من المفكك نوعًا ما؛ ونتيجة لذلك، سوف تفشل إعادة الدمج، أو تفشل جزئيًّا؛ مما يقلل تمديد الثقافة وتجانس الجمهور.

خامسًا: هناك تحدٍّ في إعادة دمج الجمهور مع النص الأدائي؛ لأنه، في المجتمعات المعقدة، غالبًا ما يكون الجمهور أكثر تنوعًا، وأكبر حجمًا، ومنفصلًا في الزمان والمكان عن الفاعلين، كما هو الحال خصوصًا مع الأداء الذي يقدم من خلال وسائل الإعلام المختلفة. وفي الواقع أن الذي يخص الجماهير والمنصات في المجتمعات المعقدة له متطلبات كثيرة على عاتق الفاعلين والمخرجين وكُتّاب السيناريو للنجاح في تقديم أداء فاعل. وتُعد بعض الإستراتيجيات التي تم وضعها في القائمة أعلاه مثل: التيسير المعرفي، وضغط الزمان والمكان، والتصارع الأخلاقي، والانعطافات والالتواءات وهي مجموعة واحدة من وسائل التغلب على المشكلات الخاصة بالجماهير الأكبر والأكثر تنوعًا وانفصالًا. وتقوم هذه الإستراتيجيات بتسهيل النص والأداء، وتقلل التزامهم بالسياق إلى حدٍّ ما، وتفسرهم أخلاقيًّا، وتجذب المشاركة إليهم بطرق تعمل على تمديد الثقافة للجمهور، وجذبهم عاطفيًّا إلى حدّ التجانس مع الأداء والنص.

لماذا البراغماتية؟ Why Pragmatics ?

لقد ذكر ألكسندر حجته بشكل تجريدي، من دون إعطاء أمثلة، والغرض من النظرية التأكيد على دمج العناصر بالخلفية الثقافية. واعتبر أن الأداء عملية عامة وشاملة، ويكون أكثر صعوبة

وتحديًا في المجتمعات المعقدة المتباينة إلى حد كبير، كما تصبح مشكلات الاندماج أكثر صعوبة بالحجم الأكبر في المجتمعات المعقدة، حيث لا تستطع الخلفية الثقافية للمجتمع الاندماج مع أداء الفاعلين. ولقد كان الأداء في المجتمعات البسيطة المتجانسة في الماضي مندمجًا بشكل طبيعي، ولكن مع التعقيد يجب حدوث نشاط لإعادة الدمج من خلال أداء تمثيلي. ويمكن لهذا الدمج أن يحدث في العديد من المستويات المتنوعة وبين أنواع مختلفة من الأطراف الفاعلة، وربما تكون هذه العملية أسهل على مستوى المواجهات في التفاعل المباشر، ولكن إذا كان المتفاعلون بعضهم غرباء عن بعض ومن خلفيات مختلفة، سيكون التفاعل صعبًا ومصطنعًا لأن السيناريو، والإخراج والعرض، واستخدام الدعائم، والتمثيل أمام الجمهور يعتبر مفككًا وغير واضح. وعلى النقيض توجد التفاعلات التمثيلية التي تقوم بها الجهات الفاعلة كالسياسية والاقتصادية والدينية أمام جمهور عريض من خلال وسائل الإعلام. وهنا توجد نفس المشكلات. فيواجه الفاعلون جمهورًا كبيرًا ومتنوعًا وغير متصل جزئيًّا، بينما يجب على السيناريو والأداء والنص والإخراج أن يجذب بطريقة ما مختلف الجماهير التي يُطلَب منها التجانس عاطفيًّا مع الأداء والنص الذي يمثل أمامهم. ويستطيع عدد قليل نسبيًّا من الفاعلين النجاح في هذه في الأوساط العادية. فبالرغم من قدرة الممثلين الجيدين في الأفلام وعلى خشبة المسرح غالبًا ما ينجذب الجماهير لأدائهم، إلا أن هذه العروض الناجحة تُسلط الضوء فقط على صعوبة هذا الفعل في مواقف الحياة الحقيقية، وفي وسط مواجهات الأفراد وعروض وسائل الإعلام توجه الأداء على جميع المستويات المتداخلة للمجتمع، والجماعات المنظمات، والاجتماع المدني، والمحاضرات، والمسيرات، والفعاليات الاحتجاجية، والثورات، وغيرها من المنصات[٢٧](٢٧)؛ حيث يواجه الفاعلون جمهورًا من مختلف الأحجام والخلفيات، وحيث يجب عليهم تقديم أداء يمدد الثقافة ويجذب الجمهور نحو الأداء والنص؛ كي يتجانسوا عاطفيًا مرة أخرى. ويستطيع فقط عدد قليل نسبيًّا من الفاعلين النجاح في هذه الأنواع من

---

(٢٧) على سبيل المثال ، تكشف عناوين الكتب التالية التي كتبها ألكساندر أن المزيد من التأثيرات على مستوى الاقتصاد الكلي لديناميات الأداء الثوري :المؤثر في مصر: مقال عن السلطة الثقافية (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد ، ٢٠١١م) ؛ أداء السياسة: فوز أوباما والنضال الديمقراطي من أجل السلطة (نيويورك: مطبعة جامعة أوكسفورد ، ٢٠١٠م) ؛ أداء السلطة (كامبريدج: المملكة المتحدة، ٢٠١١م).

الأداءات، وتحقيق إعادة اندماج كامل، بيد أنه يعتمد بقاء المجتمعات المعقدة على درجة معينة من النجاح في مثل هذا الأداء.

وهكذا، يكون الأداء الطقوسي الذي يربط الجمهور بالنصوص التي تترجم التمثيلات للخلفية الثقافية وهي صورة رئيسة ديناميكية، من وجهة نظر ألكسندر في جميع المواقف الاجتماعية، إلا أن العديد من المواقف في المجتمعات المعقدة تكون مجزأة؛ لأنها خضعت لقلة اندماج كنتيجة طفيفة للتدرج والتمايز الاجتماعي، وفي المواقف قليلة الاندماج، تصبح أهمية طقوس الأداء أكثر وضوحًا من أي وقت مضى؛ لأن الأداء ليس آلية، ولا يُكشف بسهولة. وسواء كان أحد الأشخاص في مواجهة ما يقوم بكتابة السيناريو، وترجمة التمثيلات الخلفية في نصوص، وتخصيص مِنصَّات أو دعائم، وتقديم الأداء لمجموعة كبيرة من الفاعلين يقومون بتنسيق الكتابة، والإخراج، والعرض، والتسويق، وتأمين الممثلين والجماهير، فستكون الديناميات هي نفسها، بالإضافة إلى كونها تؤدي دورًا بالغ الأهمية في تكامل المجتمعات.

ومن شأن وجود برنامج قوي في علم الاجتماع الثقافي يجعل الحاجة إلى القيام بالتمثيلات للخلفية الثقافية إلى مقدمة المسرح مسألة حاسمة، واحتاج الأداء الطقوسي إلى عمل افتراضات ثقافية ملحوظة، وذات صلة بالجماهير لتكون موضع تقدير، وبالتالي يتم تنظيرها.

نظرية ألان فين للثقافة النموذجية

Gary Alan Fine's Theory of Idioculture

لعدة سنوات كان جارى ألان فين (Gary Alan Fine) من أقوى المؤيدين لوضع تصور للجماعات كبناء مهم ذي مستوًى متوسط، يتوسط التفاعلات بين الأشخاص من جهة، وكبناءات على مستوى الوحدات الكبرى والأكبر عمومية مثل المجالات المؤسسية من جهة أخرى. وتُعطى الجماعات قوة للتفاعل من خلال توفير مجال واسع للتفاعل مع البناء الثقافي المشترك، ويشتمل على عناصر ثقافية من البناءات الأكثر عمومية، إلا أن الأهم من ذلك هو أن التفاعل يوَلِّد ثقافة لا تقوم فقط بتنظيم العلاقات داخل تفاعلات المستوى المتوسط في الجماعات، ولكن تستطيع أيضًا أن تمتد هذه الجماعات عبر الشبكات إلى جماعات أخرى على البناء الاجتماعي؛ لتصل إلى تشكيلات بنائية

على مستوى الوحدات الكبرى. وفيما يخص رأيه حول عمل الجماعة الثقافية [٢٨] فقد جمع فين أفكارًا تم تطويرها في العديد من المقالات. في حين لم تكن النظرية متكاملة بشكل قوي، إلا أنها كانت بالغة التذكير، وتُضيف كثيرًا إلى إحياء التنظير الثقافي في علم الاجتماع.

ما معنى الأفكار الثقافية؟ What Is Idioculture?

من وجهة نظر فين فإن الخصائص المحددة للجماعات تمثل تطويرًا لثقافة نموذجية، تتكون من نظام من المعرفة، والمعتقدات، والسلوكيات، والعادات التي يتشارك فيها أعضاء جماعة التفاعل، والتي يمكن للأعضاء الرجوع إليها، وهي بمثابة الأساس للمزيد من التفاعل[٢٩]. وتقوم الجماعة وثقافتها بجعل شرائح التفاعل أكثر تماسكًا. وبذلك، تظهِر الجماعات عددًا من الخصائص المهمة، ومنها:

١- السيطرة الاجتماعية: حيث تقوم الجماعات بإخضاع الأفراد لمعايير اجتماعية موفرة من خلال آلية مهمة للسيطرة الاجتماعية، بينما تنخرط أيضًا في مراقبة وإقرار مطابقة المعايير المجتمعية، مضيفةً بذلك شكلًا آخر من أشكال السيطرة الاجتماعية. وإذا قامت الجماعات بتطوير اختلافات في القوة والسلطة داخل مواقع المكانة، ستُضيف جماعة ثالثة من آليات الرقابة الاجتماعية.

٢- التحدي: حيث توفر الجماعات مجالا يتم من خلاله تطوير هذه المعايير الثقافية النموذجية وتغييرها إذا لزم الأمر، وتدعم الجماعات التزاماتها نحو أيديولوجيا وأطر من أجل التغيير. وفي الحقيقة تُعدُّ الجماعات هي موضع التعبئة الجزئية للتغيير الذي إذا امتد عبر الجماعات ووصل إلى المنظمات. فقد يتحول إلى التعبئة على مستوى الوحدات المتوسطة والوحدات الكبرى للتغيير، فيأتي التغيير -إذن- من سلطة الثقافة الخاصة بالجماعة لتطوير التزاماتها نحو الأيديولوجيات الثقافية التي يمكن أن تصبح نقطة انطلاق لقدر كبير من التعبئة للتغيير.

---

(٢٨) غاري ألان فين، مجموعة الأفراد: نظرية تفاعل الجماعة والثقافة (نيويورك : روزيل ساقز ٢٠١٢م).

(٢٩) المرجع نفسه، صفحة ٨.

٣- التمثيلات وتوفر الجماعات مساحات لتطوير وتخصيص وتفسير المعنى والأهداف التي تحمل المعاني، فتنشأ الثقافة ضمن الجماعات، ويستخدم الناس مواردهم الثقافية لخلق معانٍ رمزية وأيديولوجيات تمثل الجماعة. ويمكن لهذه الأنظمة من الرموز أن تنتشر من البناءات الأكثر كلية وثقافة، أو تتولد من التفاعلات، ولكن في كلتا الحالتين، تصبح هذه العناصر الثقافية تمثيلات لكل من الأفراد والجماعة، كما يمكنها في الغالب أن تصبح رموزًا تعمل كطواطم لتمثيل ثقافة الجماعة التي تؤكد الأداء الطقوسي بالتزامات الجماعة والتمثيلات نحوها.

٤- التخصيص فالجماعات تمثل الوضع الذي يتداول الناس المواقع من خلاله في ترتيب المكانة، وغالبًا ما يكون ترتيبًا هرميًّا، وبذلك تشتمل ثقافة الجماعة على تقييمات، وتوقعات للمكانة داخل الجماعة، وبشكل عام داخل المجتمع ككل.

وهكذا تقوم عمليات السلطة الاجتماعية، والتحدي، والتمثيلات، والتخصيص بالعمل بين الجماعات؛ حيث تعمل الثقافة الناشئة على إعطاء التضامن للجماعات من أجل التفاعل، علاوة على أنها تعمل أيضًا على تصفية الثقافة الناشئة من الجماعات الأخرى أو من التشكيلات الأكثر كلية فيها، كما تقوم بتغيير ثقافة الجماعات التي تستحوذ على الناس على مستوى الجماعة بما تفرضه من التزامات لها عواقب ليس على أعضاء الجماعة فقط، ولكن أيضًا على الأنواع والمستويات الأخرى للبناء الاجتماعي والثقافي في المجتمع.

ديناميات الثقافة النموذجية The Dynamics of Idioculture

بمجرد أن يتفاعل الناس، فإنهم يولدون ثقافة نموذجية بهم من خلال الاستفسار عن الخلفية الثقافية والمعرفية، والعمل المشترك، والتحدث والتساؤل المتبادل لبعضهم البعض في أثناء التفاعل الإيجابي، وعن طريق اقتراح قواعد وآراء ومعلومات، فإنهم يبدؤون في خلق صفة مهمة للجماعة: كالتاريخ، أو ما أسماه راندال كولينز (Rand all Collins) برأس المال الثقافي الخاص. وهكذا يتم إيجاد الثقافة والتحدث عنها وطرحها على مساحة تسمح للأفراد بالتفاعل من خلالها،

وكلما أوجدت الجماعة مكانًا ومساحة بنيوية للتفاعل أصبحت الثقافة النموذجية واضحة بين المتفاعلين.

وتُعدُّ هذه الديناميات جوهر الثقافة، ولهذا السبب فإنها تعتبر هذه الجماعات مهمة للتنظير عن عناصر الثقافة؛ لأن هذا هو الموضع الذي يصنع فيه الناس الثقافة وحصر المعاني والمفاهيم، كما تعتبر الجماعات صلة الترابط للوساطة بين العناصر الثقافية من البناءات الأكثر كلية وتفاعلًا بين الأفراد في سياق محدد، وبالتالي تبنى الثقافة الخاصة من خلال سلسلة من الديناميات الأساسية، ومنها ما يلي:

١- المعرفة المعلومة: حيث يقوم الجماعات بتقديم وتقييم معرفتهم المعلوماتية، فلا يمكن للثقافة النموذجية أن تنشأ أو تتطور دون وجود هذه المعرفة المهمة؛ حيث يتم تقديم المعرفة الخاصة للمتفاعلين.

٢- استخدام عناصر الثقافة النموذجية: وذلك بأن الأفراد يقيّمون الاستخدام لهذه المعرفة الثقافية، وغالبًا ما يكون عن طريق التفاوض حول معرفة ماهي العناصر الثقافية النموذجية التي يمكن لأعضاء المجموعة استخدامها؟

٣- الأداء الوظيفي: على الأعضاء تقييم عناصر الثقافة النموذجية بمساعدة المجموعة لتحقيق أهدافهم وتسهيل بقائهم واستمرارهم. فالأداء الوظيفي يمثل عملية الاختيار لنوع الوظيفة التي تسهل على الأعضاء التقييم والتفاوض لأيٍّ من عناصر هذه الثقافة للمحافظة على استمراريتها في البيئة المناسبة لها.

٤- الملاءمة: يقوم الأفراد أيضًا بتقييم مدى ملاءمة الثقافة للبنية والأنماط لأعضاء الجماعة. وهل تعارض عناصر الثقافة النموذجية جماعات التنظيمات القائمة؟ أم هل تتوافق هذه العناصر مع نظام الوضع القائم للثقافة؟

٥- انطلاق الأحداث: فعندما توجد نزعات قصور ذاتي مع الثقافة النموذجية في الجماعات، فإنه يمكن للأحداث أن تؤدي إلى تقديم عناصر جديدة للثقافة، وهكذا يمكن إدخال الأحداث في العمليات المُقترحة في (٢، ٣، ٤) أعلاه؛ حيث يقوم الأفراد بإعادة تقييم ما يصلح استخدامه، وما هو وظيفي وما هو ملائم للجماعة.

التضمين والقيود Embedding and Constraints

توجد الجماعة في بيئة من البناءات الاجتماعية والثقافية، وهذا عكس تصور العديد من المنظرين، فقد أقر فين إنشاءه على مستوى الوحدات الكبرى والمتوسطة ومستوى الوحدات الصغرى وثقافتهم، وأقر أيضًا أن تشكيل البناء الكلي، والثقافة الكلية يبنى عليها بناء الجماعة الصلب الذي يدعم تفاعلاتهم، فيكون لديهم قوة بمنزلة مكونات أساسية لنظم ثقافية اجتماعية ذات نطاق واسع، وهكذا يعمل التضمين في بناء أوسع كقيد للمجموعات يمر من خلال بُنى ثقافية خاصة أوسع، ويعتبر هذا شيئا ظاهرا، وميزة عنيدة في بيئة الجماعة، لكنه أيضًا تصورات الجماعة المبنية من أعضاء الجماعة الذين يقومون بتقييم تلك القيود.

وهذه القيود تعمل من خلال: (١) قيود مادية تقيد حركات وأفعال أعضاء الجماعة. (٢) قيود زمنية للحد من حدوث أنواع عديدة من الأفعال في أوقات مختلفة. (٣) قيود مكانية حيث يمكن لهذه الأفعال أن تتواجد فيها. (٤) قيود مؤسسية تفرضها شبكات للجماعات الموجودة في المنظمات التي تشكل معظم المجالات المؤسسية. (٥) الأعباء التقليدية وهو عبء الماضي على الحاضر بما تحمله هذه الجماعات من التقاليد الثقافية، والقيود البنيوية والتضمين المؤسسي المدرَج تحت (٤) أعلاه. (٦) القيود التي تفرضها الأولوية التنظيمية عندما تصبح المنظمات مُجسّدة كأدوات تفرض نفسها على عمليات المجموعة؛ بسبب تضمينهم في المجالات المؤسسية التي تستدعي سلطة القيود الأخرى، ولكن بصفة خاصة، كالمدرج تحت (٤) و(٥) أعلاه.

الثقافة في الفعل والأداء
Culture in Action and Performance

المعايير هي التوقعات السلوكية، ولكن بسبب احتوائها دائمًا على عنصر التقييم؛ تُعدُّ أيضًا أداة لكيفية تقييم الأفراد بعضهم لبعض. وقد استعار فين من إرفنج غوفمان (Erving Goffman) أفكار الإطار والتأطير التي تفرض القيم المشتركة، والدوافع سهلة التمييز، والتوقعات المعيارية للسلوكيات. ويُفسِّر هذا التأطير المعايير أخلاقيًّا، ويجعلها هدفًا للمعاني الخاصة. ويؤكد فين أن الأفراد لا ينصاعون كثيرًا إلى المعايير من حيث أدائها، ولكن يتم النظر إلى المعايير بالطرق التي ينسق الأفراد من خلالها سلوكياتهم في أدائها في مواقف معينة، ولا يقتصر الأمر على أداء الأفراد للمعايير،

بل في أحاديثهم أيضًا عندما يشيرون إلى ما هي المعايير؟ وماذا يحدث عند انتهاكها؟. وفي الواقع عادة ما يتم التحدث عن المعايير وتحويلها إلى قصص تحتوي على رسالة أخلاقية حول لماذا تكون المعايير مهمة ولا يمكن انتهاكها؟ وهكذا تُعدُّ المعايير جزءًا من الروايات الثقافية.

ويتم التفاوض على المعايير حيث يسعى الأفراد إلى تحديد ما هي المعايير التي تكون ذات صلة في الجماعة، ويتم تقييد هذه المفاوضات من خلال الموقف البنيوي، أو المشهد الذي يحدث فيه التفاعل الذي يتضمن الجماعة، وتوجد قيود زمنية أيضًا للمفاوضات، والتي يجب أن تمد بفاعلية في الوقت أو، إذا لزم الأمر، فقد يتم تعديلها وإعادة تكوينها إذا تغيرت الأحوال في المكان والمساحة، واحتاج البناء الاجتماعي الأكبر إلى تغيير في المعايير.

والأيديولوجيا هي مجموعة مرتبطة بالمعتقدات والنظام الاجتماعي والسياسي الذي يتشاركه أعضاء المجتمع، وتحتوى هذه المعتقدات على مستوًى عالٍ من المحتوى الأخلاقي والتقييمي الذي يشير إلى الكيفية التي يجب على الأفراد التفكير فيها، والتصرف من خلالها في المواقف. ويلتزم الأفراد بمثل هذه المعايير والأيديولوجيات في أدائهم. ويمكن التأكيد بأنه إذا كان المطلوب والتغيير للنظام الأخلاقي الذي تحدده القيم والأيديولوجيات والمعايير، ستكون الأيديولوجيات سلوكية، ولكنها أيضًا صور للنظام الأخلاقي، وتكتسب الأيديولوجيات قوة فاعلية عندما: (١) يُمكِن للمشهد الخاص أو السياق المكاني أن يرتبط بشكل كبير بالمصالح الأخلاقية الواسعة للأفراد. (٢) تُحدِّد الصور المرتبطة بالمعتقدات ما هو جيد ومناسب، وذلك فقط، عند توفير إرشادات لكيفية اتخاذ القرارات والشروع في الأعمال. (٣) يكون الموقف الذي يتم فيه استدعاء الإيديولوجية ذات الصلة الكبيرة بالمشاركين في الجماعة.

ومثل المعايير تكون الأيديولوجيات ليست مجرد شيء للامتلاك، بل شخصية للأفراد، ومشتركة مع الآخرين في الجماعة. وعلى هذا النحو، تصبح سمة مميزة للفاعلين، ولعلاقاتهم المشروعة بالفاعلين الآخرين، وللموارد وتقديمات الفاعلين الفردية أو المجتمع ككل. وتُوفِّر الجماعات المجال الذي تدور حوله هذه العمليات المشروعة، وتتضمن:

١- تحديد الهوية التي تعمل الأيديولوجيات من خلالها على تعزيز تحديد هوية الذات، بجانب المجموعة أو المجتمع الذي يتم سن الأيديولوجية فيه، وكجزء من المفهوم القائل بأن الأشخاص والجماعات تحظى بذواتهم، وتصبح الأيديولوجية قادرة على ممارسة سلطة مؤثرة.

٢- الطقوس. تُمثل الأيديولوجيات اتجاهًا واحدًا لتغلب الجماعة على المشكلات السلبية، في حين يستمتع الأشخاص بالفوائد الناتجة من تفاعل الجماعة دون أن تكبدها التكاليف الإلزامية، وتعتمد هذه السلطة في الحد من هذه السلبيات في أداءات طقوسية للفاعلين مؤكدةً من جديد على أن المبادئ الأخلاقية للأيديولوجية بشكل علني، وبالتالي الإسهامات الضرورية في استمرارية الثقافة وثقافة الجماعة.

٣- تعبئة الموارد: دائمًا ما ترتبط الأيديولوجيات بالموارد وبالجهود؛ لتأمين موارد لازمة لاستمرارية أو تغيير الجماعات، وربما أيضًا الجماعات الأخرى وحتى المجالات المؤسسية. ومن خلال تشجيع الطقوس للتأكيد على النظام الأخلاقي تستطيع الجماعات تجنيد أعضاء جدد، وحتى الموارد المادية اللازمة لتحقيق أهداف الجماعة.

وتمارس الأيديولوجيات الكثير من سلطتها من خلال استثاره العواطف، ويشعر الأفراد بالأيديولوجيات، وتثير هذه العواطف الأفراد للمشاركة في الطقوس والعمليات الأخرى المشروعة اللازمة للاستمرارية أو حتى تغيير الأيديولوجيات. وتُقيَّد قرارات الأفراد أيضًا بالالتزامات العاطفية التي يشعر بها الأفراد تجاه أيديولوجية ما، وتُحدِد هذه القرارات، بدورها، التشريعات السلوكية في الجماعة. وحيث يشارك الأفراد في الأداء الطقوسي لإعادة التأكيد على المبادئ الأخلاقية للأيديولوجية، تثير هذه الأيديولوجيات العواطف التي تربط الناس بالنظام الأخلاقي للجماعة، وتبني مجتمعًا أكثر بعدًا مرتبطًا بالجماعة.

انتشار الثقافة The Diffusion of Culture

عادةً ما يتم ربط الجماعات ببعضها البعض من خلال الشبكات وبين الأفراد في مختلف المجموعات، أو مجموعة الشبكات نفسها، كما تربط الميادين المؤسسية بالجماعات معًا، وغالبًا عن طريق المنظمات التي تم بناؤها في نهاية المطاف من جماعات، وحيث تخرج الثقافة عن امتداد الشبكات لتشمل جماعات أكثر. فإذا تم توليد ثقافات فرعية في المجتمع، وبما أنه يمكن للثقافة أن تكون بمثابة

آلية لتأمين الموارد، فيمكن لثقافة المجموعة عند خروجها من أصولها وانتشارها في مجموعات أخرى أن تقوم بتوليد ليس فقط ثقافات فرعية، بل مجتمعات فرعية تتكون من مجموعات مترابطة. ويُوضِّح فين عددًا من الآليات التي من خلالها تنتشر الثقافة الخاصة من الجماعات المحلية إلى جماعات أخرى، وربما إلى بِنًى ذات مستوًى أكثر كلية وثقافة.

وتعدُّ عضوية الأفراد في الجماعات المتعددة إحدى الآليات لامتداد ثقافة الجماعة. فدائمًا ما يَكُون الأفراد في المجتمعات المعقدة أعضاء في جماعات مختلفة، وحيث إنهم يشغلون مواقع مكانية ويلعبون أدوارا في الجماعات المختلفة، فإنه يمكنهم أيضًا اجتذاب ثقافة جماعة كل واحدة إلى أخرى، علاوةً على تطور هويات الأفراد حول مكانتهم في الجماعات، فإن الاتصال بين الهوية والثقافة يعني أن هذه الهوية سيتم غالبًا حملها لجماعات أخرى؛ مما يؤدي إلى اجتذاب ثقافة جماعة واحدة إلى أخرى من خلال أسلوب غير مباشر. وتوجد آلية ثانية في أنظمة الروابط الضعيفة بين الأفراد و الجماعات المتنوعة، حيث تقوم الروابط الضعيفة أيضًا بإضعاف الحدود بين مَن تربطهم صِلات ضعيفة؛ ونتيجة لذلك يمكن للثقافة أن تسير باتجاه هذه العلاقات ذات الرابطة الضعيفة مع عدم مواجهة مقاومة كبيرة من الجماعات. وعلى العكس من ذلك إذا استمر التضامن من خلال وجود روابط قوية بين أعضاء الجماعة، فإن هذه الروابط ستُقاوِم انتشار العناصر الثقافية الجديدة، وثالثا: عندما يكون الاتصال بين الجماعات من خلال فاعلين ثانويين أو فاعلين أقوياء في موقف واسطة كالوقوف بين جماعتين وإدارة تدفق الموارد، لا سيما أن هؤلاء الفاعلين يمثلون فجوات كبيرة في الشبكة بين الجماعات، مهيئين من خلالها قنوات ثقافية تقوم بالسفر عبر المكان الموجود بين الجماعات، كما تسمح وسائل الإعلام في المجتمع ذي الروابط الضعيفة بانتشار الثقافة من جماعة إلى أخرى. وتُلازِم الآلية الرابعة بعض الأدوار التي بحكم طبيعتها تتجاوز حدود المجموعة، وتجتذب أدوارا مثل المـُحاضِر والبائع، وتجمع أدوار الواسطة ثقافة جماعة إلى أخرى فقط عن طريق عملية لعب الدور في مواضع متنوعة. والآلية الخامسة: تتمثل في أساليب الاتصال بين الجماعات؛ فبعضها يكون على شكل تسلسل هرمي، مثل امتلاك جماعة سلطة على أخرى، بينما تكون الأخرى في وضع أفقي أكثر حيث يتبادل الجماعات الموارد. وفي كلتا الحالتين، تنتقل ثقافة مجموعة إلى أخرى. وتتمثل الآلية السادسة بالتضمين؛ حيث يتم من خلالها استقرار الجماعات داخل المجتمعات أو المنظمات؛ وبالتالي تتعرض

لثقافة البنية الأكثر شمولية، بينما يجب على البنية الأكبر توفيق ثقافتها مع ثقافة الجماعة المكونة لها. ويؤكد فين أن هذه الميكانيزمات وغيرها تسمح للمجموعات وثقافتها بالبدء كبزوغ صغير ينمو من فطر ضخم[٣٠].

الجماعات والمجتمع المدني Groups and Civil Society

أكد فين أن الجماعات أو الجماهير الصغيرة هي جزء من المجتمع المدني التي تحمل ثقافته، فتُوفِّر الجماعات المكانة المجتمعية التي تُخفِّف من حدة الفردية والحرية، وتَكُون المكانة بناء على تشريع المجتمع المدني[٣١]. وكما يقول فين: إن الجماعات تحدد شروط المشاركة المدنية، وتُوفِّر الموارد اللازمة، وتربط التحركات تجاه ميادين ثقافية وسياسية أكبر[٣٢]، إضافة إلى ذلك غالبًا ما تُصبح الجماعات الناجحة مؤثرة على المجتمع المدني كنماذج لتشكيل جماعات مشابهة قد توسِّع وصول تأثيرها إلى الجماعات الأخرى في المجتمع، وتكون هذه الجماعات بُنًى أساسية لفهم ديناميات المشاركة المدنية بفضل التالي :

١ – وظيفة التأطير: وهي أن توفر الجماعات أدوات تفسيرية لفض وتأطير مشكلات وقضايا في سياق المجتمع الأكبر فيما يتعلق بالمعاني الداخلية للجماعات، وتستطيع هذه الأنشطة التأطيرية في الجماعة تسهيل المواءمة بين أعضائها، بجانب أعضاء الجماعات المختلفة، كما تستطيع أن تزيد من الأيديولوجيات الناشئة التي تتعلق بأهداف التعبئة لتغيير بعض جوانب المجتمع المدني، وتقوم هذه التعبئة من ناحية أخرى بتأطير السياق الداخلي داخل الميادين المؤسسية التي قد تتطلب تغييرًا.

٢– وظيفة التنظيم: كما لوحظ في وقتٍ سابق، تعمل الجماعات وأيديولوجياتها لجذب الموارد كالأعضاء الجدد، والموارد المادية والتنظيمية، والموارد الثقافية داخل الجماعة. وتمثل الجماهير الصغيرة مراكز الجاذبية للحياة المدنية من خلال اجتذاب الأفراد نحو الالتزام والمشاركة المدنية، ليس فقط عن طريق الأيديولوجيات التي قامت بتطويرها، بل أيضًا عن طريق الموارد التي يمكن أن

---

(٣٠) المرجع نفسه، صفحة ١٥٦.

(٣١) المرجع نفسه، صفحة ١٢٧.

(٣٢)المرجع نفسه، صفحة ١٢٨.

تجتذبها داخل الجماعة لدعم أهدافها. ودائمًا ما تكون السياسة، ومن جوانب داخلية، تكون الشبكات الداخلية بين العائلات والأصدقاء والزملاء هي مرحلة المشاركة، والروابط التي تجتذب الناس إلى الجماعات، والجاذبة لتعبئة الموارد.

٣- وظيفة إيجاد المواطنين: إن العواطف، والبنى المعرفية، والمعاني الثقافية التي تم توليدها في الجماعات ستنتشر خارجًا نحو أماكن اجتماعية كبرى، فتزيد من أعضاء الجماعة، وبذلك لا تزيد الجماعة فقط من إحساس هؤلاء الأعضاء بهوية الجماعة، بل تُنشئ هوية مرتبطة بجماعات أكبر، وبُنَى مدنية في المجتمع. وبهذا تزيد الجماعات من الالتزامات على المستوى الشخصي، وعلى مستوى الوحدات الصغرى، وعلى المستوى المتوسط للجماعة والتنظيمات، والمجتمعات التي تم تضمين المجموعة بها، وعلى مستوى الوحدات الكبرى للمجتمع بأسره وميادينه المؤسسية الرئيسة.

وهكذا توفر الجماعات قوة ليس فقط للمجتمع، بل أيضًا للحركات المجتمعية التي تُغير الثقافة وبنية المجتمع، وتُقدِّم الجماعات التفاعلات وجهًا لوجه، والأنشطة الطقوسية التي تشحن العواطف وتُزيد التضامن، وتصبح هذه العواطف وهذا التضامن سلعًا خاصة كمكافأة لأعضاء الجماعة، وتزيد هذه السلع من العواطف الإيجابية والتضامنية من التزامات الجماعة، وتعطي الجماعة السلطة على الأفراد، بينما ترصد في نفس الوقت أنشطة أعضائها، وتُقرّها إذا لزم الأمر. كما توفر الجماعة أيضًا موارد السمعة، والعضوية، ومواقع المكانة التي يُكافَؤ عليها أيضًا الأفراد؛ ونتيجة لذلك تُقيِّد الجماعات المشاركة دون الإسهام بشيء، بينما تزيد من التزامات الجماعات وأيديولوجيتها، وبذلك تصبح الجماعات لبنة بناء للتحرك الاجتماعي والتغيير، حيث يتم تمدد ثقافتها من خلال آليات الانتشار التي تم ذكرها سابقًا.

مركزية الجماعات للتحليل الثقافي The Centrality of Groups to Cultural Analysis

وضع فين (Fine) حجة قوية مختصرة قد يراها ألكسندر (Alexander) أنها برنامج ثقافي ضعيف؛ لأن الثقافات الخاصة مازالت تتعلق كثيرًا بالبنية الاجتماعية. وأكد فاين على أن الثقافة تمارس نفوذها؛ لأن الجماعات تمثل البنية اللازمة لتطوير ثقافات خاصة، والتزامات بهذه الثقافات؛

فمن خلال آليات ربط الجماعات يمكن للثقافة الانتشار خارجًا، وبالتالي تتوسع فرص التعبئة الأيديولوجية للتغيير الذي يبدأ مجددًا من خلال الجماعات في نهاية المطاف.

صراحة جوناثان تيرنر عن ضعف برنامج التنظير الثقافي
Jonathan Turner's Explicitly "Weak" Cultural Program

كانت معظم التحليلات الثقافية قبل نهضة البرنامج القوي في علم الاجتماع الثقافي، ضعيفة بلا جدال في معنيين اثنين؛ الأول: كان هناك جهد قليل لفصل البناء عن الثقافة، وبدلًا من ذلك، كان هناك تأكيد واضح على ترابطهم، دون وجود تمييز للإفصاح عما إذا كان البناء الثقافي هو الأكثر أولوية. الثاني: لم يكن الهدف الأكثر منها هو استخلاص طبيعة فريدة وقوية تجريبيًا لنظم رمزية ولكن، بدلًا عن ذلك، كان التأكيد على العناصر العامة التي دائمًا ما توجد عند بروز الثقافة في أي ظهور للسياقات البنيوية. وقد مثّل تحليل تالكوت بارسونز (Talcott Parsons' analysis) للثقافة من خلال نظرية العمل الوظيفي أحد أنواع البرنامج الضعيف، بينما كان التأكيد على أنظمة الأيديولوجية والفِكْر في نظرية الصراع التحليلي مثالًا آخر للبرنامج الضعيف (انظر: الفصل الثالث).وسواء ما إذا كان البرنامج القوي الذي اقترحه ألكسندر (Alexander) وزملاؤه فقط، بمنزلة تصحيح للتركيز القليل السابق على الثقافة كقوة في حد ذاتها يمكن مناقشته، ولكن حتى الاتجاه النظري لجارى ألين فين، (Gary Alan) المُستَمَد من مشاريع بحثية نوعية مُفصّلة للغاية ومتعمقة في الواقع يُعدُّ أقرب للبرنامج الضعيف عن القوي. كما توضِّح نظرية ألكسندر، فإنه بمجرد أن يكون التأكيد على النظرية التفسيرية بدلًا عنها التفاصيل التجريبية والتاريخية للثقافة، بأن تجمع النظريات لتصبح جزءًا من البرنامج الأضعف، كما سوف نوَضِّح ذلك عند تخليص النظرية الثقافية في الاستنتاجات.

وسأعرض الآن وجهة نظري حول الديناميات الثقافية؛ حيث يمكن تنظيرها، وسوف أستمد من الملخص أو الموجز عرضًا للتشكيلات البنائية الأساسية كمستويات مختلفة من التنظيم الاجتماعي في (الشكل ٩ ,٨) في (صفحة١٦٢) ؛ لتوضيح الشكل البديل من التحليل الثقافي لتظهر البنية الاجتماعية على ثلاثة مستويات، وهي المستوى الأصغر من (التفاعل وجهًا لوجه)، والمستوى

المتوسط من الوحدات المشتركة (كالجماعات، والمنظمات، والمجتمعات)، والوحدات المطلقة (كالتصنيفات الاجتماعية التي تحمل التقييمات والتوقعات)، ومستوى الوحدات الكبرى من (الميادين المؤسسية، والنظم الطبقية، والمجتمعات، ونظم المجتمع المتداخل) (انظر: الشكل ٩, ٨)، وأطلقت عليه اسم توزيع أشكال البِنَى الأساسية على ثلاثة مستويات من التكوينات الثقافية الاجتماعية الواقعية؛ لأن هذا هو بالضبط ما هم عليه. فهم بِنًى اجتماعية لنمط أساس مع ثقافة، وكما أرى يمكن وضع تصور لها من مصطلحات أكثر شمولًا؛ مما قد يسمح البرنامج القوي بذلك؛ أي أنه بغض النظر عن محتوى الثقافة الموجودة في هذه الأنواع الشاملة والعامة للبُنَى الاجتماعية على المستويات الثلاثة الأساسية (على مستوى الوحدات الصغرى، والمتوسطة، وعلى مستوى الوحدات الكبرى)، فإنه يوجد أيضًا أنواع عامة للنظم الثقافية اللازمة لعملهم.

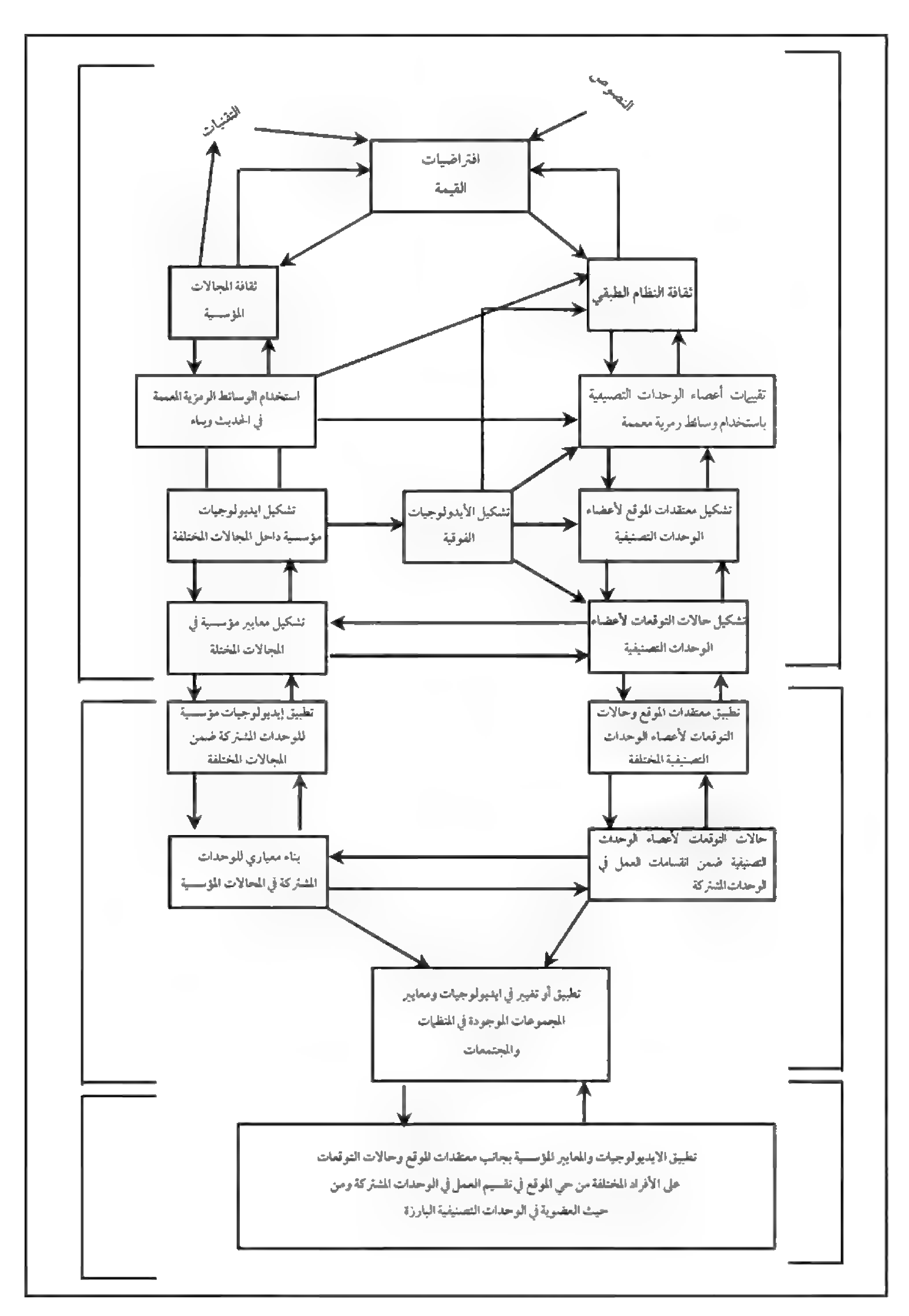
النموذج الضعيف للثقافة ومستويات التنظيم الاجتماعي

A Weak Model of Culture and Levels of Social Organization

من الواضح بمقارنة (الشكل ١, ٩) مع (الشكل ٩, ٨) في الصفحة ٢٣٠ فقد ربطت النظم الثقافية بالبنى الاجتماعية العامة ذات المستويات للوحدات الصغرى، والمتوسطة، ومستوى الوحدات الكبرى للواقع الاجتماعي. والغرض منه الإسهام للتأكيد على صِلات سببية معينة داخل وبين المستويات، حيث إنه في هذه الصلات تحدث ديناميات الثقافة من وجهة نظر تحليلية. ومن خلال التشديد على هذه الجوانب الثقافية، فقد قدمت فهم الأبعاد الأكثر أهمية للثقافة في كيفية عمل التكوينات الاجتماعية الثقافية وتفاعل بعضها مع بعض. وبطرق عديدة بالرجوع إلى النظريات التحليلية السابقة، وأقترحت أن ما يحتاجه توضيح العمليات الثقافية هو التيسير بدلًا عن البحث اللانهائي عن المعاني القوية والواقعية للثقافة في سياقها التاريخي الفريد. فالعرض الموجز داخل (الشكل ١, ٩) ليس للشرح، ولكنه للتوجيه لتطوير نماذج وافتراض لوصف الديناميات الثقافية، وفي هذا الاستعراض القصير يمكن إيجاد أعمال أخرى[٣٣].

---

(٣٣)جوناثان. تيرنر، المبادئ النظرية لعلم الاجتماع، المجلدان ١ و ٢ و ٣ (نيويورك: سبرينغر ٢٠١٠-٢٠١٢م).



الشكل(١,٩). مستويات الثقافة.

أن (الشكل ٩,١) للتأكيد من تضمين التشكيلات على مستوى الوحدات الصغرى ضمن التكوينات الاجتماعية الثقافية والمتوسطة في التكوينات الاجتماعية الثقافية الكبرى. بالنسبة الثقافة، هذا يعني أن افتراضات القيمة للمجتمع، حيث إنها تأثرت بالمستوى التكنولوجي والنصوص المتراكمة (تاريخ، تقاليد، فلسفة، عِلْم، وما إلى ذلك) للمجتمع، هي الأنظمة الأكثر عمومية للرموز الملائمة لفهم العديد من العمليات الاجتماعية الأساسية. وتم التأكيد على افتراضات القيمة؛ لأن هذه الافتراضات هي إلى حد كبير رموز ثقافية مجردة تدل على الصحيح (الخطأ، والمناسب -وغير المناسب) الذي يقيد جميع عناصر الثقافة الأخرى التي تؤثر على السلوك والتنظيم الاجتماعي. ويمكن للقيم أن تختلف بشكل كبير من حيث عددها، واتساقها مع بعضها البعض، ومستوى التوافق على المبادئ الأساسية بين أعضاء الأقليات المختلفة، وبالطبع، من حيث محتواها الفعلي، ولكن كقاعدة عامة، كلما زاد التوافق على القيم، سيكون تأثيرها على الأيديولوجيات والمعايير أكبر، حيث إنها تتطور على المستويين: مستوى الوحدات المتوسطة، ومستوى الوحدات الكبرى للتنظيم الاجتماعي.

وتمثل الأيديولوجيا قوة بارزة في جميع علوم الاجتماع الثقافي، ولكن تناول المؤلف أكثر التناغم مع الوظيفية المتجددة مما هو عليه الحال عادةً. فالأيديولوجيات هي معتقدات تقييمية مُستمَدة من المبادئ الأساسية لافتراضات القيم لتوضيح ما هو صحيح وصواب ضمن المجال المؤسسي، مثل الاقتصاد، والقرابة، والدين، والتعليم، والقانون، والنظام السياسي، والعلوم، والطب، وما إلى ذلك. وتُبنَى الأيديولوجيات من وسائط رمزية معممة تبدأ كوسائل لتنظيم الاتصال بين الفاعلين؛ حيث إن المجالات المؤسسية قد تم بناؤها أولًا، وتستخدم هذه الوسائط المعممة في الخطاب بين الفاعلين، وتتطور في نهاية المطاف إلى مواضيع أخلاقية عامة، وبمرور الوقت، تصبح مُنسقَة في أيديولوجية مميزة للمجال المؤسسي. وهكذا، تُصنَع القيم لتكون ملائمة للفاعلين بحكم تأثيرها على تشكيل الأيديولوجيات حيث إنها قد بُنِيَت من الوسائط الرمزية المعممة. وقد أدرج (الجدول ٩,٣) وسائط معممة لعدد من المؤسسات الرئيسة بطريقة تقريبية جدًا. وتمتلك الوسائط المعممة بعض الخصائص المميزة للغاية، هي: أولًا: شروط ووسائط للخطاب، لكنها لا تحمل دائما عناصر التقييم؛ لأنها مستمدة من افتراضات قيم أكثر عمومية. ثانيًا:

هي لبنة البناء للأيديولوجيات التي تتكون ضمن المجالات المؤسسية.ثالثًا: هي أيضًا مورد ذو قيمة موزع بشكل غير متساوٍ من خلال الوحدات المشتركة التي تُكَوِّن كل مجال مؤسسي، وعلى سبيل المثال يُعدُّ المال وسيطًا معممًا، لكنه أيضًا مورد ذو قيمه يوزع بشكل غير متساوٍ من قِبَل الوحدات المشاركة في الاقتصاد، والمجتمعات الحديثة في العديد من المجالات المؤسسية الأخرى. وتعدُّ السلطة الوسيط أو القادرة على البدء في الخطاب أو الحديث لبناء أيديولوجيات سياسية جديدة . وفي نفس الوقت، يعدُّ موردًا ذا قيمة يوزع بشكل غير متساوٍ على بين الطبقات ؛ وهكذا، تقوم الأنظمة الطبقية بالتوزيع غير المتساوي للمال، والسلطة، والتعليم، والصحة، والحب، الولاء، والتقوى، القدسية، والوسائط الأخرى، وتصبح هذه هي الموارد التي يتم توزيعها بشكل غير متساوٍ في النظام الطبقي، ولأن الوسائط الرمزية المعممة تحمل دلالات أخلاقية على أقل تقدير، والتزامات أخلاقية على أكثر تقدير؛ فدائمًا ما يكون لديها تأثيرات على كيفية تقييم الأفراد، وبخاصة أعضاء ما قد أسمته بالوحدات المطلقة، وبذلك، يتم تقييم جميع أعضاء الطبقات الاجتماعية المختلفة بالإضافة إلى التصنيفات الاجتماعية الأخرى، مثل: العرق، والجنس، والعمر، والانتماء الديني، وما إلى ذلك، من خلال المبادئ الأخلاقية المتضمنة في الوسائط الرمزية المعممة، كما تمت الإشارة إليها من خلال الأسهم الخارجة من الوسائط الرمزية المعممة إلى تقييم أعضاء الوحدات المطلقة.

وبما أن هذه الوسائط تستخدم في تشكيل وحدات مشتركة للمجال المؤسسي، فقد تم تنظيمهم في أيديولوجية تضيف طبقة إضافية من الترميز الأخلاقي. وتقوم هذه الأيديولوجيات بتقييد تكوين المعايير المؤسسية على مستوى الوحدات الصغرى، بالإضافة إلى ثقافة الوحدات المشتركة على المستوى المتوسط، كما هو مبين من الأسهم المتجهة إلى أسفل على الجانب الأيسر من (الشكل ١ ,٩) ويؤكد السهم المتجه من الأيديولوجيات المؤسسية إلى تكوين معتقدات الموقع حول أعضاء الوحدات المطلقة، على أن الأيديولوجيات، بمجرد تنظيمها، تقوم بتوفير االمعيار التقييمي لتشكيل معتقدات حول قيمة وأحقية أعضاء الوحدات المطلقة المختلفة. ومع ذلك، يتوسط الكثير من هذا التأثير للأيديولوجية على معتقدات الموقع من خلال ما أسميته بالأيديولوجيات الفوقية التي تمثل مزيجًا من الأيديولوجيات من المؤسسات المهيمنة في المجتمع.وهكذا، على سبيل المثال إذا هَيمَنَت أيديولوجيات الاقتصاد والتعليم والعلوم وديمقراطية نظام الحكم سيتم دمج مبادئهم

الأساسية والتوفيق بينها لخلق أيديولوجية فوقية، تُصبح بعد ذلك المعيار الأخلاقي الذي يتم من خلاله تقييم الأفراد والحكم عليهم، وبخاصة أعضاء الوحدات التصنيفية (انظر: السهم المتجه من الأيديولوجية إلى الأيديولوجية الفوقية ثم إلى تكوين معتقدات الموقع). وفي المقابل إذا كانت المؤسسات المهيمنة هي الدين، والقرابة، ونظام الحكم غير الديموقراطي عندها تتكون أيديولوجية فوقية مختلفة، وتُصبح المعيار الأخلاقي الذي يتم الحكم على الناس من خلاله من حيث قيمتهم النسبية.

الجدول (٢ ,٩). الوسائط الرمزية المعممة للمجالات المؤسسية.

القرابة	الحب/ الولاء، أو استخدام الحالات العاطفية الإيجابية الشديدة لصياغة وإظهار الالتزامات نحو الآخرين ونحو ا الجماعات الأخرى.
الاقتصاد	المال، أو الدلالة على القيمة المتبادلة للأشياء، والأفعال، والخدمات من خلال المقاييس الملازمة للمال.
نظام الحكم	السلطة، أو القدرة على السيطرة على تصرفات الفاعلين الآخرين.
القانون	النفوذ، أو القدرة على الفصل في العلاقات الاجتماعية وإصدار الأحكام حيال العدالة، والإنصاف، وملاءمة الأفعال.
الدين	القدسية/ الورع، أو الالتزام بالمعتقدات حول القوى والكيانات الكامنة في عالم خارق غير ملحوظ، والميل إلى تفسير الأحداث والظروف من خلال الإشارة إلى هذه القوى والكيانات المقدسة.
التعليم	التعلم، أو الالتزام باكتساب ونقل المعرفة.
العلوم	المعرفة، أو استدعاء المعايير من أجل الحصول على معرفة موثوقة حول الأبعاد الاجتماعية، والحيوية، والمجال الكيميائي الفيزيائي.
الطب	الصحة، أو الاهتمام والالتزام بالمحافظة على الأداء الطبيعي لجسم الإنسان.
الرياضة	المنافسة، أو تحديد الألعاب التي تُقَدِّم فائزين وخاسرين بمقتضى الجهود الخاصة للاعبين.
الفنون	الجماليات، أو الالتزام بفعل وتقييم الأشياء والأداء من خلال معايير الجمال والسرور التي يمنحونها للمشاهدين.

*ملحوظة: (يتم استخدام هذه وغيرها من الوسائط الرمزية المعممة في الخطاب بين الفاعلين، وفي صياغة المواضيع، وفي تطوير الأيديولوجيات حول ما ينبغي وما يجب أن ينتشر في المجال المؤسسي. وتميل هذه الوسائط إلى أن تُعَمَّم ضمن مجال ما، ولكن تستطيع جميع الوسائط الرمزية أن تُعَمَّم في المجالات الأخرى، على الرغم من أن بعض الوسائط تكون أكثر احتمالًا لفعل هذا أكثر من غيرها).

وبالانتقال إلى أسفل (الشكل ١ ,٩) إلى المستوى المتوسط للواقع الاجتماعي، سوف تؤثر أيديولوجيات المجال على البنية المعيارية للوحدات المشتركة من الجماعات، والمنظمات، والمجتمعات). وإذا تم تضمين الوحدة المشتركة مثل المجتمع في مجالات متعددة، فسوف تتشكل الأيديولوجية الفوقية؛ كي تعطي طابعًا أخلاقيًا للمعايير المجتمعية، وستقوم معتقدات الموقع بوصفها جزءا من ثقافة النظام الطبقي بدمج مبادئ أيديولوجية وأيديولوجيات فوقية لتصبح مخصصة لحالات التوقع للكيفية التي من المرجح أن يتصرف بها أعضاء الوحدات المطلقة المختلفة، بل التي يجب أن يتصرفوا بها.وتوجد كتابات تجريبية ونظرية كثيرة تدعم قوة حالات التوقع هذه، والتي تم استخلاصها جميعًا من معتقدات الموقع، التي بدورها تم استخرجها من الأيديولوجيات والأيديولوجيات الفوقية [٣٤]. وتُمثِّل حالات التوقع هذه معايير ضمنية حول كيف سيكون سلوك الناس أصحاب الفئات ذات القيمة والقيمة المنخفضة؟ وتميل هذه التوقعات إلى أنه يتم تطبيقها على مستوى المواجهات، وبالمثل يتم تطبيق معايير تقسيم العمل للوحدات المشتركة في المواجهات. واتّباعًا لفين؛ تذكر المؤلفة بأنها تؤكد على أن مجموعة الوحدات المشتركة تعدُّ مهمة بشكل خاص في هذه العملية؛ لأنها توفر مساحة وبناءً لإيواء الأيديولوجيات، والمعايير، وحالات التوقع التي يمكن تطبيقها على الأفراد المتفاعلين. زيادة على ذلك، يحقق الأفراد التصنيفات المختلفة للعناصر الثقافية الأخرى على مستوى الجماعات. وإذا كان هناك استياء حول حالات التوقع لأعضاء الوحدة المصنفة أو حول المعايير في المنظمات أو المجتمعات، فإنه يتم التعبير عن هذا الاستياء هنا باعتباره تحديًا لحالات التوقعات والمعايير. ومثل كثير من وثائق كتابات الحركة الاجتماعية، تثار على مستوى الجماعة الأيديولوجيات المضادة، ثم تبدأ في الانتشار صعودًا ليتم تضمينها بين العناصر الثقافية المصورة في (الشكل١ ,٩) أو خارجًا إلى الجماعات الأخرى عبر الآليات الموضحة في نظرية فين. وهكذا تدل جميع الأسهم على الترابط داخل العناصر الثقافية التي تعطيهم قوة عظيمة. ولكن في الوقت نفس إذا كان الاستياء بسبب التفاوت وعدم المساواة في الطبقات المرتبط بالأيديولوجيات،

(٣٤) للحصول على ملخص لهذه الأدبيات ، انظر: جوناثان ه. تيرنر وديفيد فاغنر ، "وضع النظريات النظرية" في جوناثان ه. تيرنر ، النظرية الاجتماعية المعاصرة (ثاوزاند أوكس ، كاليفورنيا: سيج ، ٢٠١٢م).

ومعتقدات الموقع، وحالات توقع الازدياد، فإن نفس هذه الشبكات وأنماط التضمين تصبح طريقًا عموميًّا للحركة السريعة للأيديولوجيات الموجهة للتغيير.

ولا توجد مساحة كافية لتعقب كل هذه الديناميات، ولكن أكثر المناهج التحليلية تواصلًا هي أن هناك عددًا قليلًا نسبيًّا من مستويات الثقافة الموجودة في أكثر الأفعال، والتفاعلات، والبِنَى الاجتماعية، ودائمًا ما يتم تفسير عناصر الثقافة هذه أخلاقيًّا -لدرجةٍ ما-، وتؤدي إلى تقييم تبايني للأشخاص من خلال عضويتهم في التصنيفات الاجتماعية المختلفة. وحيث إن هذه الأيديولوجيات المشرعة للطبقات ولمنظمة الوحدة المشتركة تولد الاستياء من الناس على مستوى المواجهة والمجموعة، يمكن لهذه الأيديولوجيات أن تطلق العنان لقوًى ثقافية قوية للتغيير الاجتماعي لبناء الوحدات المشتركة وثقافتها، وبناء معتقدات المكانة والوحدات التصنيفية وثقافتها. وسوف يؤثر التغيير على هذا المستوى المتوسط في النهاية، وعلى المجالات المؤسسية والنظام الطبقي الاجتماعي الواسع، ومن ثَم على المجتمع بأسره، بل ربما على العلاقات المجتمعية للمجتمعات بعضها مع بعض؛ وبالتالي يمكن لجميع العمليات والديناميات التي أشارت إليها المربعات والأسهم التي ربطتهم ببعضهم البعض أن يتم تحديدها بمزيد من التفصيل من خلال نماذج ومبادئ نظرية[٣٥].

الخاتمة Conclusion

مع انتقاد نظرية الصراع للنظريات الوظيفية في الستينيات والسبعينيات، وبخاصة في منهج تالكوت بارسونز الذي أكد على العمليات الثقافية، وتحول اهتمام علم الاجتماع إلى الأسس المادية للمجتمع، حيث إنها ولّدت صراعاتُ المصالح، تحت ظروف مختلفة، أنواعًا متفاوتة من الصراعات. ولم تكن الثقافة بعيدة عن موضوع هذا التحول المفاهيم، ولكن تم تحويلها إلى تحليل المعتقدات والأيديولوجيات؛ حيث إنهم يعملون على إثارة الأطراف للصراع أو لتشريع البُنَى الاجتماعية القمعية. وكما كانت استجابة نظرية الصراع للوظيفية، فإن علم الاجتماع الثقافي الجديد قد ظهر

(٣٥) انظر -على سبيل المثال-: تيرنر ، المبادئ النظرية لعلم الاجتماع (المذكرة ٣٣) جوناثان ه.وجهًا لوجه: نحو النظرية السوسيولوجية للعمليات الشخصية (ستانفورد ، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد ، ٢٠٠٢م).

بوصفه استجابة لتسهيل التحليل الثقافي، عندما تم النظر إليه على أنه المصاحب لديناميات الصراع الناتجة في نهاية المطاف عن الظروف المادية للمجتمعات.

وكان هناك تقاليد فكرية، مثل علم الظواهر ،وعلم تأويل النصوص التي ظلت قابلة للتطبيق خلال هذه الفترة، إلا أنها لم تستكشف الثقافة في جميع مظاهرها. وكانت هذه هي النظريات المتخصصة أكثر معرفية -في أغلب الأحيان- من الثقافة، ومن الواضح ولكن دون التقدير بطريقة توحي بالاستغراب، من أن كل شيء يفعله البشر عند التصرف أو التنظيم هو ثقافي، ويتم التعبير عن الأفكار من خلال اللغة، ليس فقط بالكلمات، بل بلغة العواطف وترسخ الأفكار عند استخدام الأشخاص المتفاعلين والجهات الفاعلة الجماعية لها لبناء بِنًى اجتماعية، أو لإعادة إنتاج مثل هذه البنى، أو هدمها لبنائها بشكل آخر، ولكن تعدُّ الثقافة أكثر من ذلك. ويبدو أن النظريات الثقافية الجديدة تختلف؛ لأنها مجال الواقعية الذي يتم فيه تنظيم وتخزين الرموز، ثم استدعاؤها للاستخدام في الأداء التمثيلي. فهي ليست بِنًى فوقية يسيرة للبناء الاجتماعي المادي، ولكن مجموعة ديناميات مستقلة تحتاج للتنظير تتصل في نهاية الأمر بالخصائص البنيوية للواقعية الاجتماعية. ويبدو أن مفهوم الأداء هو أحد أوتاد الإدراك للديناميات المستقلة للثقافة في حد ذاتها. وضرورة الانتهاء بالثقافة إلى منصات ودعائم الأوساط الاجتماعية التي تَكُون جزءًا من البِنَى الاجتماعية. إنها القدرة على تمديد التمثيلات الثقافية أمام الجمهور وجذب الجمهور للانسجام العاطفي مع هذه التمثيلات من خلال السيناريوهات، والإخراج، والنصوص، والعرض. وتمثيل هذه الثقافة بجعلها تمارس سلطتها على أفعال الأشخاص، والوحدات المشتركة؛ حيث يتم بناؤهم وإعادة إنتاجهم، وتفكيكهم، وبناء بُنَى اجتماعية جديدة، بطرق مختلفة إلى حد ما.

لقد سَعَى وثنو، وبوردو، وألكسندر، وفين، وتيرنر (Withnow, Bourdieu, Alexander, Fine, and Turner) إلى تسليط الضوء على خصائص الثقافة وكيفية استخدام الثقافة في الأوساط الاجتماعية، وبشكل واضح، أو بشكل أكثر ضمنية في حالة بورديو (Bourdieu) الذي يرى أن الطقوس والأداء في غاية الأهمية من حيث توليد العواطف اللازمة لإعطاء الثقافة سلطتها في التأثير على الكيفية التي يتصرف بها الناس، وكيفية إنشاء أو إعادة إنتاج أو تغيير البُنَى الاجتماعية. ولكن عندما يتم التنظير من خلال هؤلاء العلماء وغيرهم، يصبح وضع تصور للثقافة غامضا بعض

الشيء؛ كالنظام الأخلاقي، والأعراف، ورأس المال الرمزي والثقافي، والتمثيلات الخفية، والنصوص، والسيناريوهات، والثقافة والخاصة، وما شابه ذلك، فقد تم التذكير بهم للتأكيد إلا أنهم ليسوا بدلالات بأي شكل من أشكال الدقة. ومن خلال الأوصاف التجريبية لهم في السياقات التجريبية الحقيقية، ربما يكون من الممكن عزل خصائص وديناميات كل من هذه المصطلحات التذكيرية التي كانت تمثل برنامجًا أقوى بكثير في علم الاجتماع الثقافي في الوقت الحاضر. وقد لخصت بعض الافتراضات والموضوعات الرئيسة التي تشكل جزءًا من التنظير الثقافي الجديد فيما يلي:

١- الثقافة هي جميع أنظمة الرموز التي تحمل المعاني التي أنتجتها الجهات الفاعلة الفردية والجماعية الموجودة في قطاع من السكان.

٢- تتكون الثقافة من نصوص، وعلم، وتقاليد، وتقنيات، ومخزون من المعرفة التي يمكن تخزينها في عقول الأشخاص، وفي البِنَى الاجتماعية من الوحدات المشتركة، وفي تعريفات الوحدات التصنيفية، وفي المستودعات الثقافية من مكتبات، وملفات وكمبيوتر، إلخ، من المتاحة في المجتمع، إلا أن أبعاد الثقافة الأكثر أهمية هي تلك التي يستخدمها الفاعلون بشكل مستمر في البِنَى الاجتماعية على مستوى الوحدات الصغرى والمتوسطة والوحدات الكبرى.

٣. أحيانًا قد يكون لأي جانب من جوانب الثقافة تأثير على مضمون الأنظمة الرمزية الذي يستخدمها الفاعلون على المستويات الصغرى والمتوسطة والكبرى للواقع الاجتماعي، ولكن في جميع المواقف تقريبًا تعدُّ بعض عناصر الثقافة هي الأكثر أهمية لفهم ديناميات النظام الأخلاقي الذي تولده الثقافة سواء:

(أ) على المستوى الوحدات الكبرى؛ حيث يتكون النظام الأخلاقي من مجتمع واسع وافتراضات قيِّمة مجردة للغاية، والتي تعمل على تفسير جميع المواقف أخلاقيًّا وتوفر افتراضات للفعل على كل مستويات الواقع الاجتماعي.

(ب) على المستوى المتوسط للواقع الاجتماعي، فإنه يتم جذب افتراضات القيمة إلى المعتقدات التقييمية داخل المجالات المؤسسية وضمن الأنظمة الطبقية.

(١) يمكن للمعتقدات التقييمية داخل المجالات المؤسسية أن ينظر إليها على أنها أيديولوجيات يتم تحديدها من خلال شرطي سلوك وفعل سليمين لجميع الفاعلين في مجال معين.

أ) وتُبنَى مثل هذه الأيديولوجيات من وسائط رمزية معممة يتم استخدامها في الخطاب، وفي تبادل الموارد بين الفاعلين داخل وبين المجالات المؤسسية، وتُستخدم هذه الأيديولوجيات والوسائط الرمزية لتشريع المجالات المؤسسية:

ب) وتدل الوسائط الرمزية المعممة التي قامت ببناء الأيديولوجيات على الموارد ذات القيمة التي يتم توزيعها بشكل غير متساوٍ من خلال الوحدات المشتركة العاملة ضمن المجالات المؤسسية. وبالتالي تصبح أيضًا آلية يتم تشريع النظم الطبقية من خلالها.

ج) ويتم تقييد ثقافة الوحدات المشتركة لأنظمتهم المعيارية وثقافتهم العامة من خلال أيديولوجيات المجال المؤسسي التي تَكون جزءًا لا يتجزأ منها؛ بالإضافة إلى الأيديولوجيات التي تنتشر في مجال معين من المجالات الأخرى، وتحمل المعايير التي تحكم الأفعال والتفاعلات داخل الوحدات المشتركة، ومعانيَ إضافيةً أخلاقية للأيديولوجيات المؤسسية.

د) ويتم تقييد المعتقدات التي تعمل على تقييم القيمة الأخلاقية للأعضاء في الطبقات الاجتماعية المختلفة في التقسيم الطبقي والوحدات التصنيفية الأخرى المرتبطة بنظام عدم المساواة عن طريق الجمع بين الأيديولوجيات من المجالات المؤسسية التي تستخدم لتشريع عدم المساواة.

هـ) تحمل معتقدات الموقع حول قيمة أعضاء الوحدات التصنيفية صبغة أخلاقية للأيديولوجيات التي تُشَرِّع عدم المساواة، بينما تقوم بتوليد حالات التوقعات لأعضاء الوحدات التصنيفية من خلال أفعالهم وتفاعلاتهم، وعلى مستوى الوحدات الصغرى، يتم توجيه الأفراد من خلال معايير الوحدات المشتركة التي يتم تضمين حلقات التفاعل فيها. ومن خلال حالات التوقعات للوحدات التصنيفية المستمدة من معتقدات الموقع والأيديولوجيات التي تُشرِّع عدم المساواة.

٤ -يتم إنشاء الثقافة، واستدامتها، وتغييرها عن طريق الأفعال الطقوسية والأداء الذي يثير العواطف ويولد الالتزامات تجاهه، أو الابتعاد عنه، وأنظمة الرموز.

٥ - وكلما كانت العواطف المُثارة في الأعمال الطقوسية إيجابية كانت الالتزامات نحو المبادئ الأخلاقية لنظام الرموز أكبر، كلما كانت التفاعلات أكثر احتمالًا فإنها تؤدي إلى :

(أ) دمج الشخص في العمل، والتفاعل، والبنية الاجتماعية، والعناصر الخلفية للثقافة وذلك لإنتاج مستوًى عالٍ من التضامن بين الأفراد المشاركين في الأعمال والأداء الطقوسي.

(ب) حدوث المماثلة الذاتية مع النظام الأخلاقي؛ وبالتالي تعزيز الالتزامات نحو هذا النظام؛ حيث إن المماثلة الذاتية تعتمد على استمرار هذا النظام.

(ج) تمييز حدود المجموعة برموز ذات نوعية طوطمية؛ وبالتالي تعزيز الثقافة المشتركة لَمن يتصرفون ضمن هذه الحدود التي تميزت بالرموز الطوطمية.

(د) تطوير ثقافة خاصة على مستوى الجماعة التي تقوم بالتأطير من أجل أعضاء الجماعة للقضايا والمشكلات الاجتماعية القادمة من المجتمع الأكبر.

(٦) يمكن اعتبار أنظمة الرموز على أنها موارد ذات قيمة أو شكلًا من أشكال رأس المال يتم توزيعه بشكل غير متساوٍ، وبالتالي تصبح جزءًا من النظام الطبقي. وعلى هذا النحو سوف تختلف الطبقات والفئات داخل النظام الطبقي وفقًا لطبيعة رأس المال الثقافي لديهم، ووفقًا للرموز المتاحة لتشريع أو لتحدي نظام عدم المساواة القائم.

٨-دائمًا ما تستخدم الثقافة لتشريع الأنظمة القائمة، فضلًا عن تحدي الأيديولوجيات القائمة وتشكيلات البنية الاجتماعية التي تشرّعها هذه الأيديولوجيات، وتَكون التكوينات الاجتماعية والفاعلون فيها الذين يمكنهم استخدام الثقافة، وليست الأيديولوجيات بصفة خاصة، ولكن أيضًا النظم الثقافية الأخرى لتأمين مواردهم هم أكثر؛ لاحتمالية الإبقاء على أنفسهم، ولنشر ثقافتهم للتكوينات الاجتماعية الأخرى، بينما أن تلك التكوينات التي لا تستطيع استخدام الثقافة بنجاح لتأمين مواردها لن تكون قادرة على نشر ثقافتها خارجًا، وربما في الحقيقة ترى ثقافتها تزول وتمتصها التكوينات الاجتماعية الأغنى في الموارد وثقافتها.

أ) تدور نتيجة الديناميات المذكورة أعلاه حول النجاح النسبي للفاعلين في الجماعة في امتلاك ثقافة معينة في خلق أعضاء جديدة ملتزمة بثقافة خاصة وأيديولوجياتها.

ب) اكتساب موارد مادية للحفاظ على التكوين.

ج) وتطوير أشكال البنية التنظيمية التي يمكنها أن تستوعب أعضاءً جددًا، وتشارك في استقدام وتمديد ثقافتهم خارجًا، واستخدام الشبكات بين الجماعات لتمديد الثقافة

النموذجية للجماعة خارجًا وداخلًا وبين المنظمات والمجتمعات. والوحدات التصنيفية التي تصبح أكثر احتمالًا.

د) انتماءات المجموعة المتعددة لأعضاء المجموعة وفي وجود أدوار الوساطة، وفي الأدوار التي تتجاوز حدود الجماعة، وفي الروابط الضعيفة داخل وبين الجماعات، وفي أهمية وسائل الإعلام. واستخدام ثقافة الجماعة لتشريع استمراريتها في مواجهة الثقافة وأيديولوجية التكوينات البنائية الأخرى.

هـ) تركيز ثقافتهم الخاصة على القضايا المدنية ذات الأهمية العامة، والتي تكون ملحوظة لجميع أفراد القطاعات السكانية.

الفصل العاشر

التنظير النقدي في عصر الحداثة وما بعد الحداثة
CRITICAL THEORIZING ON MODERNITY AND POSTMODERNITY

إن علم الاجتماع كان نتيجة للتفكير التنويري، وقد نمى في عصر النهضة في القرن السابع عشر بمفهوم التقدم، ولذا استخدمه العلماء؛ لأنه يؤدي إلى تقدم المجتمعات، وقد ولد في فترة الحداثة المبكرة؛ وكان هذا بين عام (١٨٣٠- ١٩٣٠م) منذ أن قدم كونت (Comte) قاعدة لعلم الاجتماع[١]. لأن العلماء والأفراد المماثلين لهم أرادوا أن يفهموا التغيرات الكبيرة التي تحدث في المجتمعات، والتغيرات التي تدور حول الصناعية والحضرية، والتثقيف البيروقراطي والتحولات الديموقراطية وغيرها من التحولات الأخرى الشديدة في أبنية وثقافة المجتمعات؛ ولذا ناقش علماء الاجتماع الأوائل، مثلهم مثل علماء الاجتماع المعاصر، الدرجة الذي تكون فيه التغيرات ضارة، وما إذا كان ذلك ضارًا ، وما يمكن فعله حيالها، وينطبق الشيء نفسه اليوم، فأكثر من ١٨٠ سنة منذ ان أعطى اوجست كونت لعلم الاجتماع هذا الاسم .

طور هؤلاء العلماء الذين عاصروا أنواع الحداثة وسلبياتها اتجاهًا أكثر نقدية في تنظيرهم الاجتماعي كنموذج كارل ماركس (Karl Marx)، وكان نموذجا مثاليا للمنهج النقدي، وقد عمل البعض منهم بطريقة أقل حدّة، إلا أنهم كانوا قلقين حول التغيرات التي قد تحدث. فعلى سبيل

(١) جوناثان هـ. تيرنر. "المؤسسون والكلاسيكية: النظام في الحركة" في دليل علم الاجتماع الطلابي، طبعة س. ميدلتون ، ج.جوبي، وس. بالارد (أكسفورد: بلاكويل ، ١٩٩٧م).

المثال، كان ماكس فيبر مهتمًا بالعالم غير العاطفي، والمعايير القانونية، العقلانية وقد وضع البيروقراطية بما يسمى السياج المعدني أو القفص الحديدي، وكان عالم الاجتماع إميل دوركايم Emile (Durkheim) مبنيًا على المشكلات، وعدم التعاون والتكامل والأنانية والتصنيفات الجبرية للعمال التي صاحبت الانتقال من المجتمعات البسيطة إلى المجتمعات الأكثر تباينًا وتعقيدًا، بينما رأى آخرون أمثال جورج سميل[٢] (George Simmel)، وهربرت سبنسر(Herbert Spencer) بأن التغيرات الاجتماعية الحاصلة إنما هي تغيرات أكثر تحررية من أن تكون مفروضة؛ لأن انتماءات الجماعة أصبحت أكثر تطوعية، وإرادية، كما سمحت الأصوات للمزيد من الاختيارات لتلبية التفضيلات الفردية والأنظمة السياسية، وأصبحت أكثر ديموقراطية.

كما استمرت المناقشات الضمنية هي المتاليات للحداثة وعلم الاجتماع التنظيري المبكر إلى الوقت الحاضر، علاوة على تغيرات بعض المناقشات من حيث الاهتمامات عما كانت عليه بعد مرحلة الحداثة في التطور الاجتماعي الذي اندمج فيما بعد في الثورة الصناعية، وعصر المعلوماتية الجديدة. وعلى الرغم من نقد المعاصرين للحداثة، يبدو نقد الحداثة كذلك عن طريق المنظرين التقليدين، والمنظرين النقديين في الفترات الأولى للتنظير، وعند الأكثر معاصرة في منتصف القرن العشرين.

معضلة النظرية النقدية المبكرة

The Dilemma of Early Critical Theory

التفاؤل التحرري لماركس في مقابل تشاؤم فيبر

Marx's Emancipatory Optimism vs. Weber's Pessimism

ناقش كارل ماركس قدرة البشر على خلق الفكر؛ إذ تؤدي بهم إلى التصور، ومن ثم العمل على إيجاد عالم اجتماعي أفضل نتيجة للفهم النظري في التطبيق الواقعي لهذا العالم.[٣] وفي النهاية، فإن

(٢) جورج سيمل، فلسفة المال، ترجمة.ت. بتمور و د فريسبي (بوسطن: روتلدج و كيجان بول، ١٩٧٨م. نُشرت النسخة الأصلية في عام ١٩٠٧م).

(٣) كارل ماركس، العاصمة: تحليل نقدي للإنتاج الرأسمالي، المجلد ١ (نيويورك: دولي، ١٩٦٧م، نُشرت النسخة الأصلية في عام ١٨٦٧م)؛ كارل ماركس و فريدريك انغلز، البيان الشيوعي (نيويورك: الدولية، ١٩٧١م، نُشرت النسخة الأصلية في عام ١٨٤٨م).

شوعية ماركس في المدينة الفاضلة عندما ناقش بأن المجتمعات تتطور خلال الحقب الناجحة في الصراع الثوري من الرأسمالية إلى الشيوعية نتيجة لعدم المساواة والظلم للطبقة العاملة، ويتم تحديد ذلك من منظوره عن طريق فهم الطبيعة الجدلية للمجتمعات، وما يتبعه من حقب متوالية لضبط وسائل الإنتاج،. ويرى ماركس أن الظلم لهؤلاء الذين ليس لديهم موارد يؤدي بهم إلى زيادة الاستياء؛ مما يدفعهم إلى الصراع الذي قد يؤدي إلى الثورات. كما يعتقد كارل ماركس أن الثورات تغير المجتمعات لتسير نحو الشيوعية منذ أن تركوا الشيوعية الأولى؛ ولذا فإنه يرى أن الشيوعية الجديدة ستكون هي المرحلة الأخيرة للعملية الجدلية والتناقضات للرأسمالية المفترضة عن طريق المنظرين النقديين، ولذا تبرز هذه الحركة الصراعية بين البوليتاريين والبرجوازيين؛ نتيجة القوى الانعكاسية الفطرية للأفراد الذين يعانون من الظلم بين السكان، فإن الحركة التحررية يمكنها أن تطيح بالرأسمالية، ويتم تحويلها إلى الشيوعية.[٤] ومثل هذا المنظور كان هو الحلم المثالي لماركس الذي عمل على دعمه ودعم شعوره تجاهه من خلال تحليله للتاريخ والحقب الزمنية وديناميات الرأسمالية.

بالإضافة إلى ذلك فقد كان لدى ماكس فيبر (Weber's) سيناريو أقل تفاؤلًا من الذي كانت تمتلكه الرأسمالية عند ماكس فيبر[٥] وما قدمه من خلق لظروف الثورة التحررية. فقد دارت الحداثة عند فيبر حول العملية العقلانية، كما أن التوسع المتزايد في كل مجالات الحياة الاجتماعية للتسوية المنطقية يتم من خلال القانون، وكذلك التوسع في نظم البيروقراطية للمنظمات الاجتماعية، أو في الحياة الاجتماعية ككل. ولذا يرى أن العقلانية ظهرت منذ بداية المجتمعات التقليدية القديمة عن طريق الانتماء للجماعة، وحتى المشاعر مزجها من خلال استخدام الوسائل العقلية في مجالات الحياة الاجتماعية. وأيضًا يرى أن الأسواق والسلطة العقلانية تنشئ حرية جديدة من الهيمنة عن طريق الدوغمائية بين فئات المجتمع والقوى التقليدية الأخرى، ولكن قد يكون البديل لذلك هو نشوء نوع جديد من الهيمنة عن طريق القوى الاقتصادية المبنية للمجهول، مثل الأسواق الضخمة، والشركات البيروقراطية مع توسع أكثر للدول من أي وقت مضى.

---

(٤) كارل ماركس و فريدريك انغلز، الأيديولوجية الألمانية (نيويورك: الدولية، ١٩٤٧م، تم كتابته في ١٨٤٦م).

(٥) ماكس ويبر، الاقتصاد والمجتمع، الترجمة. غ. روث (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا. ١٩٧٨م).

وفي منتصف عام (١٩٣٠م) أصبحت نظرة التشاؤم عند فيبر بخصوص الحداثة أكثر دقة عن السيناريو المتفائل لماركس للصراع، وعما يمكن أن ينشأ عن الرأسمالية، فالثورة الروسية قد أعيد توليدها في الستالينية والبيروقراطية، والشمولية البيروقراطية لأحزاب المجتمعات، كما كان العمال يرغبون في بيع العمال المغتربين في الأسواق بشكل عام، وأصبح العالم الاجتماعي أكثر كآبة وكبتًا، وكيف لهذه الصورة المتشائمة للحداثة أن تتفوق على تصور ماركس التحرري، وكان هذ السؤال الذي أصبح محوريًّا في النظريات النقدية المبكرة؟.

نشوء مدرسة فرانكفورت The Rise of the Frankfurt School

إن الجيل الأول للمنظرين[٦] النقديين الذين يشار إليهم كان كمدرسة فرانكفورت في ألمانيا، وكان لهم مجهود واضح في تفسير الأحداث المؤلمة في حقبة القرن العشرين. [٧] حيث واجهت مأزقًا هو: كيفية التصالح بين حلم ماركس التحرري مع الواقعية للمجتمع الحديث؟ وكيف يمكن تصوره عن طريق ماكس فيبر؟ وهكذا ولدت النظرية النقدية الحديثة في علم الاجتماع عندما أصبح هناك سبب للتفاؤل عند إدراك الأهداف التحررية. وكان هناك ثلاثة أعضاء أكثر محورية في مدرسة فرانكفورت وهم: جورج لوكاش، ماكس هورخيمر، وثيودور أدورنو. فقد ظهر العمل الرئيس للوكاش (Gyorgy Lukács) في عام (١٩٢٠م)، في حين أن هورخيمير وأدورنو كانا ناشطين خلال عام (١٩٦٠م)؛ حيث كان لوكاش هو الرابط الرئيس في الانتقال من النظرية النقدية الحديثة لماركس

---

(٦) للاطلاع على أوصاف هذا النشاط، انظر: مارتن جاي. الخيال الجدلي (بوسطن: ليتل، براون، ١٩٧٣م)، و "نقد مدرسة فرانكفورت للإنسانية الماركسية: 'البحوث الاجتماعية ٣٩ (١٩٧٢م): ص ٢٨٤-٣٠٥، دايفيد هيلد، مدخل إلى النظرية النقدية (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٠م)، ص ٢٩-١١٠، روبرت ج. أنطونيو ، "الأصل، والتنمية، والوضع المعاصر للنظرية النقدية"، الفصل الاجتماعي ٢٤ (الصيف ١٩٨٣م): ص ٣٢٥-٣٥١ ؛ فل سلاتر، أصل وأهمية مدرسة فرانكفورت (لندن: رووتلدج و كيجان بول ١٩٧٧م)، "تبرير الأصول ،" كاليفورنيا عالم الاجتماع ٤ (شتاء ١٩٨١م): ص ٣٣-٥٣.

(٧) من بين الأعضاء البارزين الآخرين فريدريك بولوك (عالم اقتصاد)، إريك فروم (محلل نفساني، أخصائي نفسي واجتماعي)، فرانز نيومان (عالم سياسي)، هربرت مارتشيز (فيلسوف)، وليو لونتال (عالم الاجتماع). وخلال السنوات النازية، انتقلت المدرسة إلى الولايات المتحدة، والعديد من أعضائها لم يعودوا إلى ألمانيا.

وفيبر، وكان كل من هورخيمر وأدورنو (Horkheimer، and Theodor Adorno) متفاعلين أكثر مع تحليل منهج لوكاش(Lukács)، ولذا فإن كل هؤلاء العلماء قد أثروا التطور الفكري، وكذلك الأعمال التابعة يورغن هابرماس، وهو أكثر منظر نقدي معاصر تم فحص عمله مؤخرًا.

جورج لوكاش Gyorgy Lukács [٨]

بالاستعارة من تحليل ماركس "للضمنية السلعية" وظف لوكاش(Lukács) مفهوم أدوات للدلالة على العملية التي من خلالها تصبح العلاقات الاجتماعية موضوعًا يمكن معالجته، ويمكن شراؤه وبيعه في الأسواق. إن إعادة تفسير مفهوم فيبر للعقلانية يعني التأكيد المتزايد لعملية "حساب القيم المتغيرة"، فقد ربط لوكاش (Lukács) بين أفكار فيبر وماركس، فرأى أنه كلما تغيرت المجتمعات التقليدية كان هناك اعتماد أقل على المعدلات الأخلاقية، وعمليات التواصل لتحقيق التكامل الاجتماعي، وبدلًا من ذلك فإن هناك المزيد من الاستخدام للمال، والأسواق والحسابات العقلانية، ونتيجة لذلك تكون العلاقات متصلة بالقيم المتغيرة وبمفاهيم الناس فيما بينهم حول بعض الأشياء.

لقد وضع لوكاش نفسه في الجانب التصوري، ولو حدثت مثل هذه العملية التاريخية فكيف يمكن إيقافها؟ ولقد كانت إجابة لوكاش هي إحياء لفكر هيجل أكثر من النظر إلى التناقضات في الظروف المادية أو الاقتصاد والقوى السياسية، وعلى الفرد أن يتأكد من أن القوى الجدلية تكون متضمنة الوعي الإنساني. وناقش لوكاش بأن هناك حدودًا في كيفية استخدام أدواتها وقدرة تحمل وتقبل الأفراد العقلانيين لها؛ لأن الموضوعات والظروف البشرية لها جودة داخلية، وهى التي تحافظ على العقلانية من الانتهاء في التعامل الكامل تمامًا معها.

يمثل هذا التأكيد جزءًا من عملية الوعي الكلي للنظرية النقدية التي تستعير أكثر من نظرية ماركس المبكرة ومدرسة فرانكفورت التي كانت متأثرة بآراء فرويد. والنظرية النفسية؛ ولذا فقد كانت النظرية النقدية المبكرة لماركس وهربرت مثل نظرية الشخصية التي فشلت في تحليل الشراكة الذاتية، أو طرق تفاعل الناس من خلال نشاط إدراكي مشترك ومتبادل بالتأكيد على المقاومة

(٨) غورغي هاجي، التاريخ والوعي (كامبريدج -رسالة ماجيستير- معهد ماساتشوستس لتكنولوجيا الطباعة، ١٩٦٨م. نُشرت النسخة الأصلية في ١٩٢٢م).

المتضائلة على الموضوعات الخاصة بالأدوات الكلية. وقد اقترح لوكاش (of Lukács) بأن دور المنظر النقدي هو افتراض أدوات للعمل عن طريق تحليل العمليات التاريخية التي تؤثر على حياة الناس؛ ونتيجة لذلك فقد قام لوكاش (of Lukács) بعمل تاريخ نقدي تأملي يؤكد على حل المشكلة الخاصة بالهيمنة؛ لجعل الناس أكثر وعيًا وعلمًا بموقفهم من خلال تحليل تاريخي مفصل.

ماكس هورخيمر وثيودور أدورنو Max Horkheimer and Theodor Adorno

إن كلًّا من هورخيمر[٩] وأدورنو (Horlcheimer9 and Adorno) كانا في حالة شك عالٍ من تصور لوكاش (Lukács) في الحل للمأزق الخاص بالأدوات والعقلانية؛ لأن العمليات لا تفرض نقدها الخاص كموضوعات يمكن مناقشتها، كما أن الوعي الشخصي والحقيقية المادية لا يمكن أن ينفصلا. فالوعي لا يقدم بطريقة آلية المقاومة لهذه القوى المادية التي تعدُّ أن هذا الشيء مادي وتجعله عقلانيًا، فالنظرية النقدية يجب أن تفعل ذلك من خلال: (١) تصف القوى التاريخية التي تحدد الحرية البشرية. (٢) تفترض تبريرات إيديولوجية لهذه القوى. فإن مثل هذا يمكن تحقيق بحثه من خلال تخصصات تجمع العديد من الباحثين المدربين، والمنظرين الذين يواجهون أفكار الآخر ويستخدمون المناقشات في تحليل الظروف الاجتماعية لوضع الدورات التدريبية للأفعال، وهذا تأكيد على التطبيق العملي؛ ولذا فإن المواجهات بين النظرية والفعل في العالم تتضمن تطوير الأفكار عن الظلم. وما يجب فعله بخصوص الدورة التدريبية في نطاق كفاح الإنسان من أجل ذلك، فإن النظرية النقدية محكومة عن طريق اهتمامات عملية خاصة في إطار تحكم الناس بالطبقة المهيمنة. وهكذا فإن النظرية النقدية يتم ربطها في إطار ما قدمه ماركس باهتمامات الناس العملية.

---

(٩) ماكس هورخيمر ، النظرية النقدية: مقالات مختارة (نيويورك: هيردر وهيردر، ١٩٧٢م) هي ترجمة لمقالات كتبت باللغة الألمانية في الثلاثينات والأربعينيات من القرن التاسع. كسوف العقل (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٤٧م، أعاد طبعها سيموري في ١٩٧٤م) كان كتاب هوركايمر الوحيد الذي نُشر في الأصل باللغة الإنجليزية. فإنه يأخذ منعطفًا مختلفًا قليلًا عن الأعمال السابقة، لكنه لا يقدم الأفكار التي ظهرت من جمعيته مع تيودور أدورنو. انظر أيضًا: هوركهايمر، نقد أداة العقل (نيويورك: سيموري. ١٩٧٤م). انظر: ديفيد هيلد ، مقدمة في النظرية النقدية (المذكورة في الإيضاح ٦) ، ص ٤٨٩-٤٩١. للحصول على قائمة أكثر اكتمالًا لأعمال هوركايمر باللغة الألمانية.

لقد كان ثيودور أدورنو[10] أكثر فلسفة؛ فلقد وجه بحثه عن هوركهيمر. فلقد كان أدورنو أكثر تشاؤمًا بخصوص فرص النظرية النقدية التي تجعل التغيرات أكبر على الرغم من مقالاته عن افتراض أنماط من الهيمنة المتعارف عليها، وغير المتعارف عليها للأفراد عن طريق القوى الاجتماعية والنفسية، كما أن نقاشاته عن السلبية يمكنها أن تسمح للإنسان أن يقدم الظروف التاريخية الأكثر تفضيلًا للحركات التحررية، فإن هدف النقاشات السلبية هو تحمل أفكار نقدية للتصورات المباشرة أو الظروف الحالية؛ ولهذا لا يمكن النقد بذاته أن يغير أي شيء؛ لأنه يقوم فقط بعمل الأفكار والمفاهيم، ويمكنه حفظ الدوغمائية الأيديولوجية بظروف التعتيم التي يمكنها في النهاية أن تسمح بالحركات التحررية.

ولقد أكد كل من هورخيمر وأدورنو على أن للإنسان جانبًا شخصيًّا يتم إلزامه بانتشار العقلانية أو التسوية المنطقية. وفي إطار تصور هذه العملية، فقد أوجدوا نوعًا من الثنائية ما بين العالم الشخصي والموضوعات المادية كشكل من أشكال الظلم. ومن وجهة نظرهم، فإن النظرية النقدية يجب أن تكشف هذه الثنائية، وأن تقوم بتحليل كيف يكون السبب المُسهِم الذي يؤدي في النهاية إلى العقلانية لغزو الروح البشرية؟ وبهذه الطريقة، فإن بعض المقاومة يمكن عرضها لمواجهة القوى الظالمة.

نظرية غرامشي حول الهيمنة الأيديولوجية
Gramsci's Theory of Ideological Hegemony

إن أنطونيو غرامشي[11] (Antonio Gramsci) كان ماركسيًّا إيطاليًّا، وكان بكل وضوح لا يُعدُّ جزءًا من مدرسة فرانكفورت، بل كان يؤكد بشكل رئيس على استمرار ما أكدت عليه مدرسة

---

(١٠) تيودور و. أدورنو ، الجدلية السلبية (نيويورك: سيبري، ١٩٧٣م، نُشرت النسخة الأصلية في ١٩٦٦م) ومع ماكس هورخيمير، جدلية التنوير (نيويورك: هيردر وهيردر، ١٩٧٢م، نُشرت النسخة في ١٩٤٧م). انظر: هيلد، مقدمة النظرية النقدية (المذكورة في الإيضاح ٦)، ص ٤٨٥-٤٨٧، للحصول على قائمة أكثر اكتمالًا لأعماله. انظر أيضًا: "من لوكاك إلى أدورنو: ترشيد إعادة التأهيل،"ص 399-339 في يورغن هابرماس ، نظرية العمل التواصلي، المجلد ١ (بوسطن: بيكون، ١٩٨٤م): يحتوي علي نقد هابرماس من لوكاك، هورخيمر ، وأدونو.

(١١) أنطونيو غرامسي، مختارات من سجلات السجن (نيويورك: دولي، ١٩٧١م. نُشرت النسخة الأصلية في ١٩٢٨م).

فرانكفورت أن المعرفة النقدية التي قامت عليها الأنظمة الرأسمالية في منتصف القرن العشرين كانت تنادي بالازدهار، وأن الطبقات العاملة في هذه الأنظمة لم يبدُ عليها وكأنها في مواجه الثورة. لقد أكمل غرامشي دور أفكار ماركس في نطاق أكثر تصورًا. فلقد آمن ماركس بأن الأيديولوجية والوعي الخاطئ للعمال كان تشويشًا أيديولوجيًا تم خلقه وانتشاره عن طريق هؤلاء الذين تحكموا في البناء المادي أو الاقتصادي؛ حيث ناقش ماركس بأن هؤلاء الذين يتحكمون في وسائل وأنظمة الإنتاج أيضًا يتحكمون في الحالة التي -بدورها- تخلق الأيديولوجيات التي تبرر هذا التحكم والقوة. وبهذه الطريقة، فإن البروليتاريا يتم الاحتفاظ بها لوقت يكون هناك تناقض كامل للرأسمالية، ويصبح الأمر واضحًا من تكوينهم لطبقة خاصة لأنفسهم قادرة أو جاهزة لمواجهة الصراع التحرري من الظالمين. فقد حول غرامشي بكل سهولة هذا النقاش حول الفوقية، وهي حالة الأيديولوجية التي تؤدي إلى تنظيم المجتمع والوعي للسكان.

لقد اعتقد غرامشي بأن الطبقة الاجتماعية الحاكمة هي المهيمنة ليس فقط على الملكية والسلطة؛ ولكن أيضًا على الأيديولوجية، ولذا فإن الطبقة الحاكمة تقبض على سلطتها والثروات من خلال الفضيلة، وقدرتها على استخدام أيديولوجيات لمعاملة العمال والآخرين. فالدولة عنده لم تعد أداة للإكراه وليست أيضًا تطفلية وسلطة بيروقراطية داخلية، ولكن أصبحت داعمة للثقافة والتعليم الأهلي للسكان، وتخلق وتتحكم بشكل رئيس في أنظمة المؤسسات بطريقة غير مباشرة وغير ظاهرة، ويظهر ذلك بالطرق المسالمة. وهكذا فإن وجهات النظر الخاصة بالرأسمالية تصبح وجهات نظر بارزة بين كل العمال الذين يؤمنون بأن الملاءمة للأسواق في أنظمة المنافسة، وملاءمة الموضوعات، والعلامات والرموز، وشراء وبيع جهد هؤلاء العمال، كما أن استخدام القانون يعمل على ضبط التعاقدات لمن يمتلك الثروة، وتشجيع الجمعيات الخيرية الخاصة، ورعاة الأندية والمنظمات التطوعية، وتصورات الدولة للمواطن الجيد والمنهج الموضوعي الخاص بالمدارس، وكل الأماكن المؤسسية وأنشطتها التي تعالج أيديولوجية الدولة. وفي رأي آلبرت بيرجنس أن الثقافة والأيديولوجية[١٢] لم تَعُد شيئًا يمكن تفسيره ، ولكنها تقوم على التفسير، كما أن قوانين الطبقة المادية

(١٢) البرت بيرفسن "صعود الماركسية شبه الحيوانية،" وجهات النظر الاجتماعية ٣٦ (١٩٩٣م): ص ٥.

البارزة تقوم عن طريق رموز ثقافية، والمعركة الحقيقية في المجتمعات الرأسمالية انتهت. وبشكل أكثر دقة، فإن التتابع يخلق أيديولوجية بديلة للذين يتم التحكم فيهم عن طريق الدولة؟

إن وجهة النظر هذه للنظرية النقدية تنال كثيرًا من التهديد الآلي بعيدًا عن القفص الحديدي لفيبر؛ لأن تحكم الدولة يكون ناعمًا وداخليًا، ولديه خطوط تثني المرونة حول هؤلاء الذين تكون تصوراتهم في عالم يسعى إلى الضبط والتحكم. إن وجهة النظر الماركسية للتحرر لا تزال موجودة في نظريات غرامش؛ لأن هدف هذه النظرية هو الكشف الكامل عن تكون إيديولوجية مستخدمة بفاعلية من أجل توضيح الأمور التابعة، بالإضافة إلى ذلك فإن معرفة هذه الأنظمة للرموز تصبح أساس المجتمع، وهي بمنزلة موضوع له صدى جيد لما بعد الحداثة.

بنيوية التوسر ALthusser's Structuralism

في البداية، سعى لويس التوسر (Louis ALthusser) بحزم على الطريقة الأرثوذكسية في المجال الماركسي أكثر من غرامشيى[١٣]؛ حيث إنه كان أيضًا عالمًا فرنسيًا من ضمن الذين كان تأكيدهم على المنطق الأعمق، والبناء التحتي للواقع التجريبي، ويظل التوسر قريبًا من ماركس في هذا الصدد، فإن البناء التحتي والمنطق للاقتصاد في النهاية هما أمران حاسمان، ولكن بعد ذلك طور نظرية أدوات الدولة الأيديولوجية التي أعطت أهمية لاستخدام الدولة للأيديولوجية؛ لكي تتحمل الضغط داخل المجتمع.

أما بالنسبة لتوسر، فإن الأنظمة الاقتصادية، والسياسية والأيديولوجية تكشف البناءات الخاصة التي تختفي تحت السطح، وتعمل من خلال منطق خاص بها. وإن الاقتصاد ممكن أن يكون هو النظام البارز الذي يرسم خطًا طوليًا للعملية الخاصة بالأبنية السياسية والأيديولوجية التي فيما بعد يكون لديها حكم ذاتي محدد أو خاص، وإن التاريخ في الجوهر هو تعديل لهذه الأبنية العميقة والعامل الفردي يصبح مجرد وعاء من خلاله تشكل الخصائص البنائية العاملة. كما أن أفعال الأفراد وتصوراتهم ومعتقداتهم، ومشاعرهم، وقناعاتهم والحالات الأخرى من الوعي هي إلى حد ما أقل

(١٣) لويس الثوسر، عن ماركس (نيويورك: بانثيون، ١٩٦٥م)؛ لينين والفلسفة (نيويورك: مطبعة الاستعراض الشهرية، (١٩٧١م)؛ لوويس الثوسر و إتين بلابار، قراءة رأس المال (لندن: نيو ليفت، ١٩٦٨م).

واقعية عن البناء التحتي الذي لا يمكن ملاحظته بطريقة مباشرة. ومن أجل توضيح النظريات الوظيفية، وصور التوسر (Althusser) فإن التحكم الاجتماعي يأتي من فهم الأفراد الذين يقومون بوضع الكلمات في نظام لغوي يتم إنشاؤه من خلال بناء رئيس، وكل ممثل له مكان في الأبنية الاقتصادية والسياسية للمجتمع، ولهم تصوراتهم لهذه الأماكن، ويتم وضعهم داخل المجال الأيديولوجي أو الثقافي، ولكن هذه الأماكن والمجالات هي فقط مجردة من الواقع؛ حيث يرى أن الناس أيضًا هم جزء من جماعة أعمق في البناء، وهي في الجوهر تعريف عن وماذا يكونون؟ فمن خلال هذه الظروف تصبح الأيديولوجية أكثر قوة؛ لأنها تعمل على إخفاء الموضوعات خلف حقيقة أخرى لها اهتمامات لفئة معينة، وأن الأيديولوجيا أيضًا تقوم بمعرفة أماكن الممثلين خلف تحكمهم المباشر، والواقع الذي يعمل من خلاله المنطقة الخاصة بالبناءات.

وهكذا، ليس كمثل ماركس أو غرامشي اللذين اعتقدا أن الأيديولوجية هي أداة صراع تستخدم من خلال هؤلاء في السلطة، وكما يرى التوسر أن أدوات الحالة الأيديولوجية بوصفها متحكمًا وأكثر، بأنه يتم فهمها ليس فقط من خلال القناعات والمبادئ، والأخلاقيات، والتقاليد والمعتقدات، ولكن من كونها جوهر نظام أكثر، ومكان أشخاص في هذا النظام الموضوع. ويتم حصره في المنطق الأكثر عمقًا للأنظمة الاقتصادية، والسياسية، والأيديولوجية التي توضح القدرات البشرية للتطبيق العملي؛ لأن البنيان الشيوعي لماركس وإنجلز كان دعوة للمؤسسين على وجهة نظر التناقضات الواضحة في طبيعة الأنظمة الرأسمالية.

التحول في مشروع ماركس

The Transformation of Marx's Project

بحلول منتصف القرن العشرين عندما بدأت الفترة المعاصرة للنظرية الاجتماعية، تحول مشروع ماركس التحررية الى شيء مختلف جدًا عن تصوره . حيث كان يدعو للشيوعية الصراعية على أساس التناقضات في الأنظمة الرأسمالية. وفي إطار المائة عام في دعوته، فإن النظرية النقدية أصبحت أكثر فلسفة بشكل عام، وفعلًا فإن تعارض ماركس مع هيجل الصغير في الإيديولوجية الألمانية لم يعمل بشكل واضح، وكانا إلى الخلف في مختلف الأشكال والمظاهر، ولكنهما هيمنا بشكل متزايد على التنظير النقدي في القرن العشرين. كان الهيجليون الصغار أكثر شراسة من نقد ماركس

وإنجيلز وقد عَدُّوا أنفسهم ثوارًا، ولكن ماركس رأى بأنهم أفرادا مختصين في الواقع نفسه، وقد أُتهموا بإلقاء فقاقيع نظرية عن المثاليات والجوهر التي يمكن تخيلها بأن ماركس وإنجلز يمكنهما جعل النقد المشابه للنظريات النقدية أكثر تطورًا في النصف الثاني من القرن العشرين، خاصةً عندما بدأت نظرياتهم بالاندماج مع ما بعد الحداثة كما سنرى فيما بعد.

مدرسة فرانكفورت المعاصرة
Contemporary Frankfurt School

إن الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني يورغن هابرماس (Jurgen Habermas) بلا شك قد أصبح هو السليل العزيز لمدرسة فرانكفورت الأصلية، فكما أنه مع الجيل الأول للنظريات الاجتماعية لمدرسة فرانكفورت، فإن عمله يدور حول العديد من الأسئلة المهمة التالية: (١) كيف تستطيع النظرية الاجتماعية أن تطور أفكارًا؟ ويمكنها أن تحافظ على المشروع التحرري لكارل ماركس قيد البقاء؟ وفي نفس الوقت التعرف على الكفاية التجريبية للمجتمعات الرأسمالية المتقدمة؟ (٢) كيف يمكن للنظرية الاجتماعية أن تواجه التحليل التاريخي لماكس فيبر للعقلانية بطريقة تتجنب تشاؤمه، وبالتالي تحفظ الأهداف التحررية لماركس في مركز النظرية؟ (٣) كيف يمكن للنظرية الاجتماعية أن تتجنب التعامل في الشخصنة للمنظرين النقدين الأوائل مثل جيروج لوكاش، وماكس هورخيمر، وثيودور أدورنو الذين ركزوا بشكل متزايد، بوصفهم حالات للوضع الشخصي مع الأفراد، وتابعًا لذلك المنظور، بأن المجتمع يبنى، ويجب أن يتحرر بواسطة العمليات التي تحمى العلاقات الاجتماعية بين الأفراد؟ (٤) كيف تستطيع النظرية الاجتماعية تصور وتطوير نظرية تصالح القوى للإنتاج المادي، و المنظمة السياسية مع القوى الذاتية المشتركة بين الأشخاص المنعكسة والواعية بطريقة تتجنب فيها: (أ) تشاؤم فيبر حول نشوء وعي الاقتصاد العقلاني والقوى السياسية. (ب) تفاؤل ماركس حول وعي الطبقة وعصيانها. (ج) والمنظرون الأوائل النقديون الذين يعيدون التعامل في جدلية هيجل (Hegel's dialect) . وكيف يشجع فيها الظلم بشكل غامض، ويشجع فيها إنكاره من خلال تزايد الوعي الشخصي والمقاومة؟

مفهوم يورغن هابرماس للمكان العام
Jurgen Habermas' Conception of "The Public Sphere"

في المنشور الأول الرئيس، فإن التحول البنائي للمكان العام تبعه هابرماس في التطور والانحلال لما أسماه "المكان العام". (١٤) وبأن هذا المكان هو مملكة للحياة الاجتماعية؛ حيث يستطيع الناس مناقشة الأمور عن الحياة العامة، ويمكنهم أيضًا مناقشة تلك المواضيع من دون مصادرة للعادات والعقيدة، وأيضًا القوة؛ حيث يمكنهم أن يستطيعوا حل الخلافات الفكرية والاختلافات في الآراء عن طريق النقاش العقلاني.

إن هذه الاجتماعات العامة ساعدت في تآكل البناء الأساس للإقطاعية التي يتم إضفاء الشرعية عليها من خلال الدين والعادات أكثر من تقبلها الذي تم الوصول إليه خلال النقاش العام والحوار. وإن المكان العام قد تم زيادته بشكل كبير، فقد ناقشه هابرماس من خلال توسع اقتصاديات السوق والتحرر الناتج عن الأفراد من القيود، وكذلك المواطنين الأحرار وأصحاب حقوق الملكية والتجار، كما أن الأعضاء في قطاعات جديدة في المجتمع يمكنهم أن يكونوا أكثر نشاطًا بخصوص حكم المجتمع، ويستطيعون بشكل أكثر انفتاحًا مناقشة الموضوعات وعرضها. وناقشها هابرماس بطريقة مشابهة لتحليل فيبر للعقلانية؛ حيث لخص هابرماس المكان العام المتآكل بواسطة بعض القوى التي تحفز تمددها أو زيادتها، فكلما استقرت خبرة اقتصاديات السوق تزداد قوى الدولة بمجهود أكبر؛ كي يستقر الاقتصاد، ومن خلال التوسع في البيروقراطية لمجالات أكثر في الحياة الاجتماعية، فإن المكان العام يتم الالتزام به، كما تسعى الدولة -بشكل متزايد- إلى إعادة تعريف المشكلات بوصفها تقنية من خلال التكنولوجيا ومراحلها، وإجراءات إدارية أكثر منها عن الحوار العام والنقاش.

كل العناصر الرئيسة في النظرية النقدية موجودة في العمل الرئيس الأول لهابرماس، وهو انحدار الحرية مع تمدد الرأسمالية والدولة البيروقراطية تماما مثل القوى الساعية لبناء الدولة، والتحكم في الحياة الاجتماعية، وأن الحل لهذه المشكلات هو إعادة إحياء المكان العام، ولكن كيف لهذا أن يحدث ويعطي القوة للدولة النامية؟ وهكذا فإنه في إطار هذا العمل المبكر قد صور فيه

---

(١٤) *JürenHabermas, Struckturwandel der Offentlichkeit (Neuwied, Germany: Luchterhand, 1962); Jürgen Habermas, Zur Logik der Sozialwissenschaften (Frankfurt: Suhrkamp, 1970).*

هابرماس نفسه في نفس الجانب التصوري مثل معلميه في مدرسة فرانكفورت. لذا فإن تصوره للمكان القادم لعمله قد زوَد بالنقد للمجتمع الرأسمالي؛ ولكنه أيضًا حاول إعادة توجيه النظرية النقدية؛ حيث إنها لم تحتج إلى إعادة معاملة الشخصنة التأملية للوكاس وهورخيمر وأدورنو؛ حيث بدأ هابرماس هذا المشروع في أواخر (١٩٦٠م) مع تحليل لنظم المعرفة ونقد العلم.

نقد العلم The Critique of Science

مثل النظرية الأكثر نقدًا؛ إذ إن العلم يتم النظر إليه كجزء من المشكلة مع الحداثة.(١٥) فإن العبارة الطويلة لهابرماس بخصوص هذا الموضوع هي: إن العلم يصبح بمنزلة أيديولوجية تضفي الشرعية لهؤلاء الذين يسعون إلى التحكم التقني للأعضاء في مجتمع ما، وإن هذه الأيديولوجية تسهم فيما يسمونه أزمات الشرعية مثل كل الأيديولوجيات، فالعلم كأقنعة إيديولوجية للمصالح الخاصة بقطاع ما في المجتمع، وهذه المصالح تقوم بعمل أفعال ما ، وتسعى للحصول على الحق والملكية، وفي حال كانت الأيديولوجية للعلم والممثلين الاقتصاديين والسياسيين فإنها تضفي عليها الشرعية. كما يتم النظر في المشكلات في المجتمع بوصفها مشكلات تقنية، وأن المهندسين الاجتماعين يمكنهم إيجاد الحل للمجتمع، وهذه الأيديولوجية تسوِّغ القوى والتأثير لهؤلاء الذين يتحكمون في الاقتصاد والسلطة في المجتمع، ولكن أيديولوجيا العلم تفعل أكثر من النقدية التي تفحص التناقضات في المجتمعات والأشكال التاريخية والتفسيرية للمعرفة التي تعطي معًنى للحياة، وهكذا فإن لنقد العلم معنًى هو أنه يسلط الضوء على هدف المعرفة النقدية والاهتمامات لهؤلاء في تطوير المعرفة النقدية من أجل فهم العمليات التي من خلالها يصل الناس إلى فهم بعضهم البعض بطرق تعطي معنًى وشعورًا للاستمرارية في الحياة الاجتماعية.

---

(١٥) يورغن هابرماس ، المعرفة والمصلحة الإنسانية، ترجمة. ج. شابيرو (لندن: هينمان ، ١٩٧٠م، نُشرت النسخة الأصلية باللغة الألمانية في ١٩٦٨م). وقد تم الإعلان عن الأفكار الأساسية لزور لوجيك سوزيسسيشوافين والمعرفة والمصلحة البشرية في محاضرة هابرماس الافتتاحية في جامعة فرانكفورت في عام ١٩٦٥م، ونُشرت النسخة الأولى باسم "المعرفة والاهتمام"، التحقيق ٩ (١٩٦٦م): ص من ٢٨٥ إلى٣٠٠ .

أزمة الشرعية في المجتمعات Legitimation Crisis in Societies

وكما ناقش هابرماس Habermas في عمله الأول فإن هناك العديد من الاتجاهات التاريخية في المجتمعات الحديثة منها: (١) انهيار المكان العام. (٢) تزايد التدخل للدولة في الاقتصاد. (٣) الهيمنة المتزايدة للعلم في خدمة اهتمامات الدولة في الضبط التقني.[١٦] وهذه الأفكار هي محبوكة معًا في الأزمات الشرعية، وهي ليست موضوعات للنقاش العام، بل تتطلب استخدام تكنولوجيا بواسطة خبراء في المنظمات البيروقراطية، ونتيجة لذلك؛ فإنه يوجد هناك تسييس في المناقشات العملية من خلال إعادة تعريفهم كمشكلات تقنية. ولكي تقوم بفعل هذا؛ ستنتقل الدولة إلى وعي تكنوقراطي؛ حيث يعتقد هابرماس بعرض نوع جديد من الأيديولوجية ليست مثل الأيديولوجيا السابقة، ولكنها تتميز بأنها تشير إلى قدرتها على حل المشكلات لتيسير اختيارات واضحة أو مفهومة. ولتبرير طريقة محددة لتنظيم الحياة الاجتماعية، وفي قلب هذا الوعي التكنوقراطي لا بدَّ من التأكيد على السبب للأداة أو ما أسماه فيبر أساليب نهاية العقلانية، هذا معيار للكفاءة في الوسائل الخاصة بإدراك الأهداف بشكل متزايد، والتي تحكم التقييمات للعمل الاجتماعي، والمنهج الخاص بمشكلات الناس. كما أن التأكيد على السبب الفعال يُبعد أنماطًا أخرى من العمل مثل: السلوك الموجه للفهم المتبادل.

إن هذا الاعتماد على الأيديولوجية للوعي التكنوقراطي يخلق مأزقًا جديدًا للشمولية السياسية، فالمجتمعات الرأسمالية يمكن تجزئتها إلى ثلاثة نظم فرعية أساسية، هي: (١) الاقتصادي. (٢) الإداري. (٣) الثقافي الذي أسماه فيما بعد "عالم الحياة" من هذه التقسيمة للمجتمعات في هذه الأنظمة الفرعية. كما اقترح هابرماس أربع نقاط أسماها "نقاط الأزمات"، وهي: (١) أزمات اقتصادية وهي التي تحدث لو أن النظام الفرعي اقتصادي لا يمكنه خلق إنتاجية فاعلة لتلبية احتياجات الناس. (٢) أزمات عقلانية وهي التي تكون موجودة عندما يكون النظام الفرعي السياسي الإداري لا يستطيع إنتاج عدد محدد من القرارات المطلوبة أو المهمة. (٣) أزمات في الدافعية وهي التي توجد عندما لا يستطيع الأفراد استخدام رموز ثقافية من أجل خلق معنى فاعل

---

(١٦) يورغن هابرماس ، أزمة الشرعية، ترجمة.ت. مكارثي (لندن: هينمان، ١٩٧٦م، نُشرت النسخة الأصلية باللغة الألمانية في ١٩٧٣م).

لإحساس الشعور بالالتزام بالإسهامات الكاملة في المجتمع. (٤) أزمة الشرعية ، وتزداد عندما لا يمتلك الأفراد عددًا مطلوبًا من الدفاعيات العامة، أو لا يفعلون الاستخدامات في حقوق أنظمة فرعية سياسية في اتخاذ القرارات، فإن المزيد من هذا التحليل للأزمات يمكن وصفه بها أسماه ماركس، ولكنه يؤكد على أن الأزمات الاقتصادية والعقلانية هي أقل أهمية من الأزمات الشرعية والدافعية. فالوعي التكنوقراطي يخترق كل الأماكن في الحياة الاجتماعية، ويخلق اقتصاديات منقذة ودولة قوية، وأن اتجاهات الأزمات في الرأسمالية الأخيرة تتغير من عدم المقدرة في إنتاج منتجات اقتصادية فاعلة أو قرارات سياسية إلى الإخفاق في إنتاج: (أ) التزامات كثيرة منتشرة لعمليات السياسية، و (ب) معاملات كافية للمعنى بين الأفراد.

في الأزمات الشرعية يوجد هناك شكل مبكر عندما يحدث وضوح مهم للعمليات النظامية التي تدور حول الاقتصاد والجهاز السياسي الإداري للدولة، ويجب أن يتم تمييزه من العمليات الثقافية. سيكون هذا الوضوح فيما بعد تصورًا كنظام وعالم حياة، ولكنه النقطة المركزية في هذا، والمتناغمة مع أصول مدرسة فرانكفورت. فقد تغير تأكيد هابرماس من التحليل الماركسي للأزمات الاقتصادية للإنتاج إلى أزمات المعاني والالتزام، ولو أن مشكلات الأزمات للمجتمعات الرأسمالية كانت موجودة في هذه الفترات فإن النظرية النقدية يجب أن تركز على العمليات التفاعلية والتواصلية التي يستطيع من خلالها الإنسان خلق فهم لنفسه، وإدراك معانيها، لو أن هناك سببًا فاعلًا لنهاية العقلانية، ويتم من خلاله العمل المبني على التفاهم المتبادل والالتزام. ولذا إن هدف النظرية النقدية هو الكشف عن هذا الاتجاه واقتراح طرق للتغلب عليها، خاصة أن الأزمات الشرعية والأزمات التشجيعية تجعل الناس على علم بأن شيئًا ما مفقودًا من حياتهم؛ ولهذا فإنه يجعلهم أكثر تقبلًا لبدائل التحرر؛ ولذلك فإن مهمة النظرية النقدية هي تطوير المفهوم النظري الذي يجعل للبناء معنًى والتزامًا في الحياة الاجتماعية، وسيتم من خلاله إدراك هذا الهدف. كما ناقش هابرماس بشكل متزايد، عن طريق الفهم، كيفية تواصل الناس وتفاعلهم وتطوير المعاني الرمزية فيما بينهم.

التحليل المبكر للخطاب والتفاعل

Early Analysis of Speech and Interaction

في نهاية (١٩٧٠م) بدأ هابرماس مراجعة هدف النظرية النقدية؛ كونها تؤكد على عملية التفاعل بوصفها وسيلة مهمة للحديث يتم تحصيلها عن طريق الخطاب [١٧](١٧)، ولكن مثل هذا الحديث يبنى على قدر كبير من - المعرفة، والمبادئ، والمعايير، والقيم والتفاهمات والمفاهيم الضمنية وآثار الذاكرة، وغير ذلك من أجل تفسيرهم. إن هذه القيم أو المثل لعمليات الخطاب تعرض إعادة صياغة الحديث في سياقه المناسب في المكان العام المفضل، وتكون الموضوعات هي بمنزلة نقاشات مفتوحة يمكن حلها بشكل عقلاني. وما قام به هابرماس بالطبع هو إعادة النظر إلى فحص النظرية لما هو الجيد والمرغوب في المصطلحات التصورية والنظرية، وعلى الرغم من أنه يمكن أن يكون هناك نقاش دوّن اختلافًا كبيرًا ما بين الأماكن الرومانتيكية للأماكن العامة والتصورات النموذجية المثالية للخطاب. ولكن مع مثل هذا التصور فإن هدف النظرية النقدية يجب أن يفترض هذه الظروف التي تشوه التواصل، وتمنع إدراك موقف الخطاب المثالي. إن مثالية هابرماس (يوتوبيا) هي بمنزلة مجتمع يستطيع فيه الأفراد التواصل دون خلاف، ويحققون قدرًا من الحالة الشخصية لبعضهم البعض، ويتصالحون بشكل مفتوح مع اختلافاتهم من خلال النقاش الذي يكاد يخلو من القيد والإكراه الخارجي، ويولد - طريقة أخرى- الذكر بأن المكان العام في طريقة أكثر شرعية يكون في التفاعل اليومي للناس.

حاول هابرماس التنقل في العديد من الاتجاهات المختلفة لبناء منهج عقلاني لإدراك هذه المثالية، وقد استعار -بشكل ضمني- من النظرية النفسية طريقة لتغطية التشوية الذي يقوم بمنع فتح الحوار، ولكن هذه الرحلة النفسية تكون أقل أهمية عن زيادة التركيز على عملية التواصل والتفاعل كالأساس في خلق مجتمع يعمل على تقليل التميز. وهكذا، فإنه بمنتصف (١٩٧٠م) قد سمى تحليله

---

(١٧) يورغن هابرماس ، "بشأن الاتصالات المشوهة بصورة منهجية"، التحقيق ١٣ (١٩٧٠م): ص ٢٠٥-٢١٨؛ غورجن هابرماس، "نحو نظريةلكفاءة التواصل،" التحقيق ١٣ (١٩٧٠م): ص ٣٦٠-٣٧٥. وللاطلاع علي البيان الأولَي، انظر "بعض أوجه التمييز في البراغماتية العالمية: ورقة بحث،" النظرية والمجتمع ٣ (١٩٧٦): ص ١٥٥-١٦٧.

"الذرائعية العالمية"، وكان محورها هو نظرية حركة التفاعل. [١٨] ويتضمن التفاعل أكثر من مجرد كلمات، وقواعد، وعلم اللغويات، فهو أيضًا يتضمن ما أسماه هابرماس "المجالات الموضوعية". ويوجد هناك ثلاثة أنواع أساسية من المجالات في التفاعل، وهي: (١) تلك التي تؤكد أن حوارًا لأمر يستدل عليه من خلال الخطاب هو الوسيلة الأكثر فاعلية وكفاءة في تحقيق النهايات. (٢) تلك التي تزعم بأن الفعل صحيح ومناسب وفقًا للمعايير ذات الصلة، فيصبح الفعل صحيحًا ولائقًا بالمطابقة مع تلك المعايير. (٣) تلك التي تحافظ على الخبرات الشخصية كما هي معبر عنها في الخطاب وهي صادقة وحقيقية، وكل أفعال الخطاب -بشكل ضمني- تعمل على هذه المطالبات الثلاث. وعلى الرغم أنه من خلال الخطاب يمكن التأكيد على أن واحدًا أكثر من الاثنين الآخرين من المستجيبين للاقتصاد يمكنهم قبول أو تحدي هذه المطالبات الواقعية ولو تم تحديها، ومن ثم فإن الأفراد يتسابقون ويناقشون وينتقدون، ويراجعون اتصالاتهم، وأنهم يستخدمون بالطبع مجموعات من المعرفة عن المعايير، ووسائل إنهاء الفاعلية، والصدق لجعل مطالبهم تقوم على التنافس ومراجعتها.

إن هذه العملية التي تعيد صياغة المكان العام هي غالبًا ما تكون مغتصبة، وبخاصة عندما يتم تسوية المطالبات عن طريق القوة والسلطة، ولكن إذا تمت تسوية المطالبات عن طريق إعطاء أسباب أو أسباب مضادة، فإن المطالب تكون في إطار أخذ وعطاء متبادل بين الأفراد، فإن هابرماس يراها بأنها "الخطاب العقلاني". وهكذا فإن التفاعل في حد ذاته هو عملية محتملة تمثل الخطاب العقلاني الذي يمكن استخدامه لخلق مجتمع منفتح وأكثر حرية. ومثل هذا الخطاب هو ليس وسيلة نهائية، ولكنه مجرد عملية عقلانية؛ حيث يتضمن حكمًا قضائيًّا لمطلبين حقيقيين آخرين متعلقين بالملاءمة المعيارية وبالصدق الشخصي، ويقيمون الأفراد بشكل ضمني، وينقضون بعضهم البعض من أجل الفاعلية، والملاءمة المعيارية والإخلاص لخطابهم المحترم؛ لذلك فإن هدف النظرية النقدية هي افتراض هذه الظروف المجتمعية التي تحافظ على مثل هذه العمليات من الحدوث لكل النماذج الثلاثة للمطالب الموضوعية.

---

(١٨) يورغن هابرماس ، نظرية العمل التواصلي، ٢ مجلدان (ذكر في الإيضاح ١٩)، العنوان الفرعي للمجلد ١، العقل والتنظيم المنطقي للمجتمع، يعطي بعض المؤشرات لفحواه. وقد قام المترجم توماس مكارثي بتقديم خدمة ممتازة في ترجمة النثر المعقد جدًّا. كما أن "مقدمة المترجم" إلى المجلد ١، ص ٥-٣٧، هي أفضل ملخص لنظرية هابرماس الأخيرة التي صادفتها.

صياغة مفاهيم التطور الاجتماعي عند هابرماس

Habermas' Reconceptualization of Social Evolution

لقد طوَّر هابرماس -مثل ماركس- وجهة نظره عن العمل التفاعلي من خلال إطار تطوري لمراحل التطور الاجتماعي، وكانت وجهات نظره للتطور هي تذكرية لنماذج المرحلة الوظيفية، -أيضًا- والنماذج الماركسية.(١٩) وهابرماس ينظر للتطور على أنه تباين بنائي، وظهور للمشكلات التكاملية والنقاشات في جوهر نظرية كل من كونت، وسبنسر، ودوركايم، وتالكوت بارسونز الخاصة بوجهات نظرهم بشأن التطور الاجتماعي، كما استعار أيضًا من سبنسر، وتالكوت بارسونز، ونيكيلوس لوكمان عندما ناقشوا أن التكامل بين الأنظمة المعقدة يؤدي بدوره إلى الترقية؛ حيث تعمل على زيادة قدرة المجتمع لكي يتلاءم مع البيئة. فعلى سبيل المثال مجتمع بميثولوجيا دينية فقط، سوف يكون أقل تعقيدًا وأقل قدرة على الاستجابة للتحديات البيئية من المجتمع المعقد الذي لديه كمية ضخمة في التكنولوجيا والمكونات للإجراءات المعيارية التي تحدد مبادئ الأنظمة.

تعد الأساسيات للتكامل الاجتماعي في المجتمعات هي عمليات التواصل؛ لأنها تسمح للأفراد بتطوير التفاهم المتبادل ومخازن المعرفة. وإلى حد ما فإن هذه العمليات المتفاعلة يتم حصرها من خلال نماذج الأنظمة الاقتصادية والسياسية، كما أن قدرة تعلم المجتمع في المقابل تتضاءل.

ولعل إحدى المشكلات التكاملية الرئيسة في المجتمعات الرأسمالية هي التكامل في قوى إنتاج المادة، فالاقتصاد يتضاءل عن طريق الدولة، وفي الجانب الآخر فإن المخزونات الثقافية للمعرفة التي تنتج عن طريق التواصل التفاعلي في المجتمعات تتباين ماديًّا في العوالم الاقتصادية والسياسية عندما لا يكون هناك تحديد للتكامل في مستوى المعارف والثقافة التي تعمل على مشاركة الفهم، وسوف تظل غير متكاملة وتمر بالأزمات.

وبناءً على ديناميات التواصل، فإنه الحل للمشكلات الخاصة بالمجتمعات الرأسمالية المتقدمة هو في عملية التواصل التفاعلي؛ بأن تنتج وتعيد إنتاج رموز ثقافية احتمالية موحدة تعمل على إنتاج مجتمع أكثر انفتاحًا وحرية.

---

(١٩) يورغن هابرماس. الاتصال وتطور المجتمع، ترجمة ت. مكارثي (لندن: هينمان، ١٩٧٩م).

ووفقًا لذلك فإن الجنس البشري يحافظ على نفسه بترابط الأعضاء من خلال أنشطة تعاونية اجتماعية، ويُبنى هذا الترابط بالتواصل الذي يهدف إلى تحقيق التوافق. لهذا، فإن إعادة بناء الأجناس البشرية يتطلب إرضاء الظروف العقلانية المتضمنة التواصل الفعلي.

التوازن المتغير بين النظام والعمليات الثقافية (عالم الحياة)

The Changing Balance Between System and Lifeworld (Cultural) Processes

يغير تطور المجتمعات التوازن بين "النظام" و"عالم الحياة"، فعمليات النظام تدور حول التطور السياسي والاقتصادي، أو تشكل عمليات نظام غزوا متزايدا للعمليات الثقافية وعالم الحياة. فبهذا الغزو أو ما أسماه هابرماس -غالبًا-: "الاستعمار" يعني نهاية العقلانية التي تزيح بالعمليات الثقافة التي تولد المعنى بين الأفراد أو عمليات عالم الحياة إلى الإرباك؛ مما ينتج عنه أزمات شرعية تدور حول ضعف الدافعية لدى لأفراد، والتي تخلق الحيرة في تحديد الالتزامات للمجتمع التي - بدورها- تولد أزمات للشرعية.

كما أن الأزمة قد تصبح متأصلة في التباين البنائي للمجتمعات؛ لأن كل نظام مؤسسي مندمج. وعلى سبيل المثال فإن الاقتصاد، والسلطة، والقانون، والتعليم والطب كلها تصوغ مشكلاتها بشكل متزايد في إطار مصطلحات تقنية، وبالتالي تفصل الثقافة من عمليات معدل النظام، ويصبح عالم الحياة الذي يعطي المعنى للأفعال منعزلًا عن عمليات النظام، وحينئذٍ تكون وظيفة النظرية النقدية نتيجة لزيادة الانفصال بين النظام وعمليات عالم الحياة. وبفعل هذا تشير النظرية النقدية إلى الطريق الأمثل لحل أزمات المشكلات الشرعية وتكامل المجتمعات.

يمثل هدف النظرية النقدية واحدًا من المحددات التي تبنى حولها العقلانية التواصلية (كما هو مفترض بمعنى نهاية العقلانية). فهو يبنى حول مطالبات الموضوعية المؤكدة في السياق النموذجي الذي يحتاج إلى أن تتم إعادة حفظه، فكلما هيمنت وسائل السلطة والمال والمجالات المؤسسية أكثر من الثقافة على البناءات الاجتماعية، فإن المجتمعات المتباينة المعقدة لا يمكن تكاملها.

فقد تراجع هابرماس ووضع دائرة للتصور المبدئي لهذه النظريات النقدية المبكرة؛ إذ أعاد صياغة أطروحة فيبر عن طريق التأكيد على أن العقلانية الحقيقية موجودة في العمل التواصلي، وليست في وسيلة النهاية أو العمل الإستراتيجي والقياسي لفيبر. كما أعاد هابرماس تعريف مفهوم المنظرين

النقديين للأزمات الحديثة بأنها ليست الأزمات العقلانية، ولكنها أزمات الاستعمار لتلك العمليات العقلية الحقيقية التي كانت متأصلة في الخطاب للعمل التواصلي الذي يعيد إنتاج عالم الحياة، ويكون بذلك أساسًا للتكامل الاجتماعي. وبناء على عمليات التكامل للمجتمعات المتباينة، فإن احتمالية النظرية النقدية التي تسعى إلى إعادة تخزين العقلانية التواصلية، على الرغم من السلطة المبنية للمجهول التي تسعى إلى ميكانزمات مثل المال والسلطة لعمليات النظام. ولو أن تباين النظام يحدث من خلال تمدد صياغة وسائل الإعلام مثل (المال والقوة)، إلا أن هذه تقلل من الاعتماد على الأفعال التواصلية، ومن ثم فإن الأزمات لا مفر منها. كما أن التشتت الجمعي الناتج عن عدم وجود معنى للحياة الاجتماعية يمكن استخدامه عن طريق المنظرين النقديين من أجل تحريك الناس لإعادة تجديد التوازن اللائق بين النظام وعمليات عالم الحياة. وهكذا فإن أزمات الإنتاج المادي لن تكون هي قوة الدفع للتغير كما ادعى ماركس. ومن أزمات إعادة إنتاج عالم الحياة التي سوف تخدم الحافز للمنظمة المجتمعية بالعودة إلى عمل هابرماس الأول، فقد رأى أن إعادة المنظمة يتضمن: (١) استعادة للمكان العام في السياسة؛ حيث يتم إعادة صياغة المناقشات، والنقاش أكثر من إعادة صياغة القوة والسلطة التي تستخدم لخلق قرارات سياسية لتقليل المشكلات الشرعية. (٢) تزايد العمل التواصلي من وراء هذه الأماكن كالأسرة، والعمل، والعلاقات الاجتماعية التي أصبحت -بشكل متزايد- مهيمنة عليها بواسطة إعادة صياغة التوجيه؛ وبالتالي يمكن تقليل أو تحجيم الأزمات الدافعية.

ويكون احتمال إعادة المنظمة متلازمًا مع داخل طبيعة التكامل الاجتماعي من خلال تأصل العقلانية في العمل التواصلي الذي يعيد إنتاج عالم الحياة. وغرض النظرية النقدية هو عرض طريقة كيفية إطلاق الفرضية العقلانية.

تحول ما بعد الحداثة في التنظير النقدي

The Postmodern Turn in Critical Theorizin [٢٠]

تبدأ النظرية النقدية لما بعد الحداثة بمهاجمة مطولة على الذرائع العلمية لعلم الاجتماع، وهو الهجوم متعدد المسارات، ويمكن توضيح هذه المسارات الرئيسة بأنها واحدة من هذا النقد، وهي

---

(٢٠) ويتم تأليف بقية هذا الفصل مع كينيث ألن.

النظرية العلمية التي تقدم تفسيرات حقيقية أو موضوعية، وهذه التفسيرات العلمية هي كما يناقشها القائمون على ما بعد الحداثة، أو المختصون بها، بأنها عبارة عن روايات كبيرة عن المجتمع الذي لم يعد موضوعه أكبر من الوحدات الأخرى، ولذا فإن العلماء يسعون إلى إضافة ذلك للحصول على امتيازات لرواياتهم عن الآخرين.[٢١] ويميل النقد الآخر إلى أن العلم يكون أعلى من الاهتمامات السياسية والتأثيرات المشوهة الأخرى، في حين أن الواقع يختلف عن ذلك؛ لأن العلم يهتم بالبحث عن القوانين للعالم الاجتماعي من أجل خدمة بعض الاهتمامات المهمة في المجتمع، ويفترض العلم بأن المعرفة تراكمية يتم جمعها عبر الزمن، وهو إحدى السمات المميزة للحداثة. ولكن في حقيقة الأمر كان هناك انقطاعات أو فجوات في المعرفة مرة أخرى، كما أن التغيرات في المجتمع تؤدي إلى الاهتمام بالفصائل البارزة فيه، فلا معرفة دون تغييرات في الوظائف المهيمنة في المجتمع؛ لأن العلم يفترض بأن هناك عالمًا موضوعيًّا منه يكشف عن خصائص جوهرية يمكن تفسيرها عن طريق النظرية، ولكن العالم الخارجي يكون في حالة تغير بشكل مستمر، أو يغير من الطبيعة الجوهرية، خاصة عندما يغلب على ممثليه اهتماماتهم المتباينة، كما أن هذه الخطوط المتشابهة الهجوم ليست جديدة على وجه الخصوص، ولكن القائمين على ما بعد الحداثة غالبًا ما يأخذون بالحد الأقصى منها.

و -بشكل فضولي- فإن عملهم الخاص في طرح طبيعة التكوينات المجتمعية لما بعد الحداثة يكون ضعيفًا، وبشكل متساوٍ في مستويات التفسيرات. ويفترض القائمون على ما بعد الحداثة، على الرغم من مساواتهم بتفسيراتهم، بأن هناك شيئًا ما خارجًا عن الحديث عنه بوضوح. وعلى سبيل المثال ما بعد الحداثة، فإن الإعراض عن الاهتمامات هي التطورات الأكاديمية في النقد الذي قد تم تفسيره بالعلم. إذن؛ ما الذي يجعل النظرية النقدية لما بعد الحداثة أكثر ممارسة من قبل ممارسيها، وما هي وجهات نظر ممارسيها عن ظروف ما بعد الحداثة؟ وكيف تكون ضارة؟ ولذا فإن وصف

(٢١) ريتشارد روتي"الفلسفة كنوع من الكتابة: مقال علي دريدا،" التاريخ الأدبي الجديد ١٠ (١٩٧٨م): ص ١٤١-١٦٠؛ الفلسفة ومرآة الطبيعة (برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٧٩م)، "الوسيلة و العلم الاجتماعي، والأمل الاجتماعي"، منعطفات ما بعد الحداثة، منظورات جديدة علي النظرية الاجتماعية، طبعة ستيفن زدمان (كمبريدج: مطبعة جامعة كمبريدج، ١٩٩٤م).

ظروف ما بعد الحداثة، والمجهودات في تفسير الوظائف والاندماج فيها إنما هو افتراض للعديد من المنظرين النقديين لما بعد الحداثة. كما أن البناء الحالي للنظرية النقدية إنما يعني أنها نظرية علاجية إلى حد ما.

والأكثر أهمية من ذلك هو إدخال المركب في التنظير النقدي لما بعد الحداثة، ولذا فإن وجهة النظر الموضوعية يمكن تقسيمها إلى: (١) ما بعد المحدثين الاقتصاديين الذين هم الأقرب إلى المنظرين التقليديين، خاصة ماركس. (٢) ما بعد المحدثين الثقافيين الذين يؤكدون على الأهمية المتزايدة للثقافة فوق الظروف الاقتصادية.

ما بعد الحداثة الاقتصادية
Economic Postmodernism

إن ما بعد المحدثين الاقتصاديين المهتمين برأس المال خاصةً والتراكم المتزايد، مثل االدرجة الخاصة بالتشتت، والحركة السريعة في نظام العالم الجديد للأسواق المتصلة بتكنولوجيا المعلومات. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الثقافة أو أنظمة الرموز ينظر إليها كإدماج للعمليات الاقتصادية، ولكنهم يبذلون تأثيرًا غير مستقل، ليس فقط على الاقتصاد، ولكن أيضًا على السعي البشري على مسطح صغير. وبالفعل فإن بعض الاقتصايين في ما بعد الحداثة، وبعض الرأسمالية المتقدمة التي تطورت في مرحلة جديدة من التاريخ البشري.[٢٢] فهي مثل الحداثة المبكرة يمكن صياغتها في مجموعة من المشكلات متضمنة قلة الشعور الجوهري بالذات، واستخدام الرمزية كثيرًا في الوسائل المادية لضبط الأفراد، والبروز المتزايد للمصادر الثقافية ، وإن كل أدوات القمع والمقاومة المحتملة والانفصال العاطفي للأفراد من الثقافة، وضياع الهويات القومية وتغير متلائم للهويات الإقليمية والشخصية، فإن هذه القائمة العلاجية لحقبة ما بعد الحداثة، تبدو وكأنها أكثر من تلك المتعلقة بعلماء الاجتماع الأوائل عندما عملوا على هذه الأمور وكأنها مخالفة للسلوك العام، أو نوع من الأنانية عند دوركايم، أو الغربة عند كارل ماركس، أو الذات المهمشة عند جورج سميل، والتحكم الأيديولوجي، والتلاعب عن طريق القوة عند (ماركس). وبعد ذلك أنطونيو غرامشي، ولويس التوسر، وثيودور،

---

(٢٢) انظر -على سبيل المثال: ستيفن كروك، يان باكولسكي، ومالكولم ووترز، ما بعد الحداثة (لندن: سيج، ١٩٩٢م).

والتعبئة الأيديولوجية كمقاومة لماركس عبر التباين والتجزئة للبناء الاجتماعي، وأيضًا آدم سميث، هربرت سبنسر ودوركايم، والعقلانية والهيمنة عن طريق الإفراط في القلق الخاص بالفاعلية، وماكس فيبر، وهكذا، فإن ما بعد المحدثين الموجهين اقتصاديًا قد أكدوا على العديد من الاتجاهات التحليلية المشابهة التي اعتمدوها بالتنظير عن الحداثة.

لقد أكد هؤلاء العلماء في هذا القطاع على ديناميات الرأسمالية عندما تتولد جديدة في ظروف ما بعد الحداثة.

فريدريك جيمسون Fredric Jameson

بين الأشكال الرئيسة فيما بعد الحداثة الاقتصادية، يُعدُّ فريدريك جيمسون (Fredric Jameson) أكثر الماركسيين صراحة.[٢٣] ذلك على الرغم أن نظريته عن التفاعل المعقد بين الرأسمالية المشتركة أو متعددة الجنسيات، والتطور التكنولوجي والإعلام، والديناميات الحقيقية فيما بعد الحداثة التي تدور حول طبيعة رأس المال. فقد ناقش جيمسون أن الرأسمالية قد تمت من خلال ثلاث مراحل واضحة، وكل مرحلة مرتبطة بنوع خاص من التكنولوجيا، وأن رأسمالية السوق المبكرة كانت مرتبطة بالميكنة البخارية في القيادة.

وكانت الرأسمالية الاحتكارية المتوسطة تتسم بالبخار ومحركات الاحتراق، والرأسمالية متعددة الجنسيات التي ظهرت مؤخرًا تتعلق بالطاقة النووية والآلات الإلكترونية. فالرأسمالية المتعددة الجنسيات هي موضوع نظرية ما بعد الحداثة التي يكون فيها إعادة إنتاج الرموز للماكينات والكاميرات، والحواسب الآلية، وأجهزة الفيديو، والأفلام، ومسجلات الصوت، وماكينات الفاكس. كما يزيد الرابط المباشر بين الإنتاج الإنساني وإعادة العروض الرمزية الخاصة به. وتولد هذه الآلات تتابعًا للإشارات التي هي على قمة الرموز التي تعيق من طبيعة العلاقات بين الفكر والعقل، أو التطبيق العملي في مصطلحات ماركس بأن العلاقة بين العالم المادي والرمزي قد تغيرت بطبقات الرموز التي تتوسط العلاقات التي يمتلكها الناس في الظروف المادية. ونتيجة لذلك أصبح من الصعب أن نفكر في العالم المادي عندما يكون لدى الأفراد إحساس ضعيف عنه؛ لأن التفكير

---

(٢٣) فريدريك جيمسون الوضع بعد الحداثة (مينيابوليس: مطبعة جامعة مينيسوتا، ١٩٨٤م).

الآن تتم الهيمنة عليه عن طريق الرموز التي غالبًا ما تستبعد بعيدًا من العملية الحقيقية للإنتاج، وأن أدوات إعادة إنتاج الرمزية الآن تقوم بتشويه الفكر، وتمنع الأفعال ذات المعنى.

ومن خلال التصور لفلسفة ماركس للمعرفة، فما زال جيمسون يحاول استخدام طريقة التطبيق العملي لنقد البناء الاجتماعي للواقعية فيما بعد الحداثة. وقد ناقش ماركس أن الواقعية لا توجد في صورة تصورات، وأفكار أو أفكار عكسية، ولكن في العالم المادي للإنتاج. ولقد كسر هيغل الصغير هذا الفكر بخصوص هذا الموضوع بعد أن رآهم يقذفون بأفكار من فقاعات لنظرية عن الواقع مثل الجيل الأول من المنظرين النقديين في الحقب الأولى للقرن العشرين. وعلى الرغم من أن فترة القرن العشرين الأخيرة والمبكرة في أول القرن الحادي والعشرين تبدو أكثر أهمية، وطبقًا لجيمسون، فإن خلق الوعي من خلال الإنتاج بطريقة لا تدعو إلى المشكلات التي تعرض فيها عن "طريقة الجمالية للآلات والمعدات" في المراحل المبكرة للرأسمالية، ولكن في نظام الرأسمالية المتعددة الجنسيات فإن الآلات والمعدات الإلكترونية مثل كاميرات الفيديو، والفيديوهات، والمسجلات الرقمية، والحواسب الآلية ليست لديها نفس القدرة للمضمون؛ لأنها آلات خاصة بإعادة الإنتاج أكثر منها آلات إنتاج.

وهكذا، فإن أساس الفكر والمعرفة فيما بعد الحداثة ليس مزيفًا بسهولة. كما تعرض وجهة نظر ماركس للوعي المزيف والمؤكد عليه في عدم وجودها؛ لأن آلات الرأسمالية الأخيرة تعيد إنتاج المعرفة أكثر، ولأن إعادة الإنتاج نفسها تركز على الوسط أكثر؛ ولذا فإن سلسلة المضمون من الموضوع تم تعطيلها. ولقد وصف جيمسون هذا التعطيل كانفصام الشخصية عن الثقافة، بأنها علاقة في ما بين الدال والمدلول تم تعطيلها، وأن سلسلة المضمون تدل على أن كل علامة تقف بمفردها، وهكذا فإن المعنى يطفو بحرية ويوجد في أي واقع مادي واضح.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن عالم ما بعد الحداثة والمهيمن عليه عن طريق الآلات لإعادة الإنتاج، إضافة إلى اللغة التي تقد القدرة على دمج التصورات الخاصة بالمكان أو إلى لحظة من الزمن أو للموضوعات، بالإضافة إلى فقد القدرة في تنظيم الرموز إلى أنظمة متجانسة للتصورات عن المكان. فعندما تفقد اللغة هذه القدرات يصبح الزمن بعيدًا. فلو أصبح النظام مجزئًا ويطفو بحرية، أو أنه مجزأ من دون ترتيب، فإن معاني التصورات للعلاقة في الزمان والمكان لا يمكن ضمانها.

وبالفعل يصبح المعنى في هذه الموضوعات إشكاليًا، وقد يتم تعطيل الاتصال التصوري بين الحاضر وعلاقته بالماضي، وبعد ذلك تكون الخبرات الفردية سلسلة من الأشياء المعروضة الواضحة غير المتصلة بالوقت أو بالزمن.(٢٤)

لقد ذهب جيمسون لكي يناقش بأن الثقافة في ظروف ما بعد الحداثة قد حدث لها تجزؤ أكثر من موضوع النفور الخاص بماركس. فليس لدى الذات نفور من الفشل للتحكم في الأنشطة الإنتاجية الخاصة بها أكثر من الذات التي هي الآن مجموعة من الصور في عالم مادي تتم السيطرة عليها من خلال أدوات إعادة الإنتاج أكثر من الإنتاج ذاته، بالإضافة إلى ذلك، ينتج الانحراف عن المركز لما بعد الحداثة نوعا من التسطح العاطفي لعدم العمق، حيث إنه لم تعد هناك أية ذات تقوم بهذا الشعور (العواطف)، وهي الآن تطفو بحرية وتكون غير شخصية.(٢٥)

وتكون الموضوعات مجزأة وغير محلولة بعد وجود أساس للمادة الخاصة بالوعي أو الروايات عن مواقفها. وفي أثناء هذه الظروف تكون قدرة الأفراد لاستخدام التطبيق العملي للتفاعل واستخدام الأفعال لخلق الأفكار أمرًا متضائلًا. وبالطبع فإن القدرة على التطبيق العملي ليست متضائلة؛ لأن جيمسون لا يستطيع تطوير نظرية نقدية لما بعد الحداثة، على الرغم أن الجانب الفعلي لمفهوم ماركس للتطبيق العملي ملحوظ غيابه؛ حيث كان هو في النشأة الأولى من المنظرين النقديين لفرانكفورت.

ديفيد هارفي David Harvey

مِثل جيمسون، لقد طرح ديفيد هارفى (David Harvey) (٢٦) أن الرأسمالية قد أفرزت مشكلات ملحوظة متصلة بقدرة الإنسان في تصور الوقت والمساحة. فبالنسبة لهارفى، فإن المشكلات الثقافية ومشكلات الإدراك الحسي المتصلة بها بعد الحداثة ليست بالأمر الجديد، فإن بعضًا من الاتجاهات المشابهة تجاه التجزئة والغموض في التحركات السياسية، والثقافية والفلسفية قد حدثت خلال القرن العشرين.

---

(٢٤) نفس المرجع ١، صفحة ٩٢.

(٢٥) نفس المرجع، الصفحة ٦٤.

(٢٦) ديفيد هارفي، الوضع بعد الحداثة: تحقيق داخل أصول التغير الثقافية (أكسفورد: بلاك ويل، ١٩٨٩م).

وليس مِثل جيمسون، فإن هارفي لم يرَ الظروف النقدية لفترة ما بعد الحداثة كمشكلات للتطبيق العملي، وكعلامات ثابتة ورموز في الحقيقة المادية التي يمكن أن يجعلها تتغير خلال الفكرة والعمل، ولكن في ظروف التراكم أو النماذج التي يكون فيها رأسمال كثير، وتكون متشابهة ومنتشرة. ودلت كل الأنظمة الرأسمالية، كما أدرك ماركس، على هذه المشكلة الخاصة بالتراكمية؛ لأن الرأسمالية نظام مصمم للنمو من خلال استخدام العمال، والابتكار التكنولوجي، وتخفيض النفقات. وفي مكان ما يوجد إفراط العديد من المنتجات للمشترين غير الموجودين بالفعل، وقدرة إنتاجية كبيرة جدًا، ولكنها تذهب إلى عدم الاستخدام، أو الكثير من المال للاستثمار في آفاق غير ملحوظة الأرباح.

يُقابل هذا التراكم بالعديد من الطرق، وأنه أكثر وجودًا لدورة العمل؛ حيث يتسرب العمال أو يكونون مسرحين من العمل، وتغلق المصانع، ويزداد الإفلاس، ويتم تخفيض قيمة المال. ومثل هذه الدورات -بشكل عام- تُختزن باقتصاد على مستوى الوحدات الكبرى يتحكم في إمدادات المال ومعاملات الفائدة، وتعويض البطالة، وقوانين الإفلاس، وسياسات الضرائب وما شابه ذلك.ويؤكد هارفي على استجابة أخرى للتراكم، وهي امتصاص رأس المال من خلال التشتت المكاني والزماني.

ويحدث النزوح الزماني عندما يشتري الزوار المستقبلون سلعًا لكي تنتج، وعندما يشترون مخزون المشتريات على أمل وجود ارتفاع للأسعار، وعندما يستثمرون في أداة مالية أخرى كالقروض العقارية، والسندات طويلة الأجل، والقطاع الحكومي، وعندما يتعقبون أية إستراتيجية لاستخدام الوقت والأطروحات للأسواق لإساءة وضع رأس المال لتقليل التراكم.

كما يتضمن النزوح المكاني تحريك رأس المال بعيدا عن الحيز الذي يوجد فيها التراكم إلى أماكن تكون في احتياج لاستثمار رأس المال. ويناقش هارفي بأن العزل يكون فاعلًا جدًّا عندما يكون ممكنًا دمج الجوانب المكانية والزمانية مع بعضها البعض. فعندما يرتفع المال في لندن يتم إرساله إلى أمريكا اللاتينية لشراء عقود سيعاد بيعها في المستقبل لتطوير البنية التحتية الاقتصادية.

ويمكن أن يسهم استخدام كل من النزوح الزماني والمكاني لموضوع التراكم في بروز المشكلات العامة للوقت وسوء توزيع المكان الذي يحدث بسبب عدة عوامل منها: (١) الاتصال المتقدم ووسائل

المواصلات. (٢) زيادة عقلانية عمليات التوزيع. (٣) مستوى العالم في أسواق المال التي تسرع دورة المال. (٤) تقليل التركيز المكاني لرأس المال في المواقع الجغرافية من المدن، والأقاليم والمناطق. إن هذه التغيرات تخلق إحساسًا بضغط الوقت والمكان الذي يجب ملاحظته عن طريق التغيرات في المعتقدات، والأيديولوجيات، والمفاهيم وأنظمة أخرى للرموز. فكلما تعددت التكنولوجيا فإنها تسمح بتحرك الناس والموضوعات، وتكون أكثر سرعة من خلال المكان. فمن خلال السفر بالسكك الحديدية، والسيارات، والطائرات النفاثة تصبح المساحة صغيرة ومضغوطة، حيث تقل هذه المسافة، والمساحة غير ممنوعة، وتكون في تلك الحالة ذات معنى، كما كان في وقت ما. وتحدث سرعة وسائل المواصلات، والاتصال وتغيرات السوق، وتوزيع السلعة، وزيادة دورة رأس المال، وإن مقدار الوقت المتاح يتناقص لأن هناك العديد من الأشياء يجب أن نفعلها، والعديد من الطرق التي نستخدمها. وهكذا فإن إحساسنا بالوقت والمكان ينضغط في الاستجابة بالزيادة مع التكنولوجيا، وبخاصة القدرة البنائية، ولو أن هذه التغيرات التكنولوجية والبنائية تحدث بطريقة تدريجية وثقافية فإنها ستجعل نتائج التغيرات في الوقت والفضاء قابلة للفهم وذات معنى، وسوف تكون متضمنة جميع التغيرات الحاصلة. ولكن لو أن التغيرات في البناء والتكنولوجيا حدث بسرعة كما هو فيما بعد الحداثة فإن التعديلات في الأنماط الرمزية لن تحافظ على المسافة، وسيترك الناس المكان لإحساسهم بسوء التوجيه، أو الارتباك الخاص بمبدأين للوجود الإنساني، وهما: الوقت، والمساحة. فالاستجابة الحالية تحدث لتراكم رأس المال نتيجة المرونة التي تساعد على الإحساس بضغط الوقت والمساحة؛ حيث إن رأس المال يتحرك بسرعة في الميزان العالمي من الاستجابة في إدارة التقنيات .

بالإضافة إلى ذلك، ومع وجود النظام الجديد للتراكم المصمم لتحريك رأس المال بالتبعية وبشكل مؤقت بطريقة مرنة ومتغيرة، فقد يتكيف الإرباك مع نمط التنظيم الذي يكافح من أجل المواءمة مع نمط التراكم. فعلى سبيل المثال، لو أن رأس المال تحمل الوظائف في دولة ما فإنه يمكن مباشرة تصديره إلى دولة أخرى بعمال أقل سعرًا معتمدًا على العمال ذوي الولاء للشركة، ومفاهيم عن كيفية تطوير العمل الوظيفي، والالتزام للشركات في المجتمعات المحلية، وأيديولوجيات الحكومة، واستيراد سياسات، ومعتقدات عن التدريب، وإعادة التدريب، ومفاهيم لسوق العمال، وأيديولوجيات ومسؤوليات الشركات، والقوانين عن الاستثمار الأجنبي، والعديد من الأنماط الثقافية

المسؤولة عن تنظيم تيار رأس المال الذي سوف يبدأ في التغير. وهكذا ما بعد الحداثة قد يتم استبدال المكان البدني بمكان اجتماعي جديد يتم قيادته من خلال التقنيات الجديدة للأسواق الدينامية عالية التباين، ولكن التوجيهات الثقافية ما تزال متلائمة مع هذا النمط الخاص بالوقت والمساحة.

حيث إن في ذلك فائدة فيما بعد للاقتصادين الحديثيين، أو السلع الصلبة، فإن العديد من السلع أو الخدمات التي توزع بخصوص تكوين صورة للذات والهوية، فإن الصور الثقافية هي الآن بمنزلة أسواق يتم قيادتها، أو لواجهات الشركات تمامًا مثل أسواق أخرى للثقافة، ونمط الحياة، وعضوية المجموعات، والذوق، والحالة وأي شيء يستطيع أن يراه الأفراد كشيء متصل بالهوية الخاصة بهم، مثل: الملل، واللون، والمحاكاة الذي يخلق متطلبات لصور جديدة تعرف بالذات. فإن الصور الثقافية تتغير بثبات وتحدد فقط من خلال تصور الناس المعلنين، والإجراءات التي يسعى المنتجون للربح من خلالها. ونتيجة لذلك فإن توزيع المنتجات يمكن أن يؤدي إلى تزايد الاستهلاك، كما يصبح للأسواق عملاء داخل الأسواق مثل المعلنين، والمصرفيين، والمستثمرين الذين يبحثون عن صور جديدة للأسواق كسلع أو خدمات.

وفي حالة بناء ثقافة تقوم بتقييم الإشباع الفوري، ويكون لديها عدم إمكانية للسلع، يتفاعل الناس مع التجاهل والإنكار واتجاه الرفض، وسيتزايد عندهم البعد عن الشيء، ويكون لديهم حنين إلى الطرق القديمة، ويكون هنالك بحث متزايد للحقائق البسيطة والهويات الشخصية أو المجتمعية إلى حد تكون فيه التفاعلات سمة ما بعد الحداثة.

لقد ناقش هارفي ما يعرضونه من الترابط بين الاستجابات الثقافية والأنماط الجديدة لسوء توزيع رأس المال عبر الزمن والوقف، وفي النهاية فإن الثقافة وتصورات الناس سوف تلحق بالميكانزمات الجديدة من أجل التغلب على أحدث وضع في تراكم رأس المال.

سكوت لاش و جون يوري Scott Lash and John Urry

مِثل ديفيد هارفي، لقد ناقش سكوت لاش وجون يوري (Scott Lash and John Urry) بأن ترتيب ما بعد الحداثة يتم مع التغيرات بخصوص رأس المال الذي يغير حدود الوقت والمساحة [٢٧] من

---

(٢٧) سكوت لاش وجون اوري. نهاية الرأسمالية المنظمة (ماديسون: مطبعة جامعة ويسكونسن، (١٩٨٧م)؛ وفورات العلامات والفضاء (نيوبوري بارك، كاليفورنيا: سيج، ١٩٩٤م).

وجهات نظرهما؛ فإن تغير المفاهيم للوقت والمساحة متصلة بتغيرات في توزيع رأس المال. بالإضافة إلى ذلك، فإنه مثل معظم المنظرين فيما بعد الحداثة؛ حيث يقولون بأن ثقافة ما بعد الحداثة تتأثر بشكل كبير عن طريق وسائل الإعلام والإعلانات، فإنه يكشف جذورهم الماركسية؛ لأنهم يضيفون بأن ترتيب ما بعد الحداثة مستقل -بشكل خاص- بتجزئة خبرات الطبقة وارتفاع فئة الخدمة.

وكذلك -أيضًا- مِثل هارفي، فإن لاش ويوري لا يريان بأن ثقافة ما بعد الحداثة هي أمر جديد تمامًا، ولكنهما أقل تأكيدًا منها عند الذي يرى أن الفترة المعاصرة تحتاج إلى ثقافة كي تواكب الظروف المادية المتغيرة. ولقد اعتقد كل من لاش ويوري أن فترة ما بعد الحداثة تكون مستحبة لجمهور محدد لترتيبات ما بعد الحداثة، وأن هذه الترتيبات تندمج في استجابات لثلاث قوًى؛ هي: أولًا: الحدود ما بين الواقع والصور لا بدَّ أن تكون غير واضحة كالإعلام مثل الإعلان الذي يعرض أشياء مصنوعة فعلًا لأكثر صور موضحة الثقافة الاجتماعية. ثانيًا: يجب تجزئة طبقة العمال التقليديين في نفس الوقت، ويتم توجيه فئة لخدمة جديدة للاستهلاك والسلع من أجل القوى الرمزية لإنتاج ماركة ووضوح العضوية في المجموعة، ونمط الحياة، والتفضيلات، والتوحيد بين الجنسين والعرق، والعديد من التوضيحات التي يجب أن تكون محددة وظاهرة. ثالثًا: بناء هويات شخصية وموضوعية يجب أن تبنى -بشكل متزايد- من الرموز الثقافية المنفصلة عن الفضاء الفزيائي، والموقع مثل المنطقة المجاورة أو المدينة. وعندما يحدث هذا الانفصال، تصبح صور الذات عابرة أكثر من أي وقت مضى. وتزداد كثافة هذه القوى الثلاث، ويصبح ترتيب ما بعد الحداثة أكثر تشابهًا لهذه الترتيبات التي تستطيع أن تدعم ثقافة ما بعد الحداثة الخارجية، حيث يكون هناك اختلاف في علامات الرموز، والهوية والموقع يتم شراؤها بواسطة فئة الخدمات المتزايدة.

وعلى الرغم من تمرد كل من لاش ويوري قولا؛ إلا أنه يظهر على الأقل أربعة عوامل محددة تنتج ظروف ما بعد الحداثة، وهي: أن العامل الأول؛ يدور حول شكل ما بعد التغير أو النمط الصارم للإنتاج مثل نظام التجميع في المصنع القديم إلى أنماط أكثر مرونة للمنظمة والتحكم في العمال، مثل: فرق الإنتاج في الوقت المرن، حيث تقلل ساعات العمل في التسلسل الهرمى للسلطة، وعدم التركيز في العمل، والعمل من خلال الحاسب الآلي في المنزل. ومثل هارفي اعتقد لاش ويوري أن هذه التغيرات تعكس تناقصًا في التركيز المكاني لرأس المال؛ واتصالًا ممتدًا وتكنولوجيات في

وسائل المواصلات، والضغط المكاني وعدم تركيز لرأس المال، والحركة السريعة للمعلومات بين الناس، ومصادر التغير هي الديناميات الأساسية للتغير. أما العامل الثاني هو: التغيرات الاقتصادية على نطاق واسع والعولمة واقتصاديات السوق، وزيادة الصناعة، وأعمال البنوك، من خلال الحدود الإقليمية، وانتشار المال في دول أقل تقدما. والعامل الثالث هو: زيادة القدرة في تسريع تدفق السلع من الأسواق الإقليمية إلى الأسواق العالمية. فإن تزايد نطاق وسرعة الدورة يمكنها أن تفرغ العديد من السلع الخاصة بالعلامات التقليدية والقومية والمحلية والعرقية للمعنى الرمزي والفاعل، كما يتزايد هذا التداول السريع للسلع بشكل واضح؛ لأن العديد من السلع سوف تصنع وتباع، مع ما يتم من الاتصال بشكل جمالي وتغير الأذواق أكثر من أي وقت مضى بسبب التفضيلات، ونمط الحياة والتعبيرات الشخصية، والحدود الجديدة لاعتداد الهيئة والنفوذ، وعضوية وضع الجماعة. العامل رابع هو: مجموعة من القوى التي تتبع من العوامل الأخرى، مثل: (أ) السلع الخاصة بالرفاهية حيث يقوم فرد أو أكثر بشراء أشياء رمزية. (ب) الانفصال والاندماج بين الأنماط الثقافية المتجانسة والمميزة بشكل مسبق، والتي تدور حول الفن، والموسيقى، والأدب، والطبقة، والعرق أو الهوية الجنسية والمحددات الثقافية الأخرى فيما بعد الحداثة. (ج) الأنهيار العام للمساحة الاجتماعية والمواقع الفيزيائية المحددة، أو الأطر المعاصرة داخل الأنشطة التي تسلك بهويات الشخصية، ويتم تحملها. (د) تحديد السياسة التي ترتبط بالدوائر الانتخابية التقليدية الذي قد يكون في الأماكن الفزيائية مثل الجيرة والفضاء الاجتماعي، ومثل الطبقات و الجماعات العرقية.

وهذه العوامل لمجموعة القوى تخلق معًا تقسيمًا مكانيًّا مجزًّأ للعمال والعمل من خلال طبقات منفصلة أقل، وطبقة خدمية أكبر، وتغير في البعد الرمزي أكثر من الهيمنة القسرية، واستخدام المزيد من الثقافة عن الموارد المادية للمقاومة، ومعدل التجزئة الثقافية والتعددية التي تؤثر على القومية، كما أن كلًّا من لاش ويورى ناقشَا في المقابل مع جيمسون تفريغ العمليات بأنه لا يتم تنظيره كما ظهر، لأنهم يطرحون أنماطًا جديدة من التوزيع، والاتصال، والمواصلات، وجميعها تخلق شبكات من الأماكن الاجتماعية، والأماكن الطبيعية (الفيزيقية). كما أن الحكم الاقتصادي يقع عندما تكون الشبكات أقل كثافة بالاتصالات التي تحدث بشكل متزايد، وبشكل دافع مهم في

الاختلاف ما بين الجوهر والمواقع المحيطة، وأن المواقع الأساسية هي مواقع ذات اتصال شبكي كثيف، ويقوم بدور كسلوك لقرية في مجتمعات غير متجاورة.

ولدى كل هؤلاء القائمين على ما بعد الحداثة الاقتصادية تحليل في الجذور الماركسية في كل الأشكال النقدية التي تندمج في الحقب المبكرة للقرن الأخير، وأنماط نظام العالم للتحليل التي أثيرت في عام (١٩٧٠م)، واستمرت حتى اليوم الحالي، كما أن المنظرين النقديين الأوائل اضطُروا إلى استخدام مصطلحات خاصة بمفهوم فيبر للسلطة القسرية والشرعية العقلانية، والطبقة كنشاط تحرري، ولكن اضطُر هذا الجيل للنقاد لفترة ما بعد الحداثة إلى أن يتصالح مع أهدافه التحررية المعطلة لانتشار رأس المال في العالم كنظام اقتصادي مفضل، لأن الازدهار الناتج عن الرأسمالية تعطل طبقة العمال كطبقة متماسكة، كما أن السلع هي كل شيء في الأسواق الدينامية، وان الإنتاج والاستهلاك للرموز أكثر من السلع الصلبة مثل: السلع التي تأتى من القيم الرمزية الخاصة بهم مع انهيار الحدود المعاصرة الطبيعية والاجتماعية كقيود للمساحة. ومع الوقت يتم تغييرها عن طريق تكنولوجيات الشراء لهويات شخصية، وموضوعية من خلال ممثلين للمستهلك. وأهمية البناءات العظمى الثقافية والرمزية كقوى موجهة في أسواق العالم عبر وسائل الإعلام وصور الإعلانات العالمية، وإعطاء هذه القوى تكيف لوجهة النظر الماركسية. كما أنه ليس أمرًا مدهشًا أن يغير العديد من الذين أتوا بعد الحداثة من تركيزهم حول الأساس الاقتصادي إلى البناء الكبير الثقافي للمجتمع، وفي العديد من الطرق كما فعل ماركس وهيجل.

ما بعد الحداثة الثقافية Cultural Postmodernism

إن جميع نظريات ما بعد الحداثة تؤكد أن سمة التجزئة للثقافة والضبابية للتباينات يتم تميزها من خلال الرموز، وأن الأفراد ينظر إليهم ضمن التحولات كمشاركين، ومعرفين للذات في الاتجاه المتزايد نحو الأصناف الاجتماعية مثل: السباق، والطبقة، الجنس، والعرق أو الحالة، بينما يفترض الإفراط في المتغيرات التي بها زيادة عن الصور الثقافية كعلامات محتملة للذات، وفي الوقت نفسه فإن الأفراد يخسرون شعورهم لكونهم موجودين في أماكن مستقرة وأطر زمنية، والعديد من القوى التي يتم فحصها من خلال ما بعد الحداثة الاقتصادية، ويمكنها أن تحسب لهذه التجزئة في الثقافة،

وتقلل من بروز علامات الاختلاف، وفقد الهوية مع الوقت، والمكان الاقتصادي، أيضًا وفيما يخص ما بعد الحداثة بوضع الاقتصاديين تأكيدًا خاصًا على وسائل الإعلام والإعلانات؛ لأن توجهها يتم عن طريق الأسواق وتكنولوجيا المعلومات.

جان باودريلارد Jean Baudrillard

إن العبارة الأقوى لما بعد الحداثة تركز على تأثير الإعلام على الثقافة، وانخفاض مستوى الاختلافات الثقافية، وفقدان الهوية في الزمان والمكان والمساحة الاجتماعية، وكما يرى جان باودريلارد[٢٨] أن مهمة العلوم الاجتماعية اليوم أن تتحدى المعنى الذي يأتي من الإعلام وتأثيره.[٢٩] وفي المقابل فيما يخص ما بعد الحداثه الفلسفية فإن نظرية جان باودريلارد تقوم على افتراض وجود التكافؤ المحتمل أو تناظر بين العلامات التجارية وموضوعها، وبناء على هذا الاقتراح يطرح جان باودريلارد أربع مراحل تاريخية للعلامات التجارية.

في المرحلة الأولى: تمثل العلامات التجارية حقيقة عميقة بالارتباط والمراسلات بين العلامة والواقع الذي تدل على كونها عالية الجودة. وتشير المرحلتين التاليتين إلى حقيقة أنها تخفي الحقيقة بطريقة أو بأخرى. بينما في المرحلة الثانية تظهر الواقع المقنع أو المزيف، بينما في المرحلة الثالثة تخفي اللافتات الواقع، عندما تنتج سلعة ضخمة، وتحمل مجموعة من العلامة التجارية ليس لها أساس حقيقي في هوية المجموعة، ولكن لها مظهر نشأ نتيجة التفاعل الجماعي.

وتقابل المرحلة الثانية تقريبًا الفترة الزمنية من عصر النهضة إلى الثورة الصناعية. وقد جاءت الفترة الثالثة مع العصر الصناعي، حيث الإنتاج وقوى سوق جديدة التي انتجت سلعًا تحمل علاماتها التي تقوم على تحديد الأذواق، والأسلوب والحالة، والعروض الرمزية الأخرى للأفراد من أجل التنافس على قيمة الاستخدام (لبعض الأغراض العملية)، أوقيمة التبادل (لبعض السلع

---

(٢٨) جان بودريرد، لنقد من الاقتصاد السياسي من الإشارة (سينت. لوويس تلوس، ١٩٧٢، ١٩٨١م)؛ مرآة الإنتاج (سانت لويس:تيلوس، 1973، 1975م) ؛ الصور الزائفة والمحاكاة (إن أربور: مطبعة جامعة ميتشيغان، ١٩٨١، ١٩٩٤م)؛ التبادل الرمزي والموت (نيوبوري بارك، كا: سيج، ١٩٩٣م).

(٢٩) بودريارد، الصور الزائفة والمحاكاة (المذكورة في الإيضاح ٢٨)، الصفحة ٨٤.

الأخرى، أو موارد مثل: المال) من وجهة نظر جان بودريار. وبعد ذلك كان تطور العلامات ينطوي على تناقض -إن لم يكن تشويش-؛ لارتباطها بأشياء حقيقية في العالم الفعلي.

أما الحقبة الرابعة في تطور العلامات هو حقبة ما بعد الحداثة المعاصرة، وفي هذا الوقت أصبح ليس للعلامة علاقة بأي واقع في أي اتجاه، وأنها التزييف الحقيقي الخاص.[٣٠](٣٠) فالعلامات التجارية هي عبارة عن محاكاة وتزييف لعلامات أخرى باتصال أقل من الطبيعة الأساسية للعالم المادي أو الاجتماعي. وهذا المثال الرئيس جان باودريلارد الخاص بالتزييف؛ حيث يرى أن" ديزني لاند" تعرض نفسها كعرض أمريكي يجسد القيم والمتع للحياة الأمريكية، "وديزني لاند" تقدم كشيء تصوري، ومكان يحتفل به بشكل رمزي، ويستمتع فيها بكل ما هو جيد في العالم الحقيقي. وناقش جان باودريلارد بأن "ديزني لاند" هي تصور لإخفاء حقيقة الواقع الأمريكي نفسه، وأن الحياة في المجتمعات الحقيقية المحيطة مثل "لوس أنجلوس" و"أناهايم" تتضمن بسهولة محاكاة للواقع الماضي؛ لأن الناس لم تَعدَّ المشي كوسيلة مواصلات أكثر من أنهم يمارسون رياضة المشي من أجل المشي. ولم يَعدِ الناس يقترب بعضهم من بعض من خلال التفاعل اليومي أكثر من جماعات الاتصال العلاجي، لأن جوهر الحياة في ما بعد الحداثة تصوري، وأن السلوك يتم تحديده من خلال صور محتملة أو متوقع[٣١] وهذ مثال لصورة ميسَّرة. ويصور جان باودريلارد "لوس أنجلوس" كأي شيء لم يعد كسيناريو محتمل، وان "ديزني لاند" قد تم عرضها كعرض رمزي للحياة في أمريكا عندما تكون الحياة في أمريكا نفسها صورة للمحاكاة أو الواقع في الماضي، ومن ثم فإن "ديزني لاند" تصبح محاكاة للمحاكاة من دون علاقة لأى واقع أيًا كان وأنه يخفي عدم الواقعية للحياة اليومية الحاضرة.

وناقش جان باودريلارد بأن عرض المعلومات من خلال وسائل الإعلام يدمر المعلومات، كما أن هذا التجميل يحدث لأن التداخل الطبيعي لعملية المعلومات؛ أي معلومة عن حدث اجتماعي قد تضر بالحدث نفسه؛ لأنها تعرض عدم الحل للجانب الاجتماعي، فليست وسائل الإعلام شيئا أكثر من وابل مستمر من الصور والعلامات التي تمت إزالتها في أوقات وأوضاع مختلفة من

---

(٣٠) نفس المرجع، ص ٦.

(٣١) نفس المرجع ص ١٦.

الأحداث الاجتماعية الفعلية. وهكذا، فإن وسائل الإعلام لا تعرض معلومات فائضة ولكنها على النقيض ما يتم التواصل به لعرض الكون الكامل للمعلومات، وبالتالي للعالم الاجتماعي الذي من المحتمل يتم التبرع به بواسطة العلامات المنظمة للمعلومات، كما أن الإعلام أيضًا قد يدمر المعلومات لأنه يضع مرحلة العرض للمعلومة ويقدمها في وسيلة معبأة الشكل. فكلما تم وصف المعلومة، فإن الموضوعات التي يتم إخبارها يتم تشكيلها في علاقة خاصة لهذه المعلومة، وبالتالي فإن استعارة أو محاكاة الأفراد لمكانهم وموقعهم في الكون هو مجموعة من العلامات.

وقد ناقش باودريلارد بأن الفاصل بين الواقع ورمز الإعلان تم تسهيله من خلال الإعلان، لأن الإعلان في النهاية يقلل من استخدام القيمة للموضوعات كعلامة لها قيمة وهمية. ولذا تصبح رموز الإعلان سلعة، وأن الصورة هي أكثر الإعلانات المجردة عن السلعة التي يتم التواصل من خلالها. وهكذا، فإن الإعلانات -بشكل نموذجي- هي-جنبًا إلى جنب- صورة سلعة كصورة مرغوب فيها، وبعض الإعلانات يتم بيعها وشراؤها كصورة أكثر من السلعة نفسها، ولكن الإعلان نفسه يمكن أن يصبح الطريق للسلعة بعد أي استهلاك عام أكثر من الصورة الخاصة بالإعلان، ولذا فإن شكل الإعلان في حقبة ما بعد الحداثة هو أكثر من الإعلان نفسه ليصبح شيئًا أساسيًا. وعلى سبيل المثال فإن شكلًا حديثًا لإعلانات التلفاز ما يمكن تسميته "نظام التلفاز الحديث"، وهي عبارة عن مجموعات خاصة من الناس تستجيب لهذه الإعلانات ليس بسبب المنتج وليس ببساطة بسبب الصور الموجودة في الإعلان، ولكن لأنهم يستجيبون للشكل ككل، وللرسالة وليس للمحتوى على الإطلاق. وهكذا فإن الوسط هو الرسالة ومواجهه الناس طبقًا لعبارة باودريلارد عن المحاكاة للمحاكاة، وهو أساس اللفظ أو أساس الشكل الخاص بالحقيقة.

كينيث جيرجين Kenneth Gergen

إن الذات يمكن فهمها بشكل أفضل من وجهة نظر كينيث جيرجين [٣٢]؛ حيث تكون العملية التي يتم فيها تصنيف الأفراد بسلوكياتهم الخاصة، وتعتم العملية على النظام اللغوي

---

(٣٢) كينث، جيرجن، النفس المشبعة (نيويورك: النظرات الأساسية، ١٩٩١م)؛ مفهوم الذات (نيويورك: هولت، رينيهارت ووينستون، ١٩٧١م).

المستخدم في الفراغات المادية والاجتماعية التي تصنع الغرض في وقت معين؛ لأن تصور الذات موقفي. فالذات بشكل عام تميل إلى المرور بخبرات عن طريق الأفراد كشيء مجزأ، وأحيانًا يكون متناقضا؛ لأن عمل الدافعية للناس بشكل عام من أجل أن تقضي على التناقضات في التصورات. وبالتالي فإن جيرجن يسلم بأن العوامل المحتملة الأخرى تؤثر على المجهودات لحل التناقضات؛ لأن الناس في المجتمعات الغربية يحاولون خلق هوية ذات مناسبة حتى يتعودون على عدم حب التنافر المعرفي بنفس الطريقة التي يتعلمون بها عقلانية الشخص، ولذا فإن جيرجين يرى أن العلاقة الجوهرية بين خبرات الأفراد للذات، والثقافة التي تحدث فيها الخبرة، وهي عبارة عن وقفة ثقافية يتم استغلالها في فهم ذات ما بعد الحداثة.

وناقش جيرجين بأن ثقافة الذات قد قدمت من خلال ثلاث مراحل ظاهرة على الأقل، هي: العاطفية، والحداثة، وفترة ما بعد الحداثة الحالية. وفي الفترة الرومانسية، كانت الذات كفرد مضغوطة؛ حيث إن الأفراد خرجوا من هيمنة المؤسسات المتعددة التي تتضمن الدولة الإقطاعية، وفي أثناء الفترة الحديثة كانت الذات تفهم كامتلاك لصفات أساسية أو جوهرية يتم تكوينها نفسيًّا، وتكون متأصلة في سمات الشخصية. وتتكون ذات ما بعد الحداثة من صور تكشف سمات غير متأصلة وبارزة بوضوح، والتي فقدت القدرة على الرغبة في خلق ثبات للذات. ويضاف إلى ذلك أن الثقافة التي يتم تجزئتها في فترة ما بعد الحداثة لها تصور مختلف. إن التصور للفرد نفسه يجب أن يتم التساؤل عنه من خلال الوضوح ما بين الموضوع والمادة المفقودة، وطبقًا لجيرجين فإن تصنيف الذات يتم تأكيده كنتيجة لثقافة ما بعد الحداثة.

وهكذا جيرجين يرى الذات مثل باودريلارد؛ حيث يرى جيرجين أن الذات في ثقافة ما بعد الحداثة تكون مشبعة بالصور التي كانت متأصلة فيها، وتتصل بعوامل غير متعلقة ببعضها البعض في لغات مختلفة، وتراسلًا مع عرض باودريلارد للموضوع فقد رأى جيرجن من طرحه أن تصنيف الذات قد تغير؛ لأن المجهودات المستخدمة لصياغة تعريفات متأصلة وثابتة بين الناس قد ألغيت من خلال الصور نفسها التي تمت صياغتها في لغات متباينة لا تستطيع ترتيب انعكاس الذات.

ثوماس لوكمان Thomas Luckmann

على الرغم من معرفة ثوماس لوكمان[٣٣] بأهمية وسائل الإعلام والإعلان في خلق ثقافة ما بعد الحاثة، فإنه يركز على عملية الوصف المؤسسي كعملية تدفع الناس للأسواق الثقافية الموجودة في وسائل الإعلام. إن الوظيفة الأساسية لأي مؤسسة هي مجموعة من المعاني المحددة مسبقًا للعالم المفهوم ومع إمداد الشرعية لهذه المعاني، وعلى وجه الخصوص فإنها تزود الثبات والصلابة ضد الشك، والخوف وأسئلة عن المعاني النهائية من خلال إعطاء وإضفاء الشرعية على قائمة من المعاني، فإن التباين البنيوي الحديث والتخصص، كما يؤكد لوكمان، قد جعل من المعاني النهائية للدين بشكل بنيوي غير مستقرة؛ لأن الأفراد يجب عليهم مواجهة مجموعة من المهام العلمانية والاضطراريات التي تحمل معاني بديلة، كما أن عدم الاستقرار البنيوي قد يؤدي -بدوره- إلى التخصص في الدين، وهذا التخصص في الدين هو أكثر منه تراجعا في القوى البنيوية العلمانية التي هي بمنزلة استجابة أيضًا لقوى تقوم بتقديس الموضوعية الموجودة في الثقافة الإعلامية.

ولأن التأثيرات الخاصة بالتباينات البنيوية، والأسواق، وثقافة الإعلام والوعي عند الأفراد هو واحد من الأحاسيس المباشرة والعواطف. ونتيجة لذلك يكون الوعي غير مستقر، وهو يعمل بأسطورة للشرعية العامة، والرموز والمشكلات الدوغمائية، فإن الأسواق الرأسمالية قد حولت هذا التحدي إلى عمل ذي فائدة. ولذا فإن الفرد يُواجه الآن من خلال سوق تنافسي كبير لمعانٍ نهائية يتم تشكيلها من خلال وسائل الإعلام، والكنائس والطوائف والأيديولوجيات العلمانية المتبقية في القرن التاسع عشر، والديانات والمجتمعات الدينية الفرعية، وإن منتجات هذا السوق تشكل معنى أقل تنظيما يشير إلى المعاني المتوسطة والصغيرة، ولكنه -بشكل نادر- له معانٍ محددة. فمن خلال هذه الظروف يمكن لقائمة المعنى أن تؤخذ عن طريق الأفراد لفترة طويلة أو قصيرة من الزمن، ويتم دمجها مع قوائم معانٍ أخرى. وهكذا، فإن الرأسمالية المبكرة والقوى البنيوية المتحررة تقوم بعملية تقويض للقوى المتحررة للدين . ولذلك تخلق الرأسمالية المتطورة تنوعًا أكثر حداثة وقوائم جديدة

---

(٣٣) توماس لوكمان، "الدين الجديد والقديم"، في النظرية الاجتماعية لمجتمع متغير، النسخ بيير بورديو وجيمس س. كولمان (بولدر، كولورادو: ويست فيو، (١٩٩١م).

للمعنى السلعي التي يمكنها أن تكون منتجًا يحدد المجموعات التي تنتج وتستهلك عن طريق الأفراد، بحثًا عن التجانس الثقافي الذي يمكنه أن يقاومها ويؤثر عليها، ويقلل من القلق والمخاوف في عالم اجتماعي مختلف .

زيجمونت باومان Zygmunt Bauman

كان زيجمونت باومان[٣٤] يشبه لوكمان في البحث في تأثيرات الوصف المؤسسي على المعنى عن الذات بطريقة نظام فوضوي وطريقة عشوائية أكثر تباينًا. وفي إطار هذه الأنواع من الأنظمة يتكون تشيكل الهوية من الاستقلالية الذاتية دون أية نقطة مرجعية للتقييم والملاحظة، وعدم وجود ملاذ واضح في المكان والوقت، وعدم الشروع المستمر لمعرفة معلومات الذات، فإن الناس هكذا سيمرون بخبرة بدرجة عالية لعدم التأكد من هويتهم، ونتيجة لذلك يناقش باومان بأن المركبة الواضحة والوحيدة لتكوين الهوية هي الجسد. وفي فترة ما بعد الحداثة، فإن بناء الجسد يصبح - بشكل دينامي- مهمًا جدًا في عملية تكوين الذات؛ لأن الجسد يلعب دورًا مهمًا في تشكيل الذات فيما بعد الحداثة، وبالتأكيد على أن الأعلى حول الاهتمامات الجسدية مثل الصحة، وبنية الجسم، والشيخوخة وعيوب البشرة. تصبح هذه الموضوعات أسبابًا للانعكاسية المتداعية، والتقييم وهكذا في عدم التأكد.

ناقش باومان مثل لوكمان أن غياب أي توجيه تقييمي موضوعي وحازم يميل إلى خلق مطلب من الاستبدال، وتخلق هذه الاستبدالات بطريقة رمزية مثل أناس آخرين وجماعات يتم النظر إليهم كأعمدة الطواطم دون حراسة. ويستطيع الفرد أن يصل إليها من غير طلب الإذن أو الدخول إليها أو تركها. [٣٥] ويستخدم الأفراد هذه الأمور للإشارة وتبني رموز تخص بعضهم البعض. وإن إمكانية الرموز والرمزية تعتمد على وضوحهم، وتعتمد -بدورها- على استخدام الرموز الرمزية لإنتاج بناء مرضي. وفي النهاية تبقى فاعلية هذه الرموز بمنزلة خبرات في بعض المهام والإعلام.

---

(٣٤) زيجمونت باومان، الحداثة والتناقض (أثيكا، نيويورك: مطبعة جامعة كورنيل، ١٩٩١م)؛ تلمحيات على ما بعد الحداثة (لندن ونيويورك: رووتلدج، ١٩٩٢م).

(٣٥) باومان، تلميحات على ما بعد الحداثة (انظر الايضاح ٣٤)، الصفحة ١٩٥م.

ويناقش باومان أن إمكانية الوصول للرموز التي تعتمد على مصادر العميل بشكل متزايد يمكن الوصول إليها بوصفها معرفة ومعلومات، فعلى سبيل المثال، يمكن للناس تبني رموز على صلة بشخص رياضي محترف، ومحدد يرتدي نفس النوع من الحذاء، ويتحرك بنفس الطريقة المعروفة، أو أفراد يمكنهم أن يفترضوا كل الرموز الخارجية والرأسمال الثقافي المتعلق بجماعات مفهومة، مثل: الحاسب الآلي. وإن الموضوع المهم لباومان يكمن في أن الرموز لعضوية جماعات يمكنها أن تشد أو ترخي من دون التزام أو عمل عقابي؛ لأن الأفراد الذين يستخدمون الرموز لم يكونوا من قبل جزءًا فاعلًا في حياة الجماعات أو احتفالاتها.

كما أن الاحتياج لهذه الرموز يُنتج في الثقافات القبلية [٣٦] التي يتم تعريفها كممارسات بناء الذات التي يتم تجميعها، والتي تقوم بوظيفة كتجمعات متخيلة، وليست مثل مجتمعات ما بعد الحداثة التي توجد فقط في شكل رمزي من خلال التزامات مشتركة لأعضائها. فعلى سبيل المثال في مجتمع في شمال كالورينا، يجب عليها أن تقوم بثقب أجزاء متعددة من الجسم، وترتدي ملابس غير متطابقة بمقاسات ثلاثة مختلفة وكبيرة جدًا، وتستمع إلى موسيقى خاصة بايوهازارد، وترى نفسها كعضو في المجتمع الفاسق، ولكنها لا تتفاعل أبدًا مع أفراد الجماعة. أو شخص يمكن تطوير الاهتمام لاستخدام الحيوانات في تجارب المعمل، ويتحدث عنه إلى الآخرين، ويقوم بعمل إعلانات على النشرات والملصقات، ويقوم بعمل سباق. وهكذا فإنه يصف نفسه كعضو في جماعة، لكنهم ليسوا جزءًا من أي نوع من جماعة اجتماعية أو شبكة التفاعل، وإن هذه الجماعات الظاهرية تعمل من دون القوى البدائية والختامية التي تفترضها الجماعات الأولية، وهذه الأصناف الجديدة التي يتم إنشاؤها فقط من خلال الأداء المتكرر للطقوس الرمزية وتوجد كلما أدى الأفراد الطقوس.

إن القبائل أو الفصائل الجديدة يتم تشكيلها من خلال تصورات أكثر منه مقابلات الوجه لوجه في جماعات اجتماعية حقيقية. فهي توجد كمجتمعات تصورية من خلال هوية الذات والإصرار بحزم. وهؤلاء الناس يستخدمون أنفسهم وسيلة لتعريف الذات وصورة تخيلية؛ لأن ثبات هذه القبائل يعتمد على الولاء الفعلي للأعضاء، وأن الطقوس التي تعرف الذات تصبح أكثر

---

(٣٦) نفس المرجع، ص ١٩١-١٩٩.

إفراطًا وذهولًا، ولأن الذهول يعرض الجسد في صورة عنف عشوائي، وهو أمر مهم؛ لأن في فترة ما بعد الحداثة يكون اهتمام العامة المصدر الحقيقي النادر الذي تبنى عليه الذات.

الخاتمة
Conclusion

منذ بداية علم الاجتماع كان هناك منهج نقدي لتحليل الحداثة، ولاحقًا -في ما بعد الحداثة- قد حُول هذا المنهج النقدي العلمي في القرن العشرين. والذي يرى أن العلم جزء من المشكلة فيما بعد الحداثة غير قادر وغير كاف لتفسير وتصور ما بعد الحداثة. والأمر الأكثر وضوحًا، أن النظريات النقدية تفترض لما بعد الحداثة مشكلات خاصة تكون متأصلة في المجتمعات الصناعية، وما بعد الصناعية ولها تبعات سلبية على الأفراد في الافتراضات والأشياء الموجودة، وأن طبيعة النقد تصبح مؤكدة بشكل واضح كما يأتي:

١- الحداثة التي يتم حشوها من خلال الرأسمالية، والتصنيع، والحضرية وارتفاع الدولة البيروقراطية التي تقوم بشكل منظم بإنشاء ظروف تقوم بعمل إشكاليات متضمنة:

أ)استغلال العمال الصناعيين من المفترض أن يحرر الأسواق من خلال هؤلاء الذين يمتلكون ويتحكمون في وسائل الإنتاج.

ب) التسليع للعمال الذي يجب أن يبيع نفسه كسلعة خلال ظروف سوق غير مفضلة.

ج - انتشار الهيمنة القانونية العقلية وتأثيراتها على الأفراد والثورة التحررية المحتملة من قبل العمال.

د) انتشار السلطة والمال بوصفهما وسيلة رمزية في مجالات افتراضية مؤسسية، وبالتالي تقلل من بروز العواطف والتقاليد والعلاقات الشخصية.

هـ) عدم ضعف الأنظمة الثقافية لإمداد التنظيمات التي يتم احتياجها أو انتشار الشذوذ في التباينات التي يحركها السوق لأنواع من العمال.

و) عدم وجود الروابط التي لا تتجزاء إلى جماعات تقليدية، مثل عدد الجماعات وتنوعها الذي يزداد بشكل ثابت، وأنانية الممثلين الذين يقومون بالتجارة إلى جماعة أوسع من الروابط الضعيفة إلى جماعات لروابط تقليدية أكثر معنًى إلى جماعات قريبة مجتمعية.

ز) تعطل روابط المجتمع بالتحضر والظروف المذكورة أعلاه.

٢- وفيما بعد التصنيع قد تصبح عولمة تراكم رأس المال والتحول السريع حول العالم الذي -بدوره- يقوم بتفاقم مشكلات العمالة عندما يستطيع رأس المال بشكل ثابت الانتقال إلى اقل من الأجر للعمالة في أي مكان في العالم، مولدًا بذلك أنواعًا جديدة من المشكلات يتضمن :

أ) انخفاض رأس المال وتداوله قسرًا حول العالم سيؤدي إلى:

١- تفاقم المشكلة العمالية عندما يضعف رأس المال وما ينتج عنه من ضعف الدخول وسوف ينتقل للعالم في كل مكان .

٢- زيادة المضاربة المالية في الأسواق المالية ثم انهيارها .

٣- تعطيل قدرة الحكومة في ضبط الرأسماليين والممثلين الرئيسين في الاقتصاد.

٤- ضعف قدرة الدولة للسيطرة على رأس المال والاقتصاد.

ب) انتشار التكنولوجيات الخاصة بإعادة الإنتاج أكثر من الإنتاج نفسه، والتي تخلق عالمًا من الصور المتصلة بالعالم المادي وهذا -بدوره- يزيد من:

١- ترويج الأنظمة الثقافية وانفصالها عن جماعاتها ليتم بيعها في الأسواق كسلع عالمية.

٢- الأهمية المتزايدة للثقافة والصور الثقافية التي تحمل علامات تجارية وتقوم بوضع هذه العلامات للواقعية المادية.

٣- انخفاض أهمية الهوية الذاتية، وكعناصر للثقافة ليتم شراؤها في الأسواق من خلال التأثيرات المجردة على الآخرين.

٤- الاتصال لمزيد من فرز الذات من الجماعات التي يمكنها أن تزوِّدها كملاذ مادي لهويات الناس.

٥- عدم تزايد القدرة لدى الثقافة في إمداد معانٍ ثابتة للأشخاص والجماعات.

٣- من خلال الحداثة وما بعد الحداثة، تصبح الصعوبة المتزايدة في حل المشكلات الخاصة ومعالجتها راجعة إلى:

أ) التحرر من هذه الموضوعات للانتهاكات غير المتعددة.

ب) تحدي الدولة البيروقراطية.

ج) تزويد وسائل ثقافية لتنظيم السلوك.

د) إمداد مصدر ثابت كمرفأ ثابت للهوية والذات في الثقافات المرتبطة بالمجموعات.

هـ) تحمل ثقافات محلية ونظم معانيها للمجموعات.

الفصل الحادي عشر

نموذج مرحلة التنظير التطوري
STAGE-MODEL EVOLUTIONARY THEORIZING

بدأ علم الاجتماع في الظهور في القرن التاسع عشر كمجال واضح للتساؤل، فكانت فكرة الارتقاء تدور بين الأعضاء المثقفين والأكاديميين من السكان بشكل عام. وكان القرن التاسع عشر عصر انعكاس لدور علم الأحياء بوصفه علما صاعدا. وقد طالب أوجست كونت (Auguste Comte) أن يحل علم الاجتماع محل الأحياء في قمة الترتيب الهرمي للعلوم. وبالنسبة للمنظرين الوظيفيين في تلك الحقبة من بداية علم الاجتماع مع كونت (Comte) وعبر سبنسر (Spencer)، وينتهي عند دوركايم (Emile Durkheim)، (انظر: فصل ٢) فقد تم تصور التطور بوصفه حركة للمجتمعات من الأشكال البسيطة إلى المعقدة، أو كعملية في التمايز المتزايد للأبنية وثقافة المجتمع. وكان التمايز أيضًا في تركيز جورج سميل، وجورج هربرت ميد، ولكنهما لم يطورَا اتجاهات ارتقائية بشكل واضح. وكان لكارل ماركس نظرة تطورية لارتقاء المجتمع الحضري من الاشتراكية البدائية وعبر العبودية والإقطاعية والرأسمالية وصولًا إلى نهاية التاريخ بالاشتراكية، ولكن لم يتم انتشار تحليله عبر الإطار التصوري للمفاضلة. قدم فيبر أيضًا تحليلا عن التطور للمجتمع الحضري على الرغم من أنه لم يستخدم هذا المصطلح بوصفه مفاضلة متزايدة وسلطة شرعية منطقية، وأنظمة لتشريع الأشكال البيروقراطية المنتشرة في التنظيم الاجتماعي الذي كانت تقوده الأنظمة التقليدية للمنظمة، ولم يعتقد فيبر أن العقلانية كانت حتمية كما اعتقد معظم العلماء، ولكن بمجرد أن بدأها كانت السلطة الشرعية العقلانية ذات قوة كبيرة في المجتمع لدرجة أنه من الممكن أن يصبح -بشكل متزايد- محاطًا بسياج حديدي من الهيمنة الشرعية العقلانية.

وقد اختفى التنظير التطوري (الارتقائي) من علم الاجتماع في أثناء العَقدين الأولين من القرن العشرين، ولكنه يشبه النظرية الوظيفية في علم الاجتماع، حيث حافظ علماء الأنثروبولوجيا على التفكير الارتقائي للمراحل من اليسير إلى المعقد، وأصبح لعلماء الاجتماع عودة إلى هذه الأشكال من التنظير، مثل إحياء الاتجاه الوظيفي في الخمسينيات. الذي جلب معه ما عُدَّ أنه منهاج غير مناسب، إلا أن الاتجاه الوظيفي على سبيل المثال شهد إحياء التنظير الارتقائي عن طريق كل المذاهب الوظيفية وغير الوظيفية، وبين بعض المنظرين المتصارعين.(١)

وبالنسبة لبعضهم فيؤكد على أن التمايز عملية أساسية باقية، بينما يرى الآخرون أن التحليل المنقول لمراحل الارتقاء الاجتماعي هي الباقية، ويرون أن للتمايز فائدة لدفع المجتمعات تجاه مزيد من التعقيد بعكس النظريات الارتقائية الأولى؛ ولذلك اكتسبت التمايز نفوذًا أكثر في النصف الثاني من القرن العشرين، واستمرت في التطور حتى القرن الحالي، كما أصبح القرن الحادي والعشرون مرة أخرى قرن علم الاجتماع بشكل مميز، ولكن بالإضافة إلى نماذج التطور الاجتماعي من التكوينات الاجتماعية البسيطة إلى المعقدة، بدأ بعض علماء الاجتماع في استعارة أفكار من علم الأحياء الارتقائي؛ لأنه اخترق بعض العلوم الاجتماعية -كما سنرى في الفصل المقبل- وبذلك انتشر التنظير الارتقائي في القرن الحالي بشكل معقول وراء نماذج المرحلة للتطور الاجتماعي . ولكن يجب أن نبدأ من حيث بدأ علم الاجتماع ، ثم سنرى كيف تطورت نماذج المرحلة للارتقاء الاجتماعي ،لتأسيس انضباط النظام في العصر الحديث، ومن ثم يمكننا التحول إلى نظريات تطورية أكثر وضوحًا من الناحية البيولوجية، التي أخذها علم الاجتماع من علم الأحياء.

---

(١) ولا يُعتدُّ بما قام به النفعيون الأوائل والمتأخرون فقط، مثل: تالكوت الأول بارسونز ونيكلاس لوكمان، من تنمية نماذج التطوير، ولكن -أيضًا- ما قام به علماء النظرية النقدية مثل: جورغن هابيرماس (انظر: الفصل الأخير)، وعلماء نظرية الصراع مثل: جيرهارد لينيسكي، الذي كان أيضًا عالمًا في النظرية البيئية. وبعد فترة طويلة من الركود الساكن، ظهرت نماذج من التمييز مرة أخرى وبقيت حتى اليوم.

نماذج المرحلة الأولى للتطور المجتمعي
Early Stage Models of Societal Evolution

نظريات التطور الوظيفية Functional Theories of Evolution

نظرية كونت المبكرة Comte's Early Theory

لقد أعطى أوجست كونت Auguste Comte اسم علم الاجتماع عام (١٨٣٠م)، وحاول أن يفهم تطور المعتقدات في علاقتها بالتحولات الاجتماعية الحضرية، فشعر بأنه عصر العلم، وأن الآخرين سوف يصبحون علماء اجتماع، ويركزون على الظواهر الاجتماعية الثقافية. بالإضافة إلى ذلك فقد عرض وجهة نظر ضئيلة عن الارتقاء الاجتماعي الحضري بوصفها عملية للمفاضلة المتزايدة.[٢] وكان النموذج الخاص به عبارة عن ملخص صغير لهربرت سبنسر، ولاحقًا لإيميل دوركايم، وكان أكثر متانة وتفضيلا بشكل تجريبي وتطوري. وبالنسبة إلى كونت، فإنه يرى بأنه كلما تميزت المجتمعات فإنها ستواجه مشكلات الأجزاء المختلفة والمتكاملة والمندمجة للمجتمع بوصفه وحدة متماسكة. (انظر: الشكل ٢.١ ص ٩). وإذا لم تتم مواجهة هذه الضغوط فسوف يتعرض المجتمع لاحتمالية متزايدة للأمراض الاجتماعية، وعلى سبيل المثال الصراع، والانحراف، وضعف الترابط، فقد حاول في إيجاد طريقة لإعادة الاندماج للمجتمع عبر ثلاث آليات أساسية، هي: (١) التوافق المتبادل لأجزاء النظام المتميزة. (٢) تمركز القوة والسلطة في التحكم والترابط وتنظيم أجزاء النظام المتنوعة. (٣) الثقافة العامة ورموز الأنظمة، والمعايير، والقيم، والمعتقدات التي يتمسك بها كل أفراد المجتمع. ولم يطور كونت هذه الأفكار في إطار تصوري مهم، ولكن قام هربرت سبنسر بتطويرها.

---

(٢) أوجست كونت. الفلسفة الإيجابية لأوجست كونت، لخصه وترجمه هـ. مارتينو (لندن: جورج بيل وأولاده، ١٨٩٦م، نُشرت النسخة الأصلية في شكل تسلسلي بين عام ١٨٣٠ و١٨٤٢م). انظر -أيضًا- عمله الأخير غير المعيب الذي حصل على مكانة مرموقة بسبب آرائه بشأن التطور: نظام أوجست كونت للفلسفة الإيجابية، أربعة مجلدات (نيويورك: بيرت فرنكلين، ١٨٧٥م. نُشرت النسخة الأصلية في شكل تسلسلي بين عامي ١٨٥١ و١٨٥٤م).

نظرية سبنسر Spencer's Robust Theory

إن مذهب هربرت سبنسر (Herbert Spencer) الفلسفي بكامله الذي أسماه بالفلسفة التركيبية على أساس النموذج التطوري للانتقال من البناءات البسيطة المتجانسة إلى البناءات المتمايزة المعقدة.[٣] وتم إقرار هذا النموذج كقانون رئيس للكون؛ لأنه يمكن من خلال استخدامه فهم العالم الاجتماعي العرقي، والحيوي، والمادي، والتي اعتقد سبنسر (Spencer) أنها كانت تحكم بنفس القوى، ويمكننا القول -على الأقل- بأنه منهج عظيم آخر للتفسير، ولكن سبنسر حوله إلى النموذج الأكثر تعقيدًا، وتطورًا، ورُقيًّا، وكمالًا للارتقاء الاجتماعي الحضري الذي يمكن تطويره عن طريق أي عالم اجتماع في القرن التاسع عشر، إلا أنه أيضًا في أوائل القرن العشرين يعدُّ منهاج سبنسر جديرًا بالملاحظة بالنسبة للبيانات التي يتم استخدامها لتوضيح المراحل المختلفة للارتقاء، وقد كان سبنسر رجلًا ثريًّا؛ حيث استطاع أن يستأجر علماء لتجميع ملفات ضخمة من البيانات لكل أنواع المجتمعات. وبعد وفاة سبنسر في الثلاثينيات استُخدمت الأموال الموروثة لمشروعه الكبير في تجميع المجلدات الكثيرة التي جُمعت بمجهوده باسم "علم الاجتماع الوصفي"[٤]. وقد شكلت تلك المجلدات مصدرا للمعلومات التحليلية الوصفية للمراحل المميزة للارتقاء الاجتماعي الحضري، وقد سُميت هذه المراحل بـ: (١) المجتمعات البسيطة بلا رأس؛ أي من دون قائد سياسي. (٢) مجتمعات ذات رأس؛ أي بقادة سياسيين. وقد سجل تركيبهم من المجتمعات البسيطة إلى تركيبات اجتماعية أكثر تميزًا وتتابعًا طول ثلاثة محاور ضخمة هم بالفعل (الإنتاج وإعادة الإنتاج، والتوزيع، والتنظيم)، (انظر الجدول ١ , ٢ ص١٢). وقد استخدم علامات غير ملائمة -إلى حد ما- للجمع والتجميع المزدوج، والتجميع

(٣) هربرت سبنسر، مبادئ علم الاجتماع، ثلاثة مجلدات (نيويورك: أبليتون-سينشري-كروفتس، ١٨٩٥م، نُشرت النسخة الأصلية في شكل تسلسلي بين عامي ١٨٧٤ و١٨٩٦م). انظر: الايضاح ٢ في الصفحة ١٠ للاطلاع على تعريف سبنسر لتطور الكون.

(٤) وقد بدأ هيرهيرت سبنسر، علم الاجتماع الوصفي، أو مجموعات من الحقائق قد أنشأت في عام ١٨٧٣م، وانتهيت بعد وفاة سبنسر، مع المجلد الأخير في أواخر عام ١٩٣٤م. كان هناك أربعة عشر مجلدًا كليًّا. (انظر إلى مناقشتي في هربرت سبنسر: نحو تقييم متجدد (نيوبوري بارك، كا: منشورات سيج، عام ١٩٨٥م). وانظر أيضًا: مراجعتي لألكسندرا ماريانسكي في منطق علم الاجتماع الوصفي في "ملفات العلاقات الإنسانية المفقودة لعلم الاجتماع"، مفاهيم اجتماعية ٣١ (١٩٨٨م): ص ١٩-٣٤.

الثلاثي، وربما أضاف تجميعًا رباعيًا لو أنه عاش ليرى فترة ما بعد الصناعية. وتلك المراحل توافقت مع مراحل ما بعد مرحلة الصيد الجمعي من البسطاء والصيادين المستقرين كمجتمعات بسيطة، ثم ارتقت إلى مجتمعات البساتين، أو مجتمعات زراعية مركبة، ومجتمعات صناعية مركبة بشكل ثلاثي يتحدث عنها بالوصف بشكل جديد في العصر الحديث. ولكن الأكثر أهمية هي النظرية التي طورها سبنسر لشرح تطور المجتمعات من البسيطة إلى أشكال أكثر تعقيدًا أو تمايزًا، بالرغم من أن التفاصيل الوصفية لتحليل سبنسر غير موجودة في نفس (الشكل ١ , ١١).

يرى سبنسر أن الزيادة السكانية بوصفها قوى بشرية قامت بدفع المجتمعات البسيطة أو الصيادين خارج محيطهم وتوازنهم. ونتج عن ذلك عدد أكبر من الأفراد في المجتمع؛ مما سبب ضغوطا في الاختيار لمستويات أعلى من: (١) الإنتاج الاقتصادي، (٢) والتنظيم عبر رموز السلطة والثقافة، (٣) والتوزيع للموارد والمعلومات بين الناس، (٤) وإعادة إنتاج أعضاء جدد، ووحدات اجتماعية، ونسّق التنظيم الثقافي أنشطتهم. وتم بناء أبنية جديدة للفصل في ضغوط الاختيار، لتصبح تلك الأبنية مميزة فيما بينها، وبالتالي زاد من المستوى العام للمفاضلة في المجتمع، ولكن التمايز في حد ذاتها تولّد ضغوطا واختيارات متزايدة لبضائع متنوعة، وتنسيق أكبر مع السلطة والثقافة للقدرات المنتشرة، وتوزيع البضائع، والموارد، والمعلومات، والناس عبر إقليم أكبر يتكون من وحدات اجتماعية أكثر تنوعًا، ولإنتاج أنواع جديدة من الأبنية، وموظفين متخصصين في هذه الأبنية الاجتماعية.

وبالتالي عندما تدور العجلة على التمايز فهي تنمو بنفسها مكونة أنواعًا جديدة من مشكلات التكيف التي تخلق ضغوط الاصطفاء الخاصة بهم عند أي مستوى. وبالرغم من ذلك، يمكن أن تسبب ضغوط الاصطفاء في أي مجتمع في عدم تكامله، أو غزوه عن طريق مجتمع أكثر قوة، ولكن الغزو يزيد من مستوى التمايز والتطابق في المجتمع المنتصر؛ لأنه يمتص الجماعات المحتلة، وبالتالي ترفع نتائج الغزو من ضغوط الاختيار على السكان، وتصبح المجتمعات أكبر وأكثر تميزًا عن طريق ديناميات نمو السكان والغزو، وكل مرحلة جديدة من التمايز تحقق ضغوط الاصطفاء بمفاضلة أكثر.

وعلى غرار ماركس كان سبنسر ولكن مع إشارة أكبر للرأسمالية. وكان لدى سبنسر أمل في مدينة مثالية تزيد من استخدام الأسواق فيها لتوزيع الناس كعمال، وموارد، وبضائع، وخدمات. ولن تواجه المدينة المثالية في العصر الصناعي الحديث بالحرب أو الغزو. ويرى سبنسر بأن استخدام القوة القهرية قد زاد من تمركز القوة، والذي -بدوره- عَاقَ الاقتصاد المحلي من رأس المال، كما يزيد

هذا من عدم المساواة، والفصل بين الطبقات، والتوتر الذي قاد إلى تمركز قوة قسرية أكبر بشكل سافر تخدم في زيادة بروز عدم المساواة، والفصل بين الطبقات، والتوتر الداخلي. وعندما تُغلق تلك المجتمعات في أشكال أكثر تمركزًا أو قسرًا للتنظيم تكون ديناميات قوى الأسواق قوة موحدة. في حين يكون للتركيز الزائد على المدى الطويل تأثير على اضطراب المجتمع، وعندما تركز المجتمعات قوتها وتستخدمها في المجال السياسي الجغرافي فقد تبدأ في الفتور؛ لأن القوة المركزة توجد تطورًا للسوق الحرة والإبداع المنتج.

وبذلك قام سبنسر بعمل مجالات علمية لتحليل التطور الاجتماعي الذي يوجد النمو والتمايز دائمًا بوصفها ضغوطًا اختيارية على السكان لخلق أنواع جديدة من الأبنية المنتجة والتنظيم، ويزيد التمايز التي يمكن أن تشجع النمو السكاني أكثر، وعندما تبدأ هذه العملية فإنها ستعمل على تنميتها بنفسها. وإضافة إلى ذلك، فإنها تظهر المشكلات التكيفية عندما يقود التمايز الغزو العسكري والمجتمعات التي تركز على القوة العسكرية في الغزو، وهذا أيضًا سيزيد من عدم المساواة التي تقود إلى مشكلات للتكامل الاجتماعي الحضري لمواجهة التهديدات الخارجية من المجتمعات الأخرى؛ ونتيجة لذلك تستطيع المجتمعات مواجهة الضغوط غير التكاملية المتزايدة التي يمكن أن تسبب تأخر ارتقاء المجتمعات الصغرى والأبسط، ثم تقود إلى انهيار كامل للمجتمع بشكل متكامل.

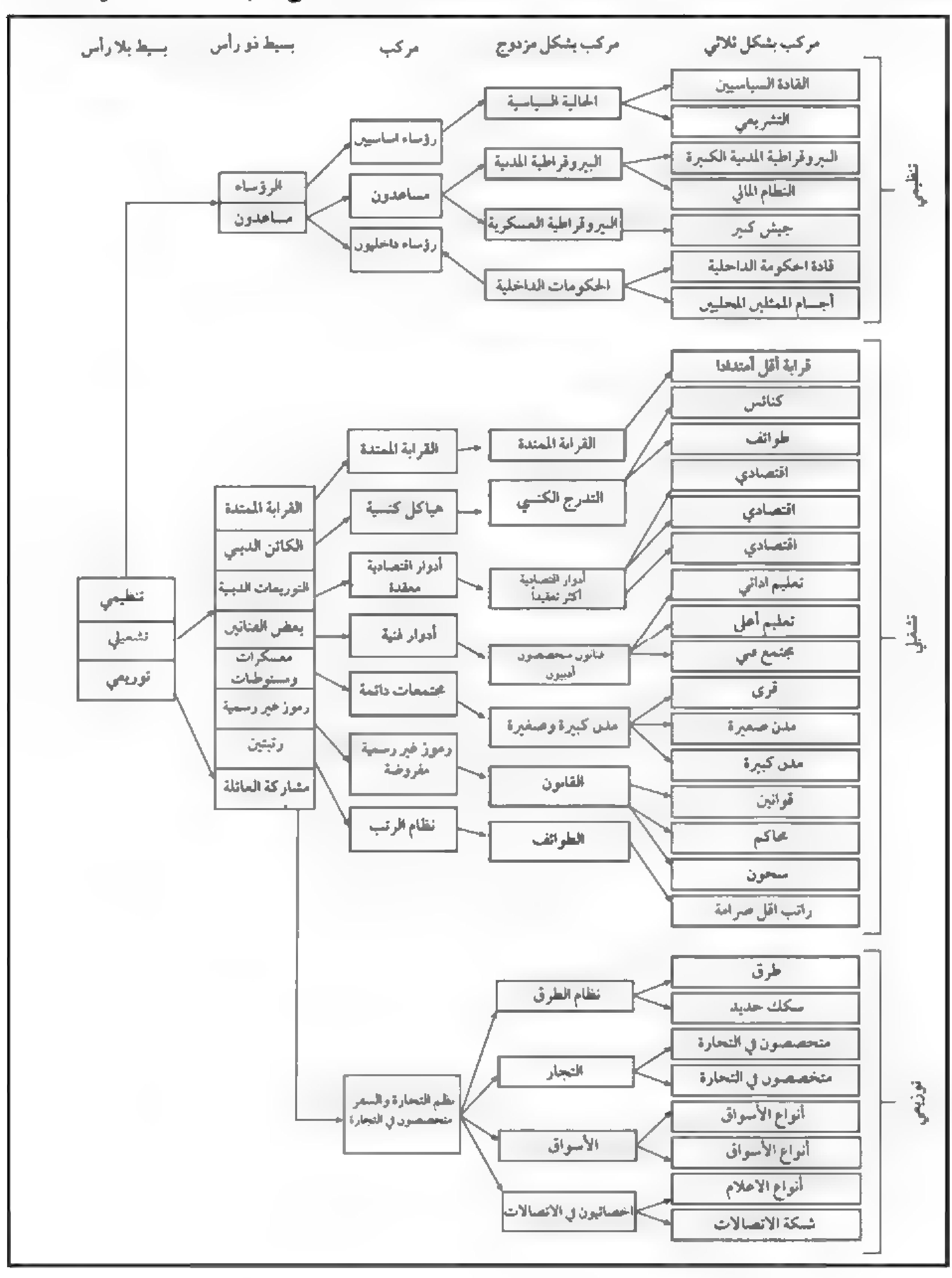
نظرية دوركايم للتمايز والتكامل Durkheim's Theory of Differentiation-Integration

استعار إيميل دوركايم الكثير من عمل سبنسر الكبير الأول "تقسيم العمل في المجتمع" [٥] الذي يحلل أسباب ونواتج النمو والتمايز للنمو السكاني، معتقدًا أن النمو السكاني أوجد نوعًا من الصراع الداروني (Darwinia) نسبة إلى (تشارليز داروين)، وهذا الصراع يحدث من قبل الأفراد والجهات الفاعلة الجماعية لإيجاد منافذ للموارد عن طريق زيادة التمايز في أي مجتمع. ولم يكن تركيزه الأساس على التطور بقدر ما يتعلق بكيفية بناء أساس جديد للتكامل المجتمعي، والتطور الحضري والنمو المجتمعي المتمايز. وكان يشبه كونت في تقديره باحتمال حدوث الأمراض الاجتماعية عندما لا يكون هناك أساس جديد للتكامل بين المجتمعات المختلفة مثل: الشذوذ (عدم تنظيم الرموز الثقافية

---

(٥) إميل دوركايم، إدارة العمل في المجتمع (نيويورك: صحافة حرة، ١٩٤٧م، نُشرت النسخة الأصلية بالفرنسية عام ١٨٩٣م).

المشتركة)، والأنانية (عدم تكامل الأشخاص في البناء الاجتماعي)، وعدم المساواة (للتقسيم القسري في العمل)، وسوء التنسيق بسبب ضعف الترابط البنيوي والتوافق البنائي، وعدم المساواة بين العمال. لكنه ناقش أيضًا بأن هذه الأمراض من المحتمل أن تختفي عندما تبدأ أسس التكامل في الارتقاء لبناء قواعد جديدة لهذا الارتقاء أو التطور. وقد ظهرت هذه الصورة بشكل أكبر عند سبنسر.



(الشكل ١ , ١١). نموذج سبنسر لمرحلة التطور.

المصدر: جوناثان تيرنر، وظهور النظرية الاجتماعية ٧ هـ، منشورات سيج المحدودة، ٢٠١٢م

Source:Jonathon Turner, The Emergences of Sociological Theory 7e,SAGE Publications Inc.,2012

كيف كان يتم تحقيق أسس جديدة للتكامل؟ وبالنسبة لدوركايم، فإن الأسس الجديدة للتكامل يمكن تحقيقها بطرق عدّة. وكما أكد كونت أنه يجب أن يمتلك أفراد المجتمع ثقافة عامة، ولغة، ومعايير ومعتقدات، وقيم وأنظمة الرموز الأخرى. وأدرك دوركايم أن التمايز البنائي يضع الناس -نوعًا ما- في عوالم اجتماعية مختلفة، واستجابة لذلك؛ تصبح القيم الثقافية أكثر عمومية؛ بحيث ما تزال متصلة بالأفراد والوحدات الاجتماعية في أماكن مختلفة في النظام المتمايز. ولكن من المرجح جدًّا أن النظام المعمم والمجرد من الرموز الأخلاقية يفقد كفاءته في تنظيم أفعال الممثلين بشكل دقيق؛ لأن هذه الرموز عندما تكون أخلاقية بشكل كبير تظل مجردة. وعلى سبيل المثال، إذا كان الرمز الأخلاقي يوضح أن الأشخاص يجب أن ينجزوا بشكل جيد فإن مثل هذه الرموز المجردة لا تخبر الأشخاص عن معايير كيفية الإنجاز اللازمة، أو ما المعايير اللازمة لتحقيق النجاح؟ ومن ثم فإن الرمز يزيد من احتمال حدوث حالة (الأنومي- اللامعياري) أكثر من احتمال حالة التنظيم عن طريق الثقافة.

وقد حاول دور كايم أن يحدد ضغوط الاصطفاء التي تعيد شحن الرموز الأخلاقية المجردة، مثل: المقدمات المنطقية للقيم بتعليمات أكثر دقة في مجال كيفية إدراك عقائد الرموز الأخلاقية كالتفويض، وأنها تؤدي بشكل جيد لتحقق تلك المعتقدات الجديدة، أو ما يسمى أيديولوجية في يومنا هذا، واختيار الأفراد لكيفية تحقيق الإنجاز في السياق المتزايد، وأن أكثر من مجال أو موقف محدد هو ضروري للتضامن الاجتماعي.

وبحلول الأعوام الأخيرة من القرن التاسع عشر بدأ نقاشه بأنه يجب على الوحدات الاجتماعية حتى لو كان المجتمع كبيرًا ومتمايزًا بين الأعداد الكبيرة من السكان أن يمتلك: (أ) القدرة على تنظيم أعضائه لإدراك أفعالهم في الوحدات الاجتماعية. (ب) توجيه العبادة بإثارة العواطف الطقوسية نحو طواطم الجماعات التي تشكل رموزها بوصفها وحدات اجتماعية. (ج) الأشياء التي تعمل على تنظيم الأنشطة الخاصة بأعضائها بأن يحملوا رموزًا مشتركة تحدد التزامهم نحو المجتمع. وأكد دوركايم على هذه الرموز التي تحددها الجماعات وتنظم أنشطة أفرادها بأن تعمل على تطوير المجتمعات المحلية الصغيرة إلى المجتمعات الكبرى من خلال تمسكهم بالرموز العامة التي يحددها المجتمع، سواء كانت أعلامًا أو رموزًا أخرى من الرموز التي تمثل المجتمع ويقدسونها. ولهذا أصبح

دوركايم مهتمًّا بالطواطم بين الشعوب التقليدية والمثقفين مسبقًا؛ لأنه يتوقع بأن المجتمع المتمايز على نطاق واسع يجب أن يقدس أفراده الطواطم والرموز التي تمثل المجتمع، وبالتالي التأكيد على التزامهم للمجتمع ككل، حتى لو كانوا يقومون بأنشطة متعددة؛ لأن ذلك يمثل رمزًا يلتزم به أعضاء الجماعات ويلتفُّون حوله. وبالنسبة لدوركايم فإن الترابط االبنائي لا بدَّ وأن يصاحبه تمايز. وقد ادّعى أن هذا الترابط من الممكن أن يبرز بشكل طبيعي. إلا أن دوركايم لم يحدد الآليات التي يتحقق بواسطتها الترابط، ولكن ربما اعتقد أن الأسواق إحدى هذه الآليات. ومهما كانت الآليات المتضمنة، فقد ركز على أنه لا بدَّ من وجود أخلاق مشتركة، وقيم مقدسة، وأيديولوجيات، والتزامات أخلاقية للرموز الجمعية التي تساند التبادل والعقود. وهذه فكرة مشابهة لتأكيد كونت على أن الثقافة المشتركة هي آلية تكاملية. وهناك دائمًا أخلاق غير تعاقدية للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد والوحدات الاجتماعية.

ولذا فقد أكد دوركايم بأن التمايز سوف يضع الأفراد في مواضع وفي أنواع مختلفة من البناءات الاجتماعية في المجالات المؤسسية المختلفة، وبذلك يشعر الأفراد بالعزلة عن البناء الاجتماعي، ومع عدم الشعور بأنهم جزء كامل أو موحد في البناء الاجتماعي. ومن هنا مرة أخرى يصبح الأفراد متكاملين أخلاقيًّا في جماعات متنوعة عند الانضمام للممارسات الطقوسية، تجاه الرموز التي تشير إلى الجماعة ككل، وعندما تبرز هذه الطقوس مشاعر إيجابية، فهي تؤكد الشعور بأنهم جزء من البناء الاجتماعي وأنهم ملتزمون به. وبالتالي فإن إزالة الأنانية حتى في الأنظمة المعقدة تسمح بانتقال الأفراد في الجماعات المختلفة في التنوع الواسع من السياقات والمجالات (انظر: نموذج كولينز لطقوس التفاعل في الشكل ٣-٣).

وأخيرًا لقد أوضح دور كايم أن عدم المساواة من الممكن أن تصبح قوة غير تكاملية في المجتمعات، إذا لم يستجب التوزيع إلى تمايز المواهب والقدرات. ولكنه ناقش بأن هذا التقسيم المعبر للعمل كان مؤقتا. وأكد دوركايم على ضغوط الاختيار الذي سيعمل على مكافأة الناس على مواهبهم وقدراتهم.

ولكنْ، أدرك دور كايم أن الحاجة للترابط بين البنى الاجتماعية المتمايزة لا تنتج بالضرورة هذه الترابطات، ولكنه لم يشعر بأن هناك ضغوط اختيار كانت لخلق الترابطات من خلال إذا كانت

القواعد المعيارية مقدسة غالبًا في القانون، ففي كثير من الأحيان يمكن أن تظهر وتحمل الأخلاق الجمعية للسكان، كما يمكن الاعتماد على االترابطات المتبادلة القوية والمعنوية التي تزيد من من كفاءة التنسيق بين الجهات الفاعله المتنوعة.

واختلف سبنسر -أو كونت-، مع دوركايم في التركيز على أهمية القوة والسلطة كقوة للتحكم الاجتماعي، وبدلًا من ذلك أكد على التكامل في مقدمة كتابه الطبعة الثامنة "تقسيم العمل" في المجتمع، والذي عرض فيه دوركايم دور الحكومة الإدارية بوصفها قوة متكاملة، مقترحًا أن على الحكومة أن تكون ديمقراطية، وأن تتضمن الأحزاب السياسية، وذوي المراكز المتشابهة في تقسيم العمل، ولذا بسبب هذه المساواة الثقافية بين الأعضاء سيكون للأفراد مصالح عامة، ويمارسون ضغوطًا على الحكومة من أجل تحقيق مصالح إضافية، وبالتالي يمكن ربط القوة بالمجتمعات الداخلية وبالأخلاق المبنية على التخصصات المهنية، والذي يختلط -بدوره- بالصراعات السياسية لتحقيق حاجات ومصالح الأفراد.

التفسيرات النظرية المبكرة للصراع

Early Conflict Theoretic Explanations

بطرق مختلفة -إلى حد ما- طوَّر جميع رواد علم الاجتماع الألمان نماذج مرحلة التطور، وبخاصة نماذج مرحلة التنظير التطوري أمثال: كارل ماركس، ماكس فيبر، جورج سيميل؛ حيث رأى ماركس أن الرأسمالية بسهولة تتكون قبل نهاية المرحلة الأخيرة للشيوعية نتيجة للتطور التاريخي ، أما فيبر فلم يرَ أن التطور شيء حتمي، ولكنه انتقال إلى الحداثة والسلطة الشرعية العقلانية، وحالما تحدث الديناميات التطورية فستكون حتمية، في حين إن سيميل الذي لم يطور نموذج التطور وما زال يناقش مؤكدًا أن نشوء الحداثة له آثار تحررية (مناقضًا بذلك ماركس) وبدل لأساس التكامل الاجتماعي، وبالتالي فإن التطوريين غير منفتحين تمامًا بمرونة ؛ أي (منظري الصراع الذي كان لديهم الكثير من الآراء حول الانتقال إلى الحداثة). ودعني أفحص كلًّا من النماذج التي اقترحها هؤلاء المنظرون، ومنها:

نموذج مرحلة ماركس (Marx's Stage Model)

ومن النماذج الثلاث نجد أن ماركس تبني تطور المجتمعات من خلال الصراع ، وأكثر تطورًا في استخدامه لنموذجه المراحل التطورية الثلاث للمجتمع، حيث يرى أن المجتمع الشيوعي البدائي تمثل مجتمعات (الصيد والجمع)، ومجتمعات العبودية (المجتمع الإقطاعي)، ومجتمعات البستنة [البساتين] (الزراعي). أما المجتمعات الرأسمالية (التصنيع) وصولًا إلى الشيوعية.[٦]. وليس المقصود من مراحلة النموذجية أنها مراحل قوية؛ لأن ماركس كان مهتمًا في المقام الأول بتناقضات الرأسمالية ، والذي يعتقد أنها ستؤدي إلى الشوعية . وكما رأينا في نظرية الصراع لماركس في (الفصل٣)، لقد ركزت فقط على أفكار ماركس حول تكامل المجتمعات الرأسمالية .

ناقش كارل ماركس البنية التحتية الأساس للمجتمع هي وسائل الإنتاج ، ويرى أن المجالات المؤسسية والثقافات هي بناءات مجردة ، إلا أن هذا التأكيد صارم ومتطرف إلا أنه يشير إلى ديناميات تكاملية معينة . وبالنسبة لماركس ، فإن أولئك الذين يملكون وسائل الإنتاج ويسيطرون عليها قادرون على استغلال الموارد من أولئك الذين يستخدمون وسائل الإنتاج في الرأسمالية. و يحدث هذا الاستغلال من كل شخص قادر على استخراج فائض القيمة الموروث في عمل البروليتاريا. أو ما يدفعه الرأسماليون للعمالة والايرادات الفعلية التي يحصلون عليها من هذا العمل في الأسواق.

فالرأسماليين هم المسيطرون على العمل والموارد، والتحكم بالمصانع، وما يتبع ذلك من عوائد عند بيع الانتاج في الأسواق ، وهكذا يمكن تعريف الاستغلال على أنه الاختلاف بين سعر المنتج في السوق وإنتاج الآلات في إنتاجها .

أيضًا يستطيع الرأسماليون السيطرة على على البنية الفوقية ، لا سيما على الأيديولوجيات التي تضفي شرعية على أشكال إنتاجهم ، وأعمال الأنظمة السياسية ، لفرض مصالح الرأسماليين ، إلا أن نظرية ماركس قد بالغت في تقدير سيطرة الرأسماليين على الأيديولوجيات والحكومة؛ ولكن من أجل دعم حجته. ولذا لم يبرز كارل ماركس سوى ثلاثة عناصر حاسمة في الحفاظ على أي نظام اجتماعي، وبينما تستخدم المجتمعات تكنولوجيا صناعية جديدة لتنظيم الإنتاج في أسواق أكثر

---

(٦) كاري ماركس وفريدريك إنجل "البيان الشيوعي" في بداية ظهور البيان الشيوعي، نسخة د. ج. سترويك (نيويورك: الناشرون الدوليون، ١٩٧١م).

انفتاحًا وتنافسًا، ويتم إنشاء موارد جديدة من الثروة واستخدامها لتمويل الإنتاج والأيديولوجيات التي تضفي الشرعية على الإنتاج والتوزيع للرأسماليين. وبالتالي يتحقق التكامل من خلال: (١) أسواق تخلق ترابطًا بين الجهات الفاعلة في هذا النظام حتى وإن كان ينظر إليها على أنها مستغلة. (٢) توطيد السلطة لإنقاذ هذه العلاقات. (٣) الأيديولوجيا التي تشرع كل من أنماط الاعتماد المتبادل التي تم إنشاؤها بواسطة الأسواق وبالاعتماد على استخدام السلطة من قبل الحكومة. وافترض ماركس أن أولئك الذين يستفيدون من نظام التكامل سيتحولون إلى المواجهة من أجل الصراع. وفي الواقع أن تنبؤات كارل ماركس كانت خاطئة -إلى حد ما- في افتراضه بأن الطبقات الدنيا لا يستطيعون ممارسة ضغوط على الحكومة من أجل تخفيف حدة العلاقات الاستغلالية والتغريب، وأيضًا ليس من الحقيقة أن تسيطر النخب على الحكومة وعلى أدوات الإنتاج والأيديولوجيا. وهذه المحاور الثلاثة للتكامل في المجتمعات الحديثة الرأسمالية والموجهة نحو السوق. إلا أن عند صياغة كارل ماركس لهذا المعنى المجرد لم يكن مختلفًا جدًّا في نموذجه هذا عن نماذج كل من سبنسر ودوركايم.

-نموذج مرحلة ماركس فيبر Max Weber's Stage Model

يرى فيبر أن المجتمعات بُنيت من خلال الأفعال التي أنشأت المنظمات والأنظمة المهيمنة (النظام الطبقي) .[٧] على غرار ماركس فقد رأى صراعًا محتملًا في المجتمعات؛ لأن النظام الطبقي دائمًا يولد توترًا بين هؤلاء ممن لديهم الثروة والنفوذ والسلطة من جانب هؤلاء الذين يمتلكون هذه الموارد. ومع هذا، وعلى العكس من ماركس، فقد أدرك فيبر أن العلاقة بين الطبقة (الثروة والاقتصاد) هي الأحزاب (كالسلطة السياسية)، وأيضًا مكانة الجماعات (من حقوق: (الشرف، والاحترام، والنفوذ)، ولكن ليست دائمًا عالية؛ مما يؤدي إلى تقليل استقطاب الناس من المجتمعات. ومع ذلك يبقى الصراع محتملًا، وبشكل دوري عند توفر الظروف المناخية المناسبة له، وذلك : (أ) يكون هناك ارتباط بين مراكز أصحاب الطبقات الدنيا والعليا للهيبة. (ب) وكذلك -أيضًا- عندما يكون هناك فجوات بين المواقع العليا والدنيا في أنظمة الهيمنة. (ج) وكذلك عندما تكون الحركية

---

(٧) ماكس ويبر، الاقتصاد والمجتمع (بيركلي، كاليفورنيا: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٦٨م)، ص ٩٠١-١١٥٨.

بين الطبقات الاجتماعية نادرة؛ وبالتالي ينفجر الصراع تحت هذه الظروف، ويؤدي إلى ظهور نظام جديد للهيمنة الذي يحدد لاحتمالية صراع مستقبلي.

كما ناقش فيبر بأن ظهور الرأسمالية غير حتمي؛ لأنها موجودة، وبرزت نتيجة لتغير الطبيعة الأساسية للمجتمع، وتبين أن الرأسمالية ليست فقط آليات لتنظيم الأنشطة في المجتمع، ولكنها أيضًا أيديولوجية تؤيد شرعية انتشار البيروقراطيين في كل المجالات المؤسسية؛ اقتصادية، وسياسية، ودينية، وشرعية ... إلخ. و هذه العقلانية تنزع تمامًا الأشكال التقليدية للهيمنة، وتجعل الناس مجرد تروس في الترتيب البيروقراطي، ويتوسطها المال وأسواق العمل. وتكون النتيجة تقليل الإمكانية الثورية إلى حد كبير؛ لأن البيروقراطية العقلانية، تصبح كالقفص الحديدي بالاستيلاء على أنشطة الناس ومشاعرهم في كل المجالات المؤسسية، وبذلك تؤكد المرحلة الحديثة على التطور المجتمعي الحضاري كأساس جديد لتنظيم ما أسماه: (الأوامر المشروعة) في المجتمعات، وانتشارها عبر كل أشكال الهيمنة مثل الالتزامات التقليدية، والعاطفية التي تقود إلى انتشار أشكال البيروقراطية للمنظمات الاجتماعية التي ينظمها القانون والحكومة. وفي مثل هذا العالم من الصعب ملاحظة عدم المساواة كشيء غير عادل، وتكون هناك صعوبة في تعبئة الممثلين لمتابعة الصراع ضد النظام، ويكون هناك استقرار أكثر كشكل حقيقي للهيمنة، وهذا على العكس من آراء ماركس؛ حيث يرى فيبر أن نهاية التاريخ يكون قاسيًا إلى حد ما، ومتحررًا إلى حد ما؛ لأن البيروقراطيين يقلصون آراء الأشخاص وأفعالهم.

نموذج مرحلة سيميل
Simmel's Stage Model

لاحظ جورج سيميل (George Simmel) التحول إلى الحداثة بطريقة أكثر مرونة من ماركس وفيبر، حيث يرى أن المجتمعات تبنى حول الأسواق والارتباط بين الجماعات الدائمة والأبنية الاجتماعية التي تفتح المجال لحريات جديدة.[8] فيصبح للأفراد تفضيلات أكثر بناءً على اختيار انتمائهم. ولم يعودوا مقيدين بالتقاليد القديمة القمعية، ولكن عن طريق تفضيلاتهم الخاصة. ويدرك

---

(٨) جورج سيميل، فلسفة المال، ترجمة: توم بوتمر وديفيد فريسبي (بوسطن: رووتلدج، ١٩٩٠م).

الأفراد التفضيلات للنقود باستخدامها في الأسواق على نطاق غير موجود في المجتمعات قبل الرأسمالية حتى في مرحلة الصيد والحصاد، ويصبح لديهم القدرة على اكتساب قيمة متزايدة؛ لأن شراءهم للبضائع والخدمات في الأسواق تعتمد على افتراض أن النقود الممنوحة سوف توفر قيمة مدعمة من الشيء أو الخدمة التي تم شراؤها من أي سوق.

وبذلك زادت الرأسمالية من الفردية، وقللت التضمين في الجماعات النسبية، و -بشكل مثير- زادت الخيارات لإدراك التفضيلات وحقيقة الناس، وعادة ما تكون هامشية للعديد من الجماعات، فلم يعودوا يستطيعون الشعور بالتضامن الكامل في انتماءاتهم لكثير من الجماعات، وربما يشعرون بالعزلة وما زال ذلك حتى الآن. وقد أكد سيميل أنه عندما تزود الأسواق كآليات للتكامل الاجتماعي الحضاري، فيتحقق للأفراد إحساسهم بكفاءة أكبر، والذي -بدوره- يقودهم إلى قبول النظام الذي ينظمه القانون، والأسواق، والحكومة، فلم يعد التكامل تابعًا ليكون عالة على الثقافة العامة. ولذلك فإنه من وجهة نظر سيميل تكون الأسواق أكثر تحررًا من أن تكون مستغلة، والعقلانية ليست مقيدة؛ لأنها هي من يكوّن انتشار الأسواق التي تنفتح على اختيارات جديدة للأفراد، لإدراكهم حاجاتهم الفردية وتفضيلاتهم.

نهاية العصر الكلاسيكي
The End of the Classical Era

بدأ أساتذة علم الاجتماع الأوائل العظماء في الزوال في نفس الوقت الذي تم فيه رفض التنظير التطوري. وكان سبنسر فقط من كان لديه نظرية قوية للمراحل التطورية، ولكن المنظرين الكلاسيكيين كانوا مهتمين بالمشكلات والأمراض الاجتماعية التي صاحبت صعود الرأسمالية والحداثة. فبالنسبة لماركس فإن الرأسمالية هي مرحلة الثورة الأخيرة، وبفعل هذا حملت الرأسمالية بذور نمو الشيوعية واحتمالية تحررها. وكان جدل كل من ماركس وفيبر وسيميل حول هذا مبالغًا فيه، ولكن عند دمجها مع كونت وفطنة سبنسر ودور كايم فهي تعرض وجهة نظر لمفاتيح القوى التي يمكن تضمينها في التطور الاجتماعي.

وهناك قُوًى تقود التطور إلى العمليات التي تدور حول السكان؛ لأنها تخلق ضغوط الاصطفاء للإنتاج والتوزيع المتزايد، حيث تصبح المجتمعات أكثر تعقيدًا أو تمايزًا تحت هذه

الضغوط، وتتغير أسس التكامل بناءً على تعدد الجهات ومنها: أولًا: تمايز الثقافة بين الأخلاق الموجودة بشكل معمم وكبير من ناحية، والمعتقدات والأيديولوجيات والمعايير التنظيمية الموجود من ناحية أخرى عندما تصبح الأخلاق مجردة في المجتمعات المتمايزة، وتسمح الرموز الأخلاقية المجردة بالتمايز، ويستطيع توفير أولويات أخلاقية معممة بشكل كبير. ثانيًا: أنها لا تملي بتقدم دليل أخلاقي محدد للأشخاص، والوحدات الاجتماعية التي تعمل في مجالات مختلفة، فقط عندما تتحد قيم مستوى الاجتماع الحضاري مع الأيديولوجيات والمعايير في مجالات مؤسسية متعددة يمكنها تجريد الترابط الأخلاقي كآلية للتكامل بتوسطها السوق، وأقل توسطًا عندما يكون طريق أنظمة السلطة، مع نتيجة زيادة الفردية والسماح للأفراد والوحدات الاجتماعية لمتابعة تفضيلاتهم بشكل مستقل عن مراكز القوى. ثالثًا: تصبح الحكومة أكثر ديمقراطية، وقادرة على امتصاص الصراعات للمصالح بين الممثلين الموجودين في مجالات مختلفة وأماكن مختلفة في نظام يفقد المساواة [٩]. رابعًا: القانون وقدرته على السيطرة على القوانين في المحاكم؛ لتصبح أكثر أهمية لتنظيم التغيرات في الأسواق من أجل تحديد العلاقات بين الحكومات والسكان الذين تحكمهم.

وفيما يبدو أن تلك الفرضيات اختفت برحيل التنظير التطوري في علم الاجتماع في النصف الأول من القرن العشرين، ولكن في الحقيقة ظلت جزءًا من المناظرات في الحلقات النظرية النقدية التي تُعدُّ مهمة بشكل متساوٍ، وقد عادت هذه الفرضيات للظهور في علم الاجتماع عمومًا لمراحل التطور المجتمعي حينما عاد التنظير ثانية في (١٩٦٠sم).

النماذج الحديثة لمرحلة التطور المجتمعي
Modern Stage Models of Societal Evolution

لقد عادت نماذج مرحلة التطور المجتمعي للظهور مرة أخرى بعد أن توارت في علم الاجتماع في (١٩٦٠sم)، وليس بالمستغرب عندما بدأ المنظرون الوظيفيون -مثل تالكوت بارسونز- في جذب الأفكار التطورية مرة أخرى للاهتمام المتجدد بالتنظير التطوري، ولكن جهوده كانت أقل

(٩) تلكوت بارسونس، المجتمعات: مفاهيم تطورية ونسبية ونظام المجتمعات الحديثة (أنجلوود كليفز، نج: بريتتيس هول، ١٩٦٦ و١٩٧١م علي التوالي).

أهمية بكثير عن عمل لينسكي[١٠] (10) (Lenskis) الذي طور مرحلة تأكيد قوة التطور المجتمعي بشكل غير متكافئ والصراع المحتمل، وكان خط التأكيد هذا متناغمًا مع تلك الأوقات التي غلب عليها الصراع في الستينيات. وظهر تنظير الصراع مرة أخرى في الولايات المتحدة فيما قبل عصر مكارثي (McCarthy)؛ حيث تم فحص أفكار ماركس في الأماكن العامة، وتم استقبال نموذج لينسكي بشكل أفضل من نموذج بارسونز؛ لأنه ركز على ديناميات النظام التي تولد بشكل منظم صعود أنظمة الطبقات، ولاحقًا بالارتباط مع جين لينسكي ثم باتريك نولان (Patrick Nolan). وتوسع هذا الاتجاه النظري ذو المستوى العالي للتنظيم الاجتماعي. وبعد ذلك بكثير أعاد لينسكي تشكيل نظريته للتأكيد على الديناميات البيئية التي تكونت عن نموذج مرحلة صعود مستوى التطور المجتمعي. وعند حدوث الإحياء للتنظير التطوري فقد نسي معظم علماء الاجتماع هربرت سبنسر وتأكيده على ديناميات السلطة أثناء التطور المجتمعي؛ لأن الاتجاه الوظيفي كما هو عند سبنسر ممكن أن يثير الشك في عصر أراد أن يتحدث فيه عن الصراع من دون زخارف العلماء النفعيين. وفيما يلي سأعرض لتحليل لينسكي وتحليله المرتبط بالتطور المجتمعي، ثم فحص نموذج مرحلة بارسونز للتطور.

أولًا: تنظير جيرهارد لينسكي للتطور المجتمعي
Gerhard Lenski's Theorizing on Societal Evolution

النظرية المبكرة The Early Theory

إن الجدال الأساس الذي تطور في السلطة والنفوذ لنظرية التقسيم الطبقي هو أن مستوى التكنولوجيا يحدد سويًا مع العوامل الأخرى مستوى الإنتاج في المجتمع، فكلما زاد مستوى

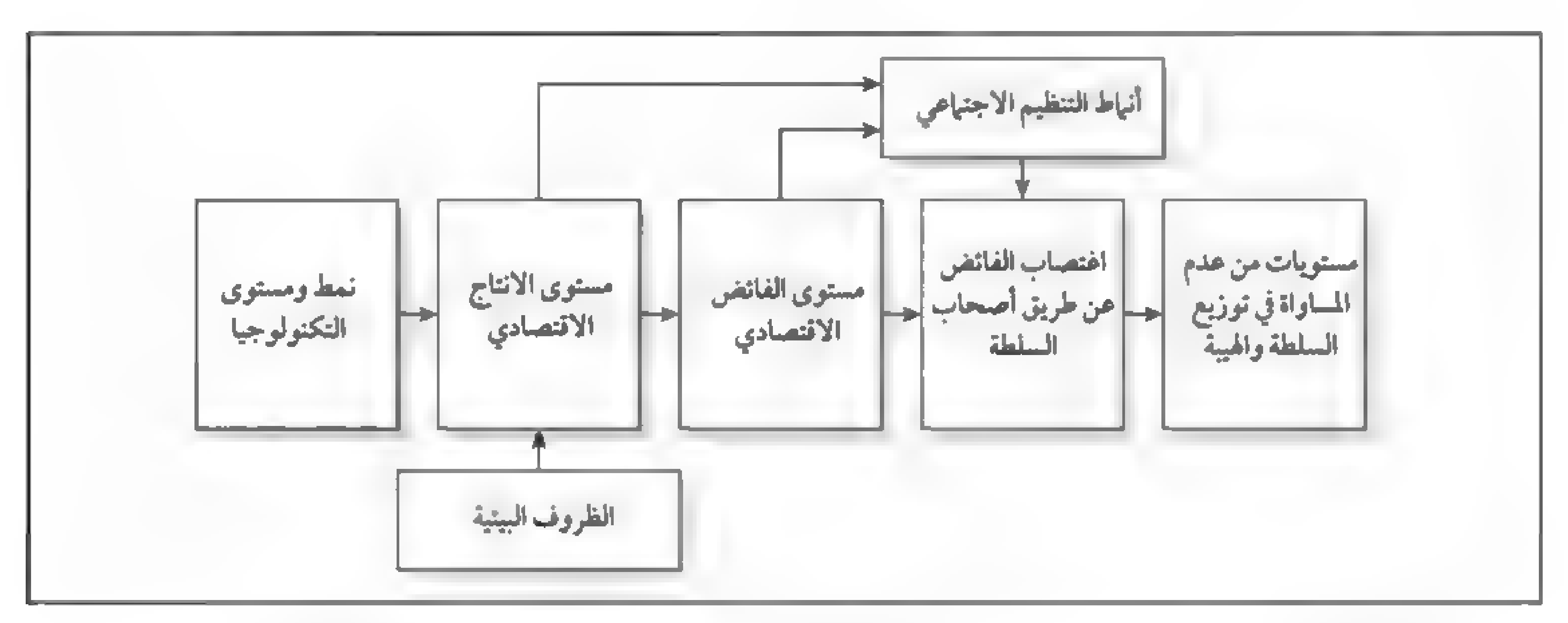
(١٠) جيرهارد لنسكي، القوة والامتياز: نظرية المطابقة الاجتماعية (نيويورك: مكغرو-هيل، تمت طباعته مرة ثانية بمطبعة جامعة شمال كرولينا: جرهارد لنسكي، باتريك نولن، وجين لنسكي المجتمعات الإنسانية: مقدمة في علم الاجتماع الكلي، النسخة السابعة (نيويورك: مكغرو-هيل، ١٩٩٥م). للاطلاع على النسخة الأخيرة، انظر: باتريك نولان وجيرهارد لينسكي، المجتمعات الإنسانية، الطبعة الثانية عشر (مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠١٢م)؛ جرهارد لنسكي، النظرية التطورية البيئية: مبادئ وتطبيقات (بولدر، كولورادو: مطبعة بارادايم، ٢٠٠٥)م.

التكنولوجيا في المجتمع زاد مستوى الإنتاج الاقتصادي ومستوى الإنتاج بشكل عام. وزيادة على ذلك كلما زاد مستوى الفائض الاقتصادي زاد استحواذه بواسطة من يسيطرون على القوة، وهذا يؤدي إلى زيادة عدم المساواة والامتياز بين من يمتلكون هذه القوة وبين هذه الجماعات الأساسية من الديناميات. وتم توضيحه في (الشكل ٢, ١١).

العلاقة الأساسية بين التكنولوجيا والإنتاج، والفائض الاقتصادي وعدم المساواة في المجتمعات التي يتوسطها عدد من العوامل، وأحد هذه العوامل الظروف البيئية، مثل مستوى الموارد في المكان الجغرافي المتاح، بالإضافة إلى ظهور المجتمعات الأخرى، والتهديدات المحتملة للمجتمعات التي يمكن أن توقفها، وعامل أساس آخر هو عامل العامل الديموغرافي الذي يوضح حجم السكان ومميزاتهم. مثال: الانتماء العرقي، الموقع الطبقي، والانتماءات الدينية، إلخ. ومازال هناك مجموعة من العوامل من طبيعة التنظيم الاجتماعي خصوصًا شكل الحكومة، ودرجة ترابطها في القوة، وكذلك -أيضًا- الأنظمة المؤسسية كالبناء الحكومي، والدين، والقانون، والتعليم. وهناك عامل آخر وهو الموقع الجغرافي والسياسي للمجتمع الذي له دور في المنافسة على الموارد والرفاهية مع المجتمعات الأخرى، وعامل آخر هو قيمة الأنظمة الثقافية والأيديولوجية التي تظهر وتَعوق نماذج أنماط التنظيم الاجتماعي.

إن العوامل الإضافية، التي تم تصنيفها جميعًا في (الشكل ٢, ١١) ولكن تحاول الأسهم أن توضح العوامل الأولية في نموذج يدور حول التكنولوجيا، والإنتاج، والفائض، وترابط القوة، وعدم المساواة، ونظام التقسيم الطبقي، وما جعل هذا التحليل مقبولًا في (١٩٦٠s م) هو أن لينسكي استخدم نموذج مرحلة التطور لشرح التنوعات في التأثيرات الأولية للقوة التي تولد التقسيم الطبقي، وبذلك كلما قلَّ مستوى التكنولوجيا قلَّ مستوى الإنتاج في المجتمع، ومن ثَم يقلُّ حجم الفائض، فلا يوجد ما يمكن الاستحواذ عليه عن طريق من يتحكمون في السلطة؛ ونتيجة لذلك ستنخفض درجة التقسيم الطبقي. وكان تاريخ المجتمعات الإنسانية يدور حول جماعات مرت بمراحل رئيسة، وزاد من خلالها مستوى الإنتاج، والتكنولوجيا، والفائض الإنتاجي. والمراحل التي اقترحها لينسكي مشابهة لتلك التي طورها هربرت سبنسر للصيد والحصاد بلا قائد، ومن ثم بداية الحكومة البستنة البسيطة والمتقدمة، الزراعة، ثم الزراعة البسيطة والمتقدمة، كالزراعة

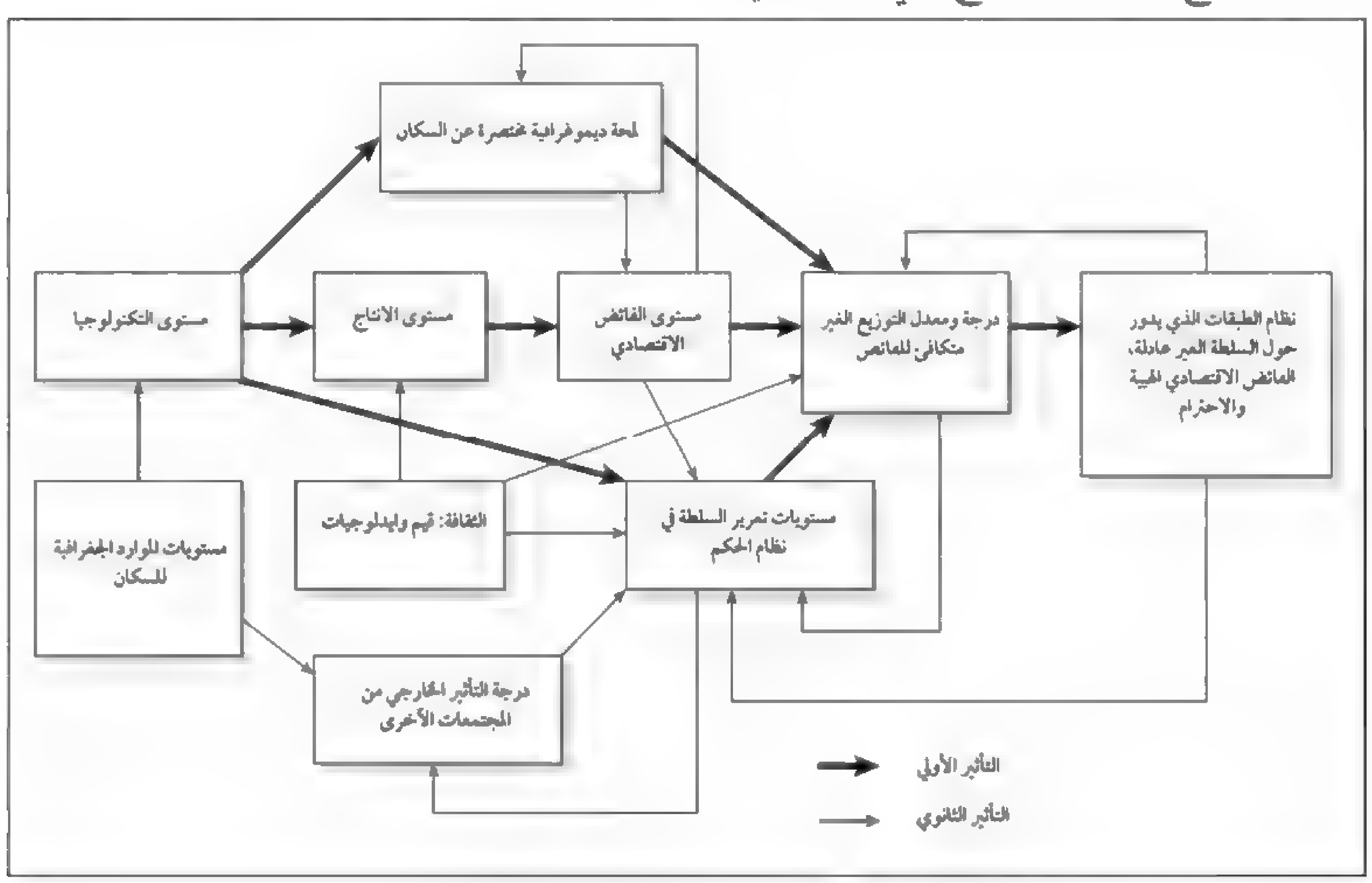
باستخدام القوة الحيوانية، والصناعية المعتمدة على مصادر القوة الجامدة. ومن خلال كل هذه المراحل، هناك تنوع في درجة التطور، مثل متغيرات لمجتمعات الصيد والحصاد، بالإضافة إلى المجتمعات الزراعية. وكانت كل مرحلة ومتغيراتها تعرف عن طريق النموذج الأساس التكنولوجيا الذي يستخدم لجمع الموارد وإنتاج موادَّ خامٍ.



الشكل رقم (٢ ,١١). نموذج لينسكي الأساس للظروف التي تولد اللامساواة المجتمعية.

وقد حاول تحليل لينسكي شرح مظاهر التطور المجتمعي، وأحد هذه المظاهر هو نفس هدف نماذج المرحلة الوظيفية الأولى، ومنها: التعقيد النامي للمجتمعات عن طريق زيادة الفصائل أو الأنواع في مستوى التكنولوجيا والإنتاج، والذي -بدوره- يؤثر على عدد السكان الذين يمكن تدعيمهم في المجتمع ومن ثم حجم المجتمع، ولكن يتوسط هذه العلاقة روابط القوة في السلطة أو الحكومة، وبالتالي درجة القوة التي استخدمت لاستحواذ الفائض الإنتاجي للحفاظ على مستوى النخبة. لذلك فقد أحب لينسكي أفكار كل المنظرين من قبله التي هدفت إلى عزل القوى المحركة للتطور التاريخي ، والتي كانت تهدف إلى التكنولوجيا والإنتاج والفائض الاقتصادي. وكان يميل إلى العلماء الوظيفين مثل سبنسر ودور كايم للتأكيد على الزيادة في حجم السكان، ومعدل النمو كانطلاقة لتطوير التكنولوجيا والقدرات الإنتاجية، وتلك القوى الديموغرافية هي أيضًا جزء من نموذج لينسكي كما هو موضح في (الشكل ٣ ,١١) التي تغطي -إلى حد ما- من الأهمية للنماذج الوظيفية في وقت مبكر، وتوجز مراحل التطور المجتمعي.

والحقيقة الثانية لجهد لينسكي هو شرح التطور وعملية تنظيم التقسيم الطبقي في المجتمعات الإنسانية مع تقسيم الطبقات المفترضة لزيادة مستوى تكنولوجيا الإنتاج، والفائض في الإنتاج. وبمعنًى آخر واقعي هو عن المعلومات المحفوظة للمجتمعات في مراحل مختلفة من التطور. وكانت نظرية لينسكي تدعم عدم المساواة والتقسيم الطبقي، وبالتالي جعل هذا النوع من التنظير التطوري أكثر تناغما مع نظريات الصراع التي ظهرت في نفس الوقت.



الشكل (٣, ١١). نموذج لينيسكي للطبقات.

والعلاقة المفترضة بين التكنولوجيا والإنتاج والفائض، وعدم المساواة هي: أنه عندما تستمر التكنولوجيا والإنتاج في النمو فإنه يستمر كذلك التقسيم الطبقي وعدم المساواة، ومع ذلك، تكون النتائج الفعلية عبر مراحل التنمية المجتمعية أكثر انحدارية، والعلاقة المفترضة تتأخر حتى المرحلة الصناعية، وبالتالي فإن الصيد وجمع الثمار يتقدم فيزيد التقسيم الطبقي، حيث تولِّد التكنولوجيا وفائض الإنتاج أكثر، والذي يعزز القوة تاريخيًا في الحكومة والاستحواذ على الفائض؛ وبالتالي زيادة مستوى عدم المساواة في نظام التقسيم الطبقي، كما أن التحول ضد هذا الاتجاه التاريخي التطوري طويل المدى هو شيء رائع، وإن كان لا يزال متواضعًا نوعًا ما، وقليل المساواة في المجتمعات الصناعية، وهذا التحول يتطلب تفسيرًا، ومن ثم يقدم لينسكي ما أسماه: " متغيرات ثانوية".

(١) جعل السلطة ديموقراطية. (٢) الاعتماد على التعليم كمعيار مهم لتوزيع الموارد وإمداده بالجماهير. (٣) التغيير في الأيديولوجيات الاجتماعية نحو المطالبة بالمزيد من المساواة، أو على الأقل تكافؤ الفرص. وتصبح هذه المتغيرات أكثر ديناميكية بشكل عالٍ في المجتمعات الصناعية، والنتيجة هي عكس الاتجاه التاريخي الطويل الأجل الذي يزيد من عدم المساواة، والتقسيم الطبقي والتضخم في المجتمعات الإنسانية.

لا يمكن التقليل من تأثير تحليل لينسكي، فقد قام بعمل نموذج لمرحلة التوابع التطورية المتمايزة مرة أخرى خارج التحليل الوظيفي؛ لأنه أكد على قوى السلطة، وعدم المساواة والنظام الطبقي التي هي في صميم نظرية الصراع التي استخدمت لتشويه النظرية الوظيفية بشكل عام، ونسخة تالكوت بارسونز للنظرية التطورية والوظيفية، وعلى مدى العقود الخمسة الماضية، واصل حقل نموذج لينسكي للتطور المجتمعي، وبنفس القدر إن لم يكن أهم من ذلك، كما اتبع هذا المنهج عدد من المنظرين نتيجة لامتياز نظرية لينسكي التطوريه الأحدث عهدًا.

النظرية التطورية الأكثر حداثة The More Recent Evolutionary Theory

أصل لينسكي تنظير التطور، وقد أقلق -بشكل متزايد- قُوَى بيولوجية وبيئية في تحليله، وقد عمل مع زوجه قبل وفاتها المبكرة ولاحقًا عمل مع باتريك نولان (Patrick Nolan). فقد بدأ لينسكي أولًا بإضافة أفكار داروين إلى نظريته في التطور المجتمعي، بالإضافة إلى أفكاره بالتجميع الحديث في علم الأحياء. وربما كان مؤشرًا جيدًا عن بداية تأثير التنظير البيولوجي على العلوم في ١٩٧٠-١٩٨٠م (انظر: الفصل الأخير).

كان التطور المجتمعي والبيولوجي يعتمد على تسجيلات من الخبرة، وتم الاحتفاظ بها ونقلها من جيل إلى جيل في صيغة أنظمة مشفرة من المعلومات. وثانيًا: أن العمليات التي تتضمن تنوعًا واختيارًا عشوائيًّا من تلك السمات فإنها تتطور بالتكيف مع البيئة.[11] ومع ذلك فإن هناك بعض الاختلافات المهمة بين التطور البيولوجي والاجتماعي أحدها يتمثل في التطور العضوي "الوراثة"، وهو المحافظ على الرموز للمعلومات، في حين أن التطور المجتمعي يكون في أنظمة

(١١) لينسكي، نولان، والمجتمعات الإنسانية، الصفحة ٧٥ (انظر: الإيضاح ١٠).

الرموز الثقافية التي تمثل المكافئ الوظيفي للأبجدية الوراثية.[١٢] وهناك اختلاف آخر يدور حول الطريقة التي تنتقل بها المعلومات في التطور البيولوجي، فيمكن نقل المعلومات الوراثية فقط من خلال إعادة إنتاج كائنات جديدة، وزيادة على ذلك فإن الأنواع المختلفة لا يمكن تهجينها، ونقل المعلومات يقتصر على نوع واحد. وفي المقابل تنتقل هذه المعلومات بطريقة أسهل وعلى نطاق أوسع من أحد المجتمعات إلى الآخر، والنتيجة النهائية هي التطور البيولوجى[١٣] ويؤدي التصنيف إلى نشوء أنماط جديدة من التمايز والتنويع، في حين أن التطور المجتمعي هو: حركة المعلومات عبر الأنواع المجتمعية المتطورة. ومن المرجح أن تحدث الاختلافات في المجتمعات الأقل عما هو موجود اليوم، وهناك فروق ذات صلة بالتطور البيولوجي في جميع الأنواع سواء البسيطة أو المركبة، ويمكن أن تستمر في الوجود مع أنواع المجتمعات الأكثر تعقيدًا، وما زال هناك اختلاف آخر يتمثل في السمات المكتسبة التي يمكن نقلها عبر التنشئة الاجتماعية، وهناك أيضًا في التطور البيولوجي وهو أن العمليات غير المركبة لا تتغير أبدًا، كما أن التطور الثقافي يمكن أن يكون سريعًا؛ لأن صفات جديدة يمكن أن تنشأ، وتكتسب وتنقل وتنتشر عبر عدة أجيال.

وتؤدي هذه التشابهات والاختلافات إلى الاعتراف بـ: (أ) أن المجتمعات البشرية هي جزء من العالم الطبيعي، وتخضع لقوى الاصطفاء من بيئاتها الطبيعية والحيوية والاجتماعية والثقافية. (ب) أن البشر يتأثرون مثل أي حيوان آخر بميزاتهم الثقافية. (ج) أن البشر هم الوحيدون القادرون على خلق تراثهم الثقافي، أو الرموز الإعلامية التي توجه السلوك، والتنظيم الاجتماعي، ومن ثم فإن أي مجتمع له بناء اجتماعي وثقافي ورمزي. وصفات أخرى لأغراض التحليل، ويمكن تقسيمها إلى الآتي: (١) حجم السكان وخصائصه. (٢) ثقافته أو نُظم رموزه -وبخاصة التكنولوجيا-. (٣) منتجاته المادية الناتجة عن تطبيق التقنية على العمليات الإنتاجية. (٤) الأشكال التنظيمية للأنشطة .(٥) الأنظمة المؤسسية التي تجمع بين (١) و (٢) في نظام معالجة المشكلات الأساسية للبقاء على قيد الحياة والتكيف للأفراد في المجتمع بكامله. في حين تتأثر العناصر الخمسة بالقوى ومنها: (١) البيئة الفزيائية للمجتمع. (٢) البيئة الاجتماعية للمجتمعات الأخرى وتقبل ثقافتها. (٣) التراث

---

(١٢) نفس المرجع.

(١٣) نفس المرجع ٧٥،٧٦.

الوراثي لأنواع البشر. (٤) لا تزال الخصائص الاجتماعية والثقافية سابقة على المجتمع وهذا له تأثير على عملياته الداخلية والتكيف مع البيئة الخارجية.

وفي هذا التحليل الأكثر حداثة يتم الاحتفاظ بتأكيد لينسكي على التكنولوجيا بوصفها قوة محركة للتطور المجتمعي، ولكن كان الجدال منصبًّا على الإطار التطوري المستوحى من داروين، والافتراضات الحديثة، وكما يَلحظ لينسكي حسب قوله: "يبدو أنه غير مبالغ فيه أن تقول إن التقدم في تكنولوجيا البقاء يكافئ وظيفيًّا التغيرات الكيفية في تجمع الوراثة (الجينات) السكاني، وموارد الطاقة الجديدة التي تسمح للسكان بعمل أشياء لم يكونوا قادرين على فعلها من قبل".[١٤]

كما أن التطور الاجتماعي هو عملية تراكمية؛ بمعنى أن التكنولوجيا الجديدة أثبتت مزيدًا من التكيف للمجتمع لتغيير نمط التنظيم الاجتماعي -بشكل عام- تجاه أشكال من المنظمات الكبرى والأكثر تعقيدًا. وهناك قوتان أساسيتان تقودان إلى تغيير المسار في المجتمعات البشرية، هما: (١) الابتكار؛ حيث يتم إنشاء معلومات جديدة وأنماط بنائية واجتماعية، سواء عن طريق الصدفة أوعن نية واعية. (٢) خطر الزوال؛ حيث يتم هجر النماذج الثقافية والبنائية القديمة. كما أن الابتكار في التطور المجتمعي والثقافي يسبب تغيرا أسرع من قوى التطور البيولوجي؛ لأن: (أ) البشر لديهم قدرات واعية لوضع مدونات إعلامية لتطوير رموز معلوماتهم الجديدة. (ب) ولديهم حاجات ورغبات قد تكون بلا حدود، وقد تدفعها ظروف معينة إلى الاكتشافات الجديدة لاحتياجات قديمة قد تظهر. (ج) كما يمكن للإنسان تبنِّي معلومات المجتمعات الأخرى من خلال الانتشار. (د) كما يمكن أن يُجبر مجتمعًا ما لتبنِّي رموز معلومات من نماذج ثقافية وبنائية قديمة عبر الغزو، والقمع، وبخاصة عندما تغزو مجتمعاتٌ أكثر تعقيدًا مجتمعاتٍ أقل تعقيدًا. (ه) كما يمكن إخفاء الطابع المؤسسي للابتكار البشري في هذه الأشكال البنيوية؛ وبالتالي خلق مجموعة من الرموز الثقافية والأبنية الاجتماعية الموجهة نحو الابتكار المستمر. (و) كما يمكن للإنسان خلق الترابط المعقد بين أنظمة المعلومات التي تفرض التغيير على عناصر أخرى.

---

(١٤) جرهارد لنسكي "التصنيفات الاجتماعية: تخطيط العالم الاجتماعي"، مراجعة سنوية لعلم الاجتماع ٢٠ (١٩٩٤م): ص ٢٣.

ومع ذلك، فقد أكد كل من لينسكي ونولان أن هناك قوًى تعمل للحفاظ على الاستمرارية في النظم الثقافية التي توجه تنظيم السكان في المجتمع الواحد، كما أن قوى الاستمرارية هي التنشئة الاجتماعية التي تنقل الأنماط القديمة إلى الأجيال الجديدة. وتُعدُّ الأيديولوجيا هي قوة أخرى تحافظ على المجتمعات الثقافية وتوجه انتقال الثقافة من جيل لآخر. وما تزال الطبيعة النظامية للأنظمة الاجتماعية الثقافية قوة أخرى تحاول أن تقاوم التغيير في عنصر واحد؛ لأنه يتكون من عناصر أخرى سوف يتم إجبارها على التغيير، وبقوة أخرى، وهي مصالح الخاصة الأقوياء في المجتمعات الطبقية الذين لديهم القدرة على إخماد الابتكارات عندما تهدد التغييرات مصالح الوضع الراهن.

وأيضًا هناك قوة أخرى تتمثل في القصور الذاتي؛ حيث تظهر فيها الممارسات السابقة لتعزيز التكيف وترضية كافة الأفراد؛ مما يؤدي إلى مقاومة اعتماد الممارسات الجديدة التي لا يعرف تأثيرها. وعلى الرغم من قوة التعزيز والاستمرارية فإن السجل التاريخي يؤكد على المدى الطويل أن التطور المجتمعي والتغيير تغذيهما الابتكارات التكنولوجية، لإيجاد مجتمعات أكثر وأكبر تعقيدًا، كما تختلف المجتمعات في معدلاتها في الابتكار وذلك لعدة أسباب لقوى مهمة منها: أولًا: كمية المعلومات التي يمتلكها المجتمع بالفعل من قبل، حيث تؤثر بشكل كبير على قدرته في خلق وتبني معلومات جديدة. ثانيًا: أن حجم السكان هو عامل مهم آخر؛ حيث تمتلك المجتمعات الأكبر أفرادًا أكثر يحملون أفكارًا تؤدي إلى توليد أفكار جديدة محتملة. ثالثًا: أن الاستقرار وطبيعة البيئة والحيوية (البيوفيزيائية) هي إحدى قُوى التغيير. وكلما زادت التغيرات في البيئية كان المجتمع أكثر رغبة في الابتكار ، أو تبني ابتكارات المجتمعات الأخرى. رابعًا: أن طبيعة الابتكارات في حد ذاتها هي عامل مهم جدًّا؛ لأن بعض البنى الاجتماعية أساسية وتمهد الطريق لمزيد من الابتكارات على سبيل المثال (حفز اكتشاف المعادن، أو مصادر جديدة للطاقة إلى المزيد من الابتكارات). خامسًا: تحصر أيديولوجية أي مجتمع إلى حد كبير خلق الابتكارات أو تبنِّيها؛ كما أن الأيديولوجية القوية والمحافظة تجعل الأمر صعبًا على الأفراد لكي يكونوا مبتكرين؛ في حين أنها لا تشجّع على نشر الابتكارات من المجتمعات الأخرى.

وعلى المدى الطويل من التنمية المجتمعية على الرغم من التكنولوجيات الإنتاجية هي القوة المحركة للتطور الأكثر أهمية، وفي النهاية أن الابتكارات التكنولوجية يمكن أن تتغلب على معوقات

تعزيز الاستمرارية حتى على الأيديولوجيات والمصالح الخاصة للقوى؛ والسبب في ذلك يرجع إلى أهمية التكنولوجيا؛ لأن المجتمعات التي يمكن أن تجتمع وتنتج وتوزع الموارد بشكل أفضل سوف تولد فائضًا اقتصاديًا قد يدعم نسبة أكبر من السكان، والتمايز بأشكاله التنظيمية الجديدة والتنظيم المؤسسي. وفي النهاية تنتشر التكنولوجيا بين المجتمعات الأخرى -بشكل خاص- يحدث هذا. وعندما تنتصر المجتمعات الأكثر تعقيدًا باحتلال المجتمعات الأصغر حجمًا والأقل تعقيدًا، أو دمجها، أو الخروج منها؛ فهذا يؤدي إلى ظهور نوع جديد من التطور المجتمعي، تبرز دور تاريخ المجتمعات الإنسانية كمجتمعات أكثر قوة؛ ومع تكنولوجيا وقدرات إنتاجية، وأشكال تنظيمية تفرض أنظمتها الثقافية، وأنماطها البنائية على الآخرين من خلال الغزو، فضلًا عن توفير نماذج ودوافع للمجتمعات الأقل نموًا لتبنِّي أنظمتهم الثقافية والبنائية؛ أو الاستحواذ على الموارد التي تعتمد عليها هذه المجتمعات المهزومة في البقاء. وتشير هذه النقاط الأخيرة إلى حجة هربرت سبنسر؛ حيث جادل بأن البقاء للأصلح على مستوى الجماعة ، حيث يسود المجتمع المنظم من الحرب وفي التنافس الاقتصادي . وفي الواقع لقد فضلت اصطفاء نظام عالمي من المجتمعات الناشئة.

نموذج تالكوت بارسونز لمرحلة التطور

Talcott Parsons' Stage Model of Evolution

إلى حد ما، وردًا على الانتقادات المكثفة بأن التحليل الوظيفي لا يمكن أن يفسر التغير في النظم الاجتماعية، وطور تالكوت بارسونز نموذجه التطوري للتغير المجتمعي، ولم يسكت هذا النموذج النقاد؛ لأن ديناميات السلطة، ونظام الطبقات والصراع لم تكن بارزة بما يكفي في هذه النظرية. وعلى الرغم من هذه الانتقادات، فإن نظرية بارسونز ساعدت على استعادة مراحل التنظير التطوري مرة أخرى لعلم الاجتماع بعد نحو خمسين عامًا من الغياب.

وسأركز في الغالب على أول مجلدين صغيرين في نظريته؛ حدد فيهما منظوره عن المجتمعات التطورية والمقارنة ،ثم لخص أفكاره الأساسية في المجلد الثاني عن نظام المجتمعات الحديثة[١٥] ، وحيث تبدأ نظرية بارسونز بمفهومها العام عن أنظمة الفعل الأربعة .

(١٥) انظر: حاشية ٩ للاطلاع علي المراجع الخاصة بأعمال بارسونز الرئيسة بخصوص التطور.

أنظمة الفعل الأربعة The Four Action Systems

كما راجعتَ في (الفصل ٢) بدأ بارسونز بوضع تصور عن العالم الاجتماعي بأنه يتألف من أربعة أنظمة للفعل، (انظر: ص ١٨-٢٣ وجدول ٢٢ ص١٩) اجتماعية، وشخصية، وكائنات، وهو ما تمت تسميته لاحقًا بالسلوكية. وكل من هذه الأنظمة استجابة لواحد من الأربع للمتطلبات الوظيفية للعمل بشكل مشترك، ومع عمل نظام الكائنات لمواجهة احتياجات التكيف، والنظام الشخصي لتحقيق الهدف الاجتماعي لمواجهة الحاجات لدمج كل الأنظمة بالنظام الثقافي من أجل الكُمُون (إدارة التوتر ودعم النمط). وهذه النظرية تم تطويرها مثل كل النظريات الوظيفية طورها كل من سبنسر، وإيميل دور كايم وباسونز(Herbert Spencer and Emile Durkheim, Parsons) . وذكر بارسونز أن التطور المجتمعي على المدى الطويل، والتمايز بين أنظمة الفعل هذه، ثم التمايز داخل هذه الأنظمة وخاصة الثقافية الاجتماعية والشخصية. وهذه الأنظمة الشخصية والاجتماعية بدأت في التمايز في نظام الكائنات مع الزمن، ومع زيادة التطور لاحقًا يتم زيادة التمايز للأنظمة الاجتماعية، والثقافية، والشخصية، وخاصة النظم الاجتماعية، وبطرق عديدة كان بارسونز يقدم نوعًا من التضامن الميكانيكي كما هو الحال في تعريفات إيميل دوركايم؛ لأن في المجتمعات البسيطة تكون الأنظمة الشخصية والاجتماعية والثقافية غير متباينة عن بعضها البعض في تنظيمها، وكذلك الأنظمة الثقافية المشتركة التكنولوجيا. (انظر ص١٣-١٤) وفي نفس الوقت اقتبس بارسونز من هربرت سبنسر رأيه في أن الأنظمة البيولوجية، والاجتماعية، والنفسية، والعرقية تتطور ضمن القانون الخاص بالتطور من المجتمعات المتجانسة إلى مزيد من أشكال اللاتجانس (انظر: ص ٩-١٣، وحاشية ٢ ص ١٠).

ويذكر بارسونز أيضًا أن هذا النوع من التمايز أو التكامل يتم تصميمه بواسطة أشكال ثقافية جديدة، ووحدات جديدة في النظام الاجتماعي، وتصبح المجتمعات أكثر تكيفًا. وكان هناك نوع من الارتقاء التكيفي ظهرت في تعريفات بارسونز خلال التطور من البسيط إلى المعقد؛ لأن الأنظمة الأكثر تعقيدًا تمثل طرقًا متعددة للتكيف والتوافق مع طوارئ المصادفات البيئة.

مراحل التطور الاجتماعي
Stages of Societal Evolution

ويمكن تلخيص نموذج بارسونز في (الشكل ٤ , ١١)؛ فقد افترض كما فعل سبنسر نوعين من المجتمعات المتوسطة (القديم، والمتطور). وأخيرًا التحول إلى المجتمعات الحديثة. ويتوافق هذا تقريبا مع مفهوم لينسكي عن الصيد وجمع الثمار للمجتمعات (المتنقلة والمستقرة) كالبستنة، والمجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية.

كأحد الديناميكيات الرئيسة في الانتقال من مجتمع إلى الآخر، وتدور حول تطوير مرحلة مبكرة من الارتقاء إلى نقطة حرجة من التمايز في أشكال الأبنية الاجتماعية المحددة. فإذا تم الوصول إلى هذه النقطة فإنه يصبح من الممكن تحقيق المزيد من التطور والتمايز بين وداخل أنظمة العمل الأربعة. وعلى سبيل المثال؛ في رأي بارسونز لا يمكن أن تتطور المجتمعات الصناعية، ولا يمكن أن تتطور المجتمعات الزراعية المتقدمة دون تطور نظام من القوانين التي تحتوي على العناصر الشمولية، أو التطبيق المتسامح لجميع أنواع الفاعلين، وحتى يتطور هذا النظام الخاص من القانون بالرموز المدنية الرومانية، لن تستطيع المجتمعات الوصول إلى مزيد من التعقيد.

العناصر الرئيسة في مراحل التطور
Key Elements in Stages of Evolution

عند بارسونز تنطوي كل مرحلة من التطور على ظهور العديد من العناصر الأساسية التي إذا اجتمعت سمحت للمجتمع بالوصول إلى نقطة عتبة التطور إلى المرحلة التالية. وسأتعرض بنوع من الإيجاز لهذه العناصر للمراحل المحددة في (الشكل ٤ , ١١).

الانتقال إلى المجتمعات الحديثة	مجتمعات متوسطة		مجتمعات بدائية	
	متقدم	عيق	متقدم	دنيا
تغيرات النظام الثقافي الرئيسية	تمايز النظام الثقافي	تمايز النظام الثقافي	تمايز النظام الثقافي	تمايز النظام الطبقي
- العالمية وقوانين التعاقد المعتقدات عن الرأسمالية - تكنولوجيات جديدة تستخدم مصادر الوقود الحفري الغير حي - أيدولوجيات مؤكدة على حقوق الأشخاص والديمقراطية السياسية - أحاسيس للمجتمع المجتمعي الموحد بواسطة ثقافة عامة يتم تحملها عبر التزامات بهذه الثقافة	التوسع في الكتابة التي تؤدي إلى - مجموعة متناسقة من المعتقدات الدينية المقننة - تراكم المعرفة والتكنولوجيا -التاريخ والتقاليد المستقرة -عقود مكتوبة في الاقتصاد المتنامي والاسواق الناشئة - المزيد من المؤسسات الحكومية المقننة لقوانين أكثر عالمية في النشأة	نظم اللغة المكتوبة التي - توسيع نظام الرموز لتشمل المعايير التكنولوجية الدينية السياسية والتاريخية - تسمح للتناقضات بين النظم الاجتماعية و الثقافية - تسمح لتمايز بنائي متزايد في النظام الاجتماعي	- المعتقدات الدينية تبدأ في إضفاء الشرعية - نظام الحكم والسلة الملكية - عدم المساواة ونظام الطبقات - التحكم في الأقاليم - النظم المعيارية والتنظيم والتعطل - نظام الأنساب - تقسيمات أكثر تعقيداً من العمال - نشأة أبنية إدارية لنظام الحكم - مستوطنات و مجتمعات - تكنولوجيا موسعة	النظام الرمزي والمعتقدات الدينية عن - السحر - القوى الخارقة - قوى الأسلاف اصطياد – جمع التكنولوجيا لتصورات التنظيم المعياري لـ - الزواج -الادوار الاقتصادية - أدوار القرابة - العلاقات بين فئات الجنس والعمر
تغير النظام الاجتماعي الرئيسي	تمايز النظام الاجتماعي	تمايز النظام الاجتماعي	تمايز النظام الاجتماعي	تمايز النظام الاجتماعي
نشأة السلطة الديموقراطية زيادة النظام القانوني الوضعي والعالمي زيادة الاسواق الحرة والمكاسب الموجهة عن طريق المال والائتماء تغلب السلطة على الدين كوكيل ضبط اجتماعي إضفاء الشرعية للسلطة عن طريق القانون والرموز القانونية العلمانية زيادة النظام التعليمي ووصول المواطنة لهذا النظام تأسيس العلوم والابتكار	التباين المتزايد بين السلطة و القرابة والدين التباينات الأولية للنظام القانوني توسع الأسواق و علاقات الأسواق بين الهياكل الاجتماعية تزايد استخدام المال واسواق الائتماء المؤسسة الكاملة للعقود	مستعمرات أكثر ديمومة وأكبر السلطة المركزية و الوظائف الإدارية الممتدة التحكم في الأماكن الأكبر عن طريق السلطة والإكراه المنظم الهياكل الدينية الموسعة	مستعمرات ومجتمعات الانساب والروابط بين وحدات القرابة النووية تدرج السلطة في نظم الحكم الناشئة نظم الطبقية الناشئة تقسيمات القرابة و الاقتصاد النامي للعمال الهياكل الدينية الناشئة	- وحدات القرابة النووية الفرقة الاقسام الاقتصادية والقرابة للعمال

الشكل (٤ ,١١). تصور بارسونز للإرتقاء المجتمعي.

المرحلة البدائية الدنيا (Low Primitive Stage) وهي المكونات الرئيسة لأبسط مجتمع يعتمد في الوسائل على الاتصال الرمزي، والقرابة، والدين، والتكنولوجيا التي تعني بالنسبة لبارسونز الكشف عن التواصل الرمزي الذي يمكن أن يدل على رموز الامتثال للآخرين، والأقاليم، والأفراد أنفسهم، وخصائص أخرى عن العالم الاجتماعي، وهذا النوع من الرموز يمكّن أفراد الجماعة السكانية من وضع قواعد ولوائح التفاعل التوجيهية والامتثال بها من ناحيتين؛ هما: الأول: القواعد واللوائح التي تسمح بحدوث التفاعلات. والثاني: تنظيم مراقبة هذه التفاعلات.وفي المقابل، فإن مثل هذه التفاعلات المنظمة في تكوين الأنشطة المؤسسية والأساسية؛ كالزواج، والقرابة، والنشاط الاقتصادي، والممارسات الدينية. وبدورها، تزيد هذه الأنشطة من درجة التمايز بين الأبنية الاجتماعية، ومخزون رموز الثقافة، بينما تمكن الأفراد من تطوير شخصيات أكثر تفردًا.

وفي نظام المرحلة البدائية الدنيا تصبح القرابة هي الوحدة الرئيسة للتنظيم الاجتماعي ، وتكشف عن قواعد زواج المحارم كوحدات نووية ، والتفرقة بين الأبناء ربما لا تظهر بوضوح فقط من الأم أو الأب في هذه المجتمعات البدائية عدا في فئات العمر والنوع .

المجتمعات البدائية المتقدمة (Advanced Primitive Societies)، وتتكون عندما يصبح أي نظام بدائي أكثر تعقيدًا وتمايزًا؛ حيث يبدأ النظام الاجتماعي بالتميز داخل العشائر ضمن منظومة القرابة الأكبر، ويبدأ ذلك في التخصص وتبني مفاهيم الملكية، ومع اكتشاف الملكية يبدأ عدم المساواة والتفاوت الطبقي في التطور، حيث تولد الطبقية. وبالرغم من ذلك، تتطلب المشكلات التكاملية تشريعا، ويصبح الدين الآلية الرئيسة التكاملية مع المعتقدات الدينية التي تؤكد على حق ذوي الموارد لجمع الثروة. ولما كان الدين يوفر وظيفة تكاملية؛ إذ إنه يصبح أكثر تعقيدًا وتمايزًا بنائيًّا (مع رجال دين متمايزين)، وثقافيًّا (مع إضفاء شرعية للمعتقدات حول قوة خارقة مع طبيعة تمزج السلطة والامتياز)، وعدم المساواة في الملكية، وحماية اللامساواة، وهذه الفوارق التطورية للملكية يحفز على الملكية لنظام الحكم، أو توحيد وتركيز السلطة حول الرؤساء الأكثر ثراء من حيث الملكية، في حين لا تزال بدائية.

ويحكم أصحاب المناصب الأراضي، ويقومون بأعمال الحاكم، ويتشكل نظام عسكري للحفاظ على هذا النظام والاستيلاء على مزيد من الأراضي، وبالتالي فإن هذه المجتمعات تتطور من مجتمعات (الصيادين المستقرين)، أو (من مجتمعات جامعي الثمار إلى البستنة)، إلا أنها تزداد تعقيدًا بنيويًّا وثقافيًّا مع هذا التطور المجتمعي. فعلى مستوى التعقيد الثقافي يصبح لديهم (رموز تواصل، وتقنيات أكثر تعقيدًا)، ومعتقدات (دينية وأيديولوجيات للتشريع). أما على المستوى البنيوي فهي تشيّد أنظمة تكون أكثر تباينًا وتعقيدًا، مثل: (أنظمة القرابة، والأنساب، والعشائر، والطبقات الدينية)، وعلى مستوى نظام الحكم تشيّد (البيروقراطية الناشئة عن إدارة الحزب).

وعلى أساس هذا البناء الثقافي والاجتماعي تستطيع هذه المجتمعات التطور إلى مرحلة اكثر وسطية من التطور الاجتماعي ، وتنتقل إلى المجتمعات الأكثر بساطة، وتكون وسطًا بين المجتمعات القديمة والمتقدمة. مكونة بذلك من المراحل الفرعية للمجتمعات القديمة والمجتمعات المتقدمة، رغم أن لكل منهما صفات خاصة تختلف عن الآخر.

المرحلة القديمة (The Archaic Stage) يميزها اختراع الكتابة، وتتحدد الرمزية والتفاعلات الإنسانية كوحدة اجتماعية، ويلتزم بها الجميع بحكم الواجب. إلا أن هذه الرمزية لا ترتبط بزمان أومكان محددين؛ حيث تسمح لها القراءة والكتابة بالاتصال المعرفي وتسجيل التاريخ، إلا أن القراءة والكتابة غير شاملتين في كل المجتمعات القديمة؛ لأنهما مقتصرتان على عدد قليل من الوظائف لا سيما في البناءات الدينية والسياسية والإدارية بالدرجة الأولى، وهكذا تصبح أكثر تمايزًا في البناء الاجتماعي من بناء القرابة، ومن ثم تكون تلك المجتمعات أكثر استقلالًا في المجالات المؤسسية. زيادة على ذلك فإن النظام الإداري في الحكم يزداد تباينًا وتوسعًا، مستمدًّا قوته من الشرعية الدينية المساندة لهذا النظام، وتجعله أمرًا مقدسًا عن طريق قوة تلك المعتقدات الدينية.

ومع ذلك فإن نظام الحكم وأبنيته الإدارية تتوسع، وتتمايز ليصبح هذا البناء السياسي ليس بيروقراطية مدنية كاملة؛ لأن التعيين والترقية في هذا النظام لا يزال نسبيًّا للغاية، ولكنه مرتبط بالوحدات الفردية والانتماء الديني، وربما معايير أخرى مثل العرق الذي قد يزداد تمايزًا مع التطور في البناء الإداري، إضافة إلى قدرة الحكومة على تعبئة وتنسيق الأنشطة، وبخاصة فيما يتعلق بصناعة الحرب، وإشغال العامة، والضرائب، وإعادة توزيع الموارد لتوسيع أنشطتها. وعندما يستطيع نظام

الحكم زيادة قدرة المجتمع التكيفية لارتباطه مع بيئته، فإنه سيمهد الطريق لمرحلة متوسطة أكثر تقدمًا.

المجتمعات المتوسطة القديمة (Advanced intermediate Societies)، وفي هذه المجتمعات المتوسطة والأكثر تقدما، يحدث التباين بين نظام الحكم، والدين، والقرابة، ويستمر نظام الحكم في التباين داخليًّا، كما تتركز سلطة أكثر، ويتم استخراج الموارد من خلال الضرائب لدعم وضع البناء الإداري الذي -بدوره- يزيد من النظام الطبقي إلى حد ما، وهذه التغيرات الكبيرة في المجتمعات تأتي مع زيادة المحتوى العلماني للقانون، وبالتالي تتمايز عن الدين بشكل أبعد.

ولكن الأهم يصبح ذلك الوضع نظامًا شرعيًّا عالميًّا وأكثر مثالية للمساواة في تطبيق القانون على الجميع. ويبدأ في الظهور الذي -بدوره- يعطي الاقتصاد قاعدة استقلالية أكبر، في حين يتم عزله عن الصعوبة المستمرة في نظام الحكم والدين، ويصبح القانون، والعالمية في الشؤون الاقتصادية، ويشجع تنمية البلد بوصفه وسيلة مهيمنة للتبادل، وتوسع الأسواق التي تبدأ في التمايز لتلبية المتطلبات المتنوعة، والسرعة المتزايدة للتجارة داخل وبين المجتمعات، والطابع المؤسسي في قانون العقود الملزمة على الممثلين الاقتصاديين، وأنواع التحول هذه تكون ممكنة عندما يكون الاقتصاد معزولًا عن الارتباط الشائع في نظام الحكم، الدين، والقرابة، ولكن عندما يصبح القانون أكثر عالمية في المجال الاقتصادي ويشجع تطوير الأسواق باستخدام المال والائتمان بالإضافة إلى العقود، مستوى التباين داخل المجتمع، وتزداد الأسواق والأموال والعقود، والآلات، ويزداد هذا التمايز نتيجة التباين بين منظومة العمل النفسي من حيث مطالبة الأفراد والتفاضلات في الأسواق، ويتكون النظام الثقافي من القوانين وأنظمة الرموز الأخرى التي يمكن ترميزها وكتابتها، والنظم الاجتماعية للعلاقات الأكثر تعقيدًا بين الممثلين المختلفين، ليس فقط في الاقتصاد، ولكن -أيضًا- في المجالات المؤسسية الأخرى.

الانتقال إلى النظام الحديث للمجتمعات: The Transition to the Modern System of Societies وتنبع الحداثة من هذه القاعدة الثقافية البنائية، والنفسية للمجتمعات الزراعية المتقدمة، والاقتصاديات العاملة في الأسواق التي تخلق حوافز لزيادة الإنتاج لتؤدي في نهاية المطاف إلى تطوير التقنيات الصناعية وتسخيرها للرأسمالية، والأيديولوجيات الثقافية للرأسمالية، والقوانين العالمية

والعقود في الاقتصاد يوفر قالبًا لنفس أنواع التعاملات في الداخل وبين المجالات المؤسسية، وأخيرًا يمهد الطريق نحو الديموقراطية السياسية، وتراجع النسبية في العديد من المجالات المؤسسية، ويقود إلى تعزيز السلطة في نظام الحكم، وتوسيع الثقافة، وفي النهاية تصل إلى ما أسماه بارسونز: "بغموض المجتمعات الحضرية"، أو الإحساس بالسكان، لدرجة أنها تمثل وحدة إقليمية ينظمها نظام الحكم، وأسواق أكثر دينامية. ويظهر هذا الإحساس فيما يسمى حاليًّا بـ "الوطنية"، وهذا هو الأساس الاجتماعي والثقافي الذي يدمج مع التعاملات الشائعة، وأسواق أكثر دينامية، وقوانين عالمية تزيد من احتمال الديموقراطية السياسية التي رآها بارسونز عاملًا أخيرًا للتطور المجتمعي.

ودون الخوض في مزيد من التفاصيل، يمكن أن نرى محتوى تحليل بارسونز، فهو وظيفي جدًّا؛ لأنه يؤكد على التمايز بين وداخل أنظمة الفعل، وبشكل خاص الشخصية الثقافية، وأنظمة الفعل الاجتماعي، ويلبي الحاجة الوظيفية الأساسية التي تسعى إلى سلسلة من التحولات الرئيسة التي تدفع بالمجتمع إلى عدد من المراحل في أثناء تطوره نحو شكل ما بعد المجتمع الصناعي الحالي. وبالنسبة لبارسونز فقد كان يؤيد وقوع أحداث معينة قبل العناصر الأخرى في تطور المجتمعات، وفي كل مرحلة من التطور قد سبقتها تحولات وصلت إلى نقطة العتبة الحرجة التي تسمح وتدفع فعلًا إلى أنواع جديدة من الأنظمة الاجتماعية الثقافية.وبذلك فإن نظرية بارسونز على العكس من النماذج للمراحل الكثيرة، قد لا يرى قوة أساسية تقود التطور، بل إن هناك زيادة عامة في التعقيد أو التمايز بين وخلال أنظمة الفعل الأربعة، ولكن في مراحل مختلفة من التطور المجتمعي، وأحيانًا من خلال القوى الاجتماعية والثقافية المختلفة، وتكوينات كانت تاريخية مهمة للحركة إلى المرحلة التالية في تطور المجتمع.

خاتمة

Conclusion

لا يُعدُّ نموذج مرحلة التنظير مهمًّا بالمقارنة مع المناهج الأخرى التي تناولها هذا الكتاب، ولكنه المنهج الأكثر ثباتًا جنبًا إلى جنب مع الاتجاه الوظيفي. فقد بدأ مع تأسيس وتسمية الانضباط ما عدا توقف دام لأربعة عقود في أوائل القرن العشرين. فقد كان طريقة مهمة لشرح العالم الاجتماعي. وإضافة إلى ذلك ظلت صورة الارتقاء كعملية تمايز نابض بالحياة من وجهات النظر

المتنوعة، مثل: الوظيفية، والنظريات النقدية للحداثة، ويعدُّ هذا عنصرًا رئيسًا للنظريات الأكثر عمومًا للمنتجين (أصحاب العمل) والذي ليس تطويرًا على وجه التحديد.

وزيادة على ذلك، فإن نظريات الصراع، وخاصة نظريات الأنظمة العالمية التي غالبًا ما تتم صياغتها بمصطلحات ارتقائية مع النظام العالمي للمجتمعات التي ينظر إليها على أنها تطورت من الإمبراطوريات الجغرافية السياسية للرأسمالية على مستوى العالم، ثم كما يشير الكثيرون للمستوى العالمي للاشتراكية. وهناك مطالبة لنماذج المرحلة؛ لأنهم يحاولون معرفة ما إذا كانت هذه المجتمعات على مر التاريخ إلى أين ستذهب في المستقبل؟ وعلى نحو متزايد تظهر أفكار بيولوجية أكثر وضوحًا وحيوية وبيئية في التنظير لنماذج المرحلة. وبالرغم أن المنهج يبقى مميزًا للأسباب التي ذكرها لينسكي؛ مما يجعل التطور الاجتماعي يختلف عن التطور البيولوجي[١٦]، ولهذا يعد التضمين للأفكار البيولوجية في نماذج المرحلة مؤشرًا واحدًا فقط من جهد لإدخال علم الأحياء مرة أخرى إلى علم الاجتماع، كما سنرى هذا التقارب بين علم الأحياء وعلم الاجتماع بما تحبيه رؤية كونت لعلم الاجتماع؛ لكونه مأخوذًا من علم الأحياء، ولكن العديد من علماء الاجتماع مازالوا مشككين، بل معادين تمامًا لأي استخدام للأفكار البيولوجية في علم الاجتماع الذي يكون وسيلة جيدة لإنهاء مراجعة النظرية الاجتماعية من خلال دراسة في (الفصل ١٢) يلخص العلاقة بين علم الاجتماع والأحياء، وبالتالي فإن الفصل الثاني عشر يلخص المناهج الرئيسة في منعطف صغير. ويمكننا إنهاء قائمة هذه الافتراضات الرئيسة والمسلمات من نموذج مرحلة التنظير فيما يلي:

١ - تطورت المجتمعات على المدى الطويل نحو مزيد من التعقيد أو التفريق بين الأبنية وثقافتها.

٢ - يمكن أن يتميز هذا الارتقاء بسلسة من المراحل، سواء إذا ما كان الانقسام قبل الحديث مع المجتمعات الحديثة، أو تحديد مراحل متمايزة متضمنة الآتي:

أ) صيد مجتمعات تجمع الثمار بلا قيادي.

---

(١٦) للاطلاع على تحليل آخر لحدود الاستدلال والمفاهيم البيولوجية في التحليل الاجتماعي، انظر: جوناثان هـ. تيرنر وألكسندرا ماريانسكي، "قيود نظرية التطور في علم الأحياء لشرح النمو الاجتماعي الثقافي" علم الاجتماع ٣ (٢٠٠٨م: ص من ١-٣٨).

ب) مجتمعات الصيد وجمع الثمار أكثر استقرارًا وذات قائد سياسي.

ج) البستنة البسيطة، والقوى البشرية الوحيدة ونظام الحكم القائم على النسب مع الصيد ومتغيرات الرعي.

د) البستنة المتقدمة مع مزيد من الأدوات المتقدمة، والطاقة الحيوانية، ونظام الحكم المعتمد على الدولة بشكل متزايد مع الصيد ومتغيرات الرعي.

هـ) الزراعة البسيطة باستخدام قوة المحراث والحيوان، مع نظام ملكي كمركز للسلطة، ولكن -أيضًا- مع دين باعتباره مركزًا محتملًا للسلطة.

و) الزراعة المتقدمة باستخدام الحيوانات والمياه، وطاقة الرياح يحكمها اللوردات الإقطاعيون والمالكون في الحالات الإقطاعية، مع الدين كممثل كبير وقوي للسلطة.

ز) الصناعة التي تستخدم الوقود الحجري في الأسواق الحرة للتوزيع، ودولة بيروقراطية في تنظيم نظام الحكم، في النشاط الثقافي مع بعض الانخفاض في الدين كقاعدة للسلطة السياسية.

ح) ما بعد الصناعة أو استخدام الوقود الحجري ومصادر غير حية من الطاقة إلى الأسواق العالمية، والديناميكية المتزايدة، ونظام الحكم الديموقراطي، وبعض من الفصل بين الدين والدولة.

٣- لا يوجد مجتمع واحد يكتفي طويلًا بما عنده ليمر من كل تلك المراحل، لكن المجتمع في مرحلة واحدة على مر الزمن من المحتمل أن يتطور إلى مرحلة مقبلة من خلال التمايز الداخلي أو التمايز الذي تفرضه المجتمعات الأكثر تقدمًا في البيئة.

٤- للحركة من مرحلة إلى أخرى يجب التعامل مع المشكلات الأساسية للتكامل على نحو مميز من خلال عدد من الآليات التي تمثل: (أ) أسواق لتوزيع البضائع، والموارد، والأفراد، والمعلومات. (ب) وأنماط من الترابط البنائي بواسطة الأسواق، ولكن -أيضًا- من خلال القانون والأبنية الإدارية للدولة. (ج) قواعد ومحاكم قانونية للحكم على القوانين، مع الدعم الذي تقدمه الوكالات في الدول البيروقراطية.

٥- للحصول على دعم عدد كبير من السكان وتمايزهم؛ يجب أن تواكب التقنيات الإنتاجية هذا النمو والتمايز في المجتمع للارتقاء للمرحلة التي تليها.

٦- لتنظيم السكان الأكبر والأكثر تميزا للدولة البيروقراطية العظمى؛ يجب أن ترتقي لتلحق بالآليات المذكورة سابقًا.

الفصل الثاني عشر

التنظير التطوري المستوحَى بيولوجياً من علم الأحياء
BIOLOGICALLY INSPIRED EVOLUTIONARY THEORIZING

إن نظريات النموذج التنظيري للتطور المشار إليها في الفصل الأخير ظهرت أولًا قبل التطور في علم الأحياء المستوحَى من تشارلز داروين (Charles Darwin's)، وكتابه في "أصل الأنواع"، وما زال كما هو مؤكدًا أن تحليل دوركايم لتقسيم العمل، وفيما بعد النظريات البيئية (انظر: الفصل ٤). ولقد بدأت الأفكار البيولوجية الزحف في علم الاجتماع في القرن التاسع عشر. وفي تحليل داروين لعمليات الأنواع الجديدة، أكد على عملية الاصطفاء الطبيعي التي تتكون فيها التنوعات في الظواهر الكامنة في الموروثات بين الأعضاء من الأنواع التي تكون مختارة عندما تستطيع تعزيز اللياقة البدنية أو قدرة الأنواع لإعادة إنتاج نفسها. ولكن داروين لم يعرف الميكانزمات التي من خلالها تتم نشأة التباينات، حتى الدراسة القصيرة لجريجور مندل (Gregor Mendel) أعتقدُ أنه أيضًا لم يفهم أهمية التبدلات كمصدر للتباين، والذي من خلاله يستطيع الاصطفاء أن يعمل فعلًا. وفي عام (١٩٢٠م) توقع العديد زوال نظرية داروين؛ لأنه لم يحدد الاتصال لقُوى التطور والاصطفاء الطبيعي، والتبدلات، وتدفق الجينات، والانحراف الجيني. انظر (الجدول رقم ١ , ١٢ لتعريف القُوى). وفي الحقيقة فإن الفهم الجديد للجينات تختلف النظرة إليه متجاوزة في ذلك نظرية داروين، ولكن في النهاية يظهر أن القوى الأربع للتطور قد اتحد بعضها مع بعض لبناء ما يسمى: (التركيب الحديث) في علم الأحياء، وكما استخدم هذا التركيب لتوضيح العالم الحيوي، فقد بدأ البعض في التصديق بأن

فهم ديناميات علم الأحياء يمكنها أن تستخدم لتفسير على الأقل بعض العمليات للعالم الاجتماعي. وفي بداية (١٩٦٠م) بدأت الأفكار التفسيرية في علم الأحياء تظهر في علوم الاجتماع، والتي تعرض طريقة جديدة متكاملة في فهم العالم الاجتماعي.

الجدول رقم (١ , ١٢). لقُوى التطور.

الاصطفاء الطبيعي: إن العملية التي يتم من خلالها اختيار الظروف البيئية للظواهر من الجينات الكامنة لتطور اللياقة البدنية للأفراد في السلالات.
التبدلات: إن التغيرات العشوائية في المعلومات الخاصة بالجينات عبر الكروموسومات التي تؤجل ظواهر الكائنات الحية.
تدفق الجينات: حركة الجينات من السكان إلى آخرين عبر المساحة البيئية، وبالتالي يغير التوزيع الوراثي الخاصة بالسلالات.
الانحراف الوراثي: إن التغيرات العشوائية في توزيع الجينات بين السلالات تصبح منعزلة بيئيًّا عن بعضهاالبعض، ومع الوقت يمكنها أن تؤدي إلى السلالات جديدة، وبخاصة التي تكون مختارة في الظواهر التي لم تكن واضحة للأفراد المعزولين عن هذه السلالات.

أفكار جديدة من علم الأحياء[1]

New Ideas From Biology

هناك فكرتان رئيستان ظهرتَا مع التركيبة/ التوليفة الحديثة تضمنتَا: الفهم العميق لميكانزمات التباين بين الأفراد. (٢) توزيعات السكان للكائنات الحية بما في ذلك البشر. ويمكن تلخيصها على النحو الآتي:

علم الوراثة للفرد The Genetics of the Individual

لقد استخدم جريجور مندل (Gregor Mendel's)[2] مصطلح (team merkmal) فيما نعرفه الآن بالجينات أو الهندسة الوراثية، ولكن الأفكار الأساسية متشابهة، فالجينات هي الوحدات الأساسية

(١)تم تأليف هذا القسم مع ألكسندرا ماريانسكي.

(٢) غريغور ميندل، "Versuche über pflanzen-hybriden"، ترجم إلى اللغة الإنجليزية في مجلة مجتمع أعمال البساتين الريفية ٢٦ (١٩٠١م)، نُشرت النسخة الأصلية في (١٨٦٥م).

للوراثة التي تساعد في المعلومات الضرورية لإعادة إنتاج الأشكال الوراثية عبر الأجيال. كما أن التباينات في الشخصيات للأفراد تنتج معلومات الجينات المنفصلة التي تتكون بما يسمى بـ (الكروموسومات)؛ لتقدم تفسيرًا محتملًا للتباينات، وإن هذه المعلومات تسمى بالمورثات للكائن الحي لتكسبه الملامح البدنية والنزعات السلوكية، وهو ما يسمى (phenotype) بالنمط الظاهري ، كما أن الاصطفاء الطبيعي يعمل في النمط الظاهري ؛ ويحدد أي مادة موروثة سوف يتم الاحتفاظ بها من السلالات، كما أن هذه النمط الظاهري هي التي تشكل وعاء يتم فيه تخزين الموروثات/ الجينات. وفي النهاية كانت المجهودات الأولية تتضمن أفكار الجينات في العلوم الاجتماعية، وقد دلت الظواهر البشرية بوصفها جينات بأنها تسعى بلا هوادة بأن تبقى حية من خلال إنتاج العديد من الآت الناجين التي يمكنها أن تبقى على قيد الحياة ، وتحافظ على المعلومات المخزنة داخل الجينات حية. وهذه المتغيرات الخاصة بالنمط الظاهري وجيناتها الكامنة تعزز للياقة البدنية أو القدرة على التكاثر التي سوف تحيا، في حين أن هؤلاء الذين لم يتم تعزيز اللياقة البدنية وترقيتها لهم سوف تنتهي لا محالة. وهكذا فإن الاصطفاء الطبيعي يتم بناؤه على هذا النمط الظاهري الذي يكون أفضل ملاءمة للبقاء والتكاثر وإعادة الإنتاج لبعض المتغيرات، أو الأليات من الجينات والبعض يتم اصطفاؤه.

علم الوراثة السكاني The Genetics of Populations

عندما يعمل الاصطفاء الطبيعي على النمط الظاهري والجينات الكامنة الموجودة داخل النمط الظاهري الفرد، يتم تطور السكان من خلالها، وما يتم تطويره بالفعل هو مجموعة من الجينات المقيمة في آليات الناجين الخاصة بهم أو النمط الظاهري ؛ لأن الكائنات الحية تأتي وتذهب. ولكن المعلومات في الجينات تبقى ، ولو أن أجيالًا كاملة في النمط الظاهري وكانت لائقة لاستطاعت إعادة الإنتاج فيما يمرون به من خلال جيناتهم وليس أجسادهم التي تموت.

وبناءً على هذه الفكرة التي انتشرت بالفعل وأدت إلى مفهوم الجينات الذي تم تطويره.[٣] وهكذا فإن مجموع مجمل الجينات والتباينات المتضمنة آليات أجناس الكائنات الحية مثل البشر يمكن أن يتم تصورهم كمجموعة من إجمالي المعلومات في جيناتهم.

وإن التحول في تحليل الجينات قد ضلل المفكرين البيولوجيين بشكل متزايد في اعتبار أن الآثار المترتبة على هذه الأفكار من سكان البشر وبعد ذلك إلى السلوكيات ومنظمة السكان من البشر، ولكن هل يستطيع علم الأحياء تفسير بعض من ديناميات السلوك والتنظيم الاجتماعي للبشر؟ ولو كانت الإجابة بنعم، فإن علم الاجتماع يمكنه أن يصبح من الحقول الفرعية داخل علم الأحياء ، وهذا الذي جعل أوجست كونت (Auguste Comte) يغير مبدأه، ويقوم ببناء علم اجتماع، ويرفض أي مجهود يدمج علم الأحياء في علم الاجتماع.

تدوين علم البيولوجيا الاجتماعيةThe Codification of Sociolobiology

اللياقة البدنية والتطور Fitness and Evolution

يكمن رأي فيشر (R. A. Fisher) في كتابه: النظرية الوراثية للاصطفاء الطبيعي[٤] التي كانت أول وثيقة للتحولات التي يمكن الاعتماد عليها للتطور، فإن هذه التحولات والقوى الأخرى

---

(٣) علي الرغم من أن مصطلح علم الوراثة قام وليام باتيسون بصياغته في (١٩٠٦م) كبناء أساسي لوصف الوراثة الفردية (١ الاختلاف)، وقد صاغ دوبجانسكي مصطلح (تجمع الجينات) في (١٩٥٠م)، وأصبح البناء الأساسي لعلم وراثة السكان. انظر: ثيودوسيوس دوبجانسكي، "مندلية السكان وتطورهم" عالم الطبيعة الأمريكي ١٤ (١٩٥٠م): ص ٤٠١-٤١٨. للمزيد من المصادر عن تاريخ علم الوراثة. انظر: ثيودوسيوس دوبجانسكي، علم الوراثة وأصل الأنواع، الطبعة الثالثة (نيويورك: مطبعة جامعة كولومبيا، ١٩٥١م)، وتطور البشرية (نيويورك: بانتام، ١٩٦٢م). انظر أيضًا: مارك ب أدمز، "من صندوق الجينات إلى تجمع الجينات": بخصوص تطور لغة التطور تاريخ علم الأحياء ٣ (١٩٧٩م): الصفحات٢٤١ -٢٨٥، و "تأسيس مساهمات علم وراثة السكان في مدرسة شيست فيفيكوف" ١٩٢٤-١٩٣٤م: جريدة تاريخ علم الأحياء ١ (١٩٦٨): الصفحات .٣٢-٣٩، ألفرد سترتفنت، تاريخ علم الوراثة (نيويورك: هربر و رو ١٩٦٥م)؛ وجيمس كرو، "تاريخ علم الوراثة السكانية: نظرة شخصية الاستعراض السنوية لعلم الوراثة" ٢١ (١٩٨٧م): ص ١-٢٢.

(٤) ر. أ. فيشير، النظرية الوراثية للانتخاب الطبيعي (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٣٠م).

للتباين يمكنها أن تفسر التطور الخاص بالأجناس، ولكن وثيقة فيشر في الحقيقة تؤكد بأن آليات التباين بمفردها لا يمكن الاعتماد عليها لنشأة الأجناس وتطورها، خصوصا في التحولات المعقدة؛ لأنها تتجنب الاحتياج للاصطفاء الطبيعي كأداة تفسيرية. فقد أشار فيشر إلى أن معظم التحولات ضارة، وأنها لا تطور بما أسماه اللياقة البدنية؛ لأن قدرة الأفراد في السلالات لا تستطيع إعادة إنتاجهم. وعلى أي شيء يتم اختيار التباين عليه، حيث إن تطور الأجناس لا يمكنه الحدوث لمثل هذا؛ لأنه ليس بقدرتهم ترقية اللياقة البدنية التي تسمح للجينات أن تحيا وتبقى، وأن الجينات الجديدة أو الآلية التي تأتي من التحولات لتبقى حية بواسطة فصيلة إنتاج النمط الظاهري التي تكون أكثر تناسبًا، كما أن مفهوم "اللياقة البدنية" -كمفهوم عام- كان قديمًا جدًّا؛ إذ ظهر قبل أعمال داروين. وعلى سبيل المثال فإن هربرت سبنسر وثوماس ميثوس (Herbert Spencer and Thomas Maithus) قد بنوا هذا المصطلح الخاص، وأصبح رئيسًا في فهم علم الأحياء، وكان قادرًا على الدخول في علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية بشكل أكثر عمومية كاصطفاء المجموعة والأفراد.

وقد وجدت فكرة أخرى في علم الاجتماع، ولكن في النهاية تم تقديمها إلى علم الأحياء، والفكرة هي:

الجماعة والاصطفاء الفردي
Group and Individual Selection

إن الاصطفاء لم يكن مبنيًّا على النمط الظاهري الخاص بالأفراد، ولكن مبني على الأبنية التنظيمية للجماعات التي يعيشون فيها. وهكذا فإن الجماعات، كغيرها من الأجساد، يمكنها أن تصبح نوعًا من الآلات الناجية، والنمط الظاهري الجسدي يتم فيه حماية الجينات التي بداخله. وعندما فحص سبنسر التطور للمجتمعات من خلال الحرب كان يطرح بأن أساس تطور المجتمعات يتم عن طريق نوع من عملية الاصطفاء المتأصلة في الحرب.[٥]

(٥) هربرت سبنسر، مبادئ علم الاجتماع (نيويورك: أبليتون سينشري كروفتس، ١٨٩٥م، نُشرت النسخة الأصلية في شكل تسلسلي، ابتداءً من ١٨٧٤ وتنتهي في ١٨٩٦م).

وأن المجتمعات الأكثر لياقة تكسب الحروب؛ ولذا فإنها تحمل سكانها غالبًا على إدماج هؤلاء السكان الذين تمت هزيمتهم، وكان تركيزه على المجتمعات وليس على الأفراد. فإن هذا النوع من النقاش الخاص باصطفاء الجماعة يقوم على أساس مراعاة شعور علماء الاجتماع على الأقل. وعند علماء الأحياء فإن الدوغمائي الخاص بالاصطفاء يعمل فقط على النمط الظاهري للأفراد، في حين أن جميع السكان يتطورون، وهو الأمر الذي يتم مناقشته ضد مفهوم اصطفاء الجماعة، وكما هو في رد الفعل هذا ضد هؤلاء الذين رأوا اصطفاء الجماعة بوصفها قوة تطورية رئيسة، بأن علم الأحياء الاجتماعي قد ولد.

وهكذا فإن علم الأحياء الاجتماعي الذي برز كرد فعل ضد نقاشات اصطفاءالجماعة ، وفي إطار النقاش[٦] فإن الرواد الأوائل مثل جورج سي وليامز (George C. Williams)[٧] قد ذهبوا إلى أن الادعاء بأن المهم هو الاصطفاء الجيني، وأن الجينات يتم بقاؤها في الأجساد بشكل مؤقت، أو كظواهر تقوم بتطوير البقاء وإعادة الإنتاج، أو اللياقة البدنية. ومهما كانت هذه التبعيات للمجموعات فإن جيناتها في النهاية هي التي يتم من خلالها انتقاؤها لكي تظل ضمن الجينات، وأن الجينات المحددة ألياتها يمكنها أن تطور السلوك الذي يطور الجماعات، ولكن ينبغي علينا أن نتذكر دائمًا بأن هذا الجين هو الذي يؤدي إلى المرض، ولو أن الجماعات حافظت على البقاء، فإن الجينات التي قد طورت سلوكيات النمط الظاهري والضروري بين الأفراد ومعلومات الجماعة ؛ حيث إن القوى القائدة في النهاية والوحدة هي التي اختيرت لإعادة الإنتاج والتكاثر . وهكذا تكون اللياقة البدنية للجماعات نتيجة إجمالية لسلوكيات البقاء، والانتماء، ودعم القرابة. إلخ، والتي يتم دفعها عن طريق الجينات

---

(٦) ف.س. وينني-إدواردز، التطور من خلال الانتخاب الجماعي (أكسفورد: بلاك ول، ١٩٨٦م)، والتشتيت الحيواني وعلاقته بالسلوك الاجتماعي (نيويورك: هافنر، ١٩٦٢م). لمراجعة الجدل حول حجج الانتخاب الجماعي، انظر: ديفيد سلون ويلسون، "الجدل حول الانتخاب الجماعي: التاريخ والوضع الحالي" الاستعراض السنوي للأنظمة البيئية ١٤ (١٩٨٣م): ص ١٥٩-١٨٧.

(٧) جورج س. ويليامز، التكيف والانتخاب الطبيعي: نقد بعض أفكار التطور الحالية (برينستون، نيو: مطبعة جامعة برينستون ١٩٦٦م). للاطلاع على دفاعه عن الاختزال بعيدًا عن مستوى المجموعة، انظر: "الدفاع عن الاختزال في علم الأحياء التطوري" في استطلاعات علم الأحياء التطوري الطبعة الثانية، داوكينز و م. ريدلي (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٥م) ، ص ١-٢٧.

وليس الجماعات ، كما أصبح هذا النقاش دوغمائيًا للعديد من الحقبات الزمنية، وقد أصبح قريبًا ومؤخرًا فقط لدى بعض علماء الأحياء الاجتماعيين الذين أعادوا التفكير في مزاياها.

السلوكيات الرئيسة الحافزة لجينات: اللياقة الشاملة، اختيار الأقارب والإيثار المتبادل

Key Behaviors Driven by Genes: Inclusive Fitness, Kin Selection, and Reciprocal Altruism

قد أخذ دبليو دي هاميلتون (W D. Hamilton took Williams) أفكار ويليامز كخطوة تقدمية عن طريق عرض مفهوم اللياقة البدنية الشاملة، [٨] وأن هذا المفهوم قد تم تقديمه من أجل ميل الأفراد في دعم التعاون ومساعدة الأقارب، وأن الاصطفاء الطبيعي -كما ناقشه- كان إنتاجًا لذوي القربى؛ لأنه من خلال التعاون بين كل منهما للآخر من الغرباء الذين لا يشاركون معهم الجينات، فإن البشر بالمثل؛ ينمون من خلال جيناتهم. فكلما نمت مشاركة جينات ذوي القربى بدرجة أكبر؛ زاد الميل في مساندة الأقارب ودعمهم؛ لأنه بفعل هذا فإن جيناتهم العامة تظل وتبقى، وتقوم هذه الفكرة بعمل أساس الجينات التي تعتبر القوة الدافعة للسلوكيات التي تطور اللياقة البدنية، ولذا فإن الأسر هي الميكانزيم الذي تقوم عليه الجينات من خلال اصطفاء طبيعي قادر على دفع السلوكيات التي تسمح لهؤلاء بمشاركة الجينات للحفاظ عليهم، وأن التضحية بالذات ليست فقط بالإيثار أكثر من لو أن إستراتيجية الأنانية لأعضاء الأسرة كانت بزيادة العدد بجيناتهم لتظل في الجينات.

وهذا بالتأكيد أوجد السؤال: لماذا يجب على الفرد أن يكون غيريًا تجاه هذه الجينات غير المتشابهة؟ وقد جاوب على هذا السؤال روبرت تريفيرز[٩] (Robert Trivers) من خلال طرح مفهوم

---

(٨) و.د.هاملتون "تطور سلوك الإيثار" عالم الطبيعة الأمريكي ٩٧ (١٩٦٣م): ص ٣٥٤-٣٥٦؛ "النظرية الوراثية للسلوك الاجتماعي الأول والثاني"، مجلة البيولوجيا النظرية ٧ (١٩٦٤م) ص ١-٥٢؛ "الميول الاجتماعية الفطرية للإنسان: نهج من علم الوراثة التطوري،" في الأنثروبولوجيا الاجتماعية الحيوية، طبعة آر. فوكس (نيويورك: وايلي، ١٩٨٤م)، الصفحات ١٣٥-١٥٥؛ "هندسة القطيع الأناني "جريدة علم الأحياء النظري ٣١ (١٩٧م؟؟؟): ص٢٩٥-٣١١.

(٩) روبرت ل. تريفرز، "تطور الإيثار المتبادل،" الاستعراض الفصلية لعلم الأحياء ٤٦ (٤، ١٩٧١)، ص ٣٥-٥٧؛ "الاستثمار الأبوي والاختيار الجنسي" في الاختيار الجنسي ونزول الإنسان، ١٨٧١-١٩٧١م، نسخة. ب. كامبل

الإيثار المتبادل الذي ناقش فيه بأنه تم من أجل مساعدة غير القريب، فإن لدى الأفراد بالمثل الإيثار المتبادل، وبالتالي، فإن هذا يزيد ملاءمتهم من خلال الحفاظ على جيناتهم في الجين نفسه، ولذلك فهو شيء عالمي كالاحتياج إلى التبادل؛ حيث يرى أنه إستراتيجية أنانية لتضخيم الملاءمة بين هؤلاء الذين يعرضون المساعدة للآخرين، وكون أن الفرد قادر على جلب المساعدة من الآخرين في المستقبل؛ ولذا فإنه يتم تعزيز الملاءمة.

دفع النقاش عن القرابة ريتشارد داوكنز (Richard Dawkins) إلى كتابة هذا الكتاب الشهير "الجين الأناني"[١٠]، وأن الجينات هي ماكينات للنسخ التي تعمل من أجل إعادة إنتاج أنفسهم، ولديهم قدرة للحل في وضع أنفسهم في الأجساد أو النمط الظاهري في الجماعات التي تضاف إلى الجسد كآلية باقية، فيجب علينا أيضًا أن نتذكر بأن الجينات تدفع لهذا النوع من الطبقات الإضافية بالحماية حيث إن الجينات وآليتهم تمكنهم من البقاء في الجين.

وأن أساس نقاش داوكنز موجود في قول ما الذي جعل الماكينات غريبة تعمل من أجل الحفاظ على الذات؟ فهي الدافع لفن البقاء، لتكون أسرابًا من مستعمرات ضخمة آمنة داخل الروبوتات الثقيلة العملاقة، وقد تحركت من العالم الخارجي لتتصل عن طريق غير مباشر خلال جهاز تحكم عن بعد، فإنها بداخلك وبداخلي، وأن الجسد والعقل والحفاظ عليهم هو الأساس المنطقي لوجودنا، وأن هذه النسخ المتماثلة تمضي باسم الجينات، فنحن جميعًا ماكينات لها باقية.

ومع أن داوكنز لم يتوقف هنا فلقد أدرك أن الأبنية الثقافية والاجتماعية ظهرت في منظمة المجتمعات البشرية.[١١] وهناك نوع آخر من ماكينة البقاء تم نشأتها، ولقد عرض مفهوم "النسخ المماثل" كالتكافؤ الاجتماعي الثقافي للجين، والذي تقوم فيه الثقافة بدفع السلوك للأفراد، وبنائهم للبناءات الاجتماعية، فيوجد هناك نوع من التطور المشترك بين الأنا والجينات؛ حيث إن المجتمعات تبنى عن طريق البشر. ولذا فإن العديد من علماء الأحياء الاجتماعيين لم يكونوا راغبين في عمل هذا

(شيكاغو: ألدن، ١٩٧٢م)؛ و "صراع الأباء والأبناء" خبير أمريكي في علم الحيوان ١٤ (١٩٧٤م)، ص ٢٤٩-٢٦٤.

(١٠) ريتشارد دوكنز، الجين الأناني (أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٧٦م).

(١١) نفس المرجع، ص ٢١.

التنازل، ولكن لهذا السبب فإن علم الأحياء الاجتماعي قد تم استلامه بشكل غير مرغوب فيه عن طريق علماء الاجتماع، وما يزال الاعتراض قائمًا، إلا أنه لم يكن عالميًّا؛ لأن بعض العلماء الاجتماعيين قد تبنوا هذه القضية.

لقد كان بيير فان دين بيرج [١٢] واحدًا من علماء الاجتماع البارزين الذين عدُّوا علم الأحياء الاجتماعي تفسيرًا نظريًّا، ولقد تبنى مفهوم هاميلتون لاختيار القريب؛ لكي يصف لماذا أن نسبة الجينات العامة تفسر كيف أن الأقارب الملاصقين يكونون في نطاق الحب والعاطفة والتعاون والمساعدة المتبادلة؟ لأن نسبة الجينات الموجودة في العامة تحدد مصالحهم الشخصية بمساعدة بعضهم بعضًا لكي يحافظوا على جيناتهم العامة. وأنه أيضًا قد قبل نقاش ترايفر حول الإيثار المتبادل؛ فقد ناقش بأن التبادل يزيد التعاون، وهو ما وراء المحسوبية، ويسمح للمجتمعات الكبيرة وراء القرابة البسيطة، وكان أكثر من ذلك أن أيضًا التأكيد على أن الإكراه أو التنكر وتعبئة القدرة للقوة، وسيلة من أجل زيادة أو تمديد الأبنية الاجتماعية وراء القرابة والتبادل؛ فالإكراه يزيد الملاءمة للذين لديهم القدرة على الكراهية، ولكنه أيضًا يزيد القدرة على تنظيم المجتمعات الكبرى كمكينة باقية للمجتمع ككل، وأنها تزيد الملاءمة لأعداد أكبر من الأشخاص وراء هذه مع القوة، ويجب على علماء الاجتماع ألا يَعدُّوا هذا -فحسب- مجرد عملية بنائية اجتماعية، فإن لدى جينات الأنانية القدرة على دفع الأفراد إلى استخدام الإكراه من أجل خلق ماكينات باقية أكبر.

وربما كانت تلك أحد إسهامات فاندينبيرج الأكثر أهمية في مجال ديناميات العرق. فقد ناقشه تاريخيًّا بأن مجموعات القرابة الأكبر (المؤلفة من خطوط) بدت في تنظيم تربية سكان، وأن من هذه الجماعات القريبة الكبرى جاءت امتدادا أكبر للإحساس بمشاركة الجذور. ولقد أسما هذه التجمعات الكبرى "العرقية" التي هي أكبر من دوائر مجموعة القرابة، ولكن مثل هؤلاء السكان العرقيين لا يشارك فقط الظواهر الواضحة، ولكنه يشارك أيضًا في الثقافة والتاريخ؛ لأنهما متماثلان،

---

(١٢) بيير فان دن بيرغي وديفيد باراش، "بناء اللياقة البدنية والأسرة الشامل" خبير في الأنثروبولوجيا أمريكي ٧٩ (١٩٧٧م)، الصفحات ٨٠٩-٨٢٣؛ فان دن بيرخه، "بناء المعايير،" المجتمع ١٥ (١٩٧٧-١٩٧٨م)، الصفحات ٤٢-٤٩؛ الظاهرة العرقية (نيويورك: إلسيفير، ١٩٨١م)، ونُظم الأسرة الإنسانية (توقع الارتفاعات، إيل: ويف لاند، ١٩٩٠م).

وهكذا، فإن العرق هو إستراتيجية يتم دفعها من خلال الجينات لتوحيد الناس الذين يتشاركون في سمات عامة مثل لون البشرة، وشكل العين، وما وراء القرابة؛ لأن العرق يخلق التزامات تكيفية بين هذه السمات الثقافية المشتركة. وبهذه الطريقة، فإن هذه السمات تقوى على الملاءمة للتجمعات العرقية، حتى عندما لا تشاركها العديد من جماعة الجينات، فإن سحب التابع العرقي وأكثر منه أبنية اجتماعية. إنه علم الأحياء الذي يدفع الجينات من خلال الاصطفاء الطبيعي الذي يتم اختياره من أجل ترقية الملائمة لعدد أكبر من الأفراد، وإن هذه الدوافع تدفع الناس للتعاون مع الأعضاء التابعين لعرقهم، فإن سحب العرق هكذا هو جزئية يمكن تفسيرها من خلال اصطفاء الجينات.

وأصبحت هذه الأنواع من النقاشات مقنعة جدًّا في علم الأحياء، حيث إن الثقافة والمنظمة الاجتماعية، والقدرات للوكالة التي تستخدم عقولًا معقدة لم تذكر في التحليل كما هي الحالة التي في الحشرات. ولكن بالنسبة لعلماء الاجتماع فقد آثرت النقاشات التي تسعى فيما يبدو حول عرض موضوع للتفسيرات الاجتماعية عبر مجموعة من الافتراضات التي كانت تدعو إلى الشك بشكل كبير، وتتضمن الآتي:

١- كائنات حية، وهي الآلات الناجية لما هو بالفعل لدفع التطور: فإن الجينات تسعى بطريقة فطرية إلى إعادة إنتاج أنفسها، والبقاء في الجينات الخاصة بالسكان.

٢- أن النمط الظاهري للكائنات الحية والنزعات السلوكية للكائنات الحية يمكننا أن ترى على أنها إستراتيجية تكيفية في النهاية للاستجابة لضغوط الجينات.

٣- أن السلوكيات العالمية، والمصلحة الشخصية، والإيثار، والإيثار المتبادل، واختيار القريب، والملاءمة، والأبنية الاجتماعية، يمكننا أن ترى بوصفها نتيجة لاختيار الجين، ويمكن تفسيره أيضًا من خلال عمليات الاصطفاء التي تعمل على الضغط المتسلط على الجينات من أجل أن تبقى الجينات حية.

٤- البناءات الاجتماعية لكل الأنواع من القدرات للبشر؛ من أجل الانخراط في هذه السلوكيات، كما يوجد هناك بعض دعامات حيوية لكل الظواهر الاجتماعية الثقافية.

فيوجد هناك عدد واضح من العلماء البارزين الذين تبنوا على الأقل بعضًا من أفكار علم الاجتماع، وأن الأفكار الرئيسة لعلم الاجتماع قد دخلت العلوم الاجتماعية من خلال منهج آخر هو علم النفس التطوري.

علم النفس التطوري

Evolutionary Psychology

إن علم الأحياء الاجتماعي كان رأس الجسر لغزو علوم الاجتماع عن طريق علم الأحياء، ولكن في الحقبة الماضية فقد اكتسب علم النفس التطوري -بشكل لافت- تأثيرًا في العلوم الاجتماعية أكثر من علوم الأحياء الاجتماعية، وبخاصة في علم الاجتماع، وأن علم النفس التطوري يقبل العديد من مفاهيم علم الأحياء الاجتماعي مثل: السلوكيات التي تتطور من أجل الملائمة للبشر، ولكنها تدخل العملية في العقل البشري في إطار النظرية، وعن الاختيار الطبيعي، كما أن العمل في الكائنات شبيهة البشر وظواهر البشر والموروثات الكامنة التي أعادت جمع العقل من خلال خلق مجموعة من وحدات الدماغ في أثناء العصر الحديث. فكلما زادت الفترة المباشرة في التطور للكائنات شبيهة البشر، والبشر الأوائل، فإن هذه الوحدات مسؤولة عن العديد من السلوكيات الرئيسة، في الماضي، والتي حلت مشكلاته الحالية في بيئات أسلاف البشر.

ولذا فإن علم النفس التطوري يعمل ضمن عدد من الافتراضات الرئيسة، وهي:

١ - أن العقل هو جهاز لمعالجة المعلومات الذي قد تطور مثل أي سمة أخرى في الكائن الحي.

٢ - أن العقل والميكانيزمات المتكيفة تكشف وجودها التي تطورت خلال الانتقاء الطبيعي.

٣- أن الميكانيزمات العصبية المتعددة للعقل تم تخصيصها لحل المشكلات التي تنشأ من خلال ضغوط الاختيار في البشر والكائنات الشبيهة بالبشر في أثناء تطورها في الماضي.

٤- أن العقل البشري عبارة عن ميكانيزمات تخصصه لمعالجة المعلومات، والإدراك والسلوكيات العالمية التي تطورت خلال العصر الحديث.

٥ - معظم المحتويات والإدراك للعقل هي غير شعورية، كما أن المشكلات العقلية التي تبدو سهلة للحل تمثل بالفعل مشكلات صعبة، وهي تحل بطريقة غير شعورية عن طريق نماذج من

الخلايا العصبية التي تطورت لحل مشكلات تكيفية في أثناء دورة التطور للكائنات الشبيهة والبشر الأوليين.

٦- يتكون علم النفس البشري من العديد من الميكانيزمات المتخصصة ودخلت في الوحدات الواضحة للخلايا العصبية، وهي حساسة لفئات مختلفة من المعلومات ومدخلات خارجية، والتي تتحد من أجل إنتاج السلوك البشري، ومن خلال بعض الافتراضات وأنماط التفاعل حتى الأبنية الاجتماعية والثقافية.

على سبيل المثال؛ فإن علماء النفس التطوريين يمكن أن يناقشوا بأن الكلام البشري هو ميكانزيم نفسي تطور من خلال جمع على قشور التفاعل، وأنه هو جدار أسفل الفص يعطي البشر والقرود القريبة من البشر القدرة لتسهيل اللغة، والتي تتبع بواسطة الاختيار، وبمساحات منفصلة من العقل (مساحة ويرنك)، وأن المقالات المحيطة بإنتاج الكلام ومساحات ويرينك لفهم الكلام ورفع المعاني لمعلومات عملية العقل، بالإضافة إلى ذلك، فإن هناك نماذج عبر الشق تفصل الفص الجداري الذي ينظم الحركات العضلية والقشرة الأمامية التي تعطى البشر (ولكن ليس القرود) القدرة على إنتاج كلمات منطوقة في الحوار. لا بدَّ أن يسهم هذا النوع من الحوار في تطوير لحل مشكلات الاتصال والرابطة الاجتماعية بين البشر، ويمكن لهذا الخط من النقاش أن يصبح مثيرًا للجدل؛ لأن النماذج يمكنها أن توجد في العقل، وبالمثل فإن تطور القدرات العاطفية للبشر قدمت لنا النماذج في مساحات تحت القشرة من العقل، وعن بعض من الأماكن الموجودة تحت القشرة مثل التي تنشئ الغضب والخوف والحزن في وحدات منفصلة، وهناك موضوعات أخرى أكثر احتمالية ومثيرة للجدل اهتم بها علماء النفس التطوريون مثل وجود ميكانيزمات للحماية من الغشاشين، والتبادل، واختيار القرابة، والإيثار، وإيثار التبادل، والملاءمة الشاملة والتحدي، وسلوكيات بشرية عالمية أخرى؛ حيث يرى علماء النفس التطوريون بأنه كلما كان السلوك أكثر عالمية، كلما كان أكثر تنظيمًا عن طريق الميكانيزمات العصبية الموجودة في وحدات للعقل البشري، وقد تطورت هذه الوحدات؛ لأنها تقوم بالملاءمة مع الكائنات البشرية. ومع ذلك انشأ علماء النفس التطوريين وحدة منفصلة لتطور الزواحف بما يسمى "إميديلا"، ولكن العواطف الأخرى ليست بهذه السهولة من العزل ، ولا يزال من المتوقع ان يتم العثور على وحدات أخرى مع تقدم البحوث.

وهناك موضوعات اخرى ربما تكون أكثر إثارة للجدل، حيث يقترح علماء النفس التطوريين أنه كلما كان السلوك أكثر عالمية؛ كان هذا السلوك محكومًا من خلال المكنزمات العصبية الموجودة في وحدات الدماغ البشري. ولقد تطورت هذه الوحدات لأنها تعزز لياقة البشر، ومن ثم الايونات والإيثار والإيثار المتبادل واللياقة الشاملة والتحالف البشر خلال العصر البليستوسيني .

وهذه الملامح الرئيسة لعلم النفس التطوري قد تم تبنيها عن طريق مجموعة صغيرة من علماء الاجتماع، وعملت على توضيح السلوكيات البشرية وتفسير أنواع خاصة من السلوك.(١٣) فعلى سبيل المثال، يوجد ميل للسلوك البشري للجريمة، وبخاصة معدلات جرائم العنف عن طريق الذكور التي تزداد في سن البلوغ. ومع التقدم في السن تبدأ في الانخفاض بشكل درامي. وقد قام علماء البيولوجيا الاجتماعية بتفسير هذا النمط العالمي. وقد أضاف علماء النفس التطوريون سمات للميكانيزمات التي عن طريقها يتم إنتاج هذا السلوك. وأصبحت مثل هذه التفسيرات كالقصص الموضحة لما حدث في الماضي من إنتاج لوحدات العقل، وكانت نادرًا ما تكون مخصصة لتنتج أنماطًا محددة من السلوك، مثل معدلات الجريمة والجريمة العنيفة بين المراهقين الذكور، ويضيف علم النفس التطوري أن الذكور يمتلكون آليات متطورة في أدمغتهم "باستثناء ذكر تلك الأجزاء من الدماغ المسؤولة عن انتاج هرمون التستوستيرون" ، والتي تدفع بهم إلى الغيرة على الإناث من الآخرين؛ فعلى سبيل المثال أن الذكور أكثر غيرة بالغريزة الموجودة في وحدة القياس العاطفية عند حدوث خيانة من جانب الأنثى.

وتعدُّ إحدى الإشكاليات لتفسيرات وافتراضات علم النفس التطوري بسبب تضمينها حججًا لعلماء البيولوجيا الاجتماعية عامة جدًّا؛ بحيث يكون من السهل تطوير قصة أو تفسير لأى انتظام في السلوك، ويكون كل ما يلزم هو افتراض وحدة قياس في الدماغ تم تطورها لإنتاج سلوك

(١٣) على سبيل المثال، انظر: المقالات في ج. باركو، وليدا كوزميدز، وجون توتي، نسخ، العقل المتكيف: علم النفس التطوري وجيل الثقافة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٩٢م)؛ روزماري ل. هوبكروف علم الاجتماع: مقدمة بيو اجتماعي (بولدر، كو: مطبعة بارادايم، ٢٠١٠م)؛ مارتن ديلي و مارغو ويلسون، (نيويورك: د س غروتر، ١٩٨٨م)، ساتوشي كانازاوا وماري س. ستيل، "لماذا يرتكب الرجال الجرائم (ولماذا يكفون)؟" المفاهيم الاجتماعية ١٨ (٢٠٠٠م): ص ٤٣٤-٤٤٧؛ كريستين هورن، "القيم وعلم النفس التطوري" ، المفاهيم الاجتماعية ٢٢ (٢٠٠٤م): ص ٤٧٧-٤٩٣.

معين. وتقوم وحدة الاختيار بتوليد وحدة القياس من أجل بيان أن السلوكيات التي تَولِّدها وحدة القياس تعزز من الكفاءة، إلا أن هذه القياسات ليست مخصصة لهدف محدد فقط. وهناك -أيضًا- يوجد منطق أن الحدث إذا تبع شيئًا فإنه قد ينشأ بسببه. وعلى سبيل المثال: إن القصص مخصصة لهدف معين، وتتبع منطق الحدث الذي نشأت بسببه، دون وجود دليل ثابت إلا من خلال وجود وحدة قياس أولًا، وبيانات تدعم القصة الشارحة، وتأكيدات على تعزيز الكفاءة ثانيًا، وفيما يبدو كان علماء علم النفس التطوريون غير عابئين بهذه الانتقادات. وفي الواقع كانت لديهم ثقة عالية بمنهجهم بأنه يفسر أكثر في الممارسات للعلوم الاجتماعية المعيارية التي تميل إلى افتراض أن لعلم الأحياء تأثيرًا ضئيلًا جدًا على السلوك، والتفاعل، والتنظيم الاجتماعي البشري.

المقارنة بين الأنواع
Cross-Species Comparisons

وقد طَوّر علماء اجتماع آخرون مناهج تُقارِن البشر بأنواع أخرى، والهدف هنا هو تسليط الضوء على مسألة معينة في مجال العلوم الاجتماعية والبحث عن أجوبة من خلال مقارنة البشر وأنماطهم في التنظيم الاجتماعي بأنواع أخرى، وقد تشتمل هذه المقارنة بين الأنواع، أو ربما لا تشتمل على أفكار من البيولوجيا الاجتماعية أو علم النفس التطوري، إلا أنه لم يتم التأكيد عليها كثيرًا، وتتمثل الفكرة الأساسية في إعطاء أجوبة للأسئلة المطروحة من خلال مماثلة الميول السلوكية، وأنماط التنظيم الاجتماعي للبشر بتلك الأنواع الأخرى، وأحيانًا بالأنواع التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالبشر بيولوجيًا، وبالأنواع الأخرى التي تكون بعيدة جدًا عن البشر.

اتجاه ريتشارد مكاليك Richard Machalek's Approach

طبق ريتشارد مكاليك نظرية تطورية حديثة عن مواضيع علم الاجتماع التقليدي[14]. وكان يرغب مكاليك في رؤية اتجاه ألكسندرا ماريانسكي علم اجتماع بوصفه علمًا مقارنًا، أو ذلك الذي

---

(١٤) ريتشارد مكاليك، "لماذا المجتمعات الكبيرة نادرة؟" التقدم في الإيكولوجيا البشرية ١(١٩٩٢م): الصفحات ٣٣-٦٤.

يجتاز حدود الأنواع. ويدور منهجه حول البحث عن أسس النشاط الاجتماعي وتطوره أينما وجد في كل من الأنواع البشرية وغير البشرية، ويمكن استخلاص المعلومات حول كيفية جمع الخصائص التنظيمية القائمة من خلال الأنواع لتحديد الأشكال الأولية للحياة الاجتماعية ضمن الكائنات البشرية وغير البشرية، وفي سعيه إلى إيجاد علم اجتماع مقارن. وقد وضع مكاليك نظامًا مكونًا من أربع خطوات لإجراء تحليل سيسيولوجيا للأشكال الاجتماعية العامة مع إعطاء الأولوية للنشاط الاجتماعي لا للكائن الحى كالآتي:

١- تحديد ووصف الشكل الاجتماعي مُوَزَّع عبر حدود اثنين أو أكثر من الأنواع.

٢- تحديد مشكلات التصميم التي قد تَعوق تطور هذا الشكل الاجتماعي، وبعبارة أخرى، ما المتطلبات اللازمة لتكوين شكل اجتماعي معين؟

٣- تحديد العمليات التي تولد شكلًا اجتماعيًّا.

٤- تحديد الفوائد والمستفيدين من الشكل الاجتماعي؛ مما يساعد على تفسير واستمرار وانتشار أشكال اجتماعية معينة أكثر أشكالًا من الأخرى.

وفي تطبيق هذا النظام، ركَّز مكاليك على تطور المجتمعات الكلية، وهي شكل اجتماعي ظهر أولًا في التطور الاجتماعي البشري منذ نحو (٥٠٠٠٠) سنة، وقد طرح مكاليك التساؤل الآتي: ما الذي يجعل المجتمعات الكلية البشرية محتملة؟ وقد أشار مكاليك إلى أنه لا يمكننا النظر فقط إلى المجتمعات الصناعية الزراعية للإجابة عن هذا التساؤل، ولكن بدلًا من ذلك ينبغي لنا إخضاع دراسة المجتمعات البشرية ذات المستوى الكلي لدراسة المجتمعات الكلية بوصفها شكلًا اجتماعيًّا عامًّا. وإذا قمنا باتخاذ منهج المقارنة بين الأنواع فسيكون من الواضح ندرة النشاط الاجتماعي الكلي ووجوده في اثنين فقط من الأنظمة التصنيفية.

ويصف مكاليك المجتمع الكلي على أنه مجتمع يتكون من مئات الملايين من الأعضاء مع وجود طبقات اجتماعية واضحة، وتقسيم معقد للعمل، ويعتبر هذا الشكل الاجتماعي قديمًا جدًّا قد يكون بين الحشرات ذات الطابع الاجتماعي، ولكنه حديث جدًّا في البشر؛ حيث بدأ منذ نحو (٥٠٠٠) سنة مع ظهور المجتمعات الزراعية، ومن الواضح أن البشر والحشرات أنواع متباعدة، تم الفصل بينها بما لا يقل عن (٦٠٠) مليون سنة من التطور المتباين؛ وبالتالي لا يمكن المقارنة بينهم من

خلال الخصائص البيولوجية الفردية، ويجب الفصل بين البشر والحشرات من خلال اختلافات تشريحية كبيرة تتضمن ستة أنظمة ذات مقدار كبير في حجم الدماغ، وبالتالي لا يلعب الذكاء دورًا في تطور المجتمعات الكلية للحشرة، وبدلًا من ذلك يجب مقارنة الأشكال الاجتماعية المجتمعية الكلية للإنسان والحشرة بدقة لمعرفة خصائص التصميم البنيوي الاجتماعي لدى كل منهم، وفيما يبدو على أنه حالة من التطور المتقارب يأخذ أوجه التشابه الأساسية بين تنظيم المجتمعات الكلية للإنسان والحشرات.

وقد ادعى مكاليك أنه أيًا كانت الأنواع التي تواجه جميع الكائنات الاجتماعية من مشكلات أساسية فإنها تحتاج إلى التصميم التنظيمي والقواعد إذا أريد بهم النجاح لتطور المجتمع الكلي [١٥]. وعند النظر إلى الأمور بهذه الطريقة، فإن وجود هذا الشكل الاجتماعي في اثنين من مثل هذه الأنواع المتمايزة والمتباعدة بيولوجيًا يسمح لنا بتناول أسئلة مثل: ما المعوقات التي يجب التغلب عليها قبل استطاعة الأنواع للتطوير المجتمعي الكلي؟

وأكد مكاليك على ندرة المجتمعات الكلية التي يتطلب تطورها هذا الشكل الاجتماعي من أجل الحلول الناجحة لسلسلة من المشكلات الصعبة والمعقدة. فأشار مكاليك إلى أن الحشرات والبشر وحدهم هم من تمكنوا من التغلب على: (١) المعوقات العضوية، (٢) والمعوقات البيئية، (٣) ومعوقات المنفعة والتكلفة، والمعوقات الاجتماعية. وسيتم بحث كل منهم بإيجاز

المعوقات العضوية
Organismic Constraints

فمن خلال تقديم تفاصيل حول القيود العضوية التي يجب التغلب عليها من قبل إمكانية تطور السلوك التعاوني المعقد، فقد سلط مكاليك الضوء على مورفولوجيا الأنواع بوصفها عاملًا مهمًا يمكنه إما تعزيز أو تثبيط قدرة الأنواع على تطوير المجتمع الكلي، فعلى سبيل المثال، تعد الأنواع الاجتماعية المائية مثل الحيتان التي تُعدُّ ذات ذكاء بالغ، والتي تستمتع -بوضوح- بحياة اجتماعية مقيدة وبعدد هائل من التكوينات الجسمية، وهو تقييد يجعل من الصعب عليها الانخراط في أشكال

---

(١٥) نفس المرجع ص ٣٥.

مختلفة من السلوك المنتج[١٦]. وعندما يعوق التكوين الجسمي السلوكيات التعاونية المحتملة، فإنه يعوق أيضًا تطور التقسيم المعقد والشامل للعمل[١٧].

المعوقات البيئية Ecological Constraints

بالإضافة إلى المعوقات العضوية، يوجِد المكان البيئي للأنواع قيودًا على كل من الحجم والتعقيد السكاني للمجتمع، ويمكن أن تختلف الخصائص الفيزيائية للنظم البيئية في عدد من الكائنات، والتنافس على الموارد، مثل: الغذاء والمأوى، واختلاف الأنواع الأخرى، وارتفاع معدلات الوفيات بسبب المرض، ويمكن أن تصبح كل تلك الأشياء عوامل تحد من الحجم السكاني لنوع معين، وهذا عكس مجتمع الحشرات الأكثر احتمالًا وتناغمًا مع بيئتها وإيجاد الظروف المعيشية المناسبة لها؛ نظرًا لوفرة الموارد لدعم مجتمعاتهم الكلية؛ لأنها مخلوقات صغيرة جدًا.

معوقات المنفعة والتكلفة Cost-Benefit Constraints

بالإضافة إلى المعوقات العضوية والمعوقات البيئية، سوف يعتمد تطور المجتمع الكلي على العوامل الاقتصادية أو "التكاليف والمنافع" المختلفة التي تصاحب أي مجتمع كلي. وبالرغم من أن تطور المجتمع الكلي سوف يبدو على أنه ذو منفعة لأي من الأنواع الاجتماعية، إلا أن المجتمع الذي يشتمل على تعاون واسع ومعقد يحتوي على كل من المنفعة والتكلفة، باستخدام منطق تحليل المنفعة والتكلفة، ويمكن تحليل نسبة تكاليف ومنافع سِمة خاصة مطورة. أما الحشرات الاجتماعية مثل النمل فربما لا تتجاوز التكاليف التي تشتمل على مثل هذه المشكلات كالتطفل الاجتماعي؛ حيث تحصل الأنواع المغايرة على العمل أو الطعام مثل النمل. ويحدث هذا؛ لأن الحشرات الاجتماعية تستفيد -بشكل كبير- من التقسيم المعقد للعمل الذي يسمح لها بالتعويض عن الحجم الصغير لكل فرد من أفرادها، وبالتالي تَزيد من كفاءة بيئات عملها وفاعليتها[١٨].

---

(١٦) نفس المرجع، ص ٤٢.

(١٧) نفس المرجع.

(١٨) نفس المرجع، ص ٤٤.

المعوقات الاجتماعية

Sociological Constraints

وتُعدُّ هذه المعوقات هي الأكثر أهمية من جميع المعوقات، حتى لو تم التغلب على جميع المعوقات الأخرى، فإن تطور المجتمع الكلي يتطلب شكلًا فريدًا من التفاعل الاجتماعي النادر في الطبيعة، والذي يتجاوز قدرة معظم الكائنات الحية. ويجب أن يتغلب الكائن الحي بصفة أساسية على ثلاث مشكلات اجتماعية كبيرة لتطوير المجتمع الكلي. [19]

١ - يجب أن يكون الأفراد قادرين على الانخراط في التعاون غير المباشر أو الشخصي.

٢- تقسيم عمل الأعضاء بين الفئات الاجتماعية المختلفة.

٣- أن يكون تقسيم العمل بين الأعضاء متكاملًا ومنظمًا.

وبالنظر إلى مشكلات التصميم المهمة هذه التي يجب التغلب عليها قبل أن يتطور المجتمع الكلي، ويجب أن نتساءل لماذا تكون الحشرات في المجتمع هكذا من العمل المنظم في حين أن البشر هم وحدهم القادرون على توليد شكل معقد ونادر من النشاط؟ وإذا انتقلنا إلى الأنواع الأخرى في المجتمع بحثًا عن بدائل، سنجد أن الآلية الأساسية الموجودة في التنظيم الاجتماعي لمعظم الحيوانات هي القرابة أو الصِلة الجينية. ويؤكد مكاليك أن صِلات القرابة تحِدُّ من عدد الأفراد الموجودين ضمن مجموعة تعاونية معينة؛ مما يجعل من الصعب جدًا على معظم الأنواع تطوير مجتمع كلي. ويشير مكاليك إلى أن المبدأ العام الذي يربط القرابة بالسلوك الاجتماعي بين الحيوانات على النحو التالي: كلما قويت درجة الصِلة الجينية بين الأفراد، زادت احتمالية تفاعلهم بشكل تعاوني. [20] وبعبارة أخرى: يبدو أن الاصطفاء الطَبيعِيّ يَستَحْسِن لدى الأنواع الاجتماعية التي لديها قدرة على تمييز الأقرباء من غيرهم؛ مما يجعل شبكات القرابة ممكنة. وهكذا تكون صلات القرابة التي تعتمد على تعرف الفرد على الأقارب هي أساس التعاون الاجتماعي لمعظم الأنواع الاجتماعية.

ويتم تمييز الأقارب من غير الأقارب في الحشرات الاجتماعية من خلال صلات كيميائية بعيدة؛ حيث لا يوجد دليل على تعرف أقارب الدم على بعضهم البعض كأفراد؛ وبالتالي يتفاعل

---

(١٩) نفس المرجع، ص ٤٥.

(٢٠) نفس المرجع، ٤٦.

الأعضاء في مجتمعات النمل مع خمسة أو ستة أنواع من النمل وليس مع الملايين من النمل بشكل فردي. ويتعامل النمل مع بعضه البعض كأعضاء في فئات أو طبقات مختلفة. وفي المقابل يتم تخصيص فئات أو طبقات اجتماعية مهنيًا يتيح لها التخصيص في المهام؛ أي (البحث عن الطعام وإدارة التناسل وإصلاح العش والدفاع وما إلى ذلك)، ويؤدي إلى التقسيم المعقد للعمل، ويتم التعرف على أنواع الطبقات من خلال إشارات متعلقة بحاسة الشم، وهي آلية العمل السائدة وراء تنظيم النمل. ويلحظ مكاليك أنه غالبًا ما يربط تقسيم البشر المعقد للعمل بالذكاء البشري والثقافة والتطوير التكنولوجي، إلا أنه يوجد هذا الشكل الاجتماعي بين الحشرات بوضوح خارج نطاق الذكاء البشري.

وعلى العكس من ذلك فإن الاصطفاء الطبيعي للّغة والثقافة كان في المجتمعات البشرية الصغيرة القائمة على علاقات القرابة الفردية وجهًا لوجه في معظم تاريخ التطور البشري، إلا أن الطبقات الهرمية الكاملة قد تطورت في العصور الزراعية؛ مما يأخذنا إلى التساؤل التالي: كيف كانت للبشر قدرة على الهروب من المؤثرات التقييدية لصلات القرابة الشخصية، وقدرتهم البالغة المتطورة على التعرف الفردي وفقًا لرأى مكاليك؟[٢١] وقد قامت البشرية بتطوير المجتمعات الكلية؛ لأنه تم تمكينهم من تشكيل أنماط سلوكية تعاونية للغاية مع المجهولين الآخرين من خلال الثقافة. أما الحشرات فإنها تقوم على حالة مجهولة الهوية من الحشرات الاجتماعية بتمكينهم من تشكيل مجتمعات كبيرة ومعقدة مشتملة على تعاون غير شخصي بحت بين أعضاء الطبقات المختلفة. وأما البشر من ناحية أخرى فإنهم قادرون على تشكيل نظم اجتماعية تعاونية قائمة إما على علاقة شخصية أو على خصائص ذات دور موقفي غير شخصي.

وهكذا يسمح الاتصال الكيميائي للحشرات بتحويل الأفراد إلى أنواع اجتماعية، بينما يقوم البشر بتوظيف الثقافة المعرفية والتجسيديات المبنية اجتماعيًا التي تسمح وتكون قادرة على التفاعل التعاوني للبشر، ليس كأفراد ولكن كأشخاص غرباء. ويقسم الأفراد بذلك إلى أنواع من الفئات الاجتماعية، ويعتقد مكاليك أن التعاون غير الشخصي يكمن في أساس النشاط الاجتماعي الكلي، وقد استخدم الحشرات والبشر كإستراتيجيات مختلفة، ولكنها لا تزال متشابهة في تحقيق القدرة على

(٢١) نفس المرجع، ص ٤٧.

التعاون بين المجهولين الآخرين؛ مما يسهل تطور المجتمع الكلي. وتحدد هذه المجهولية وتقيد الحقوق والالتزامات بين أو ضمن الأطراف في التفاعل. فكما يشير مكاليك يَكُون بِنَى الدور أو الموقع هو المماثلة البشرية لعمليات التجسيد الكيميائي الملموس بين الحشرات الاجتماعية. وتسمح بِنَى الدور الموقع للبشر بتجاهل الصفات الفريدة والمميزة للأشخاص بشكل أساس؛ وبالتالي تكون زيادة توفير التفاعل التعاوني. وعلى العكس من الحشرات الاجتماعية؛ حيث يستطيع البشر أيضًا التنقل من الصفات الشخصية وغير الشخصية في تنظيم حياتهم الاجتماعية.

وباختصار، فإن الحشرات والبشر هم وحدهم من لديهم القدرة على تطوير نظام اجتماعي كلي، وخلق مجتمعات كلية. ويؤكد ماكليك أن علماء الاجتماع سعو كثيرًا لفهم الأشكال الأولية للسلوك الاجتماعي، إلا أن هذا السعي كان محدودًا؛ بسبب عزوف علماء الاجتماع عن توسيع منظورهم ليشمل الأنواع الاجتماعية غير البشرية. ويشير مكاليك إلى أنه من المهم رؤية كيفية نشر الخصائص الاجتماعية عبر الأنواع وإمكانية عمل هذه القدرة على البحث في المسائل مثل ظهور التقسيم المعقد للعمل، ولماذا وُجِد فقط في مجتمعات قليلة لمساعدتنا على اكتشاف كيفية تطوره في المجتمعات البشرية؟ بالإضافة إلى ذلك إذا قمنا بمقارنة الأشكال الاجتماعية عبر الأنواع من خلال النتائج المترتبة يمكن فهم القيمة المتوائمة الاجتماعية؛ استجابة للتحديات البيئية على نحو أفضل. وأخيرًا بدءًا من الشكل الاجتماعي، ومن ثَم اختيار مراقبة هذه الأنواع التي يظهر فيها هذا الشكل الاجتماعي، فمن شأنه أن يتيح لنا فهمًا أفضل للخصائص الناشئة عن النظم الاجتماعية، والقيمة المتوائمة، والعمليات التي تقوم بتوليد أشكال اجتماعية معينة، وخصائص التصميم الأساسية التي قد تُمَثّل حلًّا للمشكلات الشائعة التي تواجه الأنواع المختلفة من المجتمعات.

اتجاه ألكسندرا ماريانسكي
Alexandra Maryanski's Approach

في السنوات الأخيرة، تناولت ألكسندرا ماريانسكي (Alexandra Maryanski)، بالاشتراك مع تيرنر جوناثان (Jonathan Turner) اللذين قاما بالتعاون معًا في بعض الأحيان حول مسألة الطبيعة البشرية عن طريق بحث روابط الشبكة الاجتماعية للأقرب كالبشر في تكوين الأقارب، وهم

القردة.[٢٢] وكما هو معروف، يتشارك البشر في أكثر من (٩٨ ٪) من التكوين الجيني الخاص بهم مع الشمبأنزي، وقد يكون الشمبانزي هو الأقرب للبشر أكثر من كونه قريبًا للغوريلًا. ويُعَد كل من الشمبانزي والغوريلا -وهما من القِرَدة الأفريقية- أقرب لإنسان الغاب، و لقرد الجيبون (من الأسرة هايلوباتز) (Hylobates)، وهما نفس فصيلة الجنسين الآخرين، اللذان يُعدَّان من القردة الآسيوية، كما أن البشر والشمبأنزي لم يعيشَا أكثر من حوالي (خمسة ملايين عام) وفقًا للبيانات الأحفورية والجزيئية.

وقد وَثَّقت الدراسات الميدانية طويلة الأجل بأن تلك المخلوقات ذكية للغاية، وبطيئة في النضج، وتخضع لفترة طويلة للتدريب الاجتماعي، وتعيش وقتًا طويلًا، وينتظم معظمها في مجتمعات على مدار السنة، والتي تتطلب دمج طبقات عمرية وجنسية واسعة الاختلاف. فلا يقتصر الأمر على البالغين من الذكور والإناث، بالإضافة إلى ذلك فإنها أيضًا تمتلك أنماط ترابط اجتماعي واضحة المعالم، و تختلف في أنواعها بشكل واسع يتراوح بين (١٨٧) نوعًا.

وباستخدام أسلوب المقارنة التاريخية التي تم وصفها بتحليل التصنيف التفرع الحيواني علم الأحياء. وقد بدأت ماريانسكي (Maryanski) في دراسة بيانات العلاقات الاجتماعية الموجودة بين أجناس القردة الكبيره في الوقت الحالي؛ وهي: الشمبانزي، والغوريلا، وقِرَدة الجيبون، وإنسان الغاب (الأيبز)، وتبعًا لهذا الإجراء فقد عَرَّفت ماريانيسكي ((Maryanski أولًا: مجموعة محدودة من الكيانات التي تُعدُّ إحدى الخواص المهمة للبناء الاجتماعي للقردة. وهي قوة الروابط الاجتماعية بين وضمن الطبقات الجنسية والعمرية في جميع أجناس القِرَدَة؛ لمعرفة مخطط المجتمع *(LCA) (آخر سلف شائع) ما إذا كان هناك انتظام بنيوي في تنميط العلاقات. فاذا أظهرت الأنواع العلائقية التي تعيش في بيئات مختلفة الصفات مميزة مشتركة، فإنه يمكن افتراض أن السلف الشائع الأخير كان

(٢٢) ألكسندرا ماريانسكي "السلف الأخير: نموذج الشبكة البيئية على أصول المجتمع البشري،" التقدم في البيئة البشرية، النسخة ل، فريز، مجلد ١ (١٩٩٢م)، ص، ١-٣٢؛ ألكسندرا ماريانسكي وجوناثان تيرنر، القفص الاجتماعي (ستانفورد، كاليفورنيا: مطبعة جامعة ستانفورد، ١٩٩٢م)، وألكسندرا ماريانسكي، "البنية الاجتماعية للقِرَدة الإفريقية: هل هناك قوة في العلاقات الضعيفة؟" شبكات التواصل الاجتماعي ٩ (١٩٨٧م): الصفحات ١٩١-٢١٥. للاطلاع علي أحدث بيان لهذه الحجة، انظر: جوناثان هـ. تيرنر وألكسندرا ماريانسكي، على أصول المجتمعات حسب الانتخاب الطبيعي (بولدر. كولورادو: مطبعة برادايم، ٢٠٠٨م).

يمتلك أيضًا ميزات علائقية مماثلة. ولإجراء هذه العملية؛ قامت (ماريانسكي) Maryanski بعمل مراجعة شاملة لميول الترابط الموجودة عند القردة التي تعيش تحت أوضاع ميدانية طبيعية؛ لمحاولة توصيف بِنَى شبكتهم الاجتماعية؛ بهدف الكشف عن المخطط التفصيلي لمجتمع السلف الأخير الشائع (LCA) (س خ ش)، حتى القردة أو البشر في الوقت الحالي.

ولتقييم صحة هذه الأنماط العلائقية، اتبعت (ماريانسكي) Maryanski إجراءات معيارية من تحليل لتصنيف التفرع الحيوي من خلال تضمين سلالة خارج المجموعة، وهى عينة من شبكات اجتماعية لقرد من العالم القديم لمقارنتها بشبكات القردة، كما أخضعت بياناتها لافتراضين أساسيين مرتبطين بأسلوب المقارنة، وهما: (١) فَرْضِيّة العلاقة التي تُقَيِّم بشكل غير مباشر ما إذا كانت الأنماط المشتركة للعلاقات الاجتماعية حدثت عن طريق الصدفة أم لا. (٢) فرضية الانتظام التي تُقَيِّم -بشكل غير مباشر- ما إذا كان حدوث التعديلات من السلف حتى السليل تُشَكِّل دليلًا على وجود تحيز منهجي، ولا يتم اكتسابها بطريقة عشوائية، وتقدم كل من الفرضيتين دعمًا تجريبيًّا قويًّا لإحياء ماريانسكي(Maryanski) لأنماط التنظيم المتعلقة بالسلف بين القردة العليا.

وقد أدى تحليل ماريانسكي إلى نتيجة صادمة، فكما هو الحال في القردة المعاصرة الأقرب للبشر من حيث تطور السلالات، يوضح مجتمع السلف الشائع الأخير (LCA) وجود بنية تنظيمية مانعة تتكون من مستوًى منخفض نسبيًّا من النشاط الاجتماعي، وانعدام التواصل بين الأجيال في مجموعات بمرور الوقت.

وتُعدُّ الأسباب القريبة لوجود هذه البنية مزيجًا لعدد من القوى التي لا تزال موجودة في جميع الشبكات الاجتماعية للقردة الحية، وهي: (أ)التحيز المنهجي نحو الإناث التي تنتقل من المجموعة التي تولد فيها عند سن البلوغ، والتي هي على العكس من السعادين حيث ينتقل الذكور فقط بينما تبقى الإناث لتقوم بتشكيل سلالة منحدرة من الإناث عبر الأجيال في جيش من القردة. (ب) نمط التزاوج من أكثر من أنثى الذي يجعل من الصعوبة فهم الأبوة (باستثناء الجيبون). (ج) ضعف الروابط الاجتماعية بين معظم البالغين، بالإضافة لذلك، فقد أشارت إلى أن التعديلات من البنية الاجتماعية للسلف الشائع الأخير (LCA) يحدث بعد انفصال السلالات عن جماعة السلف،

* (LCA) (س. خ. ش): السلف الأخير الشائع.

وتتضمن النزعة المستقبلية في تطور القردة العليا لضغوط الاختيار للسلوك الاجتماعي المتزايد على ما يبدو من أجل استمرار بقاء القردة العليا ونجاح العملية الإنجابية. وفي الواقع لقد خضع عدد ضخم من أنواع عديدة من الأيز منذ حوالي (١٠-١٨) مليون سنة مضت إلى تناقُص هائل وانقراض، وهذا ما أثبته السجلُّ الأُحفوري، وربما بسبب تطوير السعادين لجانب غذائي تنافسي مع القردة. ومهما كان تفسير ذلك، يؤكد السجل الأحفوري أن القردة بدأت في الخضوع لتعديلات تشريحية من أجل التكيف مع البيئات الثانوية في الموطن الشجري عندما قام السعادين بسلبها بيئتها، وهذه التعديلات تدور حول نمط التنقل الغريب الذي يتضمن التحرُك بين الأشجار عبر الفضاء المحيط بها باستخدام الأيدي، بالإضافة إلى خصائص الأبنية العظمي التي تميز تشريح كل من القردة والبشر، وتظل السعادين هي الرئيسات المهيمنة في الوقت الحالي، بينما تظل القردة الأقلية الصغيرة المتميزة، وهي القردة العليا غير البشرية، والمتبقي منها قليل كالشمبانزي، والغوريلا، وإنسان الغاب، والجيبون في الوقت الحالي، وهي نتيجة لإخفاقات تطورية وبقايا تطورية بسبب عددهم القليل وبيئاتهم المـُخَصَّصة لهم والمحدَّدة.

وتكمن أهمية هذا الاستنتاج في التفكير حول الطبيعة البشرية. فإذا كانت تلك المخلوقات تظهر الأقرب للبشر والميل نحو روابط اجتماعية ضعيفة نسبيًا، فمن المرجح أن البشر أيضًا قد يكون لديهم هذا الميل كجزء من ترميزهم الجيني، وعلى أية حال، ما هو المقصود بالروابط الضعيفة والمائعه؟ فقد أكدت ماريانيسكي في استعراضها للبيانات أن لدى السعادين العديد من الروابط القوية، خاصة بين الإناث التي تعيش في شبكات عالية الكثافة والمرتكزة على الأم. ففي مجتمعات السعادين، تتفرق الذكور إلى مجموعات أخرى في سن البلوغ، بينما تبقى الإناث لتقوم بتشكيل عدد كبير يصل إلى أربعة أجيال من السلالة المنحدرة من الإناث المرتبطة بقوة، والتي تتكون من الجدات الكبرى، والجدات، والأمهات، والأخوات، والعمات، وبنات العم، والبنات، وتحرز هذه الروابط الممتدة للإناث الاستمرارية بين الأجيال، كما تُعدُّ الأساس لمعظم مجتمعات السعادين. و على العكس من ذلك تُظهِر الإناث في مجتمعات القردة نمطًا نادرًا من التفرق؛ حيث تترك الإناث في سن البلوغ المجتمعات التي وُلدت بها إلى الأبد. وبالإضافة إلى ذلك ترحل الذكور في مجتمعات القردة باستثناء الشمبأنزي عن المجتمعات التي وُلِدت بها، وتهاجر إلى مجتمع جديد، وبالتالي مع تفرُّق كِلا الجنسين

في مرحلة البلوغ تتقطع معظم روابط القرابة، ويتم فقد الاستمرارية بين الأجيال؛ ونتيجة لذلك تصبح هناك بنية اجتماعية مائعة نسبيًا مع تنقل الأفراد من البالغين كمجموعة أفراد متنقلة داخل جماعات محلية أكبر.

وفي آسيا، يُعدُّ إنسان الغاب مُنْعَزِلًا تقريبيًا، ونادرًا ما يتفاعل مع الآخرين، وتُعَد علاقة الأم بصغيرها الذي تَعُولُه هي الوحدة الاجتماعية الوحيدة الثابتة. وفي إفريقيا يعدُّ الشمبانزي والغوريلا ذا مَيل اجتماعي أكثر، حيث تعيش الغوريلا في سلام مع بعضها البعض في مجموعات صغيرة، إلا أن الأفراد تتمتع باكتفاء ذاتي تام، حيث إنه من غير المألوف ملاحظة أي تفاعلات اجتماعية علنية بين البالغين وفيما يخص الشمبانزي، فإن الشائع يعتبر من ضمن أقرب الأقارب للبشر، وقد تستقل الإناث البالغة ذاتيًا، وتقضي معظم أيامها في التِرحَال وحدها مع أبنائها الذين تعولهم. وعلى العكس من ذلك، تُعدُّ ذكور الشمبانزي البالغة أكثر اجتماعية نسبيًا. ومن المرجح أن يكون لديها القليل من الصداقات الفردية مع الذكور الأخرى. وعلى العكس من الإناث التي تأتي من الخارج في جماعات محلية، و تكون غريبة عن بعضها البعض. وتنشأ ذكور الشمبانزي في هذا المجتمع المحلي الأكبر، كما تُشَكِّل علاقة الأم بابنها روابط قوية، باستثناء علاقة الأم بأبنائها الصغار؛ ولذا فإنه لا توجد أي تجمعات ثابتة في مجتمعات الشمبانزي. وهكذا تظل ذكور الشمبانزي منفردة ومعتمدة على ذاتها، ومفضلةً للتنقل بشكل مستقل في المكان، وداخل جماعات محلية كبيرة ومائعة.

وهكذا، إذا برهنت القردة الأفريقية التي تعدُّ الأقرب للبشر في وجود نزعات سلوكية من الفردية، والاستقلالية، والتنقل، والروابط الاجتماعية الضعيفة، ويكون من المرجح حسبما أكدت ماريانسكي، أن نزعات الترميز الجيني هذه هي جزء من طبيعة الإنسان أيضًا، وإذا قمنا بدراسة النمط المجتمعي الذي يتطور الإنسان بداخله بصفته عبارة عن أنواع، وهو مجتمع الصيد والجمع يتضح اقترابه من النمط الموجود بين القردة العليا، وبخاصة القردة الأفريقية؛ حيث يوجد تنقل كبير ضمن النطاق الداخلي الأكبر للجماعات. وهناك درجة عالية من الفردية والاستقلال الشخصي، وباستثناء المتزوجين تتضح الروابط الاجتماعية المفككة والمائعة.وأكد تماريانسكي على المستوى البيولوجي بأنه ربما لا يوجد قوة بيولوجية تدفع لنشاط اجتماعي عظيم وترابط اجتماعي جماعي الأسلوب، والذي كثيرًا ما ينسبه علماء الاجتماع إلى الفلسفة الاجتماعية بشكل عام في الواقع وإلى طبيعتنا.

ومن خلال العمل المشترك مع جوناثان تيرنر، فقد وصفت ماريانسكي الآثار المترتبة عن طريق استعراض لمراحل التطور المجتمعي التي تعتبر مرحلة الصيد والجمع كمرحلة من مراحل التطور، حيث التَطَوَر الترميز الجيني الأساسي للإنسان. ففي هذه المجتمعات التي توجد في مجتمعات صغيرة، تدل الجماعات التي ترتحل داخل الأراضي على ميوعة الروابط الاجتماعية وتفككها نوعًا ما بين أعضائها، ووجود استقلالية فردية عالية، واكتفاء ذاتي، وانتقال من مجموعة إلى أخرى. وبسبب نمو المجتمع السكاني للإنسان في الحجم وإجبار الإنسان على اتخاذ البستنة الأولى، ومِن ثَم الزراعة؛ لإعالة نفسه، فاستقر لزراعة الأرض؛ مما ترتب على هذه العملية أن حبس نفسه في أشكال اجتماعية ثقافية تعدت الاحتياجات الأساسية للحرية، وبعض درجات الاستقلال الذاتي، والروابط المائعة داخل المجتمع الأكبر للجماعات المحلية.

وهكذا، بدأ التطور الاجتماعي الثقافي في التحكم في الطبيعة الأساسية للإنسان. فكما استنتجت ماريانسكي وتيرنر أن أنظمة إدارة السوق في العصر الصناعي والعصر ما بعد الصناعي بالرغم من العديد للمشكلات الواضحة، إلا أنها أقرب للنوع الاجتماعي البدائي الذي تَطَوَر الإنسان فيه بيولوجيًا أكثر من مرحلة البستنة والإصلاح الزراعي على الأقل؛ حيث إنها توفِّر خيارات أكثر، وتسمح بل وتشجع على الفردية. وتم بناؤها بطرق تجعل أغلب الروابط الاجتماعية مائعة وعابرة، أو أنها تحد من الروابط القوية خارج نطاق الأسرة بالنسبة للكثير. ويشير كل من ماريانسكي وتيرنر إلى أنه من وجهة نظر العديد من علماء الاجتماع في الماضي، وفي الوقت الحاضر، يتم النظر إلى خصائص السلوك البشري التي تطلبها المجتمعات التي يحركها السوق على أنها أمراض تنتهك الطبيعة الأساسية للبشر. وبالنسبة لماريانيسكي وتيرنر بدأ التطور المجتمعي منذ حقبة الصيد والتجميع، ومرة أخرى فقد تم خلق ظروف أكثر توافقًا مع الطبيعة الأساسية للقردة العليا البشرية بوصفهم قردة متطورين.

وعلى الرغم من أن هذه الاستنتاجات متضاربة إلى حدٍّ ما كما هو واضح، إلا أن الغرض من تحليل ماريانسكي جلي وظاهر. فإذا قمنا باستخدام المناهج التطورية من وجهة نظر علم الأحياء فإنه مثل تحليل التصنيف التفرع والمقارن بين الأنواع مع أقرب الأقرباء بيولوجيًا للإنسان يمكننا الحصول على استنتاجات مدروسة بشأن الطبيعة البشرية، ثم يمكننا بعدها استخدام هذه

الاستنتاجات لتحديد ما إذا كان التطور الاجتماعي الثقافي متوافقًا أم غير متوافق مع الإرث البشري. وانطلاقًا من هذا التحليل يكون من الممكن دراسة الأنظمة المؤسسية الرئيسة، مثل القرابة، ونظام الحكم، والدين، والاقتصاد لتحديد كيف ولماذا تطورت في النمط المجتمعي الأول؟ كالصيد، والجمع، وكيف تفاعلت مع الطبيعة الأساسية للبشر بوصفهم مخلوقات متطورة مرت بعدة مراحل مختلفة من التنمية المجتمعية؟

وربما ينبغي أن نسلط الضوء على افتراضات عمل منهج ماريانسكي فيما يأتي:

١- يمكن لأبناء العمومة الأقرب للبشر من القرود أن تكون بمنزلة مرآة بعيدة لرؤية السلف الشائع الأخير (LCA) للبشر والقردة العليا من خلالها.

٢- من خلال إجراء تحليل تصنيف لرؤية الخصائص التي يمتلكها أبناء عمومة الرئيسات البشرية، لا سيما بِنَي الشبكات الخاصة بهم ؛ حيث يصبح من الممكن تمييز ما كانت علية أنماط التنظيم للسلف الشائع الأخير (LCA'S) لتنظيم أنماط دورة الحياة .

٣- كان هذا السلف منعزلًا فعليًّا، مع وجود عدد من الروابط الاجتماعية القوية -إلى حد ما- خلف علاقة الأمهات بأبنائها، إلا أن هذه العلاقات تنقطع على الأرجح عند انتقال الأبناء إلى مجتمعات جديدة في سن البلوغ.

٤- ينبغي أن يمتلك البشر في الوقت الحاضر بعضا من هذه البرامج البيولوجية في جيناتهم، وبالتالي، قد لا يكون البشر اجتماعيين بالقدر الذي غالبًا ما يتم افتراضه.

٥- ألزم هذا الاستنتاج علم الاجتماع بإعادة النظر في بعض تحيزاته حول طبيعة البشر وأساس المجتمعات البشرية، حيث إن السلف الشائع للبشر وللقردة العليا لم يكن اجتماعيًّا، ولم يكن لديه بِنَي لجماعات دائمة. وفي الحقيقة، لم يكن لديه نظام قرابة بعيدًا عن الأم وابنها غير الناضج، وإذا كان هذا هو الحال، فيمكن -إذن- للتحليل التطوري أن يشير إلى كيف أمكن تخفيف قيود ميراث الرئيسات البشرية بحيث يستطيع البشر في الوقت الحاضر تشكيل روابط قوية داخل جماعات؟ وينبغي أن تتضح هذه التَغَيرات عن تكوين السلف من خلال مقارنة أدمغة القردة العليا بالدماغ البشري، ولكن من دون الافتراضات التقليدية لعلم النفس التطوري وتركيزها على وحدة القياسات.

جعل التنظير التطوري أكثر داروينيًا، وأكثر بيولوجيًا

Making Evolutionary Theorizing More Darwinian, More Biological

وكما هو واضح، فإن مناهج التنظير المستوحاة من أفكار داروين مختلفة للغاية. فبالرغم من أن مبحث الاجتماع الإحيائي وعلم النفس التطوري يرتبط بعضه ببعض ارتباطا وثيقًا، إلا أن خارج هذا الاتجاه من التنظير، تختلف عن الاتجاهات الداروينية (Darwinian approaches). وربما تكون تلك الاتجاهات المقارنة التي تدرس البشر ومجتمعاتهم حريصة على معرفة أين يتلاقى البشر مع مجتمعات الأنواع الأخرى، وأين يتباعد عنهم، وهي الأكثر تبشيرًا. ويبحث اتجاه مكاليك المقارن (Machalek's comparative approach) عن مشكلات التصميم التي ينبغي للاصطفاء الطَّبيعِيّ أن يتغلب عليها من أجل إنتاج مجتمعات كلية، وبعزله عن هذه المشكلات. وقد أدرك مكاليك القوى الاجتماعية الرئيسة لتنظيم الأنماط الواسعة لنطاق التنظيم الاجتماعي بشكل عام. ويؤكد في تحليله أنواعا عديدة، وأدرك بعد نظر علماء علم الاجتماع الوظيفي الذين أقروا جميعًا بأن التطور يقوم بتوليد مجتمعات كلية من خلال التمايز ونماذج التكامل الجديدة. سواء أكان المجتمع يتكون من الحشرات أم من البشر. وفي الواقع يقوم تأكيد هربرت سبنسر على الأنظمة الفوق عضوية كموضوع للبحث بالتدليل على علم الاجتماع الذي يدرس جميع الحيوانات، وأشكال الحياة التي تُشَكِّل مجتمعات تتكون من كائنات حية.

كما يسترجع اتجاه ماريانسكي (Maryanskis approach) التنظيري للمسألة التي دائمًا ما كانت بارزه في عملية التنظير، وهي الطبيعة البشرية، إلا أن منهجها يحرر التحليل من الوضع المغال فيه للنظريات حول احتياجات ودوافع البشر، حيث يستخدم تحليل التصنيف الفرعي للرجوع بالوقت إلى الوراء؟ والنظر إلى سمات السلف الشائع الأخير للقردة والبشر. وبذلك ترتبط الاستنتاجات حول الطبيعة البشرية بالبيانات المأخوذة من شبكات الرئيسات؛ لإعادة إحياء طبيعة النشاط الاجتماعي بين أنواع القردة العليا التي ينحدر منها كل البشر. وتختلف الصورة التي تظهر عن السلف البعيد عن البشر على أنهم حيوانات تتسم بالاستقلالية الفردية، والتنقل، والتفكك، وضعف الروابط التي لا يمكنها تشكيل مجموعات دائمة تمامًا عن الصورة الشائعة بين كل من علماء الاجتماع والجمهور العادي حول البشر على أنهم مهتمون بالجماعات والجماعة، ومما لا شك فيه جعل التطور البشري أكثر اجتماعية من السلف الشائع الأخير للقردة، وما قام به من مقارنتها بالقردة، إلا أن

الاصطفاء الطبيعي لا يمحو الصفات القديمة، ولكن بدلًا من ذلك يضيف صفات جديدة عليها. وكانت النتيجة أن البشر حيوانات فردية وضعيفة الترابط أضفى عليها الاصطفاء الطبيعي مظهر السلوك الاجتماعي. ويوجد في نواح عدة صراع في التشريح العصبي للبشر بين الفردية والجماعية التي لها آثار كبيرة على كيفية تصرف البشر وتفاعلهم وتنظيمهم.

وحقًا تعالج هذه النماذج المستوحاة من أفكار داروين (Darwinian-inspired) المسائل الاجتماعية التقليدية، وتدل على استمراريتها في علم الاجتماع، حتى وإن كانت تأتي في ظل الانتقادات ممن لا يعتقدون بضرورة وجود الديناميات البيولوجية في تطوير النظريات السيسيولوجية. ومع ذلك، حتى في مواجهة الانتقادات المستمرة يكون من غير المحتمل أن يذهب هذا الاتجاه من علم الاجتماع التطوري بعيدًا. فهو ليس ببدعة كما يزعم البعض، بل جهد واسع الانتشار لتطوير علم اجتماع أكثر تعددية في الاختصاص، والذي يعترف بأن البشر حيوانات، وبالتالي تطوروا مثل جميع الحيوانات الأخرى، مما يجعل القوى البيولوجية ذات صلة بالتنظير السيسيولوجي.

الخاتمة

Conclusion

من وجهة نظر علماء الاجتماع، لميكنة إعادة إحياء التنظير التطوري في نماذجهم المرحلية للتطور الاجتماعي، أو في تبنيهم لأفكار رئيسة مأخوذة من التوليفة الحديثة الموجودة في نظرية النشوء والتطور كشيء جيد، وكان هؤلاء النقاد يأملون في أن يبقى التنظير التطوري. وبصرف النظر عن حجته، إلا أنه قد اندثر ولم يعد ذلك أو لم يكن سوى تفكير حالم. ومثلما حاولتُ أن أوضح آنفًا؛ تعتبر بعض المفاهيم عن المراحل مفيدة ليس فقط كتاريخ حول الكيفية التي تطورت بها المجتمعات البشرية على مدار قرون طويلة، ولكن تُعدُّ أيضًا البيانات المجمعة من خلال تتبع مراحل هذا التاريخ مهمة لتقييم معقولية التنظير على المستوى االوحدات الكبرى. كما أن أكثر الأفكار المستوحاة من الداروينية (Darwinian-inspired) ستبقى بعيدة عن العلوم الاجتماعية. فعلماء الأحياء وعلماء علم النفس من بعدهم، حتى الاقتصاديين يعتقدون أن كل هذه المجالات ليست في مجالات المقارنة بعلم الاجتماع. فإذا قامت هذه العلوم بإعادة الأفكار كان من الأفضل لعلماء الاجتماع أن يكونوا على استعداد للتعامل معها. فبدلًا من رفض التنظير الموجه بيولوجيًا، يجب على علماء الاجتماع تطويعه

لأهدافنا، وبدلًا من كونه مُهَدِّدًا، كما يحدث للكثير، فإنه ينبغي على علماء الاجتماع رؤية إعادة إحياء البيولوجيا في علم الاجتماع بوصفها فرصة للقيام ببعض التنظير، والبحث الجديد، والممتع الذي لا يجعل من الأخطاء واضحة جدًّا في البيولوجيا الاجتماعية، وعلم النفس التطوري. وعليه، يحتاج علماء الاجتماع إلى إثبات المواضع التي يمكن للتنظير البيولوجي أن يكون مفيدًا فيها، ومُكَمِّلًا للتفسير الاجتماعي التقليدي، والمواضع التي يكون فيها المنطق البيولوجي ليس مفيدًا، وبهذه الطريقة لن يرتكب علم الاجتماع الخطأ نفسه كما فعل في بداية القرن العشرين؛ حيث قام بالتخلص من الجوانب السيئة بالإضافة إلى الجوانب الجيدة في محاولته للتطوير.

ثبت المصطلحات

أولًا: عربي – إنجليزي

أ

إجباري	constraint
أخلاقي	immoral
إدارة التوتر	tension management
أهداف علم الاجتماع	goals of sociology

ب

البناء الاجتماعي	social structure

ت

تاريخي	Historical
التبادل	exchange
التحليل	analyzing
التحليل السوسيولوجي	sociological analysis
تخطيط	planning
التزام	obligation
تعريف	definition

التعصب	fanaticism
تعليم	education
التغيرات الحديثة	modern changes
تقسيم العمل	division of labor
التكافل الاجتماعي	social solidarity
تكيُّف	Adaptation
تنمية	development
توقعات	expectations

ث

الثراء	wealth

ج

جماعات	groups
جماعة العمل	working group

ح

الحاجات	needs
الحاجة إلى الأمن	the need for security
حقائق اجتماعية	social facts
حل المشكلات	problems solving

د

الدافعية	motivation
دخل	income
الدور	role

ر

رأسمالي	Capitalism
رفع مستوى المعيشة	raise the standard of living

س

السكان	population
السياق	context

ش

الشروط الفنية	technical conditions

ض

الضعف	weakness

ظ

الظواهر	phenomena
الظواهر الاجتماعية	social phenomena

ع

عضوية	membership
العلاقات	relationships
علم الاجتماع النظري	theorctical sociology

ف

الفعل	actions
الفوارق الطبقية	class differences

ق

قانون	Law
قرارات	decisions
قضايا	issues
القوميات	nationalities
لوائح تنظيمية	organizational regulations

م

المجتمع	community
المساواة	equality
مستوى التحليل	Level of Analysis
مقارنة	comparison
المكانة الاجتماعية	social status
منظمة	organization
مهنة	profession
الموارد البشرية	human resources
المؤسسات	institutions
ميادين	fields

ن

النظام العالمي	global system
نظرية	theory
نظرية الاختيار العقلاني	rational choice theory
النُّظم التقليدية	traditional systems
النفعية	utilitarian

و

الواقع الاجتماعي	social reality
واقعية	realistic
الوظيفية	Functionalism

ي

يعاقب	punish
يعتمد	dependent

ثانيًا: إنجليزي - عربي

A

Action Theory	نظرية الفعل
actors	ممثِّلين
adaptation	التكيُّف
Analytical Marxism	الماركسية التحليلية
Anthropologist	الأنثروبولوجي

B

Basic	أساس
Basic Elements	العناصر الأساسية
Behaviorism	السلوكية

C

Comparative	مقارنة
Condition	شروط
Conflict	صراع
Conflict Theory	نظرية الصراع
Contemporary	المعاصر
control	ضبط
Costs	تكاليف
Critical	نقدي

D

definition	تعريف
distribution	التوزيع
Distrust	عدم الثقة

انهيار	Downfall
E	
الصراع المبكر	Early Conflict
بيئي	Ecological
اقتصادي	Economics
تبادل	Exchange
F	
التحليل الوظيفي	Functional Analysis
الوظيفية	Functionalism
G	
أهداف	goals
H	
تاريخي	Historical
I	
مهمّ	important
قضايا	Issues
L	
قانون	Law
مستوى التحليل	Level of Analysis
M	
مستوى الوحدات الكبرى	Macro- Level
سوق	Market
مستوى الوحدات الصغرى	Micro-Level
مذهب الوظيفية الحديث	Modern Functionalism
أخلاقي	Moral
الأكثر أهمية	Most Important

O

organizations	تنظيمات

P

power	قوة
Processes	عمليات

R

Roles	الأدوار

S

Shift into	التحول إلى
Small Numbers	الأعداد الصغيرة
social structure	البناء الاجتماعي
Sociological	تحليل اجتماعي
Sociological Thinking	التفكير الاجتماعي
Sociology	علم الاجتماع
solidarity	التضامن
State Power	سلطة الدولة
System	نظام

T

Theories	نظريات
Transition	الانتقال
Types of Rewards	أنواع المكافآت

U

Utilitarian	النفعي

V

Value	قيمة
Violence	عنف

W

Weakness	ضعف
without	بدون

كشّاف الموضوعات